

الدكتور حسين المحاج حسن

أستاذ الأدب العربي والحضارة العربية
بالجامعة اللبنانية

النظم والرسالة (مسيح)

ج ٢



النظم لاسلاميتها

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

م 1987 - 1406

طبع وتنفيذ

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع



بيروت - الحمرا - شارع أميل أده - بناية سلام

هاتف : ٨٠٢٤٦٠ - ٨٠٢٤٧٧ - ٨٠٢٤٨٢

بيروت - المصيطبة - بناية طاهر هانم - ٣٠١٣٠ - ٣١١٣١٠

ص . ب : ٦٣٦٦ / ١١٣ تلوكس . LB - ٢٠٦٨٠ - ٢٠٦٦٥ لبنان

الدكتور حسين الحاج حسن
أستاذ الأدب العربي والمصائر العربية
بالمجامعة اللبنانية

النظم الاسمية

الإهداء

إلى ولدي خالد
في عيدك السادس عشر لك مني أحسن هدية «نظم
إسلامية» .

آملاً أن تجد في هذا الكتاب ، معلم الشريعة الإسلامية
المادفة إلى تنظيم الحياة الإنسانية في كل عصر ومصر
والمنهج الصحيح لك ولجميع الشباب الطموح المتعطش
لمعرفة الحقيقة والصراط المستقيم .

أتمنى لك حظاً سعيداً وعمرًا مديدةً .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى في كتابه العزيز:

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ . . .﴾ الزمر الآية 22

﴿فَمَنْ يَرِدَ اللَّهُ أَنْ يَهْدِي إِلَيْهِ يَشْرَحُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الانعام الآية 125

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ الاسراء الآية 9.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكَ الْمُنَّكِمُونَ إِنَّ تِبْارِعَتُمْ فِي شَيْءٍ فَرِدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ النساء الآية 59.

قال النبي موسى لقومه عليه السلام :

﴿يَا قَوْمَ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكِّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ يومنس الآية 84.

وجاء في القرآن الكريم عن النبي عيسى عليه السلام :

﴿فَلَمَّا أَحْسَنَ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مِنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْجَهَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ أَمَنَا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾ آل عمران الآية 52.

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم والصلوة والسلام على رسوله محمد بن عبد الله سيد الدعاء إلى الحق وإلى الطريق المستقيم وعلى آله وصحبه وسلم .

الإسلام دين كامل يشمل الدين والدولة معاً ، حدد علاقة الإنسان بربه عز وجل كما حدد علاقته بمجتمعه ، وقد انطوت نصوصه وتعاليمه على مبادئ أساسية في جميع مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأدارية والعسكرية والتربوية والصحية .

ومنذ تكونت دولته الأولى في عصر الرسول ﷺ جاء بأسلوبه الخاص لينسق تنسيقاً دقيقاً بين العقيدة والتشريع وبين الروحيات والماديات ، وهذا ما تميز به الإسلام بالتوسيط العادل بين مطالب الروح ومطالب الجسد . فهو لا يأمر الآخذ به أن يحرم نفسه من متعة مادية ولا ملذة جسدية ما دام يتناولها من طريقها المشروع وفي حدها المعتدل . جاء في القرآن الكريم : « وابسغ فيها أثاك الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك » .
القصص 77 .

وإن هذا التوسط بين الروحانية المترفة والمادية المغالبة أمر تستدعيه حياة المجتمعات السعيدة الهاشمة ، وهو ما قبله الفطرة الإنسانية . وقد أدى الدين الإسلامي مكملاً للشرائع والأديان التي جاء بها النبيون قبله ، فأوحى الله عز وجل إلى رسوله محمد عليه السلام لينشر الإسلام ويبلغ الناس ما أنزل إليه من رب العالمين . يقول الله مخاطباً محمداً ﷺ : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأبيوب ويونس وهارون وسلميان وآتينا داود زبورا . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكلينا . رسلاً مبشرين ومنذرين لثلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيمًا » النساء - 165 .

وربما يسأل سائل إذا كان الله قد أوحى إلى محمد ﷺ كما أوحى إلى النبيين من قبله فلماذا تختلف هذه الأديان جميعها ؟ ...

إن القرآن الكريم قد عالج هذا الاعتراض فقدم البديهيات العلمية والمنطقية لتلقي ضوءاً على واقع الأديان الحاضرة وتميز الحق من الباطل . من هذه البديهيات : الدعوة إلى وحدانية الله . لذلك أمر الله رسوله محمد ﷺ بدعة اليهود والنصارى على هذا الأساس .

« قل يا أهل الكتاب⁽¹⁾ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخدّ بعضنا بعضاً أرباباً⁽²⁾ من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون »⁽³⁾ . ومنها : ان الدين واحد ولا يجوز الاختلاف فيه . أما الخلاف الذي حصل عبر العصور كان سببه البغى والعدوان على الدين وتحريف الشريعة من قبل القائمين على الأديان بما يوافق مصالحهم الخاصة في هذه الدنيا . فكانت رسالة النبي محمد ﷺ إظهار هذه الحقيقة ، ودعوة الناس جميعاً ليجتمعوا على الدين الاسلامي . قال تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائم بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغياناً بينهم ، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب . فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والاميين⁽⁴⁾ أسلتمم فإن أسلمو فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد »⁽⁵⁾ .

وكما هو واضح أن الرسالة الاسلامية غايتها إصلاح ما طرأ على الأديان من بدء مستحدثة والرجوع إلى أصلها الأول ، مع الآيات بشرعية كاملة تسخن ما قبلها من الشرائع ، وهذه الشريعة متزامنة مع الحياة الإنسانية ومتتفقة مع ما اقتضاه التطور العقلي للإنسان وتصلح لكل زمان ومكان ، وإنها هي الشريعة المقبولة عند الله التي لا يقبل غيرها . فالأنظمة الاسلامية جاءت لتنظم الحياة الإنسانية من جميع نواحيها⁽⁶⁾ . ولا ريب أن الاسلام اليوم بحاجة إلى بيان مزاياه الأصيلة وفضائله الإنسانية أمام العالم الغربي ، الذي وصفوه بالتحضر ، ودحض التشوّهات التي أصبت به من بعض المستشرقين واتبعهم في بلادنا دون بحث ولا تمحيص . وإظهار حقيقة الاسلام بما قدمه من علاج وتصحيح لأزمات انسانية مستعصية تسمى بالانسان عن طغيان الشهوات والميول الفاسدة .

نقول لهؤلاء أن عليهم أن يميزوا بين النظم التي انفرد بشرعها الاسلام ، وطبعها بطابعه الأصيل ، وبين النظم الأخرى التي وجدتها في البلدان المفتوحة فاقر منها بعضها وأدخل التحسين على البعض الآخر ، تبعاً لقدر انسجامها مع ما امتاز به هذا الدين من التشريع بين التشريع الصحيح والتوجيه السليم .

إن أي إنسان نال قسطاً من العلوم ، ودرس الاسلام دراسة خالية من تأثير الوراثة والعاطفة ، تنقاد نفسه بقوّة إلى اعتناقه والأخذ بتعاليمه ، لما يرى فيه من الحقائق التي تسعده

(1) أهل الكتاب : اليهود والنصارى . وسواء : أي عدل وانصاف .

(2) أرباباً جمع رب وهو السيد الذي يطاع فيها يأمر وينهى ويراد به هنا من له حق التشريع من تحرير وتحليل أي لا تعليموا أحبّاركم ورهبانكم فيما أحدثوا من التحرير والتخليل دون الرجوع إلى شريعة الله .

(3) آل عمران الآية 64 .

(4) المشركون من العرب الذين لا كتاب لهم .

(5) آل عمران الآية 18-19-20 .

(6) جاء في الحديث الشريف : حلال محمد ﷺ حلال إلى يوم القيمة وحرامه حرام إلى يوم القيمة .

الناس و يجعلهم يعيشون في طمأنينة خالصة وارياح نفسی یشفی الصدر ویل الظمة الروحی .

والحقيقة ان النظم الاسلامية شيء المسلمين شيء آخر . وقد تقلب هذه الصورة الرائعة التي يتلقاها باحث الاسلام الى صورة مشوهة عند التأمل في حالة بعض المسلمين في هذه الأيام وقد أصاب حكيم الاسلام الشیخ جمال الدين الأفغاني عندما رأى سوء حال المسلمين يسلل حجباً كثيفاً بين شعوب أوروبا والاسلام . ومن أقواله في هذا المجال :

« إذا أردنا أن ندعوا أحمرار أوروبا إلى ديننا يجب علينا أن نقنعهم أولاً أننا لسنا مسلمين فإنهم يرون وراءه أقواماً فشا فيهم الجهل والتخاذل والتواكل ... فيقولون لو كان هذا الكتاب حقاً مصلحاً لما كان أتباعه كما نرى » .

ولكننا نرى اليوم في البلاد الاسلامية هبة كريمة لاحياء تراث الاسلام وإظهار الحقيقة واضحة على الملا . وذلك بجهود جهابذة من العلماء المخلصين لدينهم ومجتمعهم ، وبعض الجمعيات الدينية والمعاهد التي يدرس فيها الاسلام على وجهه الصحيح .

ولقد كان غرامي بهذا الموضوع قدیماً ، ومن حسن الصدف أن كلفوني بتدريس هذا الرصید « نظم اسلامیة » في الجامعة اللبنانية كلية الآداب فروع البقاع منذ عام 1979 . فاعتمدت في السنة الأولى على كتب من سبقي في هذا الموضوع ، وقدمت الى الطلاب أمالي هيأتها لهم وهذبتها وأضفت إليها ما أضفت حتى أن لها أن تخرج كتاباً من هذه الدار الكريمة « المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع / مجد / في بيروت .

والحقيقة أنی استفدت كثيراً من أمهات الكتب القديمة والحديثة « النظم الاسلامية » أوها الاحکام السلطانية للماوردي « الشافعی »(١) والأحكام السلطانية لأبي يعلی « الحنبلي » وقد كانا أول من تصدی لبحث هذا الموضوع بحثاً شاملاً مستكملاً .

ومن المؤلفین المعاصرين في النظم والحضارة الاسلامية الذين استفدت منهم : الدكتور حسن ابراهیم حسن والدكتور علي ابراهیم حسن من مصر والاستاذین ناجی معروف وعبد العزیز الدوری من العراق . والدكتور الشیخ صبحی الصالح والدكتور الشیخ عبد الله العلایلی والشیخ محمد مهدی شمس الدين والسيد محمد حسین فضل الله والشیخ ابراهیم سلیمان والسيد هاشم معروف الحسني والشیخ سلیمان اليحفوی من لبنان .

ومن المصادر التي عولت عليها وأفادت منها : السیرة النبویة لابن هشام (213 هـ) وكتب المغازی والفتح ، البلاذری (279 هـ) والكتب التاریخیة : الطبری (310 هـ) والمسعودی (345 هـ) وابن الأثیر (630 هـ) وابن خلدون (808 هـ) وغيرهم

(1) توفي الماوردي سنة 450 هـ وأبو يعلی سنة 458 هـ وقد تشابهت عباراته في معظم الفصول التي أتبأها على ذكرها ، حتى غلب على ظننا أن أبي يعلی قد اقتبس من زميله الماوردي ما طاب له .

(2) راجع فهرس المصادر والمراجع .

ولقد أدرت كتابي على تسعه أبواب⁽¹⁾ :

وقد كتب في هذا الموضوع مؤلفون كثر هم شأنهم ومكانتهم العلمية والاجتماعية قد لا أصل إليها ، وبعد أن اطلعت عليها رجعت إلى أوراقي وكتبي وقلت في نفسي : إذا وجدت جديداً مضيّت في طريقني وألّفت ، وإلا فـإني لا أريد أن أكون نسخة صغيرة عن سبقي . وقد وجدت هذا الجديد الذي أبحث عنه تمثّل في عدة نقاط هامة لم تأخذ حظها من البحث المعمق ولم يقف عندها الباحثون طويلاً . بعضهم من نسيها مهملاً عن قصد أو عن غير قصد ، والبعض الآخر أشار إليها إشارة عابرة .

والحقيقة أن المسلمين ما اختلفوا في شيء اختلفوا في نظام الحكم في الإسلام وفي طبيعة هذا النظام ، فلقد تشعبت فيه أقوالهم فأعطى فيه كل فريق منهم رأياً سواه من الآراء .

هذا الاختلاف ظهرت طلائعه في أفق السياسة الإسلامية يوم قبض النبي ﷺ بالذات⁽²⁾ وكان السبب الرئيسي في انشقاق المسلمين على أنفسهم إلى شيع وأحزاب . وهنا نقف طويلاً وقفة متأملة رصينة لنقول : هل نشأ هذا الخلاف بسبب غموض في التعاليم الإسلامية ، أو ان هناك أسباباً أخرى ؟

ما يراه كل باحث عاقل ان طبيعة الإسلام أبعد ما تكون عن الغموض والتعقيد ؛ وما يراه ان ذلك الخلاف قد حدث بين المسلمين بداعي سياسي صرف ، ولا يخفى أن السياسة في الغالب هي أداة تفرقة وتباudit ؛ أو بداعي آخر هو سوء فهم عند بعض المسلمين لما جاء في القرآن الكريم والستة النبوية الشريفة من التعاليم المتعلقة بنظام الحكم .

قال الشهريستاني في هذا المجال :

« واعظم خلاف في الأمة خلاف الامامة ، إذ ما سل سيف في الاسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الامامة في كل زمان »⁽³⁾.

والمؤرخون كانوا وما زالوا نوعين : أحدهما يريد أن يبحث الحقيقة على وجهها الصحيح يكتبها كما وجدتها دون تحوير أو تقويه ، مؤدياً الأمانة العلمية على أحسن وجه ، متجرداً من كل ما من شأنه أن يتحكم فيه . كل ذلك لأنه يشعر بتحمل المسؤولية إلى التزام الموضوعية في جميع ما يرى ويسمع ويشعر .

والآخر طالب مفعة وبوح سياسة متكتسب ، يميل مع سياسة واقع الحال ، فتهون عنده الحقائق ولا تعنيه من بعيد أو قريب ، إلا بمقدار ما توافق نزعته وتجدد هوى من نفسه ، فهو بذلك مسيّر حيث يشده تعصبه إلى الذاتية الضيقة ، وفي الاستجابة للذات يمكن معنى الآلة المسيرة التي تسير بإرادة خارجة عن إرادة صاحبها . هذا هو التاريخ الإسلامي في شؤونه وشجونه ، وهؤلاء هم المؤرخون يقفون أمامه ليختار كل منهم ما يتناسب مع ميله وصفاته

(1) راجع التمهيد وفهرست الموضوعات .

(2) راجع اجتماع يوم السقيفة قبل دفن الرسول ﷺ .

(3) انظر الملل والنحل للشهريستاني .

وضميره . والواجب يقضي على كل باحث مسلم مؤمن الى بيان مزايا الاسلام وفضائله ونطمه العادلة والانسانية المتطورة التي تلبي حاجات الفرد والجماعة من أي جنس ومن أي لون . كما عليه أيضاً دحض المعتقدات السيئة والتهم الباطلة التي ألصقت زوراً بالدين الاسلامي وإظهار الحقائق جلية واضحة بما قدمه الدين الحنيف من علاج لجميع الارمadas الانسانية المستعصية ، وما أحرانا نحن اليوم ، في خضم ما ينتاب العالم من ويلات مذهبة ، الى السير على التهجيج الاسلامي والتمسك بروحية النظم الاسلامية التي هي خير علاج للخلاص من المشاكل الفردية والجماعية على حد سواء .

وبعد فإنني أضرع الى الله أن يجيئ العافية والقوة على متابعة نشر الكتب الباقية المعدة للنشر ، ويسهل أموري لخدمة دينه ، انه نعم المولى ونعم النصير .

حسين ابراهيم الحاج حسن
شمسطار في 11 آب 1986

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّدِينِ حَنِيفًا فَطَرَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمَ وَلَكُنْ أَكْثَرُ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ »⁽¹⁾ .

الإسلام هو دين الفطرة ، دين الحياة والآحياء ، والاسلام نظام شامل كامل لكل انسان في كل زمان ومكان ، والإسلام نظام دين ودولة في آن معاً . وقد انطوت نصوصه وتعاليمه على مبادئ أساسية وجوهرية في البناء الاجتماعي الانساني العظيم . عمل في التشريع الديني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والتربوي والعسكري . وقد أثبتت الواقع التاريخية ان الاسلام لم يكن مجرد عقائد فردية منذ نشأة دولته الأولى » فبرز الى الوجود بأسلوبه الخاص في التنسيق الكامل بين العقيدة والتشريع ، وبين العبادات والمعاملات » وبين الروحيات والزمانيات . وقد أوردنا نصوصاً كثيرة في فصول من هذا الكتاب تؤكد لكل مرتب أو متعدد وجه الإسلام الحقيقي الذي عالج جميع المشكلات الاجتماعية والحضارية » فصححها ووضع لكل واحدة منها حلًّا عملياً تاجحاً ، لإسعاد الناس أجمعين .

وكم من العلماء المسلمين والباحثين الغربيين المنصفين قد أكدوا هذه الحقائق ، وعرفوا السروح السائدة في التعاليم الإسلامية الصالحة في كل شأن من شؤون الحياة والآحياء ، فقالوا :

- إن الإسلام دين ودولة ، وعقيدة ونظام .

- وقالوا بأن الإسلام في تعاليمه الأساسية حدد على السواء شروط الحياة العائلية والاجتماعية والدينية والسياسية وكل ما يحتاجه الفرد في الدنيا والآخرة .

- وقالوا : إن الحكومة الإسلامية حكومة دستورية ، واجبة بالاجماع والعقل والشرع .

ولائي أرغب هنا أن أصف بصورة عامة ، المنطلق الأساسي الإسلامي للنظم التشريعية الحضارية التي قام عليها الإسلام ، الدين الحنيف ، وأنشأ مدينة عامرة ، ملأ شعاعها الكون بأسره حكمة وعدلًا وعلماً ومحبة وأمناً وسلاماً .

وكل باحث جمع إلى سعة المعرفة صفاء الضمير ، يدرك ما انفرد به الإسلام عن غيره من الأديان السماوية الأخرى التي قامت على التراحم والمحبة والتكافل ، من غير أن ترسم

(1) الرؤم الآية 30

لذلك كله تشريعات واضحة ، وحدوداً صريحة ، حيث تركت للنظم الزمنية القائمة تقرير ما يلزمها من نظم وأصول .

أما الإسلام فإنه نسق تنسيقاً واقعياً عادلاً بين شؤون المادة والروح بنظم واضحة وصرحية ، تتعادل فيها الحقوق والواجبات ، وتケفل بواسطتها ضمانات الحياة المادية وضمانات العدالة الاجتماعية . وعلى هذا يعد الإسلام ، من خلال نظمه وتشريعاته ، دين التوحيد بين قوى الكون جميعاً ، تلتقي فيه القيم الروحية مع القيم الاقتصادية بتعاون وتعادل ، ويعمل على تنشيط العلم وتنميته في جميع المجالات الحياتية ليبلغ حد الجودة والإتقان ، ويتم فيه التوازن الكامل المنسجم بين أشواق الروح ومظاهر الحياة .

فهل نعجب بعد ذلك إذا بلغ الذروة من التسامي الروحي والعدل الاجتماعي ؟ وهل تستغرب إذا دخل فيه الناس أفواجاً لاعتباره ضرورة اجتماعية ومحطة حضارية كبرى في تاريخ الحياة الإنسانية الحرة الكريمة ؟

وما أريد بيانه ، وأنا أكتب في النظم الإسلامية ، أن تلك النظم غير مقطوعة الصلة بأصولها القديمة ، فقد اعتراها التطور الاجتماعي الذي لا غنى عنه لكل نظام يلي حاجات الإنسان المتغيرة مع ثقافات العصر وظروف البيئة والزمان . وهذا ما فعله الإسلام في البلاد المفتوحة حيث أقر بعض تشريعاتها الصالحة والمسجمة مع تعاليمه العادلة .

من هنا فتح باب الاجتهد على مصارعيه عند المراجع الدينية العليا ، لعرض رأي الإسلام الصريح المتافق مع ركب الحياة الحضارية الراقية .

ولا ريب أن مسألة تنظيم الإسلام للحياة الاجتماعية في جوانبها المختلفة بدأت في عصر مبكر ، عصر النبوة ، عصر الرسالة الخالدة . ويفيتنا في ذلك أن تلك النظم كانت على أكمل وجه يمكن ، وأن أي موضوع جديد قد يطرأ على الحياة الإنسانية المعاصرة ، له بشكل أو بآخر أصل في القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة .

ولا غرو فالإسلام كما أسفلنا دين الفطرة في مبناه ومعناه . قال تعالى : ﴿إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حِينَماً مُسْلِمًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾⁽¹⁾ والمجتمع الإسلامي ليس أفراداً يتلقون بأجسامهم فحسب ، وإنما هو مجتمع قد استوفى معناه الاجتماعي الصحيح . فالأفراد المؤمنون برسالته الإنسانية السمحاء ، يجتمعون على هدف واحد ، هو العمل لوجه الله ، ولخير الناس جميعاً متعاونين متألفين . عملاً بقوله عز وجل : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا لَا تَفْرَقُوا وَادْعُوا نَعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفْتُ بَيْنَ قَلْوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْرَانًا، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حَفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذْتُكُمْ مِنْهَا﴾⁽²⁾ .

وهناك حقيقة أخرى هامة في الدين الإسلامي لا بد من ذكرها : وهي أنه توصل إلى هدفه النبيل هذا بتوفير العنصر الأخلاقي في نفس الإنسان . فالإسلام

(1) الأنعام الآية 79 والضمير في هذه الآية الكريمة يعود لإبراهيم (ع) في خطابه للمشركيين .

(2)آل عمران الآية 103 .

ومكارم الأخلاق صنوان أساسيان لا يفترقان . أما في حال خضوع هذا النظام للدين شكلاً ، ومخالفته في عدم توفر العنصر الأخلاقي ، فلا يمكن اعتبار الحكم حكماً إسلامياً ، ولا الحاكم حاكماً مسلماً .

قال الله عز وجل في وصفه الرسول الأعظم ﷺ : « وانك لعل خلق عظيم » (١)

وقال رسول الله ﷺ : « إنما بعثت لاتهم مكارم الأخلاق » .

والحاكم المسلم يجب أن تتوفر فيه عدة شروط لتثبت قيادته وتعتنق من الانحراف . ولقد فطن الإسلام إلى هذا الأمر الخطير فاشترط وجود صفات معينة فيمن يوكل إليه زمام أمر الناس ، كما فرض على الأمة الإسلامية مراعاة هذه الأوصاف عند انتخاب حكامها .

هذه الشروط هي :

أولاً : الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . الإعتقداد القلبي بالإسلام عقيدة ونظاماً .

ثانياً : العلم لما كانت الحكومة الإسلامية تستمد قوانينها من كتاب الله لزم أن يكون الحاكم عالماً به اجتهاداً أو تقليداً . قال الإمام الحسين (ع) « والله ما الإمام إلا القائم بالقسط ، الحاكم بالكتاب ، الحايس نفسه على ذات الله » .

ثالثاً : القدرة على الإدارة إن الكفاءة في الإدارة وحسن الولاية شرط أساسي في الحكومة الإسلامية لتبوء سلطان الحكم . وصلاحية الشخص للحكم منوطة بقدرته على القيام بلوازم الولاية وتحمل أعبائها .

رابعاً : العدالة من أهم صفات الحاكم في الإسلام أن يكون عادلاً منصفاً . وكل حاكم عادل يتلزم بالدين مخلصاً لواجباته ، وفيما لمصالح الأمة التي أوّل من على مصيرها ومقدراتها .

خامساً : الحرية دعا الإسلام إلى الحرية وإلغاء الرق فلا يجوز استعباد الإنسان واسترقاقه لأنبيائه الإنساني ، لأنه على حد قول الإمام علي (ع) أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق .

وأمر هام آخر يجدر بيانه هو أن الإسلام قد وضع أول دستور مكتوب في العالم لبناء دولة حديثة .

يتوهם البعض أن أول من ظفر بالحصول على الدساتير المدونة الولايات الأميركيّة ، حيث صدر أول دستور لها عام 1771 م ، ثم توالى بعدها إصدار الدساتير في معظم أنحاء العالم ، وبوجه خاص بعد نجاح الثورة الفرنسية عام 1789 م . وقد غاب عن بال هؤلاء الوثيقة البالغة الأهمية التي اعتبرها الباحثون ، الشرقيون والغربيون دستوراً خالصاً ، ألا وهي « الصحيفة » (٢) .

يذهب العلماء إلى اعتبارها أول دستور مكتوب في العالم ، وذلك أن الرسول محمد ﷺ

(1) القلم الآية 4.

(2) السيرة لابن هشام ص 16 وكتاب الأموال ص 202 .

كان قد أصدرها بعد هجرته إلى المدينة في حدود عام 622 هـ أي قبل صدور الدستور الأميركي بما يقارب الألف والمائة والخمسين عاماً.

وعلى الأرجح أن هذه الصحيفة كان قد أعلن عنها الرسول ﷺ في السنة الأولى للهجرة ، وغايتها منها « تنظيم العلاقات بينه وبين سكان المدينة من الأوس والخزرج واليهود والمهاجرين . وهي تقع في حوالي خمسين مادة^(١) . ولا ريب أنني أفتت من أمات الكتب القديمة في « النظم الإسلامية » التي حلت اسم الأحكام السلطانية ، كالفقهي المعروف الماوردي توفي 450 هـ والفقهي الثاني أبي يعلى توفي 458 هـ . وقد تشابهت عباراتها تماماً في معظم الفصول التي أتيتكم بها ذكرها وشرحها . ويغلب على الظن أن أبي يعلى قد اقتبس من زميله الماوردي ما طاب له من العناوين الكبيرة والصغيرة .

وقد اعتمدنا أصل النصوص وأوضحت البراهين متوجه الحقائق العلمية بعيدة عن العاطفة والميل .

يشتمل هذا الكتاب على تسعه أبواب :

الباب الأول : ذكرنا فيه ضرورة وجود سلطة حاكمة تنظم علاقات الأفراد وتضع الأسس والمنهج والقواعد التي يجب أن تقوم عليها الدولة الإسلامية واكتفينا بعرض لمحات تاريخية عن النظم الحضارية قبل الإسلام في بلاد بيزنطية وفارس . ثم انتقلنا إلى المميزات العامة للحكومة الإسلامية » وما أبقيت عليه ، وما انفرد به عن سابقاتها : مثل العدل - والمساواة - والأخوة - والحرية - والتعليم والأخلاق .

الباب الثاني : يدور فيه البحث حول الحركة الفقهية والتشريعية في الإسلام . فرأينا أن التشريع الوضعي لا تتحقق فيه النزاهة ولا يسلم من الأهواء والغايات الشخصية ، أما التشريع السماوي الذي يصدر من حكم خير لا يضل ولا ينسى ، منزه عن الغرض والموى . يعني بتوثيق العلاقة بين الإنسان وأخيه ، وبينه وبين خالقه ، رب العالمين .

ثم تحدثنا عن الفقه ومدارسه والمذاهب الفقهية الخمسة . وما نتج عنها من بذور الخلاف ونشأة الفرق والأحزاب ، حيث وضع كل حزب الشعار الخاص به والمبدأ الذي يتباين مع دعوته .

الباب الثالث : يتضمن هذا الباب التشريع السياسي في الإسلام وكيف رسم الرسول ﷺ معالم الدولة في المدينة المنورة ، ووضع لها نظميتها ونظمها ، والأثر الذي تركته حكومته من النواحي السياسية والدينية والاجتماعية .

(١) راجع الباب الأول الفصل الأول من هذا الكتاب .

ولم نجد بدأً من ذكر الإمارة ، والإمامية ، والخلافة . مع ذكر شروط كل منها ونظريات الأحزاب المختلفة كالخوارج ، والمرجئة ، والمعتزلة ، والشيعة . ثم تابعنا السير الى عصر الخلفاء الراشدين وكيف تسلم أبو بكر الصديق الخلافة ثم عهد الى عمر بن الخطاب الذي ألف مجلس شورى من ستة أعضاء ، وتسلم بالهداية عثمان بن عفان ، وحدثت الفتنة الكبرى ، بسبب ضعفه في إدارة الحكم ، وتسلم أقربائه زمام السلطة في الدولة . حتى نقم عليه المسلمون وقتل في بيته وهو يتلوي القرآن . وبعده استلم الخلافة علي بعد إصرار الجميع على توليه . وكانت الحروب الدامية التي قادتها السيدة عائشة مع طلحة والزبير وذهب صحيتها الكثير من الأبراء .

ثم تحدثنا في الفصل ذاته عن الوزارة وأنواعها ، والكتابة وشروطها ، والمحاجبة وصلاحياتها .

وقد توقفت عند الخلافة والاستخلاف ، لما حدث من اختلاف في شروط تعين الإمام عند السنة الذي يتم بانتخاب أهل الحل والعقد ، أو بعهد من امام سابق ، أو الاستحواذ على السلطة .

شروط تعين الإمام عند الشيعة يختلف في كثير من النقاط فاشترطوا في الإمام : العصمة وهي أمر خفي لا يعلمه إلا الله تعالى والنبي ﷺ لذلك وجب إظهاره بنفسه . من هنا كانت نظرية الشيعة الإمامية تقول : إن الإمامة منصب إلهي . فكما أن النبي ﷺ هو أولى بالؤمن من أنفسهم وهو المسؤول عن تبليغ دين الله الى عباد الله فكذلك الخليفة وظيفته تبليغ الدين ونشره والدعوة إليه وحمايته من كيد الطامعين والكافرين .

الباب الرابع : وعرضنا الباب الرابع الذي خصصناه للنظام الإداري فبدأتنا بلمحمة تاريخية عن حكومة الأقاليم والإمارة وأنواعها ، ثم الدواوين التي قامت بدور هام في تنظيم شؤون الدولة الإسلامية من جميع جوهرها . ثم انتقلنا الى الدستور الأول الذي وضعه الرسول ﷺ عندما آتى بين المهاجرين والأنصار ووادع فيه اليهود . من هذا الكتاب الجامع يظهر طابع القضاء في الإسلام ، واستقرار قواعده المبنية على أسس ثابتة وصحيفة . وقد أعطانا نموذجاً رائعاً في صفات القاضي العادل علي بن أبي طالب (ع) في كتابه لمالك الأشتر عندما ولأه على مصر . وهو تقني يطابق القواعد القانونية والحقوقية الحديثة حسب رأي جهابذة التشريع من أبناء عصرنا اليوم ، ويحجب أن يضطلع به أي حاكم لأنه يسير مع كل عصر . وبعد القضاء تحدثنا عن ديوان المظالم والحالات التي يتضرر فيها صاحبه . ثم ختمنا الباب بالحسنة ومهام المحتسب ، والشرطة ، والبريد . وكلها أمور ضرورية لتنظيم الحياة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي الناشيء .

الباب الخامس : خصصنا هذا الباب للبحث في واردات الدولة الإسلامية من زكاة ، وخرجاج ، وجzieة ، وغنية ، وفيء ، وعشور ، وأوقاف ، وكفارات ، وندور ، وضرائب أخرى يشرعها الحاكم في وقت معين حين تقتضي حاجة الأمة الى ذلك . وقد وجدنا أن السياسة المالية التي وضعها الإسلام لها أهمية كبيرة في تحقيق القسمان الاجتماعي العادل

لأفراد المجتمع ، بعيداً عن التمييز العنصري والفارق الشخصية والمذهبية .

السياسة المالية في الإسلام أفت المادة بالروح ودعمت آيات الإستقرار والكمال ، وأفسحت للفطرة بأن تأخذ طريقها بدون مزاحم ، وحققت هدف الدين الإسلامي الذي يدعوا للاستقامة والتوازن بين المادة والروح ، فاستخرج من خير الأولى ثبيت الأخرى .

الباب السادس : يبحث هذا الباب في النظام الاقتصادي من زراعة وتجارة وصناعة . فقد اهتم الإسلام بشؤون الاصلاح الزراعي ، والتنظيم التجاري » وما لها من أثر هام في تشغيل عجلة الحياة وإعمار الأرض . كما اهتم الإسلام أيضاً بالحقل الصناعي ، كصناعة الحرير والقطن والكتان والصوف وصناعة المواد الأولية : ذهب - فضة - حديد - نحاس ، وصناعة الآلات الخشبية والمعطور ، وصناعة الأدوية والآلات الطبية ، وصناعة الطواحين المائية والهوائية ، وصناعة الاسطرباب لعلم الفلك . وكل الصناعات التي احتاجوا إليها في حياتهم الفردية والجماعية اتقنوها رائعاً سدوا بها حاجاتهم وصدروا منها إلى البلدان الأخرى .

الباب السابع : واجهنا في هذا الباب النظام الاجتماعي واهتمام الإسلام البالغ بتنظيم الأسرة ، لأن في إصلاحها إصلاح المجتمع بأسره . وضع حقوقاً للمرأة فكرّمها أحسن تكريّم ، وأعطّاها كل ما لها من حقوق كانت محرومة منها في العصور السابقة ، كما وضع عليها واجبات يجب أن تحسن القيام بها .

ثم حدد الإسلام النساء اللواتي يباح التزوج بين « وشرع الزواج المؤقت شرطه الشرعية » وذلك لحفظ المجتمع من الانزلاق في متأهات مذلة ، ولأنه راعى حاجات الشباب والشابات في ميّعة شبابهم . كما حافظ الإسلام على أهل الذمة فوضع لهم حقوقاً معينة ، وطلب إليهم القيام بواجبات خاصة في المقابل .

ويعد ، انتقلنا إلى ما تأثر به العرب بغيرهم في الأعياد والمواسم والألعاب وأنواع التسلية والملابس ومجالس الغناء والطرب .

وما فاتنا ذكر بناء القصور الفخمة في الشام ، والأندلس ، والعراق . وأخيراً ختمنا الباب بالفنون الزخرفية وأثر الفن الأوروبي بالفن العربي والدور المجيد الذي قام به العرب في تقديم سير الحضارة البشرية في هذا المجال .

الباب الثامن : ومضينا بعد ذلك إلى النظام التربوي في الإسلام فلمستنا الاهتمام البالغ والعناية الفائقة . رأى الإسلام أن التربية ضرورية جداً لتطور الحياة . ومن أهم الأمور فيها الإيمان بالقيم الأخلاقية ، لأن العلوم المادية وحدها لا تقدر على خلق روح المودة والتعاون بين أفراد المجتمع الواحد إذا تجردت من الأخلاق .

أهداف التربية في الإسلام ثلاثة الفائدة :

المهد الروحي : يطهر النفس من العيوب ويهذب النفس ويصفّيها ليقودها إلى معرفة النفس الحقة ، وبالتالي إلى معرفة الله ، لأن من عرف نفسه عرف ربّه .

والمهدف الاجتماعي : نادي الاسلام بالأخوة بين المؤمنين ، والمساواة بين الناس أجمعين ، والإحسان الى كافة الناس ، وإن أكثرهم عند الله أتقاهم .

والمهدف المادي : أدرك الإسلام أن المال عصب الحياة فتحث على العمل بوسائل مشروعة ، فتناول جميع وجوه النشاط والحركة الفاعلة الایجابية ، لأن « ليس للانسان إلا ما سعى ، وإن سعيه سوف يرى » .

ثم انتقلنا الى قانون الوراثة في الاسلام الذي أكد عليه الاسلام وفصله وشرحه بجميع أطواره وحالاته ، من هنا كان الاهتمام بالأسرة وحسن اختيار الزوجة الصالحة ، فوضع منهجاً كاملاً دقيقاً لالأب ، والأم ، والأبناء » فكل واحد منهم له حقوق وعليه واجبات . وهذا ما دعا الى الحديث عن الأسرة في العصور الحديثة وما تخطيط فيه من مشاكل عائلية وأخلاقية لا تحمد عقباها . فمن انخفاض في نسبة الزواج ، الى المبوعة والتخلل الأخلاقي ، الى حقوق الأبناء » الى الشذوذ الجنسي ، وكل ذلك يعود الى البيئة وأثرها في التربية :

أمام هذا الواقع ، والإسلام دين التكامل الاجتماعي ، عني الاسلام بأمر البيئة وعالجها معالجة جذرية ، فوضع تخطيطاً تربوياً شاملًا :

حث على العلم وشجع العلماء على المضي في تحصيل علومهم المفيدة ، وعين أنواع العلوم التي دعا اليها ، وكلها ، قد أشار اليها القرآن الكريم ، وحدد سن التعلم وصفات المعلم وحقوقه وآداب المتعلم .

واهتم الإسلام أيضاً بجميع أنواع التربية :

أ - التربية المهنية : من اتقان العمل الى الابتعاد عن الغش والأعمال المحرمة ، الى التخصص المهني ، الى المحافظة على مصادر الثروة وأدوات الانتاج .

ب - التربية الاجتماعية : دعا الإسلام الى التراحم والتعاطف ، والسعى في قضاء حواجز الناس ، وإغاثة المعوزين ومواساتهم ، والتسامح مع الآخرين » والتخلص بالأخلاق العالية .

ج - التربية الرياضية : كما اهتم الاسلام بالروح اهتم أيضاً بالجسد لأنه وعاء لها ، والعقل السليم في الجسم السليم . وقد جمع بين الرياضتين الروحية والجسدية معاً في الصلاة ، والصوم ، والحج .

د - التربية الصحية : أول ما اهتم به الإسلام التشريعات الوقائية فقد أغار النظافة اهتماماً بالغاً حتى قررتها بالإيمان « النظافة من الإيمان » ولم يترک أي أمر يسير منها إلا أقى على ذكره » فأمر بالوضوء ، والإستحمام ، وتنظيف الأسنان ، ونظافة الثياب ، والاسترجاء .

كما اهتم أيضاً بالأكل والمشرب فأشار الى المأكولات المحرمة : الميتة والدم ولحم الحنطير . . . والمشروبات المحرمة كالخمور والمسكرات .

ثم وضع منهجاً للتغذية فيه الصحة الكاملة للفرد وللمجتمع على حد سواء . كل هذه

المأثر الصحية الوقائية قررها الإسلام لوقاية الأبدان من الإصابة بآفات خطيرة ، ولا غرو فالإسلام دين الدنيا ودين الرحمة .

الباب التاسع : النظام العسكري ، وكان ختامها النظام العسكري « استهلالناه بفصل عن نظام الجيش في تعيين الأفراد والقيادة ، ورواتب القادة والجنود ، والطابور الخامس » والتجنيد الإلزامي ، ثم تناولنا أشكال أسلحته ، وطرق القتال ، وأساليب التطويق والخصار . وذكرنا بهدف الإسلام في القتال المبني على الدفاع عن النفس وعن الشريعة الإسلامية لحفظها وسلامتها . فنصوله الشرعية تدل بوضوح أنه يعمل لإصلاح ما أفسده الإنسان في الأرض ، وبالتالي صيانة السلام العالمي الذي تسعى إليه الشعوب المستضعفة . يدلنا على ذلك وصاياً أمراء الجيوش الإسلامية لجنودهم . كما اهتم المسلمون بالأساطول البحري « علينا أن البداوة تغلب على طباعهم ، فصنعوا السفن بأنواعها ومعداتها ، واستفادوا من أساطوهم في الفتوحات الإسلامية ، حتى أصبح لهم السيطرة التامة على البحر الأبيض المتوسط وبيدهم مفتاح الدخول والخروج في عرض البحر . وختمنا الباب بمنهج الإسلام السلمي في الحروب وحسن استعماله لقوته في سبيل الحق ورفع راية الإسلام وصون الدين من كيد الكافرين .

و قبل خضوع العالم لسلطان الله انقسم الى دارين : دار إسلام ودار حرب . دار الإسلام التي تكون فيها السلطة للإسلام والمسلمين « وتطبق فيها النظم الإسلامية جميعها ، وهي وطن المسلم من أي جنس كان ، إذ لا يرتبط المسلم بطين الأرض والوطن ، بل بالعقيدة التي آمن بها . فالعقيدة فوق الأرض ولا حياة بلا عقيدة .

دار الحرب هي التي لا تطبق فيها الشريعة الإسلامية ولا تنفذ على أرضها أحكام الإسلام . ويطلق على رعاياها « حربين » إلا أن يعقدوا ميثاقاً أو عهداً مع المسلمين فيدعون « معاهدين » ومن المعروف أن الإسلام يؤكّد على احترام العهود والمواثيق ، ويشدد على الوفاء بها ، عملاً لقول الله عزّ وجلّ ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُلًا ﴾⁽¹⁾ .

هذا ما استطعت انجازه بعدما بذلت طاري وجهدي ، أملاً أن أكون قد حققت المهدى الذي أبغىه من فائدة خالصة لوجهه الكريم .

والله أسأل أن يلهمني السداد في الفكر والأخلاق في القول إنه نعم المولى ونعم النصير .

شمسطار في 25 رجب 1406

الموافق 6 نيسان 1986

(1) الإسراء الآية 34.

الباب الأول

معالم الحكومة الاسلامية

الفصل الأول

ضرورة وجود سلطة حاكمة

إذا راجعنا تاريخ نشوء المجتمعات ، فهل نظن أنها قامت بدون وجود سلطة حاكمة ؟ تدير شؤونها وتدير أمورها ، وإذا سميتا هذه السلطة الدولة ، فهل كانت ضرورة إجتماعية لا يمكن الاستغناء عنها ؟ من البداهة يمكن أن الفرد لا يمكن أن يتعنت من غريزة الاجتماع ، ذلك أن المجتمع الإنساني حاجة نفسية للكائن البشري ، والدولة ضرورة اجتماعية لا يمكن الاستغناء عنها .

ولما وجد المجتمع الإنساني وجدت معه العلاقات الاجتماعية المعقّدة ، ووجد أيضاً النشاط الاجتماعي المتعدد الوجوه في شتى الميادين . وفي هذه الحالة لا بد من أن يوجد إشراف . كيما كان لونه ، ينظم علاقات الأفراد تنظيماً يحول بينها وبين التفكك بفعل تصادم المصالح بين الأفراد والجماعات ، فيعمل إلى تشريع القوانين ليصون بها حقوق الأفراد ويطلب إليهم القيام بواجباتهم نحو مجتمعهم .

ولما كان هذا النشاط ضرورياً للمجتمع ، فالدولة ضرورة حتى لا بد منها . هذا الجهاز ، أو هذه السلطة ، لا تخرج عن كونها أداة كغيرها من الأدوات التي يتوقف عليها نشوء الخير أو الشر ، وذلك حسب طرق تنفيذها للقوانين . فالأسس التي تقوم عليها الدولة ، والبرامج التي تحدد لها طريق السلوك وسير رجال الحكم وقيامهم بواجباتهم ، ومدى تطبيقهم للقانون ، كل هذه الأمور هي التي تجعل من الدولة عنصراً خيراً صالحاً أو عنصراً شريراً مستغلاً .

أما إذا أهمل رجال الحكم واجباتهم ، وأخذوا برعاية أمور أخرى تعود عليهم وحدهم بالتفع الخاص ، وتعيينهم في استغلال المحكومين ، فإننا لا ننظر إليها إلى الدولة على أنها كائن يلازم الشر ملازمة تامة ، لأن الدوافع التي قبضت بإقامة سلطة حاكمة « الدولة » هي دوافع خيرة حسنة . فالحكام يذهبون والشعوب المناضلة تستمر وتبقى .

ضرورة وجود سلطة تنفيذية

إن مجموعة القوانين التي كتب بالخبر على الورق لا تكون مادة إصلاح وإسعاد للبشر ، إلا إذا أنيط تنفيذها إلى سلطة تنفيذية عادلة ، لذا فإن الله عزّ وجلّ ، الذي كرم آدم وجعله خليفة على الأرض ، قد أوكل إليه تأليف حكومة ، وجهاز تنفيذ ، وإدارة تعمل جاهدة في

إصلاح شؤون الناس كافة وتدبير أمورهم على أكمل وجه .

فالرسول الأعظم ﷺ كان يترأس جميع أجهزة الدولة التنفيذية من إدارة المجتمع ، إلى تفصيل الأحكام وبيان مدلولاتها ، بالإضافة إلى مهام التبليغ والبيان . كل ذلك حتى أخرج دولة الإسلام إلى حيز الوجود . ومهتمة حينذاك لا تنحصر بالتشريع والشرع والتبلیغ ، بل كان يهتم بتنفيذ القوانین ، فيقطع يد السارق ، ويحملد المتنب ، ويرجم الأثم . ولا ننسى أن المسلمين آن ذاك كانوا يأملون الحاجة إلى من ينفذ القوانین لأنهم حديثو عهد بالاسلام .

ومن بعد الرسول ﷺ كان الخليفة ، الذي لا تقل مهامه عن مهام الرسول ﷺ ولم يكن تعينه ليبيان الأحكام فحسب ، وإنما لتنفيذها أيضاً . يحكم بكتاب الله الكريم ، وب الحديث الشريف بين الناس ، من أجله ضمان سعادتهم في الدنيا والآخرة .

وإذا اعتمدنا المنطق نرى أن القوانين الشرعية والأنظمة الاجتماعية ، في أي عصر من العصور ، بحاجة إلى منفذ حتى تعطي ثمارها المرجوة . ففي كل دولة العالم ، المتخلفة والنامية والراقية ، لا ينفع التشريع وحده ، بل ينبغي أن تعقب سلطة التشريع ، سلطة تنفيذ ، فهي وحدها الكفيلة بإعطاء المواطنين ثمرات القانون العادل . لهذا قرر الإسلام إيجاد سلطة التنفيذ إلى جانب سلطة التشريع ، فجعل للأمر ولها لتنفيذ الأحكام الشرعية ، وطلب إلى المؤمنين إطاعة الله والرسول وأولي الأمر منهم . قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَأُولَئِكُمْ مُنْكَرٌ . ﴾⁽¹⁾

نشأة حكومة الرسول في المدينة

بعد جهاد شاق وكدح دائم داماً عشر سنوات هداية سكان مكة إلى الإسلام ، أحس الرسول أن لا أمل يرتحي في اكتساب المزيد من الانصار ، فولى وجهه شطر المدينة (يترقب) لبلاغ دعوته، منفذًا قول الله عز وجل: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك.. النساء ٥٩» وما يرجح في سبب الهجرة ان المجتمع المكي كان مجتمعاً متamasكاً إلى حد بعيد والرجالات النافذين فيه كانوا يرون في الدعوة الإسلامية عائقاً في سبيل مصالحهم الشخصية وزعاماتهم المحلية . فمن الصعب عليهم أن يت حولوا من قادة لقومهم إلى أتباع لفق عبد المطلب الذي يأتهم بخبر من السماء^(١) .

ثم ان تحولهم من عبادة الأصنام ، يعني تحولهم عن ديانتهم وما يرتبط بها من تقاليد وعادات .

ومركز مكة التجاري سوف يتاثر إلى حد بعيد بمقاطعة الوثنيين لها⁽²⁾ ، إذ كانوا يحجون

(١) فرض الله علينا طاعة أولي الأمر ، وأولو الأمر بعد الرسول ﷺ الأئمة الأطهار الذين كلفوا ببيان الأحكام والأنظمة الإسلامية ونشرها في المسلمين وغيرهم من شعوب العالم وكفروا أيضاً بتنفيذ تلك الأحكام والأنظمة . وقد فرض علـ الفقهاء العدول من بعدهم ، أن ينهضوا بهذه الواجبات . النساء الآية 59 .

. 57) سورة القصص، الآية 2)

اليها لتقديم النذور والقرابين لأصنامهم وللطواف حول بيت الله الحرام . وفي ذلك خسارة فادحة لتجارة أصحاب الفنوز والسلطان السياسي . لذا كان لا بد للنبي محمد ﷺ من البحث عن مركز جديد يرى فيه العون لنشر الدعوة الإسلامية . وما يبدو أن الرسول قد وجد ضالته في المدينة عندما قابل نفراً مؤمناً خيراً كان يتظاهر قدوته بشوق بالغ ورغبة جاحظة . ولا شك أن الرسول ﷺ كان يعرف الكثير عن أوضاع هذه المدينة وطبيعة العلاقات السائدة بين سكانها . وقد بادر القوم سائلاً : « من أنتم؟ .. قالوا : نفر من الخزرج . قال : من موالي اليهود : قالوا : نعم . قال : أفلأ تمجلسون أكلمكم؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن»⁽³⁾ .

ومما يجدر ذكره أن نفوذ اليهود العقائدي على العرب كان حافزاً لهم للبحث عن عقيدة جديدة يواجهون بها التحدي اليهودي . كما كانت سكناً قبليّي الأوس والخزرج [العربتين إلى جوار القبائل اليهودية (بني قينقاع وبني النضير وبني قريطة)] .

كان لتلك المدينة المباركة تأثير بالغ على عقلية أبنائها ، إذ أنها جعلت عقيدة التوحيد والإيمان بالأئباء واليوم الآخر ، ووجود جنة ونار من العقائد المألوفة لدى الوثنين العرب⁽⁴⁾ .

وثم عامل آخر لا يقل أهمية عما ذكرنا كان حافزاً لسكان يثرب على قبول زعامة الرسول كما كان مهدداً للدعوة الإسلامية لتنمو وتنتشر . وهو افتقار المدينة إلى قيادة موحدة تحسن المنازعات وترعى الصالح العام بين الأفراد والقبائل . ولا يخفى أن المدينة كانت قبل دخول النبي إليها تعيش في أتون المنازعات والمحروب القبلية المستمرة والتي ذهب ضحيتها الكثير من إبناء قبليّي الأوس والخزرج .

هذه المحروب تركت في نفوس سكان المدينة شعوراً عميقاً ب حاجتهم الماسة إلى زعيم يجمع شملهم وينقادهم من حالة الفوضى وعدم الاستقرار . وقد عبر عن هذا الشعور النفر الخير من سكان المدينة الذين بايعوا الرسول ﷺ بقولهم :

« إننا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليّم ، فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك»⁽⁵⁾ .

ليس من المستغرب أن يستجيب سكان المدينة المتنازعون والمتناحررون إلى الدعوة الإسلامية الهاادية الموحدة بيسر وسهولة ، حينما حلّها إليهم أولئك النفر الذين قابلوا الرسول في مكة ، ووعدهم أن يبشرّوا قومهم بها . وما انقضى عام واحد على وصولهم حتى سرى ذكر رسول الله وذكر الدعوة الإسلامية في كل دار من دور الانصار⁽⁶⁾ وكان من الطبيعي ذلك اليسر

(3) السيرة النبوية لابن هشام ج 1 ص 266 ... وانظر حياة محمد لـ محمد حسين هيكل ص 190

(4) السيرة النبوية لابن هشام ج 1 ص 267

(5) المصدر نفسه ج 1 ص 267

(6) المصدر نفسه ج 1 ص 268-269

في انتشار الاسلام ، فهل تستأذن الشمس لتنشر نورها في رحاب الأرض وتحبّي مواهها ؟ وهل يتعرّض الهواء من الدخول إلى صدور الناس ليغذّي القلوب وينشطها ؟ وكذلك الاسلام عمل في بث الحياة في النفوس وزرع الأمل في توحيد القلوب حول هدف واحد وغاية واحدة .

تألف وقد من أهل المدينة من اثنى عشر رجلاً للسفر إلى مكة ، وبمبايعة الرسول ﷺ على قبول الاسلام . « وعلى لا يشركوا بالله شيئاً ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم » ولا يأتوا ببهتان يفترضونه بين أيديهم وأرجلهم ، وعلى لا يعصوا رسول الله ﷺ في معروف »⁽⁷⁾ وقد عرفت هذه البيعة ببيعة العقبة الأولى ، وكذلك بيعة النساء ، لأنّ الرسول ﷺ بايع بعد ذلك النساء بمقتضاها⁽⁸⁾ .

وبعد بيعة العقبة الأولى بدأ الاسلام يتشرّب بسرعة وذلك بعد أن حدث (النفر الخير) عن شخصية رسول الله الخارقة ، وعن دعوته المباركة . والتاج الكبير الذي حققه الاسلام في يثرب هو في إقناع رؤساء العشائر في المدينة على اعتناق الاسلام ، مما جعل جميع السكان العرب يرحبون بفكرة توجيه الدعوة للرسول للهجرة إلى مدينته سواء أكانوا من المؤمنين أم من المشركيين⁽⁹⁾ .

أما المؤمنون فقد رحبوا بدعاة الرسول ﷺ بحكم إيمانهم برسالته ، وأما المشركون فقد تصارعوا مع رؤساء قبائلهم وأبناء عشائرهم في اختلاف موقف رأي من الرسول ﷺ سهلاً بالعرف القبلي الذي يقضى بتضامن أفراد القبيلة يداً واحدة وقلباً واحداً في السراء والضراء . هذا العرف القبلي كان له الدور الفعال في توجيه القبيلة رغم إرادة الفرد في بعض الأحيان حتى قال شاعرهم :

وما أنا إلا من غرية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

وكان في المدينة فوق كل هذا اليهود ، فما كان موقفهم من دعوة الرسول ﷺ إلى المدينة ؟

حسب ما ذكر المؤرخون كان اليهود يشكلون أقلية بالنسبة لمجموع سكان المدينة . وكانت تربطهم بالعرب أحلاف قبلية تلزمهم باحترام قرارات حلفائهم ، لذا كان الواجب يحتم عليهم احترام رغبة سكان المدينة بدعوة الرسول ﷺ للهجرة إليها .

إلى جانب آخر ، اليهود هم من الذين أهل كتاب ، وبمبادئ الدين الاسلامي أقرب إلى اليهودية من الوثنية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية . وفوق هذا كلّه لم يدر في خلد اليهود للوهلة الأولى أن الاسلام يشكل خطراً على وجودهم الاقتصادي والسياسي والديني والاجتماعي .

(7) المصدر السابق ج 1 ص 268-269

(8) المصدر نفسه ج 1 ص 272-273

(9) السيرة النبوية لابن هشام ج 1 ص 272

ولربما فكروا أن وجود الرسول ﷺ في المدينة يسبب المدحوء والإستقرار والأمن وهو أمر ضروري لانعاش اقتصادياتهم⁽¹⁰⁾.

لذلك لم يظهر اليهود أية معارضة لفكرة دخول الرسول الى المدينة . وما أن حان موعد الحج الى مكة بعد ستة من بيعة العقبة الأولى ، حتى أرسل سكان المدينة وفداً مؤلفاً من خمسة وسبعين شخصاً « ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتين » الى مكة لمقابلة الرسول ﷺ ودعوته للهجرة إلى المدينة . وكان الوفد يضم بين أفراده كبار رؤساء العشائر والأسر المدنية من قبيلتي الأوس والخزرج ، مما يفصح عن رغبة القوم الصادقة في قبول الاسلام ودعوة الرسول إلى مدینتهم⁽¹¹⁾.

وفي ليلة مقمرة جميلة تمت المقابلة بين الرسول ﷺ والوفد ، عند موضع يدعى العقبة . وكانت المقابلة محاطة في غاية من السر والكتمان وذلك خشية مداهمة رجال قريش مكان الاجتماع وإيقاع الأذى بالمجتمعين .

وفي جو يسوده الحماس الديني والاندفاع القوي لنصرة العقيدة الجديدة ومساندة الدعوة الاسلامية الحقة وطاعة الرسول القائد ، تمت البيعة المباركة على أن يهاجر الرسول وأصحابه المخلصون من أهل مكة الى المدينة ، مقابل أن يتعهد المدنيون بالدفاع عن الرسول ﷺ كما يدافعون عن أنفسهم وذويهم⁽¹²⁾.

وبعد البيعة التي دعيت باليبيعة الثانية عَيْنَ الرسول ﷺ اثني عشر نقيباً - باعتباره قائداً أعلى للجماعة الاسلامية - ليكونوا رؤساء على قومهم ، ومعاونين للرسول في إدارة شؤون المدينة . ثم أمرهم بالتفرق بهدوء كي لا يشعر القرشيون بأمر اجتماعهم⁽¹³⁾ وكان ذلك الوقت فاتحة دعوة للمكيين من أجل الهجرة الى المدينة بعد أن أصدر الرسول أوامره اليهم ، وأصبحت المدينة مركز الدعوة الجديدة وانطلاقه خيرة للدين الجديد . وبقي الرسول ﷺ متظراً حتى تمت هجرة معظم المكيين الى المدينة .

وقد أحست قريش بهذا الأمر الخطير المهدد لكيانها ، فليس لها والحاله هذه إلا التخلص من الرسول ﷺ ، فصممت على قتلها للحيلولة بينه وبين نجاح خطته . وقد كان المسلمين في المدينة يتظرون الرسول ﷺ بفارغ الصبر حتى وصلها سالماً في ربيع الأول عام 622 هـ⁽¹⁴⁾.

يمكن اعتبار هذا التاريخ 622 هـ هو تاريخ نشأة الدولة الاسلامية الأولى ، إذ اكتملت فيه العناصر الضرورية للدولة ، من سلطة سياسية متمثلة بزعامة الرسول ﷺ ، وشعب مؤلف من الأوس والخزرج والهاجرين واليهود ، وأقلين محمد بحدود يشرب . وبقيت على

(10) سيرة الرسول للدروزة ترجمة محمد عزة ج 2 ص 51

(11) السيرة النبوية لابن هشام ج 1 ص 273

(12) المرجع نفسه ج 1 ص 275

(13) المرجع نفسه ج 1 ص 276

(14) مروج الذهب للمسعودي ج 2 ص 297

الرسول ﷺ مهمات صعبة يتحتم عليه إنجازها في أول حكمه للمدينة . كان أهمها : تدعيم أواصر الوحدة بين طوائف شعب المدينة ، وتقوية مركزه من حيث هو رئيس الدولة الأعلى الذي يجمع بيده كل السلطات .

ثم التفرغ لتصفية حسابه مع خصوم الدولة الإسلامية في الجزيرة العربية ، من أجل نشر الإسلام في مختلف أنحائها .

إذن كان على الرسول التنظيم الداخلي والتنظيم الخارجي . فمن الناحية الأولى اهتم بالمؤاخاة بين المسلمين . كان هم الرسول ﷺ الأكبر أن يصل بالمدينة ، موطنه الجديد ، إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل في سائر أنحاء الحجاز⁽¹⁵⁾.

فكان أول ما انصرف إليه تفكيره هو تنظيم صفوف المسلمين » وتوكييد وحدتهم ، والقضاء على آية شبهة قد تثير الضغائن القديمة فيما بينهم . ولتحقيق هذه الغاية دعا المسلمين ليتأخروا في الله آخرين آخرين . فكان هو وعلي بن أبي طالب آخرین وفي ذلك قال عليه السلام (علي مني كهارون من موسى ...) ⁽¹⁶⁾ . وكان أبو بكر وخارجة بن زيد آخرين ، وكان عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك الخزرجي آخرين » وكان عم الرسول ﷺ الحمزة ومولاه زيد آخرين . وتأخر كذلك كل واحد من المهاجرين الذين زاد عددهم في يثرب ، مع كل واحد من الأنصار إخاءً جعل له الرسول حكم إخاء الدم والنسب سواء . وبهذه المؤاخاة إرداد بناء الوحدة الإسلامية صموداً وازدادت وحدتهم توكيداً .

المودة مع اليهود :

عندما اطمأن النبي محمد ﷺ إلى وحدة المسلمين عن طريق المؤاخاة ، عمد إلى الإنفاق مع اليهود على أساس متين من الحرية والتحالف والمودة . ولا شك أن هذا العمل يعد من الأعمال السياسية الجليلة التي تدل على قدرة النبي محمد ﷺ في السياسة ، وحنته في تدبير أمور المجتمع وترسيخ الوحدة بين أفراد أهل يثرب . وقد رأينا كيف أن اليهود أحسنوا استقباله بترحيب بالغ ، وذلك بغية استدراجه إلى دينهم ، كما سادر هو بدوره إلى رد تحنيتهم بمثلها ، وإلى توثيق صلاته بهم . فتحدثت إلى رؤسائهم فاستهوى بحديثه قلوبهم ، وتقرب إلى كبرائهم فربط بينه وبينهم برابطة المودة » كأهل كتاب موحدين . وبلغ من ذلك أن كان يصوم يوم صومهم ، وكانت قبلته في الصلاة ما تزال إلى بيت المقدس قبلة أنظارهم ومثابة بني إسرائيل جيغاً . وما كانت الأيام لتزيده باليهود ، أو لتزيد اليهود به إلا مودة وقرى . كما أن سيرته محمودة » وعظم تواضعه ، وجميل عطفه وحسن وفاته ، وفيض برء ، وسمو أخلاقه نحو البائس والمحروم ، كل ذلك كان يعطيه من قوة السلطان على أهل يثرب .

وقد وصل الأمر بينه وبينهم إلى عقد معاهدة صداقة ، وتقدير حرية الاعتقاد والتحالف .

هذا الدور من حياة الرسول لم يسبق إليه نبي أو رسول . فقد كان محمد ﷺ الرسول »

(15) وإن كانت قد عرفت إلى ما قبل ذلك بكثير بلاد اليمن .

(16) راجع الخطبة التي ألقاها عليه السلام في حجة الوداع .

والسياسي ، والمجاهد ، والفاتح . كل ذلك في سبيل الله وفي سبيل الكلمة الحق التي بعث بها ليتم نشر الاسلام على يديه .

ومن أبرز ما كتب الرسول ﷺ الوثيقة السياسية الخطيرة بين المهاجرين والأنصار كتاباً واعده فيه اليهود ، وعاهدتهم « وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، واشترط عليهم وشرط لهم . وخلائقنا أن نتساءل عن طبيعة نشأة هذه الدولة ؟ يبدو لنا أنه قد تعاون في أمر نشأة الدولة الاسلامية عاملان رئيسان . أولهما :

عامل ديني Theocracie ذلك لأن المسلمين قد قبلوا زعامة الرسول ﷺ السياسية وخضعوا لها بسبب إيمانهم بدعوته ، واعتقادهم أنه رسول الله وإن الله قد أمرهم بطاعته والخضوع لأوامره كما جاء في القرآن الكريم ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (17).

والعامل الثاني عامل تعاقدي مبني على أساس فكرة العقد الاجتماعي بين الحاكم وشعبه (Contrat social) وذلك لأن الرسول ﷺ قد أسس سلطنته السياسية على أساس من رضى سكان المدينة الذي تمجد في بيعتي العقبة الأولى والثانية ، والذين تعهدوا بمحاجتها بطااعة الرسول ﷺ والالتزام بالدفاع عنه ، مقابل تعهده لهم بترك مدنه مكة والمهرة إلى يشرب للإقامة فيها . من هذا يتضح لنا أن الدولة الاسلامية دولة قامت على أساس ثانوي ثيوقратي - ديمقراطي في آن واحد .

وسؤال يسأله الكثيرون ، هل كان للسيف من دور في نشأة الدولة الاسلامية ؟

يبدو جلياً للباحث في تاريخ الاسلام أن هذا العامل لم يكن له أثر في نشأة هذه الدولة ، إنما كان له أثر واضح في توسعها وتدعيم أركانها . ذلك أن الرسول ﷺ لم يلحد إلى السيف لمحاربة خصومه إلا بعد نشأة الدولة الاسلامية في المدينة ، إذ لم يكن يملك القوة التي تمكنه من استخدام السيف في المرحلة المكية .

ما نزل من القرآن الكريم في المدينة المنورة

كما تتبع العلماء والفقهاء علم أسباب النزول وما صع من وجوه الترابط بين آياته ، بما عرف عنهم من ورع بالغ وحساسة نقدية مرهفة ، تعني بالتناسق الفني ولا تهمل التاريخ ، اهتموا أيضاً بالعلم المكي والمدني . فتناولوا القرآن الكريم سورةً وأيات . لأن كل سورة فيه إما مكية أو مدنية ، وقد تستثنى من السور المدنية بعض آيات مكية » ومن السور المكية آيات مدنية » فكل آية من القرآن معروفة « الموبية » واضحة السيرة ، فإذا ما احتلت مع غير زمرتها أحضتها العلماء الجهابذة لمقاييسهم النقدية الدقيقة فعينوا انتهاها المكي أو المدنى .

لقد كان العلم بالمكي والمدنى إذن خليقاً بالعناية البالغة عند العلماء فهو بحق منطلقةهم لاستيفاء البحث في مراحل الدعوة الاسلامية ، والتعرف على مراحلها المتدرجة مع الأحداث المرتبطة بالظروف ، وإلى مدى تجاوبها مع البيئة العربية في مكة والمدينة ، وفي الbadie

(17) سورة النساء الآية 80

والحاضرة ، وذلك في مخاطبة الرسول الكريم المؤمنين وأهل الكتاب والشركين . وقد طاف بأذهان العلماء بحوث مختلفة الألوان في هذا المجال ، فهو في آن معاً ترتيب زمانى » وتحديد مكانى » وتبسيب موضوعي » وتعيين شخصى ، فترددوا في تحديد المكي منه والمدنى على أساس من الزمان أو المكان أو الأشخاص . فعنهم من قال : « المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة » والمدنى ما وقع خطاباً لأهل المدينة » ومنهم من أثر الاصطلاح المعروف : « المكي ما نزل قبل الهجرة إلى المدينة ، وإن كان نزوله بغير مكة ، والمدنى ما نزل بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، وإن كان نزوله بمكة . فالقسم الأول من العلماء رأعوا أشخاص المخاطبين ، والقسم الثاني عنوا بالترتيب الزمني في مراحل الدعوة الإسلامية⁽¹⁸⁾ . وفريق آخر أضاف عنصراً آخر ، ألا وهو عنصر الموضوع⁽¹⁹⁾ .

وبهذا المنهج التاريخي الزمني الذي لم ينس الأفاق النفسية والأطوار الاجتماعية ، ولم يتتجاهل أثر البيئة في الحياة والأحياء ، أخذ المحققون من علمائنا ، وشددوا على كل من أراد الخوض في هذا المجال .

ورد في البرهان للزركشى : « قال الحسن بن حبيب النيسابوري : من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته ، وترتيب ما نزل بعكة ابتداءً ووسطاً وانتهاءً وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك ، ثم ما نزل بعكة وحكمه مدنى ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي⁽²⁰⁾ .

وقد لاحظ العلماء أن أكثر القرآن نزل نهاراً بصورة عامة ، ولكن هذه القاعدة لم تتبع في بعض الحالات الجزئية ، فسورة مريم مثلاً نزلت ليلاً كما روى الطبراني عن أبي مريم الغساني قال : « أتيت رسول الله ﷺ فقلت له : ولدت لي الليلة جارية » فقال : « والليلة انزلت عليَّ سورة مريم ، سمعها مريم⁽²¹⁾ .

وأما ما أورده اليعقوبي من السور التي نزلت عليه ﷺ بالمدينة فهي :
 إثنان وثلاثون سورة : أول ما نزل **﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفَّفِينَ﴾** (83) ثم سورة البقرة (2) ثم سورة الأنفال (8) ثم سورة آل عمران (3) ثم سورة الحشر (59) ثم سورة الأحزاب (33) ثم سورة النور (24) ثم سورة المتحنة (60) ثم سورة الفتح (48) ثم سورة النساء (4) ثم سورة الحج (22) ثم سورة الحديد (57) ثم سورة محمد (47) ثم سورة الدهر (76) ثم سورة الطلاق (65) ثم سورة البينة (98) ثم سورة الجمعة (62) ثم سورة السجدة (32) ثم سورة المؤمن (23) ثم سورة المناقوضون (63) ثم سورة المجادلة (58) ثم سورة الحجرات (49) ثم سورة التحرير

(18) راجع الاتقان في علوم القرآن (السيوطى) ج 1 ص 13 والبرهان في علوم القرآن (للزركشى) ج 1 ص 187

(19) راجع مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح ص 168 .

(20) راجع المرجع السابق البرهان ج 1 ص 192 . والنیسابوري : هو النحوی المفسر ، إمام عصره في القراءات ، توفي سنة 406 هـ (بغية الوعاء للسيوطى ص 227) .

(21) الاتقان ج 1 ص 35 والطبراني هو الحافظ صاحب التصانيف الكثيرة وأشهرها المعاجم : الكبير والأوسط والصغرى توفي 360 هـ (انظر الرسالة المستطرفة لمحمد بن جعفر الكتانى) ص 30 .

(66) ثم سورة التغابن (64) ثم سورة الصاف (61) ثم سورة المائدة (5) ثم سورة براءة (9) ثم سورة النصر (110) ثم سورة الواقعة (56) ثم سورة العاديات (100) ثم المعوذتين وكان آخر ما نزل :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنْتُمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ، فَإِنْ تُولُوا فَقْلَ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوْكِلٌ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ .

وقد قيل إن آخر ما نزل عليه ﷺ «اليوم أكملت لكم دينكم وأتمت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا...» .

قال اليعقوبي : « وهي الرواية الصحيحة الثابتة الصريحة . وكان نزولها يوم النفر على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه⁽²²⁾ وقال ابن عباس : كان جبريل إذا نزل على النبي بالوحى يقول له : ضع هذه الآية في سورة كذا في موضع كذا ، فلما نزل عليه ﴿إِنَّقُوا يَوْمًا تَرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ قال : ضعها في سورة البقرة .

أما عن المواضيع التي نزل فيها بها فيها من أحكام وفرايصن وشرائع وعبر وأمثال . قال ابن مسعود :

﴿نَزَلَ الْقُرْآنُ بِأَمْرِ رَبِّنِي وَتَحْذِيرٍ وَتَبْشِيرٍ ؛ وَقَالَ جَعْفُرُ بْنُ مُحَمَّدٍ : نَزَلَ الْقُرْآنُ بِحَلَالٍ وَحَرَامٍ ، وَفَرَائِصٍ وَاحْكَامٍ ، وَقَصْصٍ وَأَخْبَارٍ ، وَنَاسِخٍ وَمَنْسُوخٍ وَمَحْكُمٍ وَمُتَشَابِهٍ ؛ وَعَبْرٍ وَأَمْثَالٍ ، وَظَاهِرٍ وَبَاطِنٍ ، وَخَاصٍ وَعَامٍ . وَتَابِعٌ : وَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ يَتَلَوُمُ وَيَتَهَيَّأُ لِلِّقْتَالِ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ ، عَزَّ وَجَلَّ :

﴿أَذْنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلْمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الآية 39 ، والآية التي بعدها : ﴿وَقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُفُّ إِلَّا نَفْسُكَ﴾ النساء (84) إلى آخر الآية . فكان الرجل من المؤمنين يُعدُّ بعشرة من المشركين حتى أنزل الله عز وجل : الأنفال الآية 66 ﴿الآن خفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعْلَمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مائةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوْ مائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوْ أَلْفَيْنِ﴾ . ثم أنزل الله عليه سيفاً من السماء له غمد ؛ فقال له جبريل : ربك يأمرك أن تقاتل بهذا السيف قومك حتى يقولوا : لا إله إلا الله وإنك رسول الله فإذا فعلوا ذلك حرمت دماءهم وأموالهم إلا لمحققتها وحسابهم على الله . وكان أول لواء عقد في الإسلام لعمزة بن عبد المطلب⁽²³⁾ .

وقد عرف العلماء الذين بحثوا في هذا العلم طريقتين لمعرفة المكي والمدني قياسي وسمعي . كما عرفوا أن لكل نوع منها ضابطاً قياسياً له طابعه وخصائصه . ولم يتعد عرض عليهم وضع أيديهم على زمر متشابهة وفصائل متماثلة ، برزت فيها ملامح صريحة جزموا معها بأنها مرحلة أولى أو متوسطة أو نهاية في مكة أو في المدينة .

(22) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 43

(23) المرجع نفسه ص 44

وما يبدو لنا أن جميع الحقائق التي عالجتها المرحلة الأولى في الكون والحياة والانسان قد عالجتها أيضاً المرحلة الثانية ، بيد أنها وسعت نطاقها ، وفصلت جزئياتها ، فالتوحيد والوحى والبعث والجزاء كلها أثيرة في أوائل الوحي ولكن بدون تفصيل «إذ كان المقصود تحريك النظر ولفت الانتباه إلى عقيدة التوحيد ، حتى إذا عرف المشركون عنها أشياء أولية أجابهم القرآن بالأدلة الواضحة والبراهين القاطعة .

أما المرحلة الختامية الثالثة فقد تميزت بطول سورها ، وتفصيلها المואضيع تفصيلاً منطقياً عن طريق الشرح والبرهان وضرب الأمثل ، والقصص القرآنى ، لعلهم يتذكرون .

ومن لاحظة أخيرة يلاحظها كل متأنل باحث في القرآن الكريم ، إن من حيث الموضوعات أم من حيث الأسلوب ، فيرى أن تنوع الموضوعات كان الباعث الأهم على تنوع الأسلوب القرآني . فقد كان يشتد أو يلين ، يفصل أو يجمل ، يرعب أو يرغب ، وذلك تبعاً لحال المخاطبين . ولا يخفى أن هذا سر من أسرار الإعجاز التي امتاز بها كتاب الله على مدى العصور والدهور .

الفصل الثاني

لحة تاريخية عن النظم الحضارية قبل الاسلام

تأثير حضارة البيزنطيين والفرس على البلاد العربية

نظم بيزنطية

تدلنا الواقع التاريخية أن البلاد العربية كانت مقسمة إلى قسمين قبل ظهور الاسلام -
قسم منها : مصر والشام وافريقيا الشمالية خاضع للدولة البيزنطية (الرومية الشرقية) وقسم آخر : العراق وفارس والأقاليم المجاورة لها تابع للدولة الفارسية (الساسانية) .

وما يبدو أن الروابط الفكرية الحضارية كانت أقصى في بلاد العرب ببيزنطية منها بفارس ، وذلك في الفترات الجاهلية السابقة للإسلام ، ونخص بالذكر مسائل التشريع والعقائد ، إذ أمست الامبراطورية البيزنطية تدين بملة سماوية تشابه تعاليمها تعاليم الدين الاسلامي في كثير من الأصول .

ولا بد لنا من تصوير لحة موجزة عن نظم هاتين الامبراطوريتين (بيزنطية وفارس) متبوعين الخطوات الاصلاحية التي أرساها الدين الاسلامي في بناء الحضارة الجديدة . فمن أصول تشريعية ، إلى آداب توجيهية ، إلى حقائق في السياسة والاقتصاد والمجتمع ، كان لها الدور الاساسي في تنظيم الحياة الانسانية .

ولا ريب أن الدين الاسلامي الخينف قد استبقى بعض النظم والأعراف والعادات التي لم يمس فيها التواحي الايجابية . كما تعمد ترك بعض الاوضاع والقوانين السلبية ، والأهم من هذا كله ما أثاره الدين الاسلامي في العقول واللغوس من انقلاب فكري ونفسى ، بعيد الأثر في تغيير الحياة الاجتماعية الى حياة أبقى وأتقى وأرقى .

لحة عن معالم الدولة البيزنطية

شيد قسطنطين الكبير (324-337) عاصمة الامبراطورية البيزنطية « القسطنطينية » بوجهين مختلفين أحدهما روحي بتعاليده ، والآخر هيليني بثقافته . ويعبر أدق لم تكن ذات طابع مسيحي خالص . ومع ذلك ، إذا أردنا المقارنة بينها وبين الدولة الاسلامية نلاحظ أنها كانت أقرب إليها من الدولة الفارسية . وإن تشريعها وتشريع الاسلام مجال متقاربين . وفي جميع الأحوال لم تكن الدولة الرومية وثنية ولا مجوسية كما عند دولة الفرس ، ولم تعتمد أي

فِرَبْ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ ، عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ . جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ . . .﴾⁽¹⁾ .

استمرار القتل والحروب في الدولة البيزنطية

كانت الامبراطورية البيزنطية امتداداً لامبراطورية الروم الأولى ، وكان من أشهر أباطرتها الامبراطور جستينيان (527-565) . فهو الذي نهض بالدولة أشواطاً بعيدة إلى الأمام ، ولكن ما يبنيه كانت الحروب تتفنيه . جاء بعده الامبراطور العظيم والقائد الكبير هرقل (610-641) وفي عهده اندصوّت تحت لواء الاسلام كل من الشام ومصر وأفريقيا . وما يؤشر عن هذه البلدان أنها انطبعت بطابع الدولة الاسلامية وتلقت الكثير من حضارتها العظمى .

ولو عدنا قليلاً إلى الوراء وألقينا نظرة عابرة على الأقاليم الشرقية ، لألفينا الدولة البيزنطية في حرب دائمة لا ينطفئ أوارها وعلى وجه الخصوص مع الفرس . فمنذ عام 502 شن قباد الفارسي الحرب على أنسطاسيس البيزنطي ولم تهدأ حملاته على بيزنطية حتى وافته المنية سنة 531 في عهد جستينيان .

وقد استمر القتال بين جستينيان وكسرى أنوشروان الأول حتى سنة 591 . إلى أن كان كسرى أبوريز الثاني حيث استمر بغزواته المتواصلة مدة ربع قرن ضد الامبراطور هرقل (603-628) .

والامر الغريب العجيب أن تلك الواقع والحروب كانت تتكرر دون أي هدف معين ودون أن تقرر شيئاً . لم يكن وراءها غايةً معينة وكل ما يقال عنها أنها للتخرّب والفساد والدمار تاركة في القلوب الحزن القاتل وفي النفوس الأسى العميق .

الحكم البيزنطي

نظام الحكم في الدولة الرومية استبدادي أوتوقراطي منذ عهد أغسطس (31 ق.م.) هذا الحكم يعتمد على سلطة الحاكم الفرد المطلق ، تجتمع السلطات كلها في يد الامبراطور الذي كان في نظر البيزنطيين ذا صفة إلهية .

وعندما تحولت الامبراطورية إلى المسيحية أصبحت الامبراطور يتم تعينه من قبل الله . منذ ميلاده مسيطرًا على البشر لا معقب لحكمه لأنّه ينفذ إرادة السماء . وقد وصف المؤرخون هذا النظام من الحكم في تلك الامبراطورية فأطلقوا عليها القيسارية البابوية .

فالامبراطور هو رئيس الكنيسة موكل بحمايتها وتفسير عقائدها ، كما كان في الوقت نفسه القائد الأعلى للجيش » ورئيس الهيئة الدستورية والإدارة المالية . وباختصار يجمع كل السلطات في جعبته ، الدينية والدنية . هو ظل الله على الأرض ونائبه ، ينفذ إرادة الله ! وهل يستطيع البشر بعد ذلك من سؤال أو اعتراض !!

(1) النساء الآية 76.

وقد يستعين الامبراطور ببعض مستشاريه إن شاء ، ولكنه في كل الأحوال هو الذي يقرر لكل ولاية ما تحتاجه من نفقات في كل عام ، وعلى حكام الولايات تقسيم ما يخص كل إقليم . حتى ينتهي الأمر إلى السلطات المحلية الصغرى في كل قرية . ولا يخفى أن التفريض الإلهي Délégation divine على مدى تسلط الامبراطور على جميع مقدرات الدولة . والإدارة البيزنطية المعنية بالتنفيذ على مدى تسلط الامبراطور على نفسه أو من ينوب عنه من الولاة .

ولا شك أن مثل هذا الوضع يرهق الرعية بالضرائب الباهظة .

الضرائب في الدولة البيزنطية وأنواعها :

كانت الإدارة البيزنطية (البيروقراطية) تخصص بعض نفقاتها لبناء المؤسسات العامة والكنائس « والصدقات ، ولكن القائمين على هذه الأموال كانوا لا يتقدون الله في كيفية الإنفاق ولا في كيفية الجمجم . فكم من الأقاليم قد خربت وكم من الآلاف قد أعدموا ، وكم من الثروات قد ابترت ظلماً من أجل تضخيم ثروة الامبراطور . فمنذ عهد جوستينيان أرهقت الدولة الرعايا بالضرائب الباهظة التي أثقلت كاهل الشعب وبات ينوء تحت حمل ثقيل لا يستطيع الاستمرار في حمله . وبعد جوستينيان باتت خزانة الدولة فارغة في أواخر القرن السادس والاضطراب يسود جميع المناطق وسط شعب يصبح متذمراً من وطأة الفقر والظلم والحرمان .

استمرت الحال على هذا المنوال حتى القرن السابع . حيث أصبحت الدولة أشلاء يهددها الفقر والعوز بالانقراض ، وكان الأفلام في عهد هرقل ، حيث الحروب المتواصلة مما استنزف خزائن المال ، حتى اضطر الامبراطور للاقتراض من ثروة الكنائس على أن يرد الدين بالربا . والشعب ليس أمامه إلا دفع الضرائب الباهظة أو الموت . أمران كلاهما مرّ .

وقد تثنن البيزنطيون في نوع الضريبة فكان منها ضرائب وألوان . فمن ضرائب الأرضي (الخرجاج) إلى ضرائب على الرؤوس (المكوس) إلى ضرائب على الماشي (الأعشار) إلى غير ذلك مما كان يراه الحاكم مناسباً .

أما تحديد مقدار هذه الضرائب فأمر من اختصاص الامبراطور ذي التفريض الإلهي .
وظل الله على أرض العمال والكافدين

والأمر الغريب عن جمع المبالغ المقررة إلى خزانة الدولة ، التي هي فوق كل مصلحة . فمسؤولية القرية كلها - بالتضامن الجماعي . فكان لزاماً على أفراد المجتمع الصغير في كل قرية على حدة من تأمين الضريبة المفروضة مهما تكن باهظة .

من هنا ، هذه المسؤولية الجماعية أعادت على خلق نظام الحماية الذي يتمثل في أن يضع المزارع أرضه تحت تصرف أحد الأغنياء ، ليتولى هذا الشري هو بنفسه دفع ضريبتها بدلاً منه . ويكون في هذا حماية للضعف الفقير من عسف الحكام المستبدین وجورهم .

ليس بين أيدينا إحصاء دقيق عن مقدار الجزية التي كانت تفرض على أرقاء الأرض في

السلم ، وحتى على الأحرار في الحرب (فريضة الرؤوس) ولكن في الخطاب الذي أرسله عمرو بن العاص فاتح مصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب ، إشارة تدل إلى أربعين ألفاً من اليهود كانوا في الاسكندرية يدفعون الجزية . وقد بلغت هذه الضريبة ستة عشر درهماً في القرن الأول على الشخص الواحد ، ثم ارتفعت إلى عشرين درهماً في القرن الثاني⁽²⁾ . وكما فرضت ضرائب على الإنسان كذلك ضرائب العشور على الحيوان .

فجميع الماشي من إبل وقرى وغنم ومازع وحمير على أصحابها أن يدفعوا عليها ضرائب تحدد مقدارها بإرادة امبراطورية . فضريبة الجمل الواحد كانت تبلغ أحياناً عشرة دراهم⁽³⁾ وكذلك أيضاً جميع السلع المباعة عليها ضريبة للدولة تبلغ 10% والمنازل التي تم بناؤها حديثاً والبحارة والقرايبين في الكنائس . ونختصر القول بأن نظام الضرائب البيزنطية كان أشد ظلماً وأكثر جوراً من أي نظام قد米 .

الاضطهاد الديني :

كان دين الدولة الرسمي المذهب الملكاني بكل مواطن لا يدين بدينه كالأخذ بالذهب اليعقوبي كانت تفرض عليه مذهبها بالقوة والوبيل لمن يخالف ! فقد يحرق جسده بالثار ، وقد يوضع في كيس مملوء بالرمل ويلقى به في البحر . فالدولة البيزنطية كانت تحمل الناس حلاً على الإيمان وهذا متنه الجهل والاستخفاف بكرامة الإنسان ، وبقي الحال على ما وصفنا من الظلم والاضطهاد حتى جاء الإسلام السمح الكريم فبدد الظلمات وأعطى للإنسان الحرية المطلقة في اعتناق دينه « بعد أن بين له معالم الطريق بأمثلة وبراهين واقعية . فلم يكره أحداً لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي » .

نظم فارس

تأكل الدولة

كانت دولة الفرس عزيزة الجانب نافذة السلطان ، حافلة بأسباب الحضارة والعمران ، ولكن الصراع الداخلي بين ملوكها ، والفساد المستشري داخل الدولة والدسائس والمكاييد ، كل ذلك مزق أوصالها وجعل منها دولة عفنة ينخر في جسدها سوس الفساد من جراء الحقد الذي يغلي في صدور العباد . وحسبك دليلاً واضحاً أن أحد عشر ملكاً تعاقبوا على الحكم في أقل من خمس سنوات .

في أوائل القرن السابع بدأ كسرى أبوريز بإشعال نار الحرب مع الامبراطورية البيزنطية التي استمرت ربع قرن تحرق الأجساد وتفتت الأكباد (603-628) وبدأت جيوش كسرى في اكتساح البلدان محولة كل شيء أمامها إلى رماد انتصر أبوريز على المغتصب فوقايس سنة

(2) انظر النظم الإسلامية للدكتور صبحي الصالح ص 25 عن فتح العرب لمصر (لبتلر) ترجمة فريد أبو حديد .

(3) المرجع نفسه ص 26.

(610-610) ومن ثم وجه إنذاراً إلى الامبراطور هرقل سنة (610) ولكن هذا الإنذار كان شواماً عليه .

ففي سنة 627 جمع هرقل جنوده وهاجم كسرى أبوريز على حدود بلاده وهزم في نينوى هزيمة منكرة . وعند ذلك بدأ النفوذ الفارسي بالتلقلص رoidاً . وانتهت حياة كسرى بثورة ابنه شيرويه عليه وقتله إيه سنة 628 . ولكن هذا ابن الفادر بأبيه لم يعش أكثر من ثمانية أشهر . تولى بعده الحكم أردشير وكان هذا صبياً ليس له من العمر إلا سبع سنين ، مما دعا قائد جيشه شهربراز إلى اغتصاب العرش بعد أن أمر بقتل أردشير .

وكما استلم الحكم غدرًا ، انتزع الحكم منه بعد أربعين يوماً من تسلمه العرش على يد رجال الحرس عنده . فقتلوه وشيعوا به .

بعده تولى الحكم بنت كسرى أبوريز (بوران) غير أنها ماتت بعد سنة وعدة أشهر فخلفها رجل من أسرة الأكاسرة اسمه جشندة لم ينعم بالحكم سوى شهر واحد . من بعده استلمت الحكم أخت بوران آزرميخت بعد أن قتلت فروخ هرمز أصبهن خراسان ، ولكن ابنه رستم انتقم لأبيه وقتل آزرميخت وسلم عينيها وتولى بعد ذلك خمسة أشخاص في زمان خاطف قصير كان آخرهم يزدجرد الثالث بن شهريار بن كسرى أبوريز آخر ملوك بني سasan . وفي عهده تمت الفتوح الإسلامية العظيمة⁽⁴⁾ .

نظام الحكم في الامبراطورية الفارسية

كان نظام الحكم في دولة بني فارس ، منذ عهد مؤسسها أردشير الأول سنة 226 م حتى نهاية حكمها في عهد يزدجرد الثالث . استبدادي فردي يقوم على الاعتقاد بنظرية الحق الإلهي المقدس . هذا الحق هو الذي أنجح لأردشير مؤسس الدولة أن يطلق على نفسه ملك الملوك (شاهنشاه) .

هذه الدولة نظامها نظام طبقي . يتكون من عدة طبقات : طبقة الأشراف الدهاقنين وطبقة النبلاء المرازية ، وطبقة رجال الحرب الأصابة ، وطبقة رجال الدين المواذنة وكل طبقة من هذه الطبقات يتفرع عنها فروع أخرى .

- الدهاقون - جمع دهقان : زعيم فلاحي العجم ورئيس الأقاليم⁽⁵⁾ وقد أكدت المصادر التاريخية الإسلامية من ذكرهم⁽⁶⁾ عناصر هذه الطبقة من الأشراف يملكون الأرضي الواسعة والعقارات الضخمة وهم الواسطة بين الراعي (الملك) والرعية (الشعب) .
- والنبلاء المرازية هم حكام الولايات . وقد ورد ذكرهم في عقود الصلح التي عقدتها القادة العرب في فتح الأقاليم ، في تاريخ الطبرى ، وال الكامل لابن الأثير .

(4) راجع التفاصيل في تاريخ الطبرى ج 2 ص 166 ومروج الذهب للمسعودى ج 1 ص 120 وتاريخ اليعقوبى ج 1.

(5) انظر القاموس المحيط للفيروز ابadi .

(6) راجع فتوح البلدان للبلاذري 463 .

- والأصابة هم رجال الحرب يؤلفون الطبقة العسكرية ، تخضع لأمرة القائد الأكبر (إيران أصبهد) . كان الشاهنشاه يختار من بعض الفرسان النبلاء وحدات خاصة له يسميهما «الأسورة » يعتبرهم النخبة الأولى من الجيش ، يستعملهم لحمايته في الأزمات الصعبة .

- والموابة من رجال الدين كانوا دولة داخل دولة ، وعلى الأخص في عهد أردشير كان لهم سلطان بارز وتأثير كبير لم يكن مصدره سلطانهم الروحي وحسب ، بل كان صادرًا عن الاستقلال المادي الذي كانوا يمارسونه بحرية كاملة . من غرامات دينية ، وعشور ، وهبات ، كانت مطعم أنظار كبار رجالات الدولة . فلا عجب إذا خولتهم الدولة سلطات كبيرة ، ولا غرابة إذا ساروا جنبًا إلى جنب مع نبلاء الاقطاع . هذا النفوذ الكبير للموابة سمح لهم بفرض أنظمتهم على أفراد الرعية جميعاً . واضطهادهم لمعتنقي الملل السماوية ، ولا سيما المسيحيين بعد أن ازداد القتال عنفًا بين دولة بيزنطية ودولة الفرس⁽⁷⁾ .

الضرائب في الدولة الفارسية

كان ملوك الفرس يقاسمون الفلاحين غلال أرضهم « فياخذون من خراج بعضها الثالث ، أو الرابع ، أو الخامس ، أو السادس » ، « على قدر شربها وعمارتها »⁽⁸⁾ . هذا النظام عرف بنظام المقادمة بقى سائلاً حتى اعتلى العرش كسرى الأول سنة 531 فاللى بلاده تشن تحت نير الظلم وجور البغي » والفالحين في ضيق فادح وبؤس شديد ، والمملوك قبله يقاسمونهم غلال أرضهم . عندها ألغى نظام المقادمة وأقر نظام المساحة . فتنفس الناس الصعداء على أثر بعض الاصدارات التي أعطت ثماراً طيبة ، إذ « قوي الناس في معاشهم وأصبحوا أحراراً فيها يملكون ، تمت أيديهم إليه في ساعة الحاجة »⁽⁹⁾ .

بالاضافة الى هذا دعا كسرى إلى الاصلاح الزراعي « فنظر في أنواع الضرائب بوجه عام ، وفي الخراج بوجه خاص ، فأمر بتصنيف الغلات ، وضبط الأشجار المثمرة ، وإحصاء السكان ، ووضع ضرائب جديدة مخففة ومحددة على الأرض وعلى الرؤوس . عرفت هذه التحديداً بوضائع كسرى⁽¹⁰⁾ ولا ريب أنها تعد من الاصدارات الحية التي خففت من ثقل الظلم وأحدثت تقدماً نوعياً في المجتمع آنذاك . فضريبة الخراج « في هذه الوضائع الكسروية » تناولت الخطة ، والشعير ، والأرز ، والكرم ، والنخيل ، والزيتون ، والانعام . فكان على كل جريب أرض من مزارع الخطة والشعير درهم وقفير⁽¹¹⁾ وعلى كل جريب أرز نصف وثلث . وعلى كل جريب أرض كرم ثمانية دراهم ، وعلى كل أربع نخلات فارسية درهم . وعلى كل ست أصول زيتون مثل ذلك . وأمر كسرى بتدوين وضائعه هذه في نسخة احتفظ في ديوانه بنسخة منها ، وحدّر عماله من زيادة الضرائب على المقادير المحددة في نسخة

(7) تاريخ الطبرى ج 2 ص 122 واليعقوبى ج 1.

(8) تاريخ الطبرى ج 2 ص 122.

(9) المصدر نفسه وانظر الأحكام السلطانية للماوردي ص 167.

(10) المصدر نفسه ص 123.

(11) مروج الذهب للمسعودى ص 115 وراجع التفصيات في باب النظام الاقتصادي من هذا الكتاب .

الديوان . كما أذن بجباية الخراج على ثلاثة أقساط في العام بدل من دفعه واحدة⁽¹²⁾ .

وكذلك أعاد النظر في ضريبة الرؤوس فقد وضع لها شروطاً وحدد مقاديرها ، فأممت ضريبة الرأس واجبة على كل رجل من سن العشرين إلى سن الخمسين » وصنفت على طبقات : اثني عشر درهماً ، وثمانية ، وستة ، وأربعة على قدر إكثار الرجل وإقلاله⁽¹³⁾ . وكان في هذا الاصلاح سعة للناس وانفراج لعيشهم . إلا أن بعض الطبقات أغفت من هذه الضريبة إعفاء تاماً كالأشراف ورجال الحرب ورجال الدين وكبار الموظفين⁽¹⁴⁾ كما أن الفرس في عهد كسرى فرضوا ضرائب على البضائع التي كانت تمر عبر الحدود ، وهي شبيهة بالرسوم الجمركية في عصرنا اليوم .

نستنتج هذا من معاهدة الصلح التي عقدت بين كسرى الأول وجستنيان سنة 562 م .

في بعض الأحيان لم تكن هذه الضرائب ثابتة ومحددة ، لأن الدولة قد تضطر إلى فرض بعض الضرائب الاستثنائية في أعقاب الحروب لتأثيرها بما يطرأ عليها من الأحوال والظروف .

بذخ وانكسار :

يقول علماء الاجتماع أن كل حضارة في العالم لا بد لها من اتباع خط بياني ينطلق من النقاط الدنيا ثم يعلو تدريجياً حتى يصل إلى القمة . خلال هذا التصاعد تتأثر الحضارة بعدة عوامل اقتصادية ، واجتماعية ، وتربيوية ، وخاصة ، تتعاون جميعها من أجل دفع العجلة إلى الأمام بخطى سريعة أو متباطئة ، بغية إدراك القمة المرتفعة بعد فترة زمنية تطول أو تقصر ، حسب قدرة الأمة في العطاء الخير الكريم .

في الدولة الفارسية كانت الحروب مورداً عظيماً من موارد خزينة الدولة⁽¹⁵⁾ . فكان ما يحرز ملك الملوك من الغنائم ينفقها على حاشيته ومصاريفه الشخصية التي كانت تبلغ حد الترف . وقد صورت لنا المصادر التاريخية صورة دقيقة ومفصلة عن ترف الأكاسرة وإسرافهم وبما ذلهم . فقد حصلوا من الشروات والكنوز ما لم يؤت مثلها أحد من العالمين . واستمروا على هذا المنوال حتى عصر الشاه المخلوع محمد رضا بهلوى . وما يرى عن بعضهم مثلاً ، كسرى أبوريز الذي عاصر مبعث الرسول العربي الكريم . يقال : إن الرياح ألفت إلى ساحل انطاكية ألف مركب احتوت خزائن الروم ، فاستولى عليهما كسرى أبوريز وسمماها خزائن الريح⁽¹⁶⁾ .

ومن ذلك أيضاً أن كسرى هذا « قد جمع من الأموال ما لم يجمع أحد من الملوك ، وبلغت خيله القسطنطينية وإفريقية . وكان يشتري بالمداين ويتصيف ما بينها وبين هذان . وكان

(12) تاريخ الطبرى ج 2 ص 123.

(13) الطبرى ج 2 ص 122.

(14) المصدر نفسه .

(15) المراد هنا بخزينة الدولة ثروة الشاهنشاه الشخصية .

(16) مروج الذهب ج 1 ص 120.

يقال : إنه كانت له اثنتا عشرة ألف امرأة وجارية ، وألف فيل إلا واحداً ، وخمسون ألف دابة ... وكان أرغم الناس في الجواهر والأواني»⁽¹⁷⁾ كما هي الحال عند بعض رؤسائنا الذين يحبون المال حباً جماً .

ولكن أكثر مؤرخينا العرب قد وصفوا بطر كسرى أبوريز الذي كان سبياً في سقوط عرشه ودمار مملكته بأسرها . قال الطبرى :

« وكان كسرى قد طغى لكثرة ما قد جمع من الأموال وأنواع الجواهر والأمنعة والكراء ، وافتتح في بلاد العدو ، وساعدته من الأمور ورثى من موانتاه ، وبطر وشره شره فاسداً ، وحسد الناس على ما في أيديهم من الأموال »⁽¹⁸⁾ وما نستطيع قوله أن دولة الأكاسرة رغم ما كانت ترخر به من مظاهر الحضارة والعمران ترتفق أجلاها المحشوم ويومها المشؤوم . والذي ساعد في دمار هذه الدولة الكبيرة فتق ملوكها وإسرافهم البالغ ، وترفهم الذي بلغ حدوداً بعيدة . كل هذا عجل في زوال امبراطوريتهم وحقق حضارتهم ، ولأن دار الظاللين خراب حتى أشرقت شمس الإسلام فنوت قلوب الناس باليمان ، فدخلوا في دين الله أفواجاً « واهتدوا إلى المنهج الحياتي السليم والصراط المستقيم ، بفضل النبي الكريم محمد ، ﷺ ، الذي أزال العصبية ، وحقق الطبقية ، ودعا إلى الإنسانية الشاملة ، والمبادئ الإسلامية الخالدة . فالأنظمة الإسلامية تحتوي على قوانين متعددة لنظام اجتماعي متكامل . وتحت هذا النظام تسد جميع حاجات الإنسان وتحقق كل رغباته ، بدءاً من علاقات حسن الجوار إلى إبناء العشيرة والوطن » وجميع جوانب الحياة العائلية والزوجية ، وانهاء بالتشريعات الاجتماعية من سلم وحرب ، وعلاقات دولية ، وقوانين جزائية » وحقوق تجارية وزراعية وصناعية » كما نظم الزواج الشرعي ، وواجبات الأبوين ، وعلاقة الزوجين » وتربية الأولاد ، وفترة الرضاع وكل ما يحتاجه الإنسان في حياته الحرة الكريمة » فالإسلام يملك قوانين وأنظمة شاملة من أجل تربية إنسان كامل فاضل ، يجسد القانون وتحيهه وينفذه ، ويعمل لأجله بداعم ذاتي . ويعملون إلى أي حد اهتم الإسلام بالعلاقات السياسية ، والاقتصادية ، والتربية ، والعلمية ، والاجتماعية » سعياً وراء إيجاد انسان متقف عادل ومهدب فاضل ، يعرف حدوده فيقف عندها .

كل هذه الأحكام الإنسانية القوية استقاها الحكماء الفقهاء المجتهدون من القرآن المجيد » الدستور الكامل الدائم » والسننة الشريفة المفصلة والموضحة لأحكامه . وكلا المصدرین يحتويان جميع الأحكام والأنظمة التي تسعد البشر جميعاً وتحمّلهم نحو الحياة المثلية الكريمة .

(17) مروج الذهب ج 1 ص 121.

(18) الطبرى ج 2 ص 157 ، وقد قتله ابنه شيروى سنة 628.

الفصل الثالث

النظام السياسي - للحكومة الاسلامية

قبل البحث عن المعلم الرئيسية في النظام السياسي في الاسلام « وبيان أصلاته وجدراته في معالجة شؤون الحياة وتدير أمور الأحياء ، لا بد لنا من تعريف السياسة لغة واصطلاحاً .

السياسة في اللغة

السياسة « لغة » هي « ولاية شؤون الرعية وتدير أمورها » كما نصت على ذلك كتب اللغة . جاء في لسان العرب :

السُّوْسُ : الرياسة . يقال ساهم سوساً إذا رأسهم ، وسُوْسُوهُ أساسوه إذا رأسوه ،
واسس الأمر سياسة : قام به ، والجمع ساسة وسوس . ورجل ساس من قوم ساسة
وَسُوْسُ ؛ أنشد ثعلب :

ساده قادة لكل جميع ساسة للرجال يوم القتال .

ويقال سُوْسَ فلان أمر بي فلان أي كُلُّفَ سياستهم . قال الجوهري : سُوسَ الرجل
أمور الناس ، إذا مُلِكَ أمرهم ؛ ويروى قول الحطيئة :
لقد سُوْسَتْ أمر بيتك ، حتى ترتكبهم أدق من الطحين

وفي الحديث الشريف : « كان بنو إسرائيل يسوسهم أنبياؤهم أي تتولى أمورهم كما
يفعل الأماء والولاة بالرعاية . والسياسة : القيام على الشيء بما يصلحه . والوالي السائس
يسوس رعيته ويذلل ما يعترضها من صعاب الأمور . قال أبو زيد : سُوسَ فلان لفلان أمرًا
أي رؤشه وذله⁽¹⁾ . وجاء في القاموس : سست الرعية : أمرتها ونبتها⁽²⁾ .

هذا ما ذكره اللغويون في معنى السياسة . وهي الولاية على الرعية وتدير شؤونها بما
يصلحها . ويسعننا في ذلك شاعر الفلاسفة أبو العلاء المعري عندما هجا حكام عصره لأنهم
ساسوا الأمة بغير رشد وعقل فقال فيهم :

(1) لسان العرب مادة سوس .

(2) القاموس مادة سوس .

يسوسون الأمور بغير عقل
فأَنَّ من الحياة وأَفَّ منهم
فينفذ حكمهم ويقال ساسه
ومن زمن رياسته خسasse

السياسة في الاصطلاح

السياسة في الاصطلاح هي فن الحكم ، والسياسي هو الرجل الذي يمارس أعمال الادارة المدنية ، وهو أيضاً الحاكم الرسمي الموجه والناتص(3) وقد كشف عن حقيقتها وعرف مزاياها » القرشي « فقال :

« إنها علم الدولة ، التي تبحث عن التنظيمات البشرية ، وعن تكوين الأحداث السياسية ، وعن تنظيم الحكومات ، وفي فعالية الحكومة التي لها صلة بتشريع القوانين وتنفيذها وفي علاقتها بالدول الأخرى ، وبيان مدى العلاقات القائمة بين الشعب والدولة ، وارتباطات الدول بعضها مع بعض ؛ كما تبحث عن تطور السلطة السياسية بالنسبة إلى حرية الفرد»(4) فالسياسة حسب المفهوم العلمي تبحث عن الشؤون العامة والخاصة للدولة كما تبحث عن تنظيماتها وعلاقتها بالدول الأخرى .

وقد اهتم الغرب بالبحوث السياسية واعتنوا بها ، فأسسوا لها المدارس ، وفتحوا لها الفروع الخاصة في جامعاتهم ، فتناولوا ، السياسة المحضة الداخلية ، والسياسة الدولية أو الخارجية ، والسياسة المدنية .

والسياسة العادلة هي التي تهتم بسلامة البلاد وراحة العباد » فيعود إلى أرباب السياسة أن يتولوا إدارة الحكم ، وينظروا في تولية ذوي المناصب فيضعوا الرجل المناسب في المكان المناسب ، ويسنوا للناس النظام الذي يضمن لهم الأمان ، ويسهل لهم العمل ، ويعقد بين المواطنين الألفة والمحبة ، و يجعلوا المصالح العامة مشتركة بين جميع الأفراد ، بحيث يشعر الجميع أنهم أبناء أمة واحدة . يقفوا جميعاً بالمرصاد ليدودوا عن حياضن الدولة وكرامتها الوطن . وإن أرباب السياسة هم المسؤولون عن تقوية وإضعاف الاتحاد الداخلي .

وتختلف السياسات باختلاف البلاد واحتياجاتها ، ومصادر ثروتها ، وقوة جيشه .
وسمو حضارتها .

السياسة في الاسلام

أقام الاسلام سياسته على العدل والمساواة والحرية والإخاء وعمل جاهداً في تحقيق الرفاهية الشاملة لجميع الأمم والشعوب من بني البشر ، حتى قضى على كل غبن وظلم وانحراف عن الناس جميعاً ؛ فرفع مستوى حياتهم الفكرية والاجتماعية والاقتصادية ، ووضع المحدود الكفيلة برعاية مصالح الناس وتلبية حاجاتهم في مختلف العصور والبلدان .

(3) راجع أدب السياسة للحوفي .

(4) النظام السياسي في الاسلام لباقر شريف القرشي عن العلوم السياسية ص 45.

تعريفها :

عرف ابن عقيل السياسة الاسلامية بقوله « السياسة ما كان فعلًا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح » وأبعد من الفساد ، وإن لم يضعه الرسول ﷺ ولا نزل به وحي »⁽⁵⁾ .

والسياسة الاسلامية تنطلق من كتاب الله الكريم ، وتحير على سنة نبيه العظيم » وما شدّت عنها فهي فاسدة ، وليس عمل الحاكم أو قوله في الميدان السياسي حجة دامغة ولا دليلاً قاطعاً ، فإن عارض النص فهو إما مؤول أو مطروح . وعرف السياسة الشرعية عبد الوهاب خلاف فقال :

« إن علم السياسة الشرعية يبحث فيه عما تدبر به شؤون الدولة الاسلامية من القوانين والنظم التي تتفق وأصول الاسلام ، وإن لم يقم على كل تدبر دليل خاص »⁽⁶⁾ .

غايتها :

إن الغاية من علم السياسة الاسلامية هي الوصول الى تدبير شؤون الدولة بنظام من دينها » والابانة عن كفاية الاسلام بالسياسة العادلة ، وتقديره لرعاية مصالح الناس في مختلف العصور والبلدان⁽⁷⁾ .

قواعدها :

بنيت السياسة الاسلامية على الاعيان الوثيق بكرامة الانسان وحقه في الحياة الحرة الكريمة . قال تعالى في كتابه العزيز : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلاً »⁽⁸⁾ .

وبنيت على الرحمة والسماحة والدعة ، قال سبحانه وتعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »⁽⁹⁾ .

وبنيت على العدل والحق فلا يضم في ظلها الوارف فرد ، ولا تهدر كرامته .

قال عزّ وجلّ : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »⁽¹⁰⁾ .

هذه القواعد العامة التي بنيت عليها السياسة الاسلامية مستقرة ثابتة مستمرة مع الأجيال والأزمان ، وليست هي كالسياسة الحاضرة الحديثة تتلون حسب المصالح والمطامع » وتتنكّف حسب الرغبات والأهواء .

مقاييسها :

إن المقياس الصحيح الذي تعرف به السياسة الاسلامية الصحيحة هو عرضها على

(5) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية .

(6) راجع السياسة الشرعية .

(7) المرجع نفسه .

(8) الاسراء الآية 70.

(9) الأنبياء الآية 107.

(10) النساء الآية 58.

الكتاب الكريم ، والستة الشريفة ، وسيرة الاعلام المفكرين من رجال الدين الذين مثل فيهم الاسلام عقيدة وعملاً .

فالقرآن رسم الخطوط العريضة العامة للسياسة الاسلامية ، والستة شرحت وفصلت مضمون تلك السياسة ، والرجال المؤمنون المصلحون من أبناء الإسلام ترسموا خطى النبي ﷺ في أعماله وأفعاله وتقريراته ورفعوا شعار سياسته العادلة السمحاء . وكل سياسة لا تتماشى مع هذه اليقاب الخيرة ليست من سياسة الاسلام في شيء ، ولا تمثل أبداً وجهة نظره .

المميزات العامة للحكومة الاسلامية

مظاهرها :

السياسة التي أقامها الاسلام ، وسادت العالم عده قرون بنورها المشرق الساطع ، كانت أعمق أثراً من أي سياسة أخرى جاءت قبلها أم بعدها يتوضّح ذلك بالنقاط الرئيسية التالية :

1- إقامة العدل :

من أهم المبادئ الأساسية التي ركز عليها الاسلام في سياسته بسط العدل والقضاء على الجور والظلم . وقد ارتبطت جميع مناحي التشريع الاسلامي بالعدل فلا يوجد ثمة حكم إلا مرتبط به ، فهو الصلة في التشريع والغاية من البحث إلى التكليف .

والعدل عند اللغويين يعني القصد في الأمور وهو خلاف الجور . جاء في لسان العرب : العدل ما قام في التفوس إنه مستقيم وهو ضد الجور وفي أسماء الله سبحانه العدل هو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم ، وهو في الأصل مصدر سمي به فوضع موضع العادل « وهو أبلغ منه لأنه جعل المسمى نفسه عدلاً(11) . وجاء في « التاج » العدل هو الأمر المتوسط بين الأفراط والتفريط .

العدل في القرآن :

حث القرآن الكريم على العدل ، وأمر المسلمين بتطبيقه « حكامًا كانوا أم محکومين . قال تعالى مخاطباً النبي داود : « يا داود إنما جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلوك عن سبيل الله»(12) كما خاطب الحكماء جميعاً عزّ وجلّ : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»(13) وأيات عديدة وردت يأمر الله الحكماء بإقامة العدل بين الناس .

وأمرنا الله جل جلاله لنلتزم بالصدق في أداء الشهادة ولو كانت على أنفسنا أو كانت على الوالدين والأقربين ، وليس للمسلم أن يقول غير الحق في إنسان يحبه أو آخر يكرهه أو غني لغناه أو مسكون لمسكته . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط

(11) لسان العرب مادة عدل .

(12) ص الآية 26 .

(13) النساء . 58

وَلَا يَجِدُنَّكُمْ شَيْئاً قَوْمٌ عَلَى إِلَّا تَعْدِلُوا أَعْدَلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوِيَّةِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ⁽¹⁴⁾.

فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَنْدِبُنَا لِتَحْقِيقِ الْعَدْلِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَلَا تَصْدِنَا عَنْ تَحْقِيقِ ذَلِكَ اعْتِدَاءَاتِ الظَّالِمِينَ وَجُورِ الْبَاغِينَ ، كَمَا يَحْدُثُ الْيَوْمُ فِي جَنُوبِ لَبَّانِ الْعَزِيزِ ، مِنْ قَبْلِ الْيَهُودِ الْمُعْتَدِلِينَ الْغَاشِمِينَ . وَمِنَ الْطَّرِيفِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةِ كَمَا يَرَوُيُ الْمُفْسُرُونَ أَنَّهَا نَزَّلَتْ فِي الْيَهُودِ حِينَ مَضِي النَّبِيِّ إِلَى حَصْنِ بَنِي قَرِيبَةِ ، يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَّةِ ، فَهُمْ بَقْتَلَهُ ، فَنَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، فَأَمْرَهُمْ بِعَدِ الْنَّبِيِّ⁽¹⁵⁾ عَنِ الْجُورِ أَنْ يَفْعُلُوا الْعَدْلَ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ وَلِيَأْكُلَّ كُلُّ أَحَدٍ فَإِنَّ الْعَدْلَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوِيَّةِ⁽¹⁶⁾.

العدل في السنة :

تواترت الأحاديث في الحث على العدل وتطبيقه على واقع الحياة ، كما وردت أخبار كثيرة في الثناء على الحكم العادل ولزوم مساندته ، و الحاجة الناس إليه . قال الإمام الصادق (ع) : إنْقُوا اللَّهَ وَاعْدُلُوا فَإِنَّكُمْ تَعْبُونَ عَلَى قَوْمٍ لَا يَعْدُلُونَ⁽¹⁷⁾.

وقال⁽¹⁸⁾ عَدْلٌ سَاعَةٌ خَيْرٌ مِّنْ عِبَادَةٍ سَبْعِينَ سَنَةً قِيَامٌ لِلَّيْلِ وَصِيَامٌ نَهَارَهَا⁽¹⁹⁾ والحاكم العادل قلب المجتمع ومدار حركته وهو منزلة الوالد الرحيم يناظر صلاح لأمة بصلاحه . قال

رسول الله :

«إِنَّ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ مُجْلِسًا إِمامًا عَادِلًا ، وَإِنْ أَبْغَضَ النَّاسَ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَشَدُهُمْ عَذَابًا إِمامًا جَائِرًا»⁽²⁰⁾. وقال (ص) : «لَعْنُ الْإِمَامِ الْعَادِلِ رُعِيَتْ يَوْمًا وَاحِدًا أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الْعَابِدِ فِي أَهْلِهِ مائَةً عَامًا أَوْ خَمْسِينَ عَامًا . . .»⁽²¹⁾.

إِنْ سَعَادَةَ الْأُمَّةِ تَكْتُمُ بَعْدَ حُكْمِهَا ، فَإِذَا طَبَقُوا الْعَدْلَ عَلَى شَعُوبِهِمْ سَادَتِ الْأُمَّةَ وَحَقَّتْ مَا تَصْبُو إِلَيْهِ مِنْ أَحَلامٍ وَسَعَادَةٍ .

فالعدل روح الإسلام وجوهره ، والسياسة الإسلامية بجميع مفاهيمها ركزت أهدافها على أصواته ، وذلك في جميع أنظمتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

2 - المساواة

أعلن الإسلام المساواة العادلة ما بين الأفراد والجماعات ، وما بين الأجناس التي انتصرت تحت لوائه من بني البشر ، وقد أسبغ هذه النعمة على الإنسانية بصورة لم يسبق لها نظير في تاريخ المجتمع العالمي . فلا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على أعجمي إلا بتقوى الله . فالناس أئمَّ الشريعة الإسلامية سواسية كأسنان المشط .

(14) المائدة الآية 8 وراجع الآية 135 من سورة النساء .

(15) راجع التبيان في تفسير القرآن ج 3 ص 461 .

(16) أصول الكافي ج 2 ص 147 .

(17) جامع السعادات ج 2 ص 219 .

(18) صحيح الترمذى .

(19) الأموال ص 6 .

أ- المساواة الاجتماعية

أمر الاسلام بالمساواة بين المسلمين جميعاً وفرضها عليهم باسمه تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّنْ ذِكْرٍ وَأَنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شَعُورًا وَبَيْتَلَ تَعْرَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاقَكُم ﴾⁽²⁰⁾ .

روى ابن عباس أن السبب في نزول هذه الآية أن أحد الموالي خطب امرأة من بني بياضة فأشار النبي ﷺ على أهلها أن يزوجوها منه فقال له : « يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنْزُوْجْ بَنَاتِنَا مَوَالِيْنَا ؟ » .

فنزلت على النبي هذه الآية الكريمة لتحطم العادات الجاهلية التي تقضي بتفوق بعض الطبقات على بعض .

فالاسلام قضى على نخوة الجاهلية وتفاخرها بالأنساب والآباء والأجداد . قال رسول الله ﷺ : « كُلُّكُمْ بْنُ آدَمَ مِنْ تَرَابٍ » . ولি�تهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان »⁽²¹⁾ .

والمساواة في الاسلام موضوعة على أساس الفطرة الإنسانية السليمة ، فلا تمييز بين فرد وآخر إلا العمل الصالح وتقى الله . قال النبي ﷺ مخاطباً لأسرته : « يَا بْنَى هَاشِمٍ ، لَا يَأْتِيَنِي النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ وَتَأْتُونِي بِأَنْسَابِكُمْ تَقُولُونَ نَحْنُ ذَرِيَّةُ مُحَمَّدٍ »⁽²²⁾ .

وقال لابنته فاطمة عليها السلام : « يَا فَاطِمَةَ كُوْنِي أَبَاكَ لَا يَغْنِيكَ شَيْئاً تَذَكَّرِي قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرِي اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمَؤْمِنُونَ ﴾ ، وَرَوَى أَنَّ عَبْدَ أَسْوَدَ مِنْ عَامَةِ النَّاسِ خَاصِّمَ عَبْدَ الرَّحْمَنَ بْنَ عُوْفَ وَكَانَ مِنَ الشَّخْصِيَّاتِ الْبَارِزَةِ فَغَضِبَ أَبُو عُوْفَ وَقَالَ لَهُ : يَا ابْنَ السُّودَاءِ . . .

فَلَمَّا سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ هَذَا التَّنَابُذَ اندَفَعَ وَهُوَ مُغَيَّبٌ قَائِلاً لَهُ :

« لَيْسَ لِابْنِ بَيْضَاءِ عَلَى ابْنِ سُودَاءِ سُلْطَانٌ إِلَّا بِالْحَقِّ »⁽²³⁾ .

فالمسلم هو كفء المسلم ولا تفاضل بينها من حيث العرق والنسب ، وقد أعطى الرسول ﷺ المثل الواقعى للناس عندما زوج بنت عمته زينب من غلامه وملوكه وعميقه زيد ابن حارثة ، ليقضى بذلك على سيئة التعالى بالأنساب .

والاسلام وضع قواعد المساواة على أساس الفطرة الإنسانية السليمة ، فلم يميز قوماً على آخرين إلا بالتفوى . قال الامام زين العابدين (ع) : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ لِمَنْ أَطَاعَهُ ، وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبْشِيًّا ، وَخَلَقَ النَّارَ لِمَنْ عَصَاهُ وَلَوْ كَانَ سَيِّدًا فَرْشِيًّا »⁽²⁴⁾ .

(20) الحجرات الآية 13.

(21) تفسير ابن كثير ، سورة الحجرات .

(22) النظام السياسي في الاسلام لباقر شريف فرضي ص 208.

(23) المرجع نفسه :

(24) المرجع نفسه .

فمن المساواة التي فرضها الاسلام كانت جميع عوامل النهوض والارتقاء ، وكل وسائل التعاون والتآلف ، وكم هي الانسانية في الماضي وفي كل وقت ، بحاجة الى المساواة أكثر من غيرها من مقومات الحياة ، لأنها توطد دعائم السلم على الأرض ، وتتوطد دعائم السلم بين الشعوب والدول بدل الخصومات والعداوات . إنها تدعو الى الصفاء والوثام حتى لا يبقى في النفوس أي أثر للحزازات والنعرات والامتيازات .

ب - المساواة أمام القانون

فرض الاسلام المساواة بين جميع الناس أمام القانون فلا فرق بين رئيس ومرؤوس ، ولا بين غني وفقير ، ولا بين قوي وضعيف ، فالامراء والقراء كلهم سواء أمام القانون . وقد طبق ذلك الرسول ﷺ على واقع الحياة عندما سئل أن يعفو عن سارقة لشرف أسرتها فأجاب ﷺ :

« إنما هلك من كان قبلكم لأنهم كانوا إذا أذنبوا ضعيفون فهم عاقبوه وإذا أذنب الشريف فيهم تركوه » والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها (25) .

ولما شعر ﷺ بدنو أجله خرج وهو مريض واعتل أعود المنبر وخطب بين المسلمين . مبيناً لهم مدى المساواة التي ينشدتها فقال ﷺ :

« أيها الناس من كنت قد جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليست福德 مني » ومن كنت قد شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليست福德 مني ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه ، ولا يخشى الشحنة من قبلي فإنها ليست من شأني ، ألا وإن أحبوك إلى من أخذ مني حقاً إن كان له ، أو حللني فلقيت رب وأنا طيب » . ثم نزل عن المنبر فصل صلاة الظهر ورجع إلى المنبر وأعاد مقالته الأولى (26) وقد جرت السنة الاسلامية على حاكمة الخلفاء والولاة وتقديمهم إلى ساحة القضاء ، لأن الألقاب والمناصب في الاسلام لا تحمي أصحابها . فهذا الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) خاصمه يهودي في أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، فقال له عمر : قم يا أبو الحسن وقف مع خصمك . فتغير وجه الامام (ع) وبعد الانتهاء من المرافعة قال : « إنما ساعني أنك كتبتني ، ولم تساو بيبي وبين خصمي ، فالمسلم والمسيحي أمام الحق سواء » (27) .

ونشير هنا الى بعض الصور الرائعة من المساواة بين الخصمين التي نص عليها الفقهاء في كتاب القضاء وهي :

1 - التسوية بين الخصمين في السلام ، فليس للقاضي أن يخص أحدهما بالسلام ويعرض عن الآخر .

2 - المساواة بينها في الكلام فليس له أن ينطلق في كلامه مع أحد هما ويسكت عن الآخر .

3 - المساواة في الأذن بالدخول عليه ، وليس له أن يأذن لواحد ويحجب الآخر ..

(25) الخراج لأبي يوسف ص 50.

(26) الكامل لابن الأثير ج 2 ص 194 .

(27) النظام السياسي في الاسلام ص 210.

- 4 - التساوي بينها في المجلس ، فلا يجوز له أن يرفع أحدهما في المجلس على صاحبه بل عليه أن يساوي بينها في الجلوس بين يديه .
- 5 - التساوي بينها في التكريم ، فإذا قابل أحدهما بالقيام تكريماً لزمه أن يقوم للآخر .
- 6 - التساوي بينها في طلاقة الوجه .
- 7 - الاستماع لكلامها على حد سواء ، وليس له أن يسمع كلام أحدهما ولا يسمع كلام الآخر .
- 8 - أن يستعمل العدل والانصاف بينها .

ويستحب للقاضي أن يساوي بينها حتى في الميل القلبي كما يكره أن يخص أحدهما بالخطاب وذلك لما فيه من الترجيح الذي أقل مراتبه الكراهة⁽²⁸⁾ .

وكما ترى أن هذه المساواة التي أعلناها الاسلام في عالم القضاء وطبقها رجاله الصلحاء ، لا يوجد لها نظير فيسائر الأنظمة الأخرى ، التي لم تساو بين الناس في المناحي التشريعية ولا في غيرها ، حتى باتت بلا ريب مجافية لروح العدل والمساواة . من صور تلك التشريعات التي يرفضها الاسلام : تمييز رئيس الدولة كما كان عند الانكليز « والاسبان » والمصريين وغيرهم « وتمييز رؤساء الدول الأجنبية « وتمييز السلk الدبلوماسي ، وتمييز أعضاء الهيئة التشريعية أو التنفيذية « وتمييز الأغنياء أو الشخصيات البارزة في المجتمع .

هذه المساواة التي تقضي بها القوانين الوضعية الحديثة مهيبة الجناح « مقصوصة الأطراف » لأنها لم تسو بين الحاكم والمحكوم « ولا بين الفرد والفرد ، فقد ميزت بين الناس ، وجعلتهم طبقات وبذلك انهارت المساواة وحطمت أسس العدالة .

إن المساواة العادلة بجميع أشكالها وألوانها تحمل بأفضل أشكالها في الشريعة الاسلامية التي ساوت بين جميع الناس في الحقوق والواجبات . وقد أعلن النبي أروع معانى المساواة بين الرؤساء والرؤوسين عندما دخل عليه أعرابي ، وأخذته هيبة النبي ، فارتعدت فرائصه ، عندها التفت إليه قائلاً : « هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»⁽²⁹⁾ وتقاضاه رسالة غريم له فأغلط عليه فهم به عمر بن الخطاب فأنكر عليه النبي ذلك وقال له :

« مه يا عمر كنت أحوج أن تأمرني بالوفاء ، وكان أحوج إلى أن تأمره بالصبر»⁽³⁰⁾ ، ولو سار المسلمون في بقاع الأرض على ضوء هذه المساواة الرفيعة التي تنشر الأمان في البلاد وتحقق العدل الاجتماعي على الأرض ، لكانوا سادة الأمم وهداة الشعوب « وقادوا العالم إلى كل خير وسلام .

ج - المساواة في الضرائب :

إن الضرائب التي فرضها الاسلام في أموال المسلمين تحب على كل مسلم فيما إذا

(28) اللمعة للشهيد الأول والثاني (كتاب القضاء) .

(29) زاد الميادج 1 ص 95 .

(30) المرجع نفسه .

تنصبت تلك الفرائض في أمواله ، فلا يعفى منها شخص دون آخر ، بل يتساوى الجميع في دفعها .

د- المساواة في التوظيف :

فرض الاسلام قواعد المساواة بين المواطنين جميعاً في الوظائف العامة ، فلا يختص بها طائفة دون أخرى ، ولا حزب دون سائر الأحزاب ، وجميع من توفر فيهم الامكانيات والكفاءات يتسااوون في ذلك ، بعيداً عن المصالح الشخصية والمفاسد الفردية ، لأن ذلك يوجب تأخير البلاد وشيوخ الأضطراب في الوطن الواحد . فالاسلام راعي في الفرد كفاءاته الشخصية ومهاراته الخاصة ، وليس انتهاءه الطائفية ومكانته الحزبية كما هو حاصل اليوم في ظل الأنظمة الديموقراطية .

3- الأخوة

رفع الاسلام شعار الأخوة قبل أن تعلنها فرنسا بقرون وأجيال (١) ، وبناها على أساس رفيعة نبيلة ، وأحاطتها بسياج واق متين ، فكانت حقيقة واقعة وتجربة تاريخية ، لا كلاماً عابراً وشعاراً زائفاً .

لم تقم الأخوة الاسلامية على أساس القبيلة والجنس والإقليم ، وإنما بنيت على أنها جزء من أجزاء العقيدة ، يسأل عنها المسلم ويحاسب عليها . وبذلك أصبحت الأخوة الاسلامية تتضم تحت جناحيها طاقات هائلة من القراء ، تمد المجتمع الاسلامي بالوحدة المتماسكة « والتفاهم البناء » والتعاون المحب ، والإيثار الخلاق ، حتى غدت نموذجاً فريداً من التكافل الاجتماعي يسد الطريق أمام الطامعين والأعداء .

وهل أروع وأعظم من هذا الرباط الوثيق الذي يمسك بال المسلمين كالبنيان المرصوص ! ظهر ذلك جلياً في القرآن الكريم . قال تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُؤْمِنَوْنَ إِخْرَوْنَ فَأَصْلَحُوْنَ بَيْنَ أَخْرَوْيْكُمْ وَاتَّقُوْنَ اللَّهَ ﴾ (٣٢)

فالله تعالى أراد أن يجعل الأخوة الاسلامية كالأخوة النسبية في قوتها ومكانتها . فأوجب صيانتها فيما إذا شجر بين المؤمنين خلاف ، أو عصفت بهم ريح التفرقة .

ووصف النبي ﷺ المجتمع الاسلامي في تقارب عواطفه ووحدة مشاعره بأنه كالجسم الواحد في تماسته أعضائه :

« مثل المؤمنين في توادهم ورحمتهم كمثل الجسد إذا اشتكتى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . وقال ﷺ أيضاً : (٣٣)

(31) قررت الجمعية الوطنية في سنة 1789 اعلان حقوق الانسان ، بعد مجازر رهيبة أثناء الثورة الفرنسية ، فأصدرت بياناً عاماً كان أساساً لطلاب الشعب ، وقواماً لنصوص الدستور ، وضماناً لسعادة المجتمع . وخلاصة هذه الحقوق : 1- الحرية - 2- المساواة - 3- الاخاء . وجميع المواد التي ذكرت ترجع الى هذه المبادئ الثلاثة .

(32) المجرمات الآية 10.

(33) راجع أصول الكافي للكلبي

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

الأخوة الإسلامية ليست مجرد عاطفة ظاهرة إنما هي علاقة وثيقة تمتد إلى أعماق القلوب ودخائل النفوس لتحتم على المسلمين أن يشاركون بعضهم في السراء والضراء . قال الإمام الصادق (ع) :

« المسلم أخو المسلم ، هو عينه ومرأته ودليله لا يخونه ، ولا يظلمه ، ولا يخدعه ، ولا يكذبه ، ولا ينتابه » .

وقال الصادق أيضاً : « يحق على المسلمين الاجتهد في التواصيل والتعاون على التعاطف والمؤاسات لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض حتى يكونوا كما أمرهم الله عز وجل رحمة بينكم » ⁽³⁴⁾ .

لقد بني الإسلام الأخوة الدينية على أساس عميق لأنها يعلم أنها تؤدي إلى التسودد والتآلف والمحبة ، وتنهى عن التباعد والبغض والعدوان . فمن الأخوة الدينية تفتح عوامل المحبة المتمثلة في :

التراحم والتعاطف : « انقوا الله وكونوا أخوة ببررة متحابين في الله » متواصلين ، متراحمين ، تزاوروا ، وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه ⁽³⁵⁾ . وتمثل الأخوة بالتزاور : حيث الإسلام على تزاور المسلمين بعضهم البعض لأنه يعقد أواصر المحبة فيما بينهم . قال الإمام علي (ع) : « لقاء الأخوان مغنم جسيم وإن قلوا » .

وتوجب قضاء الحاجات : من واجب المسلم قضاء حاجة أخيه من تلقاء نفسه قال النبي ﷺ : « من مشى في قضاء حاجة أخيه ساعة في ليل أو نهار قضاهما أو لم يقضها ، كان خيراً من اعتكاف شهر » .

إن السعي في قضاء حوايج الناس ومهما تهم من الأمور التي تبعث الحب في قلوب المؤمنين وتنحن الوئام بين أفراد المجتمع وتزيد في عناصركم وتواصلهم .

حقوق الأخوة :

وضع الإسلام للأخوة الدينية حقوقاً ألزم المسلمين بمراعاتها وتطبيقاتها . سأل أبو المؤمن الحارثي الإمام الصادق (ع) عن حق المؤمن على المؤمن فقال (ع) : « إن من حق المؤمن على المؤمن المودة له في صدره والمواساة له في ماله والخلاف له في أهله والنصرة له على من ظلمه وإن كان نافلة ⁽³⁶⁾ في المسلمين وكان غائباً أخذ له بنصيبيه ، وإذا مات الزيارة إلى قبره ، وأن لا يظلمه ، وأن لا يغشه ، وأن لا يخونه ، وأن لا يخذله ، وأن لا يكذبه ، وأن لا يقول له أفي ⁽³⁷⁾ .

(34) أصول الكافي ج 2 ص 174 وهو يشير إلى سورة الفتح آية 29.

(35) المرجع نفسه .

(36) النافلة : الغنيمة .

(37) أصول الكافي ج 2 ص 171.

وهكذا راعى الاسلام حقوق الانسان وصان له كرامته في ظل حكمه العادل ناشداً
الرحمة والاستقرار لجميع الناس على حد سواء .

4 - الحرية

الحرية في اللغة :

تطلق على الخلوص من العبودية ، فيقال هو حر أي غير مسترق ، وتطلق أيضاً على
الخلوص من القيد والأسر ، أطلق أسر فلان فهو حر .

الحرية في الاسلام :

تطلق على الخلوص من العبودية فيقال حر ، أي غير مملوك ، وقد حرص الاسلام على
فلك رقاب العبيد واطلاق سراحهم .

كما يراد بها الرضا والاختيار ، فيقال فلان حر في تصرفاته أي غير مكره فيها . وقد يراد
بها تخلص النفس من الأوهام والخرافات ، فيقال فلان متحرر من الأوهام والترهات . وكلنا
يعلم كم بذل الاسلام من جهود لتحطيم القيود والأغلال ، وإيقاظ عقول الجاهلين وتحرير
أفكارهم من العادات الخرافية والأمور الوهمية . فقد دعا إلى إعمال الفكر وجعل الذين
يهملون عقوفهم ولا يسترشدون بتفكيرهم كمثل الحيوان البهيم . قال تعالى :

﴿ولقد ذرنا بجهنم كثيراً من الجن والانس هم قلوب لا يفهون بها ، ولم يعين لا
يبحرون بها ، ولم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم
الغافلون﴾ ⁽³⁸⁾ ..

فالاسلام أطلق حرية الفكر ودعا إلى اطلاق النفس من كل خرافه ووهم ، ونبذ ما كان
عليه السلف الجاهلي من ضياع وضلال . فالله الواحد الأحد فاطر السموات والأرض
وواهب الحياة ، هو العبود الوحيد وليس غيره من الأنصاب والأزلام والطواحيت . وقد
ازدرى الاسلام بمن يخضع لغير الله ويظن أنه يستجيب له . قال عز وجل : ﴿إن الذين
تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كتم صادقين﴾ ⁽³⁹⁾ .

والاسلام رفع شعار العبودية لله تعالى وحده ، لأنه المحيي والميت ، والرازق
الكريم ، واليه ترجع جميع شؤون العباد . من هنا كان أسمى صفات الرسل هي نعمتهم
بالعبودية لله تعالى جاء وصف النبي ﷺ :

﴿ وإن كتم في رب بما نزلنا على عبدنا فاتوا بسوره من مثله﴾ ⁽⁴⁰⁾ ..

فعبودية الله تعني تحرير الانسان من عبودية الأفراد والارتقاء به إلى سلم الكراهة وجعله
مواطناً صالحاً في المجتمع الانساني الرأقي الرفيع . والحرية التي منحها الله للانسان عن طريق
الاسلام متعددة الجوانب .

. (38) الأعراف الآية 179.

. (39) الأعراف الآية 194.

. (40) البقرة الآية 23.

١ - حرية العقيدة :

بني الاسلام الحرية الدينية في أرحب مفاهيمها وكان الرسول ﷺ مبلغاً ونديراً ، كانت خطبته في إبلاغ مبادئه الى المجتمع . قال تعالى :

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِمْ بِعُسْتَرٍ﴾ (٤١) .

فمن شاء آمن ومن شاء ترك : قال تعالى : ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مِنْ يَخَافُ وَعِيدٍ﴾ (٤٢) .

والاسلام لم يكره الذميين للدخول في الاسلام ، بل تركهم وحريتهم يمارسون عقائدهم وشعائرهم أحرازاً . قال تعالى : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (٤٣) .

وقال تعالى أيضاً مخاطباً نبيه محمد ﷺ : ﴿أَفَلَمْ تَكُرِّهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٤٤) .

اعتمد الاسلام سياسة التسامح الديني مع كل الشعوب التي امتد إليها الفتح الاسلامي ، ولم يكن اعتناقها أمراً محظوظاً ، فالذميين ، كاليهود والنصارى ، ظلوا يستمدون شرائعهم من كتبهم ، كما كان في وسعهم أن يتمتعوا بحرية الشعائر وحماية الدولة الاسلامية . شرط أن يدفعوا ضريبة الرأس (الجزية) ، أضف إلى ذلك أن المسلمين كانوا يتحلون بكثير من التسامح فلم يرهقوا أحداً في شؤون الدين ، بل ذهابوا في هذه السياسة الى حدود بعيدة ففي بلاد الهند مثلاً كانت الشعائر تقام في المياكل والمعابد في ظل الحكم الاسلامي .

ومن مظاهر هذه الحرية التامة في المجال العقائدي التي أعلنها الاسلام أنه ترك لغير المسلمين تطبيق أحكام شريعتهم في الأحوال الشخصية . ومن حرية العقيدة كانت حرية التفكير التي دعا إليها الاسلام ، ففتح آفاق الكون أمام العقل ليحلق إلى الآفاق البعيدة في الاكتشافات الصالحة الخيرة ، ويفكر في شؤونه في جميع مناحي الحياة الكريمة . لقد نعى على الإنسان الجمود والخمول ، وحثه على الاستزادة من المعارف والعلوم . قال تعالى : ﴿وَقُلْ رَبِّ زَنِي عَلَيَّ﴾ (٤٥) .

وكانت أيضاً حرية الرأي والتعبير .

أباح الاسلام حرية إبداء الرأي لجميع الناس وجعله حقاً طبيعياً لكل إنسان فكل فرد كان له الحق في حرية التكلم بما شاء ، وحرية المحاجرة وحرية النقد للحكم القائم إذا شد عن طريق الحق . ولكن هذه الحرية ، المتممة لحرية الفكر كانت مشروطة حتى لا تكون مطلقاً إلى إثارة الفتنة ، وبذل المبادئ المهدامة لوحدة الأمة الاسلامية .

لأن حرية الرأي والقول في الحدود التي وضعها الشريعة الاسلامية تعود بلا شك على جميع الأفراد بالنفع العام والتقدم المشر ، وتؤدي إلى عز الإخاء والحب والاحترام بين الأفراد والجماعات . وبذلك حفظ توازن المجتمع ووحدة صفوته وضبط الأمور على أكمل وجه .

(٤١) الغاشية الآية ٢٢-٢١.

(٤٢) ق. الآية ٤٥.

(٤٣) البقرة الآية ٢٥٦.

(٤٤) يونس الآية ٩٩.

(٤٥) طه الآية ١١٤.

٣- الحرية السياسية

الحرية السياسية جزء أساسي من الحرية الإنسانية ، حيث يكون المرء عضواً فعالاً في الدولة ذات السيادة ، وتكون الفرصة متاحة له ليعبر عن إرادته في سن القوانين ، ورسم سياسة الحكومة ، وذلك باستعمال حقوقه المشروعة في حرية الكلام وحرية الرأي والتعبير .
الإسلام منح الفرد الحرية السياسية » وهيأ له جميع وسائلها ، وهو الذي وضع جميع المنهج الحية والأصول الثابتة للدولة ، وأغناها عن سن القوانين واستيرادها .
ومن الحرية السياسية كانت حرية المجتمع ، التي استساغها الإسلام وحث عليها ، ولكن شرط أن لا تكون مخلة بالأداب الإسلامية أو منافية للمصالح العامة .

وكانت أيضاً حرية تأليف الجمعيات ، لم يمانع الإسلام من تأسيس الجمعيات وعقدها ، إذا كانت جمعيات تعاونية أو خيرية ، تعمل من أجل المصلحة العامة للأمة الإسلامية . أما إذا كانت مبادؤها ومقرراتها تتنافى مع الشريعة الإسلامية ، وتبث الأفكار الالحادية بين صفوف المجتمع ، فعندما الإسلام يجهز عليها ويزيل آثارها من البلاد .

٤- الحرية المدنية

وهي إعطاء الفرد الحرية التامة في العمل الذي يرغب والمسكن الذي يريد » حسب ميله ورغباته . ومن هذه الحرية كانت الحرية الشخصية ؛ ونعني بها حرية الفرد في اختيار العمل الذي يريد من أجل كسب معيشته ، فله أن يمارس أي حرفة أو مهنة أو صنعة ، ما لم يكن ذلك العمل محظياً شرعاً في الإسلام ، كصناعة الخمور وغيرها من المحرمات التي نهى الإسلام عن مزاولتها .

وله أيضاً الحرية الشخصية في العلم الذي يريد التخصص به ، كما له الحرية في اختيار الزوجة التي يريد لها شريكة حياته ، دون أن تكون من المحرمات اللواتي نص عليهن القرآن الكريم .

وللفرد حرية السكنى » فهو حر في أي بلد يقيم فيه سواء كان وطنه أم غيره ، وله الحق في سكناً البيت الذي يريد ما لم يكن ذلك البيت مقصوباً .

٥- الحرية الاقتصادية :

الحرية الاقتصادية : هي إباحة تصرف الفرد في ملكه حيث شاء » فله حرية الاختيار في نوع العمل الذي يريد مارسته ، كالزراعة والصناعة والتجارة ، والذي يرى فيه ربحاً وأفراً . وقد حدد الإسلام الحرية الاقتصادية وفرض عليها بعض القيود من أجل المصلحة العامة . وذلك كمنعه الربا والاحتكار والغش . وما إلى ذلك من الأمور ، التي توجب الضرر العام على المواطنين .

من الحرية الاقتصادية كانت الحرية الفردية في التملك :

وهي حرية الشخص في استغلال ملكه ، والتصريف فيه من بيع أو رهن أو إيجار . وقد حدد الإسلام حرية التملك ونبه عن بعض وسائله من أجل المصلحة العامة .

هذه هي بعض ألوان الحرية التي منحها الاسلام للانسان ، وقد كان السباق في هذا المجال لعديد من الدول التي سموها متحضره . كالبلدان الاوروبية والامريكية وغيرها . وقد أشرنا قبل قليل كيف أن الاسلام سبق اوربا في اعلان الحرية بعدة قرون . جاء في التشريع الجنائي في الاسلام :

«سبقت الشريعة الاسلامية القوانين الوضعية في تقرير نظرية الحرية بأحد عشر قرناً ، لأن القوانين الوضعية لم تبدأ بتقرير هذه النظرية إلا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، أما قبل ذلك فلم تكن هذه القوانين تعرف بالحرية بل كانت أقسى العقوبات تخصص للمفكرين ، ودعاة الاصلاح ، ولم يعتقد عقيدة تحالف العقيدة التي يعتنقها أولو الأمر . هذا هو الواقع ، وهذه هي حفائق التاريخ ، فمن شاء بعد ذلك أن يعرف كيف نشأت الأكذوبة الكبرى التي تقول : إن الأوروبيين هم أول من دعوا للحرية فليعلم أنها نشأت من الجهل بالشريعة الاسلامية »⁽⁴⁶⁾ .

5 - إلغاء التمايز العنصري

لو سارت الدولة على ضوء التعاليم الاسلامية لساوت بين جميع المواطنين في الحقوق والواجبات ، فلا تميز صنفاً على آخر ، ولا فئة على أخرى ، إلا بقدار كفاءاته الشخصية ، وعطاءاته الخيرة » وأخلاقه العالية .

لقد حطم الاسلام جميع الحواجز الطبقية وألغى التمايز العنصري بين أبناء البشر ، وساوى بين الناس جميعاً من أي لون أو عرق .

قال تعالى : « قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً »⁽⁴⁷⁾ .

وقال تعالى أيضاً : « وما أرسلناك إلا كافية للناس بشيراً ونذيراً »⁽⁴⁸⁾ . وقال عليه السلام : « سلمان من أهل البيت »⁽⁴⁹⁾ وقال عليه السلام أيضاً : « ان سين بلا خير من شينهم » .

إن إلغاء التمايز العنصري الذي رفع شعاره الاسلام ، يتحقق بلا ريب التعايش السلمي بين جميع الشعوب ، ويزيل الفوارق التي ما تزال موجودة بأجل مظاهرها في هذا العصر ، في أمريكا المتحضره ، حيث يعامل الزنوج فيها بكل قسوة وجفاء « فهم يدرسون في مدارس لا يدرس فيها البيض ولا يسكنون معًا في منزل واحد . والعامل الزنجي يتغاضى أجرأً أقل من نصف أجراً العامل الأبيض . ومن طريف ما ينقل عن واقع ذلك المجتمع الذي بني على الامتيازات والفوارق :

إن صاحب مقبرة الكلاب في واشنطن ، أعلن عام 1947 أنه لا يقبل جثث الكلاب التي يملكونها الزنوج ، وبعل ذلك أن زبائنه البيض قد ساعدهم أن تعامل كلابهم بهذه المعاملة

(46) التشريع الجنائي في الاسلام عبد القادر عودة ج 1 ص 36.

(47) الأعراف الآية 158

(48) سبأ الآية 28.

(49) يقصد سلمان : سلمان الفارسي . وبلال : بلال الحبشي مؤذن الرسول عليه السلام

المنكرة بعد وفاتها كما تعامل كلاب الزنوج . هذه الفوارق التي تبعث الكراهية والخذلان بين أفراد المجتمع الواحد ، حطمها الاسلام ورفضها حكام الحكومة الاسلامية . أولئك الذين عشقوا الانسان بأخلاقه وصدقه ، وأحبوا البشرية جياً يلمس شعاف القلوب » وتمس حرارتها عمق الضمير . وقد لاقت فكرتهم قبولاً عند عامة الشعوب من كل حدب وصوب ، لأنهم وجدوا فيها نفعاً وخيراً ، إذ كيف يمكن قبول دعوة لا تتوفر فيها الصفات الانسانية ولا تكون كما قال الامام علي (ع) عندما كتب إلى واليه على مصر :

« ولا تكن عليهم (الرعية) سبعاً ضارياً ، تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين ، وإما نظير لك في الخلق »⁽⁵⁰⁾ .

فالاسلام « الدين المتكامل والشريعة الخالدة ، نظام اجتماعي وسياسي شامل ، كفل كافة الاحتياجات البشرية للناس جميعين ، بجميع ألوانهم وأجناسهم ، وأشخاصهم ، وقومياتهم ، وحقق لهم على قدم المساواة كل ما يسعون إليه من هدوء واستقرار وسلام .

ولكن القوى الكافرة قد عاثت فساداً في بلاد المسلمين ، ففرقـت كلمـتهم وأشـاعت التـحلـل بين أـبنـائـهـم ، حتى صـارـ الـمـسـلـمـوـنـ كـمـاـ زـاهـمـ الـيـوـمـ غـرـيـاءـ فـيـ أـوـطـانـهـمـ إـنـاـ وـعـدـ اللهـ حـقـ فالنصر لـلـاسـلـامـ » وـالـفـوزـ لـلـاءـيـانـ . قال تعالى في كتابه الكريم : « وـنـرـيدـ أـنـ مـنـ عـلـىـ الـذـيـنـ أـسـتـعـفـعـوـاـ فـيـ الـأـرـضـ وـنـجـعـلـهـ أـئـمـةـ وـنـجـعـلـهـ الـوـارـثـيـنـ »⁽⁵¹⁾ .

وهكذا نرى كيف أن الاسلام أقام حكومة عالمية واحدة على سلسلة من المبادئ والأسس الفكرية ، الكفيلة لوحدة تامة بين شعوب الأرض فلخلق في نظر الدعوة الاسلامية كلهم من آدم وحواء » وكلها من تراب ، وهم متساوون في المشاعر الانسانية » ومتساوون في المصير النهائي » فكلهم راجعون الى الله تعالى . ولما كانوا كلهم كذلك فلماذا يختلفون » ولماذا يتميز بعضهم عن بعض بالعنصر ، أو اللون ، أو الأرض ! وغير ذلك من ألوان التمييز الظالم المرفوض كلياً في النظام الاسلامي العادل والحكومة الاسلامية الواحدة العامة .

إلى هذا يشير قول الله عزّ وجلّ :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذِكْرٍ وَأَنْثَىٰ ، وَجَعَلْنَاكُمْ شَعُوبًاٰ وَقَبَائِلَ لِتَعْرَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَاقَكُمْ ﴾⁽⁵²⁾ .

فالتفوي فضيلة أراد بها القرآن الكريم أحكام ما بين الانسان والخلق وأحكام ما بين الانسان والله ، خالق الخلق ورب العالمين . وهي في الأصل جعل النفس في وقاية بالنسبة لما يخاف ويشعر في شريعة الله .

وخوف الله يستدعي العلم بالمخوف ، من هنا كان الذي يعلم الله أكثر هو الذي يخشاه أكثر وبالتالي يتقيه أكثر . والمتقوون هم الذين يقون أنفسهم عذاب الله وسخطه في الدنيا

(50) نهج البلاغة قسم الرسائل 53.

(51) القصص الآية 5.

(52) الحجرات الآية 13.

والآخرة ، وذلك بال الوقوف عند حدوده وامتثال أوامره واجتناب نواهيه . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا تَقَاتِهِ حُكْمُ رَبِّكُمْ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَتَتْمُ مُسْلِمُونَ ﴾⁽⁵³⁾ ، هذه هي التقوى التي أولاها القرآن عناية فائقة لأنها تدل على عمق الروحية الإسلامية . ولأنها المقياس الدقيق في تصنيف المؤمنين درجات درجات . ولو أن العالم عرف التقوى وعمل بها وقام بواجبها ، لانطفأت ثورة الظلم والشر وساد العدل والسلام على الأرض . قال تعالى ناصحاً عباده : ﴿ وَتَرَوُدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾⁽⁵⁴⁾ .

وقال النبي ﷺ : « ألا ان خير عباد الله عبد اتقاه ان الناس من عهد آدم الى يومنا هذا مثل أسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى »⁽⁵⁵⁾ .

6 - التعليم والأخلاق في الإسلام

اهتم الإسلام بتحقيق المجتمع وتربيته اهتماماً كبيراً واعتبر سلاحه بالعلوم والأخلاق من الضروريات البالغة ، ومنذ بزوج نوره رفع منار العلم ، ودعا إلى الانطلاق في جميع ميادينه فجعل طلبه « فريضة على كل مسلم ومسلمة »⁽⁵⁶⁾ ، كما قال رسول الله ﷺ . وقد أمر بطلبه ولو كان في الأمكانة الثانية قال ﷺ : « اطلبوا العلم ولو بالصين » .

وقد حض الرسول على طلب العلم وجعله ركناً من أركان الخير ، وميز به الناس ، فقال : « الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا »⁽⁵⁷⁾ ، ومن بعض أدعيته عليه السلام : « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع »⁽⁵⁸⁾ .

ولم يقتصر طلب الرسول على طلب العلم بل على تبليغه أيضاً ، لأن الغاية منه أن يتفع به أصحابه ، وينفعوا غيرهم به ، فلا خير من علم مكتوم في صدور العلماء ، لذلك حرم النبي ﷺ كتمان العلم ، وأمر العلماء بنشره في مناسبات عديدة قال ابن مسعود : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نَصَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنْهَا حَدِيثًا فَحَفَظَهُ حَتَّى يَلْعَنَهُ ، فَرَبُّ مَبْلَغٍ أَحْفَظَ لَهُ مِنْ سَمِعَ » ورب حامل فقهه إلى من هو أفقه منه »⁽⁵⁹⁾ .

إن أول من حل لواء التحرير من الجهلة والضياع والضلال رسول الله ﷺ فقد كان الرائد الأول الذي بين منزلة العلماء والمعلمين » فقال : « العلماء ورثة الأنبياء »⁽⁶⁰⁾ .

(53) آل عمران الآية 102.

(54) البقرة الآية 197.

(55) الكافي ج 2 ص 246

(56) سنن ابن ماجه ج 1 ص 50 رواه أنس بن مالك عن الرسول ﷺ .

(57) جامع بيان العلم ج 1 ص 18.

(58) سنن ابن ماجه ج 1 ص 56.

(59) مستند الإمام أحمد ج 6 ص 96.

(60) مجمع الزوائد ج 1 ص 121.

وقد وصى رسول الله ﷺ بطلاب العلم لتلطف بهم ونحدثهم ، روى عن أبي هارون العبيدي عن أبي سعيد الخدري قال : أوصانا رسول الله ﷺ أن نوسع لطلاب العلم في المجلس وأن نفهمهم فإنهم خلوفنا ، وأهل الحديث بعدها ⁽⁶¹⁾ .

ب - الأخلاق في الإسلام

دعا الإسلام الإنسان إلى التحلي بالاستقامة والفضائل ، والتخلي عن المساوئ والرذائل ، بأسلوب رائع وكلام ساحر يعطيها دليلاً واضحاً على أن القرآن الكريم كتاب روحي من عند الله .

والإنسان إذا فقد الرغبة في الاستقامة وصلاح نفسه ضعف إقباله على الخير ، وأصبح هدفاً سهلاً للتورط في الآثام . لذلك نرى في كتاب الله اهتماماً بالغاً في التواحي الأخلاقية ، ولا غرو فهو معجزة الله على الأرض يستهوي النفوس ويؤثر في أعماقها ، حيث الوعد الجميل والاطمئنان المريح والأجر العظيم لكل مؤمن استقام وعمل صالحاً . قال تعالى :

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكنكم فيها ما تستهني أنفسكم ولكنكم فيها ما تدعون . نزلَ من غفور رحيم ﴾ ⁽⁶²⁾ .

اصلاح النفس وتزكيتها

وما يتافق مع الاستقامة ما عبر عنه القرآن بإصلاح النفس وتزكيتها « لأن التمادي في الظلم والفسق يجر إلى عواقب وخيمة على النفس الإنسانية وعلى المجتمع البشري . قال سبحانه : ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم ﴾ ⁽⁶³⁾ .

ولقد حث القرآن على تزكية النفس لتسمو عن الناقص ويرتفع قدرها ، وتأخذ عند الله حظها من الرضوان ، وعند الناس نصيبها من الكرامة . فقال سبحانه : ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسها ﴾ ⁽⁶⁴⁾ .

التفوى

عني القرآن الكريم بالتفوى وأكثر من الأمر وتوجيه النفوس إليها ، ليبتعد الإنسان عن كل ما يحول بينه وبين الغايات البليلة ، التي تتكامل في ثوب جسمه وروحه . وهذا وصف الله المتدين بأنهم من تحملوا بالفضائل الإنسانية الحقة . قال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا بوجوهكم قبل المشرق والمغارب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وأق المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب

(61) شرف أصحاب الحديث ص 72

(62) فصلت الآية 30-32

(63) المائدة الآية 39

(64) الشمس الآية 9-10 ودسها : أي دنسها وهبط بها إلى الحيوانية .

وأقام الصلاة وآتى الزكاة والمؤلفون بعدهم إذا عاهدوا الصابرين في البأساء والضراء وحين
البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ^(٦٥) .

الاحسان

تشمل الأفعال الحسنة كل خير وكل معاملة ترفع من شأن الإنسان وتهذب نفسه ،
وتقرره من خالقه ، وعلى هذا جاءت وصايا القرآن في الدعوة إلى الترغيب في إتيان
الاحسان .

وتعاليم القرآن في الاحسان تعالج بما يؤثر في الشخصية الإنسانية ، وبما يتحقق فيها المثل
العليا التي ما زال يدعو إليها رواد الاصلاح في العالم .
والاحسان واجب طبيعي في الإسلام وعلى الإنسان أن يحسن إلى غيره كما أحسن الله
إليه من تلك النعم الخيرة التي أسبغها الله عليه ، قال تعالى :
﴿ وَأَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ﴾ ^(٦٦) .

والمحسنون من الناس يشعرون بطمأنينة نفسية لا يشعر بها غيرهم » وذلك لما يدخلون
من السعادة والود والمحبة إلى نفوس غيرهم . لذلك رفع قرآن منزلة المحسن إلى درجة
الاخلاص لله » ورغب في الإتيان بها يقول سبحانه : ﴿ وَمَنْ سَلَمَ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعَرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ ^(٦٧) وقال تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ
عَشْرُ أَمْثَالَهُ ﴾ ^(٦٨) .
ولا ننسى أن الجهاد في سبيل الله سواء بالنفس أو المال هو من الاحسان : ﴿ وَالَّذِينَ
جَاهُوكُمْ فِي أَنْجَحُوكُمْ بِسْبِيلِ اللَّهِ سَوَاءٌ بِالنُّفُسِ أَوِ الْمَالِ هُوَ مِنَ الْإِحْسَانِ ﴾ ^(٦٩) .

وكثيرة هي الآيات التي رغب القرآن فيها ودعا إليها ، لما تحدث بين الأفراد من محبة
وإلفة ورباط اجتماعي وثيق . كل ذلك يوضح لنا أن الإحسان الذي دعا إليه الإسلام هو
غاية ما تصبو إليه الإنسانية لاقرار السلام ، ونشر المحبة والوئام بين الأفراد والجماعات . وأي
خير يغمر الناس جميعاً إذا سيطرت عليهم صفة الاحسان » إنهم أخرى بأن يحققوا المدينة
الفضلة التي تخيلها الفلاسفة والتي طبقها الإسلام .

ولا ننسى تأثير الاحسان في استبعاد القلوب والانقياد عفواً دون أي حساب وراء من
نحب ، قال الشاعر :

أحسن إلى الناس تستبعد قلوبهم فطالما استبعد الانسان إحسان

العفو

هو من الصفات الحميدة التي يتحلى بها الإنسان الفاضل صاحب النفس الكبيرة والعقل

(٦٥) البقرة الآية 177 .

(٦٦) القصص الآية 77 .

(٦٧) لقمان الآية 22 .

(٦٨) الأنعام الآية 160 .

(٦٩) العنكبوت 69 .

الراجح ، الصابر على تحمل اعتداء الغير وأذاه . فكثيراً ما نخطئ وننزل ، وكثيراً ما يخطئون نحن الآخرون ، فنفتقر إلى العفو والغفران » وإن لم نغفر لمن أساء إلينا فلا يغفر لنا » لأن مقابلة الائمة بالاحسان تتزعم من نفس المعتدي البغضاء ، وتردعه عن غيه وطبيشه ، وتحول بغضائه إلى مودة . لذلك دعا الله إلى مقابلة شرور الناس بالاحسان إليهم فقال تعالى : ﴿ وَلَا تُسْتَوِي الْحَسْنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنٌ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَدَاوَةٌ كَانَهُ وَلِي حِيمٌ ﴾⁽⁷⁰⁾ .

ولما كانت بعض النفوس جبلاً على الاعتداء ، فقد وضع الاسلام علاجاً لها ، لمنعها من التمادي في غيها . ولكن بالرغم من هذا لم يفل من ترجيح العفو قال سبحانه : « وجاء سيدة سيدة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله أنه لا يجب الظالمين . ولن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغبون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم . ولن صبر وغفر ان ذلك من عزم الأمور»⁽⁷¹⁾ .

هذا هو مذهب الاسلام بالاعفو ، ولا ريب أن الانسان إذا عفا وهو متمكن من القصاص كان عفوه فيه رحمة وعزّة . وهذا العفو قد يؤدي في كثير من الأحيان إلى صدقة قوية بين المتخاصمين ، لأن المعتدي يؤلمه هذا العفو من قادر على القصاص ، فيعمل على إرضائه ومحو آثار الاعتداء من نفسه .

الصدق

من أكمل الصفات في الانسان الصدق ، فهو الذي يكفل الاستقرار في المجتمع ، ويضمن الثقة بين الأفراد ، لذلك اعتمد الاسلام أساساً من أسس الفضائل التي بني عليه مجتمعه . وقد سارت على هديه المجتمعات الراقية المتحضرة . والصدق من ضرورات المجتمع الذي ينبغي أن ينال حظاً عظياً في الأسرة والمدرسة والجامعة وجميع المؤسسات ، فيه رد الحقوق ، وبه يمحى الكذب ، وبه تتوثق الصلات بين الناس وتسهل المعاملات . فالصادق لا يسرق ولا يفعل المحرمات ولا يتعدى على حقوق الغير ، وبذلك يكسب رضى العباد ورضى رب العالمين .

وقد دعا الله سبحانه للتلحق بالصدق فقال مخاطباً المؤمنين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾⁽⁷²⁾ .

وقال النبي ﷺ في الدعوة إلى الصدق : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عبد الله كذاباً»⁽⁷³⁾ .

. (70) فصلت الآية 34.

. (71) الشورى الآية 40-43.

. (72) الأحزاب الآية 70.

. (73) راجع صحيح مسلم .

ومن أنواع الصدق صدق الوعد الذي هو من الصفات الحميدة التي يتحلى بها الإنسان ٠ وهو سبب جوهري من أسباب النجاح في هذه الحياة ، لذلك بشر الله الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم . قال تعالى :
﴿... وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾⁽⁷⁴⁾ .

وقال سبحانه ﴿وذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾⁽⁷⁵⁾ .

الاصلاح بين الناس

من أهداف المؤمن ليس تجنب الإضرار بالناس ، وإنما عليه أن يسعى إلى الإصلاح بين الناس . ذلك أن العداوة بين أصدقاء كل من المتعارفين قد تتتطور إلى خصام ومشاجرة وربما إلى سفك دماء . فالإصلاح بين الناس من أ Nigel الصفات الانسانية التي لا تصدر إلا من قلوب خيرة كريمة ، أحبت الغير وسعت إلى الدفاع عنه . وهل أفضل من الإصلاح الذي يجعل الناس وحدة متماسكة تسعى لبعضها البعض ؟ لهذا أمر الله به بقوله سبحانه :
﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾⁽⁷⁶⁾ .

ودعا سبحانه إلى الإصلاح بين طوائف المؤمنين : « وأن طائفتان من المؤمنين اقتلوا فأصلحوا بينهما﴾⁽⁷⁷⁾ .

وكثيراً ما يحصل الشرارة والتناجي بين الناس مما لا خير فيه ، فيغتاب البعض البعض الآخر أو يحيكون المؤامرات ضد من سبقوهم في السلطة بقصد الاستعلاء عليهم ، لذلك حدد القرآن السبيل الفاضل الذي يجب أن يسلكه الناس في تناجيهم وهو تأمين حاجات الطبقة الفقيرة والأمر بالخير ، والاحسان والاصلاح بين المتساغدين والمتساخصمين ، ومن يفعل هذه الأعمال لوجه الله فإنه سبحانه يجزيه الثواب العظيم والأجر الجزيل .

قال تعالى : ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدق أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾⁽⁷⁸⁾ .

فتأمل هذه الروعة التي يحملها النص القرآني من السمو الخلقي الذي تفتقر إليه الجماعة للحصول على الأمان والاستقرار . واليوم كم هي الانسانية بحاجة لمثل هذه التعاليم السامية لتزييل البلبلة والتنازع من صفواف أفرادها ، وتطرد البغضاء والتھاد والمؤامرات . كل ذلك بسبب إغفالها التعاليم الاسلامية التي دعا إليها القرآن الكريم وشجع على القيام بها منذ قرون خلت .

. (74) يونس الآية 2.

. (75) مريم الآية 54.

. (76) الحجرات الآية 10.

. (77) الحجرات الآية 9.

. (78) النساء الآية 114.

التعاون

من أبرز ميزات الحياة الروحية التي دعا إليها الإسلام التعاون على الخير ، للنهوض بالحياة الاجتماعية إلى المستوى الإنساني الرفيع الذي يؤدي إلى سعادة الجماعة والتحفيز من ألامها . وقد أدركـت المدنـية الحديثـة هذه المـيزة الفـاضـلة ، فـأسـرـعت إـلـى تـالـيـفـ الجـمـعـيـاتـ والـتـعـاـونـيـاتـ الـتـيـ تعـطـيـناـ الدـلـيـلـ القـاطـعـ عـلـىـ فـوـائـدـ التـعـاـونـ وـضـرـورـتـهـ لـاسـعـادـ الـفـردـ وـالـجـمـاعـةـ .

هـذـاـ الـمـبـدـأـ الـخـيـرـ الـعـظـيمـ كـانـ لـهـ الـحـظـ الـأـوـفـرـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ فـدـعـاـ إـلـيـهـ آـمـرـاـ بـالـتـعـاـونـ نـاهـيـاـ عـنـ الإـثـمـ وـالـعـدـوـانـ .ـ قـالـ تـعـالـىـ :

﴿ وـتـعـاـونـواـ عـلـىـ الـبـرـ وـالـتـقـوىـ وـلـاـ تـعـاـونـواـ عـلـىـ الإـثـمـ وـالـعـدـوـانـ ﴾⁽⁷⁹⁾ .

فالتعاون المحب بين الناس دعا إليه الإسلام لأنـه يـسـعـدـ الـجـمـعـ ،ـ وـيـوـحدـ بـيـنـ أـفـرـادـهـ ،ـ وـيـزـرعـ فيـ قـلـوـبـهـ الـمـحـبـةـ وـالـتـعـاطـفـ وـعـرـفـانـ الـجـمـيلـ ،ـ فـإـذـاـ مـاـ تـعـاـونـ جـيـعـاـ عـلـىـ الـبـرـ وـالـتـقـوىـ ،ـ كـمـاـ طـلـبـ مـنـاـ رـبـ الـعـالـمـينـ ،ـ سـعـدـنـاـ فـيـ حـيـاتـاـ وـحـصـلـنـاـ عـلـىـ كـلـ مـاـ نـطـمـحـ إـلـيـهـ مـنـ اـسـتـقـرـارـ وـسـلـامـ .

الإيثار

منـ الصـفـاتـ الـكـريـعـةـ الـتـيـ دـعـاـ إـلـيـهـ الـاسـلـامـ إـلـيـثـارـ ،ـ شـعـارـ النـفـوسـ الـكـبـيرـةـ السـاعـيـةـ دـائـيـاـ إـلـىـ خـدـمـةـ الـاـنـسـانـيـةـ لـاـ جـزـاءـ وـلـاـ شـكـورـاـ ،ـ بـعـكـسـ الـإـثـرـةـ الـتـيـ تـجـعـلـ صـاحـبـهاـ مـذـمـومـاـ مـنـبـوـداـ .ـ وـتـشـمـرـ الـتـبـاعـدـ وـالـتـبـاغـضـ بـيـنـ أـفـرـادـ الـجـمـعـ .

فـإـلـيـثـارـ لـهـ أـكـبـرـ الـأـثـرـ فـتـوـثـيقـ الـمـحـبـةـ بـيـنـ أـفـرـادـ الـجـمـعـ الـواـحـدـ ،ـ يـجـعـلـهـمـ مـتـعـاطـفـينـ يـشـعـرـونـ اـتـجـاهـ بـعـضـهـمـ بـاـنـدـفـاعـ ذـاـئـيـ وـعـبـيـةـ خـالـصـةـ .ـ لـذـلـكـ طـلـبـ الـيـنـاـ اللـهـ فـيـ كـتـابـهـ الـعـزـيـزـ لـتـعـمـلـ بـهـذـهـ الصـفـةـ الـنـبـيـلـةـ وـمـدـحـ قـوـماـ تـخـلـقـواـ بـهـاـ .ـ قـالـ تـعـالـىـ :

﴿ وـيـؤـثـرـونـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ .ـ وـلـوـ كـانـ بـهـمـ خـصـاصـةـ وـمـنـ يـوـقـ شـحـ نـفـسـهـ فـأـوـلـئـكـ هـمـ الـفـلـحـوـنـ ﴾⁽⁸⁰⁾ .

وـهـذـهـ الصـفـةـ أـيـضـاـ تـدـلـ بـلـ رـبـ عـلـىـ عـمـقـ الـتـرـيـةـ الـرـوـحـيـةـ الـتـيـ غـرـسـهـاـ الـاسـلـامـ فـيـ اـتـبـاعـهـ ،ـ وـفـيـهـاـ قـبـسـ لـلـذـينـ يـنـشـدـونـ السـمـوـ الـرـوـحـيـ لـخـيرـ الـجـمـعـ الـاـنـسـانـيـ .

هـذـهـ بـعـضـ الصـفـاتـ الـأـخـلـاقـيـةـ الـتـيـ دـعـاـ إـلـيـهـ الـاسـلـامـ وـرـكـاـهـاـ ،ـ لـأـنـ الـاـنـسـانـ لـاـ يـكـنـهـ أـنـ يـبـلـغـ أـيـ مـبـلـغـ مـنـ النـصـوـجـ الـعـلـمـيـ ،ـ أـوـ التـقـدـمـ الـاجـتمـاعـيـ مـنـ دونـ أـنـ تـسـتـوـرـ لـهـ هـذـهـ الـتـرـيـةـ الـوـاعـيـةـ .ـ الـتـيـ تـتـكـفـلـ بـنـاءـ شـخـصـيـةـ الـفـرـدـ وـقـيـامـ مـجـمـعـ إـنـسـانـيـ صـالـحـ .

وـلـقـدـ تـرـكـتـ مـسـاعـيـ الـأـنـبـيـاءـ الـعـظـامـ وـالـرـسـلـ الـكـرـامـ عـلـىـ تـحـقـيقـ الـخـالـيـةـ الـكـبـرـيـةـ مـنـ الـعـلـمـ وـمـكـارـمـ الـأـخـلـاقـ ،ـ بـاـذـلـينـ فـيـ سـبـيلـ ذـلـكـ أـعـظـمـ الـجـهـودـ يـدـلـلـنـاـ عـلـىـ ذـلـكـ أـنـ اللـهـ سـبـحـانـهـ خـصـ .ـ الـأـنـبـيـاءـ بـمـكـارـمـ الـأـخـلـقـ وـجـعـلـهـمـ أـسـوـةـ حـسـنـةـ لـأـمـهـمـ ،ـ وـنـخـصـ مـنـ بـيـنـهـمـ بـالـذـكـرـ نـبـيـنـاـ مـحـمـدـ ﷺ .ـ فـقـدـ وـصـفـهـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ :

﴿ وـاـنـكـ لـعـلـىـ خـلـقـ عـظـيمـ ﴾⁽⁸¹⁾ .

.(79) المائدة الآية 2.

.(80) الحشر الآية 9.

4 (81) القلم الآية

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام : « سمعت النبي ﷺ يقول : « بعثت بكم الألطف ومحاسنها » وقال (ع) : عنوان صحيفة المؤمن حسن خلقه⁽⁸²⁾ . ومن وصايا الرسول الكريم ﷺ بكارم الأخلاق واهتمامه البالغ بتقييف النفوس البشرية لتعلو الى أوج السعادة » قال : ان أحبكم إلى « وأقربكم مني مجالس يوم القيمة ، أحسنكم أخلاقاً ، الموطشون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون »⁽⁸³⁾ .

وقال ﷺ : « إن الله حينما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخلق الناس بخلق

حسن⁽⁸⁴⁾ »

أجل لقد اهتم الدين الاسلامي اهتماماً بالغاً بالانسان جسداً وروحًا ، وهو عنده سبحانه أفضل مخلوق على وجه الأرض إذا كان كما أراده الله أن يكون ، متسلحاً بالعلم والأخلاق فهما له الحصن الحصين ليترفع بهما الى المستوى الانساني اللائق به في الحياة الحرة الكريمة . وما من شك أن التعاليم السماوية بواسطة الرسل الكرام هي نور وهدى ٍ وهي الينبوع الأصيل الدائم لكل زمان ومكان ، وكل التعاليم الأخرى مصيرها الى الزوال من أي مصدر كان .

(82) و(83) مجمع البيان للطبرسي ج 1 ص 333 ومن لا يحضره الفقيه ص 458 . والبخاري - فضائل الصحابة ص 23 .

(84) و(85) الأخلاق الاسلامية للسيد علي فضل الله ص 10 .

الباب الثاني

لمحة عن الحركة الفقهية والتشريعية في الاسلام

الفصل الأول

حاجة الأمة إلى التشريع

التشريع هو مجموعة من القوانين والقواعد والأحكام يضعها المشرع لتنظيم الروابط الفردية والاجتماعية بين الناس ، وبيان ما لهم من الحقوق وما عليهم من واجبات ، ولو لا لعمت الفوضى في البلاد وسيطر الظلم ، فأخذ القوي بقوته الشخصية كل ما يريد ، وقد المستضعف كل أسباب الحياة الكريمة ومقوماتها .

ولما كان التشريع هذه الغاية الإنسانية النبيلة فلا بد للمشرع أن يتجرد عن أهوائه الخاصة ومصالحه الذاتية ، وأن يكون مخلصاً فيما يضعه من القوانين والمبادئ العامة التي تهدف إلى حماية المجتمع من طغيان القوي الجامح والأثرة وحب الذات . ومن الصعب أن تتحقق هذه التزاهة في التشريع إذا وضعه موظف الدولة الممالي للحكم ، لأنه يستمد عندئذ قوته وفعاليته من سلطة الحكم التي تشرف على وضعه لنفرضه على الناس . وكثيراً ما تتحكم في مثل هذا التشريع الأهواء والغايات الشخصية . فتراعي فيه حالات خاصة وظروف معينة قد يتأثر بها رجال التشريع ، إما بدوافع نفسية خاصة وإما بإيحاء من يملكون التوجيه . لذا للاحظ معارضه الأكثرية من المواطنين يطالبون بالتعديل والتغيير .

أما التشريع السماوي الذي يصدر من حكيم خبير عليم ، محبط بجميع الأمور وال حاجات ، لا يضل ولا ينسى ، متزه عن الغرض والهوى وجميع المؤثرات والانفعالات ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وفي الوقت نفسه يربى في القلب طهارة النفس ، ويقطة الصميم ، وقوة الاحساس بالواجب . هذا التشريع العادل الحكيم يعني بتوثيق العلاقة بين الإنسان وأخيه ، وبينه وبين خالقه ، رب العالمين ، فيشجع على الطاعة ويبشر العاملين به أجرًا جزيلاً وثواباً عظيمًا . قال سبحانه وتعالى :

﴿... من آمن بسأله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾⁽¹⁾ .

وقال عزّ وجل : ﴿فَإِنَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخَلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكُ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾⁽²⁾ .

(1) البقرة الآية 62 .

(2) الجاثية الآية 30 .

وإذا أحصينا الآيات الكريمة التي تحت على العمل الصالح وتحزى المحسنين بأعمالهم الصالحة لبلغت أربع وسبعين آية .

إن العامل بما يفرضه التشريع السماوي لا يتخلص من مسؤولية العقاب فحسب ، بل يأخذ على عمله الأجر . أما غير العامل بالشريعة السماوية فجزاؤه في الآخرة بالإضافة إلى ما يلقاه في الدنيا التي تفرضها الشرائع .

من أجل ذلك كانت القوانين السماوية أقوى أثراً في نفس المؤمن بالله ، حيث لا مجال للتهرب من مسؤوليتها في الآخرة ، إذا ما استطاع أن يهرب من العقاب المفروض على مخالفتها في الدنيا .

فالتشريع الانساني الذي حدد للناس علاقتهم بالله سبحانه وبالمجتمع ، وبين لهم حقوقهم وواجباتهم ، وحد من كبرياتهم وطغيائهم ، ونظم لهم صلاتهم بالله وبالناس ، وعالج جميع شؤونهم هو التشريع الاسلامي . لقد جاء وأفيا بحاجة الانسان ، عادلاً في قوانينه ، سليماً في مبادئه ، صالحاً لكل زمان ومكان . فالإسلام هو الذي جمع بين متطلبات الروح وحاجات الجسد ، وربط بين مصالح الدنيا وأوامر الدين ، فلكل إنسان الحق في أن يأخذ نصيبه من الدنيا كاملاً غير منقوص ، ويساهم في بناء المجتمع الصالح البعيد عن البغي والطغيان . قال سبحانه وتعالى : «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين »⁽³⁾ .

يجد الباحث في التشريع الاسلامي ثروة غنية مفيدة تهب المسلم المؤمن الكثير من صنوف العطاء ، وتلبى حاجاته ورغباته بجميع متطلبات الحياة منها امتد الزمن ، وتطورت أساليبه ، واتسعت أساليبه في ميادين العلم المختلفة . قال تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون »⁽⁴⁾ .

لقد أمر الإسلام بالعلم الذي يচقل العقول ويحررها من الأهواء والأوهام ، ويظهرها من الخرافات ، كما أمر بالعدل والإحسان والإخاء والمحبة ، ورفض التفاضل بغير العمل الصالح وخدمة الإنسانية « الناس كلهم عباد الله وأقربهم إليه أنفهم لعياله » ونهى عن الكذب والدس والظلم وكل ما يدنس الحياة ويعيقها عن التقدم والتطور ، وحارب الاستغلال والجشع والاحتكار .

إن الإسلام بمبادئه العادلة وتشريعاته الإنسانية وفر للإنسان العزة والكرامة ، والسعادة في الدنيا والآخرة ، تلك المبادئ الحية والنظام الصالحة لبناء أمة قادرة على أن تسهم في بعث العالم ووحدته ونهضته ، هي من صنع خالق الإنسان ، وليس من صنع الإنسان الذي يخطيء ويصيّب ، ويندفع مع أهوائه ونزواته التي تطغى عليه في أكثر حالاته . إنها مبادئ

(3) القصص الآية 77

(4) الانعام الآية 38.

إنسانية عالمية ترتكز على أساس العقيدة بالله سبحانه ولا تدع مجالاً في نفس الباحث إذا كان مجرد لطلب الحق .

فالإسلام كغيره من الشرائع السماوية يحرص كل الحرص على محاربة الأخاد والوثنية . ويقيم العشرات من الأدلة والبراهين التي لا تقبل الجدل على أن الإنسان مدين في أمره لقوة تسير هذا الكون ، وقده بالطاقة الكاملة والتفكير القوي ، ليتبرج ويكافح ويعاون ولديحقق كل طموحاته وأهدافه . هذه القوة هي السبب في كل شيء وإليها تنتهي جميع الأسباب ، فهي الطاقة التي أمدت المخلوقات بما فيها من امكانيات على اكتشاف الحقائق ، وأسرار الطبيعة . وكلما تقدم الفكر وتتطور العلم ، أدرك الإنسان جهله وعجزه عن الإحاطة بنظام هذا الكون ، وأحس أنه لا يزال في بداية الطريق . وإن ما وصل إليه لا يعد شيئاً بالنسبة لما بقي مستوراً عنه منها أبدع في الانتاج ، وأفاد البشرية من خيرات الأرض وأسرار الفضاء . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُسَأَلُونَكُمْ عَنِ السَّرُوحِ قُلْ السَّرُوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيٍّ وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾⁽⁵⁾ .

الاسلام كتشريع سماوي إنساني ، حريص على أن يرشد الانسان إلى تلك القوة المدببة لهذا النظام الكوني الشامل . فالإيمان بالله هو الركيزة التي تقوم عليها دعائم الاسلام . وأكثر ما جاء في القرآن الكريم من آيات بينات نزلت على الرسول ﷺ في الأيام الأولى منبعثته قبل هجرته إلى المدينة المنورة ، معظمها نزل عليه في مكة المكرمة وكلها ترجع إلى توحيد الله سبحانه وبأساليب مختلفة « فمرة بالأدلة والبراهين » وأخرى بالأمثال والنظائر « وثالثة بالتحذير والتخويف من أهوال النار وعذاب الآخرة ، أعدهما الله سبحانه للكافرين والجاحدين .

وكلما تخلو سورة من سوره عن آية أو آيات تدعو إلى الإيمان بالله ووحدانيته ، بأساليب مختلفة وذلك حسب اختلاف الإنسان في تفكيره وسمو إدراكه⁽⁶⁾ . قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُمَّ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ كما أن توحيد الله قد جاء به الرسول من أولهم إلى آخرهم ، قال عز وجل مخاطباً رسوله محمد^ﷺ : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أن لا إله إلا أنا فاعبdenون ﴾⁽⁷⁾ .

وبعد أن تناول القرآن « التوحيد » وهو القاعدة الأولى في الإسلام التي يجب أن يعتقد بها قلب المسلم وينطق بها لسانه بقوله -أشهد أن لا إله إلا الله - إنطلق إلى المرحلة الثانية « مرحلة التشريع والتنظيم فتناول القرآن الكريم قسماً منه ، والقسم الثاني تلقاه الرسول ﷺ من الوحي حسب الحاجة ، وهو بدوره بلغه إلى المسلمين في الوقت المناسب وحسب حاجتهم إليه .

قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بُلْغُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ ﴾

(5) الاسراء الآية 85.

(6) البقرة الآية 163.

(7) الأنبياء الآية 25.

رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين ⁽⁸⁾ وقد بلغت آيات كتاب الله الواردة في مقام تشريع الأحكام سواء ما كان منها في الأحوال المدنية أو الأحوال الشخصية أو الجنائية أو القضائية أو العبادات ، نحوً من خمسة آيات .

وال المسلمين طوال حياتهم مع الرسول ﷺ كانوا يأخذون منه الأحكام مباشرة ، وقد يرجعون إلى الكتاب فيها كان نصاً في حكم ، أو ظاهراً فيه ظهوراً يحصل منه الاطمئنان بالغاية المطلوبة ؛ هذا في الداخل ، أما من كان خارج العاصمة فكان الرسول ﷺ يبلغهم الأحكام بواسطة القضاة والولاة ، أو بواسطة العبيثات التي كان يبعث بها إلى خارج المدينة . كل ذلك من أجل إدارة تلك المناطق سياسياً ودينياً واجتماعياً .

ولما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى انتهت قيادة المسلمين من بعده إلى الخلفاء . فالخليفة وأعوانه يشرفون على تنظيم الدولة « وتطبيق الرسالة الإسلامية . وفي المدينة ، مهد الحكومة الإسلامية ، كان الكثير من صحابة الرسول ﷺ الذين رافقوه منذ اليوم الأول في دعوته المباركة ، وجاهدوا معه وأزروه في جميع غزواته التي خاضها ضد المشركين والكافر » . وبالبعض الآخر آمن بالإسلام ومبادئه على مراحل ، مرت من جهاد الرسول في سبيل الدعوة ؛ وما لا شك فيه أن بين هؤلاء وأولئك عدداً ليس بالقليل ، قد أحاطوا الأحكام وأدركوا أسرار الكتاب نصه وظاهره ، وحمله وبينه ، وأخذوا عن الرسول أحكاماً كثيرة لم تفصلها النصوص القرآنية وآيات التشريع ، وهؤلاء هم الذين نعنفهم ، من بين الصحابة الكثير الذين سموا أنفسهم بالصحابة وهم منها براء . هؤلاء الصحابة الفقهاء قاموا بنشر رسالة الإسلام وتعاليمه القوية ، فكانوا المرجع في التشريع حتى عهد التابعين وتابعيهم .

نخلص من هذا كله إلى القول أن التشريع أمر لا بد منه لحفظ النظام وبناء مجتمع صالح ، يلبي حاجات الأفراد ، وتسود العدالة والحرية والمساواة . والتشريع الإسلامي جاء وافياً بكل ما ذكرنا ، شاملًا لجميع حاجات الإنسان في الدارين ، الدنيا والآخرة . مساوياً بين الناس جميعاً ، فلا سيد ولا مسود ولا ظلم ولا عدوان ، الناس كلهم لأدم وأدمن تراب ، لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على أعجمي إلا بالتفوي ، قال سبحانه وتعالى مخاطباً الرسول محمد ﷺ « وما أرسلناك إلا كافية للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون »⁽⁹⁾ . وقال سبحانه في موضع آخر : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »⁽¹⁰⁾ .

حرص الإسلام في تشريعاته الاجتماعية على تصفية النفس الإنسانية من الشوائب والرذائل التي يؤدي الاستمرار عليها إلى الشرك بالله ، فلا تبصر الحق ولا تدرك الواقع الصحيح حتى يكون الشيطان لها قريباً؛ يمينها حسن العاقبة وأنها على صواب فيما تسوهم . قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَفِيسٌ لَهُ شَيْطَانٌ فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، وَأَنَّهُمْ لِيَصْدُونَهُمْ عَنْ

(8) المائدة الآية 67.

(9) سبأ الآية 28.

(10) الأنبياء الآية 107.

السبيل وينسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيبي وبينك بعد المشرقيين فيئس
القرين ⁽¹¹⁾ .

٤- بين عصر الصحابة وعصر المذاهب الفقهية :

بعد وفاة الرسول ﷺ وبعد وفاة آخر الصحابة ⁽¹²⁾ في أواخر القرن الأول الهجري « بدأ عصر جديد كان تمهدًا لظهور المذاهب الفقهية على أيدي الفقهاء الأعلام والعلماء الرواد » الذين أسسوا المدارس الدينية والمذاهب الإسلامية التشريعية . فبعد أن فتحت الشام ومصر وفارس والعراق « واتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، وامتزجت حضارات تلك البلدان بالحضارة الإسلامية ، عرضت للناس وقائع جديدة وأحداث لا عهد لهم بها من قبل ، استدعا ذلك وضع بعض التشريعات في العاملات والقضاء والحلال والحرام . فكان لا بد أن تكون المدارس الفقهية ، وأوّلها مدرسة المدينة المنورة ودار السنة المشرفة ، موطن الطبقة الأولى من علماء الصحابة كعبد الله بن عباس وزيد بن ثابت ، وعلى بن أبي طالب⁽¹³⁾ .

اشتهرت مدرسة المدينة بفقهاها المعروفين في عالم الفقه والتشريع ، وأوّلهم علي بن أبي طالب المتوفى سنة 40 هـ وسلامان بن يسار المتوفى سنة 37 هـ وعروة بن الزبير القرشي المتوفى سنة 92 هـ ⁽¹⁴⁾ وسعيد بن المسيب القرشي المتوفى سنة 94 هـ وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المتوفى سنة 94 هـ وعبد الله بن عقبة بن مسعود المتوفى سنة 98 هـ⁽¹⁵⁾ والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق المتوفى سنة 106 هـ .

وقد بدأت الحركة الفقهية في انطلاقتها الأولى على أيدي هؤلاء الفقهاء « ومن أقوالهم الحكمة التي كانت الحجر الأساس في التشريع الإسلامي . وكثير غير هؤلاء الأعلام في الفقه والتشريع وردت أسماؤهم في علم الرجال ذكر منهم : علقة بن قيس وكان عالماً فقيهاً من روّاس محدثي الكوفة ، وسعيد بن جبير⁽¹⁶⁾ من

(11) الزخرف الآية (36-37-38)

(12) آخر الصحابة هو أبو الطفيلي عامر بن وائلة الليثي الكناني كانت وفاته عام مئة (راجع الاصابة في تميز الصحابة للمسقلاني ج 1 ص 6) .

(13) هو ابن عم الرسول ورببه كرم الله وجهه لأنه لم يسجد لصنم امتاز بعلمه وفقهه وأدب وحكمه ، كان له تأثير كبير في مدرسة الكوفة كها في مدرسة المدينة .

(14) وهو أبو عبد الله بن الزبير .

(15) راجع تاريخ الحضارة العربية للأستاذ ناجي معروف ص 135 .

(16) قال له الحاج لما دخل عليه بعد طلب منه : أنت شقي بن كسرى . أجابه : أمي كانت أعرف باسمي ، سمعتني سعيد بن جبير . قال الحاج : ما تقول في أبي بكر وعمر ، هما في الجنة أو النار ؟ قال : لو دخلت الجنة ونظرت أهلها لعلمت من فيها . قال : ما تقول في الخلفاء ؟ قال : لست عليهم بوكيل . قال : أيهما أحب إليك ؟ قال : أرضيهم خالقه . قال : أيهما أرضيهم خالقه ؟ قال : علم ذلك عند ربي ، الذي يعلم سرهم ونجواهم . قال : أبىت أن تصدقني ؟ قال : أبىت أن أكذبك .

وعن تقريب ابن حجر أن سعيد بن جبير الكوفي الثقة الفقيه ، قتله الحاجاج صبراً . (راجع تاريخ الفقه الجعفري للسيد هاشم معروف الحسني ص 263) .

أعلام مدرسة الكوفة وأحد فقهائها الأعلام ، قال عنه الحضرى في تاريخ الفقه الاسلامي نقاً عن الذهبي : أنه من أئمة التشريع في الكوفة ، كما عده العقوبى في تاريخه من الفقهاء الذين كانوا يفتون الناس في عصرى الوليد وسلمان ابن عبد الملك . قتلته الحجاج بن يوسف .

ومن فقهاء التابعين : حبيب بن أبي ثابت الأستاذى . حدث عن سعيد بن جبير ، وروى عنه سفيان الثورى وأبو بكر بن عباس وأخرون . ورد في تاريخ التشريع الاسلامي للحضرى : إنه أحد الفقهاء الذين تخرجوا من مدرسة الكوفة .

ومن الفقهاء المعروفين ومراجع المسلمين ، أبو الأسود التؤلى ، كان من أكمل الرجال رأياً وعقولاً ، وعن أبي الفرج الأصفهانى : إنه كان من سادات التابعين وأعيانهم ، وقد وضع علم النحو بارشاد علي بن أبي طالب⁽¹⁷⁾ .

قال عنه السيد عبد الحسين شرف الدين في المراجعات : لقد احتاج بحديشه أصحاب الصحاح الستة ، وحديشه في صحيح البخاري ومسلم عن أبي ذر الغفارى وعمر بن الخطاب ، وكان مما أوصى ولده : « يا بني إذا وسع الله عليك فأبسط ، وإذا أمسك عليك فأمسك ، ولا عز كالعلم . إن الملوك حكام الناس والعلماء حكام الملوك » ومن فقهاء الكوفة المعروفين عامر بن عمر الليثي ، كان فاضلاً عاقلاً فقيهاً فصيحاً حاضراً الجواب . روى عنه كل من الزهرى والحريرى وقادة والقاسم بن أبي بردة ، وعمر بن دينار ، وعكرمة بن خالد وغيرهم . وحديشهم عنه موجود في صحيح مسلم . روى في القدر عن عبد الله بن مسعود ، وروى عن علي بن أبي طالب وحنظلة بن أسيد ، وعبد الله بن عباس ، وعمر بن الخطاب كما يعلم الباحثون عن رجال الأسانيد في صحيح مسلم . ولقد عده ابن قتيبة من رجال الشيعة ومن بداهته في حسن الجواب ، ما روى عنه لما وفدى على معاوية سأله : كيف وجذك على خليلك أبي الحسن ؟ قال : كوجد أم موسى على موسى ، وأشكوك إلى الله التقصير . قال له معاوية : لقد كنت فيمن حصر عثمان ؟ قال : لا ، ولكنك كنت فيمن حضره . قال : فيما منعك من نصره ؟ قال : وأنت ما منعك من نصره ، إذ تربصت به المنون ، وكنت في أهل الشام ، وكلهم تابع لك ؟ فقال معاوية : أو ما ترى طلبي لدمه نصرة له ؟ قال : إنك كما قال الشاعر :

لألفيت بعد الموت تدبني وفي حياتي ما زودني زادي⁽¹⁸⁾

ومن هؤلاء أيضاً ابراهيم بن يزيد النخعي ، نقل حديشه البخاري ومسلم عن علقة بن قيس وغيره ، وروي عنه في الصحيحين وفي صحيح مسلم جماعة كثيرون⁽¹⁹⁾ . وقال عنه الشيخ الحضرى : ابراهيم بن يزيد النخعي كان فقيه العراق ، كان من العلماء ذوي

(17) المراجعات للسيد عبد الحسين شرف الدين .

(18) مراجع تاريخ الفقه الجعفرى للسيد هاشم معروف الحسنى ص 217 .

(19) المراجعات للسيد شرف الدين ص 52 .

الأخلاق⁽²⁰⁾ . وقال عنه أيضاً الدكتور محمد يوسف : أنه زعيم أهل الرأي وشيخ الإمام أبي حنيفة ، كان فقيه العراق بالاتفاق . وقد ذهب هذا الإمام الجليل إلى أن أحكام الشريعة لها معانٌ معقولة ، كما قاتم على علل تفهم من الكتاب والسنّة ، وإن على الفقيه إدراك هذه العلل ليجعل الأحكام تدور معها . وكان على خلاف في ذلك مع سعيد بن المسيب « الذي كان همه البحث عن النصوص والأثار أكثر من بحثه عن العلل⁽²¹⁾ .

هؤلاء بعض أعلام الفقهاء من مدرسة الكوفة الذين كان لهم دور بارز في شرح الأحكام الإسلامية ، والذين ساهموا في حقل الافتاء في عهد التابعين ، وكانوا فيه من مراجع المسلمين في عصرهم ، وقد أخذ عنهم الفقهاء الأجلاء والمحدثون المخلصون من عاصرهم ، بالرغم من قسوة الحكم عليهم ، والرقابة الشديدة على جميع تصرفاتهم ، بداعي القضاء على الحد من التشيع ، وتسخير جميع الطبقات من العلماء والفقهاء والمحدثين لصالحهم وأغراضهم السياسية . وما يبدو أن آراء هؤلاء جميعاً في الفقه لم تظهر عليها صبغة التشيع كما ظهرت في عهد الصحابة ، وفي عهد الإمامين العظميين ، محمد الباقر ، وعمر الصادق عليهما السلام . شغلت مدرسة الكوفة وكل من تخرج منها من الفقهاء الشيعة ، بالحكم ، لأن المبدأ الذي ترتکز عليه نظرتهم يحمل في معناه روح الثورة على كل حاكم لا يتخذ المبادئ الإسلامية دستوراً عملياً لحكومته ، لا سيما وانهم اتخذوا منهجاً عقلياً في تفكيرهم وذلك بعد اتصالهم بالشعوب التي غرها الإسلام . وكان فقهاء مدرسة الكوفة من أكثر الفرق الإسلامية انطلاقاً في تفكيرهم وتشريعهم المواقف للأصول التي وضعها القرآن الكريم والسنّة الشريفة .

فنظريّة الاختيار التي تحمل في مضمونها أنّ الإنسان هو الذي يصنع مصيره بنفسه ، وهو المسؤول عن أعماله وكل تصرفاته غير مسيّر أو مُجْبُر . هذه النظريّة تجعل الحاكم مسؤولاً عن جميع تصرفاته وأحكامه اتجاه الرعية . والنظريّة الثانية هي نظرية العدل ، التي تقرر استحالّة الظلم من المُخلّق ، الرحمن الرحيم ورب العالمين ، ولازمها بلا ريب عدم مساواة المُجرم بغيره في الجزاء وذلك عملاً بحُكمة الآية الكريمة :

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يُرَهِّبُهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يُرَهِّبُهُ﴾ (22).

هاتان النظريتان ، كانتا مسرحاً واسعاً للجدال والنقاش بين فرق المسلمين . فالفقهاء الشيعة سلكوا مسلكاً يتفق مع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حيث قالوا : ان الانسان مسؤول عن جميع اعماله وتصرفاته ، حاكماً كان أم ممكيناً ؛ بينما سلك غير الشيعة مسلكاً آخر ، يتفق مع مصلحة الحكام ورغباتهم حيث يجدون فيه المبررات لمليتهم عن الحق وعدوانهم على كل من لا يقر سياستهم الظالمة . لذلك أمعن الحكام الظالمين في تسخير الأفكار وشراء الضمائر للذين تغرنهم هذه الدنيا ، وقتل وظلم الفريق الآخر من العلماء الأشراف المخلصين ، ومراقبتهم مراقبة دقيقة للغاية .

⁽²⁰⁾ تاريخ التشريع الاسلامي للخضري .

(21) المجمع نفسه .

(22) سورة إنزلة الآية 7 و 8 .

وكان من نتيجة ذلك أن الذين سلموا من الحجاج وغيره من الحكماء كانوا يفتون بما يوافق العامة أحياناً ، لذلك اتسم هذا الدور من التشريع بطابع خاص لم يكن في الدور السابق ولا اللاحق . لذا فقد ظهرت آراء الفقهاء والمفتين في المذاهب الفقهية المختلفة .

نشأة المذاهب الفقهية

لقد ظهر الاجتهداد بين فقهاء الصحابة ويرز في فتاوئهم وأقضياتهم في تطبيق آيات الأحكام ونصوص السنة في موارد كثيرة . ولكن هذه النزعة لم تكن بارزة في حكمائهم وأقضياتهم ، كما برزت في عهد التابعين وتابعهم ، وبصورة خاصة عند فقهاء العراق ، الذين اشتهروا بالرأي ، كما اشتهر فقهاء مكة بالحديث ، وذلك لأسباب عديدة أهمها : الحياة المتتجدة بما عرض لها من تطورات سريعة بعد أن فتح المسلمون بلاداً واسعة كالروماني والفرس وشمال إفريقيا وغيرها من الأقطار التي غزاها الإسلام لنشر رسالته العادلة .

ومما لا ريب فيه أن لكل قطر من هذه الأقطار حضارة خاصة ، وعادات وأعراف مميزة » فالمسلم يرى فروقاً واضحة بين الحياة التي كان يحياها الرسول ﷺ وصحابته في محيطهم المحدود يوم ذاك ، وبين الحياة التي عاشها الفقهاء بعد ذلك التاريخ » عندما انتشر الإسلام في شتى بقاع الأرض ؛ فكان مما لا بد منه أن يتأثر العرب الغزاة ، بما في البلاد المفتوحة من عادات وتقاليد ونظم اجتماعية واقتصادية وسياسية مما يتصل بحياة الإنسان اتصالاً مباشرأً « وتؤثر على تفكيره حتى في فهم نصوص القرآن الكريم ومضمون السنة الشريفة . هذا ما دعا تضاعف جهود الفقهاء وحملة الحديث إلى تطبيق تلك القواعد العامة التي وردت في الكتاب والسنة على تلك الواقع والحوادث التي تجددت مع الزمن ، لا سيما وأن المؤثر عن الرسول ﷺ من قضاء وأحكام ، وما طبقة من تلك القواعد الكلية ، لم تكن في الغالب تشبه ما تجدد مع الزمن ، من أوضاع اقتضتها طبيعة الحياة الجديدة .

وقد اقتضى ذلك أن تضاعف جهود العلماء والفقهاء في البحث عن النصوص التشريعية الإسلامية ، وفهم المراد منها ، ليستطيعوا ربطها بتلك الكلمات الواردة في الكتاب والسنة ، وتطبيقاتها على الجرائم المتتجدة مع تطور الحياة . ومثل هذا التغيير لم تدع إليه الحاجة في عصر الوحي وما بعده من عصر الصحابة ، لعدم التبدل المحسوس في الأوضاع . في تلك الفترة . من أجل ذلك كان لعصر التابعين ذلك الطابع الخاص ، الذي اشتهر فيه العمل بالرأي والاجتهداد بين الفقهاء والمفتين » وعلى الأخص ما كان منهم خارج الحجاز ، كالعراق مثلاً ، التي اشتهر فقهاؤها بأهل الرأي⁽²³⁾ .

هذا النوع من الاجتهداد لا بد منه في مثل هذه الحالات ، لأن الإسلام » وهو دين الفطرة ، لا يكره أحداً على قبول عقیدته ، ولا يضع سداً أمام اجتهداد العلماء ما داموا يسيرون في فلك كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى .

(23) تاريخ الفقه الإسلامي للدكتور محمد يوسف ص 28.

وقد يتسرع على القضاة والفقهاء في بعض الأحيان ربط بعض الحوادث بتلك القواعد العامة التي وردت في الكتاب والسنة ، وفي مثل ذلك لا بد لهم من الاعتماد على أنفسهم والحكم برأيهم ، بعد التحري الدقيق عن الواقع . وقد أقرّ الرسول ﷺ هذا المبدأ عندما أرسل معاذًا إلى اليمن وقال له : « كيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله ، قال ﷺ : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبستنة رسول الله ﷺ ، قال ﷺ : فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيي لا آلو . قال معاذ : فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال : « الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي رسول الله ﷺ »⁽¹⁾ .

إن ذلك الاجتهاد الذي شاع بين فقهاء التابعين ، وامتازوا به عن فقهاء الصحابة ، كان يدور بلا ريب في فلك القرآن والسنة ، وتطبيقات الكلمات على ما تجد من الأحداث التي لم يكن شيء منها يشبه ما كان في عصر التشريع ، عصر الوحي ، وما بعده من فجر عصر الصحابة . والسبب في ذلك ليس كما يقول المستشرق (كولدزهير) في تاريخه ، من أن الإسلام لم يأت على الناس بطريقة كاملة ، وإن القرآن لا يمكن أن تكون أحكامه شاملة لكل هذه العلاقات غير المنتظرة ، مما جاء عن الفتوح ، وأنه كان مقصوراً على حياة العرب البسيطة الساذجة⁽²⁵⁾ .

نقول لهذا المستشرق ولآمثاله الذين أرادوا الدس والتشويه في حقائق التشريع الإسلامي :

إن الباحث بإمعان وإخلاص في أدلة التشريع الإسلامي ، سواء ما ورد منها في العبادات ، أو في المعاملات ، أو في الأحوال الشخصية والجنائية والتربوية وغيرها ، يرى أن القرآن الكريم لم يتوجه في كل أحكامه وخطاباته إلى طبقة خاصة من الناس ، أو صنف من أصناف البشر ، في عصر من العصور ؛ بل توجه بما فيه من تشريع وغيره من أحكام إلى العالم بأسره ، بطريقة كاملة غير منقوصة . ولو قرأ (كولدزهير) الآية وما أرسلناك إلا كافة للناس ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، مبشرًا ونذيرًا وسراجًا منيرا ، لما انتقد مجرحاً

لقد جمع القرآن في تشريعاته وأحكامه بين الدين والدنيا ، وبين متطلبات الجسد وحاجات الروح ، وهو كغيره من القوانين جاء بشكل نظام كلي شامل « تاركاً التفاصيل للقائمين على الدين والشرفين على تففيذه وتطبيقه . ومن ثم كان هذا القانون الإلهي قابلاً للتطبيق في كل زمان ومكان » إذا عرف القائمون عليه كيف يستحوذون أحكامه وأسراره .

وإذا كان يعرف المستشرق بعض العلماء غير الراسخين في العلم ، فهذا لا يعني أن الإسلام غير كامل في أحكامه ولا يوافق إلا حياة العرب الساذجة فقد أخطأ هو خطأ فادحًا . فهل نقول أن الاستشراق كله يخاطئ ! أبداً ، القاعدة لا تقاس بالأفراد ، وإنما العكس هو الصحيح .

(24) رواه أبو داود والترمذى عن طريق الحارث بن عمرو .

(25) تاريخ الفقه الإسلامي « عن العقيدة والشريعة في الإسلام للمستشرق المذكور .

وما لا شك فيه أن الدواعي إلى الاجتهاد في عصر التابعين ، مما استدعته الحاجة ، كان أكثر في بعض الأقطار الإسلامية منها في البعض الآخر . ويمكن تلخيص الأسباب التي من أجلها شاع الاجتهاد والرأي بين فقهاء التابعين بالأسباب التالية :

- كثرة الحوادث والنوازل الناتجة عن انبثاق فجر جديد في الإسلام بعد فتح تلك البلاد الواسعة التي تختلف أشد الاختلاف ، في عاداتها وأعرافها وجميع شؤون حياتها الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، مما أدى بلا ريب إلى الاختلاف في جميع أسباب الحياة . وفي مثل ذلك لا بد من الاجتهاد في فهم النصوص الإسلامية وتطبيقاتها على الحوادث المستجدة التي اقتضتها أوضاع تلك البلاد وأعرافها الخاصة .

- دخول بعض العناصر الأجنبية في الإسلام الذين عرفوا بالموالي . اعتمد هؤلاء على الفكر أكثر من اعتمادهم على الحفظ ، وقد نبغ فريق منهم في الفقه والحديث والأدب والعلوم الأخرى ، فأخذوا من الصحابة والتابعين . وأصبح في كل حاضرة إسلامية فقيه منهم ، يرجع إليه عامة الناس في أحكام دينهم . جاء عن أعلام الموقعين لمصطفى عبد الرزاق :

« لقد انتقل الفقه ، بعد موت العابدة في جميع البلدان إلى الموالي ، فكان فقيه مكة عطاء بن رياح ، وفقيه أهل اليمين طاوس ، وفقيه أهل اليمامة يحيى بن كثير ، وفقيه أهل الكوفة ابراهيم النخعي ، وفيه البصرة الحسن البصري ، وفقيه أهل الشام مكحول ، وفقيه أهل خراسان عطاء ؛ إلا المدينة ، فكان فقيهها سعيد بن المسيب »⁽²⁶⁾ .

وقد نتج من اتساع رقعة الإسلام وانتقال الفقه إلى التابعين من العرب وغيرهم ، الذين انتشروا في البلاد لتعليم الأحكام ، فنحووا منهاجاً جديداً في البحث عن العلل والأسباب ، والمصالح والمقاصد ، وسلكوا طريقة لم تكن معروفة في زمان الصحابة ، ولم تدع الحاجة إليها . كل ذلك أدى حتى إلى اختلاف آرائهم في الفقه ، وكثير الخلاف بينهم في الفروع ، فكان ذلك من أسباب اشتئارهم بالرأي ، بينما اشتهر فقهاء الحجاز بالحديث ، لأن الجو الذي عاشوا فيه ، لم يفرض عليهم أن ينحووا في البحث عن النصوص على طريقة التابعين . كما وأن قربهم من عصر الوحي واشتئار أحاديث الرسول صلوات الله عليه وسلم بينهم ومعرفتهم الكاملة بأحوال رواتها عنه ما سهل لهم معرفة الصحيح من الموضوع .

- كثرة الكذب في الحديث في العصر الأموي ، بعد أن قرب الحكام فئة من الدخلاء على الإسلام ، لأغراض سياسية ، حتى وضعوا آلاف الأحاديث في الحلال والحرام ، بين الأحاديث الصحيحة . فلم يكن بالإمكان بعد هذه الحال من تصديق كل ما روی عن الرسول صلوات الله عليه وسلم بعد أن أصبح محل للريب والشبهة بنظر الفقهاء المترافقين في الأمصار . اقتضى ذلك عدم الأخذ بها والاعتماد على الاجتهاد والرأي أحياناً ، وجميل القول أن كثرة الحديث الموضوع وانتشاره بين الأحاديث الصحيحة دعا الكثير من الفقهاء في عصر التابعين إلى ترك بعض الأحاديث ، والحكم بالرأي في بعض الحوادث الجديدة .

(26) تمهيد لتاريخ الفلسفة لمصطفى عبد الرزاق .

وقد يكون الحديث الواحد موثقاً به عند فقيه ومتروكاً عند آخر . وكان من اشتهر بذلك فقهاء الكوفة وعلى رأسهم ابراهيم بن يزيد النخعي . والثابت أنه كان حتى بين فقهاء الحجاز من يفتى برأيه أحياناً ، إذا لم تتوفر له النصوص من الكتاب أو السنة .

قال الاستاذ الشيخ محمد أبو زهرة : « والرأي كان مأخوذاً به في المدينة وسائر مدن الحجاز . وقد رأينا الفقهاء السبعة⁽²⁷⁾ الذين مثلوا الفقه المدنى أصدق تمثيل ، كان كبيراهم ابن المسيب ، لأنه لا يهاب الفتيا ، حتى لقب بالجريء ولا يحير على الإكثار من الأفقاء ، من لا يحير على الرأى » . ولا يوصف بالجريء في الفتيا من يقف عند النص أو الأثر ولا يعدوه . بل يوصف بالجريء من يستر في دائرة المأثور ، ويكثر من التخريج عليه والسير على منهاجه ، وليس ذلك إلا الرأى » .

ومهما يكن فالاقناع بالرأى ، المرادف للاجتهداد ، لا بد منه للتفقيه في فهم النصوص وفيها لا نص فيه ، بعد التمحص والدقة والاطمئنان إلى الحقيقة والواقع . أما الرأى الذي يرادف القياس « والذي غالى به بعض أنصاره ، كأبي حنيفة وتابعيه ، فلم يكن شائعاً بين فقهاء العراق ، وبالأخص فقهاء الشيعة منهم ، الذين تزعموا تدریس الفقه والافتاء في عصرهم ، وكان لهم ذكر مأثور في مجال التشريع الاسلامي وشرح السنة وتوضيح مضمونها خدمة منهم للدين الذي لا فضل فيه لأسود على أبيض ولا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى . من هؤلاء ابراهيم النخعي وعلقمة بن قيس وأمثالهما كل ذلك سبب نشوء المذاهب الفقهية الفردية التي انقرضت ولم يكتب لها البقاء » . والجماعية التي كونت مدارس وهي : المذهب الحنفي ، والمالكي ، والشافعى ، والحنفى ، والجعفري .

(27) الامام جعفر الصادق ص 176 والفقهاء السبعة هم سعيد بن المسيب القرشي المخزوبي ، عروة بن الزبير القرشي « القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام » خارجة ابن زيد بن ثابت ، عبيد الله بن عبد الله بن عقبة بن مسعود ، سلمان بن يسار (المدخل في تاريخ الحضارة العربية للاستاذ معروف ناجي ص 135) .

الفصل الثاني

الفقه ومدارسه

لكلمة فقه مدلولان : لغوياً واصلاحي ، فاللغوياً يعني الفهم والفهمة ، والفقه اصطلاحاً له عدة تعريف وكل منها يكمل بعضه بعضاً . وهي : مجموع الأحكام الشرعية الفرعية الكلية أو الوظائف المجعلة من قبل الشارع أو العقل عند عدمها .

وللفقه أصول يرتكز عليها ويبني أحکامه . وذلك من وحي ما تعنيه لفظة أصول حسب معناها اللغوي فهي : ما يرتكز عليه شيء ويبني . أما في المصطلحات الفقهية فقد ذكروا لها معانٍ عدة فقالوا :

- الأصول ما يقابل الفروع ، فيقال مثلاً في باب القياس الخمر أصل النبذ أي أن حكم النبيذ مستفاد من حكم الخمر .

- والأصول تدل على الرجحان ، فيقال الحقيقة أصل المجاز ، لأن إذا تردد الأمر بين حمل الكلام على الحقيقة وحمله على المجاز ، كان الحمل على الحقيقة أرجح .

- والأصول هي الدلائل ، أي الكاشفة عن شيء والمرشدة له .

- والأصول هي القواعد ، أي الركائز التي يرتكز عليها شيء كقوله ﷺ بنى الإسلام على خمسة أصول ، أي على خمسة قواعد .

- والأصول هي ما يجعل لشخص بعض الأحكام الظاهرةية .

هذه الأصول التي اعتمد عليها أصحاب المذاهب سوف نذكرها تباعاً .

1- الكتاب :

والمراد بالكتاب هو كتاب الله عز وجل ، الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ أفالاظاً ومعاني وأسلوباً ، واعتبره قرآن دون أن يكون للنبي ﷺ دخل في انتقاء ألفاظه أو صياغته .

والقرآن أحصيَ آياته فبلغت « ستة آلاف وثلاثمائة وأثنين وأربعين آية » . منها خمس مائة آية تتعلق بالأحكام⁽²⁸⁾ وقد انتظمت هذه الآيات في سور بلغ مجموعها مائة وأربع عشرة سورة ، أولها (الحمد) وأخرها (الناس) .

(28) المدخل إلى علم أصول الفقه ص 20

وآخر آية نزلت من آياته قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نُعْمَانِي وَرَضِيَتْ لَكُمُ الْإِسْلَامُ دِينًا﴾⁽²⁹⁾ . وقد نزلت في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة في غدير خم عند عودته ﷺ من حجة الوداع⁽³⁰⁾ « بعد أن أعلن الولاية لعلي في كثير من الروايات المأثورة » .

حججية القرآن :

والحججية للقرآن موقوفة على التسليم بأمررين :

الأول : هو ثبوت تواتره الموجب القطع بصدوره ، وهذا لا يشك فيه مسلم عَمَّا قلبَه بالإيمان .

والثاني : ثبوت نسبته لله تعالى ، وعقيدة المسلمين قائمة على ذلك وقد استدل بعضهم ، على كونه من الله بهذه الآيات المباركة :

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رِيبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽³¹⁾ و﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَّ لِلْخَائِنِينَ خَصِّيَّا﴾⁽³²⁾ و﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْمُهْوَى إِلَّا وَحْيٌ﴾⁽³³⁾ وعلى كل حال أن حججية القرآن أكبر من أن يتحدث عنها بين المسلمين بعد إيمانهم وذلك لثبوت تواتره وإعجازه .

وتواتره أوضح من أن يطال فيه الحديث ، ذكر المرتضى في ذلك فقال : « إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان ، والحوادث الكبار والواقع العظام ، والكتب المشهورة » وأشعار العرب المسطورة فإن العناية استدلت والدواعي توفرت على نقله وحراسته ، وبلغت إلى حد لم يبلغه ما ذكرناه » لأن القرآن معجزة النبوة ، ومتآخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية ، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحياته الغاية حتى عرفوا كل ما اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحرروفه وأبياته فكيف يجوز أن يكون مغيراً أو منقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد » .

بعد هذه البداهة لا أظن أننا نحتاج إلى الاستدلال على عدم التحرير بالأية الكريمة :
 ﴿إِنَا نَحْنُ نَزَّلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر الآية 9 والآية ﴿وَإِنَّهُ لِكِتَابٍ عَزِيزٍ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فصلت الآية 42 .

2 - السنة :

تحتختلف تحديديات السنة باختلاف المصطلحين ، فهي عند أهل اللغة تعني الطريق

(29) سورة المائدة الآية 3.

(30) فلسفة التشريع في الإسلام ص 144 راجع أساساتها في كتاب الغدير الجزء الأول .

(*) راجع مجمع البيان ج 1 ص 15 .

(31) سورة السجدة الآية 2 .

(32) سورة النساء الآية 105 .

(33) سورة النجم الآية 4-5 .

السلوكة ، وأصلها من قوله سنت الشيء بالمسن إذا أمرته عليه حتى يؤثر فيه سنًا أي طریقاً . والسنّة هي الطريقة المحمودة المعتادة أو الطريقة السليمة ، كما في الحديث الصحيح : من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيمة ، ومن سنّ سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيمة .

والسنّة عند الأصوليين هي كل ما صدر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير والسنّة عند الفقهاء تطلق على ما يقابل البدعة ، ويراد بها كل حكم يستند إلى أصول الشرعية في مقابل البدعة التي تختلف أصول الشرعية ولم تتوافق السنّة . كما ورد في نهاية ابن الأثير مادة (بدع) .

حجية السنّة :

- 1 - حجية ما صدر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير .
- 2 - حجية ما صدر عن الصحابة .
- 3 - حجية ما صدر عن الأئمة من أهل البيت .

لقد أتت السنّة لتفصيل الآيات المحكمات وتبيان مضامينها . قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِكْرَ لِتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِم﴾ (34) .

أمر الله المؤمنين بالصلاحة والزكاة ولكن السنّة بينت لنا عدداً من الصلوات في اليوم وكيفياتها ، والزكاة وأنواعها ومقاديرها ، والأموال التي تحجب فيها (35) .

وقال تعالى : ﴿أطِيعُوا اللَّهَ وَأطِيعُوا الرَّسُول﴾ (36) ﴿وَمَا أَنَّا كُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (37) و﴿وَمَا يُنَطِّقُ عَنْ أَهْوَاهِهِ إِلَّا وَحْيٌ﴾ (38) .

3 - الإجماع :

الإجماع لغة لفظ مشترك ، من العزم والتصميم ، فيقال : أجمع القوم على النهوض بالعمل الفلاحي ، أي عزموا وصمموا عليه واتفقوا عليه .

والفقه اصطلاحاً ، موضع خلاف عند الأصوليين . وموضع الخلاف منه متعلق بالاتفاق فقيل انه مطلق الأمة ، وقيل خصوص المجتهدين منهم في عصر ، وفي رأي مالك : هو اتفاق أهل المدينة (39) وقال بعضهم الإجماع هو اتفاق أهل الحرمتين (مكة والمدينة) ، أو أهل المcriين الكوفة والبصرة وربما ضيق فصار : اتفاق الشيوخين أو الخلفاء الأربع (40) .

(34) سورة التحلية الآية 44.

(35) تاريخ الفقه الإسلامي للدكتور محمد يوسف موسى ص 229 وراجع فلسفة التشريع في الإسلام ص 144

(36) سورة النساء الآية 59.

(37) سورة الحشر الآية 7.

(38) سورة النجم الآية 4-3.

(39) عدة الأصول للشيخ الطوسي ص 232

(40) أصول الفقه للمخضري ص 270.

ولذلك نرى وجهاً لالتماس تحديد المراد من هذه اللفظة كمصطلح عام ، والمهم في الموضوع أن يبحث هل الاجماع أصل ؟

ونريد بالأصل أن يكون له كيان مستقل في الحكم الواقعى ، أي لا يحتاج الى توسط من قبل أصل من الأصول الثلاثة : الكتاب والسنّة وعمل العقل .
والظاهر أن الكثير من العلماء يرون أنه لا استقلال له ، يقول الخضري « لا ينعقد الاجماع الا عن مستند » ⁽⁴¹⁾ .

ويقول الأمدي وغيره من الأصوليين « انه لا يشترط المستند » بل يجوز صدوره عن توفيق بأن يوفّقهم الله تعالى لاختيار الصواب ⁽⁴²⁾ .

وقد ذكرت أدلة لكل من وجهي النظر في كثير من المراجع وليس في استعراضها ومناقشتها أية جدوى . والذى يقتضى التركيز عليه استعراض أدلة الحجية والنظر في حدود ما تقتضيه مصادميها من استقلال وعدمه .

وقد استدلوا على حجية الاجماع بآيات من القرآن الكريم منها : ﴿ وَمِنْ يَشَاءُقُرْنَاهُ وَمِنْ بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَبَعُ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نَوْلَهُ مَا تَوَلَّ وَنَصَّلَهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ ⁽⁴³⁾ .

بعض المفسرين من قرّب بين حجية الآية في الاجماع وبعضهم من بعد دلالتها . وإن أرى أن الآية لا تحمل على إرادة الاجماع إذ لا معنى للقول : بأن من يتبع غير ما أجمعوا عليه من الأحكام يجعل ما اتبّعه من الحكم غير المجمع عليه والياً عليه يوم القيمة .

كما استدلوا بطوائف من الأحاديث المأثورة عن عمرو أبي سعيد الخدري « وأنس بن مالك ، وابن عمر ، وأبي هريرة ... فقلالاً :

لا تجتمع أمتي على الضلاله . ويد الله مع الجماعة . ومن خرج من الجماعة أو فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع الاسلام من عنقه . ومن فارق الجماعة ومات » ففيته جاهلية ⁽⁴⁴⁾ .
الى غيرها من الأحاديث والروايات .

وهذه الأحاديث ليست جامعة لشروط الحجية في أخبار الأحاديث ولا فائدة من عرضها .
وبعد عرض الأدلة والرد على حجيتها يتضح لنا أن : الحجية منوطه بإجماع الأمة لا الصحابة ، ولا أهل المدينة ولا الحرمين ، ولا مجموع المجتهدين ، فتخصيص غير الأمة بالحجية على أي دعوى من هذه الدعاوى لا يتضح له وجه وليس عليه دليل .

قال الكاظمي : والاجماع المحصل هو ما ثبت واقعاً وعلم بلا واسطة النقل . وأكد أن يتولى المجتهد نفسه مؤونة البحث عن هؤلاء المجمعين والتعرف على هواياتهم وأرائهم في

(41) المصدر السابق ص 275.

(42) المصدر نفسه ص 275.

(43) سورة النساء الآية 115.

(44) أصول الفقه للخضري ص 279.

المسألة التي يريد معرفة حكمها حتى يحصل له العلم بالاتفاق على الحكم⁽⁴⁵⁾ .

4 - القياس ؟

والحديث عن القياس كثير بين الفقهاء كتب عنه المجلدات وكان موضع خلاف كبير . وأول ما يواجهنا الاختلاف في تعريفه .

القياس في اللغة « التقدير » فنقول قسنا الشوب بالتر أو الذراع إذا قدرناه به ، وقد عرف في اصطلاحهم بالاجتهد تارة كمَا ورد عند الشافعي ، وببذل الجهد لاستخراج الحق⁽⁴⁶⁾ . وعرفه الأمدي بتعريف لعله أبعد من المؤاخذات فقال بأنه عبارة : « عن الاستواء بين الفرع والأصل في العلة المستنبطة من حكم الأصل »⁽⁴⁷⁾ .

والذي يبدو أن أسلم التعريف من الاشكالات ما ورد من أنه : « مساواة فرع لأصله في علة حكمه الشرعي » لسلامته من المؤاخذات السابقة ، وصلوحةه بعد إقامة الأدلة على حجيته لاستنباط الأحكام الشرعية منه . ولا أدرى كيف يتساوى الأصل والفرع في العلة ! والمقصود من القياس الوصول الى حكم الفرع وليس مجرد تساوي الأصل والفرع في العلة . ثم كيف تكون عملية الاستنباط من الدليل هي الدليل نفسه مع أنها متأخرة في الرتبة عنه ؟

وهناك اصطلاح آخر للقياس ، شاع استعماله على السنة أهل الرأي قديماً . وفحواء : التماس العلل الواقعية للأحكام الشرعية من طريق العقل . وجعلها مقاييساً لصحة النصوص التشريعية ، فيما وافقها فهو حكم الله الذي يؤخذ به ، وما خالفها كان موضعأً للرفض أو التشكيك .

وعلى هذا النوع من الاصطلاح ، قالوا : ان هذا الحكم موافق للقياس وذلك الحكم مخالف له . . .

وقد كان القياس مثار معركة فكرية واسعة النطاق على عهد الامام الصادق (ع) وأبي حنيفة . فأباو حنيفة كان يتسع في استنباطه ، فيبحث عن أحكام المسائل التي لم تقع ، ويتصور وقوعها فهو يستنبط العلل الباعثة للأحكام والغايات المناسبة لشرعيتها ، ويبني عليها العلل مطردة في كل ما تتطبق عليه . وقد كان يقدم القياس على الخبر الواحد وكذلك كان مالك بن أنس كما في كثير من فتاواه التي نقلها أصحابه .

وقد جرت مناظرة بين الامام جعفر الصادق وأبي حنيفة حول القياس حيث كان عصر أبي حنيفة عصر المناظرات والجدل بين أهل الاهواء والفرق والفقهاء . والمعروف عن أبي حنيفة أنه قوي المناظرة شديد الجدل . وما يدلنا على ذلك أن المنصور انتدبه الى مهمة عجزت عن دفعها جماعات الفقهاء ، وهي مسألة انتشار ذكر جعفر الصادق ، فقد ضاق صدر المنصور عندما رأى فروع مدرسة جعفر الصادق تقام في الكوفة ومكة والمدينة وقم .

(45) راجع كشف القناع عن وجوه حجية الاجماع ص 4.

(46) الاحكام للأمدي ج 3 ص 3.

(47) الاحكام للأمدي ج 3 ص 4.

لذلك اضطر الى جلب الامام من المدينة الى الكوفة ليفتت به أمم جمع غفير في مناظرة يقيمهما مع أبي حنيفة .

قال المنصور : يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة ، ثم التفت الى أبي حنيفة وقال : يا أبا حنيفة الق علي أبي عبد الله مسائلك ، فجعل أبو حنيفة يلقي والامام جعفر يجيب حتى أجاب عن أربعين مسألة وبعدها قال الامام جعفر : يا نعمان حدثني أبي عن جدي أن رسول الله ﷺ قال : « أول من قاس أمر الدين برأيه أبليس ». قال الله تعالى له : اسجد لأدم فقال : « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » فمن قاس الدين برأيه قرنه الله يوم القيمة بابليس لأنه اتبعه بالقياس .

ثم سأله الامام الصادق (ع) : أيهما أعظم قتل النفس أو الزنا ؟ قال أبو حنيفة : قتل النفس . قال الصادق : إن الله عزّ وجلّ قبل في قتل النفس شاهدين ولم يقبل في الزنا إلا أربعة . ثم قال : أيهما أعظم الصلاة أم الصوم ؟ قال أبو حنيفة : الصلاة ، قال الصادق : فيما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة . فكيف يحكم يقوم لك قياسك / إنق الله ولا تنس الدين برأيك . وتتابع قائلاً : فإنما نقف بين يدي الله فنقول : قال الله وقال رسوله وتقول أنت وأصحابك سمعنا ورأينا (48) .

ندرك من هذا الاستشهاد عدم الأخذ بالقياس لأن هذا النوع يشكل خطراً على الدين لفسحه المجال في التلاعب بالشريعة الإسلامية ومسخ أحكامها باسم خالفة القياس . ومن الطبيعي أن يقف أهل البيت وبخاصة الامام جعفر الصادق (ع) الذي انتشر هذا النوع من القياس على عهده الموقف المعروف . قال الصادق : « إن السنة إذا قيست حق الدين » (49) ومسرح العقل في إدراك علل الأحكام محدود جداً لأن فتح الباب على مصراعيه يشكل الخطير العظيم على الشريعة ، ودين الله لا يصاف بالعقل ، أي ما ثبت أنه دين لا يمكن أن تدرك العقول جميع عللها .

والخلاصة أن جميع ما ذكره مثبت القياس من الأدلة لا تنهض بآيات الحجية له فنبغي نحن والشك في حجيته ، والشك في الحجية كاف للقطع بعدمها (50) .

■ الاستحسان :

الاستحسان في اللغة هو « عد الشيء حسناً سواء كان الشيء من الأمور الحسنة المادلة أو المعنوية (4) .

(48) الامام الصادق والمذاهب الأربعية ص 316 وابطال القياس لابن حزم ص 71 .

(49) التوكيل بأن السنة إذا قيست حق الدين يعني أن السنة لا تتحقق نفسها ، إذ المفروض أنها هي التي صرحت بالعلل ، فلا بد أن تكون واردة في خصوص ما لم تدلنا هي على عللها ، بل الدليل عليها هو عقولنا التي أثبتت هذه الروايات في الجملة القصور والعجز .

أما التعليل بأن دين الله لا يصاف بالعقل مع فرض كون العلة مستفادة من النص لظهوره فيها ، يكون المشرع هو الذي دل عليها لا أن العقول أصابتها بمناي عنه .

(50) الأصول العامة للفقه المقارن ص 357

(51) سلم الوصول الى علم الأصول لعمر عبد الله ص 296 .

ولكن تحديده لدى الأصوليين مختلف فيه جداً ، وأكثر التعريف التي ذكروها هي أقرب إلى تسجيحات الأدباء التي كان يراعي فيها إخضاع المعنى للمحسنات البدعية ، منها إلى تحديدات المطبقين . قالوا :

- 1 - الاستحسان ترك القباس والأخذ بما هو أوفق للناس .
- 2 - الاستحسان طلب السهولة في الأحكام فيما يبتلي به الخاص والعام .
- 3 - الاستحسان الأخذ بالسعة وابتغاء الدعة .
- 4 - الاستحسان الأخذ بالسماحة وانتقاء ما فيه الراحة .

وأقرب من هذه التعريف ما نسب إلى المالكية من أنه « الإلتفات إلى المصلحة والعدل »⁽⁵²⁾ وقد أخذ بالاستحسان مالك بن أنس ، وحمل عليه الشافعي فكفانا الرد عليه . عقد الشافعي بباب سماه إبطال الاستحسان قال :

- 1 - الشارع ما ترك أمر الإنسان سدى ، بل جاء في الشريعة بما فيه صلاحه ونص على الأحكام الشرعية الواجبة الاتباع وما لم ينص عليه قد أشير إليه وحمل على النصوص بالقياس فلا شيء لم يبيئه الشارع . وإلا كان ثمة نقص في البيان .
- 2 - إن سبحانه ، أمر بإطاعته تعالى وإطاعة رسوله ﷺ وذلك باتباع ما جاء في كتاب الله تعالى ، ثم ما جاء في سنة رسوله ﷺ وإن لم يكن نص فيها كان الاتباع بالحمل على النص في أحدهما والاستحسان ليس واحداً منها .
- 3 - إن النبي ﷺ قد استنكر تصرف من اعتمد على استحسانه من الصحابة لأنه لم يعتمد على نص .
- 4 - إن الاستحسان لا ضابط له ولا مقاييس يعاس بها الحق من الباطل . فلو جاز لكل مفت أو مجتهد أن يستحسن فيها لا نص فيه لكان الأمر فوضى ولاختلفت الأحكام في النازلة الواحدة على حسب استحسان كل مفت ، فيقال في الشيء ضرورة من الفتيا والأحكام » وما هكذا تفهم الشرائع ولا تفسر الأحكام الدينية⁽⁵³⁾ .

إن هذا النوع من الاستدلال أقرب إلى النهج الخطابي منه إلى الروح العلمية ، لأن ما ذكروه من الدلائل على حجتيه لا يصلح للاثبات على الخصوص .

والخلاصة إن كان المراد بالاستحسان ، هو خصوص الأخذ بأقوى الدليلين فهو حسن ولا مانع من الأخذ به ، إلا أن نعده أصلاً في مقابل القرآن والستة ، ودليل العقل لا وجده له وكما ورد في ارشاد الفحول : « ما يقع في الوهم من استقباح الشيء واستحسانه من غير حجة دلت عليه من أصل ونظير فهو محظوظ والقول به غير سائغ »⁽⁵⁴⁾ .

وقد ورد عن الإمام الصادق من مرجحات باب التعارض قوله : « إذا ورد عليكم

(52) فلسفة التشريع في الإسلام ص 174

(53) الإمام الصادق والمذاهب الأربعية ص 526 .

(54) الأصول العامة للفقه المقارن ص 377 .

حديثان مختلفان فاعتراضوها على كتاب الله ، فما وافق كتاب الله فخذوه ، وما خالف كتاب الله فردوه ، فإن لم تجدوه في كتاب الله فأعتبرضوها على أخبار العامة » فما وافق أخبارهم فذروه « وما خالف أخبارهم فخذوه »⁽⁵⁵⁾ .

وقد نفى الاستحسان عليه كثیر، أظهرهم الشافعی وقد علل وجهة نظره بقوله « أفرأیت إذا قال المفتی في النازلة ليس فيها نص خبر ولا قیاس ، وقال : استحسن فلا بد أن يزعم أن جائزًا لغيره أن يستحسن خلافه فيقول ، کل حاکم في بلد ومتى بما يستحسن ، فيقال في الشيء الواحد : بضرور من الحكم والفتیا ، فإن كان هذا جائزًا عندهم فقد أهملوا أنفسهم فحكموا حيث شاؤوا ، وإن كان ضيقًا فلا يجوز أن يدخلوا فيه »⁽⁵⁶⁾ .

6 - العرف :

ذكروا للعرف تعريفات متعددة فقد عرفة الجرجاني بقوله :

« العرف ما استقرت النفوس عليه بشهادة العقول » وتلقته الطبایع بالقبول »⁽⁵⁷⁾ . وعرفه الاستاذ علي حیدر عندما تحدث عن العادة فقال : « هي الأمر الذي يتقرر بالنفوس ويكون مقبولاً عند ذوي الطباع السليمة بتكراره المرة بعد المرة » ثم تابع : « والعرف ، بمعنى العادة »⁽⁵⁸⁾ .

وما يبدو من هذه التعريف أخذها شهادة العقول وتلقي الطباع له بالقبول في مفهومه ، مع أن الأعراف تتفاوت وتختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، فهل تختلف العقول والطباع السليمة معها أم ماذا ؟

ولعل أقرب التعريفات التي ذكروها هو : ان « العرف ما تعارفه الناس وساروا عليه من قول أو فعل أو ترك » ثم قال : « ويسمى العادة »⁽⁵⁹⁾ .

قسموا العرف الى تقسيمات متعددة ذكر منها :

أ - العرف العام : الذي يشتراك فيه غالبية الناس على اختلاف في أزمانهم وبيئتهم وثقافاتهم ومستوياتهم . ويتنظم في هذا القسم بعض الظواهر الاجتماعية .

ب - العرف الخاص : وهو العرف الذي يصدر عن فئة من الناس تجمعهم وحدة زمان محدود ، ومكان معين أو مهنة أو فن كالأعراف التي تسود في بلد أو قطر خاص ، أو أرباب مهنة خاصة .

من مجالات العرف : ما يستكشف منه حكم شرعی فيها لا نص فيه ، وإنما يكتشف منه مثل هذا الحكم بعد إثبات كونه من الأعراف العامة التي تتخطى طابع الزمان والمكان لتصبح سنة بالإقرار والعمل المتكرر .

(55) راجع مصباح الأصول ص 415.

(56) فلسفة التشريع الاسلامي ص 174 . وما بعدها .

(57) سلم الرصوی الى علم الأصول ص 317.

(58) المصدر السابق ص 419

(59) المصدر السابق ص 317

الفرق بين الاجماع والعرف :

الاجماع لا ينعقد إلا باتفاق الأمة أو مجتهدي مذهب معين من مذاهبها ، ومبدأ الاتفاق مأمور في بلا ريب ، بينما في العرف لا يؤخذ بهذا العنصر بل يكفي فيه سلوك الأكثريه ويشترك في هذا السلوك العامة والخاصة والمجتهدون والأميون ، فيصبح العرف أقرب ما يمكن تسميته بالسيرة .

هل العرف أصل ؟

استدلوا إلى حجية العرف برواية عبد الله بن مسعود : « ما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن »⁽⁶⁰⁾ وهذه الرواية لا تصلح للحجية علمًا أن ليست كل الأعراف متعلقة قطعًا بوعالم الحسن ، وذلك لعدم ابتنائها عليها غالباً ، وما أكثر الأعراف غير المعللة لدى الناس ، حتى عصرنا الحاضر . والمعلم منها نادر جداً . وقد قال بعضهم « أن الشارع الإسلامي في تشریعه راعى أعراف العرب في بعض أحكامه فوضع الدية على العاقلة واشترط الكفاءة في الزواج ... »⁽⁶¹⁾ .

والحقيقة أن الشارع لم يراع العرف لأنّه عرف ، وإنما وافتقت أحكامه بعض ما عند العرف ، فأبرزها بطريق الأقرارات ، لذلك اعتبرنا اقراره سنة وبهذا لا يكون العرف أصلًا يرجع إليه في الكشف عن الأحكام الواقعية . وقالوا : « إن ما يتعارفه الناس من قول أو فعل يصير من نظام حياتهم ومن حاجاتهم ، فإذا قالوا أو كتبوا فإنما يعني المعنى المتعارف لهم ، وإذا عملوا فإنما يعملون على وفق ما تعارفو واعتادوه » وإذا سكتوا عن التصريح بشيء فهو اكتفاء بما يقضي به عرفهم ، ولذا قال الفقهاء :المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً . وقالوا : إن الشرط في العقد يكون صحيحاً إذا اقتضاه العقد ، وورد به الشرعاً أو جرى به العرف »⁽⁶²⁾ .

وهذا الدليل لا يصلح دليلاً لاستكشاف الحكم الشرعي منه ، وليس عندنا من الأدلة ما يسمى بنظام الحياة ، والذي نعرفه من أنظمة الحياة التي تعارف عليها الناس أن بعضها مقبول في الإسلام والبعض الآخر غير مقبول ، ولا يسوغ الركون إليه . وكم من الأعراف والعادات التي كانت سائدة في الجاهلية قد استأصلتها الإسلام وقضى عليها وحرمتها .

أما الكلمات والأقوال التي اشتبرت على السنة كثير من الفقهاء والحقوقيين :

العرف في الشرع له اعتبار - العرف شريعة محكمة - التعين بالعرف كالتعيين بالنص - الثابت بالعرف كالثابت بالنص - العادة محكمة .

إن هذه الأقوال والتعيميات لا تستند بعمومها على أساس منطقي وحكم شرعي .

7 - إجماع أهل المدينة :

كان مالك بن أنس يعطي أهمية كبيرة لما يجري عليه أهل المدينة ، وكان يرد الحديث

(60) سلم الوصول ص 322 .

(61) مصادر التشريع ص 124 .

(62) المصدر السابق .

لأنه لم يجر عليه عمل أهل المدينة فهم أدرى الناس بالسنة وبالناسخ والمنسوخ قال في رسالته إلى الليث بن سعد :

فإنما الناس تبع لأهل المدينة ، إليها كانت المиграة ، وبها نزل القرآن وأحل الحلال وحرم الحرام ، إذ رسول الله بين أظهرهم .

وقد رد عليه الليث برسالة طويلة نقشه فيها بمناقشة علمية ذكرها ابن قيم الجوزية في اعلام الموقعين . قال في بعض فصوصها :

وكان من خلاف ربيعة لبعض من قد مضى ما قد عرفت وحضرت قوله فيه ، وقول ذوي الرأي من أهل المدينة ... الخ ويتابع : وأما العمل النقي فلا خلاف في حجيته عند مفسري مذهب مالك كنقل أهل المدينة تعين محل منبر النبي وقبره ومحل وقوفه للصلوة ، وتعينهم مقدار المد والصاع والأوقية في عهد الرسول ، ونقلهم كيفية الآذان والإقامة . أما المسائل الاجتهادية فالأمر فيه سواء بين مجتهدي الصحابة والتبعين من المدینین والکوفین الشاميين والمصريين⁽⁶³⁾ وقد رد على هذه الرسالة ابن حزم فقال :

وأما من قال إن الاجماع إجماع أهل المدينة لفضلها ، ولأن أهلها شهدوا نزول الوحي فقول خطأ من وجوه . نذكر منها⁽⁶⁴⁾ :

1 - ان الذين شهدوا الوحي ، إنما هم الصحابة رضي الله عنهم لا من جاء بعدهم من أهل المدينة ، وعن الصحابة أخذ التابعون من أهل كل مصر .

2 - ان الخلفاء الذين كانوا لا يخلو حاكم من أحد الوجهين لا ثالث لها :
إما أن يكونوا قد بینوا لأهل الأمصار من رعيتهم حكم الدين أو لم يبینوا ، فإن كانوا قد بینوا لهم الدين ، فقد استوى أهل المدينة وغيرهم في ذلك .
 وإن كانوا لم يبینوا لهم ، فهذه صفة سوء أعادهم الله تعالى منها » بطل قول هؤلاء بيقين .

3 - إنه إنما قال ذلك قوم من المؤخرین ليتوصلوا بذلك إلى تقليد مالك بن أنس دون علماء المدينة جميعاً ، ولا سبيل لهم إلا مسألة واحدة أجمع عليها جميع فقهاء أهل المدينة المعروفة من الصحابة والتبعين خالفهم فيها سائر الأمصار .

وبعد الرسالة والرد عليها يمكننا القول أن عمل أهل المدينة الذي بني على فهم القرآن السليم واتباع السنة النبوية ليس بعلم دقيق ، تأخذ به كما تأخذ بعمل غير أهل المدينة من الأمصار الأخرى إذا تمثلوا شروط العمل نفسها .

8 - المصالح المرسلة :
ومن أصول مذهب مالك القول بالمصالح المرسلة « كما نسب إلى الحفيفية القول

(63) التشريع الإسلامي ص 241 وضحى الإسلام ج 2 ص 212 .

(64) الإمام الصادق والمنذهون الأربعون ص 523 .

بالاستحسان . ويسجن بنا تحديد معناها :

المصلحة أولاً والارسال ثانياً . يقول الغزالى :

المصلحة هي « عبارة في الأصل عن جلب مفعة أو دفع مفسدة » وقال : « ولستنا نعني به ذلك ، فإن جلب المفعة ودفع المفسدة مقاصد الخلق وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم » ولكننا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع » .

ومقصود الشرع من الخلق خمسة : وهو ان يحفظ عليهم دينهم ، ونفسهم ، وعقلهم ، ونسلهم ، وما لهم ، فكل ما يتضمن هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة ، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة »⁽⁶⁵⁾ .

أما تعريفهم للإرسال فقد وقع موقع اختلاف فقال بعضهم : إن عدم الاعتماد على أي نص شرعي وإنما يترك للعقل حق اكتشافها ، بينما يذهب البعض الآخر إلى أن معناها هو عدم الاعتماد على نص خاص وإنما تدخل ضمن ما ورد في الشريعة من نصوص عامة ، واستناداً إلى هذا التناول في معنى الارسال ، تفاوت تعاريف المصلحة المرسلة .

قال بعض الأصوليين : « إنها الوصف المناسب الملائم لتشريع الحكم الذي يترتب على ربط الحكم به جلب ففع أو دفع ضرر » ولم يدل شاهد من الشرع على اعتباره أو إلغائه⁽⁶⁶⁾ .

وعرفها ابن برهان بقوله هي : « ما لا يستند إلى أصل كلي أو جزئي »⁽⁶⁷⁾ .

وبما أن هذه التعريف لا تمحك عن الواقع واحد ، وربما اختلف الحكم فيها لديهم باختلاف مناهجها » .رأينا من الأنسب أن نعرض لأحكامها . وتحاكم على أساس ما يتظمنها من الأدلة نفياً كانت أم إثباتاً . وقد قسموا الأحكام المترتبة عليها بالنسبة لصالحها من رتب إلى ثلاثة أقسام .

1 - الضروري : وهو المتضمن لحفظ مقصود على المقاصد الخمس التي لم تختلف فيها الشرائع بل هي مطبقة على حفظها⁽⁶⁸⁾ يقول الغزالى :

« وتحريم تقويت هذه الأصول الخمسة والزجر عنها يستحيل أن لا تشتمل عليها ملة من الملل ، وشريعة من الشرائع التي أريد بها اصلاح الخلق ، لذلك لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر ، والقتل ، والزنى ، والسرقة ، وشرب المسكر »⁽⁶⁹⁾ .

2 - الحاجي : وأرادوا به « ما يقع في محل الحاجة لا الضرورة »⁽⁷⁰⁾ ، ك التشريع أحکام البيع والإيجار .

. (65) المستصنfi ج 1 ص 140.

. (66) سلم الوصول ص 309.

. (67) ارشاد الفحول ص 242.

. (68) المستصنfi ج 1 ص 140.

. (69) ارشاد الفحول ص 216.

. (70) ارشاد الفحول ص 216.

٣ - التحسيني : وأرادوا به ما يقع ضمن نطاق الأمور الذوقية كالمنع عن أكل الحشرات ، ضمن ما تقتضي آداب السلوك كالحث على مكارم الأخلاق . ورعاية أحسن المناهج في العادات والمعاملات وقد عرفه الغزالي : « ما لا يرجع إلى ضرورة ولا حاجة ، ولكن يقع موقع التحسين والتزيين والتيسير للمزايا والمزايد »⁽⁷¹⁾ .

يبدو من هذا التقسيم أن المصالح مقدم بعضها على بعض من حيث الأهمية . وخلاصة ما انتهينا اليه في ذلك اعتبار أمور ثلاثة إن توفرت في شيء ما ، كشفت عن وجود الحكم فيه وهي :

- ١ - كون المصلحة ضرورية .
- ٢ - كونها قطعية .
- ٣ - كونها كلية .

هذا كله إذا وقعت في مرتبة الضروري وإن وقعت في مرتبة الحاجي فقد رأى الغزالي ردّها ورأى غيره قبولها .

أما الأحناف فالمتسوّب إليهم أنهم لا يقولون بالصالح المرسلة ، ولا يعتبرونها دليلاً⁽⁷²⁾ . وخلاصة ما انتهينا اليه أن تعريف المصالح المرسلة مختلفة ، ولا يتوفّر فيها الإدراك الكامل إلا في حالات نادرة » وليس لدينا من الأدلة ما يثبت ذلك وما يكون الرؤية الكاملة . والشك في الحجية كاف للقطع بعدمها لتقومها بالعلم . والشيعة لا يقولون بالصالح المرسلة إلا ما رجع منها إلى العقل على سبيل الجزم .

٩ - فتح الذرائع وسدها : الذراعية لغة واصطلاحاً :

الذراعية في اللغة هي الوسيلة التي يتوصّل بها إلى الشيء . والذراعية اصطلاحاً وقعت موضوع اختلاف في مقام التحديد . فالشاطي يحدّها « التوصّل بما هو مصلحة إلى مفسدة »⁽⁷³⁾ .

وجاء على ألسنة بعض المتأخرین فھي : ما يتوصّل به إلى شيء منع مشتمل على مفسدة »⁽⁷⁴⁾ .

وقالوا أن هذین التعریفین غیر جامعین لاقتصرارهما على وسائل الأمور المحرمة بينما تعم الذراعية جميع الوسائل سواء كانت وسائل لحرمات أم واجبات أم غيرها من الأحكام . ورد في المدخل « الذراعية كما يجب سدها يجب فتحها وتكرهه وتندب وتباح »⁽⁷⁵⁾ .

(71) المستعنى ج ١ ص 140

(72) مصادر التشريع ص 74.

(73) المواقف في أصول الشريعة ج ٤ ص 199.

(74) المدخل للفقه الإسلامي ص 266.

(75) المصدر السابق ص 266.

وأقرب منه قول آخر : « الدرائع اذا كانت تفضي الى مقصد هو قربة وخير أخذت الوسيلة حكم المقصد . وإذا كانت تفضي الى مقصد من نوع هو مفسدة ، أخذت حكمه ، ولذا فإن الامام مالكاً يرى أنه يجب فتح الدرائع في الحالة الأولى لأن المصلحة مطلوبة ، وسدها في الحالة الثانية لأن المفاسد منوعة »⁽⁷⁶⁾ وأقرب تعريفها الى السلامة ما ذكره ابن القيم :

« الذريعة ما كان وسيلة وطريقاً الى الشيء »⁽⁷⁷⁾ .

وقد قسمها ابن قيم الجوزية الى أربعة أقسام :

- 1 - الوسائل الموضوعة للافضاء الى المفسدة ومثل لها بشرب المسكر المفضي الى مفسدة السكر .
- 2 - الوسائل الموضوعة للأمور المباحة ، إلا أن صاحبها قصد بها التوسل الى المفسدة ومثل لها من يعقد البيع قاصداً به الربا .
- 3 - الوسائل الموضوعة للأمور المباحة ، والتي لم يقصد التوسل بها الى المفسدة لكنها مفضية إليها غالباً ومفسدتها أرجح من مصلحتها .
- 4 - الوسائل الموضوعة للimbاح ، وقد تفضي الى المفسدة ومصلحتها أرجح من مفسدتها . ومثلوا لها بكلمة الحق عند سلطان جائز⁽⁷⁸⁾ .

أما حكمها فقد اختلفوا فيه فالذى عليه ابن القيم وجماعته ، ان الوسيلة تأخذ حكمها مما تنبئ اليه ، وقرب ذلك بقوله : « لما كانت المقادير لا يتوصل اليها إلا بأسباب وطرق تفضي اليها ، كانت طرقها وأسبابها تابعة لها معتبرة بها . فوسائل المحرمات والمعاصي في كراحتها والمنع منها بحسب إفضائيها الى غaiاتها وارتباطاتها بها ، ووسائل الطاعات في محبتها والأذن فيها بحسب إفضائيها الى غaiاتها »⁽⁷⁹⁾ .

ولكن المالكية والحنابلة ركزوا في الحرمة على خصوص القسم الثاني منها - أعني الوسائل الموضوعة للأمور المباحة . ويقصد فاعلها التوصل بها الى المفسدة⁽⁸⁰⁾ . إن أكثر الأصوليين هم من القائلين بفتح الدرائع وسدها وان لم يتتفقوا في حدود ما يأخذون منها وما يتركون يقول الأستاذ سلام :

« الواقع أن الفقهاء جميعاً يأخذون بأصل الدرائع مع اختلاف في مقدار الأخذ به وتباين في طريقة الوصول الى الحكم ، إذ المشاهد في أحکام الفروع ان أكثر الفقهاء يعطی الذريعة حكم الغاية إذا تعينت الذريعة - الوسيلة - هذه الغاية ، أما إذا لم تتعين طریقاً لها ، فالمشهور

(76) المدخل للفقه الاسلامي ص 266.

(77) اعلام الموقعين ج 3 ص 147 .

(78) المصدر نفسه ج 3 ص 148 .

(79) اعلام الموقعين ج 3 ص 147 .

(80) المدخل للفقه الاسلامي ص 269.

عن الامام مالك إنها تعتبر أصلًا للأحكام ، ويقرب منه في ذلك الامام أحمد » وتبعهما ابن تيمية وابن القيّم⁽⁸¹⁾ .

والذى نريد بيانه أنهم اعتبروا سد الذرائع وفتحها أصلًا في مقابل بقية الأصول مع أنها لا تعدو كونها من صغريات السنة أو العقل .

وما قاله مالك وأحمد بن تيمية وابن القيم : إنها من أصول الأحكام في مقابل بقية الأصول » لا يتضح له وجه .

هذه هي أهم الأصول التي اعتمدتها المذاهب الخمسة فبعضهم أخذ بها جيًعاً وبعضهم الآخر أخذ ببعض منها .

وعلى ضوء هذه الأصول سوف نتكلّم بإيجاز على المذاهب الإسلامية الخمسة فنذكر المذهب الحنفي ، والمذهب المالكي ، والمذهب الشافعي ، والمذهب الحنفي والمذهب الجعفري .

(81) المدخل للفقه الإسلامي ص 269.

الفصل الثالث

المذاهب الفقهية

■ - المذهب الحنفي : 80 هـ - 150 هـ - 767 م .

ينسب هذا المذهب الى الامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى ، من أهل كابل وقيل من مدينة نسا من أهل بابل . وكان اسمه عتيك بن زوطة ، وكان أبوه عبداً ملوكاً لقيئم الله بن ثعلبة الكوفي من ربيعة ، وهو تابعي لأنه رأى الصحابة⁽¹⁾

نشأ بالكوفة ، وقد كانت من أكبر الأمصار الاسلامية في ذلك العصر ■ وأحفلها بالعلماء من كل فئة . فيها مدارس الفقه واللغة والأدب وغيرها من آلو ، العلوم . درس علم الآسرم حتى برع فيه ، ثم التحق بحلقة حماد شيخ فقهاء الكوفة ، تلقى العلم عن ابراهيم التخعي الذي تلقاه عن علقة بن قيس الذي تلقاه عن عبد الله بن مسعود . وما زال أبو حنيفة يداوم على حضور حلقة شيخه حماد حتى توفي سنة 120 هـ وانتهت إليه رئاسة مدرسة الكوفة ، التي عرفت بمدرسة الرأي وأصبح إمام فقهاء العراق . اجتمع مع أشهر علماء عصره بمكة والمدينة والبصرة ، ثم ببغداد بعد أن بناها المنصور .

أصول مذهب

روى أحدهم عنه سمعه يقول : آخذ بكتاب الله ، فإن لم أجده فبستنة رسول الله ﷺ ، فإن لم أجده أخذت بقول أصحابه من شئت منهم ، وأدع قول من شئت ولا أخرج من قوهم إلى قول غيرهم ، فاما إذا انتهى الأمر الى ابراهيم والشعبي وابن سيرين والحسن وعطاء وابن المسيب وغيرهم ، فقوم اجتهدوا فاجتهدوا كما اجتهدوا⁽²⁾ .

اما اجتهاده فيما لم يكن فيه نص من كتاب او سنة ولا قول صحابة ، فقد كان مرجعه إلى القياس ، ومن أنواع القياس عنده ، الاستحسان الذي فسر بأنه قياس خفي في مقابلة قياس جلي .

(1) راجع ترجمة أبي حنيفة في تاريخ بغداد ج 13 ص 323 وقد اختلف في سنة مولده المشهور هو سنة 80 هـ ، توفي ببغداد في السجن سنة 150 هـ ، وقبره في حي سمي باسمه حي « الأعظمية » نسبة إلى الإمام الأعظم .

(2) السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ص 452 .

كان صاحب مدرسة عرفت بمدرسة (الأرأيتين) أي الذين يفرضون الواقع بقولهم : أرأيت لو حصل كذا ؟ أرأيت لو كان كذا ؟) وقد قيل كل من قال هذه العبارة : هل أنت من الأرأيتين ؟ وهل أنت قادم من العراق ؟

كانت دعوة العباسين قائمة على أساس الاتهاء الى النبي واتباع سلالة البيت النبوى .
فهم أحق بأمر الخلافة من أمية خصوم الاسلام وأعداء محمد ﷺ .

ومن الطبيعي أن يظهروا الاتصال الوثيق بين الدين والدولة ، ليكونوا من أحكام الشريعة الاسلامية دستوراً تسير الدولة عليه سيراً صورياً ، فقربوا العلیاء واتصلوا بهم اتصالاً وثيقاً ، وأثروا نشر العلم ، وجعلوا القضاء بيد أهل الرأي من أهل العراق ، حتى ولي أبو يوسف سلطته الواسعة في الجهاز التنفيذي .

وأبو يوسف(3) هو تلميذ أبي حنيفة وقد تربى في نعمه ، وبتلويه منصب القضاء استطاع نشر المذهب الحنفي . ثم ولي منصب رأسة القضاة العامة في عهد الرشيد فنوفذه ، حتى أنه لم يقلد ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلا من أشار به القاضي أبو يوسف . ويبلغ من الرشيد مبلغاً لم يبلغه عالم بعلمه ولا محظوظ بمرتبته(4) .

أما إذا نظرنا إلى مقومات المذهب الحنفي فنجد أنه يقوم على أكتاف أربعة من أصحاب أبي حنيفة . فهم الذي ألفوا فيه وهمدوا مسائله ، وليس لأبي حنيفة إلا المشاركة في الرأي أحياناً » على أئمهم خالفوه في أكثر المسائل « بعد أن وسعوا دائرة المذهب في الحيل الشرعية ، وكان أول هؤلاء الأربع أبو يوسف القاضي :

أبو يوسف القاضي :

هو يعقوب بن ابراهيم الانصاري ولد 113 هـ عربي الأصل نشا في الكوفة فقيراً اتصل بأبي حنيفة وأقام عنده يتفق عليه وعياله مدة عشر سنين ، وبعد وفاة أبي حنيفة استقل أبو يوسف برأسة أصحاب أبي حنيفة وكانت الظروف السياسية قد ساعدته وأقبلت الدنيا عليه بعد الفقر والعوز ، ووقع موقع قبول عند خلفاء بني العباس ، وهو الذي نشر مذهب أبي حنيفة في الأقطار على أيدي القضاة الذين كان يعينهم أبو يوسف من أصحابه . وبذلك استمد المذهب نفوذه وسلطاته من نفوذه وسلطة أبي يوسف .

لأبي يوسف كتب كثيرة دون فيها آراء وآراء شيخه ذكرها ابن النديم منها :
كتاب الصلاة ، كتاب الزكاة ، كتاب الصيام ، كتاب الفرائض ، كتاب البيوع ، كتاب

(3) أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد الانصاري المتوفى سنة 182 مـ ببغداد المدفون في مدفن قريش وهو أول من دعي بقاضي القضاة ، تولى القضاء ثلاثة من الخلفاء المهدى وبابه الحادى والرشيد . قال الطبرى : ما قوم نحا من أهل الحديث حدثه لغبطة الرأى عليه وتفريح الفروع والأحكام مع صحبة السلطان وقال عمار بن أبي مالك : ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف ولو لا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة . وعن ابن المبارك أنه ضعيفه وعن يزيد بن هارون أنه قال : لا تخل الرواية عنه لأنه كان يعطي أموال اليتامى و يجعل الربح لنفسه .

(4) خطط المقرنزي ج 4 ص 144 .

الخارج ، كتاب الوكالة ، كتاب الوصايا ، كتاب اختلاف الأنصار . كتاب الرد على مالك وغيرها . . . وأبو يوسف هو أول فقهاء الرأي الذين دعموا آراءهم بالحديث ، وبذلك جمع بين طريقة أهل الرأي وأهل الحديث .

والثاني : محمد بن الحسن الشيباني 132 هـ - 189 هـ

حضر على أبي حنيفة ولم يتم دراسته عليه لأن أبي حنيفة مات وعمر محمد في الثامنة عشر فأتم دراسته على أبي يوسف ، وكان ذا فطنة وذكاء ، أخذ عن الثوري والأوزاعي ورحل إلى مالك ، وتلقى عنه فقه الحديث والرواية ، وهو الذي أدخل الحديث في فقه أهل الرأي وألف كتاباً في ذلك أصبحت هي المرجع الأول لفقه أبي حنيفة . وكان يخالفه في أكثر مسائله .

والثالث : زفر بن المظيل 110 هـ - 158 هـ

أبوه عربياً وأمه فارسية ، أخذ عن أبي حنيفة فقه الرأي ، وكان أشد أصحاب أبي حنيفة قياساً ، تولى القضاء في عهد أبي حنيفة في البصرة .

والرابع الحسن بن زياد : الكوفي المتوفى سنة 204 هـ

هو من فقهاء المذهب ورواية أبي حنيفة . وقد طعن المحدثون فيه ، ورفضوا روايته . قال ابن معين : أنه كذاب غير ثقة ، وقال التفر بن شمبل : لرجل كتب الحسن بن زياد : لقد جلبت إلى بلدك شرًا⁽⁵⁾ .

هؤلاء الأربعه هم دعامة المذهب الحنفي في توسيع دائرته وانتشاره ، ولم ينقل لنا التاريخ عن أبي حنيفة كتاباً يتضمن مسائله وفقهه . والذين دونوا علم المذهب تلامذته ثم جاء من بعده هؤلاء الأربعه عليهم نسبوا لهذا المذهب فكانت لهم آراء مستقلة تكونت منها مجموعة من الفقه وكلها تنسب لأبي حنيفة ، وإن لم يفت بها ولم يعرفها ولكنهم قالوا : أمر أبو حنيفة أصحابه بأن يأخذوا من أقواله بما يتعجب له من الدليل عليه .

2 - المذهب المالكي :

صاحبه : أبو عبد الله مالك بن أنس (93 هـ - 179 هـ) . إمام دار المحرجة ومحدثها المعروف . ولد بالمدينة ونشأ بها وتوفي فيها . تلقى العلم عن كبار الفقهاء من التابعين كالزهري مثلاً الذي سمع منه كثيراً ، حتى أصبح من أشهر تلامذته ، واستمر دائياً في طلب العلم وتحصيله حتى أصبحت له الامامة في الحجاز . هرع إليه أهل العلم من مختلف بقاع الأرض وعقد لهم المجالس في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم . عرف مالك بالفقه والحديث معاً ، واحتاج بالمرسل كأبي حنيفة ، وعمل أهل المدينة عنده أقوى من حدث الآحاد . ومن أشهر من رد حجية عمل أهل المدينة ابن حزم ، فقد ناقش مالكاً في كتابه « المحل » وكان شديد الوطأة في نقاشه⁽⁶⁾ .

(5) راجع لسان الميزان ج 2 ص 208 .

(6) راجع الإحکام في أصول الأحكام .

الموطأ :

أشهر ما عرف به الإمام مالك كتابه «الموطأ» الذي ألفه بإشارة من الخليفة العباسى المنصور . وسماه الموطأ لأنه عرضه على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة فكلهم واطأه عليه . ولما حج الخليفة المهدى سمعه منه فأمر له بخمسة آلاف دينار لسلاميده بألف ، ثم رحل إليه الرشيد في إحدى حججه مع أولاده وسمعه منه ورغبه أن يحمل الناس عليه فأبى مالك قائلاً : « لا تفعل يا أمير المؤمنين فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلوا في الفروع وتفرقوا في البلدان وكل مصيبة »⁽⁷⁾ .

وقد عني بتأليفه وتدوين الأحاديث الصحيحة فيه حتى قالوا أنه مكث فيه أربعين سنة يهدى وينفعه . يستدل على ذلك ما رواه السيوطي في مقدمة شرحه للموطأ عن الأوزاعي ، أنه قال : « عرضنا على مالك الموطأ في أربعين يوماً فقال : كتاب الفتنه في أربعين سنة ، أخذته في أربعين يوماً ، ما أقبل ما تفهون فيه »⁽⁸⁾ وقد بُوأ الموطأ على أبواب العلم المختلفة ، فذكر في كل باب ما جاء فيه من الحديث عن النبي ﷺ ثم ما ورد من الآثار عن الصحابة والتابعين . وأحياناً كان يفسر كلمات الحديث بعد سرده ويبين المراد من بعض عباراته .

وقد بلغت روایات الموطأ المتداولة نحوًا من ثلاثة نسخة من أشهرها :
موطأ يحيى بن يحيى ، وموطأ بن بكر ، وموطأ أبي صعب ، وموطأ بن وهب ، وموطأ الإمام محمد بن الحسن ، وهذه النسخ تختلف فيما بينها تقدیماً وتأخیراً وزيادة ونقصاً وذلك لاختلاف الزمن الذي رویت فيه عن مالك ، وهذا اختلفت الأقوال في عدد أحاديث الموطأ .

يختلف المذهب المالكي عن بقية المذاهب بكثرة أصوله فهو يعتمد على تسعه أصول : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس ، والاستحسان ، والعرف ، واجماع أهل المدينة ، والمصالح المرسلة ، وسد الذرائع وقيل أكثر من ذلك .

ذكر القاضي عياض في المدارك والأصول العامة للفقه الإسلامي ، وذكر بعد ذلك أصول مالك ومقامها من تلك الأصول فقال : وأنت إذا نظرت لأول وهلة منازع هؤلاء الأعلام من الأمة وما خذلهم في الفقه واجتهدتهم في الشرع وجدت مالكاً رحمة الله ناهجاً في هذه الأصول منهجها ، مرتبًا لها مراتبها ومدارجها ، مقدمًا كتاب الله على الآثار . ثم مقدمًا لها على القياس ، تاركًا منها ما لم يتحمله الثقة العارفون لما تحملوه ، أو ما يجهلونه ، أو ما وجد الجمهور الجم الغير من أهل المدينة قد عملوا بغيره وخالفوه ، ولا يلتفت إلى من تأول عليه مظهنه في هذا الوجه سوء التأويل ، وقوله ما لا يقوله ، بل صرح بأنه من الأباطيل .

هذا ما ذكره القاضي عياض في أصول مذهب مالك ، ذكر الكتاب والسنة ، وعمل أهل المدينة والقياس ولم يذكر غيرها . فلم يذكر الاجماع ولم يذكر القواعد التي امتاز بها

(7) انظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص 486.

(8) المرجع نفسه .

مذهب مالك ، وهي المصالح المرسلة وسد الذرائع ، والعرف . وما يبدو أن سالكاً لم يدون أصوله التي بني عليها مذهبها ، فهو في ذلك كأبي حنيفة ، لقد صنع فقهاء المذهب المالكي في فقهه مالك ما صنعه فقهاء المذهب الحنفي . فجأوا إلى الفروع وتبعوها واستخرجوا منها ما يصح أن يكون أصولاً قام عليها الاستباط في ذلك المذهب ، ودونوا تلك الأصول التي استبطوها على أنها أصول مالك فيقولون مثلاً :

مالك يأخذ بمفهوم المخالفة وبفحوى الخطاب ويظاهر القرآن ، ويقول في العموم كذا ، والحقيقة أن هذه ليست أقوالاً له مأثورة قد ذكرها ورويته عنه . بل هي مستخرجة من الفروع التي أثرت عنه أدلةها التفصيلية التي ذكرت بجوارها أو ذكرها الفقهاء من بعدها ولا يمكن الاستدلال بسوتها⁽⁹⁾ .

وبذلك أصبح المجهود الذي بذله علماء المالكية هو مجموع أصول المذهب المالكي وفي أكثرها مخالفة لرأي مالك ، أو تفرد़هم بما لم يرد من مالك أثر فيه ، وقد ظهرت بعد وفاته آراء كبار تلاميذه الذين خالفوه فيها ، وسجلوا تلك المخالفة .

مصادر المذهب المالكي :

للفقه المالكي طريقان أحدهما كتابه الموطأ الذي رواه عنه الكثيرون من تلقوا عنه إلا أن في روایاتهم اختلافاً من زيادة ونقص ، وأشهر رواة الموطأ الذين ذكرناهم يحيى بن يحيى الليثي ، وهو مطبوع بمصر . وموطأ يرويه محمد بن الحسن « وهو مطبوع ببلاد الهند»⁽¹⁰⁾ .

وثانيهما : تلاميذه الذين كانوا يدونون ما يفتّي به من مسائل . ومن كتب المذهب المالكي (المدونة) وهي أصح الكتب المعتبرة في المذهب تتالف من مجموعة رسائل من فقه مالك جمعها تلميذه أسد بن الفرات النسابوري⁽¹¹⁾ .

وقد دخل مذهب مالك الأندلس في عهد الحكم الأول (180-206 هـ) وحل محل مذهب الإمام الأوزاعي الذي ظهر في المدينة . وقد قبل الأمير الأموي هذا المذهب لأنه يحرر بلاده من تأثير العباسيين الأدي⁽¹²⁾ . وانتشر المذهب المالكي في المغرب بالوقت نفسه . يقول المقرizi : لما ولَيَ المُعْزِ باديس حلَّ جميع أهل إفريقيا وأهل الأندلس على التمسك بمذهب مالك وترك ما عداه ، فرجع أهل إفريقيا وأهل الأندلس كلهم إلى مذهب رغبة فيما عند السلطان وحرصاً على طلب الدنيا ، إذ كان القضاء والافتاء في جميع تلك المدن من سمي

(9) مالك لـ محمد أبو زهرة ص 255.

(10) تاريخ التشريع الإسلامي ص 305.

(11) أسد بن الفرات سن ستان التوفي سنة 213 هـ . أصله من خراسان ، وولد بحران من ديار يكر ، رحل مالك وسمع موظاه ، ثم رحل إلى العراق فلقي أبا يوسف ، و Muhammad بن الحسن ، وأسد بن عمرو ، وأصحاب أبي حنيفة ، فتفقه منهم ، وسمع أبو يوسف منه موطاً مالك ، وتولى قضاء القبروان واقتصر بالعمل على مذهب أبي حنيفة ، فانتشر بسيبه مذهب أبي حنيفة وله مدونة على مذهب مالك .

(12) ويرجع السبب في ذلك إلى أن العباسيين كانوا يسيرون وفق مذهب أبي حنيفة لذلك مال الأمويون في الأندلس إلى مذهب الأوزاعي وتجنبوا المذهب الحنفي الذي اخذه العباسيون .

بذهب مالك ، فاضطرت العامة إلى احكامهم وقتاً وهم فتشي هذا المذهب هناك⁽¹³⁾ .

حظي المذهب المالكي بظروف سياسية ملائمة ساعدت على انتشاره ، فهو كالذهب الحنفي ساعد السلطان على نشره بواسطة القضاة . ولما عين إبراهيم بن علي اليعمري قاضياً على المدينة قام بنشر مذهب مالك بقوة سلطانه وسلطنته ، وذلك في القرن السابع . كذلك القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعي بقرطبة كان يقضي بمذهب مالك وأصحابه لأنَّه ألزم بالعمل به من قبل السلطان⁽¹⁴⁾ .

وإن كلاً من المذهبين المالكي والحنفي قد أسعدهما الحظ بالقبول عند سلطان عصره ، فأبوا حنيفة قرْبَه المنصور إليه لغاية في نفسه ، ولكنَّه فشل في محاولته فآل أمره إلى أن يغتصب عليه ويقتلها .

ومالك قد حظي برضاء المنصور والمهدى والهادى والرشيد ، فأكرمه ورفعوا من شأنه . والمذهب المالكي تأثر بالمذهب الحنفي بما دخله عليه أسد بن الفرات .

وكذلك المذهب الحنفي دخلت فيه آراء مالك وروياته عن طريق أبي يوسف ومحمد بن الحسن « طبقوا آراءهم على الموطأ واستخرجوا لها شواهد من الآثار .

هذا وإن لتلاميذ مالك آراء بجوار آرائه ومنزلتهم منه كمتزلة محمد وأبي يوسف من أبي حنيفة .

أهم الأصول التي كان يعتمد عليها مالك في منحه الاجتهادي .
عمل أهل المدينة ، والمصالح المرسلة ، والاستحسان ، والقياس .

3 - المذهب الشافعي :

ينسب إلى الإمام محمد بن إدريس بن عثمان بن شافع (150 هـ - 204 هـ) .

كان ظهوره في مصر ، وأكثر من الأصحاب هناك ، وغلب مذهبة على بغداد وعلى كثير من بلاد خراسان ودخل شيء منه إلى بلاد إفريقيا والأندلس بعد سنة 300 هـ وقويت شوكته وعظمت شهرته في عهد الدولة الأيووبية التي كانت تتسم سمة شافعية « وبدلوا قصارى جهدهم في نصرته » . فبنيوا المدارس لفقهاء الشافعية ، وانختصاص القضاء بهم ، وكان الغالب على أهل مصر الشيعة في عهد الفاطميين الذين كانوا يملكون مصر قبله ، وكان المذهب الجعفري يدرس في الجامع الأزهر وغيره ، حتى جاء صلاح الدين فأبطل درسه فيه وأحياناً مذهب الشافعي وأبي حنيفة ومالك . وبين لهم كثيراً من المدارس التي رغب الناس فيها بما أجزله عليهم من ربيع الأوقاف التي جسها عليها مما رغبهم في هذه المدارس حتى هجروا المذاهب الأخرى .

وبعد صلاح الدين جاء ملوك اعتنقوا مذهب الشافعي وساعدوا على نشره ، وقد نجح

(13) الإمام الصادق والمذاهب الأربعية الجزء الأول .

(14) نفح الطيب ج 1 ص 45 .

الشافعي في بدر أمره عندما قدم مصر وزاحم مذهب مالك ، حتى تعصب عليه المالكية ، لأنه كاد أن ينسى الناس مذهب مالك إلى أن آل الأمر بهم فقتلوا بسبب التعصب ، والذين آذروه في مصر جماعة من آل عبد الحكم كان لهم مقام رفيع وجاه عظيم . من الذين شدوا أزره أبو محمد عبد الله بن الحكم وكان عملاً مدركاً أكرم مشواه حق مات الشافعي في بيته فاعتنق مذهب الشافعي وكتب كتبه لنفسه . دخل الشافعي مصر وهو يحمل من الرشيد كتاب توصية لموالي مصر ليهتم بأمره ويعتني به وكان ذلك حوالي السنة 198 هـ . وفي مصر دون مذهبة الجديد إلى أن توفي عام 204 هـ ، بعد أن ملا الدنيا علىًّا واجههاً . أحبه الناس واعترفوا بأمامته لما كان يتمتع به من علم غزير ومنطق سليم وإحاطة واسعة بكتاب الله وسنة رسوله ، وإلى جانب هذا كله كان بارعاً في اللغة والشعر والأدب ، قوي الحجة في المناظرة .

وضع قواعد الرواية ، وأعلن رأيه الذي خالف فيه مالكاً وأبا حنيفة ، وهو أن الحديث متى صبح بالسند المتصل إلى النبي ﷺ يجب العمل به من غير تقييده بموافقة عمل أهل المدينة كما اشترط مالك ، أو بالشروط المتعددة التي اشتريطها أبو حنيفة .

وقد دافع الشافعي عن السنة دفاعاً مجيداً وكان إلى جانب أهل الحديث مما جعلهم يطلقون عليه لقب « ناصر السنة » من هنا أجله علىاء الحديث فقال عنه محمد بن الحسن « إن تكلم أصحاب الحديث يوماً فبلسان الشافعي » وقال عنه أحمد بن حنبل « ما علمنا المجمل من المفسر ولا ناسخ حديث رسول الله ﷺ من منسوخه حتى جالستنا الشافعي »⁽¹⁶⁾ .

آثار الشافعي وأراءه :

يتميز الشافعي عن غيره من أئمة المذاهب بنسبة الكتب التي عرف أنه صنفها . من هذه الكتب المشهورة كتاب (الأم) وهو المرجع لفقه الشافعي . ولكن هذا الكتاب دار الشك والجدل في نسبته إلى الشافعي ، فأحمد أمين يبني نسبة الكتاب إلى الشافعي الذي بين أيدينا ، وأنه عكف على كتابته وتأليفه في هذا الموضوع النهائي . كما أنه لا يستطيع أحد أن ينكر أن في « مذهب الشافعي بقوله وعيارته » : أخبرنا الربيع قال الشافعي أن الكتاب من تأليفه .

فالظاهر أنها آمال أملاماها الشافعي في حلقةه ، وكتبها عنه تلاميذه ، وأدخلوا عليها تعليقات من عندهم ، واختلفت روایاتهم بعض الاختلاف⁽¹⁵⁾ .

وكذلك كان رأي الدكتور زكي مبارك فقد نفي نفياً قاطعاً نسبة كتاب الأم إلى الشافعي مؤكداً أنه من تأليف البريطي أحد تلاميذه .

وله كتاب آخر معروف اسمه « الرسالة » وضعه تلبية لرغبة عبد الرحمن بن المهدى ضمنه أصول الفقه .

(16) راجع السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي ص 495 .

(15) ضحي الاسلام ج 2 ص 231 .

رأيه في القرآن :

يرى الشافعى أن القرآن كلام الله غير مخلوق ويقول : ان الله سبحانه وتعالى يقول : « وكلم الله موسى تكليما » .

ولا يخفى أن مسألة خلق القرآن التي نادى بها المأمون هي من أهم المشاكل التي حلّت بالجامعة الإسلامية . « أخذ المأمون جماعة من الفقهاء فحبسهم وماتوا في السجن »⁽¹⁷⁾ .

رأيه في الرؤية :

قال الريبع كنت يوماً عند الشافعى فجاءه كتاب من الصعيد يسألونه عن قوله تعالى : « كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » .

فكتب الشافعى : لما حجب قوماً بالسخط ، دل على أن قوماً يرونـه بالرـضـى ، قال الـريـبع : أوـتـدـيـنـ بـذـلـكـ ؟

قال : والله لـوـمـ يـدـنـ مـحـمـدـ بـنـ إـدـرـىـ : انه يـرـىـ رـبـهـ فـيـ الـعـادـ لـمـ عـبـدـهـ فـيـ الدـنـيـاـ⁽¹⁸⁾ .

يتضح من هذا أن الشافعى يؤمن بأن الرؤية محققة في الآخرة ولو لا ذلك لما عبد الله في الدنيا .

وأختلف المسلمون في رؤية الله تعالى ، فذهب قوم إلى جوازها في الدنيا والآخرة . وذهب أهل البيت وشيعتهم إلى استحالة الرؤية في الدنيا والآخرة وعدم امكانها لأن الله تعالى لا تدركه الأ بصار وهو يدرك الأ بصار وهو اللطيف الخبير ، فالابصار تتعلق بالهيئات والأجسام .

قال السيد شرف الدين : ان العقل الذي عرفنا الله به يحكم مستقلاً بامتناع رؤية الباري سبحانه . سواء أ كانت الرؤية بصرية ، أم قلبية ، أم خيالية وهنية ، لامتناع لوازمهما بحكم العقل .

ندرك بأبصارنا آيات الله المتجلية في عجائب مخلوقاته .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

رأيه في الصفات :

عن يونس بن عبد الأعلى المصري عن الشافعى أنه قال : أتنا أخبار عن الله أنه سميع وان له يدين : بل يداه مبسوطنان » وان له يميناً « والسموات مطويات بيمنيه » . وان له وجهأً ، « كل شيء هالك الا وجهه » وانه يصحح من عبده المؤمن يقول النبي ﷺ للذى قتل في سبيل الله : وانه لقي الله وهو يصححك اليه⁽¹⁹⁾ .

(17) منهم يوسف بن يحيى البويطي خليفة الشافعى في مصر مات في سجن بغداد 206 هـ ونعميم بن حاد المخزاعي مات في السجن سنة 228 هـ . عبد الأعلى الغساني مات في سجن المأمون سنة 208 هـ .

(18) طبقات الشافعية ج 1 ص 231 .

(19) طبقات الخنابلة للقاضي محمد بن أبي يعلج 1 ص 283 .

فإن هذه المعانى التي وصف الله بها نفسه . ووصفه بها رسوله لا تدرك حقيقة بالرؤى والفكر ، ولكن ثبت هذه الصفات وينفي التشبيه كما نفى الله تعالى عن نفسه فقال : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » .

رأيه في الامامة :

يرى الشافعى أن الامامة في قريش ، ولا يشترط البيعة ، ولم يشترط الهاشمية ، والعبرة عنده في الخلافة بأمررين : كون المتصلب لها قرشيًا واجتماع الناس عليه . وكان يرى أن علي ابن أبي طالب وهو الامام الحق في عصره⁽²⁰⁾ ، وان معاوية وأصحابه كانوا من الفئة الباغية . وقد اتهم الشافعى بأنه رافضي . وهو لا يبالي بإظهار حب آل محمد ، وان اعترضت حواجز في طريق إظهار ذلك الحب ، كما شاءت السياسة بأن يرمى محب أهل البيت بكل تهمة ويكون عرضة للخطر . وقد أعلن الشافعى ذلك بقوله :

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أي رافض

وكان يذكر علياً بكل إعجاب وتقدير قوله اشعار في مدحه ، وسئل يوماً عن علي فقال : ما أقول في رجل أخفت أولياؤه فضائله خوفاً ، وأخفت أعداؤه فضائله حسداً ، وشاع له من هذين ما ملاً الخافقين⁽²¹⁾ .

رأيه في علم الكلام :

المعروف عن الشافعى أنه كان يبغض علم الكلام وينهي عنه حتى ذهب إلى عدم جعل كتب الكلام من كتب العلم . وهذا التشديد من الشافعى قد نصح فيه علم الكلام واتسع نشاط المتكلمين ، وكان لا بد لكل عالم أن يتلمس الدلائل والبراهين الفلسفية لتقوية جانبه والرد على مخالفيه . ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن المعتزلة هم الذين حرضوا الخلفاء على أذى العلماء .

ونذكر أن الشافعى امتد عصره من آخر خلافة المنصور المتوفى 158 هـ ، إلى أول خلافة المؤمنون ، أي من سنة 150 هـ إلى سنة 204 هـ . وعلى هذا فقد أدرك ثمانى سنين من خلافة المنصور « وخلافة المهدى 165 هـ . وخلافة الصادى المتوفى 170 هـ . وخلافة الرشيد المتوفى 193 هـ . والأمين المقتول سنة 198 هـ . وست سنين من خلافة المؤمنون .

4 - المذهب الحنبلى :

ينسب إلى الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ولد 164 هـ في بغداد وتوفي 241 هـ . فيهما⁽²²⁾ ظهر مذهب أحد بن حنبل ببغداد وهو آخر المذاهب لتأخره زمناً في الحدوث . كان انتشاره خارج حدود العراق قليلاً جداً ، ولم يبلغ شهرة غيره من المذاهب .

(20) وقد وشي به إلى الرشيد فأحضر إلى بغداد متهمًا بالتشيع والدعوة لآل البيت ، وكان ذلك سنة 184 فتدخل محمد بن الحسن عند الرشيد حتى أقنع ببراءته .

(21) راجع الإمام الصادق والمذاهب الأربعه ج 3 ص 216 .

(22) طبقات الختابلة ج 1 ص 4 .

حضر في أول طلبه العلم مجلس القاضي أبي يوسف « صاحب الامام أبي حنيفة ثم انتقل إلى طلب الحديث ، وما زال يجد في طلبه ويلقى الشيوخ الأعلام ، ويكتب عنهم حتى أحاط بالسنة وبلغ الذروة في حفظها حتى أصبح أمام السنة في عصره بلا منازع . أخذ الفقه عن الشافعي ثم أخذ الشافعي عنه الحديث . وذهب إلى اليمن ليأخذ من عبد الرزاق الصنعاني . كما روى عن يحيى بن سعيد القطان ، وسفيان بن عيينة ، وسليمان بن داود الطيالسي وأسماعيل بن عليّة وبشر بن المفضل الرقاشي وغيرهم .

وروى عنه البخاري ومسلم وأبو داود ويحيى بن آدم الكوفي وعلي بن المديني .

كان الإمام أحمد آية في الحفظ والضبط والورع والزهد والأمانة وشهادات العلماء في حقه كثيرة منها قول الشافعي : « خرجت من بغداد وما خللت فيها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أروع ولا أتقى من أحد بن حنبل » توفي ببغداد سنة 241 ومُشي في جنازته خلق كثير⁽²³⁾ .

وحولى القرن السابع المجري ظهر المذهب الحنفي في مصر ، ولكنه انتشر بصورة أوسع بعد فترة قصيرة عندما تولى القضاء عبد الله بن محمد بن عبد الملك الحجازي ،منذ ذلك الوقت زاد انتشاره . قال ابن خلدون :

فاما أحد بن حنبل فمقلده قليل وبعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معارضه الرواية والأخبار بعضها بعض ، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها .

والقدماء كانوا يعتبرون أحد بن حنبل من أهل الحديث وليس من الفقهاء . قال عنه ابن جرير : أنه رجل حديث لا رجل فقه . وكذلك ابن قتيبة لم يذكره في معارفه في عدد الفقهاء⁽²⁴⁾ .

والخلاصة أن المذهب الحنفي كان أقل المذاهب انتشاراً ، واعتبر مقلدو هذه القلة فخراً لهم ! ظهرت عظمته في بغداد حيث احتفظ متبوعه بالتحادوثيق ، وقد كانوا لهم قوة استطاعوا بها إفلات بالسلطة ، فتظاهرها بالأمر بالمعروف والنبي عن المنكر وكانت صولتهم عظيمة ، فأفوقوا ما اشتهروا من التشكيل والأدلة فيسائر المذاهب التي خالفتهم . ولكن الحكومة ضيقـت دائرة اتساع دعوـتهم .

نال المذهب الحنفي قوة انصار تدين لدعوته في البلاد النجدية بصورة خاصة . وقد ساعدته الظروف الزمنية على يد محمد بن عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابي . حيث طفى هذا المذهب على المذهب الحنفي إلى حد ما .

ولا يخفى ما لابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية من الفضل في انتشار المذهب الحنفي ونشاطه ، وهو في الحقيقة أصحاب دعوته وعنهما أخذ ابن الوهاب تعاليم مذهبـه الجديد ، علىـما أن معـتنـقي هـذا المذهب هـم الـيـوم أـقل عـدـاً بـالـنـسـبـة إـلـى مـعـتـنـقـي المـذـاهـبـ الـأـخـرـى فـي الـعـالـمـ الـاسـلامـيـ .

(23) راجع ترجمته في تاريخ بغداد ج 4 ص 412.

(24) الإمام الصادق والمذاهب الأربع ج 1 ص 169.

وما يجب التذكير به أن في عصر أحمد بن حنبل غصت المدن الإسلامية بعناصر مختلفة من أمم متباينة في العرق والدم والتزاعات ، فقد ترجمت العلوم الفلسفية من اللغة السريانية واليونانية وغيرها وامتزجت مدنيات وتلقت أفكار وتصارعت حضارات .

ومن طبيعة العصر الذي تكثر فيه المنازعات وتضطرم باحتكاك المدنيات ، أن تظهر فيه آراء وأخلاق فيها بعض الانحراف والشذوذ الفكري والاجتماعي ، حتى أصبح الغريب هو المألوف ، ففي هذا الوسط كان أحمد بن حنبل وكان مذهبه .

حننة أحمد بن حنبل :

ظهرت حننة خلق القرآن في بداية القرن الثاني للهجرة وتبورت وظهرت من طي الكتمان إلى البروز في عهد المؤمنون . وبذلك وجد المعتزلة في المؤمن تحقيق بغيتهم » أصدر المؤمن أمرًا عامًّا يأخذ الناس بهذه المحننة في كافة أرجاء البلاد الإسلامية . فسارع إسحاق بن إبراهيم وإليه بغداد إلى تنفيذ رغبة المؤمنون ، فأحضر المحدثين والفقهاء والمعندين » وأنذرهم بالعقوبة الصارمة .

جاء في كتاب المؤمن الرابع لعامله اسحاق يأمره بأن يستدعي بشر بن الوليد ، وابراهيم بن المهدى » وأحمد بن حنبل ، وشحادة » والقواريри » ومحمد بن نوح ، جمعهم إسحاق وقرأ عليهم الكتاب ، فأصغى كافة الفقهاء في بادئ الأمر ثم شدوا بالخديد حتى اليوم التالي ، ولما أصبحوا أعداء امتحانهم ، فاعترف القواريري بخلق القرآن فأطلق سبيله ، وبعد يوم آخر أجاب شحادة فأطلقه . وبقي أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح . فقادهما إلى بغداد موثرين بالغلال ، وفي أثناء الطريق قرب الأنبار جاءهم نعي المؤمنون . فأماماً محمد بن نوح فقد مات وهو عائد إلى بغداد ، ففك قيده وصل إلى زميله زميله أحمد بن حنبل ثم أطلق الله سبيله⁽²⁵⁾ . إلى أن جاء عهد المعتصم فاشتد كثيراً في امتحان الناس ، وكان أحمد سجينًا عنده . وبعد المعاشرة مع فقهاء المعتصم أقرَّ أحمد واعترف بأن القرآن مخلوق . وكان هذا الاعتراف في مناظرة طويلة ذكرها العقوبي⁽²⁶⁾ .

آثار أحمد بن حنبل :

لم يصنف أحد بن حنبل كتاباً في الفقه يعد أصلاً يؤخذ منه مذهبـه ، ولم يؤثر عنه إلا الحديث » وما يروى عنه أنه كان يكره أن تدون آراؤه في كتاب ، إذ يرى أن كتابة الرأي محدثة⁽²⁷⁾ . ومن آثاره البارزة المسند :

وهو مجموعة كبيرة من الأحاديث يشتمل على أربعين ألف حديث تكرر منها عشرة آلاف :

شرع أحمد بجمع المسند ، فكتبه في أوراق منفردة وفرقـه في أجزاء متفرقة ، ولكن القدر

(25) الإمام الصادق والمذاهب الأربع 2 ص 457.

(26) تاريخ العقوبي ج 2 ص 198.

(27) الطبقات لابن أبي يعلى ص 39.

أدركه قبل أن ينفعه ويهذبه ، وبقي المسند على حاله حتى جمعه ابنه عبد الله فألحق به ما يشاكله ، وضم إليه من موسوعاته ما يشاكلاها .

وقد كثر الحديث عن المسند وجعه وترتيبه . وحكم ابن الجوزي على عدة أحاديث منه بالوضع ، وقال الذهبي في سيرة النبلاة عن المسند : جملة من الأحاديث الضعيفة مما لا يسغى نقلها ولا يجب الاحتجاج بها .

أما ابن تيمية فقد أكد أن عبد الله بن أحمد قد زاد على مسند أبيه زيادات كثيرة . كما زاد أيضاً أبو بكر القطبي ، وفي زيادات القطبي أحاديث كثيرة موضوعة فظن الجهل أنها من روایة أحمٰد ، رواها في المسند وهذا خطأ قبيح .

لذلك قام الحافظ بن جعفر وألف كتاباً سماه : القول المسدد في الذب عن مسند أحمٰد . أجاب عنه حديثاً حديثاً ، ورتب مسند أحمٰد في المرتبة الثانية ، يعني بعد الصاحح وصرح الخطيب أن كتاب الموطأ مقدم عليه .

وقال ابن حزم : أولى الكتب الصحيحةان ثم صحيح سعيد بن السكن ، والمتلقى لابن الجارود ، ثم بعد هذه الكتب كتاب أبي داود ، وكتاب النسائي « ومصنف الطحاوي ومسانيد أحمٰد والبراز»⁽²⁸⁾ .

أما أصول مذهبـه فهي : الكتاب والسنـة والاجماع والقياس . وكان كثيراً الأخذ بالسنـة ، حتى أوثرـه قوله : « ضعيفـ الحديث عنـدي أولـي منـ رأـيـ الرـجالـ » ، وكثيرـ الـاتـبعـ لـأـراءـ الصـحـابـةـ حتىـ إـذـاـ كـانـ هـمـ رـأـيـانـ فـيـ مـسـأـلـةـ الـواـحـدـةـ كـانـ لـهـ فـيـهاـ رـأـيـاـنـ مـثـلـهـمـ . منـ هـنـاـ لـمـ يـعـدـ بـعـضـ الـعـلـمـاءـ مـنـ الـفـقـهـاءـ ، وـالـحـقـ أـنـهـ اـمـامـ مجـتـهدـ فـقـيـهـ إـنـ كـانـ تـغلـبـ عـلـيـهـ صـبـغـةـ الـحـدـيـثـ .

5 - المذهبـ الجـعـفـريـ :

الإمام جعفر الصادق 83 هـ - 148 هـ - سمي بالجعفري نسبة إلى الإمام جعفر الصادق ، أبو عبد الله بن محمد الباقر ، بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب . ولد بالمدينة المنورة يوم الاثنين 17 ربيع الأول سنة 83 هـ . ونشأ فيها تحت رعاية جده الإمام زين العابدين قضى مع جده ومعلمه ما يقارب 18 سنة من عمره وبعد وفاة جده سنة 94 هـ . تولى أبوه الباقر تربيته ، وكان الإمام الصادق مقدماً عند أبيه حيث كان من طليعة تلامذته في مدرسته بالمدينة . بقي مع أبيه بعد جده تسع عشرة سنة . ولما توفي أبوه الباقر 114 هـ . تفرد بالزعامة ، وقام بأعباء الإمامة بوصية من أبيه والتي دامت 34 سنة .

وصف الإمام جعفر بالصادق لأنـهـ عـرفـ بـصـدـقـ الـحـدـيـثـ وـالـقـوـلـ وـالـعـمـلـ حـقـ أـصـبـحـ حـدـيـثـ النـاسـ فـيـ عـصـرـهـ . قالـ فـيـ ابنـ الحـجـاجـ :

يا سيداً أروي أحاديثه رواية المستبصر الحاذق
كأنني أروي حديث النبي محمد عن جعفر الصادق

(28) قواعد التحديد للقاسمي ص 237.

لقد كان يطلب الحق للحق لا يبتغي عنه بديلاً ولا تلبس عليه الأمور ، وكان النبي ﷺ عنده بقوله : إن الله يحب ذا البصر النافذ عند ورود الشبهات ، ويحب ذا العقل الكامل عند حلول الشهوات .

قال فيه مالك بن أنس : ما رأيتك عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وورعاً وعبادة .

وقال فيه أبو حنيفة : ما رأيتك أفقه من جعفر بن محمد ، لقد قال لي المنصور : إن الناس قد افتقوا بجعفر بن محمد فهيء له من المسائل الشداد وأسئلته عنها فهيات لهأربعين مسألة . فقال لي المنصور : يا أبو حنيفة ألقى على أبي عبد الله مسائلك فجعلت ألقى عليه مسألة مسألة وهو يقول في جوابها : أنتم تقولون كذا ، وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا حتى أتيت على الأربعين مسألة ما أخل منها بمسألة واحدة وبعد المراقبة قال أبو حنيفة : أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس . عندها أحسن المنصور بالحقيقة وتبددت آماله لأنه كان يتمنى أن يتوقف الإمام الصادق ولو بمسألة واحدة .

وقال الشهري في الملل والتحل : كان أبو عبد الله الصادق ذا علم غزير في الدين وأدب كامل في الحكمة ، وزهد في الدنيا ، وورع تام عن الشهوات . . .

وقال فيه عبد الله بن المبارك :

أنت يا جعفر فوق المدح والمدح عناء
ائنا الاشراف أرض ولهم أنت سماء
جاز حد المدح من قد ولدته الأنبياء

معاصرته للحكم الأموي :
أدرك الإمام الصادق طرفاً كبيراً من العهد الأموي ، وعاصر كثيراً من خلفائهم « فقد ولد في عهد عبد الملك بن مروان مدركاً من خلافته ثلاثة سنين من سنة 83 هـ. إلى سنة 86 هـ .

وجاء بعده الوليد بن عبد الملك سنة 86 وتوفي سنة 96 هـ . ثم ملك أخوه سليمان بن عبد الملك وتوفى سنة 99 هـ . ثم ملك بعده عمر بن عبد العزيز بن مروان المتوفى سنة 101 هـ . وملك بعده هشام بن عبد الملك المتوفى سنة 125 هـ . وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك المتوفى في سنة 126 هـ . ثم جاء مروان الحمار بن محمد بن مروان بن الحكم وكان آخر خلفاء بني أمية قتل سنة 132 هـ . وبذلك انتهت حكم بني أمية بالحروب والثورات الدامية .

كانت هذه المدة التي لا تقل عن ثمانية وأربعين سنة قضاها الإمام الصادق في الحكم الأموي مليء بالأحداث الأليمة التي نكثت عليه عيشه لما شهد فيها من أنواع الظلم وضروب المحن . تراكمت المصائب على أهل البيت وتواتت عليهم الحوادث ، من قتل وتشريد ومراقبة شديدة في تحركاتهم ومنع الاتصال بهم .

أما بقية حياته التي قضتها في المعهد العباسى وهي من سنة 132 هـ . إلى سنة 148 هـ .
سنة وفاته . رفعت الرقابة المشددة عن أهل البيت إلى حد ما حتى جاء المنصور وتشدد في
معاملته للامام الصادق وعامله بقسوة لا مزيد عليها ، حتى اغتاله بالسم في الخامس
والعشرين من شهر شوال 148 هـ .

والخلاصة أن الإمام الصادق عاش هذه المدة في وسط معركة سياسى وفكري . فقام
بواجبه الاصلاحي دون أن يخضع للسلطات الجائرة ، أو يتخل عن المسؤولية في أداء الرسالة
الإسلامية الحقة ، فسلك منهج آبائه في محاربة الظالمين ، متسلحاً بالإيمان بالله ، متحملاً
الأذى في سبيل الدعوة إلى الله .

مدرسة الإمام الصادق :

كانت الفترة التي عاشها الإمام الصادق فترة حمنة تم بها الأمة ، فالحكم الأموي الجائر
ابتعد عن الأحكام العادلة والاسلام الصحيح . ودولة بي العباس التي لبست لباس الدين
ظاهراً لم يكن حكامها أقرب إلى الخط الصحيح الذي رسمه رسول الاسلام أكثر من الحكام
الأمويين . وكان البيت العلوي خط انظار الأمة وأمامها للحوض على التمسك بأحكام القرآن
وتنوير الرأي العام ومداواة النفوس من الأمراض الاجتماعية .

كان طابع المدرسة الجعفرية ومنهجها الذي اختصت به . من بين المدارس الاسلامية
هو استقلالها الروحي ، وعدم خضوعها لنظام السلطة ، فلم تفسح المجال لولاة الأمر من
التدخل في شؤونها . ولم تكنهم من أن يكون لهم يد في توجيهها ، ولذلك لم يتثن لذوي
السلطة من استخدامها كغيرها ، في مصالحهم الخاصة منها بذلوا من جهد وحيل . وقد حاول
المنصور أن يستميل الإمام الصادق ليسير في ركب الدولة عدة مرات ، ولكن محاولاته باهتات
بالفشل . من هذه المحاولات نذكر :

إن المنصور كتب إليه قائلاً : لولا تغشانا كما تغشانا سائر الناس .

فأجابه الإمام الصادق :

ما عندنا من الدنيا ما تخافك عليه ، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له ، ولا أنت في
نعمة فهنيك عليها ، ولا نعدها نعمة فتعزيك بها فلم نغشاك ! ومرة أخرى عاود المنصور إلى
كتابته ثانية : تصحبنا لتصحنا . فأجابه الإمام : من أراد الدنيا فلا ينصحك ، ومن أراد
الآخرة فلا يصحبك . وبهذا يتجلّ موقف الإمام الصادق من حكم عصره جميعهم .

لم يحصل بين مدرسة الصادق وبين حكام عصره أي انسجام ، فالنزاع بينها وبين الدولة
كان على أشدّه ، فلا الدولة تستطيع التنازل لمنهج المدرسة الذي ارتبط بالقلين : كتاب الله
وعترة رسوله ، فتكسب ودها وتساندها في حكمها ، ولا المدرسة في إمكانها أن تتنازل لإرادة
الدولة فتؤازرها وتسيّر في ركبها . وكيف يكون ذلك ! والمدرسة الصادقية التي وضع حجرها
رسول الكرييم وعمل على تتميمها الأئمة الموصومون من بعده عليه السلام حتى جاء دور جعفر
الصادق الذي سار على الخط المرسوم أمامه . فليس من شأنه السكوت عن الظلم ومسايرة
الظالمين ، لأن مذهبة الحنفية القرآن دستوره والستة الشريفة طريقه . والقرآن الكريم ينهى عن

معونة الظالمين والرکون إلیهم . قال تعالى : ﴿ وَلَا ترکنا إلی الذین ظلموا فتمسکم النار ومالکم من دون الله من أولیاء ثم لا تنتصرون ﴾⁽²⁹⁾ .

هذا ما سبب الصراع العنيف بين المدرسة والدولة ، الأمر الذي جعلها عرضة للخطر ، ولكنها رغم ذلك صمدت لتلك المجتمعات وتحملت عسف الظالمين ، فواصلت كفاحها في الدعوة إلى الحق والعدل والمساواة والخير والأخوة الإسلامية ومحاربة أهل الأهواء والبدع والضلالات . يتضح ذلك من زعماء هذه المدرسة وسيرتهم العادلة واهتمامهم بالبالغ بتوجيه الأمة نحو الدين الحق الذي يتكلّل لهم بالسعادة الدائمة ويدعوهم إلى الأهداف النبيلة والغايات الشريفة والمثل العليا .

نشأة المدرسة الجعفرية :

وضع الحجر الأساسي للمدرسة الجعفرية وغرس بذرتها النبي ﷺ فهو الذي وضع منهاجها ونظامها وحث الناس إلى الدخول فيها . فقال : « ائِي مُخْلِفٍ فِي کِتَابِ اللَّهِ وَعَتْرَتِ أَهْلِ بَيْتِيِّ ، مَا أَنْ تَمْسِكُتُمْ بِهَا لَنْ تَضَلُّو أَبَدًا »⁽³⁰⁾ .

جاء في كتب التفسير أن الثقل ضد الخفة والثقل متاع المسافر وحشمته وكل شيء نفيس عنده . وقالوا : جعلها ثقيلين لأن الأخذ بها ثقيل والعمل بها أثقل . وجاء في اللسان ، واصل الثقل أن العرب تقول لكل شيء نفيس مصنون خطير فسمّاهما ثقيلين إعظاماً لقدرها وتفحيمًا لشأبهما ، ويقال للسيد العزيز : ثقيل .

والعترة : عن ثعلب عراقي الأعرابي : ولد الرجل ذريته وعقبه من صلبه ولا تعرف بغير هذا .

فالمدرسة الجعفرية كانت في عهد صاحب الرسالة وكان رئيسها الأول : الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو الذي رافق الرسول وأخذ عنه العلم وتلقى عنه التشريع العملي . فالرسول معلم علي ومتولي تربيته ونشأتها ، وقد عَوَّلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي جمِيع شؤونه .

وتولى رئاسة المدرسة بعد علي إبنه الحسن ، ولكن الظروف القاسية في عهد معاوية لم تسمح للمدرسة أن تتقدم على الوجه المطلوب .

وجاء دور الحسين بن علي (ع) وهو أعظم الأدوار وأهمها ، تابع معاوية في بسطه وغيه وانحرافه عن الخط الإسلامي الصحيح فحرّف الكلم عن مواضعه مهدًا الأمر لابنه يزيد الفاسق المستهتر . لم يجد الحسين طريقاً للسکوت ، فنهض متصرّلاً للحق ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، وقد أعطى دروس التضحية والتfanي في سبيل إنقاذ الأمة ، حتى باتت منهجاً اصلاحياً للثورات التي أتت من بعده . إنه شعلة الحق في وجه الظلم والطغيان .

(29) سورة هود الآية 113 .

(30) هذا الحديث الشريف بين مقاصده كثير من العلماء وألفوا فيه رسائل . ذكر في صحيح مسلم ج 7 ص 122 وسنن الترمذى ج 2 ص 308 وسنن أبى حمّاج ج 2 ص 17 وتفسير ابن كثير ج 3 ص 486 .

ومن بعده انتقلت الرئاسة الى ابنه الامام علي زين العابدين (ع) أروع أهل زمانه وأتقاهم وأعلمهم . وقد اشتدت الرقابة عليه من قبل الأمويين ومع ذلك تابعت المدرسة سيرها وكفاحها ، وخرجت عدداً وافراً من علماء الأمة الأعلام .

وكذلك كان عهد ولده الامام الباقر ، ولكن ما أن دب الضعف في جسم الدولة الأموية ، حتى بعث النشاط في مدرسة أهل البيت ، فقام الامام الباقر بإحياء السنة ، وكانت حلقة درسه في مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ولما جاء عصر الامام الصادق اتسعت فيه الحركة العلمية ، وأصبحت مدرسة جامعة إسلامية كبرى ، تشد الرجال وتقصدها البعثات من سائر الأقطار الإسلامية ، ولم يحفظ لنا التاريخ أن سئل عن شيء ولم يفدي عنه . بل كان المتفوق على كل من ناظره وقد اشتهر عنه أنه قال : سلوني قبل أن تفقدوني فإنه لا يحذثكم أحد بمثل حديثي »⁽³¹⁾ .

والامام الصادق يروي عن أبيه الباقر عن أبيه زين العابدين عن الحسين بن علي عن علي بن أبي طالب . وهذا الاسناد هو المعروف بالسلسلة الذهبية وهو أصح الأسانيد وأقواها»⁽³²⁾ .

من حكم الصادق الخالدة : أفضل الملوك من أعطى ثلاث خصال : الرأفة والجود ، والعدل ، وليس يجب للملوك أن يفرطوا (أي يقصروا) في ثلاث : في حفظ الثغور ، وفقد المظالم ، و اختيار الصالحين لأعمالهم .

- إحذر من الناس ثلاثة : الخائن ، والظلوم والنمام . لأن من خان لك خانك ، ومن ظلم لك سيظلمك ، ومن نم إليك سينم عليك .

- خذ من حسنظن بطرف تروج به وتروح به قلبك .

- من ظهر غضبه ظهر كيده ، ومن قوي هواه ضعف عزمه ، ومن أنصف من نفسه رضي حكم لغيره .

- العجب يكلم المحاسن ، والحسد للصديق من سقم المودة ، ولن تمنع الناس من عرضك إلا بما تنشر عليهم من فضلك .

- العز أن تذل للحق إذا أزلتك .

- إن خير ما ورث الآباء لابنائهم الأدب لا المال ، فإن المال يذهب والأدب يبقى .

- ومن وصيته للمفضل بن عمر قال عليه السلام : أداء الأمانة إلى من اتمنك ، وإن ترضى لأخيك ما ترضى لنفسك . واعلم أن للأمور أواخر فاحذر العواقب وإن للأمور بعثات فكن على حذر ، وإياك ومرتني جبل إذا كان المتذر وعرأ ، ولا تعدد أخاك ما ليس في يدك وفاؤ .

(31) تذكرة الحفاظ ج 2 ص 157.

(32) معرفة علوم الحديث ص 55.

- ومن حكمه : العلم جنة⁽³³⁾ ، والصدق عز . والجهل ذل . وحسن الخلق مجلبة للمودة والعالم في زمانه لا تهجم عليه اللوايس . والحزم مشكاة الظن . والله ولي من عرفة . والعاقل عفور والجاهل ختور . وإن شئت أن تكرم فلن . وإن شئت أن تهان فاخشن . من كرم أصله لأن قلبه . ومن خشن عنصره غلظ كبده . ومن فرط تورط . ومن خاف العاقبة ثبت فيها لا يعلم . ومن هجم على أمر من غير علم جدع أنف نفسه .

وقد طلب منه سفيان الثوري أن يتزود ببعض حكمه فقال : أوصي يا ابن رسول الله ، فقال الصادق :

يا سفيان إذا جاءك ما تحب فأكثر من الحمد لله وإذا جاءك ما تكر « فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله ، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار .

يا سفيان لا مروءة لكتذوب ولا أخ للملول ولا راحة لحسود ولا سؤدد لسيء الخلق .

فقال سفيان : يا ابن رسول الله زدني :

يا سفيان ثق بالله تكن مؤمناً وارض بما قسم الله تكن غنياً وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره وشاور في أمرك الذين يخشون الله .

يا سفيان من أراد عزاً بلا عشيرة وغنى بلا مال وهيبة بلا سلطان فليتقل من ذل معصية الله إلى عز طاعته . وإذا أنعم الله عليك بنعمة واحببت بقاءها فأكثر من الحمد والشكر عليها فإن الله عز وجل قال : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدُنَّكُمْ﴾ وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار فإن الله يقول في كتابه العزيز : ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَارًا يَرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا وَيَدْدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَهْنَارًا﴾ .

إنشار المذهب الجعفري

انتشر المذهب الجعفري في الأقطار الإسلامية بمقوماته وقوته بعيداً عن عوامل الترغيب في اعتناقها ، وبدون مساندة الدولة كغيره من المذاهب الأخرى . وأول ظهور الشيعة كان في الحجاز وفي المدينة المنورة » مهد الدولة الإسلامية الأولى . وفي القرن الرابع الهجري انتشر بصورة ظاهرة كما انتشر في بلاد الشام بفضل الصحابي العظيم أبي ذر الغفارى الذي نشر المذهب هناك ولا يزال له مقام معروف باسمه بين صيدا وصور في قرية الصرفند ، اخذ مسجداً معموراً . وقد نجح من رجال الشيعة رجال أعلام شغلوا مناصب مهمة في حكومة سوريا ، منهم الأطباء والعلماء والتجار الكبار . وتقام عندهم مآتم عزاء الحسين عليه السلام علينا في عاصمة الأمويين ، وبمحضرها الكثير من أهل السنة والخطيب يفضح مخازي معاوية وفضائح يزيد وحكام بني أمية الذين انحرفوا عن خط الرسالة الإسلامية الصحيحة .

يقول ابن جبير في وصفه المذاهب المتغلبة في بلاد الشام خلال القرن السادس : أن الشيعة أكثر من السنين وقد عموا البلاد بذهابهم .

(33) راجع الإمام الصادق والمذاهب الأربع ج 3 ص 136 .

والجنة : الستر وهنا : السلاح الراقي . ختور : خبيث وفاسد .

ويقول محمد كردعلي : وفي دمشق يرجع عهد الشيعة الى القرن الأول للهجرة وفي أكناف حوران وهم مهاجرون جبل عامل ، وفي شمال لبنان والبنان والبترون وهم مهاجرون بعلبك » ولا يقل عدد الشيعة في الشام من الامامية عن مئتي ألف نسمة⁽³⁴⁾ .

أما جبل عامل فقد كان بدء التشيع فيه بفضل الجهود التي بذلها المجاهد أبو ذر الغفارى » وقد تخرج من ذلك الجبل عدد كبير من جهابذة العلم والمجتهدين وحملة دعوة الاصلاح .

وقد لاقى الشيعة نكبات فظيعة كادت تقضي عليهم نذكر منها تلك الكارثة التي ذكرها ابن الأثير عندما أفقى الشيخ نوح الحنفي بكفر الشيعة واستباحة دمائهم . فقتل بسبب هذه الفتوى أربعون ألفاً من الشيعة وانتهت أموالهم وأخرج الباقون إلى القرى .

وغلب مذهب التشيع في حلب بصورة ظاهرة وأصبح لهم قوة فاعلة هناك . وسرى التشيع في افريقيا سرياناً عظيماً إلى أن قاومته السلطة يوم كان أمير افريقيا المعز بن باديس الذي فتك بالشيعة فتكاً ذريعاً وأوقع بهم وقعة عظيمة فهبت دورهم واحرقوا بالنار وتبعهم فرداً فرداً » وجلأ منهم بالمدينة الى الجامع (في القيروان) فقتلوا كلهم⁽³⁵⁾ .

وهذه إحدى النكبات التي لاقها التشيع وما أكثرها . ومع ذلك كله فإن التشيع متشر في افريقيا الجنوبية والوسطى زهاء عشرة ملايين نسمة . وفي أندونيسيا عدد كثير من الشيعة يقدر بثمانية ملايين نسمة . وفي مصر انتشر التشيع عند انتشار الاسلام هناك بواسطه المقاداد وأبو ذر الغفارى وأبو أيوب الانصاري وعمار بن ياسر وقيس بن سعد إلى أن ولها عمرو بن العاص تأخر سير تلك الحركة حتى زالت دولة الأمويين ولا زال يظهر التشيع ويخفى حسب العوامل التي تدعوه إلى ظهوره وإخفائه .

كما ظهر التشيع في الهند وتركيا والعراق واليمن وروسيا والأفغان وما نحب الالتفات إليه أن تاريخ الشيعة لم يدرس الدراسة الكافية التي ترفع الغموض عن مبادئهم إذ المصادر التي يستمد منها المعلومات عن الشيعة مضطربة لأنها لم تسلم من سيطرة التعصب الأعمى والتحيز المقوت .

(34) خطط الشام لمحمد كردعلي ج 6 ص 252

(35) الكامل لابن الأثير ج 9 ص 123

الفصل الرابع بذور الخلاف ونشأة الفرق

إذا استنطقنا تاريخ المجتمعات الإنسانية وجدنا أن الخلاف طبيعي بينها ، ولا سيما أتباع الملل ، والأمة الإسلامية مررت كغيرها من الأمم براحل من النزاع وفترات من الخلاف يأتى أكثرها إلى أسباب شخصية وحزبية .

من هذه الخلافات ما حدث أثناء مرض الرسول ﷺ حيث أخذوا يفكرون بأن الأمة الإسلامية ستخلي من هذه الشخصية الفريدة ، فمن سيخلفها ؟ وهل يستطيعون سد الفراغ ؟

كتاب النبي في مرض موته :
بعد أن عاد الرسول ﷺ من الحج إلى المدينة ، مرض ثلاثة أيام ، ولما اشتد عليه المرض أراد أن يكتب للمسلمين كتاباً .

ورد عند الشهريستاني عن البخاري أنه قال : « فأول تنازع وقع في مرضه ﷺ رواه البخاري » لما اشتد بالنبي ﷺ مرضه الذي مات فيه قال : « إيتوني بقرطاس ودواة أكتب لكم كتاباً لا تصلوا بعدي » فقال عمر رضي الله عنه : إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع » حسبنا كتاب الله . عندها كثُر اللغط فقال النبي ﷺ : « قوموا عنِي » لا ينبغي عندي التنازع » فقال ابن عباس ، وهو حبر الأمة الإسلامية « الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله » (١) ولم يأتوا بقرطاس ودواة ، فما أدراهم أن هذه الوصايا التي يريد كتابتها ، سياسية أم أخلاقية ؟ وكل ما في الأمر أنه ﷺ يريد أن يحصنهم بأقواله الأخيرة من النزاع والخلاف . فكان من المفروض أن يلبو طلبه ويطيعوا الله والرسول ﷺ عملاً بالآية الكريمة ، وعليهم أن يستنجدوا من ذكره هذا الكتاب أشياء غير الجوانب التشريعية التي ما انفك القرآن يتنزل بها حتى آخر لحظة من حياة النبي عليه السلام ؛ ذلك الكتاب الذي سيحتوي مسائل هامة جداً تتعلق بتصرفهم في مجتمعهم و المجالات حياتهم . لقد رأى الرسول ﷺ أن منيته قد دنت ، فأفراد الآية يفسح المجال أمام المسلمين كي يتنازعوا بالقرآن على القرآن ، وبالسنة على السنة ، فينفرقوا وتذهب ريحهم . لذلك وَلَوْ لَوْ يوضع لهم خطة عمل دائمة يتمسكون بها وكأنهم

(١) راجع الملل والنحل ج ١ ص ١٣-١٤ والسير النبوية لابن هشام ج ٢ ص ٦٠٤ .

يتمسكون بأمر الله عز وجل ، فيحفظهم ويعلو شأنهم ويكونوا كما أرادهم ، جل شأنه ، خير أمة أخرجت للناس .

ولا بد لنا من الاعتراف بأنه لم يكن من المتظر أن يقف بين الصحابة مثل عمر ليقول ما قال ، ولا من المتوقع إذا قضى الله رسوله أمراً أن يختار المؤمنون غير ما يختاره المقصوم ! هذه أول بادرة من بوادر التزاع ، أما ثانيتها فهي :

تجهيز جيش أسامة بن زيد
بعد رجوع النبي ﷺ من حجة الوداع عقد لاسامة بن زيد بيده الشريفة لواء جيشٍ حشر فيه وجوه المهاجرين والأنصار ، والرسول عنده يعاني من مرضه قال لصحابته مؤكداً عليهم «جهزوا جيشاً لعنة الله من تخلف عنه» قال الدكتور الشيخ صبحي الصالح : «وكان الرسول عليه السلام كان يستشف حجب الغيب ويدرك ما يكون من أمر المسلمين لو تهاونوا في مثل هذا الأمر الخطير فهو أمر ترتب عليه نتائج حاسمة في علاقات المسلمين بالدول الأجنبية ، لذلك لم يستنكف أن يستخدم عبارة اللعن»⁽²⁾ .

ولكن هل استجاب المسلمين لنداء الرسول الأكرم ؟ لقد طعن قوم في تأمير أسامة على الجيش وفيه عيون الناس وقادتهم ، مدلين بحجج واهية بعيدة عن المنطق . منها : أن أسامة كان شاباً حدث السن وهل يعقل أن ينضوي تحت لوائه كبار القوم ، الناذرون في قبائلهم ؟

ومنها : ان النبي في مرض شديد ولا يحسن مفارقه وهو على تلك الحالة : «فلا تسع قلوبنا مفارقته والحالة هذه » فنصبر حتى نبصر أي شيء يكون من أمره⁽³⁾ ولما بلغ النبي طعنهم وتأخيرهم ، غضب غضباً شديداً ، وخرج وهو محموم حتى أتى المسجد فقال : «يا أيها الناس ما مقالة ما بلغني عن بعضكم في تأميري لاسامة ، ولئن طعنتم في تأميري لاسامة ، لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله ، وأيام الله إن كان خليقاً بالأماراة » وإن ابنه من بعده خليق بها⁽⁴⁾ وهنا لا بد لنا من التساؤل ، لماذا هذا الالاح من النبي ﷺ على وجوب إرسال جيش لاسامة بعد أن حشد فيه أعيان المسلمين ، وقاده الجماهير عملاً أن الحكمة ، في ظاهر الأمر ، تقضي بإبقاء هؤلاء الإعلام في المدينة ليذودوا عنها الخطر بعد وفاته ، لأنها كانت عاصمة ملكه وعنوان الاسلام؟ ومع ذلك أصر عليه السلام على إنفاذ جيش لاسامة .

نستنتج من ذلك أمور عدّة منها :

إننا نرى في ذلك تدبيراً حكيماً من النبي ﷺ يريد من خلاله إفساح المجال للخليفة الحقيقي ليتولى الأمر دون أي معارضة تضعف شأن الاسلام ، حتى إذا تم له الأمر « يريد الطامع نفسه أمراً واقعاً فيسلم للأمر ويدعن لواقع الحال .

وأمر آخر يستوقفنا لأول وهلة ، وهو كيف تصرف النبي ﷺ في تأمير شاب حدث السن

(2) نظم اسلامية ص 79 .

(3) الملل والنحل للشهرستاني ج 1 ص 14 .

(4) راجع تاريخ الطبرى .

لم ييل الحرب ولم يعرف أسرارها وأبعادها ، على جيش حشر فيه أقطاب الناس وقادة الجماهير ،
فلم فعل ذلك ؟

وما نراه أن النبي ﷺ لم يخرج عن قاعدته في اتباع الكفاءة الشخصية في جميع أطوار
حياته ، تلك القاعدة التي ما زالت مثلاً أعلى يحتذى في كل زمان ومكان . فصغر السن وكبره
ليس مقاييساً للإمارة والقيادة ، لذلك وجدها قد غضب عندما علم بتخاذل القوم فقال :
« وإنك خليق بالإمارة » فكفاءة هي التي ساقت الإمارة إليه ، ولو كان في المسلمين من هؤلاء
بها منه في ذلك الظرف لما تقدمه أسامة أبداً .

ونقطة هامة أخرى ، وهي بعد أن ألح بتجهيز جيش أسامة أمر عليه بالبقاء بالقرب منه
ليتمكن من تنفيذ الخطة التي رسمها . وليس هذا فحسب فهو يستهدف ﷺ أمراً آخر من
تأمير أسامة على الجيش ، فهو عندما يطبق قاعدة الكفاءة التي نادى بها فكانه يعني « نفوس
المسلمين لتقبل حكم علي بن أبي طالب حين يتسلم مقاليد الحكم بعده ، لأن عليه كان
أيضاً صغير السن بالنسبة إلى كثير من الصحابة ، هذا هو التفسير الذي يفسر به الشيعة بعث
أسامة . قال العالمة الشيخ محمد مهدي شمس الدين :

« ولكن يبدو أن هؤلاء الذين أراد النبي أن يزج بهم في هذا الجيش أدركوا ما يستهدف
النبي من ورائه ، فتخاذلوا عن الذهاب واتخذلوا أعذاراً لا تبرر ما أتوا من المخالفة لأمر
النبي الصريح ، الذي لا يقبل التأويل . وبعد أن رد النبي على قوتهم بصغر سن أسامة ،
راحوا يعرقلون سير الجيش بشتى الوسائل والاشعارات » حتى نجحوا وأبطلوا تدبير
النبي »⁽⁵⁾ .

ورب قائل يقول : إن هذا التصرف لم يكن من الحكمة في شيء ، فلو أن النبي توفى
والجيش بعيد عن المدينة ، هوجمت من قبل الأعراب والمرتدين الذين كانوا يتظرون الفرصة
المناسبة لذلك ، فلعل هؤلاء الذين تقاعسوا عن السير وعرقلوا البعد أرادوا الخير للإسلام
وال المسلمين بإبقاء الجيش في عاصمة الإسلام ، يذود عنها عادية العاديين . قال الدكتور صبحي
الصالح في هذا المجال : « فلا ضير فيها قالته الفتاة المتخلفة ، لأنها لم تكن تمانع في طاعة النبي
وامتثال أمره ، بل كانت تعتقد أن مرضه لم يكن يسمح لها بأن تفارقنه ، فانتظرت وارتقبت
الحوادث حتى تعرف كيف تنجي هذه الغيمة ، لعل الرسول عليه الصلاة والسلام في قوة
شوكته وعافيتها يأمرهم بغير هذا الأمر »⁽⁶⁾ ولكن استدرك بعد ذلك فقال :
« ولكن مجرد إقدامهم على التخلف يعد دون شك ثغرة من الثغرات لا ندرى من أي
مكان انطوىها »⁽⁷⁾ .

أما ابن الأثير فيقول في تاريخه فيها يعود إلى هذه النقطة :

(5) نظام الحكم والإدارة في الإسلام ص 220.

(6) النظم الإسلامية للدكتور الشيخ صبحي الصالح .

(7) المصدر نفسه ص 80.

« فقد جهل هؤلاء - الذين ببروا تخلفهم بالاشفاق على النبي - أن أبا بكر رضي الله عنه لما تم له أمر الخلافة ، وجهه أسامة إلى حيث وجده النبي ﷺ وترك المدينة خالية من حامية تدافع عنها عند الحاجة ، وقال : والذي نفسي بيده لو ظنت أن السباع تحظفي لانفذت جيش أسامة كما أمر النبي »⁽⁸⁾ .

ويعلق الشيخ محمد مهدي شمس الدين على هذا التخلف قائلاً : « فلماذا لم يمنع أبو بكر أسامة عن السير ، وهو واحد من تخلفوا عن الجيش في حياة النبي ؟ وما نريد بيانه في نهاية هذا الخلاف أن النبي ﷺ كان عالماً بدنو أجله ، وهذه الحقيقة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحدث التاريخي : تجهيز جيش أسامة بن زيد . بعد تحملتنا لهذه الاختلافات قبيل وفاة الرسول ﷺ نرى أنها نزعات انسانية فطرية لم يتيسر لها أن تشكل فرقاً أو شيئاً أو مذاهب فقهية أو كلامية ، كما لم يتع لها أن تكون أحزاباً سياسية . فالمسلمون بوجود النبي ﷺ كانوا يدينون له بالطاعة المطلقة ، ويتلقون ما يأمرهم به وما ينهاهم عنه بالقبول والاذعان ، لأنه عليه الصلاة والسلام بتعليماته وتصرفاته قضى على عصبية الجاهلية الرعناء . وكان يدعو دائمًا إلى المؤاخاة بين الناس والمحبة والوثام ، كما كان يؤكّد بالقول والعمل على الكفاءة العلمية ، والمهارة الشخصية ولكن بعد أن زالت تلك الظاهرة المثيرة التي كانت تحيط بقلب كل مؤمن في حياة الرسول ﷺ ، أصبح لتلك النزعات الفطرية والاختلافات الشخصية أن تجد طريقها للتعصب المذموم . وكانت أولى المسائل التي اشتجرت فيها آراء قادة الرأي في المسلمين هي مسألة الخلافة . وهي التي سبّت ظهور الأحزاب الإسلامية التي منها الفرق الإسلامية .

وأول حركة سياسية ظهرت بعد وفاة النبي هي مبادرة الأنصار من الأوس والخزرج ، يوم توفي النبي ، إلى عقد اجتماع في سقيفة بني ساعدة .

اجتماع السقيفة

بعد أن تأكد الأنصار أن أكثر المهاجرين قد اجتمعوا على إبعاد علي عن الخلافة ، أرادوا أن يبرزوا كطرف آخر لأنهم لا يرون فضلاً وميزة لأحد من الناس عليهم سوى على (ع) ، لذلك اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة لاختيار سعد بن عبد الله الأنصاري « زعيماً لهم المعروف بينهم . وإننا نرى أن موقفهم في السقيفة كان ردًا على موقف المهاجرين واتفاقهم على إبعاد علي عنها .

يؤيد ذلك ما جاء في شرح النجاشي من رواية الزبير بن بكار فقال : لما كان آخر النهار اجتمع قوم من الأنصار وتعاقبوا فيما بينهم ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يا معشر الأنصار إنكم وإن كتم أولي فضل ونصر سابقة ، ولكن ليس فيكم كأبي بكر وعمر علي وأبي عبيدة فقال زيد بن الأرقم : إننا لا ننكر فضل من ذكرت يا عبد الرحمن ، وإن يأخذ عنه القرآن ، وإن لنا سيد الأنصار سعد بن عبد الله ، ومن أمر الله ورسوله أن يقرأه السلام ، وإن يأخذ عنه القرآن ، وإننا لنعلم أن بين من سميت من قريش من لو طلب هذا الأمر لا ينazuه فيه أحد ، وهو علي بن أبي

(8) راجع تاريخ ابن الأثير .

طالب ومحمل القول كما يروي ابن هشام عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب ، انه قال : لما توف رسول الله خالفنا الأنصار واجتمعوا مع أشرافهم في سقيفة بني ساعدة ، وكان قد تخلف عنا علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ومن معهما ، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر ، فقال عمر لأبي بكر إنطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء الأنصار ، فانطلقنا نؤمهم حق لقينا منهم رجلان صالحان ، فذكرا لنا ما تما لا عليه القوم ، وهما من بن عدي وعويم بن ساعدة⁽⁹⁾ . ولما جلس الجميع شهد خطيب الأنصار وأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :

أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معاشر المهاجرين رهط منا ، وقد دفت دافة من قومكم⁽¹⁰⁾ وإذا هم يريدون أن يمتازونا من أصلنا ويغصونا بالأمر . عندها قام أبو بكر مخاطباً :

إن ما ذكرتم فيكم من خير فأنت له أهل ، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش هم أوسط العرب نسباً وداراً ، وقد رضينا لكم أحد الرجلين « فباعوا أهلياً شتم ، وأخذ بيد عمر ويد أبي عبيدة بن الجراح . فقال قائل من الأنصار .

أنا جذيلها المحك وعذيقها المرجب منا أمير ومنكم أمير يا معاشر قريش ، فكثير اللعنة وارتتفعت الأصوات حتى تخوفت الاختلاف ، فقال عمر أبسط يدك يا أبو بكر فبسط يده فباعيه ثم باعيه المهاجرون ، وباعيه الأنصار⁽¹¹⁾ وبعد أن ظهر التفكك بين الأنصار إثر خطاب أبي بكر الذي ذكرهم بالخلافات القديمة بينهم ، قال للناس : « باعوا أحد الرجلين عمر بن الخطاب أو أبو عبيدة . عندها انتفض الآثاران معاً وقالا بلسان واحد : معاذ الله ، والله لأنتم أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله على الصلاة : أبسط يدك فبسطها دون تردد وباعاه ، وبالطبع كانت الأوس تكره استخلاف سعد « الخزرجي ، وتود أن يتولاها غيره ، فلما باعه عمر وأبو عبيدة وبشير بن سعد ، دعا أسيد بن حظير قومه من الأوس أن يسرعوا إلى البيعة لتكون لهم اليد الأولى عند الخليفة ، فأسرعوا جميعاً وتسابق الناس إلى بيته حتى كادوا أن يطأوا سعداً ، سيد الخزرج » بأرجلهم . وانتهت البيعة إلى أبي بكر وعلي بن أبي طالب وبنو هاشم وجاءة من المهاجرين وبعض الأنصار ، لا يعلمون بكل ما جرى ، لأنصارفهم الى تجهيز الرسول^{صلوات الله عليه} ، إلى مثواه الأخير⁽¹²⁾ . وحمل الحديث عن سقيفة بني ساعدة وما انتهت إليه كما نصت الروايات من شرح النهج ، ورواية الواقدي ، وما أورده ابن هشام في سيرته ، عدة أمور :

- إن الأنصار كانوا ملتزمين من جانبهم بحق علي لولا المعارضة ، وبعد أن طلبها غيرهم وجدوا أنفسهم أحق بها من أولئك الذين أرادوها لأنفسهم .

(9) وكانت من المتحمسين لأبي بكر كما جاء في شرح النهج عن الواقدي .

(10) الدافع هم قوم يسرون سيراً معمولاً وفي ذلك دلالة على أن حركة الأنصار كانت ردأ على تكتل جماعة من المهاجرين واتفاقهم على الاستيلاء على السلطة .

(11) راجع شرح النهج ج 1 ص 128 وتاريخ ابن خلدون .

(12) راجع سيرة المصطفى للسيد هاشم معروف الحسني .

- ان دخول أبي بكر وعمر وأبي عبيدة إلى السقيةة وقول أبي بكر بايعوا أحد الرجلين ، وإسراع عمر إلى بيته ، والنبي لم يدفن بعد ، كل ذلك يكشف عن أنهم كانوا على اتفاق سابق بينهم على أن يتداولوها ثلاثة متعاقبين : أبو بكر - عمر - أبو عبيدة . يشير إلى ذلك مقالة عمر بن الخطاب⁽¹³⁾ حينما طعنه أبو لؤلؤة :

- إن بيعة أبي بكر على الشكل الذي قمت عليه هي أقرب إلى التعين منها إلى الشورى ، لقد بايده عمر بن الخطاب متوجهًا للثات من المهاجرين وبني هاشم وعلى رأسهم علي بن أبي طالب .

- لقد تذرع عمر بن الخطاب في تقديره أبي بكر عليه ، بأنه خليفة رسول الله على المسلاة ، كما جاء في رواية الطبرى .

لقد اعتمد عمر على صلاة أبي بكر بالناس عندما كان النبي مريضًا ، وهذا يكفي لتولية أبي بكر مقايد السلطة ، ولكن لم يتذكر ما قاله النبي ﷺ^(ع) في غدير خم على حشد يزيد على مائة ألف نسمة كما جاء في أكثر الروايات :

من كنت مولاه فهذا على مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه « وانه سر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه أينما دار .

وحدثت الثقلين :
إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترقى أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي⁽¹⁴⁾ .

وحدث يوم الدار :
أنت أخي ووصيي وخليفي من بعدي⁽¹⁵⁾ .

وحدث يوم غزوة تبوك :
أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي من بعدي ، ولا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفي⁽¹⁶⁾ .

وقوله ﷺ يوم الأحزاب حينما برع على لحاربة عمرو بن ود العامری بحضور كبار المهاجرين والأنصار :
برز الإيمان كله إلى الشرك كله⁽¹⁷⁾ .

كل هذه الأقوال نسيها عمر بن الخطاب وتذكر صلاة أبي بكر بالناس عندما كان النبي مريضًا ، فهي وحدها دليل كاف بنظره على أحقيته في خلافة المسلمين !

(13) (لو كان أبو عبيدة حيًّا ما عدنته) .

(14) أنظر ابن كثير في البداية والنهاية وابن ماجه في الصحيح وأحمد بن حنبل في المسند وغيرهم .

(15) راجع تاريخ الطبرى وابن الأثير ومسند أحمد وشرح النجف .

(16) راجع الخصائص للنسائي ج 2 ص 203 والكتير من المراجع الأخرى كالمراجعةات للإمام شرف الدين .

(17) سيرة المصطفى للسيد هاشم معروف الحسني .

الأحزاب

بعد اجتماع سقيفة بني ساعدة فاز المهاجرون على الأنصار في مناورة سياسية محمومة .
ثم ولـيـ الـخـلـافـةـ أـبـوـ بـكـرـ دونـ أنـ يـعـلـمـ بـنـوـ هـاشـمـ وـبعـضـ الصـحـابـ الـاعـلامـ ،ـ أمـثالـ المـقـادـدـ بنـ الأـسـودـ ،ـ وـسـلـمـانـ الـفـارـسيـ ،ـ وـأـبـيـ ذـرـ الـغـفارـيـ وـالـزـبـيرـ بنـ الـعـوـامـ ،ـ وـعـمـارـ بنـ يـاسـرـ ،ـ وـعـلـيـ
بنـ أـبـيـ طـالـبـ الـذـيـ أـمـرـهـ النـبـيـ ﷺـ أـنـ يـقـىـ إـلـىـ جـانـبـهـ أـثـنـاءـ مـرـضـهـ ،ـ إـذـ كـانـ
هـؤـلـاءـ جـيـعـاـ فـيـ شـغـلـ عـنـ الـقـومـ بـتـجهـيزـ الرـسـولـ وـدـفـهـ .ـ وـقـدـ كـانـ لـهـ جـيـعـاـ رـأـيـ خـاصـ فـيـمـنـ
يـخـلـفـ النـبـيـ ﷺـ إـذـ كـانـواـ يـرـوـنـ بـقـنـاعـةـ تـامـةـ أـنـ الـعـيـنـ هـذـاـ الـنـصـبـ (ـ الـخـلـافـةـ)ـ هـوـ عـلـيـ بنـ أـبـيـ
طـالـبـ .

في هذه الفترة من الزمن تكونت الأحزاب ، وبرزت على الساحة الإسلامية العامة ثلاثة ، لكل منها وجهة نظر خاصة يرى من خلالها أن له الحق في أن يلي أمور المسلمين بعد النبي ﷺ . هذه الأحزاب هي :

1 - حزب الأنصار

هذا الحزب لم تكتب له الحياة ، لذلك لم يستمر ، وما نميل إلى الأخذ به أن الأنصار كانوا يشعرون بالاضطهاد من قبل المهاجرين ، لذلك نرجح أن اجتماع السقيفية كان عن سابق تصور وتصميم . ورد عن النبي ﷺ أثناء مرضه الذي توفي فيه : « أهيا الناس ، فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام فمن ولی منكم أمراً يضر فيه أحداً أو يفعمه فليقل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم »⁽¹⁸⁾ كما قال في مناسبة أخرى : « ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض »⁽¹⁹⁾ وهذا ما يشير بأنهم سيكونون الفئة المستضعفة في الجماعة الإسلامية .

إن مثل هذه الأقوال النبوية في أكثر من مناسبة أثرت في نفوس الأنصار ، وجعلتهم يخذرون من مصيرهم السيء ؛ هذا الشعور الجماعي بالخطر وحد بينهم وحدة متماسكة ، قوّت مركزهم في الجماعة الإسلامية ، ورصلت صفوهم ، مما جعلهم في مأمن من عدوان مرتفق من قريش ، وغير قريش ، من يقطنون لهم الضغينة ويظهرون لهم الود والمحبة المزيفة .

وما نعتقد أن السبب الرئيسي في وجود هذا الحزب هو عامل الخوف لا عامل الطمع في الخليفة . والمرشح من بين أعضاء هذا الحزب هو سيد المخرج سعد بن عبدة . أما حججهم التي يستندون إليها في أفضليتهم في تسلمهم الخليفة ، كما يظهر من خطبهم في اجتماع السقيفة ، هي :

أ- السبب الذي ذكرناه قبل قليل وهو تخوفهم من قريش عندما تملك زمام الأمر ، فنتعلم منهم شر انتقام لأنهم قتلوا أهم رجالها في حروب الاسلام الأولى . يدلنا على ذلك قول الحباب بن المنذر : « والله ما ننفس هذا الأمر عليكم أيا الرهط ، ولكننا نخاف أن

18-19) راجع البخاري باب فضائل الأنصار .

يليه بعدكم من قتلنا أبناءهم وأخوانهم »⁽²⁰⁾ ففي قوله : « والله ما نفس هذا الأمر عليكم أيها الرهط . . . » يكشف بصرامة عن عامل التخوف ومبادرة الاجتماع لمبادلة سعد بن عبادة ، تخوفهم من أن تلي الأمر قريش فتنتصس منهم » وليس طمعاً في منصب الخلافة .

ب - بذلم للاسلام في سبيل الدعوة الاسلامية . لقد ضحوا بدمائهم وأرواحهم ونذرموا أنفسهم للكفاح في سبيلها وإعلاء شأنها . وشاهدنا في ذلك قول الحباب بن المنذر نفسه في اجتماع السقيفة : « وأنتم أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان الناس بهذا الدين »⁽²¹⁾ .

ج - إن دار الأنصار هي دار الهجرة التي منها ولد المجتمع الاسلامي وتكون مستوفية خصائص المجتمع السياسي « حيث أصبح له حكومة وإدارة ونظام . ومن هذه الدار انطلقت الدعوة الاسلامية بهمة عالية فاكتسحت الجزيرة العربية بأسرها ، ثم العالم كله كما نرى ونسمع اليوم .

هذه هي حجج الأنصار التي نادوا بها واعتمدوها . ولكن أين هي من خطبة أبي بكر الرائعة ، أبو بكر السياسي القدير ، والخطيب العبرقي الذي استطاع أن يتلاعب بنفوس الأنصار جيئاً من أوس وخزرج » ويؤثر فيهم تأثيراً بالغاً حيث فرق صفوفهم ، وتسلم أمر الحكم دون أي معارضة .

لقد لمح في خطبته تلك ببراعة وحذق إلى ما يطرد عامل الوهم من أنفسهم ويشتت الأمن والاطمئنان في قلوبهم الخائفة والمذعورة .

فقال : « وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلكم في الدين ، ولا سابق لكم العظيمة في الاسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدینه ولرسوله ، وجعل إليكم حجرته وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا منزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتتون بمشورة ، ولا يقضى دونكم الأمر »⁽²²⁾ (لقد وفق أبو بكر إلى حد بعيد بهذه اللفتة الخطابية ، فأجاد في ترتيب المثيرات النفسية المناسبة والموققة .

وكلنا يعلم العداء القديم بين فتي الأنصار الأوس والخزرج الذي سببه حروب الجاهلية فقد استغل ذلك أبو بكر ببراعة فائقة فقال مخاطبهم :

« إن هذا الأمر (الخلافة) إن تطاولت إليه الخزرج لم تقصر عنه الأوس ، وإن تطاولت إليه الأوس لم تقصر عنه الخزرج . وقد كان بين الحين قتل وجراح لا تداوى فإن نعم منكم ناعق فقد جلس بين حبي أسد يضغمه المهاجري وي sherحه الأنصاري »⁽²³⁾ .

(20) راجع تاريخ الطبرى .

(21) المصدر نفسه .

(22) راجع الكامل لابن الأثير وتاريخ الطبرى .

(23) تاريخ الطبرى .

لقد أثار في نفوس المجتمعين من الأنصار بلفته البارعة صوراً عديدة كفيلة بتحطيم الوحدة الشعورية التي كانت تجمع بينهم . فبعد أن أزال عامل الخوف وطمأن قلوبهم بالأمان ، عمد إلى تذكيرهم بالخلاف المستحكم قدماً في قلوبهم .

أثار في أخيلة الأوس الطامحين إلى الخلافة صورة الأمير الخزرجي الذي يتوجه إليها دونهم ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الخزرج ، على حد تعبيره . أما قوله : وقد كان بين الحين قتل . . . فكانه يناديهم إلى الأخذ بالثار الواجب المقدس عندهم ، والجرح العميق والدماء المسفوحة والخذد الميت . بهذه اللفتات البارعات حطم أبو بكر الوحدة الشعورية بين الأوس والخزرج ، فريق الأنصار ، وكانت فعلاً ضربة حاسمة ، إذ على أثر تلك الخطبة انطر了 الأنصار ، ويادر سيد الأوس (أبي بن حمير) فكان أول المبايعين لأبي بكر . ثم تبع الأوس في البيعة سيدهم ، وتبعهم بعد ذلك الخزرج إلا سيدهم (سعد بن عبادة) الذي أحفظه الخدلان . فقال حين دعي للمبايعة : « لا والله ، حتى أرميكم بما في كنانتي من نبل ، وأخضب سنان رحمي » وأضربكم بسيفي ما ملكه يدي ، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني من قومي » فلا أفعل وأيم الحق لو أن الجن اجتمعت لكم مع الأنس ما بايعتم حتى أعرض على ربي »⁽²⁴⁾ .

الحزب القرشي

وهو الحزب الذي تم له الانتصار بفوز زعيمه أبي بكر خليفة للمسلمين » وما نرجحه إن هذا الحزب لم يظهر فجأة يوم توفي النبي ﷺ ، وساعة علم عمر بن الخطاب باجتماع الأنصار في السقية ، وإنما قد قضى عليه روح من الزمن . وأقطابه ثلاثة هم : أبو بكر ، وعمر ، وأبو عبيدة بن الجراح .

أما وجهة نظره في خلافة النبي فتتلخص : في أن هذا الحق لقريش وحدها لا ينزعها فيه إلا مدل بباطل أو متجانف لإثم ، أو متورط في هلكة ، على حد تعبير عمر بن الخطاب يوم السقية . وحججه في إثبات حقه نوجزها في أمرين .

الأول: اعتماده على سبقه في الإسلام ، والثاني قرباته من رسول الله ﷺ . ورد في تاريخ الطبرى عن عمر بن الخطاب قال :

« فهم أول من عبد الله في الأرض ، آمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشائرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده »⁽²⁵⁾ .

وهذا عمر بن الخطاب يؤكّد حق قريش في الخلافة فيقول :

« هيئات ، والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم » ولكن العرب لا تنتفع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولي أمرهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين . من ذا ينazuنا سلطان محمد وإمارته ونحن أولياؤه

(24) المرجع السابق .

(25) راجع تاريخ الطبرى .

وعشيرته إلا مدل بباطل ، أو متجانف لاثم ، أو متورط في هلكة »⁽²⁶⁾ .

فها نلاحظه في هذا الكلام يخرج النبوة عن معناها الديني والقديسي الى معنى دنيوي مقىٰت ، يظهر ذلك جلياً في العبارة « من ذا ينazuنا سلطان محمد وإمارته .. » حيث أصبحت الخلافة مسألة شخصية بعيدة كل البعد عن صفتها الدينية التي أرادها رسول الله لها عليه السلام . فالخلافة في الإسلام ليست ملكاً ، وليس إمارة كالمملك القبصري والملك الكسروي . والخلافة في الإسلام ليس ملكاً ، أو أميراً ، أو شاهماً ، بل هو خليفة الله ينفذ شريعة الله ، ويعمل بكتاب الله ، وسنة رسول الله عليه السلام .

الحزب الهاشمي

مذهب هذا الحزب هو مذهب الحزب القرشي ، يقول الخلافة في قريش وليس في غيرها . ولكنـه يرى أنها منحصرة في بني هاشم ، فهم أحق بها وعلى وجه التخصيص في شخص الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وما يedo واضحـاً من عناصر هذا الحزب أنه يتمسك بالعنصر العقائدي وليس بالعنصر القبلي كالحزبين السابقين . فقد كان يتكون من قبائل شتى ، ومن عناصر متباعدة في العرق والدم ، نذكر منهم على سبيل الذكر سلمان الفارسي ، وجندب بن جنادة(أبو ذر الغفاري) ، والمقداد بن الأسود الكلبي « وخالد بن سعيد بن العاص الأموي ، وعمار بن ياسر العبد ، وغيرهم من كبار عيون المهاجرين والأنصار .

والحزب الهاشمي كغيره من الحزبين السابقين لم يكن ابن ساعته ، بل كان قد تكون منذ أوائلبعثة النبي . وهو يعتبر أن الخلافة من حقه دون غيره ، معتمداً في ذلك على الأحاديث النبوية التي حدث بها الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه أمام الناس عامـة وفي عدة مناسبات . ولا بد أن هذه الأحاديث قد سمع بها جميع المسلمين من أنصار ومهاجرين .

فهذا الزبير بن بكار ، المعروف بتعصبه للحزب القرشي وبغضه لعلي وأولاده ، يقول : في حديث له : « كان عامـة المهاجرين وجل الأنصار لا يشكون أن علياً هو صاحب الأمر بعد رسول الله » .

ونذكر أن أعضاء هذا الحزب كانوا في شغل بما فدحوا به من وفاة النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه بينما كان أعضاء الحزبين الآخرين في سقيفة بني ساعدة يتجادلون حول الخلافة . وهكذا تقرر مصير الخلافة الإسلامية ببابـة أبي بكر دون أن يعلم أحد من الحزب الهاشمي ؛ الذين كانوا جميعـاً يتوقعون أن المرشح الوحيد للخلافة هو علي بن أبي طالب . لذلك فوجئوا بالخبر عندما ذاع الخبر بينـهم ، البراء بن عازب ، بعد خروج القوم (من الحزبين) من السقيفة إلى المسجد .

أما العباس بن عبد المطلب فإنه كان حذراً من الأمر ، وكأنـه يشعر بأنـ الأمر يوشـك أن يفلـت من يد ابن أخيه ، ولذلك كان يلحـ عليه دائمـاً في طلب البيعة . قال لعلي عندما أقبل عليه أبو سفيان :

_____ .
ـ (26) المرجع نفسه .

« يا ابن أخي هذا شيخ قريش قد أقبل فأمدد يدك أبايعك ويبايعك معي ، فإنما إن بايئناك لم يختلف عليك أحد من بنى عبد مناف » . وإذا بايئك بنو عبد مناف لم يختلف عليك قرضي ، وإذا بايئتك قريش ، لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب ». فالعباس ، بما لديه من معلومات ، كان يدرك أن هناك من يعمل على غير هواه في مجال الخلافة الإسلامية .

والآن ماذا على الحزب القرشي الحاكم ؟ بعد أن تم له تحطيم كيان حزب الأنصار اتجه بأنظاره إلى الحزب الهاشمي ليقوم بالعمل نفسه ، فهو القوة المناوئة له الآن على الصعيد السياسي . ولكن الأسلوب التبع هنا يختلف عن أسلوب إخضاع حزب الأنصار . فقد اعتمد أسلوب العنف والسلطة والإكراه ، لأنه اكتسب الصفة الشرعية والسلطة الفاعلة . وبعد أن ثنت البيعة لأبي بكر أرسل عمر بن الخطاب إلى دار النبي - وفيها الهاشميون ومن معهم - يدعوهم للبيعة ، فترعدتهم بأن يصرم عليهم البيت ناراً إذا جلأوا إلى دار الزهراء ؛ فأخرجتهم منها وأضطررهم إلى البيعة اضطراراً ، اللهم إلا علي فإنه أبي البيعة واعتضم بداره لا يخرج منها ، لأنه يرى أن القوم قد عدوا على حقه فسلبوه إيه ، قال لهم ، وهو الخطيب البليغ :

« أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايئكم وأنتم أولى بالبيعة لي ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي ﷺ وتأخذونه من أهل البيت غصباً . أستلم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لما كان محمد منكم ، فاعطواكم المقابلة وسلموكم الامارة ، فإننا أحتاج عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار ، فنحن أولى برسول الله حياً وميتاً ، فانصفونا إن كنتم مؤمنين » .

فتأمل هذا الكلام البليغ وهذه الحجج الدامغة ، لقد كاـلـ لـلـقـومـ بـكـيـلـهـمـ . حتى سـدـ عـلـيـهـمـ كـلـ بـابـ وـعـطـلـ لـهـمـ كـلـ جـوابـ .

واستمر الحزب الهاشمي في صراعه من أجل ما يراه حقاً له ، فخرج علي والزهراء في الليل إلى الأنصار ، لعلهم يتربوا إليه ، ويرجع الأمر إلى غير ما استقر عليه ، من البيعة لأبي بكر . ولكن الأنصار كانت قد ثبتت بيئتهم ، ولا رجوع بعد عن كلمتهم ، لأن الكلمة إذا تكلم بها العربي الأصيل ملكته وأصبحت عهداً عليه لا يستطيع منها فكاكاً . فقالوا للزهراء « لو أن زوجك سبق إلينا قبل أبي بكر لما عدلنا به » . ولكن تأخير علي كان بسبب وفاة الرسول ﷺ وتجهيز جنازته ، فليس من العقول أن يترك الجنازة ، جنازة سيد الخلق وخاتم النبین والرسل ، ويتحدث في أي موضوع آخر مهما كلف الأمر . لذلك قال كرم الله وجهه :

« أفكنت أدع رسول الله في بيته ، ثم أخرج أزع الناس سلطانه » .

ولكن هذه الحركة الهاشمية وإن لم تثمر في ذلك الأنصار إلى التملص من بيئتهم لأبي بكر ، وعقد الخلافة لعلي ، إلا أنها أجبرت في عقد مؤمن بي بياضة في المدينة ، الذي ضم طائفة كبيرة من زعماء الأنصار ومثلها من أعضاء الحزب الهاشمي . وغاية هذا المؤمن إعادة الأمر شورى بين المسلمين ، كما أرادها رسول الله ﷺ ورددتها في أحاديثه الشريفة . وهذا الجر خليل لأن تم الخلافة في جوهادى ، بعيد عن التصدع والوهن في الأمة الإسلامية .

ويرشع من هذا المؤمن أن الأنصار بعد أن فشلوا في الميدان السياسي ، انضم حزبهم

للى الحزب الماشي وأصبعوا يداً واحدة يعملون هدف واحد . ولما علم الحزب القرشى بنبأ هذا المؤمر قام فوراً بحركة مضادة » فاستدعى أبو بكر وعمر أبا عبيدة بن الجراح ، والمغيرة ابن شعبة ، ليتذرّس معهما وجوه الرأى . وبعد الأخذ والرد قال المغيرة : « الرأى أن تلقوا العباس فتجعلوا له ولوله في هذا الأمر نصيباً ليقطعوا بذلك ناحية على بن أبي طالب »⁽²⁷⁾ .

فأخذ الشیخان بهذا الرأى وذهبوا إلى العباس فقال له أبو بكر في بعض كلامه : « ... وما انفك يبلغني عن طاعن يقول بخلاف قول عامة المسلمين ، يتذكّركم بما ، فتكلّونا حسنة المنبع وخطبه البديع »⁽²⁸⁾ . فكما عمل الحزب القرشى في تحطيم حزب الأنصار أراد أن يعيّد الكرة مع حزب الماشيين ، فيعمل على تقويضه ، وذلك بكسب العباس ورهنه إلى صفوه ضدّ على بن أبي طالب ، إلا أن الوسيلة اختلفت في المحاوّتين . ففي الأولى كانت إشارة البغضاء وتذكيرهم بإراقة الدماء والعداء بينهم . أما المحاولة الثانية ، مع الماشيين فمغايرة ، فلنجاؤا إلى الإغراء بالسلطة والمال ، حيث لم يكن بين أفراده إراقة دماء . قال أبو بكر لل Abbas : « فاما دخلتم فيما دخل فيه الناس او صرفتموهم عما مالوا إليه ... فقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك في هذا الأمر نصيباً ولمن بعدك من عقبك »⁽²⁹⁾ ولكن العباس لم يلن ولم تغره الأموال ، بل بقي صامداً في موقفه لا يتزحزح ، وخرج القوم من عنده دون أن يحققوا شيئاً من غايتهم .

ولم تكن هذه الحركة الماشية في مؤتمر بني بياضة تريّح الحزب القرشى ، لأنها لو تركت دون رادع لكان عقبة كأدء في سبيل السلطة القرشية . لذلك جند الحزب القرشى لتقويض هذه الحركة والقضاء عليها فسلط لها ألسنة الشعراء المتكتسين ، والخطباء المراوغين ، فسلكوا مسلك التهديد والوعيد . فلا بد بالحالـة هذه إلا أن ينبرى لهم شعراء الأنصار والماشيين معاً وتبدأ مساجلات النقد والمجاء على أشدّها»⁽³⁰⁾ . ولقد أصبحت القضية مسألة سياسية صرفاً عادت بهم إلى العصبية القبلية من التفاخر بالأنساب ، والأحساب ، وعرضن النقائص والأنخطاء . وهنا قد تجد الجماعات التي تكيد للاسلام الفرصة سانحة لهم ليثروا سفوم الحقد والضبغية والأذى في صفوف الأمة الاسلامية كعمرو بن العاص وغيره من المؤلفة قلوبهم .

عندما وجد على الحالـة تسير من سيء إلى أسوأ فيما يعود لمصلحة الأمة الاسلامية ، والفتنة تتفاقم يوماً بعد يوم ، خاف على المسلمين من التشرذم وعلى الأمة الاسلامية من التصدع والانيار ، في وقت حرج هي بأشد الحاجة إلى الوحدة والتضامن ؛ عندها أوعز إلى الماشيين والأنصار بالكف عنهم فيه من الجدل ، ومفضى إلى أبي بكر فبایعه قائلاً مثله الأعلى الذي سعى من أجله طوال حياته « سلامة الدين أحـب إلينا » وقد بقى دائـئراً وأبدأ سندـاً

(27) شرح نهج البلاغة .

(28) المرجع السابق .

(29) المرجع نفسه .

(30) راجع الكامل لابن الأثير وتاريخ الطبرى .

حصيناً للاسلام يضحي بكل ما هو شخصي وخاص في سبيل إعلاء كلمة الله ، حتى في عهد أبي بكر وعهد عمر وعثمان ، مع شعوره باغتصابهم حقه ، كان المستشار الأول لا يتاخر ولا يتوازي عن تفسير أي إشكال ديني ، أو حل أي معضلة تعرض لها أحد الخلفاء الراشدين الثلاثة في حل المعضلات التي كانت تعترضهم .
وبناءً على لأبي بكر تم الدور الأول من الأدوار التي مرت بها الدولة الاسلامية .

الفصل الخامس نشأة الفرق في الإسلام

الشيعة

لا بد لنا من الرجوع إلى بداية التشيع وهل هو عملية عاطفية أم عملية عقلانية انتهى إليها معتقدوها بتعقل ومعاناة وحكمة .

ما اختلف الباحثون في هذه الأمور ، وأخذ كل منهم يستنتاج وفقاً لمزاجه وأهوائه وما تجمع لديه من ترجيحات ، وجدنا لزاماً علينا تقديم خلاص من آراء الباحثين لنستشف منها رأياً موضوعياً يقبله التاريخ ويقره المنطق . من هؤلاء من يرى أن بذر التشيع وجدت بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام .

قال ابن خلدون في تاريخه : « إن الشيعة وجدت لما تزف الرسول ﷺ وكان أهل البيت يرون أنفسهم أحق بالأمر وأن الخلافة لرجالهم دون سواهم من قريش (1) .

وفي تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم حسن قال : فقد اختلف المسلمون بعد وفاة النبي ﷺ فيعلن يلونه الخلافة وانتهى الأمر بقولية أبي بكر وأدى ذلك إلى انقسام الأمة العربية إلى جماعية وشيعية (2) .

وقال اليعقوبي في تاريخه : وبعد جماعة من المتخلفين عن بيعة أبي بكر هم النواة الأولى للتشيع ومن أشهرهم سلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري والمقداد بن الأسود والعباس بن عبد المطلب (3) .

وفي كتاب العقيدة والشريعة للمستشرق جولد زهير : إن التشيع نشاً بعد وفاة النبي ﷺ وبالضبط بعد حادثة السقيفة (4) .

وفريق آخر من الباحثين يرى أن تكون الشيعة أيام خلافة الإمام علي (ع) من هؤلاء ابن النديم حيث حدده بفترة واقعة البصرة وما سبقها من مقدمات كان لها الأثر المباشر في

(1) راجع تاريخ ابن خلدون ج 3 ص 170

(2) تاريخ الإسلام السياسي ج 1 ص 371

(3) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 104

(4) العقيدة والشريعة ص 174

تبليور فرقة الشيعة وتكوينها⁽⁵⁾ .

ومنهم من يرى أن التشيع تميز سياسياً ابتداءً من مقتل أمير المؤمنين علي (ع) ويتضمن ذلك فترة قتل الحسين (ع) حيث يعتبرها امتداداً للفترة السابقة⁽⁶⁾ .

إن هذه الآراء وما شاعها أمثال المستشرق بروكلمن في تاريخ الشعوب الإسلامية ، بعيدة عن الدقة والتوثيق الصحيح وقد اعتمد الظن والوهم . أما رأي المحققين من الشيعة وجمهورهم ، فيرون أن التشيع ولد أيام النبي ﷺ وأن النبي نفسه هو الذي غرسه في النفوس عن طريق الأحاديث الصحيحة التي أكدتها الرواية الثقة من الشيعة وغيرهم من المذاهب الأخرى . روى السيوطي في الدر المثور عن ابن عساكر عن تفسير الآيتين السادسة والسابعة من سورة النبي بسنده عن جابر بن عبد الله قال :

كنا عند النبي ﷺ فأقبل علي (ع) فقال النبي ﷺ : والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيمة فنزل قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك خير البرية » .

كما أخرج ابن مردويه عن علي (ع) قال : قال لي رسول الله ﷺ ألم تسمع قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . . هم أنت وشيعتك وموعدكم الحوض إذا جاءت الأمم للحساب تدعونا غرّاً محجلين⁽⁷⁾ . من هنا ذهب الرازبي في كتابه روضات الجنات : إلى أن أول إسم لذهب ظهر في الإسلام هو الشيعة ، وكان هذا لقب أربعة من الصحابة : أبوذر الغفارى وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي والمقداد بعد موقعة صفين⁽⁸⁾ .

ومن الروايات والقرائن الدالة التي تثبت أن ظهور الشيعة كان زمن النبي ﷺ فكثيرة ٠ أورد قسماً منها الدكتور عبد العزيز الدوري الذي ذكرناه قبل قليل كما نص على قسم من هذه الأدلة يحيى هاشم فرغل في كتابه : عوامل وأهداف نشأة علم الكلام⁽⁹⁾ .

لذلك ذهب أكثر الباحثين إلى تخطئة من يؤرخ للتشيع وظهوره بعصور متاخرة علىَّ بأن ما أوردناه من الأدلة التاريخية التي تفيد على وجودهم أيام الرسول ﷺ يقول محمد بن عبد الله العنان في كتابه : تاريخ الجماعيات السريّة ، معلقاً على الحادثة حين جمع النبي عشيرته عند نزول الآية الكريمة : « وأنذر عشيرتك الأقربين⁽¹⁰⁾ » ودعاهم إلى اتباعه فلم يجده إلا علي بن أبي طالب . عندها أخذ النبي ﷺ برقبته وقال : « هذا أخي ووصيي وخليفي فيكم فاسمعوا

(5) الفهرست لابن النديم ص 175.

(6) راجع مقدمة في تاريخ صدر الإسلام للدكتور عبد العزيز الدوري ص 72 .

(7) الدر المثور للسيوطى ج 6 ص 376 وقد أخرج الحديث وأكده ابن عباس . المصدر نفسه .

(8) روضات الجنات للخونساري ص 88 .

(9) عوامل وأهداف نشأة علم الكلام ج 1 ص 105 .

(10) الشعراء الآية 214 .

له وأطيعوا . . . ثم قام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيعه »⁽¹²⁾ .

فالنصوص التاريخية وصفت جماعة بالتشييع أيام النبي ﷺ ولذلك قال النويختي في كتابه الفرق والمقالات عند تعريفه للشيعة « فالشيعة فرقة علي بن أبي طالب المسمون بشيعة علي في زمن النبي ثم عدد جماعة منهم وقال : وهم أول من سمي باسم التشيع لأن اسم التشيع كان قد دعى لشيعة ابراهيم »⁽¹³⁾ .

هذا عن البذور الأولى للتشييع ، أما ظهور التزعة الشيعية في المجتمع الإسلامي فإنها برزت بعد حادثة السقيفة ، حيث كانت عدة نزعات تحالفها وتنازعها . وقد بقيت هكذا تساير الأوضاع السياسية حيناً ، وتكافح قدر استطاعتها حيناً آخر ، إلى أن بويع على بالخلافة وعصى معاوية بن أبي سفيان ، والي الشام ، فلم يبايع .

في تلك الظروف تركزت الفكرة واستمدت عناصر حياة جديدة ، حيث اتخذت صفة نضالية ضد كل من أراد ظلمها أو إبعادها عن حقها الذي تعتبره حقاً مشروعأً لها ، بحجج ثابتة لا يشوبها شائبة . وبقيت تنمو ويشتد ساعدها إلى أن نشب حرب الجمل بقيادة السيدة عائشة » وذهب ضحيتها الآلوف من الضحايا البريئة والنفس الطيبة الظاهرة .

وفي أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية تكامل النظام الفكري للمذهب الشيعي ، في أبحاث منطقية ومنهج عقلي فيها يعود حول أمور الخلافة والأمامية وغيرها من العقائد الإسلامية .

قال في ذلك ابن النديم : « أول من تكلم في مذهب الإمامية علي بن إسماعيل بن ميسن النمار ، وله من الكتب كتاب « الإمامة » وكتاب الاستحقاق »⁽¹⁴⁾ . ومنذ ذلك الحين أصبح المذهب الشيعي مدرسة فكرية لها منهج علمي منظم ، كان لها وما زال الدور الباري في نظام الدولة السياسي . تلك الجامعة التي أسسها الإمامة الأئمة عشر في سبيل العلم والدين والأنسانية من أجل رفع كلمة الله وتثبيت ونشر تعاليم الرسالة الإسلامية التي بشر بها رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، نهض بها الإمامان العلماان الباقيان الصادقين»⁽¹⁵⁾ .

أما الأدلة والحجج التي اعتمدتها الشيعة في وجوب حق الخلافة لهم فكثيرة منها أحاديث نبوية متواترة ، ومنها آيات قرآنية كريمة .

(12) تاريخ ابن الأثير ج 2 ص 28 و تاريخ الطبرى ج 2 ص 216.

(13) الفرق والمقالات للتويختي .

(14) الفهرست . وعلى بن إسماعيل عاش في أيام الرشيد والمأمون وهو من علماء الشيعة ومتكلميهم .

(15) محمد الباقي وابنه جعفر الصادق اللذان نهضا بجامعة أهل البيت التي انضم إليها أربعة آلاف من العلماء وطلاب العلم وكان ذلك في عهد الخليفة العباسى المنصور الذى حاول أكثر من مرة أن يفتك بالآباء الصادق راجع في ذلك كتاب سيرة الإمام الأئمة عشر للعلم هاشم معروف الحسنى .

١ - حديث غدير خم

خرج النبي ﷺ من مكة متوجهاً إلى المدينة ومعه وفود غفيرة لم تشهد لها مكة نظيرًا من قبل في تاريخها الطويل . ولما انتهى إلى مكان في الصحراء وعلى غير ماء وكلاً قرب (الجحفة) أنزل الله عليه : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلَغْ مَا أَنْزَلْ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَلَا يَبْلُغْ فِيمَا بَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ مِنَ النَّاسِ ﴾ .

عند ذلك لم ير بدأً من تنفيذ أمر الله عز وجل الذي يشكل إنذاراً له لأنَّه سيعصمه من الناس ، وكان ذلك في حجة الوداع . فنزل في غدير خم ثم قال :

كأني قد دعيت فأجبت إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تختلفون فيهما فإنها لن يفترقا حتى يردا على الحوض ثم قال : الله مولاي وأنا ولي كل مؤمن ومؤمنة وأخذ بيده علي (ع) وقال من كنت مولاه فهذا علي وليه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

وقد روى الحديث بنصه الذي ذكرناه ، كل من ابن ماجه في صحيحه ، وأحمد في مسنده ، والحاكم في مستدرك الصحيحين ، والسيوطى في الدر المشور ، والخطيب البغدادي في تاريخه ، والنمسائي في خصائصه ، وابن حجر في الصواعق المحرقة ، وابن قتيبة في الامامة والسياسة ، وابن الأثير في أسد الغابة والهيثمى في مجمع الزوائد .

كما نص كل من الإمام أحمد والفارخر الرازى في تفسيره ، والبغدادي في تاريخه ، والطبراني في ذخائره ، وصاحب الرياضن التضرة ، وصاحب فيض الغدير في شرحه . كل هؤلاء قالوا : ان عمر بن الخطاب بعد أن انتهى النبي ﷺ من خطابه هنا علياً وقال له : أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة .

كما نص جماعة من المحدثين : أن أبا بكر قال له : أمسيت يا ابن أبي طالب مولانا ومولى كل مؤمن ومؤمنة⁽¹⁶⁾ .

وقد أورد السيد هاشم معروف الحسني في سيرة المصطفى : أن حسان بن ثابت استأذن الرسول ليصف موقعه من علي (ع) في ذلك اليوم فاذن له فوقف على مرتفع من الأرض وتطاول المسلمين لسماع كلامه فأنشأ يقول⁽¹⁷⁾ :

يُنادِيهِمْ يَوْمَ الْغَدِيرِ نَبِيُّهُمْ	وَقَالَ فَمِنْ مَوْلَاكُمْ وَوَلِيُّكُمْ
فَقَالُوا وَلَمْ يَبْدُوا هُنَاكَ التَّعَامِيَا	الْمَلَكُ مَوْلَانَا وَأَنْتَ وَلِيَنَا
وَلَنْ تَجِدَنَّ مَنْ لَكَ الْيَوْمَ عَاصِيَا	فَقَالَ لَهُ قَمْ يَا عَلِيَّ فَاتَّنِي
رَضِيَّكَ مِنْ بَعْدِي إِمَاماً وَهَادِيَا	فَمَنْ كُنْتَ مَوْلَاهُ فَهَذَا وَلِيَهُ
فَكَوْنُوا لَهُ أَنْصَارٌ صَدِيقُ مَوْلَاهَا	هُنَاكَ دُعَا اللَّهُمَّ وَالَّهُ وَلِيَهُ
وَكُنْ لَذِي عَادِي عَلِيًّا مَعَادِيَا	

(16) انظر الحديث في فضائل الحسنة من الصحاح الستة ج ١ ص ٣٥٠ وما بعدها .

(17) سيرة المصطفى للسيد هاشم معروف الحسني ص ٦٩٣ وما بعدها .

فقال له النبي ﷺ لا تزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بسانك .
أما الآية الكريمة التي قال عنها المفسرون أنها نزلت بحق علي فيها يعود إلى الخلافة فهي : « إِنَّا وَلِكُمُ الْأَمْرُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ » .

جاء في الكافي للكلباني بسنده إلى زرارة والفضيل بن يسار وبكير بن أعين ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية عن أبي جعفر الباقر (ع) أنه قال : أمر الله عز وجل رسوله بولالية علي (ع) وأنزل عليه الآية : « إِنَّا وَلِكُمْ .. » وقد جاء في جمجم البيان بسنده إلى أبي ذر الغفارى رحمه الله قال : صليت مع رسول الله صلاة الظهر ولما فرغ النبي ﷺ من صلاته رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم ان أخى موسى سالك فقال : رب إشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني واجعل لي وزيراً من أهل هارون أخي أشدد به أزرى وأشركه في أمري ، فأنزلت عليه سند عضدك بأخيك وجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا .

اللهم وأنا نبيك وصفيك ، اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهل علياً أشدده به ظهري ، قال أبو ذر فوالله ما استلم كلامه حتى نزل عليه جبريل من عند الله تعالى فقال يا محمد إقرأ قال : وما أقرأ ؟ قال : إقرأ إِنَّا وَلِكُمُ الْأَمْرُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ(18) .

هذه الظاهرة في مذهب التشيع ، وهي التمسك بولاء أهل البيت ، بيت النبي ﷺ ، وحبهم والانحياز معهم في كل نازلة تنزل بهم أو خطب ينالهم هي نفسها قلنا عنها أنها موجودة في جماعة الحزب الهاشمي الذي تحدثنا عنه قبل تكون الفرق .

فرق الشيعة

عند تعرض مؤرخو الفرق الإسلامية ، وهم كثُر ، لذكر الشيعة ، ذكرُوا العدد الكبير من الفرق البعيدة عن الخط الشيعي السليم والمنهج الشيعي الصحيح ، تلك الفرق المنحرفة والبعيدة عن المذهب الشيعي ، كانت قد اتخذت لها مذهبًا خاصًا في الامامة وغيرها من العقائد الدينية . وبعد وقوفنا على تاريخها وجدنا أن أكثر هذه الفرق قد نشأت لسببين :

- أ - انحراف مرضي في التفكير يدخل في باب المحسوس الديني ، فترى بعض أفرادها يجهرون بدعوى مرتجلة فيتجمع حوله أفراد مرضى مثله ، ومن ثم تأخذ هذه الفتنة المنحرفة اسم « القرقة » في تاريخ الفكر الإسلامي وتنسب مقالتها إلى الشيعة .
- ب - طمع في مال أو سيادة . قد يرافق بعض أصحاب التزعات والشهوات المحبين للسيادة ، أو الطامعين في جمع المال ، فيجهرون طامع منهم بدعوى ضعيفة التفكير ساذجة ويجمع حوله أمثاله في الهوى وضيق التفكير ، إلى أن تأخذ هذه الفتنة المستغلة اسم فرقه أيضًا في تاريخ التفكير الإسلامي وتنسب إلى المذهب الشيعي .

(18) رواية أبي ذر هذه ذكرها الشعالي في تفسيره عن أبي بكر الرazi في أحكامه كما رواها الرماي والطبرى كما رواها صاحب الميزان في تفسيره .

وما نراه أن الذي دفع الكثير من مؤرخي الفرق الإسلامية إلى اعتبار كل ذي مقالة منحرفة شيئاً ، هو التعصب البغيض ضد الشيعة الذين اضطهدوا في عصور كثيرة من التاريخ . فلا يجوز بأي حال من الأحوال أن نتهم الشيعة وأن نأخذ بما يدعوه مؤرخو الفرق الإسلامية ، فصدق الأقاويل المزيفة لتلك الفرق المنحرفة . إن المذهب الشيعي يتبرأ من كل هذه الفرق ويكرهها لأنها خارجة عن مذهبها الصحيح ، وعن الشيعة الإسلامية الكريمة⁽¹⁹⁾ أما الموجود حالياً من فرق الشيعة فثلاث :

1 - الإمامية الاثني عشرية :

وهم الذين يعتقدون بإمامية الأئمة الاثني عشر وهم بذلك يوافقون الحديث النبوى الذي يقول :

يكون اثنا عشر أميراً كلهم من قريش⁽²⁰⁾ .

كما جاء في صحيح مسلم أن النبي قال : لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة ويكون عليهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش⁽²¹⁾ .

والذى لا يسع تجاهله والتغافل عنه ، أن هذه الروايات مع ما بينها من الاختلاف في صيغها ، لكنها كلها تصب في مصب واحد ، على أن العدد المستحق للإمامية أو الخلافة لا يتتجاوز الاثنى عشر ، عدد نقباء بني إسرائيل الذين بعثهم الله لارشاد قومهم وإنقاذهم من الضلاله كما تشير الآية الكريمة :

﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نبياً﴾⁽²²⁾ .

2 - الزيدية

تكونت هذه الفرقة سنة 122 هـ « حين نهض زيد بن علي زين العابدين بن الحسين في الكوفة ثائراً على هشام بن عبد الملك ، بفترة قليلة من المقاتلين ، وقد اضطر إلى قتالهم بعد أن غدر به أهل العراق كما غدروا بآبائه من قبل . فقيل لمن خذله « الرافضة » ولن ثبت معه « الزيدية » ، ولا يزالون في اليمن حتى اليوم⁽²³⁾ .

3 - الإسماعيلية

يتسبون إلى اسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق وأخ الإمام موسى الكاظم . اتباع هذه الفرقة ينفصلون عن الإمامية في الإمام موسى الكاظم ويذهبون إلى إمامية أخيه اسماعيل⁽²⁴⁾ .

وقد تشعبت الإسماعيلية إلى طوائف متعددة ، لكل طائفة آراء وأقوال خاصة في

(19) راجع كتاب الشيعة في التاريخ .

(20) صحيح البخاري بسنده إلى حابر بن سمرة .

(21) صحيح مسلم كما رواه الترمذى في صحيحه وأبن حجر في صواعقه والحاكم في المستدرك وزاد فيه أن النبي قال عدد نقباء بني إسرائيل ورواوه الهيثمى في جمجم الزوابد وغيره من المحدثين والمؤلفين

(22) المائدة الآية 13 .

(23) فرق الشيعة .

(24) فرق الشيعة .

الأصول والفروع ، وقد بلغ عند بعضها الشذوذ إلى الخروج على الإسلام ، من هؤلاء : السبعية القائلين بأن الإمامة تدور على سبعة أيام الأسبوع ، والسموات السبع والأرضين السبع والأفلاك السبع . والسبعين الأولى يبتذلون بعلي ويتهمون باسماعيل بن جعفر . والآباء السابع ينسخ شرائع من تقدمه .

ومن الاسماعيلية القرامطة ، يدعى هؤلاء أن إسماعيل توفي في حياة والده الإمام الصادق (ع) ⁽²⁶⁾ .

الخوارج

بعد أن قتل عثمان إثر نقمة المسلمين عليه في المدينة وخارجها لأنه حابي أقاربه وولاته الذين خرجو عن المخطط الإسلامي واستخفوا بالقدسات الإسلامية ⁽²⁷⁾ ، بوبع لعلي بالخلافة من كافة الصحابة والثوار سوى نفر طلبوا منه أن يغفهم من البيعة فأغفاهم منها ⁽²⁸⁾ .

ولم تمض على بيته أيام حتى خرج عليه طلحة والزبير وعائشة على رأس جيش ساروا به إلى البصرة ، لأن عائشة أصبحت بصدمة قوية لتقديرها أن قريباً لها طلحة سيتولى الخلافة بعد الخليفة الراحل ، بالإضافة إلى ما كانت تكتبه لعلي (ع) في نفسها من عداء قديم يرجع إلى عهد الرسول ﷺ .

سار علي (ع) بن خف معه من أهل الحجاز ومن وفاه من أهل الكوفة ، وكانت معركة الجمل التي ذهب ضحيتها الكثير من الأبراء وكان النصر فيها لعلي بعد أن أوقع بالثوار الخارجين على خلافته الشرعية . عاد بعدها إلى الكوفة وكان معاوية والي الشام في عهد عثمان ، قد أبى مبايعة علي لأنه علم أن الخليفة لا يقره بأي حال من الأحوال على عمله ، ولا يمكن أن يستعين به في حكومته ، فأعلن عصيانه في وجه الخليفة الشرعي بعد أن أغري أهل الشام استطاع أن يقودهم إلى التزاع المسلح مع علي (ع) .

أما تنزع معاوية بالعصيان فيعود سببه بأن قتلة عثمان مع علي ، ولا ينزل تحت طاعته إلا إذا قتلهم علي واقتضى منهم . وقد اختلفت الرسل بين معاوية وعلي على هذا الأخير يعود إلى رشه وينقاد لأمر الخليفة بالسلم ؛ ولكن النتائج باءت بالفشل . ولما يئس علي من انقياد الوالي الخارج عن طاعة الخلافة عمد إلى الحرب فكانت موقعة صفين ⁽²⁹⁾ وكان جلياً أن الدائرة ستدور على معاوية وأنصاره لولا خدعة قام بها عمرو بن العاص ضعفت جيش علي ومنعه عن متابعة القتال . قال اليعقوبي في تاريخه يصف حيلة ابن العاص فقال : « وَزَحْفَ

(26) راجع الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص 332.

(27) اشتراك السيدة عائشة وطلحة والزبير مع الوفود التي زحفت إلى المدينة من مختلف البلاد الإسلامية لتشكره إلى عثمان ما تفاصيه الأمة الإسلامية من جور ولامه واستخفافهم بشعائر الدين . وقد حرض الثلاثة الثوار على المضي إلى النهاية .

(28) وهم : سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وحمد بن مسلمة ، وأسامه بن زيد .
رابع العروة الوثقى لجمال الدين الأفغاني .

(29) راجع تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 188 وما بعدها .

أصحاب علي وظهروا على أصحاب معاوية ظهوراً شديداً ، حتى لصقوا به ، فدعوا معاوية بفسره لينجو عليه ، فقال له عمرو بن العاص : إلى أين ؟ قال : قد نزل ما ترى ، فما عندك ؟ قال : لم يبق إلا حيلة واحدة ، أن ترفع المصاحف ، فتدعوهم إلى ما فيها ، فستكتنهم وتكسر من حدهم ، وتفت في أعضادهم ، قال معاوية : فشأنك ! فرفعوا المصاحف ودعوهم إلى التحكيم ؛ وقالوا : ندعوك إلى كتاب الله . فقال علي : إنها مكيدة ، وليسوا بأصحاب قرآن . فاعتراض الأشعث بن قيس الكندي ، وقد كان معاوية استماله ، وكتب إليه ودعاه إلى نفسه ، فقال : قد دعا القوم إلى الحق ! فقال علي : إنهم إنما كادوكم ، وأرادوا صرفكم عنهم . فقال الأشعث : والله لئن لم تجبرهم انصرفت عنك . ومالت اليمانية مع الأشعث ، فقال الأشعث والله لتجبرنهم إلى ما دعوا إليه ، أو لندفعنكم إليهم برمتلك ، فتنازع الأشتر⁽³⁰⁾ والأشعث ، حتى كاد أن يكون الحرب بينهم ، وحتى خاف علي أن يفترق عنه أصحابه . فلما رأى ما هو فيه أجابهم إلى التحكيم ، وقال علي : أرى أن أوجه بعد الله ابن العباس . فقال الأشعث : إن معاوية يوجه بعمرو بن العاص ولا يحكم فيما مضي ريان ، ولكن توجه أبا موسى الأشعري ، فإنه لم يدخل في شيء من الحرب . وقال علي : إن أبا موسى عدو ، وقد خذل الناس عن بالكوفة ونهادهم أن يخرجوا معه . قالوا : لا نرضى بغيره . فوجه علي أبا موسى على علمه بدعاته له ومداهنته بينه وبينه ، ووجه معاوية عمرو ابن العاص .

فخدع عمرو بن العاص أبا موسى « وذكر له معاوية فقال : هو ولی ثار عثمان وله شرفه في قريش . فاخليع علياً واخليع أنا معاوية ، ويختار المسلمين . وقدم عمرو أبا موسى إلى المنبر ، فخلع علياً ، ثم صعد عمرو بن العاص فقال : قد ثبت معاوية كما ثبت خاتمي هذا في يدي . فصاح به أبو موسى : غدرت يا منافق ، إنما مثلك كمثل الكلب ان تحمل عليه يلها ، او تتركه يلها . قال عمرو : إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً⁽³¹⁾ . وتنادي الناس : حكم والله الحكمان بغير ما في الكتاب ، والشرط عليهم غير هذا . وتضارب الناس ، وافتقرموا ونادت الخوارج : كفر الحكمان ، لا حكم إلا الله⁽³²⁾ . عندها قال علي : كلمة حق يراد بها باطل :

خرجوا عليه لأنه قبل بالتحكيم الذي اضطر إليه ، وكانوا اثنى عشر ألفاً وصاروا إلى قرية يقال لها حزوراء بينما وبين الكوفة نصف فرسخ فسموا بـ « الحزورية » ويسمون أيضاً بـ « المحكمة الأولى » لأن فيهم أول من حكم فقال : « لا حكم إلا الله » قال أبو زهرة في المذاهب الإسلامية :

« وسواء أكان هذا أو ذاك فقد انتهى التحكيم بعزل علي وتثبيت معاوية ، فاشتد ساعد البغي وأمست الخلافة ملكاً عوضياً⁽³³⁾ . »

(30) الأشتر : مالك الأشتر علم من أعلام الأنصار المعروفين .

(31) سورة الأعراف الآية 176 وسورة الجمعة الآية 5 .

(32) تاريخ العقوبي ج 2 ص 189-190 والشيعة بين الأشاعرة والمعزلة ص 40 .

(33) قارن بالكامل لابن الأثير ج 3 ص 289 وما بعدها والمذاهب الإسلامية لأبي زهرة .

وقد انتهى إليهم علي بعد رجوعه من صفين ، فجادلهم فيما صاروا إليه من رأي فلم يستجيبوا له . ذكر اليعقوبي بعضاً من ذلك الجدال قال علي مخاطبهم : « وأما قولكم إني لم أضر بكم بسيفي يوم صفين حتى تفينا إلى الله ، فإن الله عز وجل يقول : ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وكتم عدداً جاً ، وأنا وأهل بيتي في علة يسيرة ». .

« وأما قولكم إني حكمت الحكمين ، فإن الله عز وجل حكم في أربن بياع بربع درهم فقال : يحكم به ذو عدل منكم ، ولو حكم الحكمان بما في كتاب الله لما وسعني الخروج من حكمهما . .

وأما قولكم إني كنت وصياً فضيحت الوصية ، فإن الله عز وجل يقول : « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » أفرأيت هذا البيت ، لو لم يحجج إليه أحد كان البيت يكفر ، إن هذا البيت لو تركه من استطاع إليه سبيلاً كفر » وأنتم كفريتم بتترككم إياي لا أنا كفرت بتتركي لكم » .

فرجع يومئذٍ من الخوارج ألفان ، وأقام أربعة آلاف ، والتحتم الحرب بينهم مع زوال الشمس ، فأقامت مقدار ساعتين من النهار ، فقتلوا من عند آخرهم ولم يفلت من القوم إلا أقل من عشرة » (34) .

ثم خطب علي (ع) في الكوفة فقال : أما بعد أيها الناس ! فأنا فقلت عين الفتنة ولم يكن ليجرئ عليها أحد غيري ، ولو لم يكن فيكم ما قتلت الناكثون ، ولا القاسطون ، ولا المارقون ، ثم قال : سلوني قبل أن تفقدوني ، إن القرآن لا يعلم علمه إلا من ذاق طعمه « وعلم بالعلم جهله » وأبصر عمله ، واستمع صمممه ، وأدرك به مأواه ، وحيّ به إن مات ، فأدرك به الرضى من الله ، فاطلبوا ذلك عند أهله ، فإنهم في بيت الحياة ، ومستقر القرآن ، ومنزل الملائكة ، وأهل العلم الذين يخبركم عملهم عن علمهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، هم الذين لا يختلفون الحق ، ولا يختلفون فيه ، قد مضى فيهم من الله حكم صادق ، وفي ذلك ذكرى للذاكرين » .

وقد بقي منهم طائفة قليلة جداً استمرت في تعاليم مبدئها حتى استواعت فيها بعد خلقاً كثيراً من الرجال ، شغلوا الدولة الإسلامية بحروب عدة أجيالاً . وقد تعددت فرق الخوارج إلى عدة فرق أهمها ستة كما يقول الشهريستاني في الملل والنحل :

- 1 - الأزارقة وهم أتباع نافع بن الأزرق .
- 2 - والنجادات : وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفي .
- 3 - البيهسية : أتباع أبي بيهس الهيسن بن جابر .
- 4 - الأبايضة : وهم أتباع عبد الله بن أبياض ولا تزال من هذه الفرق بقية حق يومنا هذا في الجزائر وعمان . . .
- 6 - الشعلة . . .

(34) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 192-193

وعلى اختلاف فرقهم كانوا يحكمون بالكفر على كل حاكم أو خليفة لم يأخذ بمبادئهم . فحكموا على الخليفة الامام علي بالكفر والمرopic بعد أن قبل التحكيم ، كما حكموا على الخليفة عثمان بالكفر بعد ست سنوات من توليه الخلافة ، سوى الخليفتين أبي بكر وعمر فقد كانوا يتلونها معتبرين ان حكمها حكماً شرعاً ، وذلك يعود إلى رضا الشعب ورغبة الأكيدة بها فالحكم العادل عندهم يرجع إلى إرادة الشعب . وإذا انحرف الحاكم عن الحق والعدالة وجّب عزله ومحاربته .

وقد أضافوا شرطاً آخر إلى مبادئهم ، وهو ان الخلافة لا تنحصر في القرشيين وحدهم ، ويصلح لها كل مسلم حرّاً كان أو عبداً . ولم يعتنوا بالأحاديث النبوية المروية عن الرسول عليهما السلام التي تنص أن الخلافة مخصوصة في قريش دون سواهم ، واعتبروها من وضع القرشيين أنفسهم لفرض احتكار السلطة فيها بینهم .

يمكن للباحث أن يجد لهم مبرراً في هذا المبدأ الذي اعتمدوه في اختيار الحاكم . ذلك أن الإسلام ، المعروف بمنطقه وعدالته ومساواته بين جميع خلق الله ، حيث لم يفرق بين لون ولون ، ولا بين العرب وغيرهم ، بل جعل مقاييس التفاضل بين الناس التقى والأعمال الصالحات . فالعبد الحبشي المخلص في إيمانه لله أفضل من العربي القرشي المنحدر من أفضل القبائل العربية إذا لم يعمل بما افترضه الإسلام .

وقد اعتبر جماعة من الباحثين والمؤلفين أن في هذه الفكرة خروجاً على المبدأ الذي اعتمدته القرشيون في اختيار الحاكم ، لأن الرسول قد حصر الخلافة بالقرشيين « مع أن عمر ابن الخطاب هو الذي وضع نواة هذه الفكرة قبل الخوارج ، فسبّقهم إليها بعشرين عاماً تقريباً ؛ ذلك أنه في الأيام الأخيرة من حياته وهو يستعرض من يصلح للخلافة من بعده قال : لو كان سالم مولى حذيفة حياً ما عدته⁽³⁵⁾ قال ذلك وفي المسلمين علي بن أبي طالب (ع) وغيره من أعيان المسلمين .

لكن الخوارج قد جعلوها موضع التنفيذ ، فاختاروا عبد الله بن وهب الراسيي أحد زعمائهم وجعلوه أميراً عليهم وواجهدوا معهم لتحقيق أهدافهم .

ومن طرائف حكمهم البعيد كل البعد عن الشريعة الإسلامية الحقة ، ما حدث لهم في طريقهم إلى النهر والنهر . ورد في الكامل للمبرد قال : « في طريقهم إلى النهر وان التقوا بالصحابي الجليل عبد الله بن خباب بن الأرث ومعه زوجته ، فقالوا له : حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله قال الصحابي : ستكون بعدي فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والواقف فيها خير من السائر ، والماشي خير من العادي ، ومن أمكنه أن يكون مقتولاً فيها خير له من أن يكون قاتلاً ، ثم قالوا له : ما تقول في أبي بكر وعمر : فأثنى عليهما خيراً كما أثنى على عثمان في

(35) راجع شرح النهج لابن أبي الحديد ج 1 ص 64 . قال عمر بن الخطاب ذلك مخاطباً أبا لؤلؤة الذي طعنه .

(36) الكامل للمبرد ج 2 ص 143 .

الستين السنة الأولى من خلافته ولما سأله عن التحكيم قال :

إن علياً أعلم بكتاب الله منكم وأشد توقياً على دينه وأنفذ بصيرة ، فقالوا له : إنك تتبع الرجال على أسمائهم وجروه على شاطئ النهر ، فاستجار بكتاب الله وكان معلقاً برقبته ، فقالوا : إن الذي تستجير به يأمرنا بقتلك فذبحوه ؟ ثم جاؤوا إلى زوجته فبقرروا بطنه واستخرجوا منها حلها ، وبعد قتله ساوموا نصريانياً على نخلة ليأكلوا ثمرها فبذلا هم بدون ثمن فرفضوا أن يأخذوها إلا بشمنها ، فقال لهم : ما أعجب ما أرى منكم ! تقتلون مثل عبد الله بن خباب الصحابي الجليل ولا تقبلون منا نخلة إلا بشمنها !

والعجب العجاب انهم يشرعون المبدأ الذي يتاسب مع ميولهم وأفكارهم ويخدم مصالحهم دون سواهم .

لقد اتفقوا بجميع فرقهم على تكبير مرتكب الكبيرة من الذنب ، وإن فاعلها يخلد في النار ، ولم ينسب الخلاف لأحد منهم إلا للنجدات ، أتباع نجدة بن عامر الحنفي .
المرجئة :

أصل التسمية : وردت أقوال عده في تسمية المرجئة فمنهم من قال انه مأخوذ من قوله : أرجأت الأمر أي آخرته . وبهذا المعنى ورد في الآية الكريمة : « قالوا أرجه وأخاه رابعث في المداين حاشرين » (37) .

ومنهم من قال أنهم سموا بالمرجئة لأنهم يعطون السراء ، يقول هؤلاء : لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة . ولذلك غلب لفظ المرجئة على فئة من الناس وقفوا من الخارج والمعزلة موقفاً وسطاً . حيث قال الخارج : إن العصاة كفار ، وقال المعتزلة : إن العصاة مخلدون في النار . وقال المرجئة بأنهم مؤمنون لأن الإيمان عقد القلب ، والعمل ليس جزءاً منه ولا شرطاً في تحقيقه ، فارتکاب المعاصي لا يسلب العبد صفة الإيمان .

ويرجع الدكتور أحمد أمين في فجر الاسلام أن الإرجاء بمعنى الامهال والتأخير ، وإن هذا الاسم أصبح علياً على الذين يرجئون أمر الفريقين فلا يقضون بحكم على هؤلاء ولا على هؤلاء (38) .

والذي يؤيد هذا المعنى هو أن كلمة المرجئة لم تعرف قبل العصر الاموي ولم تستعمل إلا بعد أن علم من حال الخارج أنهم يكفرون العصاة سواء كانوا من الحكم أم من غيرهم . وقف المرجئة مقابل الفريقين ، الخارج والمعزلة ، فلم يحكموا عليهم بالكفر ولا بالعقاب في الدنيا بل أرجأوا ذلك وأخرجوه إلى اليوم الآخر .

أما عن ظهور المرجئة كمدرسة فكرية مستقلة فليس محدداً وإنما المرجح أنهم ظهروا في أواسط العصر الاموي ، وأبدوا نشاطاً كبيراً في إشاعة فكرتهم ، وقد ناصرهم الحكم الامويون لأنها تثبت شرعية ملوكهم وإيمانهم وقد كانوا بأمس الحاجة إلى مقولتهم ، ولا سيما في

(37) الشعراء الآية 36 .

(38) راجع فجر الاسلام ص 279 .

تلك الظروف التي كان الخوارج ينادون بكفر الأمويين ، والمعتزلة يرون أن الاسلام عقيدة وعمل بالفرايض وبكل ما جاءت به الشريعة الاسلامية الحقة ، فمن لم يعمل بها ولا يطبق حكمها يستحق الخلود في جهنم ولو كان معتقداً بكل أركان الاسلام . وبذلك يصبح الأمويون أما كفاراً كما يدعى الخوارج ، أو مخلدين في جهنم كما يدعى المعتزلة . أما عند المرجئة فهم مؤمنون لم يخرجوا عن الایمان بالرغم من استهتارهم وإسرافهم في المنكرات . ورد عند ابن حزم قال عن بعض فرقهم : « إن الإيمان الاعتقاد بالقلب وإن أعلن الكفر بلسانه ، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية في دار الاسلام وعبد الصليب وأعلن التثليث في دار الاسلام ، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل ومن أهل الجنة »⁽³⁹⁾ .

ومن الطبيعي أن تجد فكرة المرجئة هذه قبولاً عند بعض الحكماء وأنصاراً أو مؤيدين لأن هؤلاء لا يجدون فرقة من فرق الاسلام تتحمّل هذه الصفات التي تؤكّد لهم شرعية ملوكهم وتسلطهم على رقاب المسلمين منها أسرفوا في المعاصي واستهتروا بتعاليم الاسلام المقدسة . وليس غريباً أن نجد الحكماء أنفسهم هم أبطال هذه الفكرة ودعاتها عندما شاعت آراء الخوارج والمعتزلة في العصابة ومرتكبي الكبائر .

وقد قضى عليهم العباسيون لأنهم كانوا ينادون الأمويين . جاء عن بعض المستشرقين : إن البحث عن المرجئة وبداء تكوينها وتأريخها محاط بشيء من الغموض . والسبب في ذلك يرجع إلى أن الدولة العباسية قضت عليهم وأفتنت أصحاب هذه المقالة ، لأنهم كانوا ينادون الأمويين⁽⁴⁰⁾ .

وقد تفرقت المرجئة إلى فرق عدة ذكر منهم « السيد هاشم معروف الحسني نقلأً عن كتاب التبصير للاسفاريي » .

إن القائلين بالارجاء قد افترقوا الى خمس فرق وعد منهم :

أ - اليونسية ، أتباع يونس بن عون ، القائلون أن الإيمان بالقلب واللسان وحقيقة معرفة الله سبحانه وحبيته » والتصديق برسله وكتبه .

ب - الغسانية ، أتباع غسان المرجئي القائل بأن الإيمان هو الاقرار بالله والمحبة له ، ولكنه يقبل الزيادة والنقصان .

ج - الشورية ، أتباع أبي معاذ القائل بأن الإيمان ما وقاك من الكفر .

د - الثوبانية ، أصحاب أبي ثوبان المرجئي ، وهو لاء قد أضافوا إلى الاقرار ، بالله ورسله ، الواجبات العقلية » واعتبروا بصحة كل ما يراه العقل من أركان الإيمان .

هـ - المريمية ، أتباع بشير المريسي الذي أضاف إلى أقوال من ذكرناهم القول بخلق القرآن . وما يبدو أن جميع هذه الفرق متفقة على أن العمل ليس من أركان الإيمان . وقد

(39) الملل والتحل لابن حزم ج 4 ص 204 وانظر كذلك فجر الاسلام لأحمد أمين ص 281.

(40) المصدر السابق ص 281.

خالفهم باعتقادهم هذا أكثر الفقهاء والمحدثين فقالوا : الائمان من ثلاثة أركان : تصدق بالجنة ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان .

وقد اشتهر من شعراء بني أمية بالقول بالإرجاء ثابت بن قطينة⁽⁴¹⁾ وكان من أصحاب يزيد بن المهلب وأعوانه . له قصيدة تعد وثيقة قيمة في توضيح مذهب المرجئة . يستفاد منها أن صاحبها لا يحكم على أحد بالكفر مهما ارتكب من الذنوب ، وإن المسلمين إذا اختلفوا وكفروا كل طائفة منهم الأخرى تركاهم إلى الله يحاكمهم يوم القيمة بما يستحقون . قال :

نُرجِي الأمور إذا كانت مشبهة
ونصدق القول فيما جاز أو عندنا
ولا أرى أن ذنباً بالغَ أحداً
م الناس شركاً إذا ما وحدوا الصَّمداً
كل الخوارج مُخْطِطٍ في مقالته
أَمَا عَلَيْهِ عَشْمَانُ فِإِنْهُما
ولو تَبَعَّدَ فِيمَا قَالَ واجتهدَا
عَبْدَانَ لَمْ يُشْرِكَا بِاللهِ مَذْعُودَا
وَكَانَ بَيْنَهُما شَغْبٌ وَقَدْ شَهَدا
شَقُّ العَصَاصَا وَبَعْنَ اللَّهِ مَا شَهَدا
يُحْزِي عَلَيْهِ عَشْمَانًا بِسَعِيهِما
وَلَسْتُ أَدْرِي بِحَقِّ آيَةٍ وَرَدَا
الله يَعْلَمُ مَاذا يَحْضُرَانَ بِهِ

هذا النوع من الإرجاء الذي يدين به صاحب القصيدة هو الإرجاء الذي يقول به جهور الفقهاء ، وهو من أقرب المراجحة إلى الواقع ، لأنه ينفي العذاب عن العصاة ، ولا يقطع بعقوتهم ، بل يترك الحكم عليها إلى الله وحده .

ويمثل القول أن الإرجاء الذي شاع القول به في العصرتين الأموي والعباسى وأصبح مذهبًا لفريق من الناس في مقابل غيرهم من أصحاب المذاهب ، لا يقول به الإمامية ، لأن هؤلاء مجتمعون على أن المراجحة فساق ومعدنون بذنوبهم ، فهم لا يحكمون على العصاة بأى حكم من الأحكام وبعضهم يدعى أن مرتكي الكبائر مؤمنون ومنعمون في الجنة !

المعترضة

يظهر من المؤلفات التي صدرت حول المعتزلة وآرائهم ومعتقداتهم التي كانت تسيد طلاقاً عليها التزعة العقلية ، إن السبب في وصفهم بالاعتزال يعود إلى ثلاثة أمور .

أ - كان واصل بن عطاء يتبني الرأي القائل أن الإنسان يصنع أفعاله بنفسه بدون أن يكون له أي أثر في ذلك . وهذا الاعتقاد اعتمد بمذهب الجهني وغياث الدين الدمشقي وهما أول من أظهرا القول بمعنى الاختيار المطلق في مقابل الجهمية أتباع الجهم بن صفوان ، الذين قالوا بالقدر المرادف للتجبر . وقد تأثر واصل بهذه العقيدة وأخفاها عن رفقائه ، وحتى عن أستاذه الحسن البصري⁽⁴²⁾ ، بينما يرى الجمهور الأكبر من المسلمين أن أفعال الإنسان

(41) إن فكرة المراجحة تخدم في أساسها مصلحة بعض الحكماء كما ذكرنا ، فكان لا بد وأن يساعدوا على انتشارها وتداووها وتحويرها لصالحهم حتى أصبح الائمان عندهم الإقرار باللسان مهما ارتكب من المنكرات لا يعذب في النار .

(42) كان الحسن البصري يلقب إمام أهل البصرة لأن أثره فيها كان أوسع أثراً وأشدده وقد امتاز بسعة الأفق .

مخلوقة الله سبحانه ، فيكون وصفه بالاعتزال لأنه اعزز رأي الجمهوء الأكبر من المسلمين .

ب - ومنهم من يقول ان هذا الوصف غالب عليهم لأنهم اعزلوا قول الخوارج والمرجئة والفقهاء في مرتکب الكبيرة ، حيث أن الخوارج يرونها كافراً والمرجئة يرونها مؤمناً يدخل الجنة ، والفقهاء يرونها منافقاً . ولما سئل الحسن البصري عن رأيه في أصحاب الكبائر فقال في مسجد البصرة :

«دخل أحدهم عليه وسأله : يا إمام الدين لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر » والكبيرة عندهم لا تضر مع اليمان ، بل العمل - على مذهبهم - ليس ركناً من اليمان ، ولا يضر مع اليمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهو مرحلة الأمة ، فكيف تحكم لنافي ذلك اعتقاداً؟ ففكير الحسن البصري ، وقبل أن يجيب تكلم واصل فقال : أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلة بين المتزلتين : لا مؤمن ولا كافر⁽⁴³⁾ ثم قام واصل واعتزل إلى ناحية في المسجد وانضم إليه جماعة منهم صهره عمر بن عبيد وغيره . ولما رأى الحسن ذلك منه نادى بأعلى صوته : لقد اعزز عنا واصل ، اعزز عنا واصل ، فسارت هذه التسمية في كل المجتمعات .

ج - والرأي الثالث يقول : إنما وصفوا بالاعتزال لأنهم عزلوا مرتکب الكبيرة عن المؤمنين والكافرين كما يظهر ذلك⁽⁴⁴⁾ .

ويرى بعض المحدثين والمستشرقين أن جماعة من المسلمين كانوا أتقياء للغاية أعرضوا عن ملاذ الحياة وزهدوا في الدنيا فسماهم الناس معتزلة لهذا الإعتبار .

وثمة رأي يرجع مذهب الاعتزال إلى عهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه « فقد استعفاه جماعة من البيعة منهم سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وأسامي بن زيد وآخرون ، وامتنعوا عن البيعة لأنهم - في زعمهم - لم يبد لهم وجه الحق فيما صار إليه أمر الناس بعد عثمان » فلذلك اعزلوا الناس ، فلم يوافقوا من بایع عليه ولا من عصاه ، وهكذا يرى الحسن بن موسى الترمذى أن هؤلاء هم أصل المعتزلة إلى الأبد⁽⁴⁵⁾ .

= وقرة الورع ، وصدق الدين ، وبعد النظر ، حتى أمكن تسميته بدائرة المعارف ، كما ورد في موسوعة الإسلام . يقصد طالب الفقه وطالب اللغة وطالب العقائد . أثيرت في عهده قضية القدر فرأى الحسن البصري وفتاً لمنهج الجامع بين اليمان الورع والعقل المستبر ان اليمان لا يكون إيماناً حقاً إلا إذا حمل صاحبه حلاً على العمل يكتضاه ، فإن عمل بما يؤمن به فهو مؤمن حقاً ، وإن نقص من العمل شيئاً نقص من إيمانه قدر ما نقص من عمله ومرتكب الكبيرة في رأيه منافق وليس بكافر ، والخير من الله والشر من العبد .

(43) انظر الملل والنحل للشهرستاني ج 1 ص 64 - وفجر الاسلام لأحمد أمين ص 298 .

(44) مروج الذهب للمسعودي .

(45) فرق الشيعة للترمذى .

وقد وجدنا أن الرأي الشائع بين المؤرخين وكتاب الفرق ان واصل بن عطاء قد اعزى مجلس استاذة الحسن البصري بعد أن كان أحد تلامذته المختصين به ، واتخذ مركزاً مستقلاً للمناظرة والبحث والجدل ، فوزع دعاته وأنصاره في البلاد ، فأرسل عبد الله بن الحارث إلى المغرب ، وخصص بن سالم إلى خراسان لمناظرة الجهم بن صفوان ، وألف كتاباً فيه ألف مسألة للرد على الماتونية ، وانصرف جميع أتباعه كعمر بن عبيد وأشباهه إلى الدعوة لمبادئهم⁽⁴⁶⁾.

ثم أضاف واصل بن عطاء إلى القول بالمتزلة بين المترفين ، المبادئ الخمسة التالية التي لا يسمى معتزلياً من لم يأخذ بها أو يسلك غير سبيلها ، كما لا تتحمل المعتزلة إثنم ولا تلقى عليها تبعتها .

هذه الأصول المعتزلية هي : (46)

- 1 - التوحيد .
- 2 - القدر .
- 3 - الوعد والوعيد .
- 4 - المتزلة بين المترفين .
- 5 - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ولكن ابن حزم يسرد تلك المبادئ على غير هذه الصورة فجعلها :

- 1 - القول بخلق القرآن .
- 2 - نفي رؤية السعداء لله يوم القيمة .
- 3 - نفي القدر .
- 4 - القول بالمتزلة بين المترفين .
- 5 - نفي الصفات .

التوحيد

كان التوحيد أهم مبادئ المعتزلة ، حتى نسبوا إليه فسموا أهل التوحيد ويتلخص في القول بأن صفات الله كالقدرة والإرادة والعلم وغيرها هي عين ذاته وليس أشياء قديمة خارجة عن ذاته كما يقول «الصفانية» وهم أهل السنة ، لأننا لو ذهبنا مذهبهم لاثبنا وجود قديمين ، وهذا يتضمن وجود إلهين أو أكثر . فالمعتزلة نظروا إلى التوحيد نظرة بعيدة المدى ، فكانوا يردون على الملحدين رابطين بين النصوص القرآنية والأراء العقلية التي طالما دعوا الناس إلى التفكير فيها . وقد ورد عن أكثر الباحثين ، أن الكلام في التوحيد كان للمعتزلة دون سواهم .

القدر أو العدل

نسب المعتزلة إلى مبدأ ثان يكاد يضارع مبدأ التوحيد ، وهو العدل فقيل فيهم أهل العدل والعدلية . ويعني عندهم أن فعل العبد خيره وشره منه وليس من الله ، والله عز وجل

(46) راجع أبي حنيفة للشيخ محمد أبي زهرة ص 156 وفجر الإسلام لأحمد أمين ص 300.

منح الإنسان القدرة على ذلك ، إذ يقع على الله أن يأمره بالفعل ثم لا يقدره عليه ، وينهاه عن الفعل ثم يضطره إليه .

وقد عولوا في هذا المبدأ على آيات قرآنية وأحاديث نبوية .

جاء في كتاب الله العزيز ﷺ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .. ﴿٤٧﴾ وجاء أيضاً في سورة المدثر :

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ ﴿٤٨﴾ .

وأوضح رسول الله عليه الصلاة والسلام ، هذا المفهوم نفسه في أحاديث كثيرة ، حيث رد الأشياء كلها ، بعد الاعتقاد بأن الإنسان حر مختار ، إلى الذي وهب القدرة عليها ، وهو الله عزّ وجل . قال :

« لا يؤمّن عبد حتى يؤمّن بالقدر خيره أو شره » ﴿٤٩﴾ .

أو قوله ﷺ : « ما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وإن ما أخطأه لم يكن ليصيبه » ﴿٥٠﴾ .

فالنبي ﷺ عرف العبد بقوته الذاتية بعد أن رد الأشياء في مبادئها ونبأتها إلى الذي منح القدرة عليها .

أجمع المعتزلة على اعتبار العبد خالقاً لأفعال نفسه مخترعاً لها ، بعد تسليمهم بأن الله على كل شيء قادر ، وأنه هو العليم الحكيم ، ولكن يقتضي حكمته وعدله وعلمه ، لا يريد أن يكون له صنع في أفعال العبد ، لا في حال وجود الشيء وهو يريد إيجاده ، ولا في حال عدمه وهو يريد إعدامه . لكن رأى أكثرهم أن أفعال الطبيعة التي تصدر عن الذات الإنسانية ، اضطرارية تشبه ما نراه من ضرورات الحياة الطبيعية ، كالنار التي تحرق ، والثلج الذي يجمد الأعضاء ﴿٥١﴾ .

من هذا المنطلق كان اشتراق كلمة القدرة ، وهم على تنافض تام مع القدرة الأخرى أي المجرة الذين يقولون أن القدر خيره وشره من الله .

الوعد والوعيد

اعتمد المعتزلة في الأصل الثالث « الوعيد والوعيد » ، على مفهوم التكليف ، فلو لاه لما كان أي مسوغ أو موجب لارسال الرسل وإنزال الكتب . وعندما يؤمّن العبد ببراعة تلك التعاليم السماوية فالغاية كلها إشعاره بمدى قدرته على التقييد بما كلف به واجتناب ما نهى

(47) البقرة الآية 186 .

(48) المدثر الآية 38 .

(49) مستند أحدج 2 ص 181 .

(50) المرجع نفسه .

(51) راجع الملل والنحل للشهرستاني ج 3 ص 32 .

عنه ؛ ولو لم يكن أهلاً لاختيار عمله لما كان للتكليف معنى ، ولبطل مفهوم الوعد لمن أحسن والوعيد لمن أساء .

وللإنسان المختار أن يسائل نفسه : هل أجبرني الله على عملي ثم يحاسبني على ما فرطت يداي ؟ أيقدري على شيء ثم يحاسبني على ما أقدري عليه ويظلمني هل يقف الإنسان هذا الموقف أم يكون هو خالقاً لأعماله بنفسه ، ثم إن أساء عوقب ، وإن أحسن أثيب ؟⁽⁵²⁾ .

ليس للمعتزلة أن يختاروا بين هاتين الزاويتين التضادتين لشأن ينسبوا إلى الله الظلم والجحور ، فنفوا عن الله كل ذلك مستندين إلى آيات في القرآن الكريم « وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِّلنَّاسِ »⁽⁵³⁾ وقوله : « وَمَا ظَلَمْنَا لَكُمْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلَمُونَ »⁽⁵⁴⁾ .

نظر المعتزلة إلى حدود قدرة الله نظرة تزهه عن الظلم والجحور . فقالوا رداً على مرضى القلوب : إن قدرة الله لا تتناول حد الظلم ، والظلم ليس في متناول يده ، فالله عادل لا يفعل الظلم ولا يجور على أحد من عباده . وقد أتوا ما ورد من آيات وأحاديث بما ينسجم مع منهجهم العقلي الذي ينفي نسبة الظلم إلى الله !

المزللة بين المترائلين

شاع هذا الأصل عندهم لأنه كان المنطلق الأول نحو تسميتهم بالمعزلة منذ اليوم الذي اعتزل فيه واصل بن عطاء أستاذة الحسن البصري ، وحكم على مرتكب الكبيرة بأنه منافق ، ليس بالمؤمن ولا بالكافر . هذه الفكرة ميزت المعتزلة عن سواهم ومنحthem طابعاً خاصاً تميزوا به .

إن التوازن في الحياة الإنسانية والتزام الطريق الوسط معروف في القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف . لقد دعا الله في كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل لا من خلفه ولا من أمامه ، إلى التزام التوسط والاتزان ، فلا نغل يدنا كل الغل ولا نبسطها كل البسط . جاء في سورة البقرة : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أَمَةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... »⁽⁵⁵⁾ .

وقال النبي أحاديث كثيرة في هذا المجال ، مجال الاتزان والالتزام في العقائد والأخلاق فقال : « خير الأمور أوسطها » .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أكبر المعتزلة هذا الأصل ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، معتقدين أن لن يساوهم أحد في قوة الدفاع عن الدين ، وردع الناس عن الأفعال المنكرة . وقد اعتمدوا في مبدئهم هذا على الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وبنصوص الإسلام صريحة وكثيرة في الأمر

(52) الملل والنحل ج 3 ص 56.

(53) آل عمران الآية 182.

(54) البقرة الآية 57.

(55) البقرة الآية 143.

بالمعرفة والنبي عن المنكر . منها قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »⁽⁵⁶⁾ وقول النبي ﷺ في حديثه المعروف : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

ولنا مثل واضح من رائد المعتزلة واصل بن عطاء في مهاجته بشاراً بعنف ، فعرض به في الأسواق والمجالس وحلقات الدرس . ورد في البيان والتبيين قال : « أما لهذا الملحد الأعمى المشنف المكتنّ بأبي معاذ من يقتله ؟ أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه ويقتله في جوف منزله وفي يوم حفله »⁽⁵⁷⁾ .

واستمر واصل في تحريضه الناس على شمار حتى نفاه عن البصرة إلى حران . وفيها بقي حتى مات واصل ، فتجرأ عندئذٍ بشار المنفي إلى الرجوع إلى مدنته العربية .

أخذت مدرسة الاعتزال تنشط وتنتشر بمبادئها ومناهجها ، بمناصرة الحكام العباسيين إلى أوائل القرن الرابع الهجري سنة 331 هـ في السنة التي توفى فيها الجبائي ، الرائد المعتزلي الأخير لتلك المدرسة .

وخلال هذه المدة بلغ عدد الرواد من المعتزلة عشرين رائداً . وكل زعيم منهم أتباع ومؤيدون .

وبعد الجبائي وظهور الأشعري خفت صوت المعتزلة ، وبدأ الضعف يسري فيهم ، ولا سيما بعد أن لقي الأشعري من الحكام ما شجعه على المضي في الطريق الذي اختطه لنفسه بعد أن لازم المعتزلة زمناً طويلاً ، وتلقى عنهم أكثر معلماته .

ومع ذلك لم ينته عهد الاعتزال ولكنه بقي محدوداً في نطاق الفرق المتعددة التي أنهاها الباحثون في الفرق الإسلامية إلى عشرين فرقة . وحول آراء هذه الفرق كانت تنشط المناظرات والمجادلات التي بلغت حد العنف ، وربما كانت تنتهي بالتفسيق والتکفير من كلا الفريقين .

أول هذه الفرق للرائد الأول واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصري .

الواصلة

نسبة إلى واصل بن عطاء⁽⁵⁸⁾ . يقوم انتزال الواصلة على أربع قواعد :

(56) آل عمران الآية 104 .

(57) البيان والتبيين ج ١ ص ٣١ .

(58) كان مولده بالمدينة سنة ثمانين من الهجرة ، نشأ في أحضان مواليه الهاشميين كما جاء في بعض الروايات ، وقيل أنه كان مولى لبني ضبة وكني بأبي حنيفة وقد نسبه أصحق بن سويد إلى الخوارج وفي ذلك يقول : برئ من الخوارج لست منهم من الغزال منهم وابن باب

ويظهر مما رواه المؤرخون أنه كان واسع العلم قوي الحجة محظوظاً بمذاهب العصر الذي عاش فيه ١ وكان مع ذلك لا يتكلم إلا بقدر الحاجة ، حتى اتهم بالخرس من طول صمته وبقيت صلاته طيبة باستاذه الحسن

- أ - نفي صفات الله تعالى من العلم والقدرة والارادة والحياة .
- ب - القول بالقدر فأفعال العباد عندهم مخصوصة في النظر والعلم ، فمن المستحيل أن يخاطب الله عبده بصيغة (إفعل) وهو عاجز عن الفعل ، وإنما يخاطبه حين يكون بعده وحكمته قد آتى الإنسان مقدرة على صنع أعماله بنفسه .
- ج - المنزلة بين المترفين وقد ورد الحديث عنها سابقاً .
- د - قوله في الفريقين المتنازعين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين : إن أحدهما خطيء لكن لا يعيشه ، فالخطأ واقع ولكننا لا نعرف من الخطئ » . وهذا ما يؤيد ما قيل عنهم أنهم أقرب إلى الخوارج .
- ثم انتقل واصل وأصحابه من القول المطلق إلى التخصيص حين حكموا على أحد الفريقين بالفسق لا بالتفاق . وجاء عنه أنه قال : لو شهدوا بأجمعهم على باقة بقل لم أقلب شهادتهم⁽⁵⁹⁾ .

الفرقة الثانية : العمرية

أتباع عمر بن عبد⁽⁶⁰⁾ تلميذ الحسن البصري وقد لازمه زمناً طويلاً . ولما اعتزل واصل عن استاذه واستقل في زاوية من زوايا المسجد مع جماعة كانوا يرون رأيه انضم إليه عمرو بن عبد ، بعد محاورة جرت بينهما بالنسبة لمرتكب الكبيرة ، واتفق هو وواصل على أصول الاعتزال الخمسة . وقد كان متصلباً في اعتناق القدرة ، فقد ادعى أن لا سيطرة على الإنسان في أفعاله والأنسان وحده هو الذي يصنع ويفعل .

وقد خالف زميله في الحكم على علي (ع) وطلحة والزبير ومعاوية ، فذهب إلى أن كل واحد منهم فاسق بعيشه وظالم للأخر ، بينما كان واصل يدعى أن أحد الفريقين لا يعيشه ظالم للأخر ، والحق في جانب أحدهما ، ولكنها قد انفقا معاً على تفسيق معاوية ومن معه .

وتؤكد المصادر التاريخية أنه رفض صلة من المتصور العباسى عندما أهدى إليه الأموال والنفائس . وله مع الخليفة مجالس كان يعظه بها ويوجه إليه الانتقادات الازمة . وجاء عنه أنه مر على سارق قد أمر الحكم بقطع يده ، فقال عمرو : لا إله إلا الله ، سارق السر قطعه سارق العلانية .

الفرقة الثالثة : الهذيلية

أتباع محمد بن الهذيل المعروف بالعلاف⁽⁶¹⁾ كان في البصرة وقد رحل إلى بغداد بعد أن

= البصري إلى أن خالقه في مرتكب الكبيرة ، فانقطع بينها حبل المودة ، وبعد حوار طويل بينه وبين رفيقه عمرو بن عبد اعتقد عمرو مدحه الشيعة وقال : « ما بيني وبين الحق من عداوة » .

(59) راجع الشيعة بين الأشاعرة والمعزلة للسيد هاشم الحسني ص 131 .

(60) ولد عمرو وزميله واصل بن عطاء في سنة واحدة ، كان والده نساجاً في بداية أمره ، ثم عين في شرطة الحجاج الثقي ويطافته . ولسوء سمعة أبيه في البصرة كان الناس يقولون بعد أن نبغ ولده عمرو : خير الناس ابن شر الناس وهم يعنون بذلك عمرو والده .

(61) عاش أبو الهذيل مائة سنة وتوفي سنة 227 هـ كما في رواية المسعودي في مروج الذهب . ولد في البصرة سنة

دعاه المأمون سنة 204 هـ وسمى بالعلف لأن داره في محلة العلافين بالبصرة . كان بارعاً قوي الجدل . في وسط البصرة الفكرى المتضارب بشئ التزعات والأهواء المتباعدة ، نشأ أبو الهدىيل أحد أعلام الطبقة الثانية من طبقات المعتزلة ، وقف على رأى علماء عصره في مختلف النواحي ، وقد اختاره المأمون رئيساً لمجلس مناظراته ، روى عنه ابن خلkan ان صالح بن عبد القدس⁽⁶²⁾ مات له ولد فحزن عليه كثيراً فقال له أبو الهدىيل :

لا أعرف بجزرك وجهًا ! إذا كان الإنسان عندك كالزرع ، فقال له صالح : إني لأجزع عليه لأي قد أفتكتاب الشكوك ولم يقرأه ، وهو كتاب يشك كل من قرأه فيها كان حتى يتوهם أنه لم يكن ، وفيها لم يكن حتى يتوهם أنه قد كان ، فقال له أبو الهدىيل : فشك أنت في موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت وان كان قد مات . وشك في قراءة كتاب الشكوك وإن كان لم يقرأه⁽⁶³⁾ .

ومما اختص به من شيوخ المعتزلة أنه كان يذهب إلى أن مقدورات الله سبحانه لا بد وأن تنتهي بحيث يصبح عاجزاً عن كل شيء ، وعندها لم يستطع أن يزيد في نعيم أهل الجنة ، ولا في عذاب أهل النار .

ومن آرائه أن الله لا يقدر على ما أقدر عليه عباده ولا يوصف بالقدرة على الصلاة والصيام وغيرها من موضوعات التكاليف ، لأنها أعمال جسمية ، وهو منزه عن كل ما هو من لوازم الجسم⁽⁶⁴⁾ .

النظامية ، الفرقة الرابعة من فرق المعتزلة
اتباع ابراهيم بن سيار النظّام المترف سنة 221 هـ وله من العمر 35 سنة . كان من العلماء البارعين في علم الكلام والفلسفة ، وقد حفظ القرآن والإنجيل والتوراة ، كما كان يحفظ الكثير منأشعار العرب وفتاوي الفقهاء وتاريخ الأمم .

وقد تناقض أقوال المؤرخين فيه فمنهم من وصفوه بالإلحاد والكفر وإليه ينسبون ما وجدناه عند أبي نؤاس⁽⁶⁵⁾ :

وأستبيح دمًا من غير مجروح والزق مطرح جسماً بلا روح	ما زلت أحذر روح الزق في لطف حتى انشيت ولي روحان في جسدي
---	--

(62) كان صالح على مذهب الشوية القائلين بتعدد الآلهة : وقد صلى يوماً الصلاة التي يصلحها المسلمون فقيل له ما هذه الصلاة ومذهبك معروف ؟ فقال : أصلحها لأنها سنة أهل البلد . انظر الأمالي للسيد المرتضى ج 1 ص 100 .

(63) راجع الفرق الإسلامية ص 155

(64) المرجع نفسه ص 164 . والملل والنحل للشهرستاني ج 1 ص 19 .

(65) من هؤلاء عبد الله بن مسلم بن قتيبة المترف سنة 276 هـ .

ومنهم من وصفوه بالاستقامة والدين والدفاع عنه ضد كيد الملاحدة⁽⁶⁶⁾ وقد نسب إليه أنه قال : القرآن لا إعجاز فيه ، وينكر جميع العجزات التي رواه المحدثون عن الرسول ﷺ . وكان يتأول صفات الله تأويلاً سلبياً . وله آراء أخرى خالفة فيها أسلافه المعتزلة كانت من جملة المأخذ عليه حتى ألف بعضهم كتاباً في تكفاره⁽⁶⁷⁾ .

الفقة الخامسة : الجاحظية

أتباع عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى 256 هـ له مؤلفات كثيرة بحث في شتى المعارف العلمية والأدبية والفلسفية والتجارة والصناعة . . .⁽⁶⁸⁾ تدل على سعة علمه وقدرته في علم الكلام والجدل والمناظرات . من مجلة مؤلفاته كتاب الحيوان ، يقول فيه أن المعرفات كلها من لوازم الطبيعة ، ومن عرف شيئاً عرفه بطبيعة لا بتعليم . ولم يخلق الله له علمآ به . أما فيما يعود إلى مرتكب الكبيرة ، فقد ذهب إلى أن الله لا يدخل العصاة في النار ، بل هي تحذفهم إليها ، وإن القرآن جسد ينقلب تارة رجلاً وأخرى امرأة .

الفقة السادسة : الجبائية

أتباع محمد بن عبد الوهاب الجبائي المتوفى سنة 303 هـ وهو الزعيم الأول للطبقة الثالثة من المعتزلة . تميز بالذكاء من صغره . واشتهر بالاقناع وقوة الحجة والبرهان عندما أكملت رجلولته ، ونبغ في علم الكلام ، حتى بلغ ما أملأه على تلاميذه مائة وخمسون ألف ورقة⁽⁶⁹⁾ ومن أشهر تلاميذه وأكثرهم اتصالاً به علي بن اسماعيل الأشعري ، رافقه مدة أربعين سنة أخذ عنه آراء المعتزلة وعقائدهم وأصبح من أعلامهم المتبخرین ، وبعد أن لمع صيته واشتهر انفصل عنهم وتراجع عن مذهب الاعتزاز ، وألف في الرد عليهم . وقد ذكر كتاب الفرق بعض المناظرات التي كانت تجري بينه وبين أستاذه أدت إلى انفراد الأشعري عنه . من جملتها :

إن رجلاً دخل على الجبائي وقال له : هل يجوز أن يسمى الله عاقلاً ؟ فقال الجبائي : لا ! لأن العقل مشتق من العقال ، وهو المانع ، والمنع في حقه سبحانه محال . فقال له أبو الحسن الأشعري : فعلقياسك لا يسمى الله حكيماً ، لأن هذا الاسم مشتق من حكمه اللجام وهي الجديدة المائعة للدابة عن الخروج . فإذا كان اللفظ مشتقاً من المنع « والمنع على الله محال ، لزمه أن تمنع إطلاق اسم حكيم عليه سبحانه وتعالى .

أجاب الجبائي : لم منعت أنت أن يسمى الله سبحانه عاقلاً ، وأجزت أن يسمى حكيماً أجابه الأشعري : لأن طرفي في مأخذ أسماء الله الإذن الشرعي دون القياس اللغوي ، فاطلقت عليه حكيماً متابعة للشرع ، ولم أطلق عليه عاقلاً لأن الشرع قد منع من ذلك⁽⁷⁰⁾ .

(66) أنظر الفرق الإسلامية ص 190 وما بعدها .

(67) المصدر نفسه .

(68) راجع أعلام في العصر العباسي للمؤلف « الجاحظ » .

(69) راجع الشيعة بين الاشاعرة والمعتزلة للسيد هاشم معروف الحسيني ص 140 .

(70) أنظر الفرق الإسلامية .

ويسبب تباين الرأي واختلاف وجهة النظر بين الأستاذ والتلميذ بعد مناظرات عديدة انفرد التلميذ عن أستاده وترك المعتزلة بعد أن دافع عنها زماناً طويلاً بتجدد وانخلاص؛ ومن يتبع تاريخ كبار المعتزلة الذين ترأسوا فكرة الاعتراف من ظهور وأصل حتى الجبائي في القرن الثالث ، يجد بينهم اختلافاً كبيراً في أكثر المسائل الكلامية والفلسفية . حتى أن ابن الجبائي محمد خالف والده في مسائل عدّة .

وهناك فرق أخرى لا يتسع المجال هنا لذكرها كالاسوارية أتباع علي الاسواري من تلامذة النظام ، والمعمرية أتباع معمر بن عباد ، والجعفرية أتباع جعفر بن بشير وجعفر بن حرب ، والاسكافية أتباع محمد بن عبد الله الاسكاف ، والبشرية أتباع بشر بن المعتمر ، والهشامية أتباع هشام بن عمر القوصي ، والخاطبية أتباع أحد بن حابط ، والشامية أتباع ثمامنة بن الأشرس النميري ، والمزدارية أتباع عيسى بن صبيح المزدار ، والخاطمية أتباع عبد الرحيم الخياط - ويجمل القول أن هذه الآراء القليلة التي عرضناها من آراء المعتزلة مثل التزعة العقلية التي طفت على تفكير المعتزلة ، فقد اعتمدوا العقل وحده في جميع أبحاثهم شرعية كانت أم غيرها ، محاولين حل جميع المشاكل حلاً منطقياً مقنعاً . لذلك أقرروا للعقل وحده بالسلطة المطلقة واعتبروا الشرع موضحاً ومتيناً لشريعة العقل ، حتى أنهم توصلوا إذا بدا تناقض بين ما جاء به الوحي ، وبين ما حكم به العقل ، فلا بد لهم من تأويل الوحي بما يوافق حكم العقل . فشرعية العقل وهي عندهم في متنهي القدسية ، ولا يمكن أن تمس بأي حال من الأحوال .

هذا الإفراط في تحكيم العقل كان حدثاً جديداً في تاريخ الإسلام بنظر المحدثين الذين اعتادوا أن يبحثوا الدين عن طريق النصوص منذ فجر الإسلام لذلك اتسعت شقة الخلاف بينهم وبين المعتزلة ، وترافقوا بالخروج عن الدين والتكفير . فادعى كل منها أنه وحده الحامي عن الإسلام من كيد المعتدين والدسسين وحاولوا فرض آرائهم على الناس ولا سيما محنة خلق القرآن التي جرت البلاء على الفريقين » وبلغت أشدتها في عهد المعتصم والوازن اللذين سنا وصبة المؤمن بمساعدة المعتزلة والتكليل بخصوصهم

وبقي سلطان المعتزلة في صعود حتى جاء الموكل العباسي فخفف من حدته ، وأفسح المجال للمحدثين ليعملوا باجتهاداتهم ويعبروا عن آرائهم ، ولا سيما في الشطر الأخير من حكمه .

ويع أن تلك الخصومات المذهبية التي استمرت قروناً من الزمن قد أضررت المسلمين ، بما أدخلته من الآراء المستوردة من أعداء الإسلام ، إلا أنها أفادت من عدة نواحٍ إيجابية ، فلا يسعنا أن نتجاهل المكاسب التي استفادها المسلمون من هذا الصراع العقائدي ، ومن تحكيم العقل والمنطق في تعليل الحوادث وإرجاع الأمور إلى أسبابها الواقعية . هذا الأسلوب الجديد أفاد الفكر الإسلامي كثيراً ، وأكسبه قوة ومرونة على الجدل والنقاش .

والواقع أن لكل من الطرفين حسناته وسيئاته فكلهما قد أفسد بما أدخل على الدين من البدع، وما يسيء إلى تعاليم الإسلام ومبادئه القوية كما أفاد من ناحية أخرى بما أكسب

الفكر الاسلامي قوة ومرونة وغنى في وجه الدسسين والمخربيين . ومن هذا الصراع الفكري تم نشر الثقافة الاسلامية في الأمصار ، وتأليف الموسوعات العلمية والدينية والفلسفية الغنية جداً بالعطاء الخير الجزيل .

وبقيت الخصومات العقائدية بين المعتزلة والمحاذين إلى أوائل القرن الخامس الهجري ، حتى جاء القادر العباسي فتدخل رسمياً لانهائهما ، ووضع حداً لها بعد أن جمع المحاذين وأنصارهم الأشاعرة ، فوضعوا كتاباً أسموه « الاعتقاد القادر » تضمن ما يجب على المسلم الاعتقاد به من أصول الدين كالتوحيد وصفات الله . وخلق القرآن وغير ذلك من المسائل التي كانت ممراً للخلاف بين الطرفين . ثم وقعت الطرفان وتعهدتا الخلافة بنشره بين المسلمين وعقاب كل مخالف له بعقوبات صارمة . وأصدر الخليفة القادر أوامره بعدم الخوض في المباحث الكلامية والمناظرات على مذاهب الاعتزال على الاطلاق .

وبذلك تم القضاء على الاعتزال كمذهب ، وأصبحت السيادة المطلقة لمذهب المحاذين والأشاعرة بتأثير السلطة الحاكمة يومذاك . وانتهى دور الاجتهاد وتحكيم العقل في أصول العقائد . وكلمة أخيرة نقولها في هذا المجال : إن التحجج على العقول ومنعها من التحلق في رحاب العلم و مجالاته الواسعة إسامة إلى العلم والدين معاً ولو لا العقول البصيرة النيرة لما نجحت دعوة الرسل الكرام في إصلاح الفاسد وتقويم المائل عن الحق ، ولما تقدمت الأمم في تاريخ حضارتها الإنسانية التي نشرت خيراتها العميمة على بني الإنسان في كل مكان .

أهل السنة

عرفوا أهل السنة بأهل الحديث وذلك قبل أن تكون مدرستهم بناءً على عقلية خاصة ، كما عرفا بالتبعين ، الطبقة الثانية بعد الصحابة . وكان همهم الوحيد منصرفًا إلى الأبحاث الفقهية التي يتكون منها القانون الاسلامي بفرعيه : العبادي والعملي ، ومن جهة أخرى اهتموا بالأحاديث النبوية وتفسيرها وتصنيفها وقيمتها الصحيح منها من الموضوع فيها .

كان شعارهم قبل أن تكون مدرستهم المعروفة باسمهم « عدم البحث في جميع مسائل نظام الحكم والإدارة في الخلافة الاسلامية ، وعدم التعرض لكل ما يتصل بالصحابة من قريب أو بعيد .

تكونت مدرستهم على يد أبي الحسن الأشعري ، وذلك بعدما انفصل عن الجبائي الزعيم الأخير من زعماء المعتزلة . وقد حدث كما أشرنا آنفًا إلى خلاف بينها في مسائل عدة إثر مناظرات ومحاورات طويلة .

من مسائل الخلاف . بينها : الصلاح والأصلاح ، فقد كان الجبائي يذهب إلى وجوبه فيوجب تبعاً لذلك بعث الأنبياء والرسل ، وخالقه الأشعري في ذلك فقال بعدم وجوبه . ولذلك ذهب إلى أنه لا يجب على الله إرسال الأنبياء والرسل⁽⁷¹⁾ قال الشهري « ... حتى جرى بين أبي الحسن الأشعري وبين أستاذيه مناظرة في مسألة الصلاح والأصلاح ، فتخاصما

(71) أنظر الملل والتحل للشهري .

وأنحر الأشعري إلى هذه الطائفة - أي أهل الحديث والفقهاء - فأيد مقالتهم بمناهج كلامية ، وصار ذلك مذهبًا لأهل السنة والجماعة »⁽⁷²⁾ .

وقد أطلقوا على هذه الفرقة أيضًا « الصفاتية » مقابل المعتزلة الذي سموهم « المعطلة » لأنهم ذهبوا إلى تأويل كل ما ورد في الكتاب والسنة من صفات الله ، فقالوا أنها عين ذاته وليس مبادلة لذاته .

أما أهل السنة فكما أسلفنا أخذوا ما ورد في الكتاب والسنة من صفات الباري عز وجل على ظاهره فقالوا هو قادر بقدرة ، ورحيم برحمته ، وعالِم بعلم . . . وقالوا : إن هذه الصفات موجودة قديمة ومباعدة لذاته ، ومن هنا لقيوا بالصفاتية . وقد ابتعدوا وغالباً في إثبات الصفات فانتهى بهم الأمر إلى التجسيم فأثبتوا الله عيناً ويداً ورجلاً ووجهها وأعضاء تشبه أعضاء البشر ومنهم الكرامية أصحاب محمد بن كرام⁽⁷³⁾ وقد تبع أبي الحسن الأشعري في مذهب طائفة من علماء الحديث كالقاضي أبي بكر الباقلاني ، وأبي إسحق الإسفرايني ، وأبي حامد الغزالى .

الأشاعر»

يتسبّب الأشاعرة إلى علي بن إسماعيل المعروف بأبي الحسن الأشعري⁽⁷⁴⁾ وهو الذي وضع أصول هذا المذهب بعد أن انفصل عن أستاذة الجبائي إثر مناظرات في مختلف المواضيع . ناصر الأشعري المحدثين في أكثر آرائهم في أصول العقائد ، وقد سلك طريقاً وسطاً بين المحدثين الذين يعتمدون النصوص ، ولا يرون للعقل أي سلطان » وبين المعتزلة الذين اعتمدوا على العقل وحده فهو عندهم السلطان الأكبر ، حتى أنهم اعتبروا الوحي مقرراً لأحكام العقل .

ويعد انفصاله عن أستاذة الجبائي » وقف إلى جانب خصومه الأشداء على المعتزلة . وعلى حد قول ابن المقفع : أحذر الصديق إذا انقلب عدواً ! وقد سأله أستاذة عن حقيقة الطاعة ، فقال الجبائي : هي موافقة الارادة : فقال له الأشعري : هذا يوجب أن يكون الله مطيناً لعبده إذا أعطاوه مراده فالالتزام الجبائي بذلك .

وقد بلغت الخصومة أشدّها بينهما في مسألة الصالح والأصلح على الله سبحانه » وكان لا يرى ذلك الأشعري . فقال له : ما قولك في ثلاثة : مؤمن وكافر ، وصبي ؟ قال الجبائي : المؤمن من أهل الدرجات والكافر من أهل الدرجات ، والصبي من أهل النجاة .

(72) المرجع السابق.

(73) الملل والنحل للشهرستاني .

(74) ولد في البصرة سنة 260 وتوفي سنة 333 هـ . وينتهي نسبه إلى بن موسى الأشعري وقد نشأ ببغداد وتوفى فيها . وأخفى أصحابه قبره خوفاً من أن ينشئه الخانلة لأنهم أباحوا دمه وحكموا بكفره . اتصل بالمعزلة ولازم الجبائي حوالي 40 سنة كان من الصدق الناس به وأشدهم إيماناً بآرائه ثم انفصل عنه وأصبح من أهل خصومه .

قال الأشعري : فإن أراد الصبي أن يرقي إلى أهل الدرجات بعد موطه صبياً ، هل يمكن ذلك أم لا ؟

قال الجبائي : لا يمكن ذلك ، لأن المؤمن إنما نال هذه الدرجات بالطاعة وليس للطفل مثلها .

قال الأشعري : للطفل أن يقول له : ليس التقصير مني ، فلو أححيتني كنت أعمل الطاعات كعمل المؤمن .

أجاب الجبائي : إن الله يقول له : كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت ، فراعيت مصلحتك ، وأمتك قبل أن تنتهي إلى سن التكليف .

فرد الأشعري : فللكافر إذن أن يقول له : لقد علمت حال الطفل ، فهلا راعيت مصلحتي مثله ، وأمتي قبل سن التكليف ، كي لا أقع في معصيتك التي نلت بها العقاب ؟

وعندما وصل التزاع بينهما إلى هذا الحد ، وجد الجبائي نفسه عاجزاً فأعرض عن(75) .

وبعد هذه المناظرة اعتكف الأشعري في بيته زمناً طويلاً عن جميع الناس وتفرغ للمقارنة بين آراء المحدثين والفقهاء ، وأراء المعتزلة .

وبعد التمحيق والمقارنة والدراسة الدقيقة لأراء الفريقين خرج على الناس ودعاهم إلى الاجتماع في مسجد البصرة بعد الصلاة ، ثم وقف خطيباً أمام تلك الجماهير المحشدة وقال (76) :

أيها الناس ! أنا علي بن إسماعيل بن إسحق الأشعري . كنت أقول بخلق القرآن وإن الله تعالى لا يرى بالأبصار ، وإن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع عنها كنت أقول ، ومتصدق للرد على المعتزلة ، ومخرج لفضائحهم . وقد تغيبت عنكم هذه الملة ، ونظرت في الأدلة فتكلفأت عندي ، ولم يتراجع شيء على شيء ، فاستهديت الله سبحانه وتعالى فأهداني إلى اعتقاد ما أودعته كتبتي هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد ، كما انخلعت من ثوابي هذا . ثم انخلع من ثوب كان عليه ، وأبرز للناس ما كتبه في الملة التي احتجب فيها عن الناس ، وكان قد ألف كتابه (الإبانة) الذي أورد فيه مذهبـه ، كما ألف في الموضوع نفسه كتابين آخرين هما : الموجز والمقالات . وما جاء في كتبه التي أبرزها للناس : أن ديانتنا التي تمسين بها هي التمسك بكتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ وما روی عن الصحابة ، والتسليعين وأئمة الحديث . واستطرد يقول : ونحن بذلك معتصمون لما كان عليه أحد بن حنبل نضر الله وجهـه ، ورفع درجـته ، وأجزـل مثوبـته متبـعون ، ولـن خالـف قوله مـجانـبـون ، لأنـه الـامـام الفـاضـل والـرـئـيس الـكـامل الـذـي أـبـان الله بـه الـحـق عـنـد ظـهـور الـضـلـال ، وأـوـضـح بـه الـمـنهـاج ،

(75) أنظر المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ص 286 والفرق الإسلامية لعلي الغرابي .

(76) المرجع السابق ص 226 ومقدمة كتاب مقالات المسلمين لمحمد حفي الدين عبد الحميد ص 24 .

وَقَعَ بِهِ بَدْعُ الْمُبَدِّعِينَ وَزَيْغُ الزَّائِفِينَ ، وَشَكَ الشَّاكِنِينَ⁽⁷⁷⁾ .

يبدو واضحاً أنه يناصر آراء المحدثين وعلى الأخص أحمد بن حنبل الخصم العائد لمذهب الاعتزال⁽⁷⁸⁾ ، ومع ذلك فقد لقي من الخنابلة عتاباً شديداً وتحملاً عليه وعلى أتباعه ، من هؤلاء رجل من شيوخ الأشاعرة يدعى القشيري ، اضطر إلى الخروج من بغداد وهجرها من شدة وطأ الخنابلة عليه .

وقد نسبوا إليه بعض الآراء الشاذة ليوجهوا الرأي العام ضد الأشاعرة من ذلك : أن الرسول ﷺ كانت نبوته في حال حياته أما بعد وفاته فقد انتهت نبوته⁽⁷⁹⁾ .

أما عن سبب هذا الصراع بين الأشاعرة والخنابلة المحدثين ، فمرده إلى أن الأشعري وان تجاهر أولاً بالدعوة للمذهب ، وتأييده لأراء الإمام أحمد شيخ الخنابلة الأول ، إلا أن دراسته الطويلة على المعتزلة ، وأتباعه لطريقتهم نحواً من ثلاثين سنة أو أكثر ، طبعته بطابعهم وأثرت على تفكيره تأثيراً عميقاً ، فلم يستطع أن يتحرر منها جرب وحاول . ولذا نراه في جميع أبحاثه لم يتعبد للحديث وحده تعبد المحدثين ، ولم يسلط سلطان العقل عليه ، بل حاول أن يوفق بينهما متخدماً موقفاً وسطاً .

أما إذا حاولنا تلخيص آرائه بإيجاز نستطيع القول :

- رؤية السعداء لربهم يوم القيمة

اعتمد الأشعري في هذه الرؤية إلى بعض الآيات القرآنية ورد في سورة المطففين « كلا إِنَّمَا عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمْ يَجْبُونَ »⁽⁸⁰⁾ . فقال : وندين أن الله تعالى يرى بالبصر يوم القيمة كما يرى القمر ليلة البدر ، يراه المؤمنون ويحجب عنه الكافرون .

لم يؤول الأشعري النصوص القرآنية ، ولم ينف أن خبار الأحاداد النبوية كما فعلت المعتزلة ، ولم يقل كالمشبهة : إن الله يرى يوم القيمة بكيف وحدود . فهو إلى التوسط أقرب وهذه هي مزيته في جميع آرائه . فرغم استدلاله للعقائد على طريقة المعتزلة لم يهمل النصوص كما أهملوها ، ولم يتطرف تطرفهم المعروف .

- أفعال العبد مخلوقة الله سبحانه

قال تعالى : « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ »⁽⁸¹⁾ .

قال الأشعري إن أفعال العبد مخلوقة الله سبحانه ، لا يقدر العباد أن يخلقوا منها شيئاً . فالإنسان إن لم يستطع خلق عمله فهو قادر على كسبه . وهنا أيضاً نرى الأشعري يقف وسطاً بين المعتزلة المتصرين بأن العبد هو الذي يخلق أفعاله بنفسه بقوه أودعها فيه الله تعالى ، وبين

(77) المرجع السابق .

(78) كما جاء في كتب الأشعري الابابة والموجز والمقالات .

(79) الحضارة الإسلامية لأدم مترج 1 ص 362 .

(80) المطففين الآية 15 .

(81) الصفات الآية 96 .

- الجبرية القائلين : إن الإنسان كالريشة في مهب الريح⁽⁸²⁾ .

- القرآن غير مخلوق

في نظر الأشعري إن القرآن كلام الله وهو غير مخلوق ، ولا حادث ، ولا مبتدع ، لكن الحروف المقطعة فيه ، والألوان ، والأجسام ، والأصوات هي مخلوقات المبدعات . على حين ذهبت المعتزلة إلى أن القرآن مخلوق حديث خلقه الله تعالى .

- الأخذ في مسألة التوحيد بظواهر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية

وصف الأشعري الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسول الله ﷺ فقال بوضوح تام : « إن الله واحد أحد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وهو على عرشه كما تقول الآية الكريمة ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَ﴾ وان له يدان ، لقوله ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَاهُ﴾ وله وجه : ﴿وَبِقِيَّ وَجْهٌ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْاَكْرَامِ﴾ وإن أسماء الله لا يقال : إنها غير الله كما يدعى المعتزلة والخوارج : « أُولَئِكَ يَرَوُا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً»⁽⁸³⁾ .

- القبيح هو المنهى عنه فقط

ذهب الأشعري أن العمل التبيح هو المنهى عنه فقط من الوجهة الشرعية ، أما العمل الحسن فلا . ولذلك لم يرجح الأصلح على الله ، إذ لو وجب ذلك للزم أن يكون في كل عصرنبي ، وفي كل بلد معصوم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، لأن اللطف عند القائلين به هو المقرب من الطاعة ومن أظهر مصاديقه الأنبياء والأولياء ، مع أن القائلين بوجوبه لا يلتزمون بذلك⁽⁸⁴⁾ .

- صفات الله عزّ وجل قدية وزائدة على ذاته

ذهب الأشعري إلى أن صفات الله عزّ وجل قدية وزائدة على ذاته فهو عالم بعلم وقدر قادر ورحيم برحمته وهي بحياة . وقد استدل على ذلك بأن هذه الصفات لو كانت عين ذاته ومتحدة معها ، لم يكن لحملها على الذات فائدة » ولزم من حملها على نفسها حمل الشيء على نفسه ..

ولو كانت غير ذاته لزم كون المعنى المتحصل من جميعها واحداً ، مع أن معانيها مختلفة في الوجود .

وما يبدوا لنا أن رأى الأشعري هنا في الصفات ورده على المعتزلة فيها ، وانتصاره لأهل الحديث والستة هو المتيج الكلامي الجيد ، والطريقة الفضلى في الاستدلال ؛ ومع أنه التزم النصوص وجعل العقل خادماً لظواهر أخبار الآحاد ، لم يتخل عن طريقة الاستدلال المنطقى ليثبت بها ما جاء في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل لا من خلفه ولا من أمامه ، أو ما أفهم

(82) الملل والنحل للشهرستاني ومع ذلك فقد عده ابن حزم من الجبرية لأنه لا يثبت للعبد الاختيار بتعبير

صريح .

(83) مقالات الإسلاميين ص 330.

(84) راجع الشيعة بين الاشاعرة والمعتزلة ص 220 . وما بعدها .

النطق به رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى .

- مرتكب الكبيرة يعوٰ أمره الله تعالى

قال الأشعري عن مرتكب الكبيرة : هو في مشيئة الله تعالى ، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة ، وإن شاء عاقبه بذنبه ثم أدخله الجنة . بينما قال المعتزلة : إن صاحب الكبيرة إذا لم يتبع مع إيمانه وطاعته لا يخرج من النار ، وقال المرجئة : من أخلص الله وأمن به فلا تضره كبيرة منها تكن .⁽⁸⁵⁾

هذه أبرز الآراء التي أقى بها أبو الحسن الأشعري وكلها تحاول التوفيق بين العقل والنقل ، سلك بها صاحبها أسلوباً جديداً للتقريب بين العقل والحديث أثار به إعجاب الذين جاؤوا بعده ، فتبنتوا مذهبة وساروا على طريقته . فكان حلقة وصل بين الشافعية والمالكية والحنابلة والأحناف . ومن مشاهير الفقهاء والمتكلمين الذين تابعوا وتعصبوا لأرائه ، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني الذي قال عنه ابن العماد الحنفي : أنه كان أصولياً أشعرياً ، مجدداً للدين على رأس المائة الرابعة⁽⁸⁶⁾ .

ومن الفقهاء المناصرين له إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجوني ، الفقيه الشافعي الملقب بضياء الدين ، كان على رأي الأشعري في أصول العقائد ، ومعتمداً طريقته في العقل والنقل .

وقد ذكرنا سابقاً أن الدولة العباسية قد فرضت آراء الأشاعرة على المسلمين بقوة السلطان ، كما فرضت الرقابة العباسية على المعتزلة في مناظراتهم ومحالسهم حتى أصبح أكثر المسلمين على رأي الأشعري ، ولم يشذ عنهم سوى الحشوية⁽⁸⁷⁾ .

(85) الملل والنحل ج 4 ص 204 .

(86) راجع الشيعة بين الأشاعرة والمعزلة للسيد هاشم الحسني ص 157 .

(87) وهم القائلون بأن الله سبحانه جسم من لحم ودم « وله أعضاء وجوارح تخوز عليه الصافحة والمعانقة ، وابتدا له كل ما هو للبشر .

الباب الثالث
النظام السياسي

الفصل الأول

حكومة الرسول في المدينة

المدينة المنورة :

الى شمالي مكة وعلى بعد ثلاثة أيام ميل ، تقع المدينة ، او يثرب ، كما كانت تسمى في الباخالية . تلي مكة في الأهمية بين مدن الحجاز .

تقوم المدينة في واد خصب تكتنفه مرتفعات يعلو بعضها بعضاً تكثر فيها العيون والأبار وهذا ما أتاح لها أن تصبح واحة جليلة تكتنف بالنخيل والأشجار والزرع . كان في المدينة شعب خليط يقال أن العمالق هم أول من سكنوها وظلوا بها حتى سكنتها اليهود في القرن الثاني الميلادي على أثر اضطهاد الرومان لهم في فلسطين . بني العمالق في المدينة الدور والقصور⁽¹⁾ .

ثم غزتها اليهود النازحون من الشام » وقضوا على هؤلاء العمالق⁽²⁾ . ولما جاء الإسلام اخذوا العربية في حياتهم اليومية بينما ظلوا يحتفظون بطقوسهم الدينية . وقد أمر الرسول ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم لغتهم العربية⁽³⁾ سكنت بعض طوائف منهم وطاب لهم المقام . فأقيمت بنو قريطة والنمير وسط المدينة وفضل بنو قينقاع داخلها، وشمالها الغربي⁽⁴⁾ .

أما العرب في المدينة فكانوا من الأوس والذررج ، قدموا إليها بعد انهيار سد مأرب في اليمن وتفرق أهل اليمن في البلاد⁽⁵⁾ .

أوقع اليهود بين الأوس والذررج حتى قامت المروبة بينهما وحدثت الواقع والأيام الدامية فكأنها تعاهدت على الفناء لولا أن نزل الرسول ﷺ بينهم وأصبحوا بنعمة الله أخواناً إذ دخلوا في دينه الحنيف أزواجاً . كانت الزراعة عماد الحياة في المدينة ، وأكثر سكانها

(1) معجم البلدان ج 7 ص 425.

(2) المرجع نفسه ص 427.

(3) البلاذري ص 474.

(4) الشعر الغنائي لشوقى ضيف ص 5.

(5) الكامل في التاريخ ج 1 ص 400.

يتخذون في ضواحيها الضياع التي تدر عليهم الرزق الوفير ، وقد ضرب حول المدينة سور متين يصد عنها هجمات الاعراب المغرين⁽⁶⁾ .

ويبدو أن هذا السور قد تهدم لأن النبي ﷺ حفر خندقاً حول المدينة في غزوة الأحزاب . بالإضافة إلى الزراعة كانت التجارة التي أجادها سكان المدينة فوطدوا العلاقات الطيبة مع بعض الأقاليم المجاورة كالشام ومصر . إذ كان يتفرع من مدين طريقان يصلان المدينة بهذه البلدان⁽⁷⁾ .

كيف نشأت النظم الاسلامية :

بدأ الاسلام في تنظيمه للحياة الاجتماعية منذ أول عهده ، وهذه النظم كانت نتيجة للوحى القرآني ولوقائع السيرة النبوية ، فنظريات الفقهاء في الأحوال الشخصية وتنظيم الأسرة ، والتنظيمات السياسية ، والعسكرية ، والمعاهدات الدولية ، وكل ما يتعلق بالأمور المالية والاقتصادية ، ليست إلا امتداد لبعض الواقع التي حدثت في عهد الرسول ﷺ وكان له فيها قول ، أو تنبؤ ، أو إرشاد ، أو تقرير .

إن كل ما نلمسه في حياتنا العامة والخاصة من مواضيع نوهم أنها جديدة على الحياة الإنسانية المعاصرة ، له أصل بشكّل أو بآخر في القرآن الكريم أو في السنة الشريفة .

فحصر النبي كان منطلقاً خيراً لكل ما عرف في الاسلام من نظم وقوانين . قال عز وجل : ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل إليهم﴾⁽⁸⁾ .

لقد وضع في المدينة أساس المجتمع الجديد من توحيد الله ، إلى المجاهرة بالحق ، إلى العمل الصالح ، إلى المكارم الأخلاقية إلى الإتضامن والبناء في كل شؤون الحياة .

فلقد أصبحت المدينة بفضل الرسول ﷺ ومن ناصره موطن الاسلام ، والمستقر الصالح للدعوة الاسلامية ، ومركز التحول والتغيير في تنظيم المجتمع السياسي ، والاجتماعي ، والاقتصادي .

كانت الهجرة تجسيداً لهذه التنظيمات بمعناها الشامل الواسع الذي زادته ممارسة الواقع تفصيلاً وتوضيحاً . ولقد تمكّن المسلمون الأولون من تحويل المرحلة النظرية إلى مرحلة عملية تطبيقية .

من هنا نعلم أن الحياة الجديدة والتنظيم الجديد ، بكل ما ورد فيه من تشريع لم يكن إلا امتداداً لما بدأ به الرسول وجماعته في مكة المكرمة .

وما يبدو أن جو المدينة المنورة كان أكثر ملاءمة للتشريع ، وأكثر مناسبة لاظهار الحركة السياسية ، والاجتماعية ، والعسكرية ، في شكل جديد . فلقد قام في يرب مجتمع جديد

(6) معجم البلدان ج 7 ص 428.

(7) معجم البلدان ج 7 ص 432.

(8) النحل الآية 44.

في شكله ومضمونه ، على قواعد أساسية ، تحت قيادة رئيس واحد .

من المدينة المنورة بدأً عهد جديد يرسم للإنسان منهاجاً سليماً في الحياة ، وينير له الطريق من غبار الجهل وأدران الجاهلية ، بدأً منهج في التغيير نحو الأفضل والأكمل .

الأثر الذي تركته حكومة الرسول في المدينة :

لقد ترتب على قيام الحكومة النبوية في المدينة المنورة آثار بعيدة المدى في جميع الحقول

والميادين .

أ - الأثر الديني :

قضى الإسلام على الوثنية والشرك بالله ، ودعا إلى عبادة إله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد ، هو رب العالمين . فأنكر العصبية القبلية ورفض مبدأ الشعوب المختارة ، وبه ، أكاديمياً ، أعملاً إنسانية نسلة تشعر الإنسان بعاطفة صادقة مخلصة .

فرض على الناس إقامة الصلاة في تدبر وخشوع ، وإيتاء الزكاة لرعاية التكافل الاجتماعي ، والحج والعصوم بمعانيها الروحية والاجتماعية .

فرضت الصلاة منذ بدء الدعوة الاسلامية ، فهي ركن أساسى في الاسلام⁽⁹⁾ . ولم يعرف الآذان إلا بعد انتقال النبي الى المدينة حيث وجد المسلمين متৎساً لأداء الشعائر الدينية . وكان ﷺ قد أمر بـالآذان صاحب الصوت الندى الجميل ليؤذن بالناس للصلوة .

وإقامة الصلاة دعت إلى بناء المساجد . فكان مسجد « قباء » بناء الرسول ﷺ في طريقه إلى المدينة ، وفي المدينة بني مسجداً جديداً آخر⁽¹⁰⁾ .

بلغ عدد المساجد التي بنيت في عهد الرسول تسعة مساجد ، اتخذ أكثرها مدارس للتعليم (١١) وعما يذكر أن هذه المساجد كانت خالية من الزخرف ، فهي مواضع للعبادة وهذا ما بنيت من أجله .

والاسلام كالاديان السماوية التي سبقته يدعوا إلى مكارم الأخلاق . ولا يفرق بين أحد من الأنبياء ، لأنهم جميعهم يبلغون رسالات الله ولا يخشنون أحداً إلا هو . وإن اتباعهم يه لفون أمة واحدة تعبد الله وحده ، ولا تشرك به أحداً .

أما ماصاب الأديان من تغريف لا بد أن يكون من شروح الاتباع من العلماء والأحبار
ولا يد فيه للأئمّة والمرسلين⁽¹³⁾.

بـ - الأثر السياسي :

كانت الحروب وعدم الاستقرار تسود معظم الجزيرة العربية طوال فترة بعيدة من

^(٤) مسیرہ ابن هشام ج 1 ص 158-159.

¹⁰¹ المقدمة لابن خلدون ص 283.

(١١) المصدر نفسه ص 283 وفتور اليلدان ص ٦.

(١٢) الوجه المحمدي لرسيد محمد وشید رضا ص ١٥٢.

الزمن ، حتى ملت القبائل تلك الحياة المشحونة بالمنازعات ، كل هذا الوضع المتآزم جعل الناس يتربّون الى نظام سياسي جديد .

وجاء الإسلام بدعوه الكريمة الإنسانية وطلب من الناس الدخول بالرضا والطوعية في دين الله أفواجاً. حتى عم السلام جميع أنحاء الجزيرة العربية فقد وضع الرسول ﷺ منذ هجرته إلى يثرب النواة الأولى للحكومة الإسلامية ، بعد أن حصلها على المبادئ العادلة السامية التي كفلت لها الاستمرار والبقاء .

وكان النبي يرأس هذه الحكومة التي بدأت شورية ديمقراطية منذ يومها الأول⁽¹³⁾ عملاً بقوله تعالى : « وشاورهم في الأمر » و قوله أيضاً : « وامرهم شوري بينهم » .

وبعد عليه السلام يقوم بمهام الرئاسة في يوم المسلمين في الصلاة ، ويقودهم في الحرب ويصلح بين المتنازعين منهم ، ويقسم الغنائم والفيء والأفال . واتخذ كتاباً يملي عليهم ما ينزل من الوحي . أما الجند فلم تكن الحاجة ماسة بعد إلى الخداج سجلات وإقامة الدلّاويين .

وأخذت رقعة الاسلام بالتوسيع في اطراف الجزيرة الذاية ، وأمي الرسول ﷺ بعض
صحابه العلماء بتعليم الناس مبادئ الدين الحنيف ، كما عهد ^{لـ} البعض الآخر من يرى فيهم
الكفاءة في الحسابات المالية بجمع المتربيات المالية من البلاد التي تخل أهلها في الاسلام .

وكلنا يعلم ما كان للعصبية القبلية العميماء من تأصل في نفوس العرب آنذاك ، لذلك عمل **رسوله** في زرع الاخاء الاسلامي ليشد به أزر المسلمين ، ويلفthem بشوب يجمع كلمتهم ، ويعي شانهم ، أمة واحدة لا تمييز ولا تفريق بين جميع أفرادها . وقد أعطاهم المثل الناطق فجعل من سليمان الفارسي **أخاً حبيباً** ، ومن بلاط الحبشي **مؤذناً صالحاً** بنسبه . ووصى وهو على رفاس الموت بالتأخي بين المسلمين ، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

جـ - الأثر الاجتماعي :

لا شك أن كل ما يجود به الإنسان من معطيات فكرية هو في سبيل المجتمع « ومن أجل ثورة وتطوره ، والمجتمعات في شتى أنحاء العالم مررت بمراحل انتقالية عدّة . فمن مرحلة البدائية والهمجية ، إلى المرحلة المتأفقة ، إلى المرحلة العلمية الحديثة . والاسلام الذي نسق بين الروح والمادة » فأغار لفترة كريمة إلى التنظيم الاجتماعي في دنيا الانسان الحاضرة « ولم يقتنه التذكرة في اليوم الآخر يوم الحساب الأكبر .

ومن أبرز الآثار الاجتماعية التي ترتب على قيام الحكومة النيوية في المدينة ، تحطيم الطبقة وما بينها من فروق ، ومحاربة الرق والعبودية ، ورفع مستوى المرأة في الأسرة وفي المجتمع ، وللإلغاء الم世人ات وكل ما يؤذن بالإنسان صحيحاً ومعنوياً .

كل ذلك حدىتأسلوب نبوي فريد ، فمنذ أن حل رسول الله بمدينة الأنصار طرق بأقواله وأعماله يقضي على التمييز العنصري ، ويهدى قواعد الكبراء ، ويلغي الفروق الاجتماعية القليلة . واضطاعوا المأذين العادلة لأسس المساوة الحقيقة بين الناس جميعاً .

¹³⁾ المصدر السابق، ص 208.

فأعلن عليه السلام : الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحر على أسود إلا بالتفوي . فالقوى هي الميزان والمعيار للمفاصلة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، ولا وزن في الإسلام بعد للعرق أو الجنس أو اللون .

من هنا انطلق عليه السلام يتدرج في تحرير الرقيق⁽¹⁴⁾ فكل إنسان له الحق في الحياة حراً كريماً ، وليس لأحد من سلطة عليه في حجز حريته . هذا ما جاهد من أجله رسول الله محظياً استرافق الحر واستغلال العبد .

ومن وحي تصرف الإسلام في هذا الشأن بدأ الضمير البشري يسير على خطاه المباركة .

إنسجاماً مع هذه التعاليم التي تكرم الإنسان ، ولا تفرق بين عناصره إلا بقدر ما يقدّم الفرد من التقى والعمل الصالح ، أقر الإسلام للمرأة بأهليتها في الحقوق المدنية والمالية « وجعلها متساوية للرجل في المجال الديني والاجتماعي والأنسانى » وقد بلغ من تكريمتها وانصافها ما لم يبلغه تشريع اجتماعي في القديم ولا في الحديث⁽¹⁵⁾ .

الإماراة

لغة: الأمير » الملك لنفذ أمره ، يُبَيِّنُ الإمارة والأُمَارَةُ والجمع أمراء . وأمر : وَلَى . وأمر الرجل يأمر إذا صار عليهم أميراً . ويقال : أمرَ فلان إذا صُرِّهَ عَلَيْهِ أي أميراً . وبالاتし : أميرة والمصدر : إِمَرَة ، والإماراة . والتأمير : توقيبة الإمارة . وأمير مُؤْمَرٌ : مُؤْمَنٌ ملك⁽¹⁶⁾ .

أما من الناحية الصرفية فكلمة أمير على وزن فعيل « مبالغة لاسم الفاعل « أمر » كقولك « رحيم » إذا أردت المبالغة لاسم الفاعل راحم . وأمير استعملت بصيغة المبالغة لكثرة ما يصدر الأمير من الأوامر .

اصطلاحاً : تطلق هذه اللفظة على الموظف الكبير الذي يكون مسؤولاً عن إدارة منطقة ، أو عن جزء من إدارتها . وقد استعملت للدلالة على معنى « ملك » في كثير من الموضع ، كما هي الحال في اللغة الفرنسية مثلاً ، حيث تدل كلمة Prince إما عن رئيس الدولة » وأما على من دونه من أفراد العائلة المالكة . فهي في عرف الأقدمين أقرب ما يكون ، في اصطلاح اليوم إلى الفاظ : المحافظ أو القائم مقام⁽¹⁷⁾ .

وقد تداول العرب لفظ الأمير منذ يوم السقيفة ، فقال الحباب بن المنذر : « منا أمير ومنهم أمير » ثم اشتقو منها فعلًا فخاطب عمر بن الخطاب الأنصار « إنه والله لا ترضي العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم⁽¹⁸⁾ .

(14) الوحي المحمدي للسيد محمد رشيد رضا ص 253 وما بعدها .

(15) المصدر نفسه ص 245 .

(16) لسان العرب مادة أمر .

(17) راجع نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي لظافر القاسمي .

(18) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ص 7 .

ولما تولى الخلافة استحسن لقب أمير المؤمنين⁽¹⁹⁾ .

وقال الشيخ صبحي الصالح : « لقد كان لقب الأمير من سمات الخلافة حقاً ، إذ كانوا يسمون قادة البعثة باسم الأمير وكان الصحابة يدعون سعد بن أبي وقاص « أمير المؤمنين » لإمارته على جيش القدسية . وعرف الصحابة من رسول الله نفسه إطلاق الكلمة الأمير على من يقود جماعة من المسلمين في الغزو أو الحجج . وكان الأمير في عهده عليه السلام يوم الناس في الصلاة بالإضافة إلى قيادة الجيش أو إشرافه على شؤون الحجيج »⁽²⁰⁾ .

الإمامية

لغة : أم القوم وأم بهم : تقدمهم . والإمام كل من إتّم به قوم كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين . ورد عن ابن الأعرابي في قوله عز وجل : يوم ندعوك كل أنساب بآمامهم ، قالت طائفة بكتابهم » وقال آخرون بنيهم وشرعهم . وقال ابن سيدة : والإمام ما اثّم به من رئيس وغيره ، والجمع أئمّة . وفي التنزيل العزيز : فقاتلوا أئمّة الكفر ، أي قاتلوا رؤساء الكفر وقادتهم . وأئمّت القوم في الصلاة إماماً . وأتّم به أي اقتدى به . والإمام : المثال . قال النابغة : بنُوا مجد الحياة على إمام .

من هنا قالوا : إمام القوم ؛ هو المتقدّم لهم ، ويكون الإمام رئيساً كقولك إمام المسلمين⁽²¹⁾ .

وقد وردت اللفظة في القرآن الكريم مفرداً وجاءاً . قال سبحانه : ﴿وَإِذَا ابْتُلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَهُنَّ﴾ قال : إِنِّي جاعلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾⁽²²⁾ وقال عز وجل : ﴿وَنَرِيدُ أَنْ نُمَنِّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلُهُمْ أَئمَّةً وَنَجْعَلُهُمْ وَارِثِينَ﴾⁽²³⁾ .

كما وردت بصيغة المفرد لكنها تفيد الجمع . قال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبُّنَا هُنَّ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قَرْةُ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَقْبِنِ إِمَاماً﴾⁽²⁴⁾ .

إصطلاحاً : الإمام هي أسلوب من أساليب الحكم في المجتمع الإسلامي ، خضعت ل تعاليم الإسلام ونظمها ومقرراته . وإذا راجعنا أبحاث الفقهاء وجدنا أن كلمة إمام أكثر ما كانت تقرن بموضوع الصلاة ، فالناس يقتدون بآمامهم في كل ما يقول أو يعمل أو يقرر حتى شاع هذا المعنى على ألسنة العامة في مختلف الأجيال .

والإمام في نظر الإسلام دين ودولة تجتمع في آن واحد بين طرفي الدنيا والآخرة لذلك

(19) رابع مقدمة ابن خلدون الفصل 32.

(20) النظم الإسلامية ص 289.

(21) لسان العرب مادة أمم .

(22) البقرة الآية 124.

(23) الفصلن الآية 5.

(24) الفرقان آية 74.

عرفها الماوردي : « الإمامة موضوعة خلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا »⁽²⁵⁾ .

و بهذا المعنى يصبح الإمام خليفة النبي ﷺ يخلفه مقتدياً به في حراسة الدين و حمايته ، وفي سياسة الدنيا بكل ما تتطلب من تشريعات و واجبات تلبى حاجة الإنسان المسعدة له في حياته الفردية والاجتماعية في آن معاً . وقد تحدث ابن خلدون عن النوع الثالث من نظم الحكم « الإمامة » فقال : « هو حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها : إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به ، والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها»⁽²⁶⁾ .

ومهما يكن من أمر فإن الحاكم المسلم ، بأي لقب سماه الناس ، خليفة أو أميراً أو إماماً لا يستطيع أن يتحرر من سلطان الدين الذي يدين به هو والأمة التي بايعته رئيساً عليها .

وبعد هذا العرض السريع تبين لنا أن الألقاب الثلاثة التي أطلقت على رئيس الدولة في الإسلام : الخليفة أو أمير المؤمنين أو الإمام تردد إلى معنى واحد وإن كانت نشأة كل منها قد اختلفت تاريخياً عن نشأة الآخرين⁽²⁷⁾ .

الخلافة ونظمها

الخلافة لغة :

هي مصدر من (خلف) . يقال خلفه خلافة ، كان خليفته ويقي بعده . ومنها خلفت المرأة . أي تركت وراءها من يخلفها ، فالخلافة موضوعة في الأصل لكون الشخص خلفاً لأحد . من هنا كان من يخلف الرسول في إجراء الأحكام الشرعية خليفة ، وأطلق عليه البعض (إماماً) وفيه اختلاف لأن الإمام هو الذي يوم الصلوة تشبيهاً للرسول واقتداء به وليس كل أمام خليفة .

وأما خليفة فلانه يخالف النبي في أمته ، فيقال خليفة باطلاق « خليفة رسول الله » وأجاز بعضهم تسميتها : خليفة الله ، فهو يخلق النبي في أمته ، وذلك اقتباساً من الخلافة العامة التي للأدميين في قوله تعالى : « أني جاعل في الأرض خليفة »⁽²⁸⁾ وقوله : « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض »⁽²⁹⁾ . ومنع أبو بكر عن هذه التسمية قائلاً : لست خليفة الله ،

(25) الأحكام السلطانية ص 3.

(26) المقدمة ص 191.

(27) راجع الإمامة والخلافة للسيد رشيد رضا ص 10 وما بعدها .

(28) الوحي المحمدي للسيد محمد رشيد رضا ص 245.

(29) البقرة الآية 30

ولكني خليفة رسول الله ﷺ ، ولأن الاستخلاف إنما هو في حق الغائب أما الحاضر فلا⁽³⁰⁾ .
الخلافة اصطلاحاً :

هي رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ وفي ذلك يقول ابن خلدون : « والخلافة هي حل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخرى والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به »⁽³¹⁾ .

ومنزلة الخليفة من الأمة كمترلة النبي من المؤمنين ، له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة ، وله حق القيام على دينهم ، فيقيم فيهم حدوده ، وينفذ شرائعه ، وله بالأولى حق القيام على شؤون دنياهما أيضاً ، بيده وحده زمام الأمة ، فكل ولاية مستمدّة منه ، وكل خطبة دينية أو دنيوية متفرعة عن منصبه . فهو الحاكم الزمني والروحي . ولا تتعدي وظيفته الدينية المحافظة على الدين . وباعتباره حامي الدين والذائد عنه ، يستطيع أن يعلن الحرب على الكفار ويعاقب الخارجين على الدين ويؤمّن الناس في الصلاة ، ويلقى خطبة الجمعة .

شروط الخلافة :

الخلافة هي التي تكون نتيجة انتخاب الأمة ويعتها برضاهما ، ويشترط في الشخص المرشح لها أن يكون جاماً لصفات عينها العارفون بالدين ، وشروط لازمة لها وردت على لسان أكثر المؤرخين ، وهي :

(1) العلم ، (2) والعدالة ، على شروطها الجامدة ، (3) والكفاية ، (4) وسلامة الحواس والأعضاء وما يؤثر في الرأي والعمل ، (5) الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبیر المصالح ، (6) الشجاعة والتجلدة ، (7) النسب .
هذا النوع من الخلافة هو خلافة اختيارية .

وقالوا عن آخر : الخلافة الصرافية وهي التي نالها صاحبها بالطلب والقوة ، ويرى الفقهاء انعقادها ولزوم الطاعة لصاحبها⁽³²⁾ .

ويراد بالعلم العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النازل والأحكام الفقهية . وبالعدالة على شروطها الجامدة أن يكون الخليفة صاحب استقامة في السيرة والسلوك متجنبًا المعاصي .

والكفاية يقصد منها أن يكون قادرًا على إقامة الحدود ، بصيراً بالحروب ، كفياً بحمل الناس عليها ، صاحب رأي وتدبیر . والرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبیر مصالح الناس بحكمه وحسن تدبیر والنسب أن يكون من قريش . الشجاعة والتجلدة : المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو لصيانة حقوق المسلمين ورفع كلمتهم .

(30) مقدمة ابن خلدون ص 159 .

(31) المصدر نفسه ..

(32) الأحكام السلطانية للماوردي ص 4 والمقدمة لابن خلدون ص 152

نظريّة الخوارج في الخلافة :

يمكن تلخيص نظريةِهم في الخلافة في أنها حق لكل عربي حر ، وأنه إذا اختير الخليفة فلا يصح له أن ينزل عنها وإذا جاز استحلوا عزله أو قتله إذا اقتضت الضرورة ذلك⁽³³⁾.

ثم ادخلوا شرطاً آخر ، فشرطوا الاسلام والعدل » بدل العروبة والحرية ، ولا سيما حين انضم الى صفوفهم كثير من المسلمين غير العرب الاحرار والأرقاء . فجعلوا حق الخلافة شائعاً بين جميع المسلمين .

نظريّة المرجئة :

نذكر بتعريف المرجئة . سميت هذه الطائفة بالمرجئة ، من الأرجاء وهو التأخير . لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين الى يوم البعث⁽³⁴⁾ . كانوا يتحرجون من إدانة أي مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها . فالعقيدة الأساسية عندهم هي عدم تكفير أي إنسان اعتنق الاسلام ونطق بالشهادتين .

وقد قالوا بالخلافة لبني أمية لأن أفكارهم تتفق تماماً مع أفكار رجال البلاط الاموي ومن يلوذ به .

وبيروال الدولة الاموية أفل نجم طائفة المرجئة ولم تصبح بعد حزباً مستقلاً . وقد ظهر من بينهم أبو حنيفة صاحب المذهب المشهور⁽³⁵⁾ .

نظريّة المعتزلة في الخلافة :

ابتدأت المعتزلة فرقة دينية لا دخل لها في السياسة في أول أمرها ، على عكس ما كان عليه الخوارج والمرجئة ، إلا أنها لم تثبت أن خاخصت غمار السياسة . فتكلمت في الإمامة وشرط الإمام ، يقول المسعودي :

« يذهب المعتزلة إلى أن الإمامة اختيار من الأمة ، وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ، وإن اختيار ذلك مفروض إلى الأمة تختار رجلاً منها ينفذ فيها أحکامه سواء كان قرشياً أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والإيمان . ولم يراعوا في ذلك النسب ولا غيره . وواجب على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك⁽³⁶⁾ .

نظريّة الشيعة في الخلافة :

اعتمد الشيعة في إثبات الخلافة أنها حق لهم ، وفي نظرهم أن علياً هو أحق الخلفاء بها . والأدلة الشرعية تفرض مذهب أهل البيت الذين طهروا الله عز وجل . قال تعالى :

(33) مروج الذهب ج 2 ص 110-111.

(34) تاريخ الاسلام لحسن ابراهيم حسن ص 418 والشيعة بين الاشاعرة والمعتزلة للسيد هاشم الحسني ص 116.

(35) تاريخ الاسلام لحسن ابراهيم ج 1 ص 418.

(36) مروج الذهب ج 2 ص 191 وتاريخ الاسلام السياسي لحسن ابراهيم ج 1 ص 421.

﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجَسُ أَهْلُ الْبَيْتِ وَيَطَهِّرُكُمْ تَطَهِّرًا﴾⁽³⁷⁾.

وتحريف هذه الآية ، آية التطهير ، على أيدي الحفاظ ، أخرجها مسلم في صحيحه عن طريق عائشة : خرج النبي ﷺ وعليه فرط مرجل من شعر أسود فجاء الحسن بن علي عليه السلام فادخله ، ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا⁽³⁸⁾ وأخرج الحديث الترمذى⁽³⁹⁾ وأخرجه الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المتوفى 303 هـ . من طريق سعد بن أبي وقاص⁽⁴⁰⁾ وأخرجه الخطيب من طريق أبي سعيد عن أم سلمة⁽⁴¹⁾ . وأخرجه ابن الأثير عن طريق أم سلمة⁽⁴²⁾ . وعن أنس بن مالك أنها نزلت في رسول الله ﷺ وعلى فاطمة والحسن والحسين عليهم السلام⁽⁴³⁾ .

كما أخرج الحديث الطبرى في ذخائر العقبى ، والحاكم في المستدرك ، وابن كثير في تفسيره ، وابن عساكر في تاريخه ، والشافعى في كفاية الطالب ، وابن عبد ربه في العقد الفريد ، والألوسى في غالبة الموعظ ، وأخرجه الواحدى فى أسباب التزول عن أبي سعيد عن أم سلمة .

والمعتمد الثانى للشيعة هو حديث الثقلين وخطبة النبي ﷺ في عيد الغدير . أخرجه مسلم في صحيحه من طريق زيد بن أرقم قال :

«لما نزل النبي بغدير خم في رجوعه من حجة الوداع وكان في وقت الضحى والحر شديد فأمر الدوحة . ونادى الصلاة جامعة فتجمعنا فخطب خطبة بالغة ثم قال : إن الله تعالى أنزل إلي : ﴿بَلَّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَانْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسْالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُ مِنَ النَّاسِ﴾ . وقد أمرني جبريل عن ربِّي أن أقوم في هذا الشهد وأعلم كلَّ أىض وأسود أنَّ علي بن أبي طالب أخي ، ووصي ، وخلفي ، والإمام بعدى ، فسألت جبريل أن يستعفي لي ربِّي لعلَّى بقلة المتقين وكثرة المؤذن لـي واللائمين لـكثرة ملازمتى لـعلي ، وشدة اقبالى عليه حتى سموى اذنا ، فقال تعالى :

﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يَؤْذِنُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَذْنٌ قُلْ أَذْنُ خَيْرٌ لَكُمْ﴾⁽⁴⁴⁾ ولو شئت أن أسميهم وأدل عليهم لفعلت ولكنني بسترهم قد تكريمت ، معاشر الناس فإنَّ الله قد نصبه ولينا واماً ، وفرض طاعته على كل أحد ماضٍ حكمه جائز قوله ، ملعون من خالقه ، مرحوم

(37) سورة الأحزاب الآية 33.

(38) سورة الأحزاب الآية 33 وصحیح مسلم ج 4 ص 127.

(39) الترمذى ج 4 ص 304.

(40) المختصص ص 4.

(41) الخطيب ج 9 ص 127.

(42) أسد الغابة ج 5 ص 521.

(43) تفسير ابن جرير ج 7 ص 22.

(44) التربة الآية 61.

من صدقه ، اسمعوا وأطيعوا فإن الله مولاكم وعلى أمماكم .

ثم يقول فيها : « افهموا كتاب الله ، ولا تتبعوا مشابهة ولن يفسر ذلك لكم إلا من أنا أخذ بيده شائل بعضه و فعلكم : ان من كنت مولاه فعلي مولاه وموالاته من الله عز وجل أنزلها علىـ . الا وقد أسمعت ، الا وقد أوضحت ، الى آخر خطبته التي رواها الثقة من أبناء الأمة . وما جاء في خطبته عيد الغدير حديث الثقلين . يقول الحديث :

« إني تارك فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى : كتاب الله المددود من السماء إلى الأرض وعثري أهل بيتي ذكركم الله في أهل بيتي فانظروا كيف تختلفون فيهم »⁽⁴⁵⁾ .

علامات الخلافة :

الخلافة الحقة هي تطبيق السنة النبوية تطبيقاً صحيحاً شاملأً ، وهي ترجمة أقوال النبي أعمالاً . وكم هو جميل في كل عصر ومصر ان نوحـد بين القول الحكيم والعمل العظيم . أما العلامات الخارجية التي تشبهوا بها الخلفاء بالنبي فهي :

أـ البردة :

بردة النبي هي لباسه الخارجي يلبسها النبي في استقبالاته الرسمية . وـما يروى أنه ﷺ أعطاها الى كعب بن زهير بن أبي سلمى الشاعر المعروف . وكان كعب قد هجا النبي وفر هارباً من وجه المسلمين . ولما تم فتح مكة على أيدي المسلمين كتب اليه أخوه بجير بن زهير ليعود إلى حضرة النبي تائباً مؤمناً والنبي يصفح عنه ويساعده قال بجير: « وان من بقى من شعراء قريش قد هربوا في كل وجه فإن كانت في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً »⁽⁴⁶⁾ . فجاء كعب المدينة وسلم نفسه إلى النبي ومدحه بقصيدة رائعة مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم إثرها لم يفـد مكبـول

(45) راجع - صحيح مسلم ج 7 ص 122 .

وـ سند أحادي ج 2 ص 14 .

وتاريخ البغدادي ج 8 ص 443 .

ونفسير ابن كثير ج 2 ص 486 .

وـ سنن الترمذى ج 2 ص 308 .

وـ مصابيح السنة ج 2 ص 204 .

وـ المستدرج ج 4 ص 109 .

هذا ويطول بنا الشرح عن هذا الحديث قال ابن حجر في الصواعق المحرقة : وهذا الحديث طرق كثيرة عن بعض وعشرين صحابياً .

كما روـى عن الشافعي أنه قال بوجوب الصلاة على الآل في التشـهد الأخير ، وروـى له قوله :

يا آل بيت رسول الله حـبـكم فـرضـ من الله في القرـآنـ أـنـزلـهـ كـفـاكـمـ منـ عـظـيمـ الـقـدـرـ أـنـكـمـ مـنـ لـمـ يـصـلـ عـلـيـكـمـ لـاـ صـلـاـةـ لـهـ

(46) تاريخ التمدن الإسلامي برجـي زـيدـانـ ج 1 ص 129 .

فأكرمه النبي ومنع القوم أن يأذوه وخلع عليه بردته . وظلت البردة عند أهل كعب حتى اشتراها منهم معاوية بن أبي سفيان « ظناً منه أن يوهم الناس بحقه بالخلافة ، وقد دفع ثمنها أربعين ألف درهم أي ما يعادل ثمانين ألف ليرة لبنانية وتوارثت البردة بعد معاوية الخلفاء الأمويون والعباسيون » وهي الآن من جملة المخلفات النبوية الموجودة في السראי القديمة في الأستانة .

ب - الخاتم :

إنخذه الخلفاء بعد النبي ﷺ تشبهاً به ، فقد كان يكتب إلى كسرى وإلى قيصر يدعوهما إلى الإسلام فقيل له أن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً ، فاخذ خاتماً من فضة نعش عليه « محمد رسول الله » . وما يروى أن هذا الخاتم انتقل إلى أبي بكر ، ثم إلى عمر ، ثم إلى عثمان ، وقد وقع من يد عثمان في بشر إريس ولم يعثر عليه بعد ذلك . فاصطُنِعَ عثمان خاتماً مثله . وكان كل من ولِيَ الخلافة بعده يصطُنِعُ له خاتماً يختتمون به الكتب في أسفل الكتابة وفي أعلىها بالطين أو باللِّدَاد أو الشمع بعد طيها ، وما زال هذا الخاتم يستعمل حتى العصر العباسي . يذكر البلاذري أن زياداً أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم مقلد الملوك الفرس ، فجعل عدة خواتم منها خاتم للسر وخاتم الرسل وخاتم السجلات والاقطاعات وخاتم الخراج⁽⁴⁷⁾ .

وبقي ديوان الخاتم الذي استحدثه زياد معمولاً به حتى أواسط العصور العباسية فأسقط وتحولت مباشرةً الأعمال إلى الأمراء والوزراء وغيرهم . . . ولا أراد الرشيد أن يستوزر جعفر بن يحيى البرمكي بدل الفضل أخيه قال لأبيهما يحيى :

« يا أبا إني أردت أن أحول الخاتم من يحيى إلى شمالي » وهو يعني الوزارة . ولما نشأت السلطات جعل السلاطين علامات السلطة مثل علامات الخلافة وسموها (الطغفاء) وهي نقشة تكتب بخط عريض وفيها ألقاب الملك .

والدولة السلجوقية تسمى ديوان الانتشاء ديوان الطغفاء . والطغرائي الشاعر المعروف كان وزيراً للسلطان السلجوقي وكان خطه جيلاً ، وكان يكتب تلك الطغفاء فلقبوه بها وهو أول من كتبها .

وما يروى أن الخلفاء نقشوا على خواتهم عبارات فيها مواعظ وحكم . فقد كان نقش خاتم أبي بكر « نعم القادر الله » وخاتم عمر « كفى بالملوت واعظاً يا عمر » وخاتم عثمان « لتصبرن أو لتندمن » وخاتم علي « الملك لله » . وجرى على ذلك خلفاء بني أمية وبني العباس ، ولكل منهم فقرة خاصة نقشها على خاتمه . من هذه العبارات : ختم المأمون نقش عليه : « عبد الله يؤمِّن بالله مخلصاً » والوائق كتب على خاتمه : « الله ثقة الوائق » والمتوكل كتب : « على الله توكلت » . والمعتمد : « إعتمادي على الله وهو حسيبي »⁽⁴⁸⁾ .

(47) انظر فتح البلدان البلاذري .

(48) راجع المقدمة لابن خلدون - تاريخ التمدن الإسلامي بحرجي زيدان ونظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي لظافر القاسمي .

ج - القصيبي :

وهو أيضاً من علامات الخلافة ، فإذا تولى الخليفة جاؤه بالبردة والخاتم والقصيبي ، وظل الأمر على ذلك في بني أمية وبني العباس . هذه هي العلامات السائدة للخلافة في ذلك العصر .

أما عن شارات الخلافة فكانت ثلاثة أيضاً .

أ - الخطبة : كان يدعى للخلفاء على المنابر ، وقد كانوا هم أنفسهم يتولون الصلاة بعد اختتامهم فروض الصلاة فيدعون للنبي ﷺ والصحابة . ولما فتحوا البلاد ويعشاوا إليها العمال صار الولاة يتولون إماماً الصلاة في ولاياتهم ويختمونها بالدعاء للخلفاء .

ب - السكة : ومن شارات الخلافة الختم على النقود بطابع من حديد ينечен فيه اسم الخليفة ، ويقال لها السكة ولا بد منها للدولة .

ج - الطراز : وذلك أن يرسم على ثوب الخليفة أو السلطان علامات تختص بهم بخيوط من ذهب وهو أمر معروف في قديم الدول من عهد الفرس والروم . هذه الألبسة الملوكية تدل أن لابسيها من أهل الدولة .

الفصل الثاني

عصر الخلفاء الراشدين

الخلافة الراشدة :

ارشدوا الناس الى الحق فكانوا الراشدين . بعد أن لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى ، وأفاقت شمس النبوة ، لم يصدق العرب انه مات ، ونسوا انه رسول قد خلت من قبله الرسل⁽¹⁾ . فلقد نزل خبر النعي عليهم كالصاعقة . وقد زادهم هولاً شعورهم بالفراغ بعد انطفاء السراج المنير . فمن هو الخليفة الذي يجمع عليه المسلمون ؟ وكيف يتذرون الأمر في مسألة الخلافة وهي شوري بين المسلمين : « وأمركم شوري بينكم ». وكان من الطبيعي أن يطمع في الخلافة كثيرون فالأنصار وبني هاشم والماهجون كلهم يريدون الخلافة .

وهذا أمر طبيعي في نظرة الإنسان الى الحياة الدنيا ، وحب الآخرة في نفسه إذ تحاول كل جماعة ترشيح رئيسها ليتولى زمام أمور المسلمين .

فالأنصار تمثل في الخلافة الى سعد بن عبادة سيد الخزرج⁽²⁾ ولكن سعد لم يكن قادرًا أن يجمع شمل الأوس والخزرج لما بينهما من خلافات مزمنة .

وقال بنو هاشم أن الخلافة من حقهم ، وأولادهم بها علي بن أبي طالب . فهو أفضل الصحابة ، ورفيق رسول الله ﷺ وابن عميه وزوج ابنته فاطمة . كما لا يخفى أنه أول الناس إسلاماً ، فكرم الله وجهه ، وأوسعهم علمًا (أنا مدينة العلم وعلى بابها) فضلاً عن هذا كله يبقى أمر الوصاية له قرب غدير خم أثناء حجة الوداع⁽³⁾ لذلك أقبل العباس عم النبي ﷺ وقال لعلي : « ابسط يدك ولنبياعك »⁽⁴⁾ لكن الأمر الغريب أن الرسول ﷺ لم يدفن بعد ، وعلى مشغول في ذلك . فقباطاً في قبول البيعة . وقد عللوا أمر التباطؤ أيضاً ليزيل من صدور المسلمين ما قد يدخلها من شبهة توارث النبوة بين آل البيت المطهرين .

والماهجون الذين هاجروا مع الرسول ﷺ من مكة الى المدينة كانوا يطلبون الخلافة

(1) الكامل لابن الأثير ج 2 ص 219.

(2) السيرة لابن هشام ج 2 ص 115.

(3) دعائم الاسلام ج 1 ص 25.

(4) النزاع والتناحص للمقرizi ص 6.

ويرغبون في أبي بكر توليهما . فهو من السابقين في الاسلام ووالد زوج الرسول عائشة وصاحب النبي في الغار⁽⁵⁾

خلافة أبي بكر الصديق :
أراد أبو بكر إطفاء نار الفتنة فجاء بحديث وحل به مشكلة الخلافة . يقول الحديث : «الأئمة من قريش»⁽⁶⁾ وحديث آخر ، لعمر بن الخطاب : لا ترضي العرب أن تؤمركم ونبهها من غيركم⁽⁷⁾ .

عند ذلك هب الانصار فقالوا : «منا أمير ومنكم أمير» فأبى المهاجرون وبايع عمر أبو عبيدة أبا بكر⁽⁸⁾ وآلت الخلافة اليه .

خطب أبو بكر في الناس يعلن لل المسلمين دستوره . فأكده لهم في بيانه هذا أنه سيسوسهم في العدل . وأنه مسؤول عنهم أمام الله . وأنه له عليهم حق المشورة والمؤازرة • وقال من على منبر الرسول أول خطبة له جاء فيها :

«يا أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخبيركم » فإن أحسنت فأعينوني « وإن أساءت فقوموني . الصدقأمانة ، والكذب خيانة ، والضعف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله » فإنني عصيت الله ورسوله فلا طاعة عليكم »⁽⁹⁾ .

لقد خلف الرسول ﷺ لأبي بكر في المنطقة الوسطى من الحجاز حكومة قوية تشتمل على مكة والمدينة وكثير من المناطق المجاورة⁽¹⁰⁾ وذلك بعد أن أحل في المجتمع الاسلامي رابطة الدين وإخاء المؤمنين محل العصبية البغيضة والشعور القبلي المقيت⁽¹¹⁾ .

ولكن هذه الوحدة التي اهتم بها الرسول اهتماماً بالغاً ، بدأت تضعف بعد موته « ولا سيما بين القبائل التي لم يدخل الاسلام الى أعماق قلوبها فسمّت الزكاة (إتاوة)⁽¹²⁾ ولما وجدت الفرصة سانحة علقت دفع الزكاة وشجعت روح الانفصال على الظهور أولئك هم أهل الردة . الذين اضطر أبو بكر الى محاربتهم إلا أن يرجعوا الى الدين ويتعبدوا بإقامة أركانه »

(5) الفصل والتحل لابن حزم ج 4 ص 97.

(6) مقدمة ابن خلدون ص 153.

(7) عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص 34.

(8) السيرة النبوية لابن هشام ج 2 ص 1016.

(9) السيرة النبوية لابن هشام ج 2 ص 1017.

(10) السيرة النبوية لابن هشام ج 2 ص 933.

(11) الدعوة الى الاسلام لارنولد ص 42.

(12) الكامل لابن الأثير ج 2 ص 238.

وala yihaduun wa la yisalhuun⁽¹³⁾ .. توفي أبو بكر في 22 جمادى الآخرة سنة 13 هـ . بعد أن قضى على فتنة المرتدين واحرز انتصارات عظيمة في حركة الفتوح .

خلافة عمر بن الخطاب :

قالوا أن أبا بكر أراد أن يجنب فرقة المؤمنين وهم أحوج ما يكونون إلى وحدة الكلمة في تلك الظروف ، فاستشار الصحابة في استخلاف عمر ، فحمدوا له ذلك حتى كأنهم انتخبوا عمر انتخاباً . وكان أن كتب عهداً لعمر بالخلافة تاركاً له بعد وفاته مقاليد الأمور⁽¹⁴⁾ .

ودعي عمر خليفة أبي بكر⁽¹⁵⁾ .

وبعد أن ثاب المرتدون ورجعوا إلى الإسلام لقبه بأمير المؤمنين ، ولقب الأمير عندهم هو من يقود جيشاً أو سرية أو يلي جهة من جهات المسلمين⁽¹⁶⁾ .

ولا شك أن عصر عمر هو مكمل لأبي بكر ، وقد تم في أيامه الكثير من الاصلاحات في الشؤون الإدارية والمالية . حتى قالوا : عمر هو أول من دون الدواوين ، فقد عين رواتب للمقاطلين من أهل الحجاز ولعائلتهم والمنضمين إليهم من عرب الجزيرة عرفت هذه الرواتب بالعطاء⁽¹⁷⁾ وقد قدر ذلك العطاء حسب قرابتهم من النبي ﷺ⁽¹⁸⁾ أو شهودهم بدر الكبري ، أو حضورهم المواقع المشهورة كالقادسية واليرموك⁽¹⁹⁾ .

مجلس شوري :

نَكَرَ عمر في مشكلة الحكم من بعده ، بعد أن طعن أبو لؤلؤة المجوسي في أواخر سنة 23 هـ⁽²⁰⁾ فألاخ عليه المهاجرون أن يستخلف ، فخاف عاقبة الاستخلاف وقال : « إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني » وان أترك فقد ترك من هو خير مني ». وأشار أن يحصر الأمر بيد ستة من كبار أصحاب النبي ﷺ ليختاروا واحداً من بينهم فيأيعه المسلمين ، وهم : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف . وأولئك ألفوا مجلس شوري الدولة الإسلامية وسموا بأهل الشوري⁽²¹⁾ قال عمر لأهل الشوري : « إني نظرت فوجدتكم رؤساء القوم وقدتهم » ولا يُكُونُ الْأَمْرُ إِلَّا فِيهِمْ ». وقد جاء في الكامل :

ومنذ بدء تشاورهم بدا على أكثرهم أنهم يميلون إلى تولية عثمان » لأن عبد الرحمن كان

(13) الأحكام السلطانية للماوردي ص 44 وما بعدها .

(14) النظم الإسلامية للدكتور صبحي الصالح ص 260 . عن الكاحل لابن الأثير ج 2 ص 292 .

(15) تاريخ عمر لابن الجوزي ص 41 .

(16) الفصل لابن حزم ج 4 ص 90

(17) فتوح البلدان للبلاذري ص 449

(18) خراج أبي يوسف ص 50 .

(19) الكامل ج 2 ص 350-351

(20) تاريخ عمر لابن الجوزي ص 152 .

(21) الكامل لابن الأثير ج 3 ص 36 .

صهـرهـ ، وسـعـداـ من أـقـرـبـائـهـ⁽²²⁾ من هـنـا كـانـ عـلـيـ يـعـلـمـ أنـ اـخـتـيـارـ عمرـ هـؤـلـاءـ السـتـةـ لـيـسـ لـصـلـحـتـهـ لـأـنـهـ سـمعـهـ يـقـولـ : إـذـاـ كـنـتـ ثـلـاثـةـ بـثـلـاثـةـ فـمـنـ كـانـ فـيـهـمـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ عـوـفـ هـوـ الـخـلـيـفـةـ .

ثـمـ يـتـابـعـ : وـرـيـاـ زـادـهـمـ تـمـسـكـاـ بـهـذـاـ الرـأـيـ خـوـفـهـ مـنـ اـسـتـحـالـةـ الـخـلـافـةـ إـرـثـاـ لـبـنـيـ هـاشـمـ لـواـخـتـارـواـ عـلـيـاـ كـرـمـ اللهـ وـجـهـهـ⁽²³⁾ .

وـقـدـ رـغـبـ كـلـ مـنـهـ التـخـفـفـ مـنـ حـلـ الـمـسـؤـلـيـةـ الـضـخـمـةـ ، فـخـلـعـ كـلـ نـفـسـهـ وـعـهـدـ الـلـهـ الـآـخـرـ بـاـخـتـيـارـ الـخـلـيـفـةـ⁽²⁴⁾ ، حـتـىـ اـنـتـهـيـ الـأـمـرـ إـلـىـ عـبـدـ الرـحـمـنـ فـأـعـلـمـ فـيـ الـمـحـرـمـ سـنـةـ 24ـ هـ . تـولـيـةـ عـشـمـانـ⁽²⁵⁾ وـسـاءـ الـأـمـرـ بـنـيـ هـاشـمـ وـقـدـ أـبـدـواـ اـمـتـاعـهـمـ لـتـحـامـلـ الـقـومـ عـلـيـهـمـ وـأـنـ وـجـدـ عـلـيـ نـفـسـهـ مـضـطـرـاـ لـمـبـاـيـعـةـ عـشـمـانـ كـمـ بـاـيـعـ مـنـ قـبـلـ أـبـاـ بـكـرـ وـعـمـرـ⁽²⁶⁾ .

خـلـافـةـ عـشـمـانـ وـالـفـتـنـةـ الـكـبـرـىـ :

أـكـمـلـ عـشـمـانـ سـيـاسـةـ عـمـرـ فـيـ حـرـكـةـ الـفـتـحـ وـعـمـلـ عـلـىـ زـيـادـةـ نـشـاطـ أـسـطـوـنـهـ الـذـيـ أـقـلـقـ بـيـزـنـطـيـةـ⁽²⁷⁾ وـجـعـ الـقـرـآنـ وـأـرـسـلـ مـنـهـ النـسـخـ إـلـىـ الـأـمـصـارـ وـمـعـ ذـلـكـ كـلـهـ لـمـ يـكـنـ عـهـدـهـ أـعـهـدـ استـقـرـارـ ، لـأـنـهـ أـضـاعـ نـفـسـهـ بـسـبـبـ تـولـيـةـ أـقـرـبـائـهـ عـمـالـاـ مـكـانـ الـذـينـ وـلـاهـمـ عـمـرـ⁽²⁸⁾ فـتـذـمـرـ أـهـلـ الـأـمـصـارـ وـقـتـنـواـ زـوـاهـمـ . وـأـصـبـحـ عـشـمـانـ مـهـدـدـاـ مـنـ قـبـلـ الـأـكـثـرـيـةـ السـاحـقـةـ . عـلـىـ أـنـهـ كـانـ جـدـيرـاـ أـنـ يـعـمـلـ بـوـصـيـةـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ عـوـفـ الـذـيـ أـخـذـ عـلـيـهـ الـمـيـثـاقـ - قـبـلـ إـعـلـانـ خـلـافـتـهـ - أـلـاـ يـحـمـلـ بـيـ أـمـيـةـ عـلـىـ رـقـابـ النـاسـ⁽²⁹⁾ وـلـكـنـهـ كـانـ ضـعـيفـاـ أـمـامـ ذـوـيـ قـرـيـاـهـ .

لـمـ يـظـهـرـ عـشـمـانـ أـمـامـ الـمـعـارـضـينـ مـنـ عـرـبـ الـأـمـصـارـ إـلـاـ الـضـعـفـ وـالـلـيـنـ وـوـعـدـهـ بـإـصـلاحـ الـأـخـطـاءـ وـاعـتـرـفـ أـنـهـ ثـابـ إـلـىـ اللـهـ⁽³⁰⁾ . وـلـكـنـهـ اـسـتـمـرـ بـوـعـودـهـ دـوـنـ تـفـيـذـ . عـنـدـهـ عـادـ الـتـمـرـدـونـ وـحـاـصـرـوـ دـارـهـ وـأـلـزـمـوـهـ أـنـ يـخـلـعـ نـفـسـهـ مـنـ الـخـلـافـةـ . وـلـاـ رـفـضـ قـتـلـوـهـ وـهـوـ يـقـرـأـ الـقـرـآنـ فـيـ الـمـحـرـابـ⁽³¹⁾ .

خـلـافـةـ عـلـيـ :

وـبـعـدـ مـقـتـلـ عـشـمـانـ هـرـعـ النـاسـ إـلـىـ عـلـيـ يـطـلـبـونـ تـولـيـهـ . فـرـفـضـ أـوـلـ الـأـمـرـ لـأـنـهـ يـعـلـمـ مـنـ أـمـرـ الـمـسـلـمـينـ مـاـ يـعـلـمـ . فـلـمـ يـجـدـ بـدـأـ مـنـ قـبـلـ الـخـلـافـةـ . وـقـدـ عـرـضـهـاـ عـلـيـهـ أـهـلـ بـدـرـ

(22) الكـاملـ جـ 3ـ صـ 38ـ وـصـ 35ـ .

(23) الكـاملـ جـ 3ـ صـ 37ـ .

(24) الأـحـكـامـ السـلـطـانـيـةـ لـلـمـاـورـدـيـ صـ 9ـ .

(25) مـقـدـمـةـ اـبـنـ خـلـدونـ صـ 166ـ .

(26) أـنـسـابـ الـأـشـرـافـ جـ 5ـ صـ 22ـ .

(27) الكـاملـ جـ 3ـ صـ 58ـ .

(28) أـنـسـابـ الـأـشـرـافـ جـ 5ـ صـ 22ـ .

(29) أـنـسـابـ الـأـشـرـافـ جـ 5ـ صـ 22ـ .

(30) أـنـسـابـ الـأـشـرـافـ جـ 5ـ صـ 46ـ .

(31) الكـاملـ جـ 3ـ صـ 85ـ وـأـنـسـابـ الـأـشـرـافـ جـ 5ـ صـ 83ـ .

والهاجرون والأنصار⁽³²⁾ وأطلق عليه شيعته لقب « الإمام »⁽³³⁾ وذلك تأكيداً لسلطاته الدينية حين يوم المسلمين في الصلاة⁽³⁴⁾ .

حرض الثوار علياً على عزل العمال الذين عينهم عثمان ، فأذعنوا جميعاً إلا معاوية وإلي الشام الذي علق على المنبر قميص عثمان وطقق يخص الناس على الثار للخليفة المقتول⁽³⁵⁾ .

وعندما سار علي إلى العراق خرجت السيدة عائشة بعوانها أنصارها لشن الحرب على الإمام علي وعنهم طلحة والزبير وأخذت تمحس الجندي ، وهي في هردهجها على الجمل ، فانتصر علي في هذه المعركة وعقر جمل السيدة عائشة وقتل دونه سبعون رجلاً ، وقد عرف ذلك اليوم بوقعة الجمل . فما كان من علي ، وهو المعروف بحلمه ونبيله ، إلا أن يعيد عائشة إلى مكة محاطة بالتكريم ، وقد ثابت بعد هذه الموقعة إلى الله آسفه على الضحايا التي أريقت دماؤهن⁽³⁶⁾ .

وبعد الجمل كان يوم صفين ، وكان التحكيم وبدأ الوهن والتصدع يظهر بين أتباع علي ، وعرف معاوية كيف يتنهز الفرص لإثارة الاضطرابات في أرجاء البلاد⁽³⁷⁾ فازدادت نفقة الخوارج وقررها قتل معاوية وعلى ، فلم ينجحوا في قتل أولئك⁽³⁸⁾ أما علي فقد قتله عبد الرحمن بن ملجم في المسجد في شهر رمضان . وفي مصرع علي انتهت خلافة الراشدين ، وخلال الجو معاوية ليعلن خلافته بالشام⁽³⁹⁾ ولا يخفى أنه أدخل مبدأ الوراثة على نظام الحكم ، ذلك المبدأ الذي ينافي روح الإسلام والذي حاربه رسول الله ونبي

الوزارة :

معنى الوزارة :

كلمة الوزير مشتقة من الوزر ، والوزر الثقل أو العبء ، لأن الوزير يتحمل أثقال الحكم وأعباء الوزارة . وقد ورد اللفظ في القرآن الكريم بمعانٍ متشابهة .

قال تعالى : ﴿ كَلَا لَا وزرٌ إِلَيْ رَبِّكَ يُوْمَئِلُ . الْمُسْتَقْرِئُ ﴾⁽⁴⁰⁾ والوزر هو المتعصم⁽⁴¹⁾ فالناس يلتجأون إلى الوزير في أمورهم المعاشية .

و بهذا المعنى طلب النبي موسى من ربه المناصرة والمُؤازرة . فقال : « واجعل لي وزيراً

(32) العقد الفريد ج 2 ص 398.

(33) الكامل ج 3 ص 98.

(34) مقدمة ابن خلدون ص 179.

(35) الأمامة والسياسة لابن قتيبة ج 1 ص 133.

(36) الكامل ج 3 ص 138.

(37) المرجع نفسه .

(38) المرجع نفسه .

(38) بـ(المرجع نفسه ص 178).

(39) القيامة الآية 11.

(40) الأحكام السلطانية ص 13.

من أهلي . هارون أخي . أشدد به أزري . . .⁽⁴¹⁾
فالوزير هنا يعني النصير الذي يتحمل الأعباء عن أخيه .

ولو تبعنا استعمال لفظ وزير في المصادر لوجدنا أنه قد تعدد المنصب الاستشاري ،
إلى المناصب الفعلية التي تستطيع التصرف في سياسة الدولة .

من ذلك ما جاء في رسالة وجهها محمد بن الحنفية إلى مالك الأشتر جاء فيها : « أما
بعد » فإني قد بعثت إليكم بوزيري وأميبي ونجبي الذي ارتضيته لنفسي ، وقد أمرته بقتال
عدوي » والطلب بدماء أهل بيتي » فانهض معه بنفسك ، وعشيرتك ، ومن أطاعك⁽⁴²⁾ .
فهذا كلمة وزير تعني المندوب المطلق الصلاحية ، الذي يمثل الإمام والذي توجب طاعته في
كل ما يأمر .

وجاء في اللسان : الوزير : حباً الملك ، الذي يحمل ثقله ويعينه برأيه . والحبأ :
جليس الملك وخاصته . وحالته الوزارة والوزارة .

وقيل لوزير السلطان وزير ، لأنه يزر عن السلطان أثقال ما أسنده إليه من تدبير
المملكة . فالوزير هو الموازن .

وفي دائرة المعارف الإسلامية : كلمة وزير معناها الحاكم أو المقرر . وهي من أصل
فارسي . أما أحمد أمين ، فقد رجح أن أصل الكلمة عربي ومعناه الأمر أو التقرير⁽⁴³⁾ .

تاريخ الوزارة :
سلك الرسول ﷺ الطريق السليم في سياسة الرعية فكان يشاور أصحابه في المشكلات
الصلاحية التي تتعرضه عملاً بقوله تعالى : « وشاورهم في الأمر ». .
ومن المعروف أن عمر كان وزيراً لأبي بكر ، يوزع الزكاة ويقضى بين الناس بأمر من
ال الخليفة .

وعثمان عمل وزيراً لل الخليفة عمر ، فقد كان من أصحاب المعرفة بالأنساب وأحوال
القبائل وعلى كأن وزيراً للنبي ﷺ (44) ومستشاراً في عهد الخلفاء الثلاثة وعلى الأخضر في عهد
ال الخليفة عمر ، فهو المعروف ببلاغته وفقهه في الدين وذكائه في أحوال وشؤون الناس .

والفرس عرموا مثل هذا اللقب ولربما أخذه العرب عنهم . لكن أبهة الملك كانت بعيدة
عن هؤلاء الخلفاء والوزراء . فقد امتازت حياتهم بالبساطة في جميع مظاهرهم ، فالتحقى
والورع والزهد والتشفى من سلوكيهم ومن صفاتهم في أقوالهم وأعمالهم .

كان لل الخليفة مجلس شيوخ يستعين به في تنظيم أمور الدولة وفي تحطيط مشاريعها

(41) طه الآية 29.

(42) الطبرى ج 6 ص 16.

(43) ضحي الإسلام لأحمد أمين ج 1 ص 172 .

(44) ابن أبي الحديد في شرح النهج ج 1 ص 49.

الاصلاحية والتنظيمية في جميع الميادين . هذا المجلس يتالف من رؤساء القبائل وأعيان القسم وكبار الصحابة ، لا سيما الذين رافقوا الرسول في حله وترحاله » وقد كانوا يتحلون بالنظرة الصائبة والعقل الراجح . وبهذا كان الحكم في إجماليه قريباً من النظام الديمقراطي ، أما في العهد الأموي فقد أصبح الحكم ضرباً من الملكية الوراثية ، كان لا بد للخلفاء من استشارة أصحاب الرأي ليتحملوا معهم بعض الأعباء ، لكنهم لم يصطلحوا على تسمية أي واحد من هؤلاء وزيراً بشكل رسمي « ما عدا زيد بن أبيه الذي لقب بالوزير في عهد معاوية بن أبي سفيان(45) .

في نهاية العصر الأموي اتجهت الادارة نحو التمركز فقد بدأ الخليفة يتخذ لنفسه كتاباً ، حتى أصبح الوزير خلفاً للكاتب الأموي في أواخر عصر بني أمية(46) .

وفي العصر العباسي استحدث منصب الوزير ، وما يظهر أن أبو العباس حين أقر نظام الوزارة راعى تطور الدولة واتجاهها نحو التمركز وتوزيع السلطات ، وربما تم ذلك بتعريض من الفرس وتأثير الخراسانيين ، لأنهم كانوا أنصاراً طبيعيين للعباسيين « إذ أنهم دعوا أبو سلمة الخلال « وزير آل محمد» وقد أقره العباس على منصبه وتسميته . وظل العباسيون يطبقون نظام الوزارة بأبسط صورة طوال العصر العباسي الأول .

فأبو سلمة الخلال مثلاً - مع أنه سمي وزيراً - لم يكن يتمتع بصلاحيات كاملة في جميع الدواوين ، فلم يكن ديوان الخارج وديوان الجند مثلاً داخلين في سلطته ، بل كان كل منها في يد خالد بن برمك .

من هنا نرى كيف أن خالد بن برمك رفض أن يلقب بالوزير بعد مصرع الخلال ، مع أنه خلفه في مهام منصبه .

أما صلاحيات الوزير فلم تكن محددة ، ولذلك كثيراً ما كان يقع التصادم بين سلطة الخليفة من نحو سلطة الوزير من نحو آخر « وأما عن سلطة الخليفة فهي واضحة إذ كان يعتبر الوزير مساعداً له ليس غير . وطبعي أن سلطة الخليفة هي التي ثبتت في النهاية بعد وقوع الصدام » وإذا ما استعرضنا تاريخ الوزارة في العصر العباسي كالمتصور مثلاً فإننا لا نجد وزيراً دائياً ، بل مرة نجد وزيراً ، وأخرى نجد كتاباً . وأكثر الذين شغلوا هذا المنصب كانوا من المولى ، وقد آثرهم على العرب لذاتهم في الكتابة ومهاراتهم في الإداره ، يقول المورياني : « ليس من شيء إلا نظرت فيه إلا الفقه ، وقد نظرت في الكيمياء والطب والنجوم والحساب وحق السحر»(47) .

والمتصور استفاد من تجربة السفاح مع وزيره الخلال فلم يعط وزرائه كثيراً من النفوذ

(45) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 259 والكاملي ج 3 ص 244.

(46) الحضارة العربية ص 26.

(47) الحضارة العربية ص 27 والمورياني كان وزيراً من هؤلاء الذين أشرنا إليهم » وهو يعني بقوله هذا أن الوزير كان يعني بتوسیع ثقافته الى أبعد الحدود .

القتال عنه وان الأصل أن يؤخذ من كل غير مسلم بدل عسكري هو الجزية إلا إذا ارتكب
أن يقاتل مع المسلمين ، وهذا متروك للمسلمين إذا وثقوا به .

الغنية :

الغنية معناها اللغوي مأخوذ من الفوز بالشيء⁽³¹⁾ ومعناها الاصطلاحي مشتق من
المعنى اللغوي وهي مال من أموال الكفار ظفر به المؤمنون على وجه الغلبة والقهر⁽³²⁾
ويعد أن تجمع الغنائم يقسمها الإمام خمسة أقسام ، ثم يتناول خمساً منها ، خمسة أسهم
بين أهل الخمس المذكورين في قوله تعالى : « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسة
ولرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »⁽³³⁾ .

والأسماء الخمسة في هذا الخمس أحدها سهم للرسول ينفقه في مصالحه ومصالح بيته
وما يراه بعد ذلك من مصالح المؤمنين ، وقد سقط هذا السهم بعد موته .

والسهم الثاني لذوى القربى النبي من بنى هاشم وبنى عبد المطلب . والسهم الثالث
لليتامى ، والسهم الرابع للمساكين ذوى الحاجة من المسلمين ، والسهم الخامس لابن السبيل
المسافر المنقطع عن بلده ، والأخmas الأربعة الباقين للغافرين⁽³⁴⁾ .

والإمام له الحق ام آثر أن يمن على الأسرى بالحرية فله ذلك⁽³⁵⁾ كما له أن يقتلهم جميعاً
إن وجد أن المصلحة في قتلهم ل مقابلة العدد بالمثل في بعض الحالات . غير أن الأخمس
الأربعة « ملك الغافرين » نظمها الرسول ﷺ بالعدل بين المقاتلين فأعطى الفارس ثلاثة أسهم
والراجل سهماً واحداً⁽³⁶⁾ .

والغنية تقسم إلى أربعة أقسام : الأسرى والسباء والأراضي والأموال .

فالأسرى : كل حارب وقع أسيراً ، والسباء : يراد به النساء والأطفال فلا يجوز أن
يقتلوا ، ولا سيما إذا كانوا من الذميين . أما الأرض التي استولى عليها المسلمون عنوة وقهراً ،
فتقسم بين الغافرين إلا أن يطبووا نفساً بتركها فتتجعل وقفاً على مصالح المسلمين⁽³⁷⁾ .

هذا التقسيم كان يحدث بلا ريب بعد انتهاء الحرب ولا بد من الانتظار حتى تضع
الحرب أوزارها وذلك حتى لا يتشغل المسلمون بالأسلاب ويتلهرون عن إحراز النصر .
ويدخل في باب الغنية ، وربما أصبح ملكاً لساشه . وما ييدو أن هذا العمل يعتبر تشجيعاً
لبعض المؤمنين على البلاء الحسن في القتال . وجاء في الحديث : « من قتل قتيلاً فله سببه »
والقتيل من الكفار الذين آذوا المؤمنين ووقفوا في طريق الإسلام .

(31) القاموس المحيط (للفيرزابادي) باب الميم فصل الغين (غم) ص 121 وكتاب الأم للشافعى ج 4 ص 64 .

(32) سورة الأنفال الآية 41 .

(33) تفسير الجلالين ص 240 .

(34) أحكام أهل الذمة تحقيق الدكتور صبحي الصالح ص 16 .

(35) أنظر أحكام الماوردي ص 132 وأحكام أبي يعلي ص 134 .

للحسب والأدب والسياسة ، داعياً للأشرار ، طارداً للأخبار . . . (51) .

وفي عصر البوهرين اكتسبت الوزارة صفة عسكرية حربية ، فكان للوزير سلطة قيادة الجيش وتوجيهه الى الواقع الحربي . ووضع الخطط أثناء الحرب . قسمت الوزارة في عهد العباسين الى قسمين :

1 - وزارة تنفيذ . 2 - وزارة تفويض .

فوزارة التنفيذ تنفذ أوامر الخلافة ولا يحق للوزير أن يتصرف في أمر إلا بعلم الخليفة فهو همزة وصل بين الإمام وبين الشعب (52) .

قال ابن طباطبا صاحب كتاب الفخرى في الآداب السلطانية :

« الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون في طبعه شطر تناسب طباع الملوك » وشطر يناسب طباع العوام ، ليعامل كلاماً من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة ، والأمانة والصدق رأس ماله .

قيل إذا خان السفير ، بطل التدبير . وقيل ليس لمكذوب رأي . والكافعة والشهامة من مهماته . والفطنة والتيقظ والدعاء والحزم من ضرورياته ولا يستغني أن يكون مفضلاً مطعاماً ، ليستميل بذلك الأعناق . ول يكن مشكوراً بكل لسان (53) .

وإذا لاحظنا التعريف الذي أورده العلماء لوزير التنفيذ ، لوحظنا أن عمله دائم حيناً ومؤقت حيناً آخر ، فهو أشبه بصاحب البريد . ومن ناحية أخرى كان يتمتع باختصاصات عملية . قال الماوردي في أحکامه :

« وأما وزارة التنفيذ فحكمها أضعف ، وشروطها أقل : لأن النظر فيها مقصور على رأي الإمام وتدبيره . وهذا الوزير وسيط ، يؤدي عنه ما أمر ، وينفذ عنه ما ذكر ، ويقضي ما حكم . فهو معين في تنفيذ الأمور ، وليس بوالي عليها ، ولا متقلداً لها .

فإن شورك في الرأي كان باسم الوزارة أخص ، وإن لم يشارك فيه كان باسم الوساطة والسفارة أشبه (54) .

وزير التنفيذ لما تلاحظ له صلة بالخلافة غير أنه لا يحق له أن يبادر أى أمر من الأمور من رأيه أو اجتهاده ، بل هو أداة لتبليل أوامر الخليفة ، وإعلامه بأحوال خلافته .

أما الطريقة التي كان يعين بها وزير التنفيذ فقد أخبرنا عنها الماوردي فقال : « وليس تفتقر هذه الوزارة إلى تقليد ، وإنما يراعي فيها مجرد الإذن » وأما عن صفات المرشح لمنصب وزير قالوا عنها :

(51) المصدر نفسه ص 127.

(52) أحکام الماوردي ص 25.

(53) الفخرى في الآداب السلطانية لابن طباطبا ص 121.

(54) الماوردي ص 25.

« ولا تعتبر في المؤهل لها الحرية ولا العلم ، لأنه ليس له أن ينفرد بولاية ولا تقليل
فتعتبر فيه الحرية ، ولا يجوز له أن يحكم فيعتبر فيه العلم . وإنما هو مقصور النظر على
أمررين : أحدهما أن يؤدي إلى الخليفة . والثاني : أن يؤدي عنه⁽⁵⁵⁾ .

فظاهر النصوص يفيد أن لفظ وزير تنفيذ لم يكن يطلق إلا من كانت له مشاركة في
الرأي ، وإلا سمي وسيطاً أو سفيراً .

شروط تعين وزير التنفيذ

وأبويعلي عندما ذكر وزارة التنفيذ لاحظ في شروط تعين الوزير أوصافاً عدّة :

1 - الأمانة فلا يجوز للوزير أن يخون أو يغش فيها قد إثمن عليه واستنصر به .

2 - الصدق . وذلك حتى يكون موضع ثقة فيها أُسند إليه من أمر أو نهي .

3 - قلة الطمع حتى لا يرتشي ولا ينخدع .

4 - أن يسلم فيها بيته وبين الناس من عداوة وشحنته ، فإن العداوة تصد عن التناصف وقمع
من التعاطف .

5 - أن يكون ذكراً لما يؤديه للخليفة وعنده ، لأنه شاهد له وعليه .

6 - أن يكون ذكياً حتى لا تدلّس عليه الأمور فتشتبه ، ولا تموه عليه فتلبس .

7 - ألا يكون من أهل الأهواء فيخرجه المهوى من الحق إلى الباطل .

8 - أن يؤمن الحنكة والتجربة التي تؤديه إلى صواب التدبير إن كان مشاركاً في الرأي⁽⁵⁶⁾ .

وقد حرموا وزارة التنفيذ على المرأة » وأجازوها لأهل الذمة فقالوا : « ولا يجوز أن تقوم
بذلك امرأة » وإن كان خبرها مقبولاً ، لقول النبي ﷺ : « ما أفلح قوم أُسندوا أمرهم إلى
امرأة » ولأن في أمر الولايات من طلب الرأي » وثبت العزم ما تضعف عنه النساء ، ومن
الظهور في مباشرة الأمور ما هو عليهم محظوظ .

« ويجوز أن يكون وزير التنفيذ من أهل الذمة ، وإن لم يجز أن يكون وزير التفويض

منهم⁽⁵⁷⁾ .

2 - وزارة التفويض

وضع علماء السياسة الشرعية مبادئ عامة لتوسيع الوزارة أخذوها عن السوابق التاريخية
ومن دواعي العقل ومستلزمات العمل فقالوا : « وزارة التفويض هي أن يستوزر الإمام من
يفوض إليه تدبير الأمور برأيه » وامضاعها على اجتهاده . فيعتبر في تقليد هذه الوزارة شروط
الإمامية ، وهو أن يكون من أهل الكفاية فيها وكل إليه من أمر الحرب والخروج خبيراً بها .
فإنه مباشر لها تارة بنفسه ، وتارة يستنيب فيها ، ولا يصل إلى استنابة الكفاية إلا أن يكون
منهم ، كما لا يقدر على المباشرة إذا قصر عنهم .

(55) المصدر نفسه ص 25.

(56) أحكام الماوردي ص 16.

(57) المصدر نفسه ص 27.

وروى الماوردي كتاباً عن المأمون قيل أنه كتبه في الشروط الجامعة لوزير التفويض .

قال :

«إني التمست لأموري رجلاً جاماً لخصاله الخير ، ذا عفة في خلافه ، واستقامة في طرائقه ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب . إن اغتن عن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها . يسكنه الحلم ، وينطقه العلم ، وتكفيه اللحظة ، وتغنيه اللهمحة . له صوت الأمراء ، وأنة الحكماء ، وتواضع العلماء » وفهم الفقهاء . إن أحسن إليه شكر ، وإن ابتلي بالإساءة صبر لا يبع نصيب يومه بحرمان غده . يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه »⁽⁵⁸⁾ ..

هذه الشروط الجامعة لوزير التفويض أو نائب الخليفة وإن كملت فيه ، تبقيه بعيداً عن الامام ويبقى بلا ريب فروق بين الوزير والأمام دل الماوردي على هذه الفروق بشرطين :

1 - أحدهما يختص بالوزير : وهو مطالعة الامام لما أمضاه من تدبير وأنفذ من ولاية وتقليد ، لثلا يصير بالاستبداد كالأمام .

2 - والثاني يخص بالإمام : وهو أن يتضمن فأفعال الوزير ، وتدبيره الأمور ، ليقر منها ما وافق الصواب ، ويستدرك ما خالفه ، لأن تدبير الأمة إليه موكول . وعلى اجتهاده محمول »⁽⁵⁹⁾ .

وما يبدو أن هذا الافتراض الذي تدعوه إليه السياسة وحسن العلاقات بين الامام والوزير لم يكن مرعياً دواماً ، وربما استبدل الوزير فعلًا بكل شؤون الدولة وحجز الخليفة أو حبسه في قصره ومنع الناس من الدخول إليه . من ذلك ما رواه السيوطي في تاريخ الخلفاء قال : «... انحدر المعتمد على الله إلى سامرا ، فتلقاء صاعد بن خلدون الموفق (أخي المعتمد) فأنزله في دار أحمد بن الخطيب ، ومنعه من نزول دار الخلافة ، ووكل به خمسة رجال يمنعون من الدخول إليه ... وأقام صاعد في خدمة المعتمد ، ولكن ليس للمعتمد حلولاً ربط . وقال المعتمد في ذلك :

اليس من العجائب أن مثلـي
يسرى ما قـلّ مـتنـعـاً عـلـيـهـ؟
وـتـؤـخـذـ سـاسـهـ الدـنـيـاـ جـيـعـاـ
وـمـاـ مـنـ ذـاكـ شـيـءـ فـيـ يـدـيـهـ؟
إـلـيـهـ تـحـمـلـ الـأـمـوـالـ طـرـاـ
وـيـنـعـ بـعـضـ مـاـ يـسـبـيـنـ إـلـيـهـ!

» وهو أول خليفة قهر ، وحجر عليه ، ووكل به »⁽⁶⁰⁾ .

وأمثال ذلك كثير وهذه قصة برواية ابراهيم بن المهدي تعد ثروذجاً لما تمع به بعض الوزراء من صلاحيات بعيدة الحدود . جاء في العقد الفريد : ابراهيم بن المهدي وجعفر بن بحبي وعبد الملك بن صالح .

(58) الأحكام السلطانية ص 23.

(59) المصدر نفسه ص 24 .

(60) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص 365 .

خلا جعفر بن يحيى في منزله يوماً مع ندامائه وكان ابراهيم معهم . ثم قدم إليهم الطعام فطعموا ولا غسلوا أيديهم خلع عليهم ثياب الم Nademah وضمخوا بالخلوق وأمضوا أسر يوم مر معهم . ثم تذكر جعفر حاجة فدعا الحاجب وقال له : « إذا جاء عبد الملك الظاهر فأذن له ، فنسى الحاجب » وجاء عبد الملك بن صالح الماشمي على جلالته وسنه وقدره وأدبه « فأذن له الحاجب . فما رأينا إلا طلعة عبد الملك بن صالح ، فتغير لذلك وجه جعفر بن يحيى ، وتتفقّص عليه ما كان فيه . فلما نظر إليه عبد الملك على تلك الحالة دعا غلامه فدفع إليه سيفه وسواه وعماته ، ثم جاء فوق على باب المجلس فقال : أصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم . قال : فجاء الغلام فطرح عليه ثياب الم Nademah ، ودعا بطعم فطعم ، ثم دعا بالشراب فشرب ثلاثة ثم قال : ليخفف عنِّي شيءٌ ما شربته قط . فتهلل وجه جعفر فرحاً . وقد كان الرشيد حاور عبد الملك على الم Nademah فأبى ذلك وتنتزه عنه . ثم قال له جعفر ابن يحيى :

جعلني الله فداك ، قد تفضلت وتطلوت وأسعدت ، فهل من حاجة تبلغها مقدري ، وتحيط بها نعمتي فأفضيها لك مكافأة لما صنعت ؟ قال : بلى ، ان قلب أمير المؤمنين عاتب علي « فسأله الرضا عنِّي . فقال : قد رضى عنك أمير المؤمنين .

ثم قال : وعلى أربعة آلاف دينار : قال هي حاضرة ، ولكن من مال أمير المؤمنين أحب إلى من ملي .

قال : وابي ابراهيم أحب أن أشد ظهره بمصاورة أمير المؤمنين . قال : قد زوجه أمير المؤمنين ابنته عائشة الغالية .

قال : وأحب أن تتحقق الألوية على رأسه بولادة . قال : قد ولاه أمير المؤمنين مصر .

قال : فانصرف عبد الملك ونحن نعجب من إقدام جعفر على الرشيد من غير استئذان فلما كان الغد وقفنا على باب أمير المؤمنين ، ودخل جعفر . فلم يثبت أن دعا بأبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وابراهيم بن عبد الملك ، فعقد له النكاح وحملت البدر إلى عبد الملك وكتب سجل إبراهيم على مصر . وخرج جعفر فأشار إلينا ، فلما صار إلى منزله ونحن خلفه ، نزل ونزلنا بنزوله . فالتفت علينا ، فقال : تعلقت قلوبكم بأول أمر عبد الملك فأحبابكم أن تعرفوا آخره ، وإنما لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه سأله عن أمسى فابتدأت أحدهُ بالقصة من أولها إلى آخرها ، فجعل يقسّو : أحسن والله ، أحسن والله ! (61) .

في هذا الخبر التزم جعفر بما أورده الماوردي فاطلع أمير المؤمنين على ما أبرم . ولكن قاضي الوزير وتطاوله على صلاحيات الخليفة أمر غريب عجيب ! إلا أن مرد ذلك إلى ما كان يتمتع به جعفر بن يحيى من ثقة الخليفة هارون الرشيد ، ولما آنس فيه تسلمه مفاتيح أبواب الحكم عنده . ولكن على الرغم من هذا التفويض المطلق ، فإن العلماء قد نصوا أموراً ثلاثة

(61) العقد الفريد ج 5 ص 72

لا يصح لوزير التفويض أن يقوم بها قال الماوردي :
 « يجوز لهذا الوزير أن يحكم بنفسه ، وأن يقلد الحكم » كما يجوز للإمام لأن شروط
 الحكم فيه معتبرة . . . وكل ما صح من الإمام ، صح من الوزير ، إلا ثلاثة أشياء :
 أحدها : ولادة العهد ، فإن للإمام أن يعهد إلى من يرى ، وليس ذلك إلى الوزير .
 الثاني : إن للإمام أن يستعفي الأمة من الإمامة ، وليس ذلك للوزير .
 والثالث : إن للإمام أن يعزل من قلده الوزير ، وليس للوزير أن يعزل من قلده
 الإمام .

« وما سوى هذه الثلاثة فحكم التفويض إليه يتضمن جواز فعله ، وصحة نسخه

منه » (62) .

الفروق بين الوزارتين

والآن نذكر الفروق بين الوزارتين :

أولاً : يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر في المظالم ، وليس ذلك من حق وزير التنفيذ .

ثانياً : يجوز لوزير التفويض أن يستبد برأيه في تقليد الولاية ولاياتهم .

ثالثاً : يحق لوزير التفويض أن ينفرد بتسخير الجيوش وتدبير الحروب ووضع الخطط العسكرية .

رابعاً : يجوز لوزير التفويض أن يتصرف في بيت المال بالقبض والدفع)63(.

وما عدا هذه الأوصاف الأربع ليس ما يمنع لأهل الذمة من تقلد الوزارة .

الكتابة :

لما عجز الوزير بمفرده عن القيام بجميع ما عهد إليه من السلطات كان لا بد له من كاتب يساعدته في تيسير الأمور ، بالإضافة إلى موظفين كبار ، يعملون في إدارة شؤون الدولة . من هنا نشأت وظيفة الكتابة وأصبح الكاتب من أكبر أعوان الخليفة والوزير .

وكما أسلفنا أن النبي ﷺ أول من اخترع كتاباً يكتتبون له الوحي . ثم أمسوا يقوسون على تعاقب الزمان بأعمال تشبه أعمال الوزراء . من هؤلاء الكتاب في العصر النبوي علي بن أبي طالب ، وعمر بن الخطاب ، وزيد بن ثابت ، وعثمان بن عفان ، والمغيرة بن شعبة . ولا كان السواد الأعظم من الناس في صدر الإسلام لا يحسنون الكتابة والقراءة عرفاً هؤلاء بالكتاب أو الخطاط .

وهذه وصية علي بن أبي طالب لعبد الله بن أبي رافع ، قال :
 يا عبد الله ، ألق دواتك وأطل شباء قلمك ، وفرج بين السطور ، وقمط بين
 الحروف » .

(62) الأحكام السلطانية ص 25.

(63) أحكام أبي يعلي ص 16 والأحكام السلطانية ص 27.

وفي عهد الأمويين تنوّعت وظيفة الكتاب وتخصص كل منهم في مجال معين ، فكانوا خمسة أصناف منهم كتاب للرسائل ، وكتاب للخارج ، وكتاب للجند ، وكتاب للشرطة ، وكتاب للقضاء ، أما أعظمهم فكانوا كتاب الرسائل لأنّه موضع أسرار الدولة . غالباً ما كانوا من ذوي أصحاب الدولة وخاصتهم جرأاً على رواية العادات القبلية .

أما في العصور العباسية فقد حرص الخلفاء على أن يتولى كتابة الرسائل الذين يتّمّون إلى نسب رفيع ، ويتعلّمون بسعة العلم وعمق الثقافة . وقد يعادل مركز الكاتب مركز الوزير ، فهو الذي يحرر الرسائل الداخلية والخارجية الرسمية ، وهو الذي ينشر المراسيم والقرارات والبلاغات ، وقد يجلس مع الخليفة على منصة القضاء لينظر في الدعاوى . ويختتمها أخيراً بخاتم الخليفة⁽⁶⁴⁾ .

وفي ذلك ألف الجهشياري كتاباً قيّماً في موضوع الكتابة والوزارة يقول فيه : « وكانت ملوك فارس تسمى كتاب الرسائل ترجمة الملوك وكانوا يقولون لهم : لا تحملنكم الرغبة في تخفيف الكلام والإيجاز فيه على حذف معانيه وترك ترتيبه وتوهين حجمه⁽⁶⁵⁾ .

فالكتاب ترجمة الملوك على حد قول الجهشياري في العصر العباسى كما كانوا قبل في عصر الأكاسرة الفارسيين .

من هؤلاء الذين اشتهروا في هذا الحقل يحيى بن خالد بن برمك ، والفضل والحسن ابن سهل ، وأحمد بن يوسف في عهد المأمون ، ومحمد بن عبد الملك الزيت ، والحسن بن وهب ، وأحمد بن المديري في عهد المعتصم والواثق . وقد رسم لنا ابن خلدون صورة صادقة عن الأعمال التي كان يقوم بها الكاتب قال : « إن أصول السلطان وتصرفاته لا تعدو أربعة ، لأنها إما أن تكون في أمور الحماية والمطالبة ، وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالشرق ، وهذا العصر بالغرب ، أما أن تكون في أمور مخاطباته لمن بعد عنه في المكان أو في الزمان ، وتنفيذ الأوامر فيما هو محجوب عنه ، وصاحب هذا هو الكاتب ، وإنما أن تكون في جناب المال وانفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه أن يكون بعضيّة ، وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية ، وأما أن تكون في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه ان يزدحروا عليه فيشغلوه عن مهمته . وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحبه وهو الحاجب⁽⁶⁶⁾ .

الحجابة :

والحجابة أنشأتها ظروف معينة أيضاً . كان الخلفاء الراشدون لا يحتاجون إلى حاجب فقط لأنّهم يبساط لهم وحسن عشرتهم للرعاية لم يمنعوا أحداً من الدخول عليهم ليلاً أو نهاراً ، ولكن معاوية بمجرد توليه الحكم اخذ الحجاب كارهاً مضطراً بعد حادثة الخوارج مع علي وعمرو بن العاص خوفاً من ازدحام الناس على بابه الذي قد يذهب بحياته⁽⁶⁷⁾ .

(64) النظم السياسية لحسن ابراهيم حسن ص 125 .

(65) الوزراء والكتاب للجهشياري .

(66) مقدمة ابن خلدون ص 90 .

(67) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 271 .

ويختلف معنى الحجابة بين بلد وآخر ، ففي العراق مثلاً كان الحاجب يقوم بعمل مدير التشريفات اليوم ، بينما كان الحاجب في الأندلس يتمتع بسلطات رئيس الحكومة وهو أقرب الوزراء إلى الخليفة الأندلسي حتى ليقدر على تمثيله في جميع سلطاته الفعلية⁽⁶⁸⁾ .

وما يلاحظ أن العباسين اقروا بالأمويين في مسألة الحجابة ، بل ربما أسرفوا في منع الناس من المقابلات الرسمية . وهذا ما دعا ابن خلدون إلى تسميته بال حاجب الثاني فكان بين الناس وال الخليفة حاجزان . ففي الدار الأولى الدار الخاصة وفي الثانية الدار العامة ، فكان الخليفة يقابل كل طائفة بحسب حالاتها وظروفها وتبعاً لإرادة الحاجب على الباب .

وعندما ازداد انهاير الدولة زادوا حاججاً ثالثاً لكي يحجب السلطان عن الخاصة والعامة حجاجاً تماماً ، وهنا برع الحاجب الثالث وقوى نفوذه وتوسيع سلطاته حتى أصبح مستشار الخليفة في جميع الشؤون المهمة وفي مختلف مراافق الدولة الحيوية . وبعض الحجاب الأقوباء استطاعوا أن يضعفوا من قوة الوزراء عن الخلفاء . إذ أنهن كانوا يؤخرون تنفيذ أي قرار لا يرغبون فيه ، قال ابن مسكونيه : « غالب محمد بن ياقوت على تدبير الأمور بنظره في جباية الأموال » وحضور أصحاب الدواوين مجلسه ، وفترده بكل ما يعمله الوزراء⁽⁶⁹⁾ . يبدو مما سبق أن الوزارة قد تطور مدلولها بتطور الظروف وتنوع الأحوال وقد غابت عليها صفة الكتابة ففي الأحيان كان الوزير كاتباً وفي أحيان أخرى غابت عليهما الحجابة فكان الوزير حاججاً . وقد نال كل من هؤلاء من الحظوة والنفوذ حسبما كان له من الذكاء والدهاء وقوه الشخصية⁽⁷⁰⁾ .

واسم الحاجب في الدولة دليل رقيها وحضارتها فكان أعظم الملوك شأنًا لا بد له من ذكر الحاجب⁽⁷¹⁾ وذى الوزارتين « يعنيون السيف والقلم .

قال ابن خلدون : « لم يكن في دول المغرب وأفريقيا ذكر لهذا الاسم للبداوة التي كانت فيهم وربما يوجد في دولة العبيدين بمصر عند استعظامها وحضارتها إلا أنه قليل⁽⁷²⁾ .
ودولة الموحدين التي لم تستتمكن فيها المغاربة لم يكن اسم الحاجب معروفاً عندهم يومئذ .

وأما دولة زنانه بالمغرب فلا أثر أيضاً لاسم الحاجب ، وباب السلطان وحجه عن العامة رتبة عندهم يسمى صاحبها بالمزوار ومعناه المقدم على المتصوفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته . . . وأما دولة الأندلس فالمخصوص بهم بالحسبان وتنفيذ حال السلطان وسائر الأمور المالية يسمونه بالوكيل .

(68) المدخل في تاريخ الحضارة العربية ص 30 .

(69) النظم الإسلامية لحسن ابراهيم حسن ص 130 .

(70) المصدر نفسه ص 130 .

(71) يدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة وال خاصة وذى الوزارتين عن الجمع خطفي السيف والقلم .

(72) المقدمة ص 241 .

ودولة الترك بمصر فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من أهل الشوكة⁽⁷³⁾ ينفذ الأحكام وكأنه يقوم بدور النيابة التي لها الحكم في أهل الدولة وفي العامة على الإطلاق . وللحجاب في هذه الدولة الحكم فقط في طبقات العامة والجندي عند الترافق إليهم راجبار من أبي الانقياد للحكم⁽⁷⁴⁾ .

الذين ينفذون الأحكام بين الناس في المدينة .
المقدمة ص 242 .⁽⁷³⁾
⁽⁷⁴⁾

الفصل الثالث

الخلافة والاستخلاف في الإسلام

إذا راجعنا التاريخ الإسلامي بجزئياته وتفاصيلاته وجدنا منهجين مختلفين في أمر الاستخلاف ، ولزم علينا أن نسأل سؤالين هامين :

1 - هل استخلف النبي ﷺ أحداً بعده ؟

2 - وهل يُبَيِّن للمسلمين طريقة الاستخلاف التي يتم بها تعيين الامام ؟

إذا افترضنا أن النبي ﷺ الذي اختاره الله سبحانه وتعالى لينشر الدين الإسلامي ويبلغ رسالة الإسلام ، لم يستخلف أحداً بعده لأن له من البرارات في نظر البعض من المسلمين ، فلهم يُبَيِّن لهم جميعاً طريقة الاستخلاف التي يتم بها تعيين الامام ؟ والشروط الواجب توفرها فيه ، والأمور التي تجرده من صلاحيات الامامة ؟

إذا رجعنا إلى مراجع أهل السنة ألفيناهم يجمعون على أن النبي ﷺ قد أهمل جميع هذه الأمور ولم يصدر عنه فيها أي شيء .

كلنا يعلم أن النبي كرئيس دولة فتية ، ناشئة بين دولتين كبيرتين لها تاريخ طويل وهما دولة الفرس ودولة الروم وغيرهم من الذين يضمرون العداء للإسلام .

وأنه ﷺ صاحب رسالة إنسانية عالمية ، أعلنت الحرب على كل تضليل بشه الدينات المريضة في ذلك العصر الوثني والتي سُمِّمت عقول الناس وأفسدت نفوسهم .

وأنه ﷺ كرئيس دولة هذه ظروفها ، وصاحب رسالة إنسانية إلهية هذه مشاكلها ، مسؤول أمم الله عز وجل وأمام التاريخ البشري . فلا بد له ﷺ أن يحتاط ويُعِن في الاحتياط لدولته الناشئة ولرسالته الإنسانية العظيمة ، لا بد من أن يحشد كل ما يمكنه من الضمانات اللازمة التي تهيء هذه الرسالة وهذه الدولة لكي «سيرا في طريق الحياة والنمو والانتشار» حيث أن الرسالة الإسلامية التي كلف بتبلیغها ونشرها (1) لم تكن للعرب وحدهم وإنما كانت للناس كافة . قال سبحانه : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كُلَّا مَا مَسَّ بَشِيرًا وَنذِيرًا﴾ (2) وقال سبحانه أيضاً ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رحمةٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ (2) .

(1) سبأ الآية 28.

(2) الأنبياء الآية 107.

فهل يصح بعد هذا ان من باب الاحتياط لرسالته ، أن يهمل أمر طريقة استخلاقه على الأقل ، المكلف بنشرها والمدبر لها والمفكر في حفظها ؟ وهل يمكن أن تنسب إليه الامال بين أصحاب الرسالات ، وهو النبي العظيم والانسان الكامل ، والسياسي المحنك ، والإداري الوعي ، والمصطفى المختار من رب العالمين ؟

وهل يكون بمستوى العظمة المستربعة جميع وجوه حياته الفذة أن يقال عنه عليه السلام أنه أهل رسالته ودولته هذا الامال العظيم ؟

يقول الباحثون القدماء من أهل السنة في تعليق ما ينسبونه إلى النبي صلوات الله عليه من إهمال طريقة الاستخلاف : في أن نظام الحكم في الشريعة الاسلامية ليس من شؤون الدين ، ولذلك لم يعره صاحب الرسالة اهتمامه .

وما نراه أن أمر الحكومة الاسلامية من صميم أمور الدين ، إذ ما من دعوة في تاريخ الأديان والمذاهب على اختلافها قدر لها النجاح إلا إذا ساعدتها على ذلك دولة تعصدها وتكون لها بمنابة الكيان الحي ، فكيف بالاسلام وهو دين العدالة الانسانية الذي ساوي في رعايته الروح والمادة وجعل أحدهما مقوماً للأخر ؟

فهل يصح أن يقال أن صاحب هذه الدعوة لم يسع إلى قيام دولة تشق مبادئها من مبادئه ، وتسير كما أرادها الله على هدى دعوته ؟
إن النبي صلوات الله عليه مكلف من الله عزّ وجلّ بنشر الاسلام « والحكومة الاسلامية جزء من الاسلام »⁽³⁾ ، فهل يمكن أن تنسب إليه عليه السلام الامال ؟

والغريب في قول هؤلاء القدماء أنهم يدعون تارة استبعاد الخلافة عن الدين وشؤونه ، ثم يرددون بعد ذلك بأن الخليفة يستمد سلطنته من الله ، والله قيم على الدين والدنيا معاً . وهذا تناقض واضح لا يحتاج إلى أدلة توضيح .

ويقول الباحثون المحدثون من أهل السنة : إن النبي لم يهمل هذه الناحية إلا لغاية بعيدة المدى ، إذ أنه كان ينظر بعين الغيب إلى مستقبل المسلمين ويأمل تطورهم في أساليب الحياة . فرأى صلوات الله عليه ضرورة عدم تقييد المسلمين بما يتناهى وتطورهم ، فترك أمر الخلافة لهم يتصرفون بها كما نفرض عليهم ظروفهم وحياتهم في مجتمعهم .

وهذه دعوى باطلة جملة وتنصيلاً ، لأن الاسلام دين اجتماعي انساني تطوري ، في كل شريع من شريعاته ينص على قابلية للتطور بالتحريم ، أو بالتحصيص ، أو بالنسخ ، وذلك حسب ما تقتضيه الاحوال . وعلى المسلمين الراugin أن يسايروا الروح التطورية العامة للحياة ضمن النطاق الاسلامي المشروع ، أما فيما يخرج عن هذه الحدود فالاسلام يرى ذلك رجعية وجاهلية لا تطواراً وتخضراً .. وهذه الروح التطورية التي يحملها الاسلام في دستوره لا تقتصر على ناحية خاصة وإنما تشمل كل ما يحتاجه الانسان في حياته الخاصة وال العامة ؛ ولم نر

(3) هنالك آيات كوبية تشير إلى حقيقة الحكومة الاسلامية نذكر منها على سبيل المثل : « إننا أنزلنا عليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أنزلنا الله به النساء 105 وانظر كذلك سورة المائدة الآية 49 و 50 .

أنه أهل تشريعاً من هذه التشريعات التطورية لمجرد القول بأنه قد يطأ على المسلمين تطورات قد لا تلائم التشريع في عمومه أو في خصوصه ، بل سن الاسلام التشريع وسن معه الضوابط الكفيلة بأن تجعله منا يتطور مع الحياة الانسانية الكريمة في تقبلاتها ضمن الإطار الاسلامي الذي يحيط بها .

وهذه التعلة التي ذكرها المحدثون لا تمنع النبي أبداً من أن يسن تشريعاً تطورياً شأنه في ذلك شأن المسائل الأخرى التي عرض لها .

ويعد هذا وذاك وإذا اعتبرنا أن هذا الامر من النبي ﷺ مقصوداً ، فلماذا لم يعلن ﷺ للMuslimين أنه ترك هذا الأمر إليهم ليروا فيه ما يلائم أوضاعهم وما تقضيه مصلحتهم المستقبلية ؟

إنها تعلات غير مقبولة والنبي ﷺ لم يتهرب قط من مسؤوليته كصاحب رسالة إنسانية ومؤسس دولة اسلامية ، والمفروض فيه ألا يهمل ولا بد من أن يكون قد وضع تشريعاً في هذه المسألة لا محالة .

شروط تعين الامام عند أهل السنة

لما ذهب ، قدماء ومحثثون من أهل السنة أن النبي ﷺ لم يستخلف أحداً بعده ، ولم يبيّن طريقة الاستخلاف ، قالوا أن تعين الامام في الدولة الاسلامية أمر ليس فيه نص وإنما عليهم أن يتهدوا إليه بآرائهم . والخلاصة التي وصلوا إليها في التعين تنحصر في الطرق التالية :

- 1 - انتخاب أهل الحل والعقد .
- 2 - العهد من الامام السابق ، وهي أن يختار الامام السابق طائفة من أهل الحل والعقد ويكلفهم في تعين الامام .
- 3 - الاستحواذ على السلطة ، وهي في حالة عدم العهد من الامام السابق وقد تتم له الامامة العامة ولو لم يبايعه أحد ، وذلك في حالة عدم وجود منازع له ، أما إذا وجد منازع فتتعقد الأمامنة لاسبقها في إعلان الترشيح .

هذا هو الواقع أما الشائع عند الباحثين من أهل السنة ، هو أن المرجع في تعين الامام هو الأمة المسلمة .

وقد رأينا أن كلمة أمة بما هلتـا اللفظ من معنى ، فكرة لم تطرق أذهان الباحثين القدماء من علماء أهل السنة ، وحينما عرضنا لمسألة الأمة بالدرس خرجنا بنتيجة : وهي أنها أخذت معنى مجازياً عندهم ، فكان المراد منها ، أهل الحل والعقد وهو لاءٌ كانوا على قسمين : أحدهما اعتمد اجماع أهل الحل والعقد في الأمة المسلمة بأسراها ، والقسم الثاني لم يعتمد الإجماع .

وهي يرون في ذلك صورة جديدة من صور الديمقراطية في الحكم ، ويكون الاسلام قد حقق سيقا عظيماً على الحضارة الحديثة في تشريع هذا القانون . والاسلام كدين إنساني

عادل ، يعارض النظام الديمقراطي لعدة أمور نذكرها باختصار :

أ- المرشح لزعامة الشعب في النظام الديمقراطي مدعو ليشرح للناس سياساته التي ينتهجها في حكمه وما يترب عليها من المنافع ، فكان لا بد له من الاتصال الجماهيري . من هنا أصبح من المفروض أن تكون الصلة بين النظام الديمقراطي وبين الجمهور ذات تأثير كبيراً على حقيقة هذا النظام ، فدراسة نفسية الجمهور في وحدة الهوى والزمان والمكان أصبحت لازمة . والوحدة عند الجمهور في الهوى ترجع في طبيعتها إلى الغريرة وليس إلى العقل ، وإذا استعملت الغريرة انشل عمل العقل واندحرت الفروق الفكرية بين الأفراد ، واستوى بذلك العالم والجاهل وإنعدمت القدرة على التدبير والتمييز . وهذا يستتبع دون شك انقياداً أعمى للفكرة التي يدعوا إليها المرشح لزعامة ، إذا أجاد عرضها واقن الدعوة إليها .

أما عن نفسية الجماعات الانتخابية التي ينط بآمر تعين الحاكم في النظام الديمقراطي الذي نعرفه ونعيشه اليوم ، كما عرضها لنا علم الاجتماع وعلم النفس ، فهي التي تكون آراءها فيها يتعلق بأمر حكمها . وكما نلاحظ عملياً أن هذه الجماعات ليس عندها آراء مبرهنة حيث تكون أصوات الناخرين في قبضة اللجان الانتخابية التي قد يكون زعماؤها من تجار الحمر أو ما يماثلهم . فلا يصعب التأثير والخالة هذه على اللجان ما دام المرشح ذا موارد وافرة .

على هذا النحو تفتح الجماعات الطريق أمام زعمائها للوصول إلى الحكم . حيث تصنع لهم تماثيل وصوراً وتجدهم وترفع من شأنهم . فتمثل هذه الجاهلية الحديثة في عبادة الأشخاص !

حينما نعرض الحكم الديمقراطي على المبادئ الإسلامية نراه منافيًّا لها ، لأن في الإسلام يجب توفر العنصر الأخلاقي في نظام الحكم بحيث لا يقع ظلم وعدوان على الفرد أو على الجماعة فحقوق الجميع محفوظة في دستور الإسلام .

أما في الحكم الديمقراطي فنرى أنه كثيراً ما يسوق إلى الظلم والعدوان ، فإن إرادة الشعب التي يستند إليها كثيرة العثرات والأخطاء ، لأن ليس لدى الجماهير المقاييس العقلية ، وإنما حكمها حكم الغريرة الذي يرافق الأضطرار لا الاختيار . وإننا نرى أن الأساليب التي يتبعها هذا الحكم لا تقرها الفضيلة ولا يطمئن إليها الضمير فتأتي بزعماء يعتمدون النفوذ المادي والشخصي لاستهواها واستعماله عواطفها ، فتصبح الجماهير مسوقة إلى اختيار حكامها بالضرورة التي لا تفقه معنى الرضى والاختيار . إن هذا الأسلوب من الديمقراطية لا بد أن يفسح المجال للأحزاب السياسية المتعارضة والمدمدة للوحدة بين جميع الأطراف ، فتنشأ الفرق والمصالح الشخصية وتتموّل فرص التشتت والتشرد المنافق لمبادئ الإسلام . لقد عمل الإسلام بكل ما عنده من طاقة للقضاء على العصبيات الشخصية والtribalism القبلية البغيضة ، كل ذلك رفضه الإسلام رفضاً باتاً لأنه يحول بين الإنسان المسلم المؤمن وبين بلوغه غايتها المثل ألا وهي توفير العنصر الأخلاقي في نفسه . قال تعالى :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِجَبَلِ اللَّهِ جَمِيعًا لَا تُفْرِقُوا ، وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفْ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْرَانًا ﴾⁽⁴⁾ .

وقال عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، لَا تَنَازِعُوا فَتَفْشِلُوا وَتَذَهَّبُ رِيحُكُمْ ﴾⁽⁵⁾ .

ينادي الله المؤمنين ليتصمموا بجبله وحده إذ لا جبل غير جبله ، ولا يتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم ، وعليهم أن يتماسكوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه ببعضه فإذاً فتصبحوا وحدة موحدة بنعمة ربهم سبحانه إخواناً . فهل يسمع مؤمنون عصراً اليوم في هذه الظروف الحرجة صوت ربهم ويعلمون جميعاً بأيمان عميق ووعي منظم في سبيل المصلحة العامة التي أرادها الله لهم؟ ! ولكن ما نأسف له أن المصلحة العامة اليوم تخضع لاعتبارات نسبية عند هذه الأحزاب والفتيات التي تقول أنها تصب في مصب واحد ونحو هدف واحد .

إن الاسلام هو عقيدة جامعة ومبدأ كامل ، لا يقبل في ظله قيام أحزاب متعددة وبمبادئ غير مبادئه . فالكل يذوب في بوتقة واحدة ، والكل يتوجه باتجاه واحد ، ويعبد إلهًا واحدًا ، رب العالمين .

من البداية أن نقول أن الاسلام قد فوض أمر الحكم إلى الفرد العربي المتعصب لقبيلته والمتمسك بتقاليده وعاداته ، بعد أن عرفنا الحياة التي كان يعيشها ، والحوافر التي كانت تدفع به في دروب تلك الحياة . فكيف تقوم الخلافة على الانتخاب والاختيار بعد ملاحظة تلك الحقائق ، وكلنا يعلم أن كل قبيلة كانت تطمح إلى حيازة هذا المنصب الرفيع .

ومتي تعود العربي الطماح دائماً ، أن يقرن نفسه على الخضراع لغيره والتنازل لسواه وبخاصة عن هذا المنصب العظيم الذي تهون إزاءه الحياة نفسها؟ ولنا أمثلة عديدة من تنافس العرب في الرياسة والطموح والجاه ، منها قضية الحجر الأسود ، حينما أرادت قريش بناء الكعبة الشريفة ، وهو دون الخلافة بلا ريب ، فكل قبيلة طمعت في نقل الحجر إلى مكانه ، حتى كادت أن تؤدي هذه القضية إلى انشقاق القبيلة على نفسها إلى أحلاف ، مع ما يجمع بينها من لحمة النسب ورابطة الدم ، لو لا أن تدارك النبي محمد ﷺ ذلك بحكمته المعهودة وحسن تدبيره وعناية ربه الذي اختاره واصطفاه رحمة للعالمين . فالقبائل التي تصطرب على نقل الحجر الأسود ، لا تأنف من الاصطراب على منصب الخلافة ، منصب الريادة والشرف الذي لا يعدله طريف أو تليد ومن البداية يمكن أن يتم تسليم أمور الحكم إلى الجماهير التي لا يمكنها التخلص من عادات وتقاليد كانت تنزل في نفوسها منزلة العقيدة من الدين .

أما عن الديمقратية المتمثلة في بيعة أبي بكر للخلافة رضي الله عنه حسبما يروي المحدثون من أهل السنة . فنقول أن تلك البيعة قد ثبتت في جو بعيد كل البعد عن الرضى والاختيار . فال التاريخ يفيدنا أن المبايعين كانوا في السقيفة طائفتين يشاورون في أمر الخلافة والرسول ﷺ لم يدفن بعد ، طائفة بايعت بفعل الاجماع والاستهواء ، وهي الخزرج ، وطائفة

(4) آل عمران الآية 103.

(5) الأنفال الآية 46.

أخرى بايمنت بداعع العصبية القبلية التي أثارتها خطبة أبي بكر . وقد ثبتت البيعة دون أن يعلم علي بن أبي طالب وبنو هاشم وفريق كبير من أصحاب النبي ﷺ المعروفيين والذين أبلوا بلاء حسناً في الإسلام .

إن النصوص التاريخية تثبت لنا أن البيعة العامة كانت كالبيعة الخاصة ، لا رأي فيها للأكثرية ولا حرية في الاختيار فـأين هي من الديمقراطية التي يدعونها ؟

وهذه بعض الأمثلة التي أوردها العقّوي وابن أبي الحميد في شرح النهج . ورد عند العقّوي . قال العباس عم النبي ﷺ في رده على أبي بكر ومعه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة ابن الجراح والمغيرة بن شعبة حينما دخلوا عليه بغية استمالته نحوهم وإبعاده عن علي بن أبي طالب لقاء نصيب من المال ولعقبه من بعده

« حمد العباس الله واثني عليه وقال : إن الله بعث محمداً كـما وصفت نبياً وللمؤمنين ولـياً ، فمنْ على أمرـه به ، حتى قبضـه الله إلـيه ، واختارـ له ما عنـده فـخلى عـلـى المسلمين أمرـهـم ليختارـوا لأنـفسـهـم مـصـيـبـيـنـ الحقـ ، لا مـائـلـيـنـ بـزـيـغـ الـهـوىـ ، فـإـنـ كـنـتـ بـرـسـوـلـ اللهـ فـحـقـاـ أـخـدـتـ ، وـإـنـ كـنـتـ بـالـمـؤـمـنـيـنـ فـتـحـنـ مـنـهـمـ ، فـهـاـ تـقـدـمـتـ فـيـ أـمـرـكـ فـرـضاـ ، وـلـاـ حـلـلـنـاـ وـسـطـاـ ، وـلـاـ بـرـحـنـاـ سـخـطـاـ ؛ وـإـنـ كـانـ هـذـاـ الـأـمـرـ إـنـاـ وـجـبـ لـكـ بـالـمـؤـمـنـيـنـ ، فـهـاـ وـجـبـ إـذـ كـنـاـ كـارـهـيـنـ مـاـ أـبـعـدـ قـولـكـ مـنـ أـنـهـمـ طـعـنـاـ عـلـيـكـ مـنـ قـولـكـ إـنـهـمـ اـخـتـارـوـكـ وـمـالـوـإـلـيـكـ ؛ وـمـاـ أـبـعـدـ تـسـمـيـتـكـ بـخـلـيـفـةـ رـسـوـلـ اللهـ مـنـ قـولـكـ خـلـيـ علىـ النـاسـ أـمـرـهـمـ ليـخـتـارـواـ فـاخـتـارـوـكـ ؛ فـأـلـمـ كـلـتـ أـنـكـ تـجـعـلـهـ لـيـ ، فـإـنـ كـانـ حـقـاـ لـلـمـؤـمـنـيـنـ ، فـلـيـسـ لـكـ أـنـ تـحـكـمـ فـيـهـ ؛ وـإـنـ كـانـ لـنـاـ فـلـمـ نـرـضـيـ بـعـضـهـ دـوـنـ بـعـضـ ، وـعـلـىـ رـسـلـكـ ، فـإـنـ رـسـوـلـ اللهـ مـنـ شـجـرـةـ نـحـنـ أـغـصـانـاـ وـاتـمـ جـيـرـانـاـ»⁽⁶⁾ وجاء في شرح النهج عن أحد رواده .

« ... وإذا بأبي بكر ومعه عمر وأبو عبيدة ، وجماعة من أصحاب السقيفة » . وهم يختبرون بالأزر ، لا يرون بأحد إلا خطوطه وقدموه ، فمدوا يده فمسحوها على يد أبي بكر بيأيده شاء ذلك أم أبي »⁽⁷⁾ .

فتأمل بعد هذا آية حرية وأي اختيار !
والآن ننتقل إلى ما يذهب إليه أهل السنة في الطرق التي اعتمدواها في تعين الإمام .
وقد أشرنا إليها قبل قليل .

أ - انتخاب أهل الخل والعقد
يبدو لنا أن هذا الطريق غامض مبهم متوجّح لقد ذهبت طائفـة إلى أن الأصل في تعين الخليفة هو إجماع أهل الخل والعقد في الأمة المسلمة وقابلـ طائفـة ثانية : نكتـفيـ بـنـ اـجـتمـعـ مـنـهـمـ فيـ مرـكـزـ الـخـلـافـةـ ، وـاعـتـرـتـ اـجـاعـهـمـ عـلـىـ اـخـلـيـفـةـ شـرـطـاـ فيـ صـحـةـ خـلـافـتـهـ ، وـطـائـفـةـ ثـالـثـةـ

(6) تاريخ العقّوي ج 2 ص 126

(7) راجع نظام الحكم والإدارة في الإسلام للشيخ محمد مهدي شمس الدين ص 148

لم تشرط الاجماع ، ورابعة اكتفت بخمسة من أهل الحل والعقد ، وخامسة اعتبرت الواحد كافياً في تعين الخليفة .

والذي مر معنا في دراستنا للفرق الاسلامية هو أن أهل السنة يذهبون الى أنه ليست لبيعة أهل الحل والعقد أية قيمة في ذاتها ؛ إنما قيمتها في أنها كاشفة عن أن هذا المرشح الذي قُلت له البيعة هو معين من الله ورسوله خليفة لها في الأرض ، فوظيفة الامام هي وظيفة الرسول قاماً ، غير أن الرسول يكون بتعيين من الله ، أما الإمام فيكون بتعيين أهل الحل والعقد . يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين في هذا المجال متسللاً : « إذا كانت بيعة أهل الحل والعقد كاشفة عن أن من بايعوه هو الإمام عند الله ورسوله ، فمن الذي جعل بيعتهم هذا الكشف؟»⁽⁸⁾ . ويتابع الشيخ شمس الدين نقلأً عن الأبيجي في شرح المواقف :

« وإذا ثبت حصول الامامة بالاختيال والبيعة فاعلم أن ذلك الحصول لا يفتر إلى الإجماع من جميع أهل الحل والعقد ، إذ لم يقم على هذا الافتخار دليل من العقل أو السمع ، بل الواحد والاثنان من أهل الحل والعقد كاف في ثبوت الامامة ووجوب الاتباع على أهل الاسلام ، وذلك لعلمنا أن الصحابة مع صلابتهم في الدين اشدة محافظتهم في أمور الشرع كما هو حقها اكتفوا في عقد الامامة بذلك من الواحد والاثنين . عقد عمر لأبي بكر ، وعقد عبد الرحمن بن عوف لعثمان ، ولم يشتربطا في عقدتها اجتمعت من في المدينة من أهل اسل والعقد فضلاً عن إجماع الأمة من علماء أمصار الاسلام وبعثتها في جميع أقطارها ، هذا وعلى الاكتفاء بالواحد والاثنين في عقد الامامة انطوت الأعصار بعدهم إلى وقتنا هذا»⁽⁹⁾ . ونحن بدورنا نتساءل هل كان هذا الاسلوب في التعين يتواافق مع المبادئ الاسلامية ومع الظروف الاجتماعية الخاصة التي كان يعيشها المسلمين . الخليفة في الاسلام يجب أن يتمتع بكفاءة تامة ليكون الحكم في يد أمينة جديرة بأن تقوم على التنفيذ خير قيام ، فهل باستطاعة الواحد أو الاثنين أو الستة أن يؤمّنا تنفيذ هذا المبدأ على الرجل الذي يريد الاسلام؟

هذا من جهة ومن جهة أخرى إذا نظرنا الى ظروف المجتمع القبلي في ذلك العصر وجدنا أن العصبية القبلية هي التي كانت مسيطرة وقد بقيت على حالها أحقاباً كثيرة بعد وفاة النبي ﷺ وإن تفويض أمر تعين الخليفة لأهل الحل والعقد لا بد وأن يسمح لها بالظهور . وكفار قريش لا يستطيعون أن يعترفوا بسلطنة هؤلاء عليهم » ولا ننسى عندما طلبوا من النبي ﷺ أن يجعل لهم يوماً ولغيرهم من المسلمين يوماً ثمناً لسلامهم . هذه الروح القبلية تأبى عليهم كل الآباء أن يعترفوا لأهل الحل والعقد بالسلطة عليهم . وقد تمثلت بصورة واضحة في المدينة بين المهاجرين والأنصار عندما ولـي أبو بكر الخلافة فكنت ترى تبادل السباب بينهم في الشعر والنشر ، وقد تراجع معظم القبائل العربية خارج المدينة ولمتعوا عن تأدية الزكوة فماذا كان موقف أهل الحل والعقد؟ ورد في المصادر التاريخية :

« . . . وقد كانت فرقة اعزلت عن أبي بكر فقالت لا نؤدي الزكاة إليه حتى يصح

(8) المرجع السابق ص 150 .

(9) المرجع السابق ص 152 . والشيعة بين الأشاعرة والمعزلة للسيد هاشم الحسني ص 243 .

عندنا من الأمر ومن استخلفه رسول الله ﷺ بعده ، ونقسم الزكاة بين فقراطنا وأهل الحاجة
منا .^(١٠)

ولما ولّي عثمان ظهرت الروح القبلية في تصرفاته واضحة جلية فكان رد الفعل عند القبائل الأخرى وإيقاظ الروح القبلية في نفوس أفرادها . هذه العقابات سببت قلقاً مستمراً في الحياة الإسلامية لأنها أبعدت المسلمين عن التأثير بروح الإسلام الاجتماعية الصحيحة .

رأينا أن مبدأ تعيين الخليفة من قبل أهل الحل والعقد عند أهل السنة كان جنحاً عظيماً نحو الفردية وبعيداً عن الديمقراطية التي يدعونها بعيدة كل البعد عن المنهج الإسلامي الصحيح .

ثم هذا الواحد أو هذان الاثنان اللذان أوكل إليهما تعيين الامام ما الذي يمنعهما من الانحراف عن الجادة التي أرادها الاسلام؟ هي العصمة؟ والعصمة عند أهل السنة لا تكون إلا للأئماء .

وبعد ، فلماذا لا يجعل هذا الواحد نفسه إماماً ، والدنيا غرارة ومحبها كثیر؟

ولنا شاهد واضح في فشل هذا الأسلوب في التعين في المجتمع الإسلامي من تصرف الخليفتين العظيمين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، اللذان حادا عن هذا الطريق عندما رأيا ما يكفل للMuslimين الخير والسلامة في دينهم ودنياهما . فأبوا بكر عين عمر ، وعمر عين عثمان بواسطة الشورى وكأنهما ستة كلهم من قريش ، علىًّا بأن أهل الحل والعقد يومئذ لم يكونوا مخصوصين في قريش ، بل كانوا فيها وفي غيرها من سائر المسلمين .

كل هذا يظهر لنا بجلاء بأن نظام أهل الحل والعقد الذي اعتمدته أهل السنة في تعيين الخليفة لم يكن هو المنهج الذي فرضه الاسلام وبالتالي لم يكن يلائم روح المجتمع العربي .

ب - العهد من الامام السابق

وهي الطريقة المقضية عند أهل السنة ، ترتبط بحق الخليفة أن يعهد بالحكم إلى من يختلفه دون أن يستشير أحداً من المسلمين . كما له الحق بأن يعهد إلى أكثر من شخص ، إلى هيئة تجتمع فيها طائفة من أهل الحل والعقد وتنتظر فيمن توليه أمور المسلمين . فهي فردية ولكنها تلبس لباس الشورى والمظهر الوحيد لهذه الشورى في تاريخ الاسلام كانت من الخليفة عمر بن الخطاب حين فوض أمر تعيين الخليفة إلى ستة أشخاص اختارهم هو بنفسه . وهم : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة بن عبد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف .

والذي يبدو لنا من خلال هذا التدبر أن عمر كان يرغب بعثمان خليفة بعده ، ولكنه لم يرد أن يتتحمل مسؤولية استخلافه فأوجد هذه الهيئة وحدد طريقة التعين بأن الحق مع أربعة أن خالف اثنان ، وان تعادلت الكفتان فالحق إلى جانب من فيهم عبد الرحمن بن عوف .

^(١٠) راجع فرق الشيعة للمنوخي وروح الدين الاسلامي لغريف طهارة .

وبهذا الأسلوب فكانه عين عثمان سلفاً ولو أليس هذا التعيين لباس الشوري . ولا ندري الدافع الحقيقى الذى حدا بال الخليفة عمر الى إيجاد هذا الشكل الذى يضمن لعثمان الفوز . فلعله كان يرى أن مصلحة المسلمين كانت تقضى باستلام عثمان للخلافة من بعده ؟

قال الماوردي في أحكامه :

« ولو عهد الخليفة الى اثنين او أكثر ، ورتب الخلافة فيهم فقال : الخليفة بعدى فلان » فإن مات فالخليفة بعد موته فلان » فإن مات فالخليفة بعده فلان ، جاز ، وكانت الخلافة منتقلة الى الثلاثة على ما رتبها »⁽¹¹⁾ .

وما يتوضّح من التاريخ الإسلامي أن العقابيل التي خلفتها الشوري في المجتمع الإسلامي قد أثارت الأطماع في نفوس الكثرين من الطاغفين إلى الخلافة ، لأن كل طائفة رأت أنها ليست دون بعض الشخصيات التي اختارها الخليفة عمر في جماعة الشوري ، من بين هؤلاء معاوية بن أبي سفيان . وحرب الجمل ليست إلا تابعاً لتلك الشوري .

ج - الاستحواذ على السلطة

في هذه الحالة ينبع من بين الجماعة رجل يستحوذ على الإمامة بالسلم أو بالحرب وذلك كفيل وحده بأن يجعله إماماً . صرّح بهذا جمع من فقهاء أهل السنة منهم أحمد الذهلي في كتابه حجة الله البالغة ، والشريبي في مغني المحتاج . والباجوري في حاشيته قال : « ثالثها استيلاء شخص مسلم ذي شوكة متغلب على الإمامة ، ولو غير أهل لها ، كصبي ، وامرأة » وفاسق » وجاهل ، فتنعقد إمامته ، وتتفقد أحکامه للضرورة»⁽¹²⁾ . ولا ريب أن هذا الأسلوب بعيد كل البعد عن المبادئ الإسلامية ، لأنّه يمثل النظام الاستبدادي الذي يرفضه الإسلام » لأنّه يدعوا إلى الخنوع والذل والاستكانة لطاعة الظالمين .

هذه هي الطرق الثلاث التي اعتمدها أهل السنة في تعين الخليفة وقد وجدها متناقضة ومتعارضة مع المبادئ الإسلامية والظروف السياسية والأحوال الاجتماعية للعرب المسلمين في ذلك الزمان .

شروط تعين الإمام عند الشيعة

تبين لنا أن نظرية الشيعة الإمامية الثانية عشرية إلى الإمامة تختلف نظرية أهل السنة في كثير من النقاط ، فقد ذهبوا قبل كل شيء إلى أن الإمامة من أصول الدين ومرجع الأمر فيها هو الله تعالى ، فعليه جل جلاله واجب نصب الإمام ، إذ بوجود الإمام في الأمة يصلح أمراها ، ويدونه يصيّبها التفكك والانهيار . وقد اشترطوا في الإمام العصمة فلو لم يكن الإمام معصوماً بجاز عليه الخطأ والمعصية ، وإذا جازا عليه انقضى الغرض من تنصيبه .

(11) راجع الأحكام السلطانية للماوردي .

اما المستند التشريعي فهو فضل النبي في مؤته حين جعل الإمارة على الجيش ثلاثة يلونها متعاقبين فإذا قتل واحد منهم انتقلت الى من يليه .

(12) راجع حاشية الباجوري .

والعصمة أمر خفي لا يعلم إلا الله تعالى والنبي ﷺ ولما كان المتعيين للإمامية هو المتصف بهذه الصفة وجب عندها إظهاره بالنص من الله أو من رسول الله . من هنا كانت نظرية الشيعة الإمامية تقول إن الإمامة منصب إلهي ، وكما أن النبوة رسالة سماوية وظيفتها نشر أصول الدعوة الإسلامية وتبلغ الدين ، وكما أن النبي ﷺ هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو المسؤول عن تبليغ دين الله إلى عباد الله ، فكذلك الخلافة منصب إلهي وظيفته تبليغ الدين ونشره والدعوة إليه وحمايته من كيد الطامعين والكافرين .

ولما كانت الخلافة عند الشيعة بهذه المثابة والأهمية التزموا بأن النبي أن يقوم بتبليغ الأمر كبقية الأحكام الإلهية الأخرى ، وهذا بالنسبة إلى التشريع الإسلامي ضروري لاجتياح الأحكام المناسبة . وحيث أن الاجماع قائم على أن النبي قد أدى كل ما عهد إليه بتبليغه فلا بد إذن من أن يكون قد أدى إلى الناس هذا الأمر المهم جداً في حياتهم الاجتماعية المنظمة والمتطورة ، وأمر واقعي أن يكون هناك نص على الخليفة من بعده ﷺ والشيعة تقول بوجود هذا النص .

ونوجز القول أن الأمور البارزة في نظام الحكم في الإسلام عند الشيعة الإمامية تنحصر في ثلاثة ماضيع .

- 1 - الإمامة من أصول الدين ومرجع الأمر فيها هو الله تعالى .
- 2 - العصمة في الإمام فلا يذنب ولا يخطئ .
- 3 - النص هو الطريق الوحيد لتعيين الإمام .

1 - الوجوب على الله .

إن مرجع الإنسان في كل شؤونه الدنيوية والأخروية هو الله جل جلاله . فكل الأحكام القرآنية تناولت شؤون الإنسان العامة والخاصة جميعها وعلاقاته الاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية . فالله حقيقة مائلة وراء كل ما جاء به الإسلام ، فإليه مرجع كل أمر وهو مالك كل شيء . وليس هناك سوى سلطة واحدة هي سلطنته لا يشاركه فيها غيره ، وما الإنسان إلا عبد من عباده . قال تعالى :

﴿ وَلَهُ مِلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾(13) .

وعندما تكون سلطة الله هي الواحدة السائدة ، تصبح جميع الأوامر من دنيوية وأخروية تنبع من مصدر واحد هو المرجع نفسه الذي ترجع إليه كل أمور الدنيا والآخرة . وكم هي كثيرة الآيات التي تقرر بصراحة وحدة المرجع ووحدة الملك وأولها :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾(14) .

فإله الصمد والله المقصود والله المرجع في كل شيء .

(13) المائدة الآية 18 .

(14) الأخلاص الآيات (1-2-3-4).

وقال سبحانه : ﴿ وَلَهُ مَلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ الْمُصِيرُ ﴾⁽¹⁵⁾ .

وقال عز وجل : ﴿ لَهُ مَلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾⁽¹⁶⁾ .

وقال جل جلاله : ﴿ لَا يَتَخَذُ الْمُؤْمِنُونَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعُلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ، إِلَّا أَنْ تَقْسُمُهُمْ نِقَاءً وَبِحَذْرَكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَيْهِ الْمُصِيرُ ﴾⁽¹⁷⁾ . وقال سبحانه : ﴿ ... وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطْعَنَا غَفَرَانَكَ رِبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمُصِيرُ ﴾⁽¹⁸⁾ .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ ، وَأَمْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾⁽¹⁹⁾ كَمَا وَرَدَ فِي السُّورَةِ نَفْسَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفُهُمْ وَمَا أَنَا بِأَنْ أَعْلَمُ بِالْأُمُورِ ﴾⁽²⁰⁾ .

وقال عز وجل : ﴿ وَلَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَيْهِ يَرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكُّلْ عَلَيْهِ » وَمَا رَبِّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ⁽²¹⁾ .

هَذِهِ الْأَيَّاتُ الْكَرِيمَاتُ ، وَهِيَ قَلِيلٌ مِّنْ كَثِيرٍ ، تَدْلِي دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى أَنَّ الْإِسْلَامَ يَنْادِي قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ بِأَنَّ الْمَرْجَعَ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، أَمَّا غَيْرُهُ فَلَيْسَ مَرْجِعًا أَبَدًا لَا فِي الصَّغِيرِ وَلَا الكَبِيرِ مِنْ شَوْءِ وَنَخْلُقَهُ .

وَالشِّيَعَةُ الَّذِينَ يَنْادُونَ بِأَنَّ الْخَلَافَةَ وَاجِبَةٌ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّمَا يَطْبَقُونَ الْمَبْدُأَ الْعَامَ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ . وَالْأَمَامَةُ وَهِيَ اسْتِمْرَارٌ لِلنَّبِيَّةِ ، وَلَيْسَ لَوْنًا جَدِيدًا مِنَ السُّلْطَةِ ، يُجِبُ أَنْ تَنْبَعَ مِنَ الْيَنْبُوعِ نَفْسَهُ فَلَا صَلَاحِيَّةٌ أَوْ قُوَّةٌ يَصْحُّ أَنْ تَكُونَ مَصْدَرًا مَعَ وُجُودِ اللَّهِ « رَبِّ الْعَالَمِينَ » . وَبِذَلِكَ مَا يَنْدَهُبُ إِلَيْهِ الشِّيَعَةُ مَوْافِقُ لِلْمَبَادِئِ الْعَامَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْإِسْلَامُ . وَعِنْدَمَا يَكُونُ مَرْجِعُ الْأَمْرِ فِي الْحُكْمِ هُوَ اللَّهُ ، دُونَ أَنْ تَعْتَرِضَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأُمَّةِ سُلْطَةً أُخْرَى ، فَلَا يَقْعُدُ حِينَئِذٍ بَيْنَ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ نِزَاعٌ وَصَرَاعٌ مَصْدِرُهُمَا التَّكَالُبُ عَلَى الْحُكْمِ وَالسُّلْطَانِ . لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ بِأَنَّ مَرْجِعَ الْأَمْرِ هُوَ اللَّهُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ بِلَا رِيبٍ ، بِالصَّالِحِ لِلْحُكْمِ . وَإِذَا رَاجَعْنَا الْأَحْدَاثَ الْأَلِيمَةَ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْحَرُوبِ وَالدَّسَائِسِ وَالْأَغْتِيَالَاتِ وَالْمَحْنِ ، عَرَفْنَا أَنَّ السَّبِبَ بِذَلِكَ كُلِّهِ تَمْبِيدُ الْأَمَامَةِ مِنْ وَجْهِهَا عَلَى اللَّهِ .

وَلَكِي تَضْمَنِ الرِّسَالَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ النِّجَاحَ لِنَفْسِهَا فِي الْحَقْلِ الْإِجْتِمَاعِيِّ ، وَجَبُ عَلَيْهَا إِيجَادُ نَظَامٍ ثَابِتٍ لِلْحُكْمِ . نَظَامٌ تَسْتَوِفُ الْعِنَاصِرُ الْأَخْلَاقِيَّةُ الْمَثَالِيَّةُ الَّتِي تَبْعَدُهُ عَنِ الشَّذْوَذِ وَالشَّطَطِ وَالظَّلْمِ .

أَمَّا السِّيَاسَةُ النَّفْعِيَّةُ وَالتَّوْجِيهُ الْمُصْلِحِيُّ وَتَحْكُمُ فَتَةٍ بِأَخْرِيٍّ وَامْتِيَازَاتٍ طَائِفَةٍ عَلَى بَقِيَّةِ

(15) النور الآية 42.

(16) الحديد الآية 5.

(17) آل عمران الآية 28.

(18) البقرة 385.

(19) (20) الحج الآية 41 و 76.

(21) هود الآية 123.

الطوائف ، كل هذه الأمور السائدة في عصر الكهرباء والذرة والتقدم العلمي لا يقرها دين له من تشريعه قوة تكفل له الصمود والبقاء أمام هذه التيارات المادية الخداعة .

والنظام الاسلامي الذي رکز على النواحي الأخلاقية عن الحاکم العالم يبغی نظام حکم صالح في كل عصر و زمان ، يحقق العدالة ، والمساواة وتکافؤ الفرص أمام كل إنسان . قال سبحانه : « إنا أنزلنا اليک الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أرک الله ولا تكون المخائن خصوصياً »⁽²²⁾ .

وقال تعالى : « قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحکم بين عبادک في ما كانوا فيه يختلفون »⁽²³⁾ .

وقال سبحانه أيضاً : « وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه »⁽²⁴⁾ .

وقال سبحانه أيضاً : « ذلکم حکم الله يکرم بينکم والله علیم حکیم »⁽²⁵⁾ .
وغيرها من الآيات التي تبيّن الحكم في الاسلام إلى كتاب الله ، وكل حکم لا يستلزم مبادئه منه ولا يستند إليه يراه الاسلام فاسداً : « أفحکم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حکماً لقوم يوقنون »⁽²⁶⁾ .

هذا عن الحكم الذي يريد الاسلام والمرجعية فيه الله تعالى وحده دون سواه ، أما عن الهيئة الحاكمة فهي كل شيء في الدولة لأنها الأداة المشرفة على التنفيذ . وهذه الأداة تستطيع أن تلون الحكم بما تعكسها عليها إرادتها من ميول ورغبات ، فإذاً ما يكون الحكم تقدماً متطولاً عادلاً وإما أن يكون رجعاً متزمتاً ظالماً .

وقد كافحت الإنسانية منذ القديم في سبيل إيجاد حکم صالح يحول بين الحاکم والطغيان ، وجرت عددة ألوان من الأشكال الحكومية منذ جمهورية أفلاطون ومدينة الفارابي الفاضللة وحتى اليوم فأوجدت أجهزة التفتيش وهیئات المراقبة وفصلت بين السلطات التشريعية والتنفيذية ؛ وبعد هذا كله هل استطاعت أن تحول بين الحاکم وطغيانه لا تظن ذلك قد حصل ، لأننا ما زلنا نشاهد ونسمع أنين الشعوب من جور حکامها وطغيانهم .

من هنا أكد الشیعة على صفة العدالة عند الحاکم « العاصم النفسي الذي يمسك بالحاکم عن الزیغ والانحراف . كما أكدوا أن المرجع في تعین الحاکم ليس سلطة بشرية لها حدود من المعرفة والإدراك تقف عندها ولا تستطيع استئکناه بواطن الأمور ، ولذلك فقد تخطى القصد وتنحرف عن الجادة السليمة . لهذا يرى الشیعة أن المرجع في هذا الأمر هو الله

(22) النساء الآية 105.

(23) الزمر الآية 46.

(24) البقرة الآية 213.

(25) المحتمنة الآية 10.

(26) المائدۃ 49 و 50.

.... فهو مرجع كل شيء إليه مصير كل الأمور . وهم يخالفون مذهب أهل السنة الذين وسطوا بين الله وبين خلقه سلطة أهل الحل والعقد التي قد تنحرف وتزيف ، فالنبي هو المعلن لتعيين الإمام وليس هؤلاء .

أما إذا كان النظام الانتخابي أو التعيين المشبوه هو المعول فيه في الإسلام فإن ذلك سيدفع بولاة أمور المسلمين إلى الإنحياز مع الشعور الحزبي والقبلي عند كل نازلة ؛ وفي هذا ما يدفع الأمم الأخرى إلى الكيد للإسلام والتريص بال المسلمين ويسدفهم إلى الخروج عليهم والواقع التاريخي شاهد ناطق على صدق ما نقول .

والحقيقة التي يمكننا اخرون بها هو أن المجتمع الإسلامي لم يكن مؤهلاً تأهيلاً كافياً لاختيار الإمام ، والنبي ﷺ لا يمكن أن يفرط برسالته الإنسانية ويترك المسلمين في بلبة فوضى عندما يترك لهم صلاحية اختيار الخليفة . ومن المعروف أن الاعتقاد بالأمامية أمر واجب لكل شيعي إمامي . ويسوق الشيعة أدلةهم في تعيين الإمام من الله تعالى من القرآن الكريم والسنة الشريفة .

ورد في سورة البقرة قوله تعالى : « إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَاتٍ »⁽²⁷⁾ فبدأ سبحانه بال الخليفة قبل الخليقة ، وأمر بدحبي أن يبدأ الحكيم العليم بالأهم قبل الأعم . وقال عز وجل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبِيُّوْنَ يَكْفِرُهُمْ بِهَا هُؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلَنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ »⁽²⁸⁾ .

وجاء في سورة البقرة أيضاً : « وَإِذَا بَتَلَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَانْتَهَىٰ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاٰ قَالَ وَمَنْ ذَرْتَيْ قَالَ لَا يَنْالَ عَهْدِ الظَّالِمِينَ »⁽²⁹⁾ .

قال الشيخ الطوسي عند تفسيره لهذه الآية : المراد بالكلمات هي الإمامة على ما قال مجاهد . والمراد بالعهد هو الإمامة وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (ع) قالوا : لا يكون الظالم إماماً .

وقال الطوسي أيضاً في التبيان : « واستدل أصحابنا بهذه الآية على أن الإمام لا يكون إلا معصوماً من القبائح لأن الله تعالى نفى أن ينال عهده - الذي هو الإمامة - ظالم » ومن ليس بمعصوم فهو ظالم : إما لنفسه أو لغيره »⁽³⁰⁾ .

أما الأدلة على وجوب الإمامة على الله في السنة فهي كثيرة وقد جمع ابن شهرashوب طائفة منها⁽³¹⁾ . روى الكليني أن حديثاً جرى عن الإمامة في الجامع بحضور أحد أصحاب الرضي (ع) وهو عبد العزيز بن مسلم قال : « دخلت على سيدتي (ع) فأعلمته خوض الناس

. البقرة الآية 30 (27)

. الانعام الآية 89 (28)

. البقرة الآية 124 (29)

. (30) التبيان في تفسير القرآن ج 1 ص 446 وما بعدها .

. (31) راجع مناقب آل أبي طالب ج 1 ص 211 وما بعدها .

في أمر الامامة فتبسم (ع) ثم قال : جهل القوم وخدعوا عن آرائهم ، إن الله عز وجل لم يقبض نبيه ﷺ حتى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كل شيء . قال عز وجل : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » (32) وأنزل في حجة الوداع . . . وهي آخر عمره ﷺ : « اليسر أكملت لكم دينكم وأتمت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » (33) وأمر الامامة من تمام الدين . ولم يمض حتى بين لأمته معلم دينهم وأوضح لهم سبيلهم . . . فهل يعرفون قدر الامامة وحملها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم ؟ إن الامامة أجل قدرأ وأعظم شأنأ . . . وأبعد غوراً من أن يبلغها الناس بعقوفهم ، أو ينالوها بأرائهم ، أو يقيموا إماماً باختيارهم ، إن الامامة خص الله عز وجل بها ابراهيم الخليل (ع) بعد النبوة والخلة مرتبة ثلاثة وفضيلة شرف بها فقال : « إني جاعلك للناس إماماً » فقال الخليل (ع) سروراً بها : « ومن ذريتي » قال الله تبارك وتعالى : « لا ينال عهدي الظاللين » . فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيمة وصارت في الصفة فلم تزل في ذريته . . . حتى ورثها الله تعالى النبي ﷺ فقال جل وتعالى : « إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين » (34) . فكانت له خاصة فقلدها ﷺ علياً (ع) بأمر الله تعالى على رسم ما فرض الله ، فصارت في ذريته الأصفياء الذين آتاهم الله العلم والایمان » بقوله تعالى ﷺ وقال الذين أتوا العلم والایمان لقد لبستم في كتاب الله إلى يوم البعث » (35) فهي في ولد على خاصة إلى يوم القيمة ، إذ لانبي بعد محمد ﷺ فمن أين يختار هؤلاء الجهال .

إن الامامة هي عinzلة الأنبياء وإرث الأوصياء . ثم يسوق الطوسي أدلة حصر الامامة في علي أمير المؤمنين دون غيره (36) .

2 - العصمة

وهذه مسألة خالف بها الشيعة من عداهم ، فالعصمة عند الشيعة الامامية هي عدم وقوع الامام في الخطأ والخطيئة والنسيان . فلامام بثابة النبي معصوم من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، عمداً أو سهواً .

وهذه العصمة التي يشترطها الشيعة في الامام هي عبارة عن ملكة نفسية ، لا تصدر العاصي عن اتصف بها مع قدرته على ممارستها . أما المتابع التي تستمد منها هذه الملكة قوتها فتترك على الوعي التام عند المعصوم لما في الطاعة والاستقامة من حسن وصلاح ، وما في المعصية من عيوب وماخذل يجب أن يتسامي عنها كل إنسان يحترم نفسه ويعلم أن الله يؤاخذه إذا فرط أو أهمل أو ابتعد عن السير على صراطه المستقيم .

إن نظرية العصمة عن الشيعة ليست نتاجاً عقلياً بحثاً ، بل تستند في كثير من عناصرها

(32) الانعام الآية 38.

(33) المائدة الآية 3.

(34) آل عمران الآية 68.

(35) الروم الآية 56.

(36) أصول الكافي ج 1 ص 198 وما بعدها .

إلى نصوص قرآنية وأحاديث نبوية شأنها في ذلك شأن أغلب جوانب التفكير الديني عند المسلمين .

جاء في سورة الأحزاب قوله تعالى : ﴿ ... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيذْهَبَ عَنْكُمُ الرُّجْسُ أَهْلُ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيرًا ... ﴾⁽³⁷⁾ .

ورد عن عائشة قالت : « خرج رسول الله ﷺ غداة يوم وعليه مرتضى مرجل من شعر أسود ، فجاء الحسن بن علي فأدخله ، ثم جاء الحسين فدخل معه ، ثم جاءت فاطمة فأدخلتها ، ثم جاء علي فأدخله ، ثم قال : الآية التي ذكرناها قبل قليل . آية التطهير »⁽³⁸⁾ .

ومن الأحاديث الشريفة التي تناولت مسألة العصمة ، حديث الثقلين المعروف وقد جاء فيه : ... فلا تقدموهما فتهلكوا ، ولا تقصروا عنهم فنهلكوا ، ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم»⁽³⁹⁾ والضمائر ترجع إلى الثقلين ، وهما كتاب الله وعترة النبي ﷺ وهم أهل بيته . وجاء في روايات أخرى :

« فإنهم لن يخرجوك من باب هدى ولن يدخلوك في باب ضلاله»⁽⁴⁰⁾ .

وجاء أيضاً في المصدر نفسه : « ولقيت بأهل بيتي من بعدي ، فإنهم عترى خلقوا من طيني ورزقوا فهمي وعلمي»⁽³⁹⁾ . والمقصود في هذه الروايات علي وذراته . يخرج الباحث من دراسة هذه النصوص واستجلاء تعابيرها بتبيّن أن البنور الأولى لنظرية العصمة التي اعتمدتها مفکرو الشيعة أساساً في عقيدتهم من إدّهاب الرجس الوارد في الآية الكريمة وكون أهل البيت لن يخرجوا من هدى ولن يدخلوا في ضلاله كلها تشير إلى العصمة عن الذنب والسير على منهاج الشريعة الإسلامية كما أرادها الله عزّ وجلّ ورسوله ﷺ .

ونورد هنا طائفة من الأدلة التي أوردها الحلي⁽⁴⁰⁾ في إثبات العصمة منها :

- 1 - لما كان نصب الامام واجباً على الله تعالى استحال صدور الذنب منه . « إذ لو صدر عنه الذنب لجوزنا الخطأ في جميع الأحكام التي يأمر بها وذلك مفسدة عظيمة »⁽⁴¹⁾ .
- 2 - أمر الله بطاعته ، وطاعة أولي الأمر « وكل من أمر الله تعالى بطاعته فهو معصوم لاستحالة إيجاب طاعة غير المعصوم مطلقاً لأنه قبيح عقلاً » .
- 3 - جاء في قوله تعالى : « أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » وغير المعصوم ضال فلا يسأل اتباع طريقه قطعاً .

_____.
⁽³⁷⁾ الأحزاب الآية 33.

⁽³⁸⁾ راجع صحيح مسلم ومستدرك الحاكم ومراجع أخرى كثيرة روت هذا الحديث .

⁽³⁹⁾ و⁽⁴⁰⁾ المراجعات للسيد شرف الدين .

⁽⁴⁰⁾ يد العلامة الحلي (توفي 726 هـ) من أكثر الكتاب الامامية عناية في معالجة موضوع العصمة بكتابه الموسوم بـ «الالفين الفارق بين الحق والباطل» راجع تاريخ الامامة للدكتور فياض ص 154 .

⁽⁴¹⁾ تاريخ الامامة للدكتور فياض ص 155 .

ويرى مفكرو الشيعة الامامية المعاصرون أن العصمة أمر ضروري لأن الأئمة حفظوا الشرع والقوانين عليه ، وحالم في ذلك حال الأنبياء ﷺ وأن الدليل الذي اقتضاناً أن نعتقد بعصمة الأنبياء هو نفسه يقتضيناً أن نعتقد بعصمة الأئمة بلا فرق⁽⁴²⁾ .

ويناقش المرتضى معنى العصمة فيقول : « إعلم أن العصمة هي اللطف الذي يفعله الله تعالى ، فيختار العبد عنده الامتناع من فعل القبيح ، ويقال ان العبد معصوم لأنه اختار عند هذا الداعي الذي فعل له الامتناع من القبيح »⁽⁴³⁾ .

ورأى المسعودي أن السبب الذي من أجله قال الإمامية بالعصمة هو تجنب تسلسل الأئمة إلى غير نهاية ، وخوفهم من أن يكون المعصوم فاجراً أو فاسقاً ، فقال : « نعم الإمام في نفسه أن يكون معصوماً من الذنوب لأنه إن لم يكن معصوماً لم يؤمن أن يدخل فيها دخل فيه غيره من الذنوب ، فيحتاج أن يقام عليه الحد ، كما يقيمه هو على غيره ، فيحتاج الإمام إلى إمام إلى غير نهاية ، ولم يؤمن عليه أيضاً أن يكون في الباطن فاسقاً ، فاجراً ، كافراً »⁽⁴⁴⁾ .

والاعتقاد بعصمة الأئمة جعل الأحاديث التي تصدر عنهم صحيحة دون أن يشتربوا إيصال سندتها إلى النبي ﷺ كمَا هو الحال عند أهل السنة . قال الإمام الباقر موضحاً ذلك بقوله⁽⁴⁵⁾ : « إذا حدثت في الحديث فلم أسنده ، فسندي فيه أبي عن جدي عن أبيه ، عن جده » عن رسول الله ، عن جبرائيل ، عن الله عزوجل » .

وبعد هذا العرض السريع عن العصمة لا بد لنا من بيان حقيقة نراها ضرورية في هذا المجال .

الدين الإسلامي كنظام اجتماعي تطوري يقدر تقديراً دقيقاً ومحسب حساباً بعيداً لل المجال النفسي والوضع الاجتماعي بالنسبة لكل حكم من أحكامه ، مراعياً بذلك الظرف والمجال اللذين يسودان المجتمع من حين لآخر . فقد كان يحرص كل الحرص أن توافق أحكامه المجتمع في ظرفه الاجتماعي ولا ترهقه فتطلب منه اللحاق بها وهو عاجز لعدم توفر امكانياته . وقد كان النبي ﷺ على وعي تام بهذه الحقيقة النفسية والاجتماعية العظيمة .

وبعد وفاته ﷺ كان المجتمع الإسلامي لا يزال في عهد الطفولة بالنسبة إلى إدراكه العقيدة الإسلامية فلم يدركها إدراكاً كافياً ، فكان لا بد والحالة هذه من مثل للنبي ﷺ يأخذ على عاتقه إصدار التشريعات الاجتماعية الموافقة للظرف والحدث ، مستلهماً بذلك من صميم المبادئ الإسلامية الحقة ، سيباً وأن العالم الإسلامي كان مقدماً على تطورات لا بد منها في نشأة المجتمعات الحديثة . وإذا لم يترك النبي ﷺ لجنة تشريعية تتولى إصدار الأحكام والتشريعات فقد ألقى هذه المهمة على عاتق الحكومة الإسلامية حيث يكون الإمام هو المرجع التشريعي الأعلى .

(42) المرجع السابق عن عقائد الشيعة لمظفر محمد رضا ص 45.

(43) الامالي ج 2 ص 347

(44) مروج الذهب ج 3 ص 156 .

(45) تاريخ الامامية عن الشيخ المفيد ص 158

وهنا لا بد لهذا المرجع التشريعي من أن يتحل بعلم تام لروحية القانون العامة بحيث يكون على وعي عميق لكافة التطورات الاجتماعية في الأمة التي أنابت به مهمة التشريع « وذلك حتى ينفذ إلى أعماق النفس الإنسانية ولن يكون هذا الخليفة الذي أناب إليه النبي مهمة التشريع إلا خليقاً بها » وأولى هذه الضمانات المطلوبة في مثل هذا الإنسان العظيم هي العصمة التامة عن الذنب وعن الخطأ والانحراف عن سواء السبيل . هذه هي نظرية العصمة التي اشتهر بها الشيعة في الأئمّة وهم يطبقون مبادئ الإسلام الضرورية للواقع الإسلامي من جميع جوهره .

3 - النص

ذهب الشيعة إلى اشتراط النص في أمر الخلافة ، والواقع كما نراه وكما اتضح لنا بأن عدم النص مناقض لمبادئ الإسلام وحكمة النبي ﷺ وذلك انطلاقاً من الوضع الذي كان فيه المسلمون والظروف التي توفى بها النبي ﷺ هذا الوضع الذي يفرض على المسؤول عن أمّة كاملة ورسالة عالمية استخلاف من يقوم مقامه ليحفظ سير هذه الرسالة وهدفها الإسلامي الانساني .

إن منطق العقل يلقي علينا القول بضرورة العهد إلى من يقوم بأمور المسلمين من بعده ، والشيعة الإمامية الاثنا عشرية يؤمّنون بهذا المنطق لأنّهم يرون أنها ضرورة حتمية واجبة على إنسان عادي فكيف يمكن تجويزها على النبي مرسلاً من رب العالمين ؟

والسؤال الذي يتadar إلى الأذهان طرحة ، هل ترك النبي ﷺ نصًا معروفاً سمي به مسوًّا ولا يتولى أمر الخلافة من بعده ؟ (46) .

نصوص كثيرة وردت عن النبي ﷺ في هذا الشأن تثبت أنه ﷺ أعلن على الملا مرات عديدة أن الخلافة بعده لعلي بن أبي طالب . وقد رددتها مرات أن علياً خليفته ووصيه لترسيخ هذا الأمر في نفوس المسلمين . أما النصوص التي يستند عليها الشيعة فهي :

أ - نص الدار

وهو أول نص صدر عن النبي في خلافة علي ، وكان ذلك في فجر الدعوة الإسلامية وليس في وقت متأخر كما يظن البعض .

ونص الدار كما رواه أكثر المؤرخين والمحدثين كالطبراني وابن الأثير ومسند أحمد »

(46) جاء في شرح السيرة الخلبية : بعد أن جهر النبي بنص الغدير في علي بن أبي طالب بلغ ذلك الحارث بن النعمان الفهري فاتجه نحو النبي حتى أتى الأبطح فنزل عن ناقته فأناسها وعقلها ثم أتى النبي وهو في ملا من أصحابه ، وقال : يا محمد أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسوله ففعلناه وأمرتنا أن نصلِّي خمساً قبلناه وأمرتنا أن نصوم شهر رمضان قبلناه وأمرتنا أن نحج البيت قبلناه ، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عذك وفضلته علينا وقلت : « من كنت مولاه فعلي مولاه ، وهذا شيء منك أم من الله ؟ فقال النبي ﷺ والذي لا إله إلا هو من الله .

وشرح النهج . ويتلخص الحديث لما نزلت الآية الكريمة : « وأنذر عشيرتك الأقربين »⁽⁴⁷⁾ دعا الرسول علياً ، وكلفه بتحضير الطعام ودعوة آل عبد المطلب ، فقام علي بتنفيذ الأوامر ، وبعد أن شبع القوم وارتوا ، وقف الرسول بينهم مخاطباً : « يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم أن شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه ، فما يأكم يؤازرني على هذا الأمر ، على أن يكون أخي ووصي وخليفي فيكم » .

أحجم القوم عن الدعوة إلا علياً ، وهو أحدهم سناً ، فقد أجاب قائلاً : « أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه » . أما النبي فقد أعاد القول ولا يزال القوم محاججين ، ولا يزال علياً معلناً القبول ... وعندئذ أخذ النبي برقة علي وقال للحاضرين : « هذا أخي ووصي وخليفي فيكم فاسمعوا له وأطاعوا »⁽⁴⁸⁾ .

هذا الحديث لا ريب في صحته وقد اتفق عليه فحول المحدثين والعلماء ، وهو يدل دلالة قاطعة بأخره على ووصيته وخلافته بعد النبي ﷺ .

ب - حديث المنزلة

وهذا مستند ثان للشيعة بشأن ولادة علي . وذلك ان النبي ﷺ لما آتى بين المهاجرين قبل الهجرة اصطفى علياً لنفسه فأخاه وقال له : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لانبي بعدي »⁽⁴⁹⁾ . ف منزلة علي من النبي كمنزلة هارون من موسى عندما سأله عز وجل : « ... واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي ، أشدد به أزرني وأشركه في أمري » (طه الآية 29) والذي يثبت هذه الصفات كلها هارون هو قوله تعالى : « قل أتويت سؤلك يا موسى » طه الآية 26 .

ثم قال موسى هارون :

« أخلفني في قومي واصلح ولا تبيع سبيل المفسدين » الأعراف الآية 142 .
فهارون وزير أخيه موسى وشريكه في أمره وخليفيه في قومه ، فإذا أنزل النبي علياً من نفسه بمنزلة هارون من موسى ، فقد أثبت له بحكم هذا التنزيل جميع الصفات التي ثبتت هارون « اللهم إلا النبوة فقال ﷺ : « إلا أنه لا نبي بعدي » .

فالنبي ﷺ أراد علياً في جميع المنازل والشؤون ومنها الخلافة العامة . وآخر موارد هذا الحديث غزوة تبوك ، التي كانت في السنة التاسعة للهجرة والوجه الذي كان يقصده النبي في هذه الغزوة « بلاد الروم ، البعيدة عن المدينة فأراد النص على علي بما لا يقبل الشك عندما اتبع الحديث قوله : « إنه لا ينبغي لي أن أذهب إلا وأنت خليفي » .

(47) الشعراء الآية 114 .

(48) راجع نظام الحكم والإدارة في الإسلام للشيخ محمد مهدي شمس الدين ص 206 .
وانظر الأمالي للشيخ المقيد ص 18 .

(49) راجع صحيح مسلم ومستدرك الحاكم وكتاب المراجعات للسيد الإمام شرف الدين .

ج - حديث الغدير

أمر النبي ﷺ وقد انتهى بالسير إلى غدير خم ، مرفقية بالوقوف ، كما أمر برد الذاهب وحبس الآي عن المسير ، حتى تكاملوا واجتمعوا فقام وخطب فيهم قائلاً : « اللهم أشهد ... اللهم أشهد ... اللهم أشهد » .

إن الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أولي بهم من أنفسهم ، فمن كنت مولاه فعله ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » وانصر من نصره ، واحذل من خذله ، وادر الحق معه أينما دار .

وما ان فرغ من كلامه حتى اندفعت الوفود الى علي تباعده وتهنئه :
يغ بغ لك يا علي أصبحت مولانا ومولى كل مؤمن ومؤمنة⁽⁵⁰⁾ .

هذا هو حديث الغدير الواضح كل الوضوح والذي فيه من الأدلة والقرائن ما لا يدع مجالاً للشك في مدلوله عند الشيعة الاثني عشرية . وما ينبغي لنا معرفته أن هذا البلاغ لم يصدر عن النبي ﷺ إلا بداع فاهر لا يمكن رده أو الوقوف دونه ، فلقد أمر الله النبي بأن ينصب علياً للناس ويخبرهم بهذه الولاية وعندما تأثر عليه بالتبليغ خوفاً من اتهامه من بعض الحاسدين والمنافقين ، بالليل لصهره والجنوح لقرباته نزلت الآية الكريمة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة في السنة العاشرة للهجرة في حجة الوداع في غدير خم . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ بِلْغُ مَا أَنْزَلْ إِلَيْكَ مِنْ رِبِّكَ ۖ وَإِنْ لَمْ تَفْعُلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ۖ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾⁽⁵¹⁾ .

د - حديث الولاية

ونص آخر يعتمد الشيعة دليلاً على ما يذهبون في الخلافة ، وهو قول النبي لعلي في مناسبات عديدة : أنت ولي كل مؤمن بعدي⁽⁵²⁾ .

في منطق العقل وقبل أن ينص على خلافة علي القرآن الكريم نرى أن الإسلام كان ثورة كبرى ، ثورة شاملة تناولت جميع مظاهر الحياة الإنسانية فقلبت عقائد الروح ونظم الحكم والاجتماع والعلاقات الإنسانية بأسرها ، متى أوجدت من الكل المتساfer نظاماً مهماً متناسقاً . فمن يترى سيكون القائم على رأس هذه الحكومة الإسلامية الخالفة للحكومة النبوية من بين رجال المهاجرين والأنصار ؟

فهل يتadar إلى الذهن أن يكون غير علي بن أبي طالب الذي عاش غمار الدعوة

(50) روى الحديث مائة وعشرة من الصحابة ، وأربع وثمانون من التابعين ، وثلاثمائة وخمسون من العلماء على اختلاف طبقاتهم .

(51) المائدة الآية 67 وقد ورد في هذه الآية اشارة لركن من أركان الدين لا يمكن إلا به في منطق القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل أبداً .

(52) مستند أحمد ومستدرك الحاكم .

الاسلامية ورفاقها في مختلف مخنثها وأطوارها ، وتجرب الكافي من الالام في سبيلها ، حتى اتسمت روحه بها ، وأصبحت علامه ممزة لحياته في جميع مظاهرها . لقد كان أعلم الناس بها ، وأوعى الناس لها ، من بين جميع صحابة النبي ﷺ . وقد قال فيه عليه السلام : « أقسام على » .

فإن ذلك كله كان يرى المسلمين أنه أجدر الناس في عصره برئاسة الحكومة الإسلامية .
الخلفة لحكومة النبي ﷺ .

هذه هي المبادئ التي يعتمد عليها الشيعة في أمر الخلافة ومنهج الاستخلاف وقد أوردها مفصلاً ليتبين لكل ذي بصر وبصيرة الفروق الواضحة بين منهجهم وبين منهج أهل السنة .

جاءت هذه الآية المباركة تبارك تصرف الرسول ، وتعلن كمال الاسلام وقام النظام باعلان الولاية ، إثباتاً لتبلیغ الرسالة الانسانية الرحيمة الى الناس جميعاً : « ... وان لم تفعل فما بلغت رسالته . . . » .

ونوجز القول بخلاصة واضحة في نقطتين هامتين :

- تصور النبي ﷺ عن مسألة القيادة بعده .
 - تصور الصحابة عن هذه المسألة .

ما لا ريب فيه أن من أهم الأدلة على لزوم نصب الامام و الخليفة النبي بعده هو تصور النبي نفسه عن هذه المسألة .

فهل كان النبي يعتقد بلزم نصب الخليفة أو الإمام أو القائد من جانب الله تعالى ، أم كان يعتقد ترك هذا الأمر إلى الأمة لاختيار من تراه مناسباً بارادتها و اختيارها .

إن المؤثر عن النبي الأكرم ص وموقفه من قضية القيادة بعده ، تدل على أنه ص كان يعتبر أن هذه المسألة ، أمر تعين القائد ، مسألة إلهية وحقاً إلهياً . ولا شأن لأهل الحال والعقد في ذلك . فالله تعالى هو الذي له أن يعين قائد الأمة الإسلامية وينصب الخليفة الذي يخلفه بعد وفاته . فالأدلة العقلية والشواهد التقليية تفيد بآجمعها بأن النبي ص ذكر للأمة مراراً أن تعين الخليفة من بعده أمر إلهي ولا يمكنه أن يقطع لأحد عهداً ويستخلفه من بعده ، دون أن يأذن الله تعالى له في ذلك أو يأتيه منه سبحانه أمر وحسي

ورد في السيرة النبوية لابن هشام لما عرض الرسول ﷺ نفسه على بنى عامر الذين جاؤوا إلى مكة في موسم الحج ودعاهم إلى الإسلام قال له كبيرهم : «أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أن يكون لنا الأمر من بعدك؟» .

فقال النبي ﷺ : « الأمر الى الله يضمه حيث يشاء ». (53)

فالنبي كما نرى كان يتتجنب أن يفيد عن مسألة الخلافة من نفسه ، ولم يقل أن أمرها يرجع إلى إرادة الأمة ، بل أكد بوضوح أن هذه المسألة تعود إلى الله تعالى .
وأمر بيدهي أن مسألة انتخاب الخليفة بعد النبي ﷺ لو كانت من شؤون الأمة وصلاحياتها ، لوجب عليه ﷺ وهو الأمين على الرسالة الإسلامية أن يصرح بذلك أو يشير موضوع الاستخلاف ولو بالاجمال ، بل واجب عليه على الأقل أن يبين للأمة الطريقة الصحيحة في الانتخاب ويشرح لهم الشروط والمواصفات وكل ما يلزم لأمر منهجية الاستخلاف وصفات الناخب والمتخ叛 . بينما نجد النبي لم يتعرض لهذا الأمر أبداً لا من بعيد أو قريب ولم يؤثر عنه أي شيء من هذا القبيل ، من إرشادات أو تعليم في هذا المجال ، رغم أهمية الموضوع وخطورته البالغة « علمًا أنه ﷺ قد تعرض لأمور أبسط وأسهل بكثير من ذلك .

فهل مسألة القيادة والإدارة لأمة بدل ﷺ الكثير من أجلها وضحي طيلة ثلاثة وعشرين عاماً في سبيلها ، تكون أقل شأنًا وأقل أهمية من المستحبات والمكرهات التي وردت في الكثير الكثير من الأحاديث النبوية في شأنها ؟
والنقطة الهامة الثانية هي :

تصور الصحابة عن الخلافة بعد النبي ﷺ .

إذا تبعينا تاريخ الصحابة والخلفاء الراشدين الذين تعاقبوا على الخلافة بعد النبي ﷺ نرى بوضوح أن الطريقة التي اتبعها أولئك الصحابة ، والخلفاء كانت طريقة التعيين أو التنصيب وليس الطريقة الانتخابية المعروفة . فالخلفية السابق كان ينصب الخليفة اللاحق إما مباشرة ، أو بتعيين شورى أو لجنة تتولى هي تعيين الخليفة . والتاريخ يفيدنا أن أحداً من أولئك الخلفاء لم يترك أمر القيادة إلى إرادة الأمة واختيارها ، أو إلى أهل الحل والعقد ليختاروا بمحض إرادتهم من يشاون للخلافة والأمرة .

وإليك النصوص التاريخية الدالة على طريقة استخلاف الصحابة .

أ - استخلاف أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب

ورد في تاريخ الخلفاء لابن قتيبة : « ... دعا (أبو بكر) عثمان بن عفان فقال اكتب عهدي ، فكتب عثمان وأمل علىه : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة آخر عهده بالدنيا نازحاً عنها ، وأول عهده بالأخرة داخلاً فيها ، إنني استخلف عليكم عمر بن الخطاب فإن تروه عدل فيكم ظني به ورجائي فيه ، وإن بدل وغير فالخير أردت ، ولا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينتلبون » (55) .

(53) السيرة النبوية لابن هشام ج 2 ص 424.

(54) لقد ذكرنا الآية الكريمة التي أنزلها الله على رسوله ﷺ بأمر الولاية قبل قليل في سورة المائدة الآية (67) تقول : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فإما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدى القوم الكافرين ». راجع حديث الغدير

(55) الامامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري ص 18 وانظر ابن الأثير في الكامل ج 2 واليعقوبي في تاريخه ج 2

بـ - استخلاف عثمان

نقلها لنا أعلام السيرة وأثبتها كتاب التاريخ . قال ابن قتيبة في كتابه الامامة والسياسة :

قال عمر : سأستخلف النفر الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض ، فأرسل اليهم فجمعهم وهم : علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وطلحة بن عبد الله ، والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف . قال : يا معاشر المهاجرين الأولين إني نظرت في أمر الناس فلم أجدهم شقاقاً ولا نفاقاً فإن يكن بعدي شقاق ونفاق فهو فيكم فتشاوروا ثلاثة أيام ، فإن جاءكم طلحة إلى ذلك ، ولا فاعزم عليكم بالله أن لا تفترقوا من اليوم الثالث حتى تستختلفوا أحدهم »⁽⁵⁶⁾ .

وكتب ابن الأثير في الكامل :

« إن عمر بن الخطاب لما طعن قبل له : يا أمير المؤمنين لو استخلفت ؟ فقال : من أستخلف ؟ لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته . . . ولو كان سالم مولى حذيفة حياً لاستخلفته . . . فقال رجل : أذلك عليه ؟ عبد الله بن عمر .

فقال (عمر) : قاتلتك الله كيف استخلف من عجز عن طلاق امرأته . . . إلى أن قال : عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ لهم من أهل الجنة وهم : علي وعثمان وعبد الرحمن وسعد والزبير بن عوام وطلحة بن عبد الله .

فليما أصبح عمر دعا علياً وعثمان وسعداً وعبد الرحمن ، والزبير فقال لهم : إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض . . . فانهضوا إلى حجرة عائشة باذتها ، واختاروا منكم رجلاً ، فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام ، وليصل بالناس صهيب ، ولا يأتي اليوم الرابع إلا عليكم أمير » .

قال عمر لصهيب : « صل بالناس ثلاثة أيام وأدخل هؤلاء الرهط بيتكاً وقم على رؤوسهم فإن اجتمع خمسة وأبي واحد فاشدح رأسه بالسيف . . . وإن اتفق أربعة وأبي اثنان فاضرب رأسيهما . . . وإن رضي ثلاثة رجالاً وثلاثة رجالاً ، فحكموا عبد الله بن عمر فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوها الباقين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس »⁽⁵⁷⁾ .

كما روى ابن قتيبة أيضاً عن الصحابة مثل هذا الموقف قال :
نقل أن عمر بن الخطاب لما أحس بالموت قال لإبنه عبد الله اذهب إلى عائشة واقرأها

وطبقات ابن سعد الكبرى ج 3 ونظام الحكم والإدار للشيخ محمد مهدي شمس الدين .
وهل يمكن أن يتبع الخليفة إلى الخطر الكامن في ترك الأمة دون خليفة يستخلفها عليهم ولا يلتفت إليها النبي ﷺ !؟

(56) الامامة والسياسة لابن قتيبة ص 23.

(57) معلم الحكومة الاسلامية للاستاذ الشيخ جعفر السبحاني ص 177 . عن الكامل لابن الأثير .

مني السلام ، واستأذن منها أن أقرب في بيتها مع رسول الله ومع أبي بكر . فأناها عبد الله بن عمر فاعلماها ، فقالت « نعم وكرامة » . ثم قالت :

« يا بني أبلغ عمر سلامي فقل له : لا تدع أمة محمد بلا راع ... استخلف عليهم ، ولا تدعهم بعده هلا ، فإني أخشى عليهم الفتنة »⁽⁵⁸⁾ فأنى عبد الله إلى أبيه فاعلمه . هناك حقيقةتان هامتان في الدين الإسلامي لا بد من ذكرهما :

الحقيقة الأولى هو أنه ليس ديناً تحصر تعاليمه في علاقات الإنسان بربه فحسب » وإنما هو ضرورة اجتماعية بما شرع من أنظمة سياسية محكمة ، وأنظمة اجتماعية كاملة . وهو يستهدف من ذلك كله تكوين مجتمع مثالي لكل إنسان في أي مكان .

والحقيقة الثانية أنه توسل إلى هدفه هذا بتوفير العنصر الأخلاقي في نفس الإنسان ، لأن الإسلام ومكارم الأخلاق صنوان أساسيان لا يفترقان ، أما في حالة خضوع هذا النظام للدين خصوصاً شكلياً وخالقه في عدم توفر العنصر الأخلاقي فلا يمكن اعتباره إسلامياً .

ويملاحظة هاتين القطعتين نعلم أن نظام الحكم في الإسلام يجب أن يكون خاصعاً خصوصاً صحيحاً للمبادئ الإسلامية ، ملتزماً بها التزاماً كاملاً ، فلا يتعدى الحدود التي رسمت له ، ولا يقصر دونها . عملاً بالحديث الشريف : رحم الله أمراً عرف حده فوق عنده . من هنا كان الإسلام دين الحياة والآحياء .

الإسلام دين الحياة والآحياء

الإسلام نظام شامل كامل ، نظام دين ودولة في آن معاً ، فلقد انطوت نصوصه وتعاليمه على مبادئ أساسية وجوهرية في البناء الاجتماعي الإنساني . فعمل في التشريع الديني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري . وقد أثبتت الواقع التاريخية أن الإسلام لم يكن مجرد عقائد فردية منذ نشأة دولته الأولى ، وبرز إلى الوجود بأسلوبه الخاص في التنسيق الكامل بين العقيدة والتشريع وبين العبادات والمعاملات وبين الروحيات والزمانيات . وسوف نورد نصوصاً كثيرة في الفصول اللاحقة تؤكد لكل متعدد أو مرتاب وجه الإسلام الحقيقي الذي عالج جميع المشكلات الاجتماعية والحضارية ، ووضع لكل واحدة منها حلولاً عملياً لسعادة الناس أجمعين .

وكم من العلماء المسلمين والباحثين الغربيين المنصفين أكدوا هذه الحقائق » وعرفوا الروح السائدة في التعاليم الإسلامية ، الصالحة في كل شأن من شؤون الحياة والآحياء . فمنهم من قال : إن الإسلام دين ودولة ، وعقيدة ونظام . وقالوا أيضاً بأن الإسلام في تعاليمه الأساسية حدد على السواء شروط الحياة العائلية والاجتماعية والدينية والسياسية وكل ما يحتاجه الفرد في الدنيا والآخرة .

وقال بعضهم أن الحكومة الإسلامية حكومة دستورية ، واجبة بالإجماع والعقل

(58) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ص 32 وما نراه غريباً هو أن كيف أن المؤمنين تيقنوا لهذا الأمر وغفل عنه النبي ﷺ وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم !؟

والشرع . وإننا نرحب هنا أن نصف بصورة عامة المنطلق الإسلامي الأساسي للنظم الحضارية التي قام عليها هذا الدين الحنيف ، وأنشأ مدنية ملائمة لشعوبها الكون بأسره حكمة وعلماً وعدلاً وإنصافاً ومحبة ووئاماً ، وأمناً وسلاماً .

هذه الأقوال وما يشابهها ، المستوحاة من روح الإسلام أدرك أصحابها ما انفرد به هذا الدين عن غيره من الأديان السماوية الأخرى التي قامت جميعها على التراحم والمحبة والتكافل من غير أن ترسم لذلك كله تشريعات واضحة ، وحدوداً صريحة إذ تركت للنظم الزمنية القائمة تقرير الأصول والنظم .

أما الإسلام فإنه نسق تنسيقاً واقعياً جيلاً بين شؤون المادة وشؤون الروح بنظم واضحة وصريمحة ، تتعادل فيها الحقوق والواجبات ، وتكتفل بواسطتها ضمانات الحياة المادية ، وضمانات العدالة القانونية . وعلى هذا يعد الإسلام ، من خلال نظمه وتشريعاته ، دين التوحيد بين قوى الكون جميعاً ، تلتقي فيه القيم الروحية مع القيم الاقتصادية بتعادل وتعاون ، ويعمل على تنشيط العلم وتنميته في جميع المجالات الحياتية ليبلغ حد الجودة والاتقان ، ويتم فيه التوازن الكامل النسجم بين أشواق الروح ومظاهر الحياة .

وهل نعجب بعد ذلك إذا بلغ الذروة من التسامي الروحي والعدل الاجتماعي ! وهل تستغرب إذا دخل فيه الناس أفواجاً أفواجاً لاعتباره ضرورة اجتماعية ومحطة حضارية كبيرة في تاريخ الحياة الإنسانية الحرة الكريمة !

وما أريد بيانه ، وأنا أكتب في النظم الإسلامية : إن تلك النظم غير مقطوعة الصلة بأصولها القديمة ، بل لقد اعتراها التطور الاجتماعي الذي لا غنى عنه لكل نظام يلبي حاجات الإنسان المتغيرة مع ثقافات العصر وظروف البيئة والزمان . من هنا فتح باب الاجتهد على مصراعيه عند المراجع الدينية العليا لعرض رأي الإسلام الصريح المتتوافق مع ركب الحياة الاجتماعية المعاشرة ، ومع أزهى عصر عرفته حضارة الإنسان .

ولا ريب أن مسألة تنظيم الإسلام للحياة الاجتماعية في جوانبها المختلفة بدأت في عصر مبكر ، عصر النبوة ، عصر الرسالة الخالدة ، وبيقينا في ذلك أن تلك النظم كانت على أكمل وجه ممكن ، وأي موضوع جديد على الحياة الإنسانية المعاصرة له بشكل أو بآخر أصل في القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة .

ولاحظ فالإسلام دين الفطرة في مبناه ومعناه . قال تعالى :

﴿فَإِنَّمَاٰنَّمُّلَّٰكَ لِلّٰهِ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّٰهِ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ، وَلَكُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽⁵⁹⁾ .

وهو - كما تنص مبادئه - دين البشرية عامة في الجيل الذي شهدته وفي الأجيال التي أعقبته وتعقبه إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات غير المساوات قال عزّ وجلّ :

(59) الروم - الآية 30.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافِةً لِلنَّاسِ بُشِّرًا وَنذِيرًا ﴾⁽⁶⁰⁾. ولما كان الإسلام دين الفطرة فلا بد أن يرجع بالبشرية الضالة إلى فطرتها لينطلق فيعيد إلى الحياة معناها السامي الكريم . ويوجه الإنسان نحو القيم الإنسانية العليا .

والواقع الذي كان يعانيه العالم يومذاك لم يتطلب من الإسلام علاجاً لبعض نواحي الحياة فحسب ، وإنما كان في أمس الحاجة إلى إصلاح جذري ، فتناول الأصول والقواعد الفاسدة التي درج الناس عليها فمحققها وأقام مكانها أصولاً جديدة تتجه بالحياة الإنسانية سبيلاً جديداً .

كل ذلك من أجل أن يوحد المسلمين في شتى بقاع الأرض ويعمل على بث الدين الإسلامي في العالم أجمع . وقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكتنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾⁽⁶¹⁾ .

والمجتمع الإسلامي ليس أفراداً مجتمعين يلتقطون بأجسامهم فحسب ، وإنما هو مجتمع استوفى معناه الاجتماعي فالأفراد المؤمنون برسالته الإنسانية السمحاء ، يجتمعون على معنى واحد هو العمل لوجه الله ولخير الناس جميعاً ، والمجتمع المسلم جسم واحد تواشجت أعضاؤه فيما بينها بصدق ومحبة وإخلاص . قال النبي ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وترابحهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكت منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ». وقال ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأن فيه ما يحب لنفسه » .

وهكذا نجد الإسلام - دين الحياة والاحياء - في جميع ميادين النشاطات الإنسانية التي عرض لها في تشريعاته يضع نصب عينيه القيم الإنسانية العليا ويأخذ المسلم المؤمن بالسير عليها في حياته العملية .

أما المهدى الذي سعى إليه فهو تكون مجتمع انسانى مثالى ، وأما الوسيلة إلى ذلك فهي توفير العنصر الأخلاقي في نفس الإنسان ، لأن الفرد هو النواة الأساسية في بناء المجتمع فإذا صلحت هذه النواة صلح البناء بأسره . وإن هذا العنصر الأخلاقي ، الذي هو الأساس في بناء أي مجتمع متحضر ، لا يأتي إلا بالرجوع إلى سواء الفطرة ، فطرة الدين الحنيف ، فطرة الله جل جلاله . قال رسول الله ﷺ : « إنما بعثت لاتق مكارم الأخلاق ». وقال الله عزوجل في وصفه للرسول ﷺ : « وإنك لعلى خلق عظيم »⁽⁶²⁾ .

(60) سبأ - الآية 28 .

(61) آل عمران الآية 103 .

(62) القلم الآية 4 .

**الباب الرابع
النظام الاداري**

الفصل الأول

لحة تاريخية

وضع الرسول ﷺ اللبنة الأولى للتنظيم الإداري ، فقد أرسل إلى القبائل في النواحي من يفدها في الدين ويعملها أحكام القرآن ، وقد أخذ التنظيم بالاتساع يوم بدأ ينبع عنه ﷺ بعض عماله في بعض المدن والقبائل الكثيرة في كل من الحجاز واليمن . من أهم الأعمال والوظائف هؤلاء العمال تتلخص في إماماة المسلمين في الصلاة ، وإصدار الأوامر في جمع الزكاة وجباتها قبل تفصيل شؤون الخراج .

ومما يروى أن أول راتب مالي أعطي للعمال والولاة والموظفين على عهد النبي ما فرضه ﷺ لعتاب بن أسيد ، نائبه على مكة ، فقد خصه بدرهم واحد كل يوم⁽¹⁾ وعلمه الصحابة يوم عرفا بالأمر غنياً لما كان يغلب عليهم من حياة التقشف والزهد .

وكذلك كبار الصحابة كانوا كلما أوفدهم النبي ﷺ في معارك وأبلوا فيها بلاء حسناً ، خصهم بتصيب من الغنائم ، ولما ولـي الخليفة أبو بكر رضي الله عنه أقر عمال النبي ﷺ على وظائفهم وأعمالهم التي كانوا يقومون بها . فأبـو عبيدة جعله على المال ، ولعمر رضي الله عنه أعطاه القضاء ولـعلي كرم الله وجهه الفتوى في كل المشكلات التي يستعصي حلها : من دينية وقضائية واجتماعية . والعمال اختاروا القضاة في الأمصار المختلفة وعيـنوهـمـ عـلـيـهـاـ ، ولـما اتسعت الدولة الإسلامية بعد الفتوحـ الكثـيرـةـ ، وجـدـ عمرـ أنـ لاـ بدـ منـ التـقـسيـمـ الإـادـريـ فيـ الـمنـاطـقـ والأـمـصارـ لـيـسـهـلـ عـلـيـهـ أمرـ الـاـشـرافـ وـالـادـارـةـ ، فـجـعـلـ بـلـادـ فـارـسـ ثـلـاثـ ولاـيـاتـ ، وـبـلـادـ العـرـاقـ وـلـايـتـينـ ، وـافـرـيقـياـ ثـلـاثـ وـلـايـاتـ لـسـعـةـ مـسـاحـتـهاـ ، أـمـاـ بـلـادـ الـأـهـواـزـ وـالـبـحـرـيـنـ فـجـعـلـ هـاـ لـلـاـيـةـ مـشـرـكـةـ ، وـجـعـلـ كـلـأـ مـنـ سـجـسـتـانـ وـمـكـرانـ وـكـرـمانـ مـجـتمـعـةـ لـلـاـيـةـ وـاحـدـةـ . وـجـعـلـ فـيـ كـلـ مـنـ طـبـرـسـتـانـ وـخـرـاسـانـ وـلـايـةـ مـسـتـقـلـةـ . كـمـ جـعـلـ فـلـسـطـيـنـ وـلـايـةـ مـسـتـقـلـةـ أـيـضـاـ .

فـعـمـرـ هوـ أـوـلـ مـنـ أـدـخـلـ التـنـظـيمـ الإـادـريـ وـلـاـ سـيـماـ نـظـامـ الدـوـاـءـينـ بـعـدـ إـشـارـةـ مـنـ أحدـ الـمـرـازـيـةـ الـفـرـسـ عـنـدـمـ اـتـسـعـ مـورـدـ الـدـوـلـةـ اـتـسـاعـاـ مـلـحـوظـاـ . وـتـسـمـيـةـ الـأـمـيرـ بـالـعـاـمـلـ يـشـيرـ إـلـيـ سـلـطـتـهـ الـوـاسـعـةـ فـلـاـ قـيـودـ عـلـيـهـ بـلـ كـانـ يـعـمـلـ مـاـ يـرـاهـ أـفـضـلـ فـيـ كـلـ مـرـفـقـ مـنـ مـرـافقـ الـحـيـاةـ دـينـيـاـ وـدـنـيـوـيـاـ .

(1) السيرة لابن هشام ج 2 ص 500.

وقد اختار عمر عماله من العرب بناءً لقدرتهم في فهم أصول الشريعة الإسلامية وفقههم في أصول الدين . وليس تعظيمًا لعرقهم أو جنسهم ، لأن عليهم أن يقيموا بالناس الصلاة ، ويقضوا بينهم بالحق ، ويقسموا الغنائم والعشور .

وقد سار عثمان سيرة عمر في أول تسلمه الخلافة ، أما قبل نهاية حكمه فكان قد ضعف ولم يكن قويًا حازماً ، فقرب عشيرته وسلمهم مختلف زمام شؤون الحكم فتذمرت الرعية وشكّت مرات في مختلف الولايات ، الأمر الذي أدى إلى الفتنة الكبرى ومصرع الخليفة المؤلم .

كان الأمير أو الوالي يجعل من المسجد ندوة للاجتماع ، فمنه تذاع الأخبار العامة وفيه تلقى الخطيب الاصلاحي والتوجيهي وبيانات الولاية في السياسة والدين والمجتمع⁽²⁾ .

أما في العصر الأموي يمكن القول بصورة عامة أن النظام الإداري في عهد بني أمية ظلّ أولياً بسيطاً أقرب إلى السذاجة ، لم تكن فيه الاختصاصات على النحو الذي تحول إليه في عهد العباسين . لأن الأمويين كانوا يؤثرون العمال العرب ولا يعنون في الادارة إلا العرب الخالص وهذا ما دفع الباحث إلى القول أن الدولة دولة عربية أعرابية ، وقد ازداد نفوذ الوالي في العهد الأموي ، فكان الحاجج مثلاً يجمع الأموال بطريقه الشخصية ولا يراجع في ذلك الخليفة ، فله سلطة مطلقة حتى على أرواح البشر .

أما في العصر العباسي الأول فقد اقتصرت سلطات العمال على أمامة الصلاة وقيادة الجيش ، بينما الشؤون الأخرى المالية أو العدلية أو شؤون البريد والمواصلات كان يقوم بها غير المسلمين . والخليفة العباسي كان يختار عمال الأقاليم بنفسه ، وإذا شك في صدق أحد عماله فإنه يأمر بمصادرة كل أملاكه من ثابت ومنقول ، هذا إذا سلم رأسه من سيف الحلال .

ولما تمايذل الضعف في جسم الدولة العباسية ، ثار بعض العمال واستقلوا بولاياتهم الأقليمية ، فقامت في الشرق بعض الدولات كالحمدانية والمهلية ، وقامت في مصر دولات أخرى كالطولونية والأخشيدية والفااطمية .

في عهد النبي وبعدة ، وهذه صورة مفصلة عن حكومة الأقاليم .

حكومة الأقاليم

عندما استقر النبي ﷺ بالمدينة ، وانتشر الإسلام في جزيرة العرب ، بعث صلوات الله عليه عماله وأمراءه ، إلى كل البلاد التي دخلت في حكم الإسلام . وكانت مهمة هؤلاء العمال والأمراء ، إماماة الناس في الصلاة ، وجمع الصدقات ، وإقامة الحدود والفصل في القضايا . وقد عرّفوا عماله بالعلم والقوى والفقه في الدين .

أجمع المؤرخون وكتاب السير أن أهم عماله ﷺ هم :

1 - عامل الطائف : عثمان بن أبي العاص .

(2) النظم الإسلامية ص 136 .

- 2 - عامل البحرين : العلاء بن الحضرمي .
- 3 - عامل حضرموت : زياد بن لبيد .
- 4 - عامل صناعة : المهاجر بن أبي أمية .
- 5 - عامل مكة : عتاب بن أسيد الأموي⁽³⁾ .

وأول راتب فرضه النبي ﷺ للعمال هو راتب عتاب بن أسيد ، وكان درهماً في كل يوم .

في عهد أبي بكر قسمت البلاد التي كانت تحت الادارة الاسلامية الى عشر ولايات على كل ولاية منها أمير ، من واجباته إقامة الصلاة ، وجمع الصدقات ، والفصل في القضايا ، وإقامة الحدود ، كما كانت الحالة أيام الرسول ﷺ فالامير قاضٍ ومنفذ ، يقوم بعمل الشرطة اليوم .

هذه الولايات ، الخمس المذكورة : الطائف والبحرين وحضرموت وصناعة ومكة ، أقر عليها أبو بكر ولاتها السابقين . أما الولايات الخمس المستجدة فهي :

- 6 - خولان وعليها يعلى بن أمية .
- 7 - زيد ورمع وعليهما معاً أبو موسى الأشعري .
- 8 - الجند وعليها معاذ بن جبل .
- 9 - نجران وعليها جرير بن عبد الله البجلي .
- 10 - جرش وعليها عبد الله بن ثور .

أما العراق والشام فالحروب كانت فيها على قدم وساق ، وأمراء الجند كانوا ولاة الأمر فيها .

وفي عهد عمر اتسعت رقعة البلاد الاسلامية ؛ فقسمها الى أقسام إدارية كبيرة » وجعل على كل قسم منها ولياً يتولى شؤونها ، وذلك حتى يسهل حكمها والاشراف عليها وعلى مواردها .

وحكام الولايات كانوا من أفضل القوم وأرفعهم علمًا وهدياً ، سيراً على سنن النبي ﷺ في اختيار الأصلح للولاية . وقبل إرسالهم الى الحكم كان يتعهدون بالتصح والإرشاد . من ذلك ذكر بعض نصائحه لعماله . قال : « إني لم أبعثكم جبارية ولكن بعثكم أئمة . فلا تضربوا المسلمين فتلدوهم ولا تجمروه فتفتنوهم . ولا تمنعوهم فظالموهم وأدوا لفتحة المسلمين »⁽⁴⁾ .

- الولايات في عهد عمر هي عشر أيضًا :
- 1 - مكة وأميرها نافع بن عبد الحارث الخزاعي .

(3) سيرة ابن هشام ج 2 ص 349 وتأريخه الطبرى ج 2 ص 455 وatab من مسلمي الفتاح ، استعمله النبي ﷺ على مكة لما خرج الى حنين وكان عمره 20 سنة .

(4) الخراج للقاضي أبي يوسف ص 66 .

- 2 - الطائف وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفي .
 - 3 - صناعة وأميرها يعلي بن منهه .
 - 4 - الجند وأميرها عبد الله بن أبي ربيعة .
 - 5 - البحرين وأميرها عثمان بن أبي العاص .
 - 6 - الكوفة وأميرها المغيرة بن شعبة .
 - 7 - البصرة وأميرها أبو موسى الأشعري .
 - 8 - دمشق وأميرها معاوية بن أبي سفيان .
 - 9 - حمص وأميرها عمير بن سعد .
 - 10 - مصر وأميرها عمرو بن العاص .
- وهكذا أصبح للدولة الإسلامية نظام إداري يكفل لل الخليفة حسن الأشرف عليها .

وفي عهد عثمان بقيت الأقاليم على ما هي عليه من حيث التقسيم والتأمير الشيء المميز في هذا العهد إن بعض الولاية والقرى من الخليفة أثروا ثراءً فاحشاً فملكون الضياع والمزارع وألاف المواشي والقطاطير من الذهب والفضة وبنوا الدور بالجص والعمق . جاء في تاريخ التمدن الإسلامي :

« وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس غير الضياع والأموال بمائة ألف دينار . وبني الزبير داره بالبصرة وبني أيضاً بمصر والكوفة والاسكندرية . وكذلك بني طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والأجر والساج . وبني سعد ابن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سماكتها وأوسع فضاءها وجعل على أعلىها شرفات . . . » (5)

هذا كله في عهد عثمان . أما في عهد علي عهد الزهد والتقوى والحروب الداخلية المريدة . فقد انسلاخ عن الأقاليم المذكورة إقليم الشام وكان واليه معاوية بن أبي سفيان الذي تولاه طوال العهد الراشدي ، حتى كان عهد علي ، أمر بعزله من ولاية الشام لما رأى انحرافه عن الخط الإسلامي من بذخ واسراف ومجون وتهتك ، رفض معاوية أمر الخليفة ودارت الحروب والمعارك وأبرزها معركة الجمل المعروفة .

وكذلك كان أمر مصر التي كان أميرها عمرو بن العاص الذي استقل بولايته وعصى أمر أمير المؤمنين وتصرف كما يتصرف ملوك القياصرة وملوك الأكاسرة بعيداً عن شريعة الإسلام العادلة السمحاء .

ويقي تحت أمرة علي ثمان ولايات الباقة وهي : مكة والطائف وصناعة والجند والبحرين وما والاها والكوفة والبصرة وحمص .

ولما كان العهد الأموي بلغت الدولة الإسلامية حداً بعيداً من الاتساع وقد قسمت إلى خمس إمارات كبيرة :

(5) تاريخ التمدن الإسلامي برجي زيدان ج 1 ص 80 .

- 1 - الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب .
- 2 - مصر بقسميهما السفلى والعليا .
- 3 - العراقان : أ - العربي ويشمل بلاد بابل وآشور القديمة .
ب - والعجمي وهو بلاد فارس
- 4 - بلاد الجزيرة : ويتبعها أرمينية ، وأذربيجان ، وبعض أراضي آسيا الصغرى .
- 5 - إفريقيا الشمالية وتشمل ما غرب مصر ، وببلاد الأندلس ، وجزيرة صقلية وسردانية ، والبلغار ومركزها القيروان⁽⁶⁾ ..

أعمال الدولة الإسلامية في العصور العباسية

يتسع نطاق الدولة الإسلامية على عهد العباسيين إلى حد لم تبلغه من قبل وقد بلغت حدودها شمالاً إلى أعلى تركستان في آسيا وجبال البرنس في شمالي إفريقيا ، وجنوباً إلى بحر العرب والمحيط الهندي والصحراء الإفريقية الكبرى وشرقاً إلى بلاد السندي من بلاد الهند ، وغرباً المحيط الأطلسي ، وبذلك فقد زادت مساحتها على ضعفي مساحة أوروبا⁽⁷⁾ .

وهذا العهد ترتب الولايات على هذه الصورة :

- 1 - الكوفة والسودان .
- 2 - البصرة وما وراءها جنوباً إلى البحرين وعمان .
- 3 - الحجاز واليمامة .
- 4 - اليمن .
- 5 - الأهواز (خوزستان) .
- 6 - بلاد فارس .
- 7 - خراسان .
- 8 - الموصل .
- 9 - الجزيرة بين النهرين وأرمينية وأذربيجان .
- 10 - الشام .
- 11 - مصر وأفريقيا .
- 12 - السندي في حدود الهند .
- 13 - الأندلس .

وقد خرجت بعض الأعمال عن سلطة العباسيين كالأندلس لما تولاها بنو أمية والطاهرية والسامانية والأغليبة والطولونية ونحوها . ولكن أمراء هذه النواحي المستقلة كانوا يخطبون لل الخليفة العباسي ما عدا الأندلس .

ولا تزال الأمم كثيرة من آسيا وأفريقيا تكتب لغاتها بالحروف العربية إلى الآن :

(6) المصدر نفسه ص 108 وتاريخ الحضارة الإسلامية أبو زيد شلبي ص 178 .

(7) تاريخ التمدن الإسلامي بلرجي زيدان ج 1 ص 108 .

كان الخلفاء العباسيون يتبعون سياسة تغيير الولاية بين وقت وآخر ، مما جعل هؤلاء ينصرفون عن القيام بالأعمال الخيرية والمفيدة ، ولا يكاد الوالي يبدأ بمشروع اصلاحي حتى يخلع ويعين غيره ، من عرف بالمرونة السياسية ، والخبرة الادارية ، وحسن التدبير . وفي أيام يزيد بن عبد الملك أصبحت المحاباة عاملاً أساسياً في الترشيح لتولي أعمال الدولة . فلا هم للوالي إلا إرضاء الخليفة وحاشيته بهدايا الغالية على حساب الرعية المظلومة .

وقد قسم الفقهاء الامارة إلى نوعين :

إمارة خاصة وإمارة عامة :

فإمارة الخاصة تقتصر على تدبير الجيش ، وسياسة الرعية ، والدفاع عن كيان الدولة وليس لهذا الأمير التعرض للقضاء والأحكام ، ولا جبائية الخارج والصداقات .

والامارة العامة جعلوها هي الأخرى إمارتين :

إمارة استكفاء وإمارة استيلاء :

فإمارة الاستكفاء كانت بعقد عن اختيار ، فالامير يتولها برضى الخليفة . وأما إمارة الاستيلاء . فكانت بعقد عن اضطرار ، أي أن الأمير كان يأخذها بالقوة فيضطر الخليفة عندها إلى إقراره عليها .

وفي كلا النوعين كان لا بد من النظر في تدبير الجيوش ، ووضع الخطط الحربية . وتقليد القضاة ، وجباية الخارج وبعض الصدقات وإقامة الحدود ، وتسخير الم Hijj وجهاد الأعداء ، وتوزيع الغنائم بين المتقاتلين وأخذ خمسها لأصحاب الخمس حسب التوزيع الوارد نصه في القرآن .

وفي كلا النوعين من الامارة يستبد الأمير أو الوالي أو العامل بالسياسة الداخلية والتدبير الخاص حسب مزاجه ولكنه يترك للخليفة وحده كل شأن يتعلق بالدين والأمور الروحية رعاية للرمز الديني الذي يمثله الخليفة أو الإمام⁽⁸⁾ .

الدواوين :

ذكرنا من قبل أن عمر بن الخطاب كان أول من وضع التنظيم الاداري بإدخاله نظام الدواوين الذي أشار به عليه أحد مرازبة الفرس وذلك بعد أن أحرزت الدولة الإسلامية فتوحات واسعة النطاق⁽⁹⁾ .

وأصل الديوان : الدفتر أو السجل بالمارسية . وقد أطلقوا اسم الديوان على المكان أو الدائرة التي يحفظ فيها من باب المجاز⁽¹⁰⁾ .

ولكن عمر أخذ هذا النظام الفارسي ولم يتركه على حاله ، لأن كل دولة لها شأنها وخصوصياتها بل جعل منه عدة فروع وأبواب وذلك تبعاً لحاجات الدولة الجديدة والواسعة .

(8) أحكام المادردي ص 32-28 وأحكام أبي يعلى ص 17 وما بعدها . وقد فصلاً ذلك في فصل الامارة .

(9) الأحكام السلطانية لأبي يعلي ص 221 .

(10) الأحكام السلطانية لأبي يعلي ص 221 .

- 1 - فأنشأ ديوان الجنود لينظر فيها يخص الجنود من العطاء ومصاريف الحرب والدفاع .
- 2 - وديوان الخراج لينظر في ما يرد الى بيت المال من جباية وما يفرض لكل مسلم من عطاء .
والدواوين في الدولة الإسلامية الحديثة منها المركزية التي أنشأها العرب أنفسهم فكان كل ما فيها عربياً خالصاً غير مستورد .

ومنها المحلية الإقليمية التي وجدتها العرب في البلدان المفتوحة . فوجدو من الحكمة إبقاء أهلها عليها حتى لا ينأجئوهم بجديد ولا يضطرب عليها الأمر ، كما كانت الحال في العراق وايران ، فقد كانت دواوينها على النمط الفارسي حسب تقاليدها ومحيطةها .

أما الشام فقد كانت دواوينها على النمط الرومي أي البيزنطي ، وفي مصر كانت قبطية وفي عهد عبد الملك بن مروان والوليد وهشام من الخلفاء الأمويين فقد عربت هذه الدواوين . وقد كان عمر بن الخطاب يميل في تنظيمه الاداري الى المركزية بصورة عامة ولذلك ربط الجندي بالمركز حين أنشأ ديوان الجنود . وصاروا يطلقون اسم الديوان على هذا الديوان نفسه دون قيد أو شرط . لأنه كان في زمن عمر الديوان الوحيدة ذات الصفة الواضحة المستقلة . وقد آثر عمر أن يسوى في العطاء والهبات بين العرب الخالص والموالي ، وكتب بذلك الى أمراء الأجناد في الأمصار⁽¹¹⁾ .

الدواوين في العصر الأموي

تيسرت الظروف الملائمة للأمويين من الاتصال بالفرس والبيزنطيين ، أكثر مما تيسر للراشدين ، فاتسعت بذلك مراافق الدولة في شتى الميادين واحتاجت الى دواوين جديدة تنظم إدارتها وتتلامع مع تطورها ، ومع ذلك ظلت هذه الدواوين بدائية ولم تأخذ شكلها النهائي إلا في العصر العباسي . وهذه أهم دواوين العصر الأموي⁽¹²⁾ .

- 1 - ديوان الخراج : يتولى تنظيم أمور الخراج ومشاكلها وما يتاسب مع روح العصر الجديد ، ولا ريب أن هذا التطور وثبة حضارية يتطلب كل تقدم في كل الأمم التي واكبته الحضارة في سيرها المتقدم .
- 2 - ديوان الرسائل : يشرف على مراسلات الخليفة في الداخل والخارج وفي كل ما يتعلق بالشؤون ذات الصبغة السياسية والاقتصادية مع الدول الأخرى .
- 3 - ديوان المستغلات أو ديوان الإيرادات المشروعة كالموارد الغير منقوله كالاراضي والأبنية الحكومية وكل ما يعود من أملاك عامة للدولة .
- 4 - ديوان النفقات : تتعلق مهمته في صرف ما ينفق على تسليح الجيش من معدات وآليات ورواتب العسكريين وألبستهم ، والإدارة المركزية التي توزع مرافق الدولة على الدوائر المختلفة .

(11) فتح البلدان للبلاذري .

(12) راجع المدخل في تاريخ الحضارة العربية لتساجي معروف فيه الشروح المفصلة عن الدواوين في العصر الأموي (ص 34 وما بعدها) .

5 - ديوان الصدقات : يعني بتوزيع موارد الزكاة على أصحاب الحقوق على النحو الذي صرخ بتوزيعه القرآن الكريم . واسمها مأخوذ من آية الصدقات في قوله تعالى : ﴿إِنَّا الصُّدُقَاتِ لِلْفَقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤْلَفَةِ قِلْوَبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾⁽¹³⁾ .

6 - ديوان الجند : يعني بإحصاء أسماء الجنود وتحديد عطاياهم ورواتיהם فقط .

7 - ديوان الطراز ومهمته تختص بالمعامل التي كانت تنتج الأزياء الرسمية والاعلام في الحرب ، والشارات والشعارات في جميع الأحوال الرسمية الخاصة بالدولة .

8 - ديوان البريد : كان ينظم الاتصالات وضروب النقل وألات بين العاصمة ومقطوعات الدولة ، ولنقل الأخبار السياسية والأدارية والدينية من ولاية إلى أخرى .

9 - ديوان الخاتم : أنشأه معاوية بن أبي سفيان لنسخ أوامره وبلاغاته ويعود هذا الديوان في مكان أمين بعد حزمه بخط وختمه بالشمع الأحمر بخاتم صاحب الديوان ، أو رئيس الديوان .

وقد بقي ديوان الخاتم هذا من أيام معاوية حتى أواسط الدولة العباسية حيث تحولت أعماله على الوزراء والسلطانين والحجاج ثم ألغى بعد ذلك .

وفي عهد عبد الملك بن مروان (86 هـ) حدث أمر هام حيث عربت الدواوين في العراق والشام ، ثم عربت دواوين مصر في خلافة الوليد الأول ودواوين خراسان في خلافة هشام بن عبد الملك ، وأمست اللغة الرسمية في السياسة والإدارة هي اللغة العربية بعد أن نقلت إليها أدق المصطلحات الفارسية واليونانية في الحساب والفنون التي كانت شائعة في تلك العصور⁽¹⁴⁾ .

الدواوين في العصر العثماني

اتسعت رقعة الدولة العباسية وكثرت خيراتها فكثرت الدواوين وتنوعت اختصاصاتها مما دعا العباسيون إلى الاستعانة بخبرة الفرس الإدارية في تنظيمها وتوسيع صلاحياتها . ولئن احتفظ العباسيون بعض تظميمات الدولة الأموية في الدواوين والدوائر الرسمية فإنهم آثروا التجديد في كثير من موضوعات تلك الدواوين وأشكالها وما تناوله سلطات أصحابها المشرفين عليها .

والشيء المحدث الذي أوجده بنو العباس هو أنهم جمعوا تلك الدواوين في دفاتر وسجلات بدلاً من أن تكون صحفاً مبعثرة متفرقة .

ففي عهد المنصور 754 م - 775 أبرز ما استحدث ، الديوان الخاص الذي أنشأ لحفظ أسماء الأشخاص الذي صودرت أسماؤهم ، وقد أطلق عليه اسم ديوان المصادرات . من هذا

(13) التوبه الآية 60.

(14) راجع المدخل في تاريخ الحضارة العربية لناجي معروف ص 34-35.

نعلم كثرة من صورت أموالهم في عهد هذا الخليفة العباسي ، حتى دعتهم الحاجة إلى إنشاء مثل هذا الديوان .

وفي عهد المهدي 775 م - 785 م استحدث دواوين جديدة أيضاً متعددة الاختصاصات سموها : دواوين الأزمة وهي عبارة عن دوائر مهمتها الإشراف على الدواوين الكبيرة . فكأنها ديوان محاسبة في عصرنا اليوم . لأنها تعنى بالدرجة الأولى بالتدقيق بالحسابات والشئون المالية التي يتصرف بها كل ديوان . بالإضافة إلى هذه الدواوين أنشئ :

ديوان زمام الأزمة : وتنحصر مهمته في تنظيم جميع دواوين الأزمة في آن معًا . ومن اسمه إشارة أنه كان قواماً لكل أمر عالجه أي ديوان آخر على حدة . في كل مرفق من مرفق الحياة المدنية .

وديوان ثالث أنشأ في عهد المهدي أيضاً هو ديوان النظر في المظالم والغاية من إنشاء هذا الديوان النظر في المظالم والشكوى التي تشكي منها أفراد الرعية من ظلم ولاتها . فهو يقوم بدور مجلس شورى الدولة اليوم ، ومن صلحياته أيضاً مراقبة غلاء الأسعار فهو يقوم أيضاً بدور وزارة الاقتصاد . كما ينظر في كثرة إيداع الناس السجون من غير نظر دقيق في دعواهم . وفي بعض الأحيان ينظر في أمور الأموال المصادرة بغير حق .

وفي عهد الرشيد 786 م - 809 م استحدث ديوان الصوابي ، وهي الأرضي التي تملكها الخزينة الرسمية . والخزينة الرسمية هذه هي خزينة الخليفة التي اصطفاها لنفسه . حتى جاء المعتصم 833 م - 809 م وأنشأ ديوان الغلمان والموالي . وما يظهر أن في نفسه ميلاً ورغبة لابتياع الغلمان الأتراءك . الأمر الذي ثار حفيظة العلماء الأتقياء واستنكروا إنشاء هذا الديوان ، وما يبدو أن الغاية منه لم تتعذر النظر في الاستثناء من العلمان ، والسعر المناسب لكل واحد منهم .

وفي العصر العباسي الثاني الذي بدأ بال الخليفة المتوكل 847-861 م كان ما سمي بديوان الاستخراج . وهو عبارة عن دائرة رسمية تتبع أخبار الوزراء والكتاب والمحجوب والعمال والولاة المتمهمين بالرسوة والغض فتسجل أسماءهم ، وتتحدد أوضاعهم ، ثم ترفع الأمر إلى الخليفة حتى يعد أمر المصادر للأموال التي جمعوها حراماً وبغير حق . وهنا يتولى الأمر ديوان المصادرات الذي أشرنا إليه سابقاً .

كما ظهر في هذا العصر أيضاً ديواناً آخر اسمه ديوان الخاصة وهو الذي كان ينظر في أموال الخليفة وأملاكه وعقاراته المكتوبة باسمه والراجعة إليه وإلى ورثته⁽¹⁵⁾ .

15) راجع النظم الإسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن ص 156 .

الفصل الثاني

الدستور الأول للحكومة الإسلامية

أعلن النبي ﷺ الدستور الأول للدولة الإسلامية عندما آتى بين المهاجرين والأنصار ووادع فيه اليهود فقال بعدَ البسمة ما نصه :

« هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويشرب ومنتبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس والهاجرون من قريش على ربعتهم^(١) يتعاقلون بينهم ، وهم يقدون عانيهم^(٢) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وينو عوف على ربعتهم^(٣) يتعاقلون معاقلهم^(٤) الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وينو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ثم عدد ﷺ بقية الطوائف على هذا التسق كبني الحيث وبني جشم وبني النجار وبني عمرو بن عوف وبني النبيت وبني الأوس » وإن المؤمنين لا يتربكون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

ولا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقيين على من بغى منهم أو ابتهى دسيعة^(٥) ظلم أو إثم أو عداوان أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعاً لو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافر على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ، وإنه من اتبعنا من يهود فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة . لا يسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كان غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً ، وإن المؤمنين يبي^(٦) بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقيين على أحسن هدى وأقومه وانه لا يجير مشرك مالاً لقريش » ولا نفساً ولا

(١) الربعة : الحال التي جاء بها الإسلام وهم عليها .

(٢) العاني : الأسير .

(٣) المعاقل : جمع معقلة من العقل وهو الدية .

(٤) الدسيعة : ما يخرج من حلقة البعير إذا رغا و تستعمل للعطية .

(٥) يبي : يمنع

يمحول دونه على مؤمن وانه من اعتبطر⁽⁶⁾ مؤمناً قتلاً عن بيته فإنه قود به إلا أن يرضي ولي المقتول وان المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وإنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة وأمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ، ولا يؤزويه ، وانه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيمة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم منها اختلften فيه من شيء فإن مردہ الى الله عز وجل والى محمد ﷺ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين :

لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتع⁽⁷⁾ إلا نفسه وأهل بيته ، وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني الحمرث مثل ما ليهود بني عوف ، وإن يهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف ، وإن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف ، وكذلك : بني الأوس وبني ثعلبة ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتع إلا نفسه وأهل بيته ، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وإن لبني الشطية مثل ما ليهود بني عوف وإن البر دون الإثم وإن موالي ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة يهود⁽⁸⁾ كأنفسهم ، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وإنه لا ينحضر على ثار جرح وانه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم ، وإن الله على من أبر هذا وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، وإن لم يأثم امرؤ بحليفه وإن النصر للمظلوم « وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وإنه لا تجاري حرمة إلا بإذن أهلها ، وإن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار⁽⁹⁾ يخاف فساده فإن مردہ الى الله عز وجل والى محمد رسول الله ﷺ وإن الله على من اتقى ما في هذه الصحيفة وأبره وإنه لا تجاري قريش ولا من نصرها » وإن بينهم النصر على من دهم يشرب . وإذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا الى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين : على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة وإن البر دون الإثم : لا يكسب كاسب على نفسه » وإن الله على من أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا يمحول هذا الكتاب دون ظالم وأثم » وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وإن الله جار لمن بر وانتقى ومحمد رسول الله ﷺ .

وخلاله هذا الكتاب الذي يعتبر دستور الحكومة الاسلامية الأول نختصره فيما يلي :

(6) اعتبط : قتل من غير سبب يوجب القتل .

(7) يوتع - وتع : إذا هلك .

(8) البطانة : خاصة الرجل وأهل سره .

(9) الاشتجار : الاختلاف أو الاقتتال .

(10) السيرة لابن هشام ج 2 ص 119-123 .

- ١- وحدة الشعوب الاسلامية وحدة كاملة فقد جعلهم **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** أمة واحدة على اختلاف قبائلهم وشعوبهم .
- ٢- فرض الحدود والديات (المعاقل) على أسلوب خاص وضعه الاسلام وبيته السنة وكتب الفقه الاسلامي ، وإقرار المهاجرين من قريش على عادتهم وستتهم في أحکامهم الخاصة .
- ٣- المهاجرون مسؤولون عن فداء أسييرهم وتخلصه من أيدي المشركين .
- ٤- الطوائف والقبائل عامة مسؤولة بأن تفدي أسييرها بالقسط والمعروف .
- ٥- إقرار القبائل التي وردت أسماؤها في الكتاب الشريف على عادتهم وكل طائفة منهم مسؤولة عن فداء عانيها .
- ٦- على المؤمنين إعانة المثقل منهم بالديون من أجل الفداء .
- ٧- شجب الظلم والبغى في جميع حالاته وفي كل المجالات ، والجميع مسؤولون عن مناهضة القائم به حتى ولو كان ولداً لأحد هم .
- ٨- لا يقتل المؤمن بالكافر لقتله ، وعند ذلك تؤخذ منه الديبة لا غير .
- ٩- لكل مسلم الحق أن يغير أي شخص يشاء منها كانت منزلته الاجتماعية .
- ١٠- لا يسمح للمشركين بأن يغيروا مالاً أو دمًا للمشركين من دون بش .
- ١١- القاتل للمؤمن من غير سبب يقاد به إلا أن يرضي ولـي المقتنـى بالدية فتؤخذ منه .
- ١٢- عدم السماح لل المسلمين بنصرة المحدثين والمبدعين منهم في الاسلام وعليهم مقاومتهم وعلى هؤلاء المحدثين لعنة الله وغضبه يوم القيمة .
- ١٣- النبي **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** هو الحكم في حل جميع المشاكل بين المسلمين ومماها اختلفوا فإن مرده الى الله عز وجل وابي محمد **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** رسول الله .
- ١٤- لليهود حقوقهم العامة من الأمن والحرية وغير ذلك اتجاه الدولة الاسلامية الا من ظلم وأثم وعاث فساداً في الأرض .
- ١٥- التأكيد على حقوق الجاز فهو للمسلم كالنفس غير مضار ولا آثم .
- ١٦- النصر للمؤمنين على كل من دهم يشرب .
- ١٧- الله شاهد على من أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره .

هذه أهم البنود التي وردت في هذه الصحيفة التي تعتبر أول دستور للدولة الاسلامية الناشئة .

طابع القضاء في الاسلام

إن الطابع الاساسي للقضاء الاسلامي الشدة على الظالمين والمعتدين ، فهو يقف لهم بالمرصاد ليمعنهم من الغي ويصدهم من الاعتداء ويأخذ منهم حق المعتمد عليه بالقوه والعنف ، يقول الله تعالى في وصفه لرسول الله **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** والصفوة من أصحابه : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ أَشَدُهُمْ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ (١) .. وقال أمير المؤمنين علي بن

(11) الفتح الآية 26.

أبي طالب في نهج البلاغة :

« الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له ، والعزيز عندي ذليل حتى آخذ الحق منه »
وقال أيضاً عليه السلام في هذا المجال :
« لن تقدس أمة لا يؤخذ فيها بحق المظلوم من الظالم » .

استقرار قواعده

القواعد العامة التي بني عليها القضاء في الاسلام ثابتة مستقرة لا يطرأ عليها تغيير أو تبدل في جميع مراحل الحياة ، ذلك أنها تسعى لصالح الانسان في كل مكان على حد سواء ، فلا مكر ولا خداع ولا مواربة ، إنها بنيت على الحق والعدل ولا يختلف أبداً منطق الحق والعدل في جميع الأزمان. بني القضاء الاسلامي على الاعيان الراسخ بكرامة الانسان ، وحقه المقدس في الحياة الحرة الكريمة .

كما بني على الرحمة والسماحة للثائرين ، والشدة والقسوة على الظالمين ونشر الأمن والدعة بين الناس أجمعين .

هذه المفاهيم القضائية الخيرة مستمرة ثابتة على مر الأزمان ومع كل الأجيال لأنها تتبع من معين الحياة الإنسانية فلا تتشدد عن سنن الحياة ونواتها . أين هي من سياستنا الحديثة وقضائنا الحديث حيث لا يعتمد فيه على أساس ثابتة ولا على منطق سليم ، بل سرعان ما يتلون حسب المصالح الشخصية والمطامع الطائفية ويتكيف حسب الرغبات والأهواء السياسية .

المقياس الصحيح :

إن المقياس الصحيح الذي تعرف به صحة القضاء وفساده هو أن يعرض القاضي كل ما لديه من قضائياً وأحكاماً على الكتاب الكريم والسنّة الشريفة وسيرة الصحابة الفقهاء والعلماء من أعلام الفكر الاسلامي الذين مثلوا الاسلام قولًا وعملاً ، وناصروا الاسلام وساروا على ضوئه متربسين خطاه . قال الامام الحسين بن علي (ع) : (إنما الخليفة من سار بكتاب الله وسنة نبيه) (12)

القرآن الكريم ، الدستور الانساني الدائم ، رسم الخطوط العامة لحياة الانسان الفردية والاجتماعية ، والسنّة المباركة شرحت تلك المضامين وفصلتها تفصيلاً ، والصحابة الاعلام الرجال المصلحون ، رفعوا شعارها وطبقوها في تشعّيّاتهم وقضائهم . فكل سياسة لا تتوافق مع هذه الينابيع الثرة ليست من سياسة الاسلام في شيء ، والقضاء الاسلامي براء منها ، ولا تثل وجهة نظره . كالوليد والمنصور والمتوكل وغيرهم من حكام الظلم والجحود الذين طاردوا المصلحين الآخيار وقربوا من بلاطتهم الفاسدين الأشرار . هؤلاء هم بعيدون كل البعد عن الاسلام وقضائه القوي المستقيم ولا يصح بأي حال أن تتخذ أعمالهم مقياساً يقاس به القضاء الاسلامي .

(12) الارشاد للمفید ص 210

إن الاسلام لا يمثل مفاهيمه تمثيلاً صحيحاً إلا الأكفاء الذين تربوا على مثاليته و هديه ، وطبقوا أهدافه وأحكامه على واقع حياتهم الفردية والاجتماعية . فأعمال هؤلاء الصالحين الخيرين هي التي تكون مقياساً صحيحاً و دليلاً صالحأ يسير عليه الحكم العادلون . نذكر من هؤلاء الخلفاء الراشدون أبو بكر الصديق و عمر بن الخطاب و عثمان بن عفان و علي بن أبي طالب الذي تميز بطول باعه في القضاء وبعد بصره فيه ، كما تميز باستيعابه الشريعة الاسلامية وعلمه الغزير . حتى وصفه الرسول ﷺ بباب مدينة العلم فقال ﷺ « أنا مدينة العلم وعلى بابها »⁽¹³⁾ .

(13) راجع كتاب التكامل في الاسلام .

الفصل الثالث

القضاء والحسنة والشرطة

القضاء :

كان رسول الله هو الحكم الفصل بين سكان المدينة الأصيلين والقادمين إليها من المهاجرين ، فإليه وحده مرجع كل نزاع ، وهو قاضيهم الوحيد في كل أمورهم وشؤونهم .

وقد جاء في الحلف الذي عقده الرسول ﷺ بين المهاجرين وبين أهل المدينة من المسلمين والمسيحيين وغيرهم : «إنه ما كان بين أهل هذه الصحفة من حدث أو شجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله» (14) .

والإسلام إنما قرر السجن لبعض الجرائم وقد كانت قليلة كالمديون المماطل يحبس حتى يعطي الدين أو يعطيه الحاكم من أمواله ، وكملرأة المرتدة تحبس حتى ترجع إلى الإسلام ، وكالذى أخذ إنساناً ، فقتله شخص آخر ظلماً وجوراً ... وما أشبه ذلك مما هو مقرر في فقه الإسلام .

وقد أصاب الإسلام في إلغاء السجون التي كانت موجودة عند الفرس وعند الروم ، وأخطأت سائر الدول المهتمة في بناء السجون وهدر الطاقات الكبيرة في سبيلها .

وإذا ما سألنا ماذا يصنع الحاكم الإسلامي بال مجرم نقول : السجناء أعضاء عاملون في الحياة فإذا سجنوا جدت هذه الطاقة تجميداً تماماً . وإن من يتوهם من أن بعض السجون يضع الأعمال للسجناء والمرشدين لهم ، فذلك صحيح ، لكنه ليس على وجه العموم والشمول ، وبصورة عامة يعتبر السجن تجميداً لطاقات الإنسان الفاعلة .

ومن جهة أخرى هناك هدر لطاقة إدارة السجن من مدير ومساعد وخدمات وبناء السجن كلها هذه طاقات انسانية إذا وجهت نحو العمل الإيجابي كانت جديرة بأن تدفع الحياة إلى التقدم المفيد والعطاء الخير .

والسجن لم يكن بأي حال رادعاً للجرائم وكثيراً من العاطلين يحرمون فيلقى بهم في السجن ويستريحوا من عباء الحياة ومصاريفها .

(14) السيرة: لابن هشام ج 2 ص 119 - 123.

وقد يسأل أحدهم إذا كسر الاسلام السجون وفك الأغلال تدب الفوضى في أوساط المجتمع ، وإذا أجرى حدوده المقررة على المسجنين قد يسبب سوء سمعة بالنسبة للدولة الاسلامية . يجيب الحاكم المسلم بقوله :

لا يلزم من إطلاق السجناء فوضى أبداً ، لأن المجرم إذا عرف العقاب الصارم تجنب الآثام وبذلك يمتنع الاجرام في الدولة الاسلامية . وما يروى أن الاسلام لم يقطع سوى ستة أيدي من السارقين مدة قرنين فها رأيك لو أعلنت الدولة اليوم أن كل قاتل يقتل وكل سارق تقطيع يده . إني على يقين أن القتل يزول بسرعة والسرقة تختفي بتاتاً . نعم . . . إذا كان العقاب السجن ، ويخففه المحامي والرشوة والعفو والسجن مزود بالغذاء والكساء وكل لوازم الانسان الحياتية ، من الطبيعي أن تتردد حوادث القتل والسرقة وكل أنواع الاجرام .

وبعد هذا : إن تحصين الاسلام الناس بالقاء اليمان في قلوبهم ببعدهم عن الجريمة وينفرهم من ارتكاب الآثام ، فهل رأينا من يحضر الصلوات الخمس ويقوم بالعبادات الاسلامية يقتل النفس المحرمة ؟ أو يعاور ؟ أو يخون في أعراض الناس أو يبيع شعبه للوصول إلى الكرسي ؟

فالاسلام بصرامة العقاب وإشاعة روح التقوى والفضيلة في المجتمع يمكن من إزالة الجريمة فلا ترى في المجتمع الاسلامي أثراً لها إلا نادراً .

فإيجراء الحدود وتطبيق النظام دون أي واسطة أو موابة والحكم الصارم بعيد عن الرشوة والمحاماة يمنع الجريمة . من هنا كانت الآية الكريمة « ولهم في القصاص حياة يا أولى الألباب »⁽¹⁵⁾ .

إن بساطة الحياة في ذلك المجتمع الناشيء لم تكن تستدعي في المدينة كثيراً من القضاة ، وفي بعض الأحيان كان الرسول ﷺ ينيب عنه أحد أصحابه لفض خلاف أو يرسل بعضهم والياً على ناحية أعلنت خضوعها للحكومة الاسلامية .

من ذلك أنه قدّ ^{يكتبه} علياً القضاة في اليمن ، ولم يختبره لعلمه به . ولكن زوده ببعض آداب القضاء⁽¹⁶⁾ . والحديث عن قضاة علي وتفقهه في الدين وبعد نظره في كل أموره وأبعاده لا ينتهي عند حد معين . فكما أسلفنا أن علياً كان مستشاراً قضائياً في حل كل القضايا الصعبة طوال الخلافة الراشدة .

وقد اشتهر غيره في الفتيا والقضاء من الصحابة فبلغوا على عهد الرسول مئة وواحداً وثلاثين رجلاً وامرأة⁽¹⁷⁾ .

ومن عادته عليه السلام أنه لم يقلد القضاة لأحد طلبه ، ولا لضعف لا يقدر على إقامة

(15) البقرة الآية 179

(16) الأحكام السلطانية لأبي بعلي ص 46

(17) النظم الاسلامية لحسن ابراهيم ص 249

الحق بين الناس . قال عليه السلام لأبي بردة بن أبي موسى الأشعري ورجلين من بني عمه : « إنا والله لا نولّي هذا العمل أحداً سأله »⁽¹⁸⁾ .

وقال لأبي ذر الغفارى : « يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنهاأمانة ، وإنها يوم القيمة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها »⁽¹⁹⁾ .

وكان رسول الله يفصل بين المتنازعين ببساطة تامة بعيدة عن أبيه القضاء وكبراء الحكم ، فهو يحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ، ويصرح للناس بأنه لم يؤت علم الغيب ، فقد يختص إلية رجالان منهم ، فلعل أحدهما أحسن بحجه من أخيه ، فمن قضى له بشيء ليس حقاً له فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليدعها .

وقد علم أصحابه أصول الدعوى ، وأساليب التظلم والشكوى ، فعلى من ادعى أن يبين الحق بالدليل ، وعلى خصمه أن أنكر أن يخلف اليمين « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » .

أما الحكم الصادر عنه عليه السلام فمقترن بالتنفيذ الفوري فلا إستئناف ولا تمييز قال الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيها شجراً بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً »⁽²⁰⁾ .

لم يكن السجن معروفاً في عهد الرسول ولا في عهد أبي بكر ، بل كان المتهم محبس في المسجد ويلازمه خصمه أو نائب عن خصمه لثلا يحاول الفرار ، وغاية الرسول عليه السلام منع المتهم من الاختلاط بغيره .

يقول الطوسي فيها يعود إلى البينة واليمين :

« وإن أقام المدعى البينة ، فذكر المدعى عليه : أنه قد خرج إليه من حقه ؛ كان عليه البينة بأنه قد وفاه الحق . فإن لم تكن له بيضة وطالب صاحب البينة بأن يخلف بأنه : ما استوف ذلك الحق منه ؛ كان له ذلك . فإن امتنع من ذلك خصمه ، وأبي أن يخلف أنه : لم يأخذ حقه ، بطل حقه .

وإن قال المدعى : ليس معي بيضة ، وطلب من خصمه اليمين فحلفه الحاكم ثم أقام بعد ذلك البينة على صحة ما كان يدعى به ، لم يلتفت إلى بيته ، وأبطلت .

وإن اعترض المنكر بعد يمينه بالله بدعوى خصمه عليه ، وندم على إنكاره لزمه الحق والخروج منه إلى خصمه . فإن لم يخرج إليه منه ، كان له حبسه فإن ذكر إعساراً ، كشف عن حاله : فإن كان على ما قال : أنظر ولم يحبس وإن لم يكن كذلك ، الزيم الخروج إلى خصمه من حقه .

(18) ملند الإمام أحمد 4 ص 409.

(19) صحيح مسلم وقال النووي : هذا أصل عظيم في اجتناب الولاية .

(20) سورة النساء الآية 75.

ومتى بدأ الخصم باليمين من غير أن يجلسه الحكم ، لم يرءه ذلك من الدُّعوى ، وكان متتكللاً فـ⁽²¹⁾ .

وإن أصحاب المتهم حداً من حدود الله أقيمت عليه فوراً دون ريث ولا إبطاء حتى عهد عمر ابن الخطاب أصبح السجن حبساً للمجرمين .

في عهد أبي بكر أسند القضاة إلى عمر بن الخطاب فظل عامين كاملين لا يأتيه خصومان لما عرف الناس عنه من الشدة والحزم . ولما تولى عمر الخلافة وجد أنه بحاجة إلى تعين بعض القضاة في الولايات والأمصار ليفصلوا بين الناس فيما يحصل لهم من مشاكل وقضايا ، وربما ازدادت الحاجة إلى القضاة تبعاً لازدياد الاختلاط بين العرب وسكان البلاد المفتوحة ، فولى شريحاً الكندي قضاء الكوفة ، وعثمان بن قيس بن أبي العاص قضاء مصر ، وأبا موسى الأشعري قضاء البصرة .

وإلى أبي موسى الأشعري كتب رسالة مشهورة تتضمن كل شروط القضاة وأحكامه . جاء في الرسالة :

« واس بين الناس في وجهك وجلسك وعدلك حق لا يطبع شريف في حُفْك ، ولا يئس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه عقلك » وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق « فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل »⁽²²⁾ .

قال ابن قيم الجوزية معلقاً على هذه الرسالة :

« وهذا كتاب جليل القدر تلقاه العلماء بالقبول ، وبنوا عليه أصول الحكم والشهادة والحاكم »⁽²³⁾ .

وأخيراً إليك النص الدستوري الذي أملأه علي أمير المؤمنين ربيب الرسول المفضل وتلميذ القرآن الأول ، كرم الله وجهه على عامله على مصر مالك الأشر .

يحتوي هذا النص على قواعد وأصول مهمة تتعلق بالقضاء والقضاة ولا ريب أنه يتطابق القواعد القانونية والحقوقية الحديثة حسب رأي جهابذة التشريع وأساطير علم الحقوق من أبناء عصرنا اليوم .

يقول الكتاب :

« ثم اعلم يا مالك ، إنني قد وجهتك إلى بلاد قد جررت عليها دُولٌ قبلك من عدل وجوهر . وأن الناس ينتظرون من أمرك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاية قبلك ،

(21) راجع النهاية للطوسي ص 340.

(22) البيان والتبيين ج 2 ص 23 وأحكام الماوردي ص 68.

(23) أعلام الموقعين ج 1 ص 98.

ويقولون فيك ما كنت تقولُ فيهم ، وإنما يُستدلُّ على الصالحين بما يُجري الله على أُسُنِّ عباده ، فليَكُنْ أَحَبُّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح ، فامْلِكْ هَوَالَّ ، وشُحْ بِنْفِسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ ، فإنَّ الشُّحَ بالنفسِ الانصافَ منها ، فيها أَحَبُّتْ أو كرهْتْ .

وأشعرْ قلبَكَ الرِّحْمَةَ للرُّعْيَةَ ، والمحبةَ لهم واللطفَ بهم ، ولا تكونَ سَبُعاً ضارياً تَغْتَمُ أَكْلَهُمْ ؛ فلِئِيم صنفان: إما أَخٌ في الدين أو نظيرٌ لك في الخلق! تُفْرِطُ⁽²⁴⁾ منهم الزَّلَلَ ، وتعُرُّضُ لهم العِيلَلَ ، ويُؤْتَى على أيديهم في العِمْدَ والخطأ ، فاعطُهم من عَقْوَكَ وصَفْحُوكَ مثلَ الْذِي تحُبُّ وترضى أن يُعْطِيكَ الله من عَفْوهُ وصفحه ، فإنِّكَ فوقهم ، ووليُّ الأمر عليك فوْقَكَ ، والله فوق من ولأك! وقد استَهْفاكَ أمرُهُمْ ، وابتلاكَ بهم ، ولا تنصبُّ نفسكَ لحرب الله ، فإنه لا يَدَ لك بمقته ، ولا غنى بك عن عَفْوهُ ورحمته . ولا تندمَنَ على عَفْوٍ ، لا تَبْجِحْ⁽²⁵⁾ بعقوبةٍ ، ولا تسرعَنَ إلى بادرة⁽²⁶⁾ وجدت منها مَنْدُوحة⁽²⁷⁾ ، ولا تقولَ إنِّي مُؤْمِنٌ أَمْ فاطِئٌ ، فإنَّ ذلك إدْعَال⁽²⁸⁾ في القلب ، وفَهْكَمَ للدين⁽²⁹⁾ ، وتَقْرُبُ من الغِير⁽³⁰⁾ ، وإذا حدثَ لك ما أنتَ فيه من سُلْطَانِكَ الْأَبْهَةَ⁽³¹⁾ أو خُلْيَةَ⁽³²⁾ ، فانظر إلى عِظَمِ مُلْكِ الله فوْقَكَ ، وقدرَتْهُ منكَ على ما لا تقدر عليه من نفسكَ فإنَّ ذلك يطامن⁽³³⁾ إليك من إطْمَاجِكَ⁽³⁴⁾ ، ويُكْفُ عنكَ من غَرْبَكَ⁽³⁵⁾ ، ويفي إليك بما عَزَبَ عنكَ من عَقْلِكَ ! .

فانظر هذه الأحكام والشمول الذي وضع فيه شخصية الحاكم وما يجب أن يكون عليه من العدالة النفسية ، والثقافة الحقوقية حتى يتمكن من إقامة العدل بين المجتمعات .

إنه تقدิน يسير مع كل عصر، ويجب أن يضطلع به أي حاكم نوجز أبرز قواعده باختصار .

- لا مخرج للحاكم ، لاستظهار الحق ليعمل له ويقف عنده ، من لزوم وقوفه على تطورات التاريخ ، في إقليمه ، وما كان يجري عليه من تشريعات وتقاليد وأعراف ، وذلك ليتمكنه الافادة منها ، في تيسير أموره وتنفيذ أوامره ॥ وليستين من خلالها من تسرُّب منه الجور فيعمل على منعه ، وما يصلح منها العباد في رسخه ويشيد عليه .

- العدالة في التشريع الإسلامي هي الهدف والغاية . والاسلام أوجب على الحاكم الاسلامي

(24) تُفْرِطُ منهُمُ الزَّلَلَ : يُسْتَقِنُ منهُمُ الخطأ .

(25) بِجَحْ بِالشَّيءِ : فرج به .

(26) الْبَادِرَةُ : ما ظهر من حدة الغضب .

(27) مَنْدُوحة : متسعاً وخارجًا .

(28) ادْعَال : إفساد .

(29) أَنْهَكَهُمْ : أَتَعَبَهُ وأَضْعَفَهُ .

(30) الغِير : حادثات الزمان .

(31) الْأَبْهَةُ : الكبriاء والعظمة .

(32) خُلْيَةُ : العجب والخيال .

(33) طَامِن : خفض .

(34) الطَّمَاح : النشوز .

(35) الغَرْبُ : المُلْهَدَة .

انتهاج سبليها ، لا يصل كل ذي حق حقه ، بلا أي امتيازات عرقية ، أو اجتماعية . فإيقاف المرأة عند حدوده المشروعة ، وإيصاله إلى حقوقه ، من أهم العوامل الرئيسة ، لبقاء تناسك المهيكل الاجتماعي . لذلك ركز عليه السلام على عامله بأن يملك هواه ويشح بنفسه وأوقفه على أن الانتصاف للنفس ميزان العدل .

وأراد من عامله ، الأستر ، أن يحيط عدله بعوامل اللطف والرحمة والمحبة فعليه إذن أن يفضي عن بوادر الزلل التي تملك الإنسان أحياناً فتنزل به القلم ويصعب عليه الانفلات من إسرارها . قال رسول الله ﷺ « لا يكون المسلم مسلماً حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره منها ما يكره منه ولعمري هذا هو المعنى الدقيق للعدالة النفسية ، وتلك هي القواعد المتينة للعدالة الاجتماعية » .

- حماية الفرد من عسف الحكم

ولا تكون سبعاً ضاراً بختنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق .

ولا غرابة أن أوصى بهذه الحكمة وهو تلميذ القرآن الأول ، الحكمة البالغة في اعتدال الساسة والمرتشفة من قوله تعالى :

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخربوكم من دياركم . ان تبروهم وتنقسطوا إليهم ان الله يحب المقسطين ﴾⁽³⁶⁾ .

هذه أول الوثائق الدستورية لحماية الفرد والمجتمع دونها الإسلام وأهميتها المجتمعات المعاصرة على الأنصاف المجتمعات الغربية . حتى وقعت أبغض أنواع الجرائم ضد الجنس البشري إشباعاً للنزوات العنصرية ، بعد انتهائتها قام المجلس الاقتصادي الاجتماعي للأمم المتحدة بتشكيل لجنة خاصة ، باسم لجنة حقوق الإنسان وعهد إليها بمهمة دراسة موضوع تدوين حقوق الإنسان عام 1946 . وكانت ثمرة جهودها إعلاناً عالمياً أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة لحقوق الإنسان⁽³⁷⁾ كحق الحياة وحق الحرية ، وحق المساواة ، وحق التملك ... الخ غير ذلك من الحقوق .

وليس ما ذكرنا من العهد الدستوري لعلي أمير المؤمنين (ع) هو الوحيد في التشريع الإسلامي ، بل تلك الحقوق يزخر بها الشريعة الإسلامية وهي من الأوليات التي يجب على المسلم المؤمن تطبيقها ، وهي قرارات ملزمة يقع كل من تجاوزها تحت طائلة المسؤولية . على عكس ما نشاهد ونسمع في عصرنا الحاضر من قرارات وتشريعات تفتقد صفة الالتزام والعقاب وبالتالي هي عديمة الجدوى .

من هنا تميز التشريع الإسلامي بتلك الخاصة عن جميع المبادئ الأرضية ، بل والسماوية ، لأنه سوى بين الروح والجسد مساواة دقيقة فلام كل عصر وسابر جميع الم Paxarations الإنسانية ،

(36) المحتلة الآية 8.

(37) كان ذلك في 10 / 12 / 1948 ووقع الإعلان في ثلاثة مادة .

ودفع الناس للتنافس على الفضيلة - إن أكرمكم عند الله افتقاكم - هذا الشعار يحمل للناس عامة شعلة من النور لا تحمد ولا تنطفئ عبر الأجيال والأزمان .

والاسلام ألغى جميع الامتيازات الشخصية بين جميع أفراد الأسرة البشرية أيًّا كانت صفتهم ، واعتبر الخلق جميعاً كأسنان المشط ، وهم قسمان : إما أخ في الدين أو نظير في الخلق .

- المساواة بين الحاكم والمحكوم

الجميع في التشريع الاسلامي متساوون ، الحاكم والمحكوم ، أمم القضاء ، فلا فرق بين رئيس ومرؤوس ، ولا بين جنس ولون ، أو غني وفقير ، ولا يختلف الحكم بالنسبة للجاني أيًّا كانت صفتة ، كما على الحاكم أن يمنح الناس من صفحه وعفوه فلا يشعر أنه فوقهم أو أمرهم ، لأن الله قد ولأه عليهم وهو فوق الجميع ، فوق الراعي وفوق الرعية .

كل ذلك حتى لا يشعر الحاكم من إفساد في قلبه وضعف في دينه وزوال حكمه . وإذا غرب هذا عن باله فلينظر إلى عظم ملك الله فوقه وقدرته منه على ما لا يقدر عليه من نفسه . عندها لا ريب أنه ينخفض من حداته ويفيء إليه بما عزب عنه من عقله .

وإذا نظرنا إلى التقين الوصفي لا نجد من سبيل للمقارنة بينه وبين التشريع الاسلامي ، وإن وجدنا فيه ما يقبله العقل السليم ، فقد اقتبس منه كل ما قاله في الحرية والمساواة والعدالة .

فقبل الثورة الفرنسية كان القانون الجنائي يميز بين الحاكم والمحكوم فللبلاء امتياز وللشرفاء امتياز إلى غير ذلك من التفاوت الطبقي ، حيث كان يختلف الحكم حسب منزلة الجاني الاجتماعية . والتاريخ اليوم يعيد نفسه . حتى جاءت الثورة الفرنسية وجعلت المساواة - نظرياً - أساساً للحكم وبعد الجهود المضيية التي بذلتها لم تتمكن من التخلص من أداء الامتيازات القديمة ، كما هي حالنا نحن اليوم . لأنها :

ظللت تقر بامتيازات خاصة لرئيس الدولة أو الملك . فالرئيس هو السلطة العليا ، فيجب أن لا ينبع سلطة أدنى منه . فلا يصح إدانته إلا بالخيانة العظمى .

ثم إن كل ما ذكر من قوانين يطبق عليه ضمن دولته وإقليمه وليس في دولة آخرى واقليم آخر . فالقوانين الوضعية تمنع محكنته وتجرعه فيها ، على افتراض ارتكابه جريمة تقضيها . إلى الكثير من الامتيازات الأخرى . كإعفاء حاشيته من الخصوص للمحاكمة في إقليم أجنبي وما يحملونه من أموال متنقلة ، وكإعفائه هو من الرسوم والضرائب . كل ذلك في ظل الحصانة التي تحمييه .

هذا هو التقين الوصفي أما المساواة وأمام غيرها من المتجزات التي حققها الفكر الانساني على صعيد الحضارة .

وهذا هو الاسلام الذي ألغى جميع الامتيازات ، بين جميع أفراد الأسرة البشرية ، أيًّا كانت صفتهم معتبراً الخلق كلهم كأسنان المشط ، فلا فضل لانسان على إنسان إلا بالتقوى . وهذا القدر يكفي للتدليل على ما حققه التشريع الاسلامي من السبق في مضمون التقين الحضاري المتتطور .

لم يكن هناك بناء مخصص للحاكم في عهد عمر ، فقد كان القاضي يحكم في بيته ثم أضحي يعقد جلساته في المسجد ، وكان يقوم بنفسه بتنفيذ الأحكام على الفسor أسوة بالرسول الكريم ، وما يليدو أنه لم يكن هناك سجل لتدوين الأحكام وكاتب يسجلها .

ظل القضاء مستقلًا لا يتأثر بالأحزاب ولا يميل الدولة الحاكمة حتى كان العصر العباسي فأصبح العلماء يتورعون عن استلام منصب القضاء لثلا يغضبوا الله برضى الخلفاء . وهل من السهل أن يبيع الحاكم آخرته بدنياه !

وما استحدثه العباسيون منصب « قاضي القضاة » وهو بمثابة وزير العدل اليوم يقيم في حاضرة الخليفة ، أما الأقاليم المجاورة فكان يعين من ينوب عنه .

كان أول قاض للقضاة أبي يوسف مؤلف كتاب الخراج ، وصاحب الامام أبي جنفية . وقاضي الرشيد الشهير . ويعزى إليه أنه أول من استحدث زيراً خاصاً للعلماء وزيراً آخر لـ القضاة . وقد أحاطتهم بكثير من مظاهر الاجلال والتكرير . أما رواتب هؤلاء القضاة فكانت تختلف باختلاف الزمان والبيئات .

وفي العصر العباسي كان القضاء على نوعين قضاء خاص « وقضاء عام » فالقضاء الخاص يقتصر على النظر فيما تضمنه « كالحكم بالاقرار دون البينة أو الديون دون قضایا الزواج ، أو مقدار من المال » .

وأما القضاء العام فمن يتولاه كان يفصل في المنازعات ، ويستوفي الحقوق ويثبت الولاية لمن كان من نوعاً من التصرف « وينظر في الأوقاف ، ويفند الوصايا على شروط الموصي فيها بأباحه الشرع ، ويقيم الحدود على مستحقاتها وينظر في مصالح عمله » من الكف عن التعدي في الطرق « ويتصفح شهوده وأمناعه ، ويختار النائبين عنه من خلفائه(*) .

ومما يلاحظ أن معظم كتب الفقه تعقد ببابا « آداب القضاء وما يجب أن يكون عليه القاضي من أحوال » .

خلاصته : أن القاضي لا يقضي وهو غضبان ، ولا جائع ولا عطشان ، كما لا يقضي إذا غلبه النعاس ، أو أثقله المرض ، ولا مشغول القلب بتجارة ولا خوف ولا حزن ولا فكر في شيء من الأشياء ، « لأنـه يحتاج إلى الفكر ، وهذه الأعراض تمنع صحة الفكر ، فتخل بالقضاء » (**).

(*) أحكام أبي يعلى ص 49-50 .

(**) راجع النهاية للطوسي ص 338 وما بعدها .

صفات الحكم في الإسلام

إن قيادة الأمة بما لها من أهمية بالغة وما يترتب عليها من سعادة الناس وشقائهم « تقضي وجود سلسلة من الشروط والصفات في الحكم الإسلامي . وهذه الشروط لها ضرورة حتمية ، إذ لولاها لانحرفت القيادة عن طريق الحق وانهارت الأمة انهياراً كاملاً .

ولقد فطن الإسلام إلى هذا الأمر الخطير ، فاشترط وجود صفات معينة في الحكم الإسلامي ، وأكد على ضرورتها عند انتخاب الحكم أو الرئيس . وهذه أهم تلك الصفات نوجزها فيما يلي :

أ- الإيمان بالله

على الحكم الإسلامي أن يعتقد بالإسلام عقيدة ونظاماً وخلفاً اعتقاداً قليلاً كما في القرآن الكريم والسنّة الشريفة . فالعقيدة بالله تعالى وبشرائعه عز وجل من المبادئ الأولية التي يجب أن يتخل بها الحكم في الإسلام . فلا يحق للكافر أن يسود المؤمنين » لأن ذلك يكون من قبيل تسويد من لا كفاءة له ولا قدرة على صاحب الكفاءة العالية والقدرة التامة ، قال تعالى في كتابه العزيز :

﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِكَافِرِنَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾⁽⁴⁰⁾ وَهُلْ أَقْوَى مِنْ سَبِيلِ الْوَلَايَةِ وَالْحُكْمِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ؟ !

ب- الكفاءة وحسن الولاية

إن صلاحية الحكم والإدارة منوطه بقدرته على القيام بلوازم الخلافة وأعباء الولاية . فالكفاءة الإدارية وحسن الولاية شرط أساسي لاستلام سدة الرئاسة . والتاريخ يفيتنا بأن من تسلم الخلافة من غير القادرين على الإدارة وغير الأكفاء لها ، جر على الأمة الإسلامية وغير الإسلامية المأساة المحزنة والويلات المدمرة .

ومن البداهة أن هذا الشرط له أهميته لكل من أراد تسلم أمور المسلمين » ولا يحتاج إلى إقامة دليل ، والرسول ﷺ أشار إلى أهمية هذه الصفة في الحكم الإسلامي . قال ﷺ :

« لا تصلح الإمامة إلا لرجل فيه ثلاثة خصال : ورع يمحظه عن معاصي الله ، وحمل يملأ به غضبه » وحسن الولاية على من يلي حتى يكون كالوالد الرحيم »⁽⁴¹⁾ . بالإضافة إلى هذا اشترط الإسلام أن يكون الحكم من أكفاء الموجودين في عصره على الإدارة وأقدر منهم جميعاً على حسن الولاية والقيادة .

وفي هذا المجال قال الإمام علي بن أبي طالب (ع) :

« أهلا الناس إن أحقر الناس بهذا الأمر أقوهم وأعلمهم بأمر الله فإن شغب شاغب استعبد وإن أبي قوتل »⁽⁴²⁾ .

(40) النساء الآية 141.

(41) راجع الكافي ج 1 ص 407 وفي روایة كالاب الرحيم .

(42) نهج البلاغة الخطبة 172.

ولا يخفى أن هذه الصفة إذا ما تتمثل في الحاكم والرئيس استطاع أن يلم شعث المسلمين » ويجمع شملهم ويدفعهم إلى مدارج حضارة الاسم الراقية التي ترفل بسعادة المدوع والاستقرار وتنعم بالمدنية والازدهار . ولا ريب أن هذا لا يتأتى إلا بالسياسة السراشدة والعقل .
الراجح .

ج - العدالة :

من أهم المبادئ الأساسية في الإسلام إقامة العدل والقضاء على الظلم والجور ، وقد ارتبطت جميع مناحي التشريع الإسلامي بالعدل فلا يوجد ثمة حكم إلا ارتبط به ، فهو العلة في التشريع . لذلك نرى أن أهم ما يجب أن يتخلل به الحاكم الإسلامي هو أن يكون عادلاً منصفاً بعيداً عن كل جور أو ظلم ، ملخصاً لواجباته وفيما لصالح الأمة . ولعل أوضح ما يدل على لزوم وجود مثل هذه الصفة في الحاكم وتحث الناس على اعتبارها فيه عند اختياره وانتخابه هو قول الله عزّ وجلّ :

﴿ وَلَا ترکنوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمْسَكُمُ النَّارُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونَ اللَّهِ مِنْ أُولَاءِ ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ ﴾ (43) .

كما ورد في القرآن الكريم إلزام المسلمين بتطبيق العدل على الواقع حياتهم إن في الحكم أو الشهادة أو القول .

العدل في الحكم : لقد ألزم القرآن الولاة أن يحكموا بالعدل ولا يتبعوا الهوى والاغراض ، بل لا بد أن يكون الحكم الصادر منهم مبعثه العدل والواقع .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (44) .

كما حث القرآن على العدل في القول فقال عزّ وجلّ : ﴿ وَإِذَا قَلْمَتْ فَاعْدُلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ (45) .

وقد أمرنا الله أن لا نرکن إلى الظالمين ولا نقبل بولاية الفاسقين ولا نرضى بالانصياع لأوامرهم وتسلیم مقدرات الأمة إليهم . قال تعالى : ﴿ وَلَا ترکنوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمْسَكُمُ النَّارُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونَ اللَّهِ مِنْ أُولَاءِ ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ ﴾ (46) .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَطْعُمْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هُوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فَرِطًا ﴾ (47) .

وفي هذا المجال قال رسول الله ﷺ « لا تصلح الامامة إلا لرجل فيه ثلات خصال :

(43) هود الآية 113

(44) النساء الآية 58.

(45) الانعام الآية 152

(46) هود الآية 113 .

(47) الكهف الآية 28

ورع بمحجزه عن معاصي الله ، وحمل يملأ به غضبه ، وحسن الولاية على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم .

وقال علي عليه السلام : « وقد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والغانم والاحكام وإماماً المسلمين :

- 1 - البخيل ، ف تكون في أموالهم نهمته .
- 2 - ولا الجاهل ، ف يضلهم بجهله .
- 3 - ولا الجافي ، فيقطفهم بجفائه .
- 4 - ولا الحائز للدول فيتخذ قوماً دون قوم .
- 5 - ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع⁽⁴⁸⁾ .
- 6 - ولا المتعطل للسنة فيهلك الأمة » .

فالعدالة في الحاكم المسلم شرط أساسي لأن الإسلام ، وهو دين الإنسان يرى أن الحاكم المتربي على مسند القيادة العامة ، والأخذ بمقدرات الأمة الإسلامية ، والمتصرف في عامة شؤونها ، والمدير لشئ أمورها في جميع مجالات الحياة لا بد أن يكون عادلاً في إدارته منصفاً في حكمه .

د - التفوق في الادارة والدرية السياسية

إن حسن الولاية والعدالة لا تكفي كما علمنا منطق الإسلام بل يتشرط أن يكون الحاكم الإسلامي متوفقاً على غيره في القيادة السياسية فيكون صاحب بصيرة فلذة وصدر رحب أوسع من غيره في الاطلاع على مصالح الأمة وأعرف أفرادها بأمورها و حاجاتها . كل ذلك لكي ينجح في إدارته فلا يغلب في رأيه ولا يخدع في حل أمور رعيته .

من أجل ذلك يتبعن على الحاكم الأعلى لlama الإسلامية أن يكون صاحب مراسٌ بحيث تبلغ رؤيته السياسية والاجتماعية درجة يستطيع معها أن يقود الأمة سياسياً واجتماعياً قيادة حكيمه فيدفع بالرعاية في طريق التقدم ويجنبها عثرات الزمن ومحنة العديدة .

وعلى الحاكم أن يكون ملماً بالأوضاع السياسية عارفاً بما يجري على الساحة الدولية من تطورات لكي يحفظ أمته من كل ما يمكن أن يتوجه إليها من خطوار قال الإمام جعفر الصادق (ع) المتتفوق في شئ العلوم والمعارف :

« العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوايس والعلم جُنَّة ، والصدق عز ، والجهل ذُلّ والجود نُجُح ، وبين المرء والحكمة نعمة العالم » والجاهل شقي بينهما والله ولن من عرفه وعدو من تكليفه⁽⁴⁹⁾ .

إن سائنس الأمة دون بصيرة بالأحوال والأوضاع المحيطة بها لا ريب أنه يجر إليها الوييلات والمصائب كما حدث و يحدث في شئ الأزمان . قال الإمام الصادق أيضاً عليه

(48) نهج البلاغة الخطبة 127 والمقاطع : يعني الحدود التي عينها لها .

(49) الكافي ج 1 ص 27 ومن تكلفة أي أظهر من معرفته ما ليس له .

السلام : « العامل على غير بصيرة كالسائل على غير طريق ، لا تزيد سرعة السير من الطريق إلا بعداً »⁽⁵⁰⁾ .

فتسلم قيادة الجماعة إلى من لا يعرف شؤون الادارة والسياسة معرفة كافية وشاملة كمن يعطي قيادة مرکبة الى جاهل بقيادتها . لقد حث الاسلام على هذا الشرط وأكد عليه بدرجة كبيرة لأنّه يبغى من وراء ذلك صيانة الأمة الاسلامية من التورط في المشاكل التي تضعف القادة والحكام وبالتالي تضعف أفراد الرعية . ويسبب هذا الضعف والجهل يمكن أن تقع الأمة فريسة للمؤامرات الأجنبية الشرسة وتصبح آلة طيعة بأيدي الأعداء الذين ينفذون أغراضهم ويخفون أغراضهم ومقاصدهم . وهذا أعظم وباء تصاب به الأمم والشعوب في تاريخ حياتها الاجتماعية والسياسية والحضارية .

هـ - معرفة القانون والعمل به إجتهاداً أو تقليداً

القرآن الكريم هو كتاب الله وهو الدستور الكامل للانسان ، والحكومة الاسلامية هي حكومة هذا الكتاب ، والحاكم الاسلامي يلزمها المعرفة الكاملة لقانون الاطي في جميع مجالات الحكم والإدارة ، وإذا لم يحصل هذا أصبحت الحكومة دكتاتورية استبدادية يتبع القانون فيها من إرادة الحاكم الشخصية . فالحاكم الاسلامي هو الفقيه العادل العارف بالقانون عن طريق الإجتهاد أو التقليد . قال الامام الحسين بن علي عليهما السلام « مهارى الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله والأمناء على حلاله وحرامه »⁽⁵¹⁾ .

وقوله أيضاً (ع) :

« والله ما الامام إلا القائم بالقسط » الحاكم بالكتاب الحابس نفسه على ذات الله »⁽⁵²⁾ .

وما لا ريب فيه أن القيام بالقسط والحكم على تطبيق الكتاب (القرآن) لا يحصل إلا عن العلم بالقانون الاسلامي إجتهاداً ، أو تقليداً .

و- الأخلاق الانسانية العالية

لقد حث الاسلام ، كدين انساني ، على التخلص بالأخلاق الكريمة والعالية ، ودعا الى السلوك الحسن والمعاملة الطيبة مع جميع الناس ، الزوج مع زوجته ، والأخ مع أخيه والابن مع والديه والرجل مع أهله وأقاربه والجار مع جاره والمسلم مع غيره من الأخوان أصحاب الكتاب . والأمثلة كثيرة في القرآن الكريم . وقد وصف الله نبيه بالخلق العظيم . قال تعالى :

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾⁽⁵³⁾ .

(50) المصدر السابق ص 42.

(51) معالم الحكومة الاسلامية ج 2 ص 283.

(52) المصدر نفسه ج 2 ص 283.

(53) القلم الآية 4.

وقال رسول الله ﷺ « إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم حلقاً »⁽⁵⁴⁾ .
فالمؤمن هو صاحب الأخلاق الحسنة والخلق الحسن يساوي الإيمان من حيث أهميته في الدين والدنيا وهي معادلة هامة وقوية بلا ريب . وقال عليه السلام : « إن الخلق الحسن يحيى الخطيئة كما تحيي الشمس الجليد »⁽⁵⁵⁾ .

وقال عليه السلام مؤكداً على الأخلاق الفاضلة الحسنة :
« أفضلكم أحسنكم أخلاقاً الموطئون أكتافاً الذين يألفون ويؤلفون وتتوطأ رحاظهم »⁽⁵⁶⁾ .

فالمؤمن لين الجانب يستوعب غيره من الناس بصدر رحب ووجه بشوش فلا يتأنف أو يتذمر . وفي ذلك وصف علي بن أبي طالب المؤمن فقال : « المؤمن مأله ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف »⁽⁵⁷⁾ .

وأحاديث كثيرة قيلت بهذا الشأن تحت عنوان الأخلاق العالية فالآخر بالحاكم • وهو المثل الأعلى لسائر الناس • أن يبلغ الدرجة العليا منها .
كما نوه الإسلام لكل من أراد القضاء أو الرئاسة أن لا يطلبها بنفسه بل يلبي نداء الواجب إذا طلب منه ذلك . قال رسول الله ﷺ :

« إنما والله لا نولي هذا العمل (القضاء) أحداً ساله ، أو أحداً حرص عليه »⁽⁵⁸⁾ .
وعدّنا طلب عبد الله بن عباس من الإمام علي (ع) أن يفوض إماراة البصرة والكونفة الى طلحة والزبير اللذين كانوا يطلبان الرئاسة متعطشين لاستلامها . قال : « ومحك ان العراقيين بهما الرجال والأموال • ومتى تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطعم ، ويضر الضعيف بالبلاء ، ويقويا على القوى بالسلطان • ولو لا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية لكان لي فيها رأي »⁽⁵⁹⁾ .

إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة التي اشتهر بها الإسلام على الحاكم . فعليه أن يكون بعيداً عن أساليب الجباية الطغاة فلا يتتخذ حاججاً مثلاً يحجب الرعية عنه . وقال رسول الله ﷺ :

« من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجر دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجر

(54) الكافي ج 2 ص 99.

(55) يحيى : يذيب راجع الكافي ج 2 ص 100 والمجازات النبوية للشريف الرضي .

(56) الأكتاف جمع الكتف يعني الجانب والناحية يقال رجل موظف الأكتاف : أي كريم وضياف وفراس وطيء : لا يؤذى جنب النائم . أراد ﷺ الذين جوانبهم وطينة يتحكم منها من يصاحبهم ولا يتاذى .

راجع الكافي ج 2 ص 102 .

(57) المصدر نفسه ص 102 .

(58) معالم الحكومة الإسلامية ج 2 ص 290 .

(59) الإمامة والسياسة لابن تقيية ج 1 ص 40 .

الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيمة»^(٥٠).

وعلى الحاكم الإسلامي أن يكون عطوفاً مع الضعفاء والأيتام يشعر معهم ويلبي حاجاتهم ويعيش مشاكلهم.

قال الإمام الصادق (ع) في التعريف بالإمام: «يحقن الله به الدماء، ويصلح به ذات البين، ويلم به الشعث ويشعب به الصدع، ويكسو به العاري، ويشعّب به الجائع ويؤمن به الخائف»^(٥١).

ويطول بنا المقال إذا نحن تبعينا كل ما قيل من آداب القضاء ومن واجبات القاضي وقد اختصرها لنا الإمام الطوسي في كتابه النهاية فقال في باب القضاء وما يجب أن يكون القاضي عليه من الأحوال:

«وبيني أن لا يتعرض للقضاء أحد حتى يثق من نفسه بالقيام به. وليس يثق أحد بذلك من نفسه حتى يكون:

عقلاً كاملاً، عالماً بالكتاب وناسخه ومتناوله، وعاممه وخاصه، وندبه وإيجابه، ومحكمه ومتشبه به، عارفاً بالسنة وناسخها ومتناولها، عالماً باللغة، ومسلطعاً بمعاني كلام العرب. بصيراً بوجوه الإعراب، ورعاً من محارم الله تعالى، زاهداً في الدنيا، متوفراً على الأعمال الصالحة، مجتبأً للكبائر والسيئات، شديد الحذر من الهوى، حريصاً على التقوى فإذا كان بالصفات التي ذكرناها؛ جاز له أن يتولى القضاء، والفصل بين الناس»^(٥٢).

ز - الحرية

دعا الإسلام إلى الحرية، وعمل على إلغاء الرق، وقام بعمل جليل لم تعرفه النظم البشرية قبله، تلك التي كانت ترى استعباد الإنسان واسترقاقه لأخيه الإنسان؛ بحججة ثقافته الضعيفة، أو لأنه يعيش في بيئة فقيرة، أو أنه لا يتسبّب لحزب معين! قال تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلْمَةٍ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَخَذُ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾^(٥٣).

(٥٠) جامع الأصول ج 4 ص 52. أخرجه أبو داود.

(٥١) الكافي ج 1 ص 314.

(٥٢) النهاية ص 337.

(٥٣) آل عمران الآية 64.

الفصل الرابع

ديوان المظالم

ديوان المظالم

عرف الماوردي في أحکامه السلطانية ديوان المظالم وصاحب وهدفه فقال : « ونظر المظالم هو قود المتظلمين إلى التناصف بالرهبة ونجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة ، فكان من شروط الناظر فيها أن يكون جليل القدر ، نافذ الأمر ، عظيم الهيئة ظاهر الصفة ، قليل الطمع ، كثير الورع ، لأنه يحتاج في نظره إلى سطوة الحماة وثبت القضاة ، فيحتاج إلى الجمع بين الفريقين وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر في الجهتين »⁽⁶⁴⁾ .

يبدو لنا من خلال هذا التعريف أن ديوان المظالم هذا شيء بمحاجم الإستئناف أو محاجم التمييز في بلادنا » ولكن يزيد على هذه المحاجم بقوة التنفيذ . فهو يصدر الأحكام ويقوم على تنفيذها . على أن مهمة ديوان المظالم لم تقف عند سلطان محاجم الإستئناف والنقض والتمييز كما أسلفنا وإنما يقوم بهذه مجلس شوري الدولة الذي يفصل في المنازعات التي تتشبّه بين الأفراد والحكومة ، فينصف المظلوم من الظالم ويعطي كل ذي حق حقه مهما سما قدر المعتدي ولو كان محتملاً بسلطان الدولة مقرراً من الخليفة أو صاحب وظيفة علياً .

كان القضاء في الدولة الإسلامية يؤدي عمله في نطاق الكفاءة والعدالة على أفضل الوجوه وأتهاها فتسرير الحياة السوية في المجتمع سيراً سليماً بعيداً عن الغش والجشع والظلم . ولكن لا يخلو الأمر في بعض الأحيان من مشاكل كانت تستعصي أمام القضاء العادي ، مما يصعب التعامل معها بمقتضى سلطات المحاسب ، كأن يكون الخصم صاحب مركز سام ومقام كبير ، أو أن تكون الظاهرة مرتبطة بالدولة والـ أو عامل أو بيت مال ، عند ذلك لا بد من وجود هيئة لها هيئتها ورهايتها لكي تبت في الأمر المستعصي على الحل وتقضي في الخلاف الذي يحتاج إلى حزم قوي وسلطة قادرة قوامها العدل ودستورها الجسم والشدة ولا ريب أن ديواناً بهذه صفات لا بد وأن يحتاج إلى رئيس عادل حازم مهيب نافذ البصيرة بالأمور .

وبعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، وتشعبت أمورها ، وضعف وازع الضمير فيها ، وانحرفت بعض النفوس عن مسيرة الخير ، نشأت ظلماً تعدد طبيعة خطرها حدود القاضي ، فكان الحال هذه لا بد من أصحاب الاختصاصات ذوي الهيئة والنظر في

. 74) الأحكام السلطانية للماوردي ص

المظالم حتى ولو كان الخليفة نفسه هو الذي ي مجلس للنظر فيها . وكان أول من جلس مجلساً رسمياً للنظر في شكاوى المتظلمين عبد الملك بن مروان ، بيد أنه كان يحيل ما يشكل عليه إلى قاضيه أبي إدريس الأزدي . فعبد الملك الأمر وأبو إدريس المباشر .

وبعد أن زاد جور الولاية وتشكي الرعية منهم ، كان هم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الذي رد مظالم بني أمية على أهلها وندب نفسه لإنصاف المظلوم واحفاظ الحق⁽⁶⁵⁾ . وأول خطبة خطبها حين آتى إليه الخليفة قال : « أوصيكم بتقوى الله فإنه لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها وقد كان قوم من الولاية منعوا الحق حتى اشتري منهم شراء ، وبذلوا الباطل حتى افتدي منهم فداء ، والله لولا سنة من الحق أميّت فأحييّتها » وسنة من الباطل أحياّت فأماتها ما باليت أن أعيش وقتاً واحداً ، أصلحوا آخر لكم تصلاح لكم دنياكم إن امرءاً ليس بيته وبين آدم إلا الموت لمعوق له في الموت⁽⁶⁶⁾ .

ثم وضح لنا الماوردي الأسباب التي دعته إلى إقامة ديوان المظالم والتشدد في دفع ظلم الظالمين فقال :

« كان عمر بن عبد العزيز رحمة الله أول من ندب نفسه للنظر في المظالم فردها وراعى السنن العادلة وأعادها ، ورد مظالم بني أمية على أهلها حتى قيل له وقد شدد عليهم فيها وأغلظ : إننا نخاف عليك من ردها العوّاقب ، فقال : كل يوم أتقيه وأحافظه دون يوم القيمة لا وقته ... ثم تابع : ثم جلس لها من خلفاء بني العباس جماعة ، فكان أول من جلس لها المهدي ثم الهادي ثم الرشيد ثم المؤمنون ، وآخر من جلس لها المهدي حتى عادت الأملاك إلى مستحقيها⁽⁶⁷⁾ . »

صفات صاحب ديوان المظالم

يتميز صاحب ديوان المظالم عن القاضي بفارق عديدة نلخصها بما يلي :

- 1 - يتميز ناظر المظالم بجلال هيئته وقوه تفيفه وبعد نظره حتى يكف الخصوم عن التجاحد والتغالب والتجاذب .
- 2 - لا يتقيد ناظر المظالم بصريح الوجوب وإنما يخرج إلى سعة الجواز بعيداً عن القيود التي يلتزم بها القاضي ف تكون حركته أسرع وحكمه أنفذ .
- 3 - إذا وجد صاحب المظالم بأن أمامه عقدة مستحکمة الخل ، لمراوغة الباغي ومخادعته ، فقد أيعمد إلى الإرهاب وغايته من ذلك إظهار الحق وإنصاف المظلوم ، وهو أمر لا يتأتى للقضاء بحكم طبيعة مناصبهم .
- 4 - يقوم صاحب المظالم بتأديب الظالم وتهذيب المعتمي .
- 5 - لصاحب المظالم الحق بأن يأخذ فرصة من الوقت يقدرها بنفسه فيتأن في النظر إلى القضايا

(65) راجع الأحكام السلطانية لأبي يعلي ص 59.

(66) الأحكام السلطانية للماوردي ص 76.

(67) المصدر نفسه ص 74.

التي تعرض عليه ملماً ومستقصياً جميع أطراف الدعوى ولا يحق لأي من الخصمين الطلب إليه لإصدار حكم سريع .

6 - يحق لصاحب المظالم رد الخصمين إلى وسطاء لفض الخصومات والفصل في أي تنازع عن طريق الصلح بالتراضي منها تجاه طرف واعتذل الآخر ، وهذا أمر ليس من صلاحيات القاضي إلا إذا رضي الخصمين بهذا التصرف .

7 - له الحق إذا ما اشتد التجاذب بين الخصمين ، بأن يلزم من يشاء منها بالكفالة فيما يسوغ فيه ذلك ، حتى ينقاد طرفا النزاع إلى التناصف ويرتدا عن التكاذب .

8 - كما له الحق في سماع شهود مستورين ، أي الذين لا يقرون أمام القضاء ، من يشاء ومن جميع الطبقات وذلك حتى يستبين له الحق من الباطل ، وهو ما يخرج عن عرف القضاة في عصرنا اليوم .

9 - يجوز لصاحب المظالم أن يستكثر من الشهود ما شاء له ، ليتبدد كل ارتياح ويزول كل شك في شأن القضايا التي ينظرها ، كما يحق له أن يتصرف مع الشهود الذين يرتاب في شهادتهم حسبما يراه مناسباً .

10 - يجوز له أن يستدعي الشهود قبل أن يدلي المدعى بيته ، وأن يسألهم عما لديهم من معلومات عن تنازع الخصوم ، بينما يبدأ القضاء بأن يكون المدعى صاحب القول الأول في أدائه ، يقول بيته إذا كانت لديه ثم يأتي دور الشهود .

هذه الفروق الظاهرة بين سلطات صاحب المظالم وسلطات القاضي تظهر لنا بوضوح حرية الحركة التي يتمتع بها صاحب المظالم دون القاضي حتى يستطيع أن يكشف الحق ويستره من الظالم إلى المظلوم فيتحقق بذلك عدالة القانون ويمكن المجتمع من العيش المادي المطمئن في ظل الدولة الإسلامية بعيداً عن جور الظالمين وظلم الحاكمين وطغيان الولاة والنافذين .

هيئة ديوان المظالم

مجلس المظالم هيأة حاكمة وهيكل ثابت ويوم معروف ، ولا يتم انعقاده ويستكمل أسباب شرعيته إلا بحضور أعضائه وهم خمسة أصناف من الحكم والرعاية .

أولاً : الحماة والأعون الذين لديهم القدرة للقبض على المذنب إذا ثبتت إدانته وحاول الفرار من وجه القضاء ، أو إذا حاول العبث واللجوء إلى القوة .

ثانياً : القضاة والحكام وهم بمثابة مستشارين لصاحب المظالم يجتمعون إليه قبل أن ينظر أمام المجلس من قضايا لمعرفتهم بأحوال الخصوم ولاستلام ما يثبت عندهم من الحقوق .

ثالثاً : الفقهاء ليرجع إليهم فيما أشكل عليه ويسأله عنها اشبهه لديه من أمور عالقة .

رابعاً : الكتاب الذين يسجلون ما يجري بين الخصوم ويدونون ما هم من الحقوق وما عليهم .

خامساً : الشهود الذين يشهد لهم صاحب المظالم على ما أوجبه من حق وما أصدره من حكم .

أعمال واي المظالم والحالات التي ينظر فيها

قسم رجال الأحكام والفقهاء اختصاص ديوان المظالم إلى قسمين ثلاثة اختصاصات منها يقوم بها واي المظالم تلقائيا دون أن يلجم إلية متظلم والسبعة الباقية ينظر فيها بعد أن يتقدم المتظلم بظلمته إلى الديوان . فاما الثلاثة التي يقوم بها تلقائيا وبدون طلب فهي :

أ - تعدى الولاية على الرعية

على صاحب المظالم أن يتبع سيرة الولاية ليكتشف أحوالها إن أحسنوا أم ظلموا . فإن كانوا من العادلين شكرهم وشجعهم ، وإن ظلموا قوتهم وأرشدهم أو استبدل بهم غيرهم ويكون بذلك قد طبق مبدأ الشواب والعقاب .

ب - جباية العمال

على صاحب المظالم النظر في جور العمال فيما يجبرون من أموال فإن كانوا يجبرون على الناس في طريقة التحصيل فعليه أن يراجع القوانين حسما هي مثبتة في الدواوين فيحمل العمال عليها والالتزام بها فإن كانوا قد رفعوه إلى بيت المال رده إلى من حصل منهم . وإن كانوا قد جبوه لأنفسهم استرجعه إلى أصحابه .

وما يروى في هذا المجال أنه قد رفع إلى الخليفة المهدي 7750 م - 785 م مظلمة من أهل السواد في شأن الخراج الذي كاد حكام بي أمية قد أوقعوا ظليما على هؤلاء من خلال تحصيلهم . فأمر المهدي بأن تسقط الزبادة المشكوت منها عن الناس للحال ، قائلا : « معاذ الله أن ألزم الناس ظليما تقدم العمل به أو تأخر . فقال الحسن بن مخلد : إن أسقط أمير المؤمنين هذا ذهب من أموال السلطان في السنة اثنا عشر ألف درهم ، فقال المهدي : على أن أقرر حقا وأزيل ظليما وإن أحلف بيت المال »^(٦٨) .

ج - مراقبة كتاب الدواوين

لأنهم أبناء الرعية فيما يستوفونه من الأموال . على واي المظالم أن يراقب أحوال هؤلاء الكتاب وما وكل إليهم من أمور وذلك ليطمئن إلى حسن سير الأمور على نفط سليم من الدقة والأمانة . وهو مطلق الصالحيات في مكافحة الأمن وقصاص المحرف .

قالوا : إن الخليفة العباسي المنصور 754 م - 775 م بلغه أن جماعة من كتاب دواوينه زوروا في دفاتر التحصيل وغيرها فيها ، فأمر بإحضارهم ، وبعد التحقيق أدهم وقصاصهم بذنبهم . فقال في منهم وهو يضرب معرفا بذنبه :

أطال الله عمرك في صلاح وعز يا أمير المؤمنينا
بغفروك نستجير فإن تجرنا فإنك عصمة للعالیا
ونحن الكاتبون وقد أسانا فهینا للكرام الكاتبينا

عندها أمر المنصور باطلاق سراحهم وأحسن إلى الفتى بعد أن وصله لاعترافه وندمه على خطأ ارتكبه جماعته .

(٦٨) معالم الحضارة الإسلامية للدكتور مصطفى الشكعة ص 100 و 12 ألف ألف درهم يساوي 12 مليونا

وأما المظالم التي ينظر فيها والي المظالم بناء على تظلم متظلم فتتحصر في سبعة اختصاصات :

أ - تظلم المسترزقة من نقص أرزاهم أو تأخراها عنهم .
عندما يتظلم المسترزقة من إجحاف النظر بهم يأمر والي المظالم برفع الظلم عنهم وإجراء الأمور على طبيعتها .

ب - رد الغصوب إلى أصحابها سواء كان المغتصب الدولة أو الأفراد وذلك مقتضى ثبت لصاحب المظالم كافة القرائن والوثائق .

ج - الإشراف على الأوقاف العامة والخاصة وإجرائاتها على شروط واقفيها .

د - تنفيذ الأحكام التي عجز القضاة عن إنفاذها وتطبيقها على المحكوم عليه منها علاً قدره وقويت يده « فلا يد أقوى من يد المظالم ولا أمر أنفذ من أمره .

هـ - النظر فيما عجز عنه عمال الحسبة في المصالح العامة ، كالمجاهرة بمنكر ضعفوا عن دفعه ، والتعدى على حق لم يقدروا على رده .

و - مراعاة العبادات الظاهرة كالحج والجهاد والأعياد . . . من إخلال بشروطها وتقصير فيها .

ز - النظر بين المتخاصلين والحكم بين المتنازعين فلا يسوغ لولي المظالم أن يحكم بينهم إلا بموجب الحق ومقتضاه . وربما اشتبه حكم المظالم على الناظرين فيها فيجورون في أحکامها ، ويخرجون إلى الحد الذي لا يسوغ فيها⁽⁶⁹⁾ .

وقد كانت هيئة محكمة المظالم تعتقد في المسجد أول الأمر ، وكان يرأسها الخليفة أو الوالي أو من ينوب عنه الذي يتحرى في اختياره الكثير من الهيئة والعلم والفتنة والقدرة والخبر .

وقد حرص بعض الخلفاء العباسيين على هيبة ديوان المظالم فبني المهدي 859 م - 870 م قبلة لها أربعة أبواب كان مجلس فيها ويستقبل العامة والخاصة وسماتها قبلة المظالم . ولكن نظام المظالم لم يستقر على حالة واحدة .

فمن طريق الأمر أن « السيدة » أم الخليفة الموقق استطاعت أن تعين قرمانتها « ثومال » صاحبة المظالم . وبادرت هذه عملها في الرصافة وجلست تنظر في رقاب الناس كل جمعة ، وكان يحضر مجلسها القضاة والأعيان وتبرز التواقيع وعليها خطها⁽⁷⁰⁾ .

هذا ونشير هنا إلى انتقاد بعض المستشرقين للظالم لدى ديوان المظالم كالمستشرق « جرون باوم » الذي وجه انتقاداً عاجلاً وخطاطاً فعزى القصور إلى الشريعة الإسلامية لأن القاضي في نظره ملتزم بأن يحكم في القضية فوراً فيصدر الأحكام الفورية دون روية .

إننا نعجب لرأي هذا المستشرق المسكين الذي لم يفهم من العربية إلا القليل ولا من

(69) راجع الأحكام السلطانية لأبي يعل 76- 79.

(70) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص 253.

(71) راجع الحضارة الإسلامية بلوستاف جرون باوم ص 212 وما بعدها .

أحكام الشريعة الاسلامية إلا الأقل .

نذكر هذا المستشرق وأمثاله أن الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة الذين تبعوهم بصدق وأمانة فقد دققوا وترووا واستشاروا الفقهاء قبل اصدار الحكم واستكملوا كل ما يجب استكماله من قرائن ووثائق دالة . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قضية رفعت إليه : « ادعوا لي علياً ، وادعوا لي زيداً فكان يستشيرهما ثم يفصل بما اتفقا عليه وكانت القضية ترفع إليه فربما تأمل في ذلك شهراً ويستشير أصحابه »⁽⁷²⁾ .

إن القضاء والمظالم والحسبة ثلاثة عناوين هيأت للمسلمين في فترات حكم المصلحين من الخلفاء حياة سعيدة مترفة بالطمأنينة والأمان ، وأن الاصلاح في أي مجتمع من المجتمعات تطبيق وتتنفيذ قبل أن يكون حبراً في سطور النصوص القانونية التي توصل إليها الفكر المتحضر فيها يعود إلى الحرية والديمقراطية والمساوة والعدالة الاجتماعية التي تهتم للأمة كل أسباب الأمن والرخاء والسعادة مدونة هي في الدستور ولكن . بقيت تتمنى من يتبنى تنفيذها ويقوم على تطبيقها بكل تجرد وإخلاص . وبعد أن عالجنا القضاء والمظالم نأتي إلى الحسبة .

. (72) انظر فجر الاسلام لأحمد أمين ص 239

الفصل الخامس

١٢

الحسية : صورة من صور القضاء في الاسلام وهي « أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهي عن النكر إذا ظهر فعله ». يقوم المحتسب بهذه الوظيفة فرضأً متعيناً عليه لا نافلة يتخطى بها متى شاء ، فليس له أن يشاغل عن هذه الوظيفة بغيرها ، وهو ما جور عليهما برات يقضيه من بيت المال⁽⁷³⁾ .

الحسنة والقضاء

وتقترب الحسبة من القضاة من جانبين :
الجانب الأول : جواز الاستدعاء وفيها على المستعدي عليه في حقوق الناس ، إذا
تعلقت ببخس أو طفيف في الكيل والميزان ، أو غش أو تدليس في المبيعات والأسعار ، أو
مطل في الدين وتسوييف رغم القدرة على الأداء ، ففي هذا ضرب من النهي عن المتكبر ،
وتصد لازالته من المجتمع الإسلامي القائم على المكارم والأخلاق والعدالة الاجتماعية .

والجانب الثاني : إن لكل من المحتسب والقاضي إلزام المدعى عليه الخروج من الحق الذي عليه ، لأن في تأخير الحقوق منكرًا لا بد من إزالته .

والحسنة تقتصر على القضاء من جانب آخر . وتقصر في الدعاوى الخارجى عن ظواهر المنكرات ، كما في العقود والمعاملات ، وهي لا تتناول إلا الحقوق المعترف بها فليس من حق المحاسب أن يسمع بيته على إثبات حق ولا أن يخلف بيته على نفي حق ، بينما هذا يعد من واجبات القاضى إذ يحق له سماع البينات وتحكيم الخصوم إن شاء .

وفي الحسبة تمييز عن القضاء ، فعل المحتسب أن يتحلى بالشدة والرهبة وقوه الصراحة ، ولا نجد ذلك في القاضي ، ولذلك اشتربوا أن يكون المحتسب ذا رأي وصراحة وخشنونة في الدين وعلم بظواهر المنكرات⁽¹⁴⁾ .

وعلى هذا إذا جاز لولي القضاء أن يحكم فإن والي الحسبة يأمر وينهـر من غير أن يـحكم . فتصـبح الحسبة أمراً بالمعروـف ونهـيـاً عن المنـكر⁽⁷⁵⁾ ولعل الرسـول ﷺ هو أول المحـتبـين

أحكام المأوردي ص 231 .

²⁶⁹ أحكام أبو بعل، ص 74.

. 268) أحكام أبي سعيد ص. (75)

فهو على وداعته ولطفه وابناته ، كان شديداً في الحق ، لا يخاف في الله لومة لائم » ولا يسكت عن منكر ، ولا يقصر لحظة في الدعوة إلى المعروف⁽⁷⁶⁾ .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن لا يقتصر عن حقوق الله وما حده من حدود بل يشملان بالحسبة حقوق البشر ، والحقوق المشتركة بين الله وعباده . فكما ينظر المحتسب في مراعاة الأحكام الشرعية ، ويشهر على إقامة المحدود ، على مستحقتها فإن سلطته تمتد إلى الإشراف على الأسواق ، فيتفقد اللحوم⁽⁷⁷⁾ والمأكولات ، المطبوخات » فيزيل ما برب من الحيوانات وعاق نظام المرور⁽⁷⁸⁾ ولم تبق الحسبة على حالها فهي مثل كل نظام تخصص للتطور تبعاً لنطمور البيئات . ففي الأندلس كانت خطة في الحسبة سموها الاحتساب حيث كان لها نواب يطوفون في الأسواق لمعاقبة كل من يرتكب المخالفات ، وكانوا يستعينون بالشريطة من أجل التنفيذ فوراً⁽⁷⁹⁾ ومن مهامه :

مهام المحتسب

الأمر بأداء الصلاة في مواقيتها ، فيعاقب تارك الصلاة بالضرب أو الحبس ، كما يتعهد الأئمة والمؤذنين فمن فرط منهم في حقوق الامامة أو خرج عن الآذان المشروع ألممه بالطريق الصحيح . ويقوم المحتسب على إتلاف المغشوش من الطعام والثياب ويراقب موازين السوقه ومكاييلهم .

كما له الحق في التدخل لضغط الأسعار ومنع التجار من الاستغلال والغلو في رفع الأسعار وجني الأرباح غير المشروعة . ويقوم المحتسب على منع الربا ولعب الميسر ومطاردة متهنين الصرافة .

وللمحتسب أن يفرض رحمة الإنسان على ماشيته ودوابه ، وفي هذه الحال يقوم بعمل جمعيات الرفق بالحيوان .

وينظر إلى الحسبة في مقاعد الأسواق ، فيقر منها ما لا ضرر فيه على المارة » ويزيل ما يتضرر منه الناس .

كما يتدخل أيضاً في شؤون السفن والبحارة ، فإذا ما حلواها ما لا تسعه منعهم من ذلك خوفاً من الغرق ، وعند اشتداد الريح لا يسمح بالمسير وفي أسفار البحر الطويلة يهوى النساء أمكناة خاصة تحفظ عليهن كل أسباب الحشمة والراحة عند قضاء حوائجهن .

وللمحتسب الحق في التدخل لصالح المستأجر إذا رفع المالك الأجراة بغير حق ، أو إذا بني أحد أفراد الرعية داراً مرتفعاً يضيق جاره ، أو غير ذلك مما يضر الناس .

وبعد هذا نرى أن وظيفة المحتسب تأخذ شكلاً اجتماعياً إصلاحياً في حفظ حقوق

(76) النظم الاسلامية لحسن ابراهيم ص 270

(77) المدخل في تاريخ الحضارة العربية ص 40 . (الزموا البائع أن يكتب ورقة بسعر مبيعته) .

(78) النظم الاسلامية لحسن ابراهيم ص 271

(79) حضارة العرب ص 40

الناس والحفظ عليهم ومنع أي فرد من مضايقة الآخرين .

ونختصر القول : إن المحاسب مخول في تولي كل أمر يتصل بالنظام العام وحماية الناس ، وصلاحياته غير محدودة طالما تصب كلها في سبيل الخدمة العامة . وإذا دققنا ملياً في صلاحيات المحاسب نراها تطال القضاة والولاة ، حتى قاضي القضاة يخضع لرقابة المحاسب ويأقر بأمره في بعض الشؤون .

وما يروى في هذا المجال أن إبراهيم بن بطحاء والي حسبة بغداد مر بدار أبي عمر بن حماد « قاضي القضاة يومئذ » ، فرأى الخصوم جلوساً على بابه يتظرون وقد أصبح الوقت ضحى واشتدت حرارة الشمس ، فقوى واستدعى حاجبه وقال له : قل لقاضي القضاة : الخصوم جلوس على بابه ، وقد بلغتهم الشمس وتآدوا بالانتظار ، فإذا جلست لهم أو عرفتهم عذرك فينصرفوا ويعودوا وقد اختصر لنا ابن خلدون في مقدمته صلاحيات والي الحسبة وكل الأمور التي له الحق التدخل بها لاصلاحها فيما يعود على عامة الناس بالخير ويدفع عنهم الأذى والضرر⁽⁸¹⁾ .

إذن لقد كانت سلطة المحاسب واسعة وصلاحياته كبيرة ولكنها سلطة حصينة تستثمر دائمًا للنفع العام تحت أية ظروف . لذلك وجب على المحاسب أن يتحلى بشفافية عامة وعلوم واسعة وإرادة قوية وهيبة جليلة حتى يتمكن رفع الضرر عن الناس منها كانت مراتبهم الاجتماعية .

فالمحاسب يعطي تعليماته الصحيحة والقوية للخبازين والتجار والجزارين ، والقصابين ، والصيادين ، والمعلمين والولاة والقضاة . . .

إن نظام الحسبة في الإسلام ، هو نتيجة خيرة لآخر ما توصل إليه الحكم الحصيف وغايتها الحرص على راحة الناس وأمنهم ودعتهم والحفاظ على رفاهيتهم وتجنبهم كل أسباب القلق والضيق . فهو يجمي المجتمع مادياً وأديباً وأخلاقياً حماية غير محدودة بحدود ولا مقيدة بقيود إلا حدود الأمن وقيود الذوق . ونکاد لا نجد حكمًا معاصرًا يعتمد مثل هذا الأسلوب من أسلوب حماية المواطنين مثل وظيفة الحسبة . من هنا نعلم أن الحكم الإسلامي صالح دائمًا وأبداً لكل انسان في أي زمان لأنه يراعي مصلحة الجماعة وكل ما يعود على الأمة بالخير العام والعدالة الاجتماعية والمساواة بين جميع أفراد الرعية وإعطاء كل ذي حق حقه فيمنع الظلم ويردعه ويرجع حق المظلوم ويحميه .

الشرطة

رجال الشرطة هم الحراس الذين يسهرون على الأمن ويحافظون على كل ما يبعث على الطمأنينة في نفوس الناس « فهم أمناء على المصلحة العامة . ففي عهد عمر بن الخطاب كان

(80) لأحكام السلطانية ص 248

(81) راجع المقدمة لابن خلدون ص 225-226

نظام « العسس »⁽⁸²⁾ أو حرس الليل ، وفي عهد علي بن أبي طالب سمي رئيسها « صاحب الشرطة »⁽⁶⁾ ثم ازدادت أهميتها والعناية بها في عهد الدولة الأموية ، وكان صاحبها يختار من علية القوم وأهل العصبية والقوة ، وأطلقوا عليه صاحب الأحداث ، وهو يشبه مدير الأمن العام أو مدير المخابرات في وقتنا الحاضر .

وكانت الشرطة من توابع القضاء في أول الأمر ، وكان الغرض منها تنفيذ أحكام القضاء ، وفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، وإقامة التعزيز والتأديب في حق من لم يرتدع عن الجريمة ، ومساعدة القاضي في إثبات الذنب على مرتكبه ، وكذلك كان صاحب الشرطة يتولى إقامة الحدود : كحد الزنا وشرب الخمر ، وغير ذلك من الأمور الشرعية . وبعدها انفصلت عن القضاء وأصبحت وظيفة مستقلة .

يقول ابن خلدون : « وكان أيضًا النظر في الجرائم وإقامة الحدود في الدولة العباسية والأمية بالأندلس ، والعبيدية بمصر والمغرب ، راجعًا إلى صاحب الشرطة ، وهي وظيفة دينية أخرى ، كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول ». توسيع النظر فيها عن أحكام القضاء قليلاً ، فيجعل للتهمة في الحكم مجالاً ، ويفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، ويقيم الحدود الثابتة في حالها ، ويحكم في القواد والقصاص ويفهم التعزيز والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة »⁽⁸³⁾ .

ولم تكن مهمة الشرطة في الدولة العباسية عامة التنفيذ في طبقات الناس ، ولكن كان حكمها على أهل الريب ، والضرب على أيدي الرعاع والفجرة .

ولم تتفرد الشرطة عن القضاء إلا في عهد هشام بن عبد الملك 105-125 هـ . فقد استقلت بالنظر في الجرائم . أنشأ هشام نظاماً وسطاً بين شرطة الأمن وشرطة الجيش سماه « نظام الأحداث » .

وقد أعطوا للشرطة مكانة رفيعة ونزيهة ، فقلدوها كبار القواد وعظاماء الخاصة من موالיהם . وفي عهد بنى أمية عظم شأنها وقسموها إلى قسمين : شرطة كبرى وشرطة صغرى ، فالكبيرى تنظر وتحكم على الزعماء وكبار القوم . والصغرى تحكم في رعاع القوم وعامة الناس .

أما ولاية الشرطة فلم تكن تعطى إلا للأكابر من رجالات الدولة ترشيحًا للوزارة والصحابة .

وصاحب الشرطة لقبه « بصاحب الليل » أو « صاحب المدينة » لأنه يحفظ النظام ويساعد الوالي على استباب الأمر في المدينة فيمتن السرقة ويضرب على أيدي الجناة العابثين⁽⁸⁴⁾ .

(82) وعنس يمس عساً : أي طاف بالليل .

(83) المقدمة لابن خلدون ص 251.

(84) المقدمة لابن خلدون ص 251.

البريد

قال صاحب الفخرى في الأداب السلطانية : « البريد أن يجعل خيل مضمرات⁽⁸⁶⁾ في عدة أماكن ، فإذا وصل صاحب الخبر السرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً ، وكذلك يفعل في المكان الآخر والآخر حتى يصل بسرعة . ومعنى البريد لغة من بَرَدَ أو أَبْرَدَ أي أرسل ، كما في قوله : بردت الحديد إذا أرسلت منه ما يخرج منه⁽⁸⁷⁾ .

و قبل أن لفظ بريد عربي و معناه الرسول أو الثابت⁽⁸⁸⁾ . وجاء في صبح الأعشى : « أما معناه لغة فالمراد منه مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلاً⁽⁸⁹⁾ . وقد قدره الفقهاء وعلماء المسالك والممالك بأنه أربعة فراسخ والفرسخ : ثلاثة أميال ... »

وقد ضبط بعضهم ذلك بقوله :

إن البريد من الفراسخ أربع
والفرسخ ثلاث أميال ضعوا
والليل ألف أي من البايعات أقل
والباع أربع أذرع فتتبعوا
فالبريد = 4 فراسخ = 12 ميلاً = 1200 باعاً = 4800 ذراعاً⁽⁹⁰⁾ .

و قبل إنه فارسي مغرب ومعناه : مخدوف الذنب أو مقصوصه ، لأن الفرس كانوا يقصون ذنب بغل البريد ليتمكن بذلك عن غيره من الدواب الأخرى ، قال أمرؤ القيس :

على كل مقصوص الذئب معاودٍ بريد السرى بالليل من خيل بربرا

وجاء في صبح الأعشى « ثم اختلف فيه فقيل : إنه عربي ، وعلى هذا ذهب الخليل بن أحمد إلى أنه مشتق من بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه وقيل من أبردته إذا أرسلته . وقيل من برد إذا ثبت ؛ لأنه يأتي بما تستقر عليه الأخبار : يقال : اليوم يوم بارد سمومه أبي ثابت⁽⁹¹⁾ . »

وهذا لا ينفي أن العرب في نظام البريد مقلدون .

نشأة البريد

ورد عند القلقشندي في صبح الأعشى « والبريد اختراع جداً عرفه الفرس والروم » ولكن الفضل في تقدمه يرجع إلى ما قام به دارا الأول من ربط أجزاء الامبراطورية الفارسية

(86) تضمير الفرس : أن تعلفه حتى يسمى ثم ترده إلى القوت - لسان العرب والقاموس .

(87) النظم الإسلامية لحسن ابراهيم حسن 184

(88) الفخرى في الأداب السلطانية لابن الطقطقي ص 79 .

(89) صبح الأعشى ج 14 ص 366 .

(90) راجع لسان العرب .

(91) صبح الأعشى للقلقشندي ج 14 ص 367 وراجع ابن الأثير في النهاية ولسان العرب والحضارة الإسلامية لأم مترجم 2 ص 404 والكامل للمبودج 1 ص 223 .

في الشرق الأدنى⁽⁹²⁾ .

وكتب من المصطلحات التي كانت مستعملة عند العرب فارسية الأصل ، ومنها الفيج وهو الساعي على قدميه . والشاكري بمعنى راكب البريد . والاسكدار وهو السجل الذي بدون فيه عدد الحقائب البريدية ، كما يثبت فيه ساعات الوصول إلى سلك البريد والخروج منها⁽⁹³⁾ .

الغاية من البريد

كان الغرض من البريد في صدر الإسلام توصيل أوامر الخلفاء إلى ولاتهم وعامتهم ، وأخبار هؤلاء إلى الخلفاء . ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحب البريد : عيناً لل الخليفة فهو بالإضافة إلى أنه كان ينقل أمره إلى ولاته وعماله ، كان رقيباً عليهم ، ينقل أخبارهم إلى الخليفة . ومن مهاماته أيضاً ، يتبعس على الأعداء ، ويستقطع أخبارهم ، ليعرف ما عندهم ، فأصبح البريد والحالة هذه أشبه بالشعبة الثانية في المخابرات في وزارة الدفاع في عصرنا الحاضر . ورد في الفخراني في الآداب السلطانية « ومن جملة الأشياء وضعهم البريد بكل مكان طلباً لحفظ الأموال » وسرعة وصول الأخبار ، ومتجددات الأحوال »^(*) .

ما ييدو أن البريد كان مقصوراً على أغراض الدولة ، ثم أتيح فيما بعد للمرعية لاستفادوا منه في نقل رسائلهم .

تطور البريد عبر العصور

أ - البريد في صدر الإسلام

كان البريد معروفاً عند ملوك العرب في الجاهلية ، ثم عرف أيضاً في صدر الإسلام⁽⁹⁴⁾ وفي الحديث أنه قال⁽⁹⁵⁾ : إذا أبردتم إلى بريداً فاجعلوه حسن الوجه ، حسن الاسم .

وقد ذكر المؤرخون بينما كان المسلمون يقاتلون الروم في موقعة اليرموك جاء البريد يحمل وفاة أبي بكر ، وتولية عمر بن الخطاب ، وعزل خالد بن الوليد من قيادة الجيش وتولية أبي عبيدة بن الجراح مكانه⁽⁹⁶⁾ .

ب - البريد في العصر الأموي

كان معاوية بن أبي سفيان أول من عني في وضع نظام البريد في الإسلام ، وذلك لتسريع إليه أخبار البلاد من جميع أطرافها ؛ فأمر باحضار دهاقين من رجال الفرس وأهل أعمال الروم ، وطلب إليهم ما يريد ، فوضعوا له البريد⁽⁹⁷⁾ وقد أصدر أوامره بوضع الخيل

(92) صبح الأعشى للقلقشندي ج 14 ص 367.

(93) راجع الحضارة الإسلامية لأند متر ج 2 ص 404.

(*) الفخراني في الآداب السلطانية ص 170.

(94) الكامل للمبودج 1 ص 222.

(95) راجع لسان العرب .

(96) تاريخ الطبراني ج 4 ص 35.

(97) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص 134 وقارن صبح الأعشى للقلقشندي ج 14 ص 308.

المضمرات في عدة أماكن ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ، ركب غيره فرساً مستريحاً ، وهكذا يفعل في المكان الآخر حتى يصل البريد . وربما اضطروا إلىأخذ الدواب بالسخرة إذا لم تتوافر المضمرات⁽⁹⁸⁾ .

ولكن أمر البريد أحكم ونظم في عهد عبد الملك بن مروان فقد كان حريصاً عليه وشديد التعليق به . وقد أثر عنه أنه قال لابن الدغدغة :

« وليتك ما حضر بابي إلا أربعة : المؤذن فإنه داعي الله تعالى فلا حجاب عليه ، وطارق الليل فشر ما أتى به ، ولو وجد خيراً لنام ، والبريد : فمتي جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه ، فربما أفسد على القوم ستة جسمهم البريد ساعة . والطعام إذا أدرك ، فافتتح الباب ، وأرفع الحجاب ، وخل بين الناس وبين الدخول »⁽⁹⁹⁾ .

البريد في عصر العباسين

إهتم العباسيون بالبريد اهتماماً كبيراً ، واعتنتوا به عناية كبيرة لأنهم اعتمدوه في إدارة دواوينهم . وصاحب البريد له شأنه في إدارة الخلافة ، فهو يراقب العمال ، ويتخصص على الأداء ، ويكتب إلى المراكز عن معاملة الوالي للرعاية ، وغلاء المعيشة ، وزيادة الأسعار ، وأمور الخراج ، وكان يجمع الرسائل بنفسه ، وينظمها ويقدمها إلى الخليفة أو الوزير . وفي بعض الأحيان ربما استعان الخليفة به لرسم خطة الحرب ، والوقوف على أفضل خطة لمباغطة العدو . لذلك كان أبو جعفر المنصور يقول :

« ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعرف منهم ، فقيل له : يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : أما أحدهم فقاض لا تأخذني في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية ، فإني عن ظلمها غني » والرابع ثم عرض على إصبعه السبابة ثلاث مرات ، يقول في كل مرة آه آه ! فقيل له : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إلي بخبر هؤلاً » على الصحة⁽¹⁰⁰⁾ !!

وقد بلغ من اهتمامه وانتظام أعمال البريد في زمانه أن عماله كانوا يوافقونه بذلك مرتين في كل يوم : من بعد صلاة الصبح ومن بعد صلاة المغرب . وقد مكنته هذا الإطلاع الدقيق على جميع أحوال البلاد ، والآلام بأحوال الخلافة على أكمل وجه فلا ظلم ولا ظلامة فالقاضي يقف عند حدود القانون ، والتاجر يبيع بسعر معقول . وإن رأى تقصيراً من أحد عماله لامة ووبخه أو عزله من منصبه . ورد في كتاب النظم الإسلامية لحسن ابراهيم حسن عن « فون كريير » :

« إنه كان على رأس كل مصلحة في الولايات الكبيرة عامل بريد مهمته موافاة الخليفة

(98) طبقات ابن سعد ج 5 ص 276.

(99) صبح الأعشى ج 14 ص 368 وقارن بالعقد الفريد ج 1 ص 79.

(100) تاريخ الطبرى ج 6 ص 313.

بجميع الشؤون الهامة ، بل والشراف على أعمال الوالي ، كما كان بعبارة أخرى مندوياً أولته الحكومة المركزية ثقتها⁽¹⁰¹⁾ .

فكم نرى كان الخلفاء يعدون عمال البريد عوناً لهم على الشراف على أمور دولتهم كما كانوا لا يولون البريد إلا ثقاتهم من أهل التعلم والدراسة ، لأن على ما ينقلون من أخبار تتوقف علاقة الخلفاء بعمالهم أو بمعاصريهم⁽¹⁰²⁾ .

البريد الجوي - الحمام الزاجل

لم يكتف خلفاء الدولة الإسلامية بما توصلوا إليه في تطوير نظام البريد البري بل خطوا خطوات واسعة في تنظيم البريد الجوي وسرعة وصوله ، فاستعملوا في ذلك الحمام الزاجل ، وقد اهتم الخلفاء العباسيون بهذا الحمام الرسائل ، وتنافسوا فيه ، وبالغ رؤساء الناس في العراق في اقتناصه حتى بلغ ثمن الطائر الواحد سبعمائة دينار⁽¹⁰³⁾ .

وفي أوائل القرن الرابع الهجري نجد الكثير من الأخبار عن استخدام الحمام الزاجل في نقل البريد الجوي « وسرعة توصيل الأخبار ، وهذا أمر هام جداً في الحروب .

ورد في الحضارة الإسلامية ، إنه لم تقلد حامد بن العباس الوزارة عام 304 هـ - 916 م وأرسل إليه الخليفة المقتدر 908 م - 932 م بالقدوم عليه ، كتب على عدة أطياط بخروجه من يومه . قال الشاعري : « إن الرسائل كانت تصل في ذلك العصر من الرقة والموصل إلى بغداد ، وواسط ، والبصرة ، والكوفة بواسطة الأطياف في يوم وليلة »⁽¹⁰⁴⁾ .

البريد بواسطة النار

عرف المسلمون في المراسلة طريقة أخرى أيضاً أسرع من طريقة الحمام الزاجل ، وهي بناء المنائر ، كال أبراج العالية على المرتفعات ، ونقل الإشارات عليها بإشعال النار ، فيصل الخبر بسرعة من برج إلى برج حتى يبلغ المكان المقصود . ولكل نار علاماتها الخاصة بها عرفت عند العرب جيئاً .

استخدم هذه الطريقة الحجاج بن يوسف ، فاختذ هذه المنائر بينه وبين قزوين فكان إذا دخن أهل قزوين دخنت المنائر إن كان نهاراً ، وإن كان الوقت ليلاً أشعلوا ناراً ، وكانت المنائر متصلة بين قزوين وواسط فيصل الخبر في وقت قصير⁽¹⁰⁵⁾ .

وخط جوي آخر استخدمه المسلمون بواسطة بريد النار . قال الفلكشندى : « واستخدم المسلمون استخداماً حسناً في القرن الثالث الهجري على الساحل الأفريقي الشمالي ؛ فقد كانت الرسائل تصل من الإسكندرية إلى سبتة في ليلة واحدة ، ومن طرابلس

(101)نظم الإسلامية لحسن ابراهيم حسن ص 257.

(102) راجع تاريخ التمدن الإسلامي بجرجي زيدان ص 239.

(103) راجع صبح الأعشى للقلقشندى ج 14 . ص 390.

(104)الحضارة الإسلامية لأدم سمتر ج 2 ص 416.

(105) تاريخ التمدن الإسلامي بجرجي زيدان ص 242.

إلى الإسكندرية في ثلاثة ساعات ، ولم يبطل هذا الخط الأخير إلا في سنة 440 هـ - 1048 م حينها ثار المغرب على الفاطميين ، ولم يعد بإمكانهم حماية الحصون من البدو »⁽¹⁰⁶⁾ .

وفي صبح الأعشى فصل خاص عن هذه المثار ختمه القلقشندي فقال : « على أن مرتبها بهذه المملكة أولاً أني بمحكمة ملوكة لا تساوي مقداراً ؛ إذ قد ترقى بسرعة بلوغ الأخبار إلى الغاية القصوى ، وذلك أن البريد يأتي من سرعة الخبر بما لم يأتي به غيره ، والحمام يأتي من الخبر بما هو أسرع في البريد والمناور تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحمام ، وناهيك أن يظهر عنوان الخبر في الفرات بمصر في مسافة يوم وليلة »⁽¹⁰⁷⁾ .

البريد في الحروب

إن سرعة نقل الخبر أثناء الحروب له أهمية كبيرة في نجاح المعركة أو فشلها لذلك اهتم المسلمون بالبريد اهتماماً كبيراً وأغاروه جل اهتمامهم .

ففي العصر العباسي وفي ولاية المؤمن 813 م - 833 م كان للبريد ديوان مركزي كبير في بغداد لتسليم البريد والتقارير المرسلة من أنحاء البلاد ، وكان صاحب البريد يعرض على الخليفة الهام منها ويرسل ما عدتها إلى الدواوين المختلفة كما كان للبريد محطات على طول الطريق .

« وقد بلغ عدد سكك البريد في إبان الدولة العباسية 930 سكة » ونفقات الدواب وأثمانها وأرزاق رجالها 159100 في السنة ، وفي أيام الدولة الأموية كان ينفق على البريد أربعة ملايين درهم ، أي نحو ضعفي ذلك »⁽¹⁰⁸⁾ .

وقد ساعدت معلم هذه الطرق التي أقامتها الحكومة التجار في أسفارهم ، والباحثين في الجغرافيا في بحوثهم . والبريد كان خاصاً بأعمال الخليفة وشؤون مملكته وليس لنقل مراسلات الجمهور من ذلك يذكر آدم متر :

« وكانت تنظم أثناء الحروب بِرْدَ حرية لشؤون الحكومة » فمن ذلك أنه لما استطاع صاحب القิروان على أرض مصر ، أنهض المقتصد مؤنساً الخادم ، وتدب معه العساكر لمحاربة صاحب القิروان عام 302 هـ - 914 هـ . وتقدم علي بن عيسى بترتيب الجمادات من مصر إلى بغداد لتبلغه الأخبار كل يوم »⁽¹⁰⁹⁾ .

ومن طرق البريد إرسالها مع السعاة ، وهو رجال خفاف تعدوا الجري والصبر على السير . وأول من أنشأ أمراً السعاة هؤلاء معز الدولة ، أنشأهم في بغداد لإعلام أخيه ركن الدولة بالأحوال التي تجري حوله سريعاً⁽¹¹⁰⁾ . وعند انتشار خبر السعاة في الأقاليم تلاقت

(106) صبح الأعشى ج 14 ص 400.

(107) المصدر السابق ص 400.

(108) تاريخ التمدن الإسلامي ج 1 ص 232.

(109) المضاربة الإسلامية لأدم متر ص 414 والجملات : جزء الإنسان والبعير وغيره جزءاً وهو عدو دون الخضر فوق العنق . لسان العرب .

(110) المصدر السابق ص 414 . ولا تزال كلمة ساع هي اسم حامل البريد إلى اليوم .

شبان بغداد وغيرهم على هذه الحرفة الجديدة ، وأقبل فقراء الناس على تسليم أبنائهم للسلطان معز الدولة لتدريبهم . وقد امتاز من هؤلاء السعاء اثنان ، اسم أحدهما فضل والثاني مروعش فاقا سائر السعاة ، حيث كان كل منها يقطع نيفاً وأربعين فرسخاً أي حوالي (180) كيلومتراً من شروق الشمس إلى مغربها⁽¹¹¹⁾ وقد اعتمد الخلفاء والأمراء الحية والحدر ؛ فجعلوا بينهم وبين بريدهم عالمة يتلقون عليها سراً فلا يعتمد أحدهم كتاب صاحب بريده إلا إذا كان متسلماً بتلك العالمة ، ولو كان الكتاب بخط صاحب البريد نفسه وخاتمه « إذ يفعل ذلك بالرغم منه ، كما حدث حين دعا المنصور إليه أبي مسلم الخراساني فقد خاف عاقبة تلك الدعوة » ولما عزم على المضي للخلافة استخلف على عسکره أبي نصر بن الهيثم وقال له : إن جاءك كتاب وهو مختوم بنصف خاتمي فهو كتابي ، وإن كان مختوماً بكل الخاتم فاعلم أنه ليس ختمي » .

وحين مثل أبو مسلم بين يدي المنصور قتله ، وكتب على لسانه كتاباً لابن الهيثم وختمه بخاتم أبي مسلم ، فلما وصله الكتاب مختوماً بكل الخاتم عرف أن أبي مسلم لم يكتبه⁽¹¹²⁾ .

(111) راجع ابن الأثيرج 8 ص 425 والحضارة الإسلامية لأدم متوج 2 ص 414 و تاريخ التمدن الإسلامي ص 232.

(112) الفخرى في الآداب السلطانية ص 124.

**الباب الخامس
النظام المالي**

الفصل الأول

لحة تاريخية عن تكون ، الشروء المالية في العصر الإسلامي

في الصيف الأول من القرن السابع الميلادي بدأت حركة الفتوح الإسلامية ، فقضت بسرعة فائقة على الإمبراطورية الفارسية التي غدت متعرضة ينخر في جسمها الفساد . وفي الوقت ذاته انتزعت الدولة الإسلامية أجل الأقاليم من خلفاء قسطنطين .

وقد مرت الحضارة الإسلامية بمراحل عده تنمو وتتطور آخذة من الحضارتين الفارسية والبيزنطية ما يساعدها ويشطتها في شتى الميادين الحضارية . تكونت الدولة الإسلامية بصورة رسمية سنة 622 م . على أثر هجرة الرسول إلى المدينة فكان فتح المدينة أول فتح إسلامي ، وربما كان من أجل الفتوح لأنه كان حجر الزاوية للدولة الإسلامية⁽¹⁾ .

ومن العلوم أن المهاجرين تركوا معظم أملاكهم وأموالهم في مكة ، بلدهم الغالي والحبس ، ولكن الترحيب الكريم الذي لاقوه من أخوانهم الأنصار أنساهم الماضي وانطلقا إلى تأسيس حياة جديدة . فاشتغل معظمهم في الزراعة لتحصيل موارد رزقهم ، ولكن الجهاد إلى القتال يدعوهم ، مما اضطررهم إلى ترك أعمالهم معتمدين على الغنائم التي يحصلون عليها من الحرب » فهذه الغنائم شكلت في البداية أكثر مواردهم .

· والنبي ﷺ اعتمد أول بداية تأسيس الدولة الإسلامية على الغنائم من المعارك والفتح ينمی عن طريقها مالية الدولة .

وأول غنيمة غنمها المسلمين كانت بعض أبل لقرיש حملة ادماً وتجارة ، وذلك في مكان يقال له نخلة بين مكة والطائف⁽²⁾ وقد أصابت هذه الغنيمة عدداً قليلاً من المقاتلين .

أما الغنيمة الوفيرة السلاح والمال فكانت في غزوة بدر الكبرى⁽³⁾ .

ومن عادة اليهود نقض العهود في أي زمان ومكان ، هم مصالحهم ومكاسبهم ، وبعد شهر واحد من موقعة بدر نقض يهودبني قينقاع العهد الذي عاهدهم عليه رسول الله ﷺ عند قدومه المدينة . وقد اعترف لهم ﷺ بأنهم (أمة دون الناس) ؛ فجلاهم إلى ناحية اسمها

(1) الخراج والنظم المالية للرئيس ص 92.

(2) تاريخ الطبراني ج 2 ص 264 - 262.

(3) لقد فصلت أمر هذه الغنيمة سورة الانفال في القرآن الكريم رقم 41 ص 182.

اذرعات من بلاد الشام ، عندها اغتنم المسلمون كثيراً من أموالهم ولا سيما الذهب الذي كانوا يصنعون منه الحل ، لأنهم كانوا يجتذبون الصياغة^(١) .

ما ذكرته كتب التاريخ أن أول أرض افتتحها رسول الله كانت من يهود بني النضير^(٢) تحالفوا هؤلاء مع بعض قبيلة قريش وحرضوا على اغتيال الرسول محاولين قتلها ، عندها أمرهم بالجلاء وحاصرهم خمس عشرة ليلة طلبوا على أثرها مصالحته ، ووافقو على خروجهم من بلدتهم بعد ستة أشهر من وقعة أحد ، على أن لهم ما حملت الأبل ما عدا السلاح . وقد أقرهم النبي على هذا فتحولت أرضهم كلها لبيت المال . إلا ما كان ليامين بن عمير ، وأبي سعد بن وهب ، فإنما أسلما فأحرز أسلامهما أموالهما ، كما تنص القاعدة الإسلامية^(٣) .

ولكن بني النضير هؤلاء أضمرروا الحقد في قلوبهم حتى كانت غزوة الخندق ، التي وقعت في شوال من السنة الخامسة بتلبيب من يهود بني النضير . الذين جاؤوا من خير إلى مكة لتحرير قريش وغطفان على قتال المسلمين . وقد غنم المسلمون الكثير من الأموال والأسلحة .

وقد أخرج النبي يومذاك خمس الغنائم وكان للناس ثلاثة أسماء : للفرس سهمان ولفارسه سهم واحد ، وللراجل سهم واحد .

ثم توصل الرسول في ذي العقدة من السنة نفسها إلى عقد صلح من قريش (صلح الحديبية) وعندما أمن الجانب الداخلي وتفرغ لقتال اليهود الذين ظلوا ينامون عليه ويدسون ويؤذبون الأعداء ، فغزوا يهود خيبر في المحرم من السنة السابعة وحاصرهم شهراً كاملاً ، وفتح حصونهم كلها . ووزع على أهل الحديبية ما كان من مال وطعام وحيوان .

وكانت عدة أهل الحديبية يومذاك ألفاً وأربع مئة ، بينهم مئتا فارس ، فأعطي الفرسان ستمائة سهم ، ثلاثة لكل منهم ، وللرجال ألفاً ومئتي سهم ، وذلك بحسب عدتهم لكل رجل منهم ثم دفع رسول الله بأرض خيبر ونخلها إلى أهلها مقاسمة على النصف مما يخرج من الثمر والحب^(٤) .

وصالح النبي أهل فدك على أن يكون له نصف أرضهم ونخلهم ، وكان يصرف ما يأتيه منه إلى أبناء السبيل^(٥) .

وفي السنة السابعة صالح رسول الله عليه السلام أهل وادي القرى ، بعد أن فتح بلادهم عنوة ، على أن يترك في أيديهم أرضهم ونخلهم ويتقاسموا كما قاسم أهل خيبر . وما كان من أهل تيهاء عندما سمعوا بأنباء هذا الفتح ، إلا أن سارعوا إلى عقد صلح

(٤) الكامل ج ٢ ص ٥٢

(٥) الكامل ج ٢ ص ٥٢ والاحكام للماوردي .

(٦) راجع فتوح البلدان ص 28 .

(٧) راجع فتوح البلدان ص 29 .

(٨) فتوح البلدان ص 37 .

مع النبي ودفعوا الجزية المفروضة عليها⁽⁹⁾ .

في السنة الثامنة كان فتح مكة المكرمة ، فلم يقسم أموالها ، ولم يغنم منها شيئاً ، بل من على أهلها بالحرية والأموال .

في شوال من السنة نفسها انتصر المؤمنون في غزوة حنين وغنموا الأموال ولكن الرسول عليه السلام عفا عن السبي وتأسى به المسلمين ، فغفروا عما بأيديهم من السبي⁽¹⁰⁾ .

وفي رجب من السنة التاسعة 631 م . كانت غزوة تبوك بين المسلمين والروم في فصل الصيف اللافت فجهز الرسول عليه السلام جيشاً لغزو الروم وانتصر عليهم . وصالح أهلها على دفع الجزية ، فكان على كل رجل بارضه دينار . وصالح بعد ذلك أهل أدرج على مئة دينار كل رجب . وأهل جرباء على الجزية وأهل مقنا على ربع ثمارهم ، وصالح أيضاً أكيدر الكندي ملك دومة الجندل على الجزية⁽¹¹⁾ وفي هذه الغزوة أنزل الله على رسوله سورة التوبة التي تحث على الجهاد في سبيل الله منها كانت العقبات .

ولدى مقدمه عليه السلام من تبوك في رمضان وفد عليه رسول ملوك حمير يعلنون اسلامهم ، فأرسل عليه السلام عماله يعلموهم حدود الصدقات الواجبة عليهم :

العشر على ما سقت النساء أو العين ، ونصف العشر على ما سقي بالغرب ، وجعل على كل حالم من أهل اليمن مئذنين ديناراً . ثم تتابع اسلام أهل اليمن بعد ذلك حتى أسلمت همدان كلها في يوم واحد⁽¹²⁾ .

وفي السنة العاشرة عقد الرسول معااهدة مع أهل نجران ، العرب النصارى من بني الحارث ، وكانوا قد أرسلوا إليه وفداً يسألونه الصلح فكتب لهم بشرط هذا الصلح كتاباً ذكر فيه :

« إن لنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد النبي رسول الله ، على أموالهم وأنفسهم ، وأرضهم ، وللتهم ، وعشائرهم ، ويعهم ، وكل ما تحت أيديهم ، لا يغيّر أسفاف من أسقفيته ، ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته . . . ولا يطأ أرضهم جيش ما لم يحدثوا حدثاً أو يأكلوا الربا »⁽¹³⁾ .

ولقاء هذا العهد على أهل نجران أن يدفعوا حالة من حلل الأوaci . (أي من الحلل التي يكون ثمن كل منها أوقية من الفضة ، وهي أربعون درهماً)⁽¹⁴⁾ وفي العام العاشر شرعت الوفود تتعاقب على الرسول عليه السلام من كل حدب وصوب تعلن اعتناقها الاسلام ومناصرة الدين الحنيف .

(9) فتوح البلدان ص 41-42.

(10) الكامل ج 2 ص 99-100.

(11) الطبرى ج 3 ص 146.

(12) الطبرى ج 3 ص 159 والغرب : الدلو .

(13) فتوح البلدان للبلذري ص 71 الأموال ص 27 وأحكام أهل الذمة ص 698 .

(14) الكامل لابن الأثير ج 2 ص 12 وإذا أعطوا دروعاً أو سلاحاً أو خيلًا أنقصوا من تلك الأوaci بقيمتها .

وقد امتد سلطان الدولة الإسلامية إلى شمال الجزيرة العربية ووسطها ، وإلى شمال الحجاز حتى مشارف الشام ونجران واليمن والبحرين وعمان . ومن الأحاديث الموثق بها قوله عليه السلام :

« إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده . والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله » .

هذا وما لحق الرسول بالرفيق الأعلى إلا بعد أن امتد سبيل الفتوح في العصر الراشدي تحقيقاً لوعد الله الذي لا يخلف الميعاد .

وارادات الدولة بعد العصر النبوي

في عهد أبي بكر فتح خالد بن الوليد العراق فصالحه أهل الحيرة على مئة ألف وتسعين ألف درهم ، فكانت أول جزية قدم بها هذا القائد من العراق⁽¹⁵⁾ وقبل وفاة أبي بكر سنة 13 هـ . كان خالد قد أتم فتح غرب الفرات ، معطياً ذمة المسلمين لمن لم ينهضوا للحرب ، مقرراً لهم على أراضيهم جاعلاً عليهم الجزية كما أوصاه خليفة رسول الله⁽¹⁶⁾ .

وفي عهد عمر بن الخطاب 13 هـ - 23 هـ تم فتح سوريا وفلسطين وسואد العراق ، وأكثر أقاليم الفرس « وكذلك مصر وأفريقيا » . فتوسعت رقعة الدولة الإسلامية كثيراً ، وبات الأمر مختلفاً عما كان عليه من قبل من حيث فرض الضرائب وأنواعها وأصول تنظيمها .

كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بقسمة الغيء والمغانم بين المسلمين ، وكتب أبو عبيدة بن الجراح لقسمة الملك وأهلها ، والأرض وما فيها من شجر وزروع⁽¹⁷⁾ . وعندما وجد عمر نفسه أمام مسألة تحتاج إلى استشارة كبار الصحابة الضليعين في مثل هذه المواجهات ، وخيراً رأى أن مجتكم المسلمين إلى عشرة من الأنصار : خمسة من الأوس ، وخمسة من الخزرج ، وذلك بعد أن لبس بعض الاختلاف في وجهات النظر . ثم وضع الخراج على الأرض والجزية على أهلها ، حتى تكون فيها للمسلمين . وخطب فقال : « أرأيتم هذه الغور لا بد لها من رجال يلزمونها ! أرأيتم هذه المدن العظام ! لا بد لها من أن تشحن بالجيوش ويدرّ عليها العطاء ! فمن أين يعطي هؤلاء ! إذا قسمت الأرضون ومن عليها؟»⁽¹⁸⁾ .

ثم يقول : لقد وجدت الحجة في كتاب الله وقرأ هذه الآيات من سورة الحشر : « وما أفاء الله على رسوله منهم » والأية ^٢ وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فللهم والرسول ولذى القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كي لا يكون دولة للأغنياء منكم ^٤ . والآيات من سورة الحشر رقم ٦-٧-٨ . وقال : هذه عامة في القرى كلها .

(15) تاريخ الطبرى ج 4 ص 13.

(16) الكامل لابن الأثير ج 2 ص 148.

(17) كتاب الخراج لأبي يوسف ص 24.

(18) المصدر نفسه ص 25 وانظر الأموال لأبي عبد القاسم بن سلام ص 14-15.

ثم قرأ قوله تعالى :

﴿للّفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يتغرون فضلاً من الله ورضاونا﴾ وقال : هذه للمهاجرين .

ثم قرأ الآية بعدها : ﴿والذين تبؤوا الدار والآيام من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ .
وقال : هذه للأنصار .

ثم ختم بقوله تعالى : ﴿والذين جاؤوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولا حواننا الذين سبقونا بالاعان﴾⁽²²⁾ ثم قال : هذه عامة لم ي جاء من بعدهم فاستوعبت الآية الناس ، وقد صار هذا الفيء بين هؤلاء جميعاً ، فكيف نقسمه هؤلاء وندع من يجيء بعدهم ؟ وكان جواب القوم :

رأي رأيك فنعم ما قلت وما رأيت⁽²³⁾ .

فكتب عمر إلى سعد : «إن ينظر ما أجلب به الناس عليه من كراع أو مال ، فيقسمه بين من حضر من المسلمين ، ويترك الأرضين لعمالها ، ليكون ذلك من أعطيات المسلمين»⁽²⁴⁾ .

ولما كثرت الأموال في أيام عمر وضع الديوان وفرض الرواتب للعمال والقضاة ومنع إدخار المال ، كما حرم على المسلمين اقتداء الضياع والأملاك الواسعة لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال . أما إذا أراد أحد من أهل الذمة أن يدخل في الإسلام ، صار ما في يده من أرض وأملاك إلى أصحابه من أهل قريته ، تفرق فيهم وأخذوها يؤذون عنها ما كان يؤذى من خراجها ، ويسلمون إليه ماله ورقمه ، وحيوانه ويفرضون له راتباً في الديوان مثل سائر المسلمين .

وغاية عمر من هذه الطريقة أن يبقى أهل الذمة وأرصفهم مصدراً للمال الذي يحتاج إليه المسلمون في إقامة الجهاد . أما في حال شراء المسلمين لتلك الضياع والأرزاقي فإنها تصبح أملاكاً خاصة بهم ويستقلون ببنفعها دون سواهم⁽²⁵⁾ . ولكن عمر يريد أن يقيها محبوسة على أهل هذه الأمة من المسلمين المجاهدين ، قوة على جهاد من لم يظهروا عليه يعد من المشركين ، فلا تباع ولا تورث لما ألزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد .

وأما في عهد عثمان بن عفان (33 هـ - 35 هـ) فتغيرت الحال واقتني الكثير من المسلمين المحسوبين عليه ضياعاً وأملاكاً كبيرة وثروات طائلة ، لأنه لم يكن شديداً عليهم ، ومع ذلك كان أموياً ، اعتز الأمويون به وأرادوا أن يعيدوا لأنفسهم السلطة التي كانت لهم في

(22) الآيات من سورة الحشر 9 و 10

(23) خراج أبي يوسف ص 25

(24) الأموال ص 59

(25) كتاب الخراج لأبي يوسف ص 14

الجاهلية . ولـ عثمان أعمال الخلافة رجالاً من أقربائه « وفيهم من لم يعتنق الاسلام إلا يأسا من فوزه على المسلمين »⁽²⁶⁾ . كثرت في أيامه الفتوح وفاقت الغنائم فكان يخصص أهلها بها بأكثر من سائر الصحابة كما فعل بغنائم افريقية سنة 27 هـ ، حاربها المسلمين وعلبهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) بلغت غنائمهم منها 2,500,000 ديناراً أعطى خمسها إلى مروان بن الحكم وزوجه ابنته⁽²⁷⁾ وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال .

وقد أبطل عثمان السنة التي سار عليها قبله عمر في محاسبة العمال ، فتركهم وشأنهم ، فازدادوا طمعاً في حشد الأموال لأنفسهم ، وخصوصاً معاوية بن أبي سفيان عامله على الشام ، وكان أكثرهم دهاء وأبعدهم مطمعاً ، يحب الدنيا ولا شأن له في الآخرة !

اقتدى معاوية بالروم بذخراً وإسرافاً ، ورأى من عثمان ضعفاً وميلاً ، فكتب إليه أن الذي أجراه عليه الخليفة لا يقوم بهون من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل الروم ، ووصف في كتابه أن مزارع هؤلاء لا مالك لها ، وليس هي من قرى أهل الذمة ولا الخراج ، وسأله أن يقطعه إياها ، فأجاب عثمان معاوية إلى طلبه وأقطعه تلك الضياع فوضع يده عليها وحبسها على أهل بيته .

اقتدى معاوية غيره من العمال وسائر الصحابة ، فاقتدوا الضياع والأراضي الواسعة وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد وغيرهم ، وزادت أموالهم كثيراً حتى عثمان نفسه فإنه اقتني الضياع الكثيرة واحتزن الأموال ، فوجدوا عند خازنه بعد موته 150000 ديناراً 1000 000 درهماً قيمة ضياعه بوادي القرى وحدين⁽²⁸⁾ وغيرهما 100 000 ديناراً ، وخلف خيلاً وأبلأ .

ومما يظهر أن عثمان اندفع إلى تسهيل ازدياد الثروة على المسلمين لازدياد الأموال عنده وتضخم ثروته . وذلك بعد أن أغراه أهله وخصوصاً معاوية حتى بات امتلاكه العقار مألفاً وشائعاً في عهده .

« ومن أسباب شيوع الأملال بين المسلمين أن عثمان أقطع هو وخلفاؤه بعض الأرض مما لم يتعين مالكونه ، على أن يدفعوا شيئاً لبيت المال في مقابل الإيجار أو الضمان . فلما حصلت فتنة الأشعث سنة 82 هـ حرق الديوان وضاعت السجلات فأخذ كل قوم ما يليهم »⁽²⁹⁾ .

ولكن المسلمين عامة كانوا غير راضين عن أعمال معاوية في هذا الشأن ، وسكتوا الخليفة عنه ، لأنه لم يساو بينهم فيه . فنقموا عليه وخصوصاً الفقهاء ورجال التقوى . وفي حكاية أبي ذر الغفارى ما يغنى عن البيان . لقد كان هذا الرجل المتمسك بدينه يرى :

(26) تاريخ التمدن الاسلامي بلرجي زيدان ج 1 ص 269.

(27) تاريخ اليعقوبي ج 2 ص 191.

(28) مروج الذهب للمسعودي ج 1 ص 301.

(29) الأحكام السلطانية للماوردي ص 183.

« إن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملکه أكثر من قوت يومه وليلته أو شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لكریم »⁽³⁰⁾ وقد ولع الفقراء بقوله وأوجبوه على الأغنياء . فشكرا هؤلاء أبا ذر إلى معاویة . ولما سأله والي الشام ، الذي لا هم له سوى جمع المال ومنعه عن الفقراء ، وبخه أبو ذر وقال له إثر بنائه قصر الخضراء في دمشق : قال معاویة : « إن كنت بنيته من مال الله فأنتم من المثانيين ، وإن كنت بنيته من مالك فأنتم من المسرفين »⁽³¹⁾ .

عندما عظم الأمر على معاویة الذاهية وأراد أن يوقع أبي ذر في ما يوجب محکمته ، بعث إليه بـ ألف دینار أراد أن يغره بها ثم يتهمه باكتناز المال . فلما وصلت الدنانير إلى أبي ذر فرقها للحال ، وجاءه رسول معاویة يزعم أنه دفع المال إليه رشوة ، وإن معاویة يطلبها ، فأخبره أنه أنفقه ل ساعته على الفقراء . فلم ير معاویة من سبيل إلى اتهامه فكتب إلى عثمان : « إنك أفسدت الشام على نفسك بأبي ذر . فرد عليه الخليفة عثمان : « احمله على قتب بغیر وطاء »⁽³²⁾ ولما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه وجاهر بما يراه من الجشع ، فأخرج عثمان من المدينة إلى الريذنة بالعنف ، وظل هناك حتى مات فيها . فنقم المسلمين على عثمان في جملة ما نقموه عليه .

إذا كان يقال في أبي ذر ما قيل من الزهد والتقوى ، فماذا يمكن أن يقال في الخليفة الراشدي الرابع ، علي بن أبي طالب (ع)؟

عرف علي بزهده للدنيا وتقاه وورعه . حافظ على شريعة الله ونفذها كما جاء في كتاب الله ، وسار على الخط الذي رسمه له رسول الله . ابن عمه وعشيره ورببه منذ الطفولة ، وصهره وحبيبه بعد النبوة .

حارب معاویة لأنه انحرف عن الخط الإسلامي وانفق أموال المسلمين في غير مصارفها . ونختصر فنقول مع العقوبی أن مناقبه لا تخصى من أقواله (ع) « تزوجت بفاطمة ومالي فراش الا جلد كبس ، ننام عليه بالليل ونعلق عليه ناضحنا بالنهار ، ومالي خادم غيرها » وجاءه مال أيام خلافته من أجهان فقسيمه على سبعة أسمهم ، فوجد فيه رغيفاً ، فقسسه على سبعة أسمهم ، ودعا أمراء الأسبوع فأقرع بينهم لينظر لهم يعطي أولاً ، ولم يبين آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ، وكان يأتي بمحبوبه من المدينة في جراب . وقيل أنه أخرج سيفاً له إلى السوق فباعه وقال : « لو كان عندي أربعة دراهم ثمن أزرار لم أبعه ، ومناقبه لا تخصى »⁽³³⁾ .

ولا ريب أن العامل إذا ما رأى خليفته زاهداً تقىً يسير على خطاه وينفع نفسه من كل

(30) تاريخ ابن الأثير ج 3 ص 55.

(31) المصدر نفسه .

(32) تاريخ العقوبی ج 2 ص 199.

(33) تاريخ العقوبی ج 3 ص 183.

شيء ، يقتدي به ولو كان ذلك مخالفًا لرأيه ، على أن الخليفة نفسه لا يولي إلا من يكون على رأيه . فأبوبكر وعمر وعلي ولو الأئقية الزاهدين وعثمان ولي الأقرباء المسرفين .

إن الثروة الفضفاضة في عصر الراشدين كانت محمرة على المسلمين ، ولكن تحريرها لم يبق طويلاً لأن بقاءه يقتضي بقاء أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب . ولم يكدر يختلط العرب بالفرس والروم حتى ثافت نفوسهم إلى الترف وحشاد الأموال ، والخلافة ليست ملكاً ولن يست كسروية ولا قصورية كما عرفها الأمويون .

وانقضى عصر الراشدين ولم ير المسلمون مثله بعده ، وظل أبو بكر وعمر وعلي مضرب أمثال القوم قروناً متطاولة في الزهد والعدل والتقوى فإذا اعوج حاكم أو خليفة طلبوا إليه أن يقتدي بهم .

الفصل الثاني أنواع الضرائب في الإسلام

من واردات الدولة الإسلامية الضرائب . التي ازدادت وتنوعت بتنوع الحاجات الاجتماعية ، وقد جرى العمل بها على تقاليد ونظم لا بد من معرفتها . وأكثر مبادئ النظام المالي أقرها القرآن وأوضحتها النبي ﷺ وجرى العمل بها في العهد النبوى . وكل ذخل أو إنفاق يتم من بيت المال .

أهم واردات الدولة : الزكاة ، والخراج ، والجزية ، والغنية ، والفي» ، والعشور وبعضها ضريبة على الأرض وبعضها الآخر ضريبة على الأشخاص كما ستفصل ذلك في الصفحات التالية :

الزكاة :

الزكاة أو الصدقة تشمل معان عدة منها السند والقول فنقول زكا القول أو زكا فلان أي ثبت قوله وقواه ، ومنها التزكية أي الزبادة عن الأصل » والزكاة في الإسلام هي أول ضريبة فرضت على الأغنياء لتجاه الفقراء حتى لا يبقى في المجتمع فقير معدم . ولكنها كانت في أول الأمر صدقة اختيارية غير محددة الأنوية ، وقد أثني القرآن الكريم على الذين يتصدقون بها .

قال تعالى :

﴿والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم﴾⁽¹⁾ . فالزكاة حق صريح للقراء عند الأغنياء ، والزكاة بمثابة العمود الفقري في النظام المالي الإسلامي لأنها يقوم على أساس الاعتراف للله بأنه المالك الأصيل ، وبالتالي الاعتراف بأنه له وحده الحق في تنظيم قضية التملك والزكوة هي التعبير العملي عن هذا كله .

ثم أمر الله نبيه أن يأخذها من أموال الأغنياء ليردها على الفقراء ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم ، إن صلاتك سكن لهم﴾⁽²⁾ ومعنى قوله تطهرهم وتزكيهم بها أي تطهر ذنوبهم وتزكي أعمالهم .

ليس في القرآن الكريم ما يحدد مقادير الزكوة ، ولكن السنة النبوية التي جاءت لتفصيل القول وتوضح معاني الكلام عرفت الزكوة فقالت أنها على عدة أنواع :

(1) المارج الآية 24-25.

(2) التوبة الآية 103.

- أ- زكاة على أموال التجارة .
- ب- زكاة على الذهب والفضة .
- ج- زكاة على الزرع والثمار .
- د- زكاة على الماشي والأنعام .
- هـ- زكاة المعدن والركاـز .

لا تستحق الزكاة إلا بشرطين : الأول : ملك النصاب الذي يختلف باختلاف الأنواع المذكورة . والشرط الثاني : مرور عام على ملكية هذه الأشياء ليظهر الغنى بالزكاة ماله الذي حفظه الله عليه أو زاده له . وهذا قال بعض المفسرين : الزكاة مأخوذة من زكى الشيء يزكي إذا ثما وازداد . يقال زكى الزرع والماء إذا ثما وزاد . وقيل الزكاة مأخوذة من التطهير ، فكأن الخارج من المال يظهر ومن تبعه الحق الذي جعله الله للمساكين⁽³⁾ .

1- زكاة أموال التجارة ، على ما يقول الفقهاء لا تزيد على ١/٢ ٢ بمالية وهي كل شيء اشتراه الإنسان ونواه للتجارة ، فإنه يقوم وتدفع زكاته .

2- زكاة النقود : يعني بالنقود الذهب والفضة والأوراق المالية المتداولة المقيدة مالاً . سواء كانت نحاسية أو غيرها فكلها مال تجب فيه الزكاة . فما ملكه الإنسان من ذهب أو فضة أو عملة مالية عليه زكاته إذا كان مالكًا أكثر من الحد الأدنى . وحال على بداية هذا التملك حول قمرى كامل ، فإنّه عليه أن يدفع 2,5% مما ملكه وما ربحه خلال العام ، يضاف إلى رأس المال ، فالزكاة مستحقة على المال وعلى ثبوته خلال العام .

3- زكاة الزروع والثمار تقتصر الضريبة على الحبوب التي تكال وتتّخر ، وعلى الخضر والبقول فضلاً عن الحبوب وهي على قسمين :

1- «إن فيها سقت السماء أو سقي سبيحاً من ماء القنوات العشر»

2- «وفيما سقي بالضرب (أي بعمل الإنسان) نصف العشر»⁽⁴⁾

وقال الشافعية : ما يخرج من الأرض سواء كانت عشرية أو خارجية فيه زكاة إذا توفرت فيه شروط معينة .

1- أن يكون مما يقتات به .

2- أن يكون مملوكاً لمالك معين .

3- أن يبلغ نصباً ، والنصاب عندهم خمسة أو سقى والوسط يعدل 120 كلغ .

4- ولا تجب الزكاة على الشمار إلا أن تكون عنباً ورطباً أما غيرها من الفواكه فلا زكاة فيها عندهم . ومذهب الحنابلة والمالكية قريب من مذهب الشافعية .

4- وفي زكاة الماشي كالابل والغنم والبقر شرط بلوغها النصاب القانوني أو الحد الأدنى في

(3) أنظر الاختيار شرح المختارج 1 ص 98.

(4) الأموال ص 38.

العدد «فيكون في كل خمس من الأبل شاتان ، وفي العشر أربع شياه وفي البقر ثلاثة ، وفي الغنم أربعون . وكل هذه الماشي يجب أن تكون سائمة في المراعي وغير مشتغلة بشيء» .

ففي زكاة البقر يلاحظ التفرقة بين تبعها ومسنها ، فتبعها فهو الذي أوفى سنة من العمر ، فما زال يتبع أمه ، ومسنها هو الذي استكمل سنتين .

ففي كل ثلاثة ثوراً تبع ، وفي كل ثلاثة بقرة تبع ، وفي كل أربعين مسن إلى ستين ضعف ما ذكرنا . . .

وزكاة الغنم تقرر في كل أربعين منها شاة ، وفي كل مئة واحدى وعشرين شاتان ، وفي كل مئتين وواحدة ثلاثة شياه ، وفي كل أربع مئة أربع شيه ، وما زاد على ذلك ففي كل مئة شاة⁽⁵⁾ .

أما الحيوانات الأخرى كالخيل والبغال والحمير فلا تجري عليها ضريبة الزكاة إلا إذا دخلت في أموال التجارة » فيلزم دفع الجزية عنها قدر بربع العشر أي $\frac{1}{40}$ وقد ورد في القرآن الكريم الأصناف الثمانية التي سميت بمصارف الزكاة 2.5% قال سبحانه وتعالى : «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفَقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤْلَفَةُ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فِريضَةٌ مِّنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ»⁽⁶⁾ . فالصدقات مصروفة :

للقراء : الذين لا يجدون ما يقي موقعاً من كفايتهم . والمساكين وهم الذين يتظاهرون باعتناق الدين الإسلامي من النافذين في قومهم فليثبت هذا حتى يسلم نظائرهم وينبذوا عن المسلمين . وقد ألغى سهم هؤلاء فيما بعد ، وفي الرقاب : هم العبيد الذين تعاقدوا مع سادتهم على تحرير رقابهم في سبيل الله لقاء مقدار من المال ، فيبت المال يتحمل عن هؤلاء المبلغ المقرر ليحررهم من نير العبودية . والاسلام هو العامل منذ البداية على إلغاء الرق . ويدخل في المؤلفة قلوبهم أن يعطي الزعماء السياسيون المجمدون عن العمل السياسي في الدولة الإسلامية .

والغارمين : أهل الدين اذا استدانوا لغير معصية أو ثابوا وليس لهم وفاء أو لإصلاح ذات البيت ولو أغنياء .

وفي سبيل الله : القائمون بالجهاد المقدس من لا فيه لهم ولو أغنياء .
وابن السبيل : المنقطع في سفره فإنه يعطي من مورد الزكاة ولو كان من الأغنياء في بلده . وصرف هذه الأموال فريضة من الله العليم الحكيم ولا يجوز صرفها لغير هؤلاء⁽⁷⁾ .

(5) الأموال ص 41 وقانون اختيار شرح المختارج 1 ص 106 .

(6) التربية الآية 60 .

(7) خراج أبي يوسف ص 59 .

وكما ذكرنا كان للزكاة ديوان خاص في مركز الخلافة يتبعه فروع فيسائر اليلدان .

بیت مال الزکاة

الأساس في النظام المالي الإسلامي أن يكون للزكاة ميزانية خاصة ينفق منها على مصارفها المحدودة ، وهي مصارف إنسانية لا تضم إلى ميزانية الدولة العامة التي تتسع لمشروعات مختلفة . وفي الآية الكريمة في سورة التوبة إشارة إلى هذا المبدأ ، حين قررت أن العاملين عليها يأخذون مرتباتهم منها . لذلك وجب أن يجعلوا للزكاة بيت مال خاص بها .

وقد قسموا بيت المال في الدولة الإسلامية إلى أربعة أقسام :

- 1- بيت مال الزكاة : وفيه تكون حصيلتها تجبي بواسطة الساعة وتوزع على مصارفها حسب الحاجة إليها .
 - 2- بيت مال الجزية والخارج : والجزية مال يؤخذ من غير المسلمين الذين يقيمون على أرض الدولة الإسلامية ، يؤخذ منهم مقابل ما يؤخذ من المسلمين في الزكاة . والخارج ضريبة سنوية تفرض على الأرض حسب انتاجها .
 - 3- بيت مال الغنائم والرकاز : خاص يصرف في مصارفها المنشورة له .
 - 4- بيت مال الضوائع : وهي الأموال التي لا يعرف لها مالك ومنها الأموال التي لا وارث لها .

وقد شدد الإسلام على الزكوة فجعلها القرآن الكريم مع التوبة من الشرك وإقامة الصلاة عنوان الدخول في دين الإسلام . قال تعالى في شأن المشركين المحاربين ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ فَخَلُوُا سَبِيلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾⁽⁴⁸⁾ . وجاء أيضاً في السورة نفسها : ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَتُوا الزَّكَاةَ فَأُخْرَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾⁽⁴⁹⁾ .

ومنح القرآن الكريم والسنّة الشريفة يقرنان الصلاة بالزكاة دائمًا ، دلالة على قوّة الاتصال بينها ، فالصلاحة عمود الإسلام ، والزكاة قنطرته ، من عبر عليها نجا . قال عبد الله بن مسعود : « أمرتم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكوة ومن لم يزك فلا صلاة له » (10) .

إن للزكاة أثراً جلياً على المجتمع ، فمن مظاهرها التكافل الاجتماعي والأخوة الإنسانية ، فعدم استئثار الفرد على أخيه بما يكون أحوج إليه منه ، يشيع عدالة اجتماعية رفيعة المستوى . عدالة تتبع من داخل الفرد ولا تفرض عليه ، فهو يشعر أن ما في يده يجب أن يسخره بداعٍ شخصي لقضاء حاجة أخيه ، لأن الأخوة هي الرباط الوثيق التي تجمع أفراد المجتمع وتجعل منهم جسمًا واحدًا ، إذا أصيّب أحد أعضائه تداعت له سائر الأطراف بالحمى والسهير . والأخوة أرفع شأنًا من المال ، وما جعل المال إلا صوناً لها . وعندما يشعر الطرف الآخر ، الذي يُعطي ، أن ما في يد أخيه لقضاء حوائجه ، يكون بلا ريب أدعى في نفسه

النحوية الآية 5 (8)

(٩) التوبة الآية ١١.

153 (10) تفسير الطبرى - ١٤ ص

للحفاظ عليه ، وينبغي ازدياده بين يديه بلا طمع أو غيرة أو حسد .

وعندما يكون المال للجميع وبخدمة الجميع دون مفاضلة ، يتحقق عندها التوازن الاجتماعي ، وتزول الفوارق بين الأفراد فيذهب الفقر وتزول الفقراء . فالزكاة يفهم الشرع الإسلامي تقوم بأداء دور المساوة ، وتحقيق العدالة الاجتماعية حتى يكون الناس جميعاً طبقة واحدة ، في مستوى المعيشة ، لا يفضل أحدهم على الآخر ، إلا بصفاته الشخصية ، الموهوبة له تكوينياً لا تشريعياً .

« أما روح الزكاة ، فهي الفريضة التي يغير على تأديتها المستخلف ، عند تخلفه عن تأدية مهمة الاستخلاف ، وتحقيق غايتها » وهي عدم الاستئثار على الأخ بما هو أحوج إليه « فنقوم الفريضة » بتأدية هذا الدور في الحدود الممكنة ، لأن المال مال الله جعله خواتيمه في الأرض لصالح عباده ، فلا فضل لمجتبه إلا فضل الوسيط في إيصال ما أؤمن عليه » (11) .

هـ - زكاة المعدن والركاز

المعدن هو مخلقه الله تعالى في الأرض من ذهب أو فضة أو نحاس أو رصاص أو كبريت أو غيره . والركاز هو كل ما رکزه الله في الأرض ولم يضعه أحد من البشر ، أو كان كثراً تركه بعض الناس .

وتحبب الزكاة في المعادن المستخرجة من الأرض إذا بلغت الكمية المستخرجة والصافية النصاب . سواء كان المستخرج مسلماً أو غير مسلم في أرض الإسلام ولا يشترط في الوجوب حولاً حول .

قال الحنابلة : المعدن هو كل ما تولد من الأرض ، سواء كان جامداً كذهب أو فضة ... أو مائعاً كالزرنيخ والنفط .

وعند ذلك يجب على من استخرج من ذلك شيئاً وملكه ربع العشر أي ما يعادل وقد اشتربطا شرطين :

- 1 - أن يبلغ بعد تصفيته نصاباً من ذهب أو فضة ، أو ما تساوي قيمته نصاباً من غيرها .
- 2 - أن يكون المستخرج مسلماً .

وجاء عند الدكتور صبحي الصالح عن الحسن البصري : « ما كان من رکاز في أرض الحرب فقيه الخمس ، وما كان في أرض السلم فيه الزكاة » وهو ربع العشر » (12) .

ندرك من كل ما تقدم مقدار ما يمكن أن تجمعه الدولة في صندوق الزكاة من أموال طائلة تلبي حاجات الفقراء والمساكين كلهم وتزيل الفقر بأشنع صورة . الفقر الذي يعيق الناس من التقدم والعطاء ويعنهم من تفجر كفاءتهم ومواهبهم .

(11) الأموال لأبي القاسم والاسلام لسعيد حوى (باب الزكاة) . وراجع الضمان الاجتماعي في الاسلام للشيخ سليمان اليحفوفي ص 85 .

(12) نظم اسلامية للدكتور الشيخ صبحي الصالح ص 357 .

فالأوراق النقدية من جميع أنواعها في أيدي الناس أو الشركات فيها الزكاة .
وكل عروض التجارة الموجودة في المصانع والمعامل فيها الزكاة .
وكل المواشي من أغنام وأبقار وجمال فيها الزكاة .
وكل الزروع والثمار إذا بلغت النصاب فيها الزكاة .

والمعادن الجامد والسائل وخاصة البرول فيه كذلك الزكاة ، وكلنا يعلم كم يعطي الذهب الأسود من ملايين و مليارات في دول الخليج ، فلو ضبط ودفع أصحابه الزكاة المتوجبة عليهم لما بقي لا فقير ولا مسكين على جميع الأرضي العربية .

الخرجاج :

ضربية تفرض على الأرض التي صالح عليها الشركون بمقدار معين من حاصلاتهم الزراعية أو من أموالهم ، وهذا المقدار المفروض يسمى خراجاً⁽¹³⁾ وقد ميز بين الأرض العشرية والأرض الخراجية كل أرض أسلم أهلها عليها ، أو فتحت عنوة وقسمت بين الغاثنين ، فهي عشرية ، وما فتح عنوة وأقر الإمام أهلها عليها أو صالحهم فهي خراجية سوى مكة شرفها الله تعالى .

وقد وردت لفظة خراج في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿فَخِرَاجٌ رِبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرٌ الرَّازِقِين﴾⁽¹⁴⁾ . فهنا الخراج يعني الأجر والثواب والرزق . ومن الناحية اللغوية تأتي بمعنى التخريج « لأن هذا المقدار المأخوذ خارج من الشيء الذي وقعت عليه الضريبة . والخرجاج يؤخذ عن الأرضي التي افتحتها المسلمون عنوة وحرباً فإذا أراد الخليفة ، وقفها على مصالح المسلمين ، أو وزعها على المحاربين .

كما يفرض الخراج عن الأرضي التي أفاء الله بها على المسلمين فملكوها صلحاً ، واستحوذوا على مقدراتها دون قتال . كان أهل هذه الأرضي يؤدون إلى المسلمين خراجاً معلوماً يدخل بيت المال . وإذا ما القينا نظرة إلى مساحة الأرضي الشاسعة التي منحها المسلمون صلحاً دون قتال ، هالنا المقادير الكبيرة من الأموال التي دخلت الخزينة الإسلامية .

كان الخراج شيئاً مقدراً من حاصلات زراعية . ورد في كتاب الأموال :
 « ... إن عمر بعث ابن حنيف إلى السواد . فطرز الخراج ، فوضع على جريب الشعير درهرين ، وعلى جريب الحنطة أربعة دراهم ، وعلى جريب القصب ستة دراهم » . وعلى جريب النخل ثمانية ، وعلى جريب الكرم عشرة ، وعلى جريب الزيتون اثنا عشر ، ووضع على الرجل الدرهم في الشهر والدرهمين في الشهر⁽¹⁵⁾ وكان الخلفاء يشرفون بأنفسهم على جبایة

(13) تفسير الجلالين ص 258.

(14) سورة المؤمنون الآية 72 . تفسير الجلالين ص 458 .

(15) الأموال ص 98 وطرز الخراج فصل مقاديره . وفرض على الرجل الدرهم وعلى الآخر الدرهمين تبعاً لحال كل منها .

الخروج عندما يظنون سوءاً في أمر الولاية أو الجباة ، وكانت محسبتهم على ما جنت أيديهم » هذا النظام أطلق عليه نظام المقاومة⁽¹⁶⁾ وهناك نظام آخر هو نظام الالتزام أو نظام الاقطاع وهو على نوعين :

نظام اقطاع استغلال ونظام اقطاع عمليك . والتمليك يقسم إلى قسمين :

أ - موات . ب : عامر⁽¹⁷⁾ والنبي عليه السلام اقطع أناساً من مزينة أرضاً لا ليتمكنوا فحسب بل ليعمروها ، وفي هذا قال عمر بن الخطاب : « من كان له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها ، فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها »⁽¹⁸⁾ .

والغرض من نظام الاقطاع هذا هو تشجيع الناس على إحياء الأرض الموات وتشجيع مختلف الزراعة والعمران .

ولكن الناس في كل زمان يسيئون تطبيق النظام فيخالفون بوقائعهم العملية أبناء التعلیم والأنظمة » فكان بعض الذين أعطوا أرضاً ليلتزموا عمارتها لا يتربدوا في إثقال الأهالي بأنواع الضرائب المختلفة ، فيؤدي إلى بيت المال ما عليه من الخراج ويحتفظ بما زاد عنه لنفسه ، وهكذا جمعت باسم الاقطاع والنظام أموال حرام .

وفي العصر العباسي عندما تولى الأتراك السلطة ، امتاز الاقطاع بنوع من الشمول فلم يعد مقصوراً على اقطاع أجزاء من الأرض في الولاية الواحدة ، بل أصبح يشمل ولاية كاملة . فكان المتندون من الأتراك يقطعون بعض الناس الولاية كلها بشرط أن يؤدوا في المقابل - في العصر العباسي مبلغاً كبيراً من المال إلى خزانة الدولة ، هذا عدا عن المدايا وغيرها من الرشاوة .

وقد عمرت معظم المناطق الزراعية كالعراق مثلاً فقد نجح أهلها بزراعة الخنطة والشعير ، حتى بات أهل السواد يدفعون منها الخراج بدلاً من النقد والعملة . والدولة الإسلامية ، سبقت غيرها من الدول في فرض مثل هذه الضرائب على الأرض بغية إعمارها وإصلاحها وتنمية موارد بيت المال . إلى جانب هذا أفادت في تخفيف حدة النزاع الطبقي بين المالكين والفقراء⁽¹⁹⁾ .

حكم الأرض الخارجية
اختلف الصحابة في مصير أرض الخراج فهل تقسم بين المجاهدين أو أنها تمحس على المسلمين ؟ وبعد أن استقر الرأي على حبسها وضرب الخراج عليها فهل يجوز شراؤها ؟ وإذا انتقلت من ذمي إلى مسلم فهل يؤدى عنها خراجها ؟ ومن ثم زكاتها وهو العشر ؟

(16) الخراج ص 417.

(17) الأحكام السلطانية للماوردي ص 183 .

(18) النظم الإسلامية لحسن ابراهيم ص 197 .

(19) راجع كتاب الأموال ص 386 وما بعدها .

أكثر الصحابة قالوا بأن تبقى أرض الخراج بيد الذميين يعملون عليها ويؤدون خراجها ولا تنتقل إلى المسلمين بالشراء أو الهبة .

وقد علل أبو عبيد القاسم بن سلام فقال : « إن الخراج صغار . وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : « لا تشتروا رفيق أهل الذمة فإنهم أهل خراج وأرضوهم فلا يتبعوها ، ولا يقرن أحدكم بالصغار بعد إذ نجاه الله منه » (20) .

ورأى عمر أن الخراج يضرب على أهل الذمة فإذا انتقلت أرض الخراج من يد ذمي إلى يد مسلم بخراجها ، لزم على المسلم في هذه الحال أن يؤدي الخراج كما يؤديه الذمي . أما الإمام مالك فإنه يرى أن كل أرض فتحت صلحًا فهي لأهلها . لأنهم منعوا بسلادهم حتى صولحوا عليها ، وكل أرض فتحت عنوة فهي فيء للمسلمين (21) .

ولكن عمر بن عبد العزيز يرى أنه لا صغار في أداء خراج الأرض ، ومن ثم فلا حرج في شرائها ؛ وإن الآية الكريمة : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » أنها على الرؤوس لا على الأرض .

فيلزم على المسلم والخالة هذه أن يدفع العشر والخرج . لأن العشر زكاة واجبة على المسلم لا تسقط بأي حال ، والخرج أصل مفروض على الأرض تعلقت به حقوق قبل أن تنتقل الأرض إلى يد المسلم .

ويفرق أبو عبيد بين العشر والخرج فيقول موضحاً : إن الخراج أعمدة المقاتلة وأرزاق الذرية ، والعشر صدقة الأصناف الثمانية التي ذكرها الله جل شأنه في قوله : « إنا الصدقات للقراء ، وللمساكين ، والعاملين عليها » والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب ، والغارمين » وفي سبيل الله ، وابن السبيل » . التوبة الآية 60 .

ويرى عن ابن عباس أنه كان يقول : « لا أحب أن يجتمع على المسلم صدقة المسلم وجزية الكافر » (22) .

الجزية :

وجبت الجزية بنص من القرآن الكريم قال سبحانه وتعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (23) .

والجزية هذه مبلغ معين من المال يوضع على الرؤوس من الناس (24) .

(20) كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام ص 79.

(21) المصدر نفسه ص 77.

(22) المصدر نفسه ص 89.

(23) سورة التوبة الآية 29.

(24) أحكام أهل الذمة ص 22.

وضرورة الجزية تختلف عن ضرورة الخراج فهي تسقط بالاسلام على حين لا يسقط الخراج باعتناق الدين الاسلامي .

وقد فرضت الجزية على أهل الذمة كما فرضت الزكاة على المسلمين ، والجميع في نظر الاسلام رعية لدولة واحدة . يتمتعون بحقوق واحدة » وينتفعون بمصالح الدولة العامة بنسبة واحدة . أما الزكاة ، فهي تتضمن معنى تعبدى ، بينما الجزية تحمل معنى قانوني يدخل فيها يسمى بحقوق الدولة الخاصة . قال القرطبي في ذلك :

الجزية وزنها فعلة من جزى يجوزى إذا كافأ عنها أسدى إليه⁽²⁵⁾ .
فكان الجزية أثبتت للذمي الأمان العام على نفسه وأهله وماليه في المقام والسفر .
فالمسلم وجب عليه الجهاد في سبيل الله ، والذمي وجبت عليه الجزية وذلك بغية التكافؤ العادل بين المسلمين والذميين .

تؤخذ الجزية من ثلاثة أصناف :

- 1 - الأغنياء فرض عليهم قيمة ثمانية وأربعين درهماً .
- 2 - المتوسطون فرض عليهم قيمة أربعة وعشرون درهماً .
- 3 - الفقراء فرض عليهم قيمة اثنان وعشرون درهماً وقد أعنفى من هؤلاء المرضى والعجز وغير المتكتسين من حرف أو غيرها .

فلا جزية على مسكون ، ولا على مقعد ، ولا على المجنون ، ولا على ذي عاهة ، ولا على الرهبان في الأديرة ، ولا على المرأة ، ولا على الصبي ، ولا على العبد المملوك⁽²⁶⁾ وبذلك توجب الجزية على الحر القادر .

والجزية موجودة منذ العهود القديمة قبل الاسلام » فقد فرضها اليونان قبل الميلاد بقرون ، وكذلك الرومان والفرس فقد أزموا الأمم التي خضعت لحكمهم على دفعها . وكانت باهظة جداً أثقلوا بها كواهل الشعوب .

وما ذكر أنها كانت سبعة أضعاف الجزية التي وضعها الاسلام على الذميين . وقد أوصى المسلمون بالتطاف عند أخذها ، فلا يضرب أحد من أجل استيفائهم الجزية ، ولكن يرفق بهم ويخبسون حتى يؤدوا ما عليهم⁽²⁷⁾ .

وقد أظهر المسلمون تسامحاً كبيراً مع أهل الذمة حتى غير بعضهم دينهم . ففي العهد الاموي تسلم المسيحيون مناسب رفيعة في الحقل المالي وعاملهم الأمويون معاملة حسنة وكانوا من أهل الذمة المقربين ، وما ذكر من مواطن الشدة في الشرع الاسلامي ينصرف الى اليهود ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿لتجدُ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدُ أقربهم مودة﴾

(25) أحكام أبي يعلى ص 137.

(26) أحكام أهل الذمة ص 49 . والأحكام السلطانية للمارودي ص 128 .

(27) المصدر نفسه ص 34 .

للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأئمهم لا يستكرون⁽²⁸⁾. فالنصارى لا يستكرون عن أتباع الحق كما يستكبر اليهود وأهل مكة . قال المفسرون أن هذه الآية نزلت في وفد النجاشي القادمين عليه من الجبعة قرآن⁽²⁹⁾ سورة يس فبكوا وأسلموا وقالوا ما أشبه هذا بما كان يتزل على عيسى عليه السلام .

واجبات أهل الذمة وحقوقهم في أمر الجزية

وعندما يدفع أهل الذمة الجزية وجب لهم حقوق على الدولة الإسلامية :

- 1 - الكف عنهم ليكونوا آمنين .
- 2 - الحماية لهم ليكونوا محروسين .

روى نافع عن ابن عمر قال : كان آخر ما تكلم به النبي ﷺ أن قال : « احفظوني في ذمي⁽³⁰⁾ » .

وقد سمعت بعضهم يقول : ان الجزية رمز لخضوع الانسان للسلطة الاسلامية . نقول لهذا السائل ولغيره عن المبررات لدفع الجزية .

أولاً : يستمتع دافعو الجزية بالمرافق العامة مع المسلمين كالقضاء والشرطة وغيرها ... والمرافع العامة كما نعلم تحتاج الى نفقات يدفع المسلمون القسط الأكبر منها . فلا بد لأهل الكتاب ومن جرى مجراهم من أن يدفعوا الجزية ويشاركون في تكاليف هذه المرافق .

ثانياً : يعفى أهل الكتاب من حمل السلاح من أجل الدفاع عن البلاد ، ويقوم بذلك المسلمون ، ولذلك وجب على أهل الكتاب دفع هذه الضريبة نظير إعفائهم من الجهاد والدفاع عندما تقضي الحاجة . أما إذا أحب أحدهم أن يشتراك في أمر الدفاع تسقط عنه الجزية ويعفى من دفعها .

كما تسقط الجزية أيضاً إذا عجز المسلمون عن الدفاع عنهم وحاليتهم .

يروي البلاذري أن المسلمين عندما دخلوا حصن أخذوا الجزية من أهل الكتاب الذين لم يريدوا أن يدخلوا في الإسلام . ثم عرف المسلمون أن الروم أعدوا جيشاً كبيراً لهاجة المسلمين ، فأدركوا أنهم لا يقدرون على الدفاع عن أهل حصن ، وقد يضطرون للانسحاب ، فأعادوا إلى أهل حصن ما أخذوه منهم وقالوا لهم : شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم . فقال أهل حصن : إن ولايتم وعدل لكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم ، ونهضوا بذلك فسقطت عنهم الجزية⁽³⁰⁾ .

ونذكر في النهاية أنه في ظل نظام إسلامي لا يقبل من المسلم مال في مقابل سقوط

(28) سورة المائدة الآية 82.

(29) الأحكام السلطانية للماوردي ص 127.

(30) فتح البلدان للبلاذري ص 143.

القتال عنه وان الأصل أن يؤخذ من كل غير مسلم بدل عسكري هو الجزية إلا إذا ارتضى أن يقاتل مع المسلمين ، وهذا متوك للمسلمين إذا وقفوا به .

الغنية :

الغنية معناها اللغوي مأخذ من الفوز بالشيء⁽³¹⁾ ومعناها الاصطلاحي مشتق من المعنى اللغوي وهي مال من أموال الكفار ظفر به المؤمنون على وجه الغلبة والقهوة⁽³²⁾ . وبعد أن تجمع الغنائم يقسمها الإمام خمسة أقسام ، ثم يتناول خمساً منها ، خمسة أسهم بين أهل الخامس المذكورين في قوله تعالى : « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن الله خمسة وللسهول ولذوي القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل⁽³³⁾ . والأسهم الخمسة في هذا الخامس أحدها سهم للرسول ينفقه في مصالحه ومصالح بيته وما يراه بعد ذلك من مصالح المؤمنين ، وقد سقطت هذا السهم بعد موته . والسهوم الثاني لذوي القربى النبي من بني هاشم وبني عبد المطلب . والسهوم الثالث لليتامى » والسهوم الرابع للمساكين ذوي الحاجة من المسلمين » والسهوم الخامس لابن السبيل المسافر المنقطع عن بلده ، والأخاس الأربعة الباقين للغافرين⁽³⁴⁾ . والامام له الحق ام آثر أن يمن على الأسرى بالحرية فله ذلك⁽³⁵⁾ كما له أن يقتلهم جميعاً إن وجد أن المصلحة في قتلهم مقابلة العدد بالمثل في بعض الحالات . غير أن الأخاس الأربعة ، ملك الغافرين ، نظمها الرسول ﷺ بالعدل بين المقاتلين فأعطى الفارس ثلاثة أسهم والراجل سهماً واحداً⁽³⁵⁾ .

والغنية تقسم إلى أربعة أقسام : الأسرى والسباء والأراضي والأموال .

فالأسرى : كل محارب وقع أسيراً ، والسباء : يراد به النساء والأطفال فلا يجوز أن يقتلوا ، ولا سيما إذا كانوا من الذميين . أما الأرض التي استولى عليها المسلمون عنوة وقهراً ، فتقسم بين الغافرين إلا أن يطبووا نفساً بتركها فتجعل وقفها على مصالح المسلمين⁽³⁶⁾ .

هذا التقسيم كان يحدث بلا ريب بعد انتهاء الحرب ولا بد من الانتظار حتى تضع الحرب أوزارها وذلك حتى لا يتشغل المسلمون بالأسلاك ويتهون عن إحراز النصر . ويدخل في باب الغنية » وربما أصبح ملكاً لسابقه . وما ييدو أن هذا العمل يعتبر تشجيعاً لبعض المؤمنين على البلاء الحسن في القتال . وجاء في الحديث : « من قتل قتيلاً فله سلبه » والقتيل من الكفار الذين آذوا المؤمنين ووقفوا في طريق الإسلام .

(31) القاموس المحيط (للغير وزبادي) باب الميم فصل الغين (غنم) ص 121 وكتاب الأم للشافعى ج 4 ص

. 64

(32) سورة الأنفال الآية 41 .

(33) تفسير الجلالين ص 240

(34) أحكام أهل الذمة تحقيق الدكتور صبحي الصالح ص 16 .

(36) أنظر أحكام الماوردي ص 132 وأحكام أبي يعلي ص 134 .

الفی :

فَاء يَفِيء إِذَا رَجَعَ إِلَى الشَّيْءِ . وَالْفَيْءُ اصْطِلَاحٌ هُوَ الْمَالُ الَّذِي أَصَابَهُ الْمُسْلِمُونَ عَفْوًا
دُونَ قِتَالٍ وَهُوَ كَالْغَنِيمَةِ مِنْ حِيثِ قِسْمِهِ يَقْسِمُ إِلَى خَمْسَةِ أَخْمَاسٍ ، فَالْأَسْهَمُ الْأَكْلُ مِنْهَا لِرَسُولِ
اللهِ وَالْأَسْهَمُ الْأَرْبَعَةُ الْبَاقِيَةُ لِذُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ عَمَلًا بِقُولِهِ تَعَالَى :
﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ فَلَلَّهُ وَلِرَسُولِهِ وَلِذُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ
السَّبِيلِ ، كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ
فَانْتَهُوا﴾ (37).

أما أربعة أخmas الفيء الباقية فكانت تصرف في المصالح العامة للدولة للجند والأسلحة الحربية وغير ذلك.

وعن فرض الأعطيه من الفيء ورد في كتاب الأموال قال : « حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا موسى بن علي بن رياح عن أبيه . . . من أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني ثم قال : فمن أسرع إلى الهجرة أسرع به العطاء . ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء ، فلا يلومن رجل إلا من أتاه راحلته⁽³⁸⁾ . »

فالذين لم يهاجروا لا يحق لهم نصيب من مال الفيء . قال «فاما السنة وليس لهم في الغنيمة والفيء شيء ». وأما التنزيل فقوله تعالى :

... والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتم من شيء حتى يهاجروا ﴿٣٩﴾ .

فالفيء مصداق من مصاديق الأطفال يعود البحث فيه ضمن تنمية قطاع ولـي الأمر .
والفيء جعله الله للمحرومـين في مجتمعـهم ليـرفع من شأنـهم ويـبلغ بهـم مـستوى المـيسـورـين وقد
جعلـها الله بـصـافـ رـسـولـه وـحرـمـ الأـغـنـيـاءـ مـنـهـا ، واـختـصـ بـهـذـا السـهـمـ الـيـتـامـيـ والـلـسـاكـيـنـ وـابـنـ
الـسـبـيلـ حـتـىـ بـلـغـ بـهـمـ رـسـولـه ﷺ مـعـظـلـاـ إـيـاهـمـ رـافـعـاـ مـنـ شـانـهـمـ . وـكـلـ ذـلـكـ تـعـوـيـضـ لـهـمـ عـساـ
لـحـقـ بـهـمـ مـنـ حـرـمـانـ ، فـمـنـ أـعـطـاهـ فـقـدـ أـعـطـىـ اللـهـ وـمـنـ مـنـعـهـ فـقـدـ مـنـعـ اللـهـ ، وـلـاـ تـرـفـعـ مـكـانـتـهـمـ
إـلـاـ بـارـتفـاعـ مـسـكـنـتـهـمـ .

والرسول مثل للمساكين واليتامى وابن السبيل وبه أحسوا بوجودهم الفاعل في مجتمعهم وحازوا رفعة وفخاراً . لذلك نالوا سهمه ورفعهم الله الى صفة ﷺ إن الاسلام العادل سوى بين الطبقات فلا أغنياء يملكون الضياع ومحظوظون المال الوفير ولا فقراء ليس لديهم الكفاية لقضاء حاجاتهم الضرورية لحياتهم . والمال ابتلاء وامتحان للانسان وكذلك الحرمان والفقير . فالاول ابتلاء الاداء والشكر « وبالشكر تدوم النعم » والثاني ابتلاء التحمل والصبر .

. 7-6 الآية سورة الحشر (37)

(38) الأموال ص 319 ويعي بالمناخ عن المقود عن السفر الى الهجرة .

³⁰⁷ الأموال ص 72 وانظر سورة الأنفال الآية 39.

والانسان يشعر مع المال بالعزه والكرامة ، ومع الفقر بالامتهان والاحتقار ، في عصرنا وفي كل عصر . ولكن لو قام الغني بتأدية ما وجب عليه اتجاه الفقير لزادت نعمه ودامـت . قال تعالى : ﴿وَإِنْ لَوْ أَسْتَقَمُوا عَلَى الظَّرِيفَةِ لَأُسْقِنُاهُمْ مَاءً غَدْقاً﴾⁽⁴⁰⁾ أما الغني الذي لا يقدر نعمة الله عليه ، ولا يعترف ان المال مال الله وهو مسير له ليس إلا ، تقسو نفسه ويزداد اختياراً وفخراً ، ويزداد منهم للمال إكتاراً وجمعاً . هذا المفتخر بماله وغناه تناهى موضوع الامتحان دون التفات إلى ما يطلب منه لكي يحافظ على ابتلاء الحسن .

وقد حذر الله أمثال هؤلاء فخاطبهم ﴿كَلَّا بَلْ لَا تَكْرِمُونَ الْيَتَمَ ، وَلَا تَحْاضُرُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ، وَتَأْكِلُونَ التِّراثَ أَكْلًا لَمَا ، وَتَحْبُّونَ الْمَالَ حَبًّا جَمًا﴾⁽⁴¹⁾ لذلك تم ابعاد مثل هؤلاء الأغنياء عن سهم الرسول ﷺ واحتضن بهم المحرومون الصابرون حتى أدركوا به مستوى غيرهم .

العشور (الجمارك)

العشور هي ضرائب في الاسلام تؤخذ على بضائع التجار الكافرين الذين قدموا اليها من دار الحرب الى دار الاسلام . وكان من صالحيات الامام أن يزيد فوق العشور أو أن ينقص الى نصف العشور ، كما له الحق أن يرفع ذلك عنهم تهائياً إن رأى المصلحة فيه ، بعد أخذ رأي العلية وكان لا يزيد الأخذ على مرة من كل قادم بالتجارة في كل سنة « حق ولو تكرر قدومه خلال السنة»⁽⁴²⁾ .

والعشور ليست من الموارد التي ذكرها القرآن الكريم ، ولكنها اجتهد اتضاح في عهد عمر بن الخطاب ، ويريوي قصة ذلك أبو يوسف يقول : إن أهل منيـج ، كتبوا الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقولون : دعنا ندخل أرضك تجاريًّا وتعشـرنا . فشاور عمر أصحاب رسول الله ﷺ بذلك فأشاروا عليه به ، فكانوا أول من عشر من أهل الحرب⁽⁴³⁾ .

أما الدواعي التي شرعت العشور فهي :

- 1 - إذا دخل تجـار المسلمين دار الحرب يدعـوا عشر تجـارـتهم ، فيـسـترـد جـمـاعـةـ المـسـلمـينـ هـذـهـ الخـسـارـةـ عـلـىـ سـبـيلـ المعـاـلـةـ بـالـمـثـلـ بـاـخـذـ عـشـرـ تـجـارـةـ الـوـافـدـيـنـ منـ دـارـ الـحـربـ .
- 2 - التجـارـ الـوـافـدـوـنـ مـنـ الـخـارـجـ يـتـفـعـونـ بـالـمـرـاقـفـ الـعـامـةـ ، كالـشـرـطـةـ وـالـقـضـاءـ وـغـيرـهـاـ وـهـذـهـ المـاـفـقـ الـتـيـ تـحـافـظـ عـلـيـهـمـ يـنـقـفـ عـلـيـهـاـ مـنـ بـيـتـ مـالـ الـمـسـلـمـيـنـ ، فـعـلـىـ هـؤـلـاءـ أـنـ يـسـهـمـوـاـ بـنـصـيبـ فـيـ هـذـهـ النـفـقـاتـ مـاـ دـامـوـاـ يـتـفـعـونـ بـهـاـ .
- 3 - يـدـفـعـ الـسـلـمـوـنـ مـاـ يـتـرـبـ عـلـيـهـمـ كـالـزـكـاـةـ وـمـقـادـيرـ أـخـرـىـ لـلـصـالـحـ الـعـامـ عـنـ الـحـاجـةـ إـذـاـ نـافـسـهـمـ فـيـ السـوقـ جـمـاعـةـ لـيـسـ عـلـيـهـاـ مـثـلـ هـذـهـ الـمـسـؤـلـيـاتـ الـمـالـيـةـ اـنـعـدـمـ تـكـافـئـ الـفـرـصـ .

. (40) الجن الآية 16 .

. (41) الفجر الآية 16-17-18-19-20 .

. (42) انظر أحكام أهل الذمة ص 161 .

. (43) الخراج لأبي يوسف ص 162 .

بين أبناء المهنة الواحدة ، وهو ما يسبب تجارة المسلمين .

هذه الأسباب فرضت العشر بالنسبة للقادم من دار الحرب ، ونصف العشر $\frac{1}{20}$ بالنسبة للذمي ، لأن الأخير يدفع الجزية⁽⁴⁴⁾ .

وقد جددت الشريعة الإسلامية التجارة التي يدفع عنها العشر بأن تساوي قيمتها مائة درهم أو عشرين مثقالاً على الأقل⁽⁴⁵⁾ .

ويدخل في العشر كذلك الضرائب من السفن التي تمر بعض الشعور فعليها أن تدفع عشر ما تحمله عيناً ونقداً ، فقد كان عمال اليمن يأخذون هذه الضريبة من السفن التي تمر بسواحلهم قادمة من الهند ، تحمل الأعواد المختلفة والمسك والكافور والعنبر والصنادل والصيني ، وقد بلغت أعشار السفن في أيام الواثق بالله مالاً كثيراً . وكان الاندلسيون يضربون على السفن التي تمر ببوغاز جبل طارق في ذهابها وإيابها ، فكان الأفرنج أو غيرهم إذا مرروا بسفنهم أدوا الضريبة في مدينة هي في أقصى بلاد الأنجلترا جنوباً يقال لها طريف ، وأسمها الآن Tarifa ويزعم الأفرنج في هذه الكلمة التي تدل عندهم على الضرائب أو الرسوم التي تؤخذ على البضائع في دخولها البلاد وخروجها ، إنها تحريف « طريق » المشار إليها ، لأنهم كانوا يسمون ما يدفعون من رسوم السفن « رسوم طريف » ، ثم أهل اللفظ الأول وبقي اللفظ الثاني . مع أن لفظ « تعريفة » في العربية يدل على نحو معناها الأفرنجي ، فيجوز أن اللفظ الأفرنجي منقول عن لفظ تعريفه العربي أو تحريف « طريف » كما يقولون⁽⁴⁶⁾ .

يتضح مما تقدم أن ضريبة العشر في الإسلام لها موجبان :

الأول: معاملة الدول الأخرى بمثيل ما تعامل به الدولة الإسلامية .

الثاني : سماح الدولة الإسلامية لبضائع غير المسلمين من الأعداء في الدخول إلى أرضنا وانتفاع تجار الحرب بذلك . فهل اليوم كذلك ؟

في الماضي كانت دول العرب دولة واحدة يحكمها مسؤول واحد « اسمه خليفة المسلمين » . فالحدود والمواجز بينها مفقودة ، وكان من السهل جداً تطبيق ضريبة العشر ، أو جررك البضائع الأجنبية . أما الآن فهناك الحدود والمواجز والحدود بين الأقطار الإسلامية وبين المسلمين الذين أوجب عليهم الإسلام أن يكون أخوة ، وأن يكون المسلم مرأة أخيه ، يجب له ما يجب لنفسه ، ويكره له ما يكره لها .

والواقع أن تجار المسلمين يستوردون من دار الحرب إلى دار الإسلام ، وأي بضاعة من بلادنا تذهب إلى دار الأعداء وتؤخذ عليها جمارك . ويكفينا مثلاً على ذلك « البترول

(44) المصدر السابق ص 159.

(45) المصدر السابق ص 158.

(46) تاريخ التمدن الإسلامي ب Jarvis زيدان ج 1 ص 227.

العربي » . فلو وحد العرب المسلمين كلمتهم في شأنه ترى ماذا كان يحصل ؟ ليس من شأننا في هذا المجال الدخول في التفصيات .

حكم أرض العشر إذا اشتراها الذمي

يقول بعض الفقهاء مثل أبي حنيفة وأبي يوسف أن يضاعف على الذمي العشر ويقول البعض الآخر مثل مالك بن أنس أن لا شيء عليه ، لأن الصدقة إنما هي على المسلمين زكاة لأموالهم ، ولا صدقة على المشركين في أرضهم ومواشيهم . ومن رأيه أيضاً : أن الذي يبيع الأرض إلا يبيعها للذمي ، لأن في امتلاكها إبطالاً للصدقة المفروضة عليها^(٤٦) .

ويقول فقهاء الحنفية : كل أرض فتحت عنة فأقر أهلها أو صالحهم الإمام هي أرض خراج . والخارج قسمان : أ - خراج مقاسمة وهو أن يكون للدولة جزء الناتج . ب - خراج موظف وهو أن يكون للدولة شيء معين سنوياً لا يتبدل ولا يتغير .

والخارج الموظف ينقص إذا تطنه الأرض . ومن أسلم من أهل الخارج أخذ منه الخارج على حاله ، (ولا خراج إن غلب الماء فعطل الأرض أو أصحاب الزرع آفة سماوية ، كفرق وحرق وشدة برد) . ويجوز للمسلم أن يشتري أرض الخارج من الذمي ويؤخذ منه الخارج .

الأوقاف

من مصادر موارد بيت المال في النظم الإسلامية ، الأوقاف وهي على قسمين كما عرفها الفقهاء :

- أ - أوقاف ذرية .
- ب - أوقاف خيرية .

وكلاهما لخير الإنسان . أما الذرية فقد نسبت إلى ذرية الإنسان لأنها تهدف في غايتها إلى التكافل الاجتماعي للذرية الواقف وذريه وانتهاها إلى عمل من الأعمال الخيرية كمساعدة الفقراء أو طلبة العلم وما شابه . . .

والأوقاف الخيرية يهدف الواقف فيها عملاً من أعمال البر والخير ، يريد به وجه الله الكريم ، عملاً بالقول الكريم : الخلق كلهم عيال الله وأقربهم إليه أنفعهم لعياله . كما يعمل إلى التوازن الاجتماعي ليورث بعمله الخير هذا الشعور بالطمأنينة في قلوب المحتجزين من أبناء أمهه وذوي أرحامه . وتشمل هذه الأوقاف التي تنقطع على عمارة المدارس والمساجد ، وإصلاح الجسور والطرقات العامة والإنفاق على المجاهدين ؛ كما تتفق أيضاً على المزارعين والتجار فيأخذون بذار أرضهم مجاناً ، ويعطون قسطاً من المال يساعدهم في نماء تجارتهم .

وعطى أيضاً للعميان والمعددين ، وتزويع الشباب العزاب ، وإيواء اللقطاء واليتمى . . . ومن أطرف ما يذكر في هذا المجال وقف « نقطة الخليب » .

ذكر الدكتور صبحي الصالح أن : « الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي وقف نقطة الخليب

٤٦) - الأموال لأبي عبيد ص ٩١.

في قلعة دمشق لامداد الأمهات بالحلب والسكر لتغذية أطفالهن ، وذلك إن صلاح الدين جعل في أحد أبواب القلعة المذكورة ميزاباً يسيل منه الحليب ، وميزاباً آخر بجواره يسيل منه ماء مذاب بالسكر ، وعین للأمهات يومين في الأسبوع ليأخذن خلاهم من الوقف حاجاتهم من الحليب والسكر »⁽⁴⁷⁾ .

إنه لأمر طريف كيف اهتدى الملك الناصر مثل هذه الطريقة في استعمال الميزاب ؟ السياسة المالية الإسلامية تهدف إلى عدم حصر المال في طبقة معينة ، أو إقليم معين ، أو شخص معين . ومراعاة حال الفقراء تتلخص من زاوية إصلاحية تراعي كل الفروقات للأبناء الأمة الواحدة ، حتى يتمكن كل فرد من تقديم كل ما يملك من جهد وطاقة في سبيل قضيته وقضية مجتمعه ، بدون عوائق تحد من عقريته أو تحول دون تفجيرها ؛ ذلك أن المجتمع الذي تزداد فيه الفوارق الطبقة ، وتهمل فيه الكفاءات العلمية على حساب الطائفية والمصالح الشخصية » يحمل بلا ريب بين حناته روح الحقد والانتقام ، وهو مؤهل في كل لحظة ليتفجر من أول شرارة . فقد يستطيع الحكام الظالمون من قهر فرد أو أفراد « ولكنهم لن يستطيعوا أبداً قهر الشعوب .

لقد عالج الإسلام بنور الانفجار وأزال الشقة بين الطبقات الاجتماعية وخلق روح التعاون والتعاضد بين أفراده تحت ظل العدالة والمساواة للوصول بهم إلى الصلاح والكمال .

الكافارات

الكافارة على حد تعبير الفقهاء هي تغطية الذنب وإزالته ، وتكون هذه التغطية بما هو أهون وأقوى من الذنب حتى تتمكن من إزالته .

وموارد الكفارات نجدتها في عتق الرقبة أو إطعام المساكين أو الصيام .

وقد قسمت إلى قسمين :

أ - يخير المكلف بين ثلاثة أمور : 1 - عتق رقبة . 2 - صيام شهرين متتابعين . 3 - إطعام ستين مسكيناً .

ب - وقسم آخر يجب على المكلف الجمع بين الثلاثة معًا : العتق والصيام والإطعام وقد فصلها لنا الإمام الطوسي في النهاية نوجزها بما يلي :

- كفارة اليمين إما عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم .

فإن لم يقدر عن جميعها أو عن واحدة منها ، فعليه صيام ثلاثة أيام متتابعات . وإطعام المساكين قدر مدين من الطعام فإن لم يقدر أطعم كل واحد مداراً ولا يطعم إلا فقراء المؤمنين أو من هو بحكمهم .

وإذا أراد كسوتهم فليعط كل واحد منهم ثوبين يواري بهما جسده . فإن لم يقدر عليهما جاز له أن يقتصر على ثوب واحد .

- كفارة نقض النذور والمهود : عتق رقبة أو إطعام ستين مسكيناً أو صيام شهرين

. (47) النظم الإسلامية للدكتور صبحي الصالح ص 370.

- متابعين . فهو مخير فيها أيها شاء فعل .
- وكفارة الظهار عتق رقبة . فإن لم يجد عليه صيام شهرين متتابعين فإن لم يقدر على الصيام ، أطعم ستين مسكيناً .
- وكفارة من أفتر يوماً من شهر رمضان ، إما عتق رقبة ، أو إطعام ستين مسكيناً ، أو صيام شهرين متتابعين .
- وكفارة قتل الخطأ : عتق رقبة فإن لم يجد عليه صيام شهرين متتابعين فإن لم يستطع يطعم ستين مسكيناً .
- وكفارة قتل العمد : عتق رقبة وإطعام ستين مسكيناً وصيام شهرين متتابعين بعد رضا أولياء المقتول بالدية أو العفو عنه .

النذر والعقود

النذر هو أن يقول الإنسان : إن حصلت على كذا أو كان كذا فله كذا من صدقة أو صيام أو صلاة أو غير ذلك . فمتي كان ما نذر وجب عليه الوفاء بما نذر فيه ، ولم يُسْنَح له تركه . وإن قال : إن كان كذا وكذا فعليه كذا ولم يقل الله ؛ لم يكن ذلك نذراً واجباً ، بل يكون مخيّراً في الوفاء به أو تركه . والأفضل له الوفاء .

ومن نذر الله تعالى : انه متى حصل أمر ، كان عليه شيء ، دون أن يعين ذلك الشيء أو يميزه ؛ كان له الخيار ، إن شاء تصدق بشيء أو صام يوماً ، أو فعل قربة من القربات .
والعهد هو أن يقول : عاهدت الله تعالى ، أو بعتقد ذلك ؛ انه متى كان كذا فعليه كذا . فمتي قال ذلك أو اعتقده وجب عليه الوفاء به عند حصول الشرط وجرى ذلك مجرى النذر سواء .

والنذر والعهد معاً ، يكون لها تأثير إذا صدرًا عن نية ، فمتي تغيراً من النية لم يكن لها تأثير على أي حال⁽⁴⁸⁾ .

ضرائب أخرى

التوظيف والضرائب حين الحاجة إليها

إذا هدد أمن الدولة الإسلامية أو حدثت بعض الطوارئ وجب أن تأخذ الدولة من أموال الناس بقدر ما تدفع به الخطير عن المواطنين ، ولا يحق للأغنياء أن يمتنعوا عن إعطاء الدولة ما تفرضه عليهم منها كلف الثمن لأنها ترعى مصالحهم وتحمي أرزاقهم⁽⁴⁹⁾ .

ويقول الإمام الشاطبي في هذا المجال : إذا قررنا إماماً مطاعاً مفتقرًا إلى تكثير الجنود وسد الشغور وحماية الملك المتسع الأقطار وخلال بيت المال ، وارتفعت حاجات الجنود إلى ما لا يكفيهم فللامام إذا كان عادلاً - أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافياً لهم في الحال ، إلى أن

(48) راجع النهاية للإمام الشيـخ الطوسي ص 562 وما بعدها .

(49) راجع المستصفى للغزالـي ج 1 ص 303 .

يظهر مثال بيت المال ، ثم إليه النظر في توظيف ذلك على الغلات والثمرات وغير ذلك . . . وإنما لم ينقل مثل هذا عن الأولين لاتساع بيت المال في زمانهم بخلاف زماننا .

فإنه لو لم يفعل الإمام ذلك النظام بطلت شوكة الإسلام وصارت ديارنا عرضة لاستيلاء الكفار⁽⁵⁰⁾ .

كما ورد في المصدر نفسه : يقول العز بن عبد السلام في كتابه القواعد ج 2 ص 162 «المصلحة العامة كالضرورة الخاصة ، فلو دعت ضرورة واحد إلى غصب أموال الناس لجائز له ذلك ، بل يجب عليه إذا خاف الملوك لجوء أو حر أو برد وإذا وجب هذا لاحياء نفس واحدة ، فها الظن بإحياء النفوس ، بل إقامة هؤلاء أرجح من دفع الضرورة عن واحد» .

يتضح لنا من هذه النصوص ومن نصوص كثيرة مشابهة : أن فرض الضرائب وتنظيمها جائز ولكن بشروط .

- 1 - أن تكون بقية واردات بيت المال لا تفي ب حاجات الأمة .
- 2 - أن يكون الإمام عادلاً فلا تكون مصارف الدولة على طرق غير مشروعة . فإذا احتل أحد الشرطين امتنع الجواز .
- 3 - في حال فرض ضريبة لا يجوز أن تبقى دائمة ومستمرة ، وإنما تبقى بقاء الحاجة إليها فإذا انتعش بيت المال وكفت وارداداته رفعت الضريبة .
- 4 - إن رأى الإمام العادل و مجلس شوراه في مثل هذه الأمور ضروري .

نظام التوريث الإسلامي

نظام التوريث الإسلامي الذي فصلت أحكامه في الأكثر غالب في سورة النساء يستحق بأمرین . الأول نسب والثاني سبب .

وأما النسب فعلى ضربين : نسب الوالدين ومن تقرب بها . ونسب الولد للصلب ومن يتقرب بهم .

فالميراث بالنسبة ثابت على كل حال ، إلا أن يكون هناك ذو نسب أولى منه بالميراث وأقرب منه ، أو مع كونه مساوياً أو أقرب يكون كافراً أو قاتلاً أو ملوكاً . فإن هذه الأسباب تمنع من الميراث مع وجود النسب .

وأما ميراث السبب فهو على ضربين : سبب الزوجية وسبب الولاء .
الميراث بالزوجية ثابت على كل حال مع وجود ذوي الأنساب ، إلا ما يمنع من الميراث كما منع صاحب النسب من الكفر والقتل والرق .

وأما سبب الولاء فعل ثلاثة أضرب : ولاء العتق ، ويكون مقصوراً على المعتق وولاء الحرية وذلك مقصور على ضامن الحرية والحدث خاصة . ولاء الإمامة ويكون ذلك خاصاً فيمن لا وارث له من ذي نسب أو سبب .

(50) الإسلام لسعيد حوا عن الانعصار للامام الشاطبي ج 2 ص 12 .

هذا تعريف الميراث وأقسامه⁽⁵¹⁾ .

وما يهمنا هنا ما يدخل في موارد بيت المال .

أجاز التوريث الاسلامي للانسان المسلم بأن يوصي بثلث ما له لجهات البر والخير .

وقد اجتهد بعض أصحاب المذاهب في فرض الوصية للأقرباء ، غير الوارثين بقدر الثالث وهم يعتمدون بذلك على الآية الكريمة : ﴿ كُتبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ أَنْ تَرْكَ خَيْرًا لِلْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَقِينَ ﴾⁽⁵²⁾ ، وإذا كان للمقتول وارث كافر ، كان ميراثه لبيت المال⁽⁵³⁾ .

يتضح لكل ذي بصيرة أن الاسلام في توزيع الشروطات نظام قائم بذاته ، نظام عادل يرعى مصالح طبقة المحروميين والفقرا ، ويساوي بين الجميع حتى لا يكون في دولة الاسلام فقير أو محروم أو مسكون . وقد جاءت هذه التنظيمات العادلة منذ فرض الزكاة في أواخر العهد المكي ، أي حوالي سنة 620 م ، وبعد المجزرة سنة 622 م بدأ النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنفيذ نظام الزكاة لتؤمن نفقات التكافل الاجتماعي .

السياسة المالية العادلة في الاسلام

لهذه السياسة أهمية كبيرة جداً إذ أنها تحقق الضمان الإلزامي العادل لأفراد المجتمع ، بعيداً عن التمييز العنصري ، أو الفوارق الطبقية ، أو المصالح الشخصية . وعندما تطبق كما أرادها الله عز وجل في دستوره الكريم يسود الرخاء بين أفراد الرعية ويعمل الصلاح ، وتحقق العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص والتكافل الوثيق والتضامن البناء ، والتعاون والتعاطف اللذان يشدان أواصر الأخوة بين المؤمنين . فليس من طبقات اجتماعية دنيا ، وطبقات عليا ، من حيث مستوى المعيشة . قال تعالى في كتابه العزيز ﴿ خذ من أموالهم صدقة : تطهرهم وتزكيهم بها ، وصلّ عليهم ان صلاتك سكن لهم ﴾⁽⁵⁴⁾ .

السياسة المالية في الاسلام أفتلت المادة بالروح فحققت هدفها السامي من تشرعيها ، حيث دعمت آيات الاستقرار والكمال ، وضمنت أرزاق العباد ونهضت بالمعوزين منه إلى مرتبة الكفاية . وأفسحت للفطرة لأن تأخذ طريقها بدون مزاحم ، وحققت هدف الدين الذي يدعو للاستقامة والتوازن بين المادة والروح ، فاستخرج من خير الأولى ثبات خير الأخرى .

السياسة المالية في الاسلام عالجت الفقر معالجة جذرية صحيحة ، الفقر الأفة الفتاكه في المجتمع التي تنخر بناته السليمة نخرأ وتركه أعجذار نخل خاوية . كما تسبب له من الأمراض والمتاعب ما يقوض البناء الاجتماعي ويقضي على سعادته وراحةه .

(51) راجع النهاية للإمام الشیخ الطوسی ص 623.

(52) البقرة الآية 180 .

(53) النهاية للإمام الشیخ الطوسی ص 672 .

(54) التوبه الآية 103 .

الفقر الذي قال عنه رسول الله « محمد » الموت الأكبر ، والذي قال عنه علي بن أبي طالب (ع) منقصة للدين ومدهشة للعقل ، وداعية للمقت ، وإن من البلاء الفاقة⁽⁵⁵⁾ . لذلك عمد الاسلام الى وضع سياسة مالية عادلة تضمن للفقير رزقه في المرحلة الأولى « وتطرد من نفسه عقدة النقص والخوف وال الحاجة وتتحقق هذه المسؤلية على عاتق الوالي أو الخليفة المستخلف على رزق الله ومال الله ، وأداء الأمانة في المحافظة على ما أوكل إليه من شؤون المسلمين . يحضرني في هذا المجال وصية الامام علي (ع) العاملة على مصر مالك الأشتر : « واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم . واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلات صوافي الاسلام في كل بلد ، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى . وكل قد استرعيت حقه فلا يشغلنكم عنهم بطر ، فإنه لا تغدر بتضييعك التافه ، لأحكامك الكثير المهم ، فلا شخص همك عنهم ، ولا تصغر خدك لهم » .

السياسة المالية في الاسلام وقاية من الفقر ، والوقاية تحول دون الدمار ، وهي أفضل بكثير من المعالجة والتفيش عن الدواء الناجع .

إن من أسرار التشريع المالي في الاسلام الموازنة بين العقيدة والنظام ، وبين الخلق والقانون ، وبين القرآن والسلطان .

ورعايا يسأل البعض : إن مهمة الأديان إيقاظ الضمائر وإحياء القلوب ، وهي تحاول قيادة الناس بزمام الشوق إلى مثوية الله » أو تخذلهم بسوط الخشية من عقابه ، تاركة لأصحاب الملك ورجال القانون أن ينظموا ويراقبوا ويعاقبوا . فالقانون والتنظيم من شأن السلطة السياسية وليس من مهمة رجال الدين . والجواب هو أن هذا الرأي قد يصح في أديان غير الدين الاسلامي ، لأن الانسان في نظر الاسلام جسدٌ وروح كله الله وليس مشطورة إلى شطرين : شطراً للدين وشطراً للدنيا ، البعض لقيصر البعض الآخر لله .

رسالة الاسلام جاءت شاملة هادئة ، هدفها تحرير الفرد من الظلم وتكرمه وإسعاده ، فهي تسعى دائمًا لتوجيه الشعوب والحكام إلى الحق والخير وتدعى الناس كل الناس إلى الله ، ليعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله .

من هنا جاءت السياسة المالية في الاسلام » في هذا الاطار توكل جباية الموارد لبيت المال وتوزيعه على مستحقيه إلى الدولة ، وليس إلى ضمائر الأفراد وحدها ، وقد عدد الأسباب الموجبة لذلك سعيد حوى في كتابه الاسلام فقال :

1 - ان كثيراً من الأفراد قد تموت ضمائرهم ، أو يصيّبها السقم والهزال بسبب حب الدنيا ، أو حب الذات ، فلا ضمان للفقير إذا ترك حقه مثل هؤلاء ، كما هو حاصل الآن في أكثر بلداناً .

2 - إن في أخذ الفقير حقه من الحكومة ، لا من الشخص الغني ، حفظاً لكرامته وصيانة لماء وجهه ان يراق بالسؤال ، ورعاية لمشاعره ان يجرحها المن والأذى .

(55) راجع خطبة الامام علي في نهج البلاغة المعروفة بهذا الشأن .

3 - إن ترك هذا الأمر للأفراد يجعل التوزيع فوضى ، فقد يتبعه أكثر من غني لاعطاء فقير واحد على حين يغفل عن آخر فلا يقطن له أحد ، وربما كان أشد فقرًا .

4 - إن صرف الصدقة ليس مقصوراً على الأفراد من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل . فمن الجهات التي تصرف فيها هذه الصدقة مصالح عامة للمسلمين لا يقدرها الأفراد ، وإنما يقدرها أولو الأمر وأهل الشورى في الجماعة المسلمة مثل : إعطاء المؤلفة قلوبهم ، وإعداد العدة والعدد للجهاد في سبيل الله ، وتجهيز الدعاة لتبلیغ رساله الاسلام في العالمين⁽⁵⁶⁾ .

مصارف بيت المال :

كان المال الذي يأتي من الموارد المتقدمة الذكر ينفق على مصالح الدولة على حسب ما يراه الامام ، فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال ، كما كان من صلاحيات الامام زيادة أرزاق القضاة والولاة أو إنقاذهما ، ودفع رواتب الجندي التي كانت في أيام النبي غير محدودة ولا معينة ، بل كانت تدفع من أربعة أختام الغنية وما يرد من خراج الأرض .

ولما ولـي الخليفة أبو بكر الصديق سوئ بين الجندي في العطاء قائلاً : « هذا معاش فالأسوة فيه خير من الآثرة ». وفي عهد عمر بن الخطاب جعل العطاء بحسب السبق إلى الاسلام . وبقيت أعطيات الجندي تعطى على هذا النحو في عهد الخلفاء الراشدين ، أما في العهد الاموي فقد زاد معاوية في أعطيات جنده عندما استجـدـ العـربـ حتى بلـغـ ستـينـ مليون درهم في السنة ، وذلك حتى يمكن نفسه في الحكم الذي استلمـهـ غصـباـ وـكـرـهاـ .

ومن المصاريف التي كانت تتفق من بيت المال أجراً الترع الكبيرة والمجاري التي تأخذ من الأنهر الضخمة كدجلة والفرات لوصـيلـ الماءـ إـلـىـ الأـرـاضـيـ البعـيدـةـ .

أضـفـ إلىـ ذلكـ النفـقاتـ التيـ كانتـ تـصرفـ عـلـىـ المسـجـونـينـ وأـسـرـيـ المـشـرـكـينـ منـ مـأـكـلـ وـمـلـبسـ وـدـفـنـ منـ يـمـوتـ مـنـهـ⁽⁵⁷⁾ وكـذـلـكـ ثـمـنـ شـرـاءـ المـعـدـاتـ الحـرـبـيةـ ،ـ وإـعـطـاءـ العـطـاياـ وـمـنـحـ الأـدـبـاءـ الـهـبـاتـ وـالـمـكـافـاتـ .

ومـاـ يـجـدـ ذـكـرـهـ أـيـضـاـ فيـ عـهـدـ عـمـرـ بنـ الخطـابـ أـنـ كـلـ مـسـلـمـ دونـ اسمـهـ فيـ دـوـاـوـينـ الـحـكـوـمـ يـحقـ لهـ رـاتـبـ سنـويـ لـقاءـ خـدـمـاتـ الـحـرـبـ عـدـاـ مـاـ كـانـ يـنـحـمـ منـ الأـجـرـ فـرـيـضـةـ لـابـنـاهـ ،ـ وـلـاـ فـرقـ فيـ ذـلـكـ بـيـنـ الـعـربـ وـالـمـوـالـيـ .ـ «ـ فـفـرـضـ لـكـلـ وـاحـدـةـ منـ أـزـوـاجـ النـبـيـ ^{صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـآلـهـ وـسـلـيـلـهـ}ـ عـشـرـ آـلـافـ دـرـهـمـ وـفـرـضـ لـلـعـبـاسـ سـبـعـ آـلـافـ دـرـهـمـ ،ـ وـفـرـضـ لـكـلـ مـنـ شـهـدـ بـدـرـاـ مـنـ الـمـهـاجـرـ الـأـوـلـيـنـ خـسـنـةـ آـلـافـ دـرـهـمـ ،ـ وـفـرـضـ لـكـلـ مـنـ شـهـدـ بـدـرـاـ مـنـ الـأـنـصـارـ أـرـبـعـةـ آـلـافـ دـرـهـمـ ،ـ وـفـرـضـ لـكـلـ مـنـ هـاجـرـ قـبـلـ الفـتـحـ ثـلـاثـةـ آـلـافـ دـرـهـمـ ،ـ وـلـنـ أـسـلـمـ بـعـدـ

(56) الاسلام لسعید حوى ص 149 .

(57) الأحكام السلطانية للحاوردي ص 194 .

الفتح ألفي درهم . ثم فرض للناس على منازلهم وقراءتهم القرآن ، وجهاؤهم⁽⁵⁸⁾ . وقد ساعد العرب في فتوحاتهم جماعات من الفرس من كبار الملائكة »

وقد ساعد العرب في فتوحاتهم جماعات من الفرس من كبار الملائكة ، أطلق عليهم اسم الدهاقين ، ولم يرق للعرب أن يقاسمهم هؤلاء الذين دخلوا الاسلام من غير العرب نصبيهم من الغنائم . وما ذكره العقوبي : أن علياً وحده هو الذي تمسك بالقواعد القديمة⁽⁵⁹⁾ .

وقد فطن عمر بن عبد العزيز من خلفاء بي أمية لاجراء بعض الاصلاحات على الضرائب التي فرضها الأمويون قبله والتي أثرت على المفتوحات العربية الجديدة وقد وجداً زاماً أن تجذب الحكومة أعمالاً جديدة غير الغزو والفتح للمرابطين في الولايات الاسلامية من جند العرب حتى لا يكونوا عيالاً على بيت المال .

ولا يخفى أن سياسة عمر بن عبد العزيز العادلة حالت دون ملكية الأرض ، على حين كانت الحال تقضي بمنحهم إياها لاستغلالها واستئثارها ، كما كانت تسخو في منح الأعطيات حتى للموالي من المسلمين ، في الوقت الذي كانت فيه مالية البلاد تتطلب إلغاء تلك الأعطيات حتى ما كان يمنح منها للعرب أنسنة . ولكن هذا التصرف في سياسة بيت المال انقصت موارد الدولة دون أن تنفع مع أنه كانت ترمي إلى الاصلاح وإعفاء الجدد في الاسلام من الجزية .

(58) راجع كتاب الحراج للقاضي أبي يوسف ص 24-26 والأحكام السلطانية للماوردي ص 176-177
(59) تاريخ العقوبي ج 2 ص 213

الباب السادس

النظام الاقتصادي

الفصل الأول

اهتمام الاسلام بالحالة الاقتصادية

عمل الاسلام على تنمية الحالة الاقتصادية اهتماماً كبيراً وحث المسلمين على طلب الكسب والعيش . لأن هذا الدين الحنيف يهدف إلى تنظيم الحياة الدنيا والأخرية والاهتمام بها معاً . قال الله سبحانه وتعالى : « وابغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين »⁽¹⁾ .

والعبادة في الاسلام لا تقتصر على أعمال الخشوع والتعبد فقط كالصلوة والصوم والأمور الروحية ، بل تتناول كل حياة الانسان العملية أيضاً . يذكرنا الغزالي في ذلك فقد أفرد باباً في الإحياء في آداب الكسب والمعاش ، مستشهدًا بالأيات القرآنية التي تحث على الكسب والعمل فأورد الآية الكريمة : « وآخرون يضربون في الأرض يتغرون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله »⁽²⁾ .

فلقد سوى الدين الحنيف بين السعي في الأرض ابتغاء الكسب عن طريق التجارة أو غيرها في مرتبة الجهاد ، وبين الأعمال التعبدية التي تهذب النفس وتصقل الروح وتعرف من شأن الإنسان روحياً وأخلاقياً . وابن خلدون خصص الباب الخامس من الكتاب الأول وهو يشتمل على ثلاثة وثلاثين باباً في مقدمة تاريخه يقول : « في المعاش ووجوهه من الكسب والضائع وما يعرض في ذلك من الأحوال »⁽³⁾ مما لا يدع مجالاً للشك في أن الاسلام عني عناية شديدة بهذه الحياة الدنيا التي هي طريق للآخرة . فالسعي في مناكب الأرض ابتغاء الكسب عن طريق التجارة أو غيرها هو في مرتبة الجهاد في نظر الاسلام . فالرجل الذي يسعى لتأمين حياة عياله هو مجاهد والذي يحارب دفاعاً عن وطنه وأمته هو مجاهد ، وكلما له الأجر والثواب .

(1) سورة القصص الآية 77

(2) سورة المؤمل الآية 20

(3) المقدمة ص 429- 400

اعتنى المسلمون بأراضيهم الزراعية واستخراج خيراتها وكان الاصلاح الزراعي قسمة عادلة بين الدولة والملاكين . وفي طائفة من أحاديث الرسول ﷺ يظهر منها اهتمامه بالزراعة والغرس ، من ذلك قوله : « ما من مؤمن يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو بهيمة إلا كان له به صدقة » وقال ﷺ أيضاً : « من كانت له أرض فليزرعها فإن لم يستطع أن يزرعها وعجز عنها فليمنحها أخيه المسلم ، ولا يؤجره إياها »^(٤) وقد وجهت الدولة اهتماماً بالغاً بوسائل الري ، فأنشأت القنوات وبنت السدود ، واستخدمت طريقة الري الاصطناعي لري السواد الأعظم خاصة وقد أطلق على تلك الأرضي الزراعية السواد لكثرة ما بها من الشجر والزرع والخضرة^(٥) ويحد السواد من حديه : الموصل إلى عبادان طولاً ، ومن العذيب بالقادسية إلى حلوان غرباً ، وتبلغ مساحته ، على ما ذكره الخطيب البغدادي 36000,000 جريب والجريب عشرة آلاف ذراع^(٦) .

ومن المعروف أن القنوات التي حفرتها الدولة كانت كثيرة في جنوب العراق وفي منطقة البصرة بوجه خاص . وقد حاولت رفع مستوى الماء لتوزيعه بسهولة إلى القنوات الفرعية ، بما أنشأته من سدود اصطلحوا على تسميتها بالنواطم . أما الفلاسون أصحاب الأملاك ، فقد كانوا يستخدمون المحرات الذي تجره الثيران لحرث الأرض مستخددين التسميد من فضلات الحيوان وبقايا الرماد . واشتهرت معظم المناطق العراقية بانتاج الخنطة والشعير حتى أخذ أهل السواد يدفعون منها الخراج بدل النقد والعملة .

أما منطقة الخبر فقد اشتهرت بانتاج الرز والقطن ، ومنطقة سنجار بزراعة الزيتون ، والبصرة بزراعة التحيل وقصب السكر . ومنطقة حلوان تميزت بزراعة التين والبطيخ والكرمة .

وفي شمالي العراق في منطقة الجزيرة كان اعتماد الأهالي في الري على مياه الأمطار وفي منطقة حران الفراتية تعاون الأهالي مع الدولة وحفروا بعض الآبار الارتوازية لارواء مزارعهم ومواشيهم .

وقد تفنن المزارعون في زراعة الأزهار والرياحين من جميع الأنواع ، ولا سيما القرنفل والياسمين والبنفسج والورد الجوري . . .

وبلغ من اهتمام الاسلام بالفلاحة والزراعة أنه في حركة الفتوح وفي عهد الراشدين اعفوا الفلاحين من الضرائب . فهذا أبو بكر عندما وجه خالد بن سعيد إلى فتح العراق

(٤) تهذيب ابن القيم لسنن أبي داود ج 5 ص 56.

(٥) من ذلك قوله تعالى حين ذكر الجنتين « مُدْهَمَاتَان » (سورة الرحمن الآية ٦٤) . أي خضراون ، فوصفت الخضرة بالدمة وهي من سواد الليل .

(٦) تاريخ بغداد ج ١ ص ١١ ومعجم البلدان لياقوت . وحلوان مدينة آخر حدود السدود مما يلي الجبال من بغداد .

أوصاه بـالـأ يأخذ من الفلاحين والـزـاع أي شيء من المال ، فنـفذـ الوصـيـةـ وأـفـرـ الذـينـ لمـ يـخـارـبـواـ منهمـ وكـفـلـ حـايـتهمـ وـحـماـيةـ أـرضـهـمـ (7) .

وعـمـرـ عـنـدـمـاـ مـسـحـ السـوـادـ رـاعـىـ فيـ كـلـ أـرـضـ ماـ تـحـتـمـلـهـ ثـمـ الـغـيـ ضـرـيـةـ التـخلـ وـالـكـرـمـ والـرـطـابـ عـونـاـ مـنـهـ لـلـفـلاـحـينـ (8) .

وبـعـدـ الفـتحـ كـانـتـ أـرـاضـ دـوـنـ مـالـكـيـنـ جـلـاـ عنـهاـ أـهـلـوـهاـ فيـ الـعـرـاقـ وـالـشـامـ فـضـمـهـاـ عـمـرـ إـلـيـ بـيـتـ الـمـالـ وـاعـتـبـرـهـاـ مـنـ (ـالـصـوـافـيـ)ـ (9) .

وعـشـمـانـ حـرـصـ عـلـىـ تـنـمـيـةـ الـزـرـاعـةـ فـأـقـطـعـ الـقـطـائـعـ مـنـ أـرـضـ الـعـرـاقـ كـانـ لـكـسـرـيـ وـمـرـازـيـتـهـ وـأـهـلـ بـيـتـهـ إـلـىـ جـمـاعـاتـ عـمـرـوـهـاـ وـاسـتـغـلـوـ خـيـرـاتـهـاـ وـقدـ شـرـطـ عـلـىـ مـنـ أـقـطـعـهـاـ أـنـ يـأـخـذـ مـنـهـ الـفـيـءـ »ـ فـكـانـهـ جـعـلـ إـقـطـاعـهـ بـثـابـةـ الـاجـارـةـ لـاـ التـمـيلـيـكـ (10)ـ .

وـفـيـ الـعـهـدـ الـأـمـوـيـ سـاعـدـتـ الـظـرـوفـ عـلـىـ اـهـتـمـامـ النـاسـ بـزـرـاعـةـ الـأـرـاضـيـ وـغـرـاستـهاـ .
فـقـدـ وـلـىـ مـعـاوـيـةـ أـرـضـ الـعـرـاقـ الـمـسـمـاـ بـالـبـطـائـحـ وـكـانـ بـيـنـ الـبـصـرـةـ وـالـكـوـفـةـ »ـ لـعـبدـ اللهـ بنـ درـأـجـ »ـ فـأـقـامـ السـدـوـدـ وـاسـتـخـرـجـ مـنـ مـوـاتـ الـأـرـضـ ضـيـاعـاـ عـامـرـةـ بـلـغـتـ غـلـالـهـ خـمـسـةـ آـلـافـ أـلـفـ درـهـمـ (11)ـ .

وـلـاـ وـلـيـ عـمـرـ بـنـ عـبـدـ الـعـزـيزـ بـادـرـ إـلـىـ رـدـ الـحـقـوقـ لـأـصـحـاحـيـاـ ،ـ فـأـخـذـ مـاـ فـيـ يـدـ أـهـلـ بـيـتـهـ مـنـ الـقـطـائـعـ وـمـاـ فـيـ يـدـيـهـ الـتـيـ وـرـثـهـ عـنـ آـبـائـهـ .ـ قـالـ :ـ «ـ إـنـ أـهـلـ أـقـطـعـوـنـيـ مـاـ لـمـ يـكـنـ لـيـ أـنـ آـخـذـهـ وـلـاـ هـلـمـ أـنـ يـعـطـوـنـيـهـ »ـ (12)ـ وـكـانـ مـاـ رـدـهـ أـرـضـ فـدـكـ .ـ وـمـنـ الـظـواـهـرـ الـاـقـتـصـادـيـةـ فـيـ الـعـصـرـ الـأـمـوـيـ الـأـيـغـارـ :

وـهـوـ أـنـ يـوـغـرـ الـمـلـكـ الرـجـلـ الـأـرـضـ فـيـ جـعـلـهـ لـهـ مـنـ غـيرـ خـرـاجـ ،ـ أـوـ هـوـ يـؤـديـ الـخـرـاجـ إـلـىـ السـلـطـانـ الـأـكـبـرـ ،ـ فـرـارـاـ مـنـ الـعـمـالـ (13)ـ .

وـمـنـ تـلـكـ الـظـواـهـرـ الـتـيـ عـرـفـتـ عـنـ الـأـمـوـيـيـنـ :ـ التـقـبـلـ أوـ الـقـبـالـةـ ،ـ وـهـيـ أـنـ يـجـعـلـ الرـجـلـ لـنـفـسـهـ قـبـيـلـاـ ،ـ أـوـ كـفـيـلـاـ يـحـصـلـ بـاسـمـ الـخـرـاجـ وـيـأـخـذـهـ لـنـفـسـهـ لـقـاءـ أـجـرـ مـعـلـومـ يـدـفعـهـ إـلـيـهـ وـفـيـ أـغـلـبـ الـأـحـيـانـ كـانـ الـكـفـيلـ أوـ الـقـبـيـلـ مـنـ ذـوـيـ الـجـاهـ وـالـسـلـطـانـ ،ـ كـماـ فـعـلـ فـرـوخـ أـبـوـ المـشـنـيـ عـنـدـمـاـ كـانـ يـتـقـبـلـ هـشـامـ بـنـ عـبـدـ الـمـلـكـ أـرـاضـيـهـ ،ـ وـكـانـ هـشـامـ يـسـتـفـيدـ تـعـجـيلـ الـمـالـ ،ـ بـيـنـمـاـ يـسـتـفـيدـ الـتـقـبـلـ »ـ أـبـوـ المـشـنـيـ »ـ الـفـرـقـ بـيـنـ مـاـ دـفـعـهـ وـمـاـ حـصـلـهـ (14)ـ .

(7) الطبرى ج 4 ص 7 والكامل ج 2 ص 148 .

(8) الخراج ص 38 والأحكام السلطانية للماوردي ص 142 .

(9) الخراج ص 57 .

(10) الأحكام السلطانية للماوردي ص 183 .

(11) كتاب الوزراء للجهشياري ص 24 .

(12) الكامل ج 5 ص 24 .

(13) انظر القاموس المحيط مادة وغر .

(14) الوزراء والكتاب للجهشياري ص 61 .

لذلك عد الفقهاء التقبل من وسائل التملك الفاسد وأكل أموال الناس بالباطل حتى قال الماوردي « فاما تضمين العمال لأموال العشر والخرج فباطل لا يتعلق به في الشرع حكم (١٥) .

أما في العصر العباسي فقد لاقت الزراعة عناء كبرى ، فانتشرت المدارس الزراعية وتوسعت البحوث النظرية فتم دراسة أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها ، كما استخدمت الأسمدة المختلفة لها على احدث اسلوب .

وسياسة العباسيين في الزراعة سياسة حكيمة ، فقد عمد بعض الخلفاء إلى وضع قواعد ثابتة لأنواع الخراج وذلك بحسب نوع المحصول وجودة الأرض ، فراعوا تخفيض الضرائب إذا خف المحصول لتنشيط المزارعين وعدم إرهاقهم . وقد ألغى أبو جعفر المنصور الضريبة النقدية التي كانت تفرض على الخطة والشوفان وأحل محلها نظام « المقاسمة » وهذا النظام يجبي بالنسبة للمحصول وحسب خصوبة الأرض وطريقة إروائها .

وفي سنة 204 خفض الخليفة العباسي المأمون ، ضريبة الأرض مرة أخرى فأصبح يجبي الخمسين بدلاً من النصف حتى على أكثر الأرض إنتاجاً ، كما ألغى القبالة بعد نصيحة أبي يوسف له (١٦) أما في بابل والجزيرة وفارس حيث يوجد كبار الملاكين والمزارعين فقد فرضوا ضرائب مختلفة وفق شروط الصلح التي عقدت أيام الفتح .

ومن أعمال المنصور في هذا الحقل أنه أقطع بعض أعيان دولته قطائع من الأرض ببغداد يعمرونها ويسكنونها ويحصلون على غلتها مكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة . وسرعان ما عمerta هذه القطائع واتسع نطاقها ، وازدحمت بالسكان ، وأصبحت كل قطيعة منها تعرف باسم الرجل أو الطائفة التي تسكنها : فيرى من بينها قطيعة الريبع بن يونس وكان بها تجارة خراسان من البازارين ، وقطيعة صالح بن المنصور (١٧) .

ومن الموارثي التي اهتم العرب في تربيتها الجاموس ، فقد جلب من الهند ، ثم نقل إلى العراق في عهد الأمويين .

ولما ولي المهدى بعد وفاة المنصور سنة 158 هـ حدثت في الدولة العباسية تطورات هامة في الاصلاح الزراعي تعتبر امتداداً لما بدأ به أبو جعفر من مشاريع الاصلاح وما أحدهه جديداً استبدال نظام المقاسمة بنظام المساحة . فبعد أن كان على كل مسافة محددة من الأرض خراج معين تأخذه الدولة جملة واحدة أو أقساطاً تتحول إلى نسب معينة من الضرائب تقوم الدولة بتجبيتها . فالنصف مثلاً على الأراضي التي تسقي سحراً ، والثلث على الأرضي التي تسقي بالدواليب ، والربع على تلك التي تسقي بالدواليب ، وما على الزراع بعد ذلك شيء (١٨) . هذا

(١٥) الأحكام السلطانية للماوردي ص 168 .

(١٦) راجع الخراج لأبي يوسف ص 105 فصل أبو يوسف تعسف المقبولين وظلمهم الرعية .

(١٧) راجع كتاب البلدان لليعقوبي ص 242 .

(١٨) الأحكام السلطانية للماوردي ص 168 .

فيما يعود إلى الزروع أما الثمار من نخل وكروم وغيرها فبقيت على نظام المساحة .

وقد اعترف أبو يوسف بقيمة هذا النظام فقال : « لم أجد شيئاً أوفر على بيت المال ، ولا أعفى لأهل الخراج من التظلم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ، ولا أعفى لهم من عذاب ولا تهم وعما هم ، من مقاسمة عادلة خفيفة للسلطان فيها رضي ، وأهل الخراج من التظلم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل ... »⁽²⁰⁾ .

وفي عهد هارون الرشيد عظم أمر الخراج ونهضت إصلاحات زراعية جديدة فاحتفر وزيره يحيى نهر القاطلول ، وبني الحياضات والمساجد والرباطات . . .⁽²¹⁾ ومن الظواهر الاقتصادية في العصر العباسي المزدهر كثرة الضياع ، فكانت هناك الضياع الخاصة ، والضياع العباسية ، والضياع الفراتية ، والضياع المستحدثة وبذلك ظهرت زيادة الثروة الأهلية ، ونمّت رؤوس الأموال ، واتسعت موارد الخراج ، وتعددت مظاهر الرخاء التي تحجلت بأروع معانيها في رحص وقد بلغت موارد الدولة الإسلامية في عهد الرشيد « كل سنة نحواً من خمس مئة ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب »⁽²²⁾ .

ولا غرابة بعد ذلك « إن استلقى الرشيد على ظهره ونظر إلى السحابة المارة وقال : إذهبني وامطري حيث شئت فإن خراجك آت إلي ! ! منها ابتعدت السحابة فستبقى في أرض الرشيد وخرجها يعود إليه .

كما عرف في العصر العباسي نظام الإلقاء⁽²³⁾ ، المراد به كتابة الرجل أرضه باسم أمير قوي يلتجأ إليه ويحميه . وعندما يقوم صاحب السلطان بدفع الخراج حتى تصير فيما بعد إليه ، ويصبح مالكه الوحيد ، وعلى هذا الأساس أصبحت قرية (المراوغة) في أذربيجان ملكاً لمروان بن محمد ، لأن أهلها الجؤوها إليه وكتبوها باسمه⁽²⁴⁾ ومن ذلك أيضاً القرى المتفرقة في أرض البطائع الجلأت إلى مسلمة بن عبد الملك تقوياً به واعتزاً واحتئاً⁽²⁵⁾ .

ومن أهم الظواهر الاقتصادية في العصر العباسي نظام التوقيت الكبس ، الفارسي الأصل الذي أخذ به كل من التوكيل والمعتضد بعد أن أدخلوا عليه بعض التعديلات . وخلاصة نظام الكبس هذا أن الفرس حددوا بدء السنة في جباهة الخراج بيوم النيزور ، الذي هو من أجل أعيادهم ، والسنة في تقويمهم الخاص مكونة من اثنى عشر شهراً كاملة ، كل واحد منها ثلاثةون يوماً فتكون السنة عندهم 360 يوماً ، لكنهم درجوا على زيادة خمسة أيام بين الشهر الثامن والشهر التاسع من سنتهم هذه حتى أصبحت 365 يوماً . ومن المعروف أن عدد

(20) خراج أبي يوسف ص 49.

(21) الوزراء والكتاب ص 177.

(22) النظم الإسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن ص 214.

(23) راجع مادة بلأ في القاموس المحيط .

(24) فتوح البلدان للبلاذري ص 327.

(25) المصدر نفسه ص 302.

أيام السنة الشمسية 365 يوماً وربع اليوم وخمس الساعات . فإذا تعاقبت 120 سنة اجتمع من ربع اليوم شهر كامل ، ومن خمس الساعة يوم واحد فما يصبح المجموع 31 يوماً فرأى الفرس أنه لو تعاقبت 116 سنة فقط اجتمع من ربع اليوم وخمس الساعة شهر يساوي 30 يوماً . عندها تصبح سنتهم كيسة ، لأنهم يكسبون عليها شهراً كاماً يلحقونه بها فتصبح 13 شهراً . وفي هذه الحال كانوا يؤخرن موعد النيروز شهرًا كاماً ، فيصبح النيروز في مطلع الصيف إبان نضوج الغلال . فكان كلما تقدم الميعاد إلى أيار ردوه إلى حزيران .

وقد خاف الحكام المسلمين ومنهم هشام بن عبد الملك أن يدخلوا هذا التأخير في النبيء المحرم الوارد في القرآن الكريم : « إنما النسيء زيادة في الكفر يصل به الذين كفروا يخلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدمة ما حرم الله »⁽²⁶⁾ .

وبقي الحال على ما رأينا من الرفض على تطبيق النيروز حتى جاء المتكفل فأقبل على تطبيق نظام الكبس بعد تعديله ، وذلك رغبة منه في الاصلاح الزراعي ، لأنه لاحظ أن الزرع لا ينضج إلا في حزيران فأخر ميعاد النيروز إلى أواسط حزيران وأصدر أوامره بإعادة ميقات النيروز إلى ما كان عليه عام 243 هـ ولما قتل المتكفل ، عاد ميقات الخراج إلى ما كان عليه . وكما يقال أن الناس على دين ملوكهم ، ففي خلافة المعتضid سنة 282 هـ أصدر أوامره بتأخير النيروز ستين يوماً لأنه استصوب عمل المتكفل . فأمر مجدداً بإعادة ميقات النيروز فأصبح في 11 حزيران بعد أن كان في 11 نيسان⁽²⁷⁾ .

وبذلك أعاد العباسيون إلى العراق شهرته القديمة في الخصب والنهاء ولا سيما الجزء الجنوبي منه المعروف بالسوداد .

وما أدخلوه في فن الزراعة الحديثة » التلقيح ، فكان أهل فلسطين يلقحون كرومهم وأهل المغرب يلقحون تينهم كما يلقح التخليل بالطلع الذكر ، كذلك عرفوا تطعيم بعض الأشجار من بعض « حتى استخرجوا منها أصنافاً جديدة .

كما أدخلوا إلى أوروبا نباتات لم تكن معروفة من قبل ، كزراعة الأرز ، وقصب السكر ، والزيتون والمشمش وغيرها⁽²⁸⁾ .

التجار»

كما عني الرسول ﷺ بالزراعة اهتم أيضاً بالدعوة إلى الالتحاق بالتجارة . وهو نفسه عمل في التجارة ، إذ ذهب قبلبعثة إلى الشام بتجارة للسيدة خديجة بنت خويلد مع غلامها ميسرة . وبعد عودته ﷺ من الشام وصفه غلام خديجة بالنشاط والأمانة والأخلاق . ولكنه شغل عن التجارة بأمور أهم وأعظم هي أمور النبوة وما استتبع من جهاد ونضال وتضحية . عمل الدين الإسلامي إلى تنظيم الجانب الاقتصادي في الحياة الدنيا تنظيماً دقيقاً

(26) سورة التوبة الآية 37.

(27) راجع الآثار الباقية للببروني ص 31-33.

(28) راجع تاريخ الحضارة الإسلامية للدكتور أبو زيد شلبي ص 300 .

فشجع التجارة الخالية من الربا . قال سبحانه وتعالى ﴿ وَأَحْلَلَ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَمَ الرِّبَا ﴾⁽²⁹⁾ . كما كان يدعو إلى القرض الحسن : ﴿ وَمِنْ ذَا الَّذِي يَقْرَضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضَعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ، وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ﴾⁽³⁰⁾ . ومن المعروف أن الدين يسر وليس بعسر فقد أوصى أهال الدين المعاشر إلى حال اليسار : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرْهُ إِلَى مِسْرًا ، وَإِنْ تَصْدُقُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾⁽³¹⁾ .

وقد نظم علاقة الدائن بالدين بالعدل والحق منعاً من إلحاق الأذى والضرر قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَتُمْ بَدِينَ إِلَى أَجْلٍ مُسَمٍ فَاَكْتُبُوهُ وَلَا يَكْتُبُ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْتِ كَاتِبٌ إِنْ يَكْتُبْ كَمَا عَلِمَ اللَّهُ ، فَلَا يَكْتُبُ وَلِيَمْلِلَ الَّذِي عَلَيْهِ الْخَطْلُ وَلَا يَقْنَعَ اللَّهُ رَبَّهُ ﴾⁽³²⁾ .

وقد عمل في التجارة أكثر الصحابة ومن الخلفاء الراشدين أبو بكر وعثمان ، ولكنهم سغلا بالفتح فتركوا التجارة ، لذلك طبعت الدولة الإسلامية بطابع عسكري في العصرين الراشدي والأموي .

شهدت التجارة عصراً زاهراً أيام العباسين عندما احتلَّت العرب بالأعاجم وببدأت المنافسة التجارية التي حققت لهم مكاسب وافرة وأرباحاً طائلة .

وعندما انتقل مركز الخلافة إلى بغداد كان ذلك عاماً ملائماً مشجعاً للتجارة ، بما في بغداد من موقع عظيم في هذا المجال ، على ملتقى الطرق البرية والبحرية الداخلية ، هذا إلى جانب كونها همة وصل بين الجزيرة العربية والشام ومصر من جهة وبيان إيران والهند من جهة ثانية . ولا يخفى ما للبصرة من دور هام في وصل العالم الإسلامي بالهند والصين وأفريقيا حيث هيمن تجارة العراق على أطراف العالم المتقدم وقد سميت البصرة عين العراق .

وبعد أن بنى المنصور مدينة بغداد وضع أساس الكرخ في الجهة الجنوبيّة منها وأصبحت مهدًا تجاريًا ومركزًا لرجال الأعمال حيث نقلت إليها أسواق بغداد ، وأفردت لكل حرفة سوقاً خاصاً . من هذه الأسواق سوق العطارين ، وسوق الحدادين وسوق النجارين ، وسوق البازارين ، وسوق الرياحين (حيث تباع الزهور) وسوق الفصاين . وقد قيل أن المنصور أمر بجعل هذه السوق في آخر الأسواق⁽³³⁾ .

وكانت الموصل في شمال العراق ملتقى طبيعياً للقوافل التجارية القادمة من أرمينيا والشام وأذربيجان . وقد اشتهرت بأنواع الحبوب ولا سيما الحنطة ، حتى كانت تخرُّناً يزود العراق في الأزمات الصعبة . كما عرفت بتجارة العسل والمسموح والستائر الصوفية المخططة ، وحتى الآن ما زالت معروفة بهذه الأصناف يقصدونها من كل نواحي العراق . والكوفة في

(29) سورة البقرة الآية 275.

(30) سورة البقرة الآية 245.

(31) سورة البقرة الآية 280.

(32) سورة البقرة الآية 282.

(33) تاريخ الخطيب البغدادي ج 1 ص 80 بلغ مركز الكرخ التجاري 10 كيلومترات طولاً و5 عرضاً .

الجنوب الغربي من العراق، كانت مركزاً تجارياً هاماً في أطراف الصحراء . وأنشط أيامها في مواسم الحج ، فهي رأس الطريق إلى أراضي الحج المقدسة ، وملتقى القوافل التجارية في الجزيرة العربية .

وقد كان الكثير من الحجاج يحجون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج في مكة ، فيلتقطون مع حجاج الغرب المسيحيين . هذا ما جعل لدمشق نصباً وافراً من الحركة التجارية حيث كان معظم الحجاج يجتمعون فيها ثم يسرون جماعات إلى مكة ، ومنها يتفرقون بعد أداء فريضة الحج . وقد أدت هذه الحركة المستمرة إلى انتشار السلع في أسواق دمشق . ولما كانت المدن البحرية مثل طرابلس وبيروت وصور وعكا لا تبعد عن سوق دمشق الكبيرة إلا بضعة أيام ، فقد كانت تحصل جميع السلع التي كانت تباع فيه ، كما كانت ببلاد الشام كثير من الأسواق التي قامت بها الحوانين على جانبي الشوارع ، وهذا ما شجع على قيام فنادق للتجار الغرباء يضعون بضائعهم في الطابق السفلي وينامون في الطابق العلوي .

وعندما تنمو التجارة وتزدهر لا بد من ازدهار الصيرفة ونمو المؤسسات المصرفية . فكان للتجار وكلاء في أهم المدن التجارية ، يكتبون إليهم عن أحوال السوق في البلاد التي يقيمون فيها ويقرضوهم المال ، فيكتب أولئك التجار للمصارف صكوكاً بديونهم بدل الدفع نقداً . يقع على الصك شاهدان ويختم بالشمع يثبت على الصك نفسه⁽³⁴⁾ .

ومن أهم هذه المدن في عالم الصيرفة : بغداد ، البصرة ، القاهرة ، الاسكندرية ، أصفهان⁽³⁵⁾ طرابلس - صيدا - بيروت .

وقد كانت الاسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر ، في البضائع الكمالية على الأقل⁽³⁶⁾ .

نشطت التجارة البحرية عند العرب نشاطاً ملحوظاً ، فوصلوا إلى بلاد الصين في القرن الثاني المجري » وقاموا برحلات طويلة متخذين يناء سيراف مرسي لهذه السفن التي كانت تعود محملة بالسلع الواردة من البصرة وعمان وغيرها وتنقل تجارة العرب والفرس إلى بلاد الصين⁽³⁷⁾ .

وتذليلأ على نشاط هذه التجارة البحرية وضع أبو القاسم بن خرداذبة دليلاً للمسافرين وصف فيه الطريق البحري الذي يبدأ من مصب دجلة ويصل إلى بلاد الهند والصين . ويذكر هذا المؤلف أن السفن العربية » كانت تسير بمحاذة الشاطئ الفارسي وساحل الهند وذلك ليسهل عليها تفريغ البضائع في الموانئ المختلفة⁽³⁸⁾ .

(34) راجع المدخل إلى تاريخ الحضارة العربية لناجي معروف ص 67 . وما بعدها .

(35) بلغ من ازدهار المبادرات المالية والتجارية بها وجود 200 صراف بجلسون جميعاً في سوق يسمى ، سوق العرافين ، آدم مترج 2 ص 375 الحضارة الإسلامية .

(36) الحضارة الإسلامية لأدم مترج 2 ص 375 .

(37) الدعوة إلى الإسلام تأليف أرنولد وترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن ص 331 .

(38) كتاب المسالك والممالك (لميدن سنة 1306 هـ) .

وبذلك فتحت أمام العرب سوق جديد لسلع الهند والصين وهي : الكافور والقرنفل والصندل وجوز الهند وجوز الطيب والقصدير .

كانت الرحلة من الساحل العربي إلى ساحل الهند الغربي تستغرق مدة تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر ، وقد تستغرق شهرًا واحداً إذا ساعدتها الرياح . وقد ذكر الرحالة العرب الذين قاموا بحلاتهم في القرنين الثالث والرابع ، أنهم كانوا يلاقون كثيراً من العطف والرعاية من ملوك الهند ، وأن جماعة من أمرائهم قد اعتنقوا الإسلام وسمحوا للعرب بإقامة المساجد في تلك البلاد . مما شجع العرب على قيام جاليات لهم على سواحل الهند ، ساعدت جيوشهم منذ أوائل القرن الثامن الميلادي على تجاوز حدود فارس حتى استولت على بلاد السندي .

كان من أثر ذلك أن نشطت الحركة التجارية حيث كانت سفن فارس وبلاط العرب ترعرع على تلك المحطات في ذهابها إلى بلاد الصين والهند وفي عودتها حاملة معها حاصلات تلك البلاد⁽³⁹⁾ .

وكذلك وجدت بين بلاد اليمن والخجاز والحبشة ومصر وبين آسيا الشرقية علاقات تجارية ، فكان زمرد ساحل الهند الشرقي ينقل إلى الغرب عن طريق عدن ومكة ، فكان أمراء الشرق الأقصى يتطلبون زمرد مصر العليا وناب الفيل الكثيرة في الحبشة ، وكانت ميناء عدن سوقاً ناشطة لتلك السلع ومرسى للسفن الآتية من كل أنحاء آسيا وساحل إفريقيا الشرقي⁽⁴⁰⁾ .

ولا يخفى ما للبلاد المصرية وعلى الأخص الإسكندرية من دور ناجح في التجارة البحرية يأتي بعد بغداد ، وذلك في عهد الطولانيين حيث انتعش تجارتها وبدأت السلع تردها عن طريق البحر الأحمر عبر برباز السويس مما جعل لهذا الطريق أهمية ظاهرة .

أما السلع التي كانت تجلب من الشرق إلى حلة ومنها ترسل إلى مكة في موسم الحج ، فإنها كانت تصول إلى الغرب على أيدي التجار المصريين حيث كانوا يغدون بها إلى بلادهم برأ مع الحجاج ، أو مع التجار السوريين الذين كانوا يحملونها إلى دمشق .

هذا إلى جانب المواد التي امتازت بها مصر دون غيرها ، كالورق البردي ، ونسج الصوف والكتان ، وأنواع الحيوانات ، وصياغة الذهب والفضة وصناعة الأدوية ، والعقاقير .

وتبقى بغداد « مدينة السلام » ، السوق التجاري من الطراز الأول وكان دجلة والفرات الشرئيين التجاريين الهامين في داخل بلاد الدولة العباسية . يقول صاحب كتاب حضارة الإسلام في دار السلام :

(39) الدعوة إلى الإسلام ص 331.

(40) المصدر السابق ص 332.

« إنه لما توافرت الأموال في أيدي العباسين وأمن هارون الرشيد طرق القوافل والسفن ، حلت السلع من جميع أرجاء العالم إلى العراق . فحملت الآنية من الهند والخديد من خراسان ، والرصاص من كرمان ، والنسيج الملون من قشمير ، والعود والمسك والسروج من الصين ، والعطر وأنواع الطيب من اليمن » والسلاح والمصنوعات من فارس ، والخيزران والكافور والعود والقرنفل والتارجيل والثياب القطنية والفيلة من الهند والسندي ، والجلود والرقيق من بلاد الروم والفاكهه من بلاد الشام ، وجلود الثعالب من روسيا . ثم يتبع قوله :

وقد عني هارون الرشيد بتنظيم التجارة ، فعهد إلى المحاسب في مراقبة الأسواق والاشراف على الموازين والمكاييل ، ومراعاة أثمان الحاجيات منعاً للغش أو ابتزاز أموال الأهلين⁽⁴¹⁾ .

هذا من حيث الاستيراد أما المواد التي كانت تفيض عن حاجات العرب في العصر العباسي الأول فهي : الشعير والحنطة والأرز والفاكهه والسكر والزجاج والحرير ، والأقمشة الصوفية والكتانية والحريرية ، والزيت والعطور ، كما الورد وماء السوسن والزعفران وزيت البنفسج وغيرها⁽⁴²⁾ .

وصفة القول أن عناية الخلفاء العباسين بتسهيل سبل التجارة من إنشاء المنائر في الشגור « وبناء الأسطبل لحماية السواحل من غارات لصوص البحر ، وتيسير طرق التجارة البرية والبحرية ، ساعد على ترقية التجارة التي تقوم على تبادل المحاصيل » كما مهد السبيل أمام الكاشفين والرحالة .

أثر التجارة الإسلامية

كان لنشاط المسلمين في الحقل التجاري أثر ملموس فقد ابتكروا بعض النظم المالية والتجارية التي أخذتها عنهم الدول الأوروبية . فكانوا أول من عرف نظام الحالات المالية واستعمال الشيكات وال إيصالات ووثائق الشحن ، كما كانوا رواد العالم الحديث في إنشاء الامحادات التجارية وشركات الضمان التي كانت تتألف من عدد من الأفراد يساهمون جمعاً في رأس المال ، ثم يتضامنون على حد سواء في الربح والخسارة⁽⁴³⁾ .

وفي العصر العباسي ازدهرت التجارة ازدهاراً ملحوظاً « فأنشأ التجار نقابة مسؤولة عن مراقبة المعاملات التجارية ، ومنع التدليس ، وكان رئيسها ينتخب من بين الأعضاء الممتازين ويسمى « رئيس التجار » كما كان يسمى أعضاء النقابة « الأمانة »⁽⁴⁴⁾ .

ونضلاً عن ازدياد الثروة المالية والغنى المادي ، استفاد المسلمون استفادة كبرى في مجال الحياة الأخلاقية ، حيث اكتسبوا خبرة بشرّون الحياة ، ومعرفة بأخلاق الناس ، حتى

(41) راجع حضارة الإسلام في دار السلام لجميل نخلة مدور ص 116 . وما بعدها .

(42) مختصر تاريخ العرب لسيد أمير علي ص 266 .

(43) تاريخ الحضارة الإسلامية للدكتور أبو زيد شلبي ص 310 .

(44) المصدر نفسه ص 311 .

أصبحت التجارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري مظهراً من مظاهر تجديد الاسلام وحضارته ، ولها السيادة في البلاد ، وغدت سفن المسلمين ، وقوافلهم تجوب كل البحار ، واحتلت المكان الأول للتجارة العالمية⁽⁴⁵⁾ كما كان للعرب بعض الاختراعات التي ساعدت في سهولة المواصلات يقول السيد أمير علي : « اخترع العرب البوصلة البحرية التي ساعدتهم على القيام برحلات إلى جميع أنحاء العالم ، طلباً للعلم أو الاتجار » فأسسوا المستعمرات من شاطئ افريقيا حتى جزائر الأرخبيل الهندي ، وعلى سواحل الهند وجزيرة مالايا ، وتغلبوا في بلاد الصين ؛ وغدت البصرة ثغرًا تجاريًا هاماً تتجه مع الهند ، وكتاي ، واخترقت قوافلهم شمالي افريقيا ، وصحراءها عن طريق المغرب ، ونقلوا البضائع من ثغور البحر الأبيض المتوسط إلى إسبانيا ، وصقلية ، وإيطاليا ، وفرنسا ، ونشطة قوافل بغداد إلى أواسط آسيا ، وشمال الهند بحذاء الخليج الفارسي ، وامتدت تجاراتهم إلى بحر قزوين ، والبحر الأسود ، وتغلبوا في روسيا حتى وصلت النقود العباسية إلى شواطئ البلطيق وداخل السويد⁽⁴⁶⁾ .

(45) الحضارة الاسلامية لأدم متر ص 365 .

(46) المصدر نفسه والحضارة الاسلامية للدكتور أبو زيد شلبي 312 .

الفصل الثاني

الصناعة

العمل هو ميزان تقدم الجماعة والمهارة في إتقانه هي مقاييس حضارة الأمة ، والوفاء بالعمل هو المدف الذي يرجوه الاصلاح الاجتماعي . قال رسول الله ﷺ « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

والإنسان خليفة الله على الأرض وقد دعا عز وجل في آيات كثيرات إلى العمل قال تعالى يأمرنا بصورة مباشرة لعمل : « وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِيرِيَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ »⁽¹⁾ . فلا مناص لنا إلا العمل بضمير حي ، لأن الله يرايانا ويراقبنا وكذلك الرسول ﷺ والمؤمنون من عباد الله .

وأي عمل يطلب منا ؟ بلا ريب العمل الصالح فقد اقترب العمل الصالح بالإيمان بالله والذي يعيش في عمله ليس بمؤمن وليس من المسلمين . قال تعالى : « وَأَمَّا مَنْ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى »⁽²⁾ . وليس جزاء الأعمال الصالحة كلها بدرجة واحدة فالأجر على قدر اتقان العمل ، وفي هذا تشجيع بلا حدود للترقي في الأعمال الفنية وبلوغ القمة في الاتقان . قال عز وجل :

« وَإِنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَإِنْ سَعَيْهِ سُوفَ يُرَى ، ثُمَّ يَجِزِيهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلُ »⁽³⁾ . وأكد الله جل شأنه على حماية الدولة لحقوق العمال ثم إعطاء كل عامل على قدر ما يستحق من اتقان : « فَاسْتَجِابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ إِنِّي لَا أُضِيقُ عَمَلَ مَنْ كُنْتُمْ مِنْ ذَكْرٍ أَوْ اثْنَيْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ .. »⁽⁴⁾ .

وقال سبحانه : « وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مَا عَمِلُوا وَلِيُوْفِيهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ »⁽⁵⁾ . والعمل الصالح زينة الأرض يزيّنها ويجملها وهو أيضاً مقاييس لنا وامتحان لقدراتنا وإرادتنا

(1) التوبية الآية 105 .

(2) الكهف الآية 88

(3) النجم الآية 39-41 .

(4) آل عمران الآية 195 .

(5) الإحqaq الآية 19 .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنُبَلِّوْهُمْ أَهِمُّ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾^(١) وقد وضع شروط للعمل الصالح اختصرها سعيد حوى في كتابه (الاسلام) فقال :

- 1 - أن تتقنه ، وهذا على الصعيد العملي والفنى والاختصاص .
- 2 - لا تغش فيه ، لأنه يضر بالأفراد والمجتمع .
- 3 - انجازه في موعده لأن من علمات المنافق « إذا وعد أخلف » .
- 4 - وإذا كان تاجرًا لا يخدع ولا يكذب ولا يخلف كاذبًا . قال عليه الصلاة والسلام : (التاجر الأمين الصدوق مع النبین والصدیقین والشہداء) وقال ﷺ : (اليمین الفاجرة منفقة للسلعة محة للكسب) .
- 5 - أن يكون جائزًا في شرع الله غير محظوظ ولا مكره ، لذلك كان شرط العمل الفقه في العمل .
- 6 - إذا كان عاملاً للدولة أو أجيراً عامياً أو خاصاً فحق العمل عليه أن يكون : قوياً على العمل ، أميناً فيه حفيظاً لاجزائه ، عليماً بدقائقه وطرق تنفيذه نأخذ هذا من قوله تعالى :

﴿ إِنْ خَيْرَ مَنْ أَسْتَأْجِرَتِ الْقَوْيِ الْأَمِينُ ﴾^(٢) .

﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِظَ عَلِيمٌ ﴾^(٣) .

﴿ تَابِعِ يَرْوِيَ عَنْ أَبِي ذِرٍ الْغَفَارِيِّ :

قال أبو ذر : قلت يا رسول الله لا تستعملني ؟ فضرب بيده على منكبي ثم قال : يا أبا ذر : « إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيمة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدي الذي عليه فيها »^(٤) .

إن اليد التي تطيع الفكر إطاعة تامة تستطيع أن تبدع ، على الصعيد الفنى ، وتعطي الخير على الصعيد الاجتماعي ، والفكر الذي تلقح بأفكار الأمم الأخرى واستجتمع من المعرف الإنسانية مؤونة تكفيه ، يمكن بسهولة من الصعود على سلم الحضارة الإنسانية والتقدم العلمي الخير .

والعمل في الاسلام ليس مقصوراً على تنفيذ أحكام الشريعة ، بل إنه يشتمل على جميع العمل الدنيوي وجميع ضروب الصناعة . والعامل في الاسلام له أن يتمتع بزينة الحياة الدنيا ويوف أجره كاملاً غير منقوص قال عز وجل : ﴿ مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِيَّنَهَا نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَلُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَمْخُسُون ﴾^(٥) وميزان الاسلام دقيق وحساس جداً لا يضيع

(6) الكهف الآية 7.

(7) القصص الآية 26.

(8) يوسف الآية 55.

(9) الاسلام لسعيد حوا ص 308.

(10) هود الآية 15.

مثقال ذرة على المحسنين ولا يترك مثقال ذرة للمسين . قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يُرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يُرَهُ ﴾ (١١) .

ولقد برع المسلمون في جميع أنواع الصناعات الأولية التي احتاجوا إليها في حياتهم المنزلية ، كما برعوا أيضاً في الصناعة العسكرية لحاجتهم إليها في الحروب . وكذلك أحسنوا الاستفادة من ثرواتهم المعدنية والطبيعية المختلفة .

من هذه الصناعات : أ - البدوية والمنزلية

1 - الحرير : صناعة الحرير كانت منتشرة في بلاد الروم قبل دخولها إلى الشرق وديباج الروم مشهور بوجودته . يقول المسعودي : « منذ أن غزا سابور ملك فارس بلاد الجزيرة وغيرها من بلاد الروم ، ونقل من أهلها خلقاً كثيراً . أسكنهم مدنًا من فارس صار الديباج والخز يعمل بتستر » (١٢) .

وأكبر مصانع نسج الحرير كانت في إقليم خوزستان وطبرستان ، حيث نقل الساسانيون هذه الصناعة من بلاد الروم (١٣) .

2 - القطن : نقل القطن إلى العراق من شمال فارس وما بين النهرين ، وقد نشره أمراء المدانيين ، أما المراكز الكبرى لصناعة القطن فكانت تقع في شرق فارس في مرو ونيسابور (ويم) شرقي كرمان . وقد اشتهرت هذه المدينة الأخيرة بثبات القطن الفاخرة . وفي مرو كان يضع القطن الذي بلغ الغاية في اللين (١٤) ومع ليونته استعمله النبي لقلمه وسماه لباس القرود (١٥) .

ومن أخر ما كان يصنع في (بم) الطيالسة الفاخرة تحمل إلى أقطار الأرض وتباع بخراسان والعراق ومصر .

3 - الكتان : كانت صناعة الكتان نادرة لذلك كان يهدى إلى الملوك والأمراء . وقد اختصت به مصر » وبصورة خاصة الفيوم ومنها كان يصدر إلى البلاد الأخرى . وربما وصل إلى بلاد فارس حيث كانت « الأجسام المحنطة تلف دائمًا بنسيج من الكتان » (١٦) .

ومن أكبر المراكز لصناعة هذا النسيج النادر الفيوم وبحيرة تيس بنواحيها : وهي دمياط « وسط ، ودبوق التي كانت أكبر المدن لصناعة الكتان ، وإليها ينسب أجود أنواع الأقمشة وهو المسمى « بالدبقي » .

وفي مدينة تيس صنعت أجود الثياب الفاخرة سموها « البدنة » كانت تصنع لل الخليفة ولا

(١١) الزلزلة الآية 7.

(١٢) مروج الذهب ج 2 ص 185 .

(١٣) الحضارة الإسلامية لأدم متز ج 2 ص 352 .

(١٤) المصدر نفسه ص 351 والحضارة الإسلامية للدكتور أبو زيد شلبي ص 305 .

(١٥) ديوان النبي ط بيروت ص 17 .

(١٦) الحضارة الإسلامية للدكتور أبو زيد شلبي ص 306 .

يدخل فيها من الغزل - سدى ولحمة - غير أوقيتن ، والباقي من الذهب بصناعة محكمة لا تحتاج الى تفصيل ولا خياطة ، وقد بلغت قيمة الثوب ألف دينار⁽¹⁷⁾ .

4 - الصوف : من الصوف صنع المسلمين الفرش الصوفية التي تميزت بصفات خاصة عن البسط الفارسية والأرمنية والبخارية . ولكن البسط الأرمنية أخذت فيها بعد شهرة واسعة على ما عدتها من البسط . وقد وصف الوليد بن يزيد بأنه كان جالساً في بيت منجد بالأرمنيّ أرضه وحيطانه⁽¹⁸⁾ . وما يروي المسعودي : إن أم الهادي والرشيد السيدة خيزران ، كانت تجلس في دارها على بساط أرمانيّ وعندها أمهات أولاد الحلقاء وغيرهن من بنات هاشم على ثمارق أرمنية⁽¹⁹⁾ . وسبب جودة البسط الأرمنية يعود إلى جودة الصوف الأرماني وأفضلة الأحمر . يقول المسعودي : إن الصوف الأحمر يستعمل في حالات خاصة كالزينة والطرب وأوفات السرور ، وإن حس البصر مشاكل للون الحمرة ؛ إذ كان من شأنه أنه إذا أدركها انبسط نور البصر في إدراكها ، ولكنه إذا وقع على اللون الأسود اجتمع نوره ولم ينبسط في إدراكه انبساطه في إدراك الحمرة ، وذلك للنسبة الواقعة بين نور البصر وبين لون الحمرة⁽²⁰⁾ .

وقد عرف الصوف الأحمر في مصر في مدينة القاهرة وفي مدينة أسيوط بصعيد مصر .

صناعة المواد المعدنية

1 - الذهب والفضة : اشتهرت البلاد الإسلامية بالفضة والذهب على نحو جميل . فالجزء الشرقي كان يأني بالفضة والجزء الغربي يأتي بالذهب . أما معادن التبر فكانت تقع في الصحراء الحارة شرقى النيل في الصعيد بين أسوان وعبيداب⁽²¹⁾ .

وكانت أكبر مدينة لمنتجي الذهب « العلاقي » تقع على مسيرة خمسة عشر مرحلة من أسوان ، أما الطريقة المallowة في البحث عن الذهب في مصر وفي جميع بلاد الشرق الأدنى ، كانوا يعلمون ، عند تحولاتهم في الليالي ، على الموضع التي كانوا يرون فيها شيئاً مضيئاً بالرماد أو الطباشير ، فإذا أصبعوا حملوا أكمام الرمل المعلمة ، ومضوا بها إلى آبار هناك ، فغسلوها بالماء ، واستخرجوا التبر⁽²²⁾ .

أما الفضة فكان في شرقى الدولة الإسلامية ، في بلاد هند كوش . يقول ياقوت أن في مدينة بنجهير من تلك البلاد جبلًا من الفضة ، والسوق والجبل كالغربال من كثرة الحفر . فهناك عروق يتبعونها حتى يصلوا إلى الجوهر⁽²³⁾ .

(17) المصدر السابق .

(18) الأعاني ج 5 ص 173 .

(19) مروج الذهب للمسعودي ج 6 ص 234 .

(20) المصدر نفسه ج 2 ص 102 .

(21) راجع الحضارة الإسلامية لأدم متر ج 2 ص 314 . والتبر بالكسر الذهب والفضة قبل أن يصاعا .. القاموس .

(22) تاريخ الحضارة الإسلامية للدكتور أبو زيد شلبي ص 304 .

(23) الحضارة الإسلامية لأدم متر ج 2 ص 316 .

وكانوا يتبعون الحفر في الأنفاق ما حبّيت السرج وانقدت المصايب « فإذا صاروا في الحفر إلى موضع لا يحيي السراج فيه وقفوا ولم يتقدوا ، ومن تقدم منهم مات في أسرع وقت(24) .

2 - الحديد : من أشهر مواطن الحديد أفريقية فهي الموطن الأول له ، يؤخذ منها إلى بلاد الهند ، فتصنع منه أغلى آلات الحديد(25) . كما عرف أيضاً في كرمان وفارس وكابل وصقلية . وفارس كانت أكبر إقليم لاستخراجه وصناعته . كما يروى أنه في عام 355 هـ استهدى القرامطة في هجر (بجزيرة العرب) من سيف الدولة الحمداني حديداً ، فأمر بقلع أبواب الرقة ، وكانت من حديد ، وسد مكانتها ، وأخذ حديداً بديار مصر ، حتى أخذ سنجات الباعة والبقالين » ثم حمل هذا الحديد في الفرات إلى هيـت ، ومن هيـت إلى القرامطة في البرية(26) .

3 - النحاس : كان معدنه في أصفهان وبخارى ، ونحاس بخارى كان يستعمل في طلاء أعلى المآثر : يقول متز في تاريخ الحضارة : إن النحاس الأصفر عليه للسلطان خراج قدره عشرة آلاف درهم سنوياً(27) .

صناعات الآلات الخشبية

بلاد الإسلام غنية جداً بالأختشاب الكثيرة ، فصنعوا منها الآلات المتنوعة . وفي خراسان كان خشب العرعر وهو من أجود أنواع الأختشاب استعمله أغنياء المسلمين في بناء بيوتهم في صدر الإسلام . وفي الهند عرف خشب الساج الهندي استعملوا منه معظم أدوات البيوت للملوك والأمراء . وخشب الخنجر ، وهو خشب أبيض مائل إلى الحمرة تصنع منه أثاث المنازل . وقد اشتهرت به مدينة ■ قم ■ في إيران ، (تقع بين أصفهان وسادة) من صناعاتها الخشبية الكراسي الجيدة تصادرها إلى جميع الأنهاء(28) .

وفي العهد الفاطمي برعت مصر بالحفر على الخشب ، وما زالت مصر حتى الآن الأولى في هذا الفن ، فصنعوا المنابر والأضرحة الخشبية ، نقشت عليها رسوم الطيور والحيوانات . كما اشتهرت مصر أيضاً بالمنسوجات المزخرفة التي تكثر فيها الرسوم النباتية(29) .

صناعة الورق

أحدثت هذه الصناعة انقلاباً عظيماً في القرنين الثالث والرابع الهجري . وأول من أشار بصنع الورق الفضل بن يحيى حينما طلب بحر التأليف والتدوين ، وكثير ترسيل السلطان ،

(24) المصدر السابق وسبب الموت كما هو معروف علمياً أن كمية الأوكسجين تخفّ كثيراً .

(25) المصدر نفسه ص 318 والمنطقة التي عرف فيها تسمى الان « بندوف » فيها أغنى مناجم الحديد في العالم كما أصنحت عن ذلك الصحف حينما وقع الاشتباك بين المغرب والجزائر .

(26) المصدر نفسه ص 318 .

(27) الحضارة الإسلامية لأدم متز ج 2 ص 317 .

(28) تاريخ الحضارة الإسلامية للدكتور أبو زيد شلبي ص 309 .

(29) المدخل في تاريخ الحضارة العربية لمعرف ناجي ص 75 .

وصكوكه » وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت⁽³⁰⁾ . والكافر هو أفضل أنواع الورق نقلت صناعته عن الصين ، وقد طور به المسلمون حتى أحدثوا تغييراً هاماً في تاريخ العالم ، فنقوه وحذفوا منه كل ما يشوبه من ورق التوب . وفي القرن الرابع انتشرت صناعته في دمشق وطرايلس وطبرية . ولكن سمرقند بقيت المركز الرئيسي للصناعة الورقية . وأهل الشام بصورة خاصة اشتغلوا بصناعة الورق ، وكانوا ماهرين في فن التجلييد ، ولا سيما تجلييد المصاحف بأنفس أنواع الحرير كالديباج الجميل الناعم⁽³¹⁾ .

صناعة العطور

ظهرت صناعة العطور في العراق وفارس ومن أقاليم فارس المشهورة بهذه الصناعة « سابور ». استخرج الزيوت العطرة من عديد الورود والزهور المعروفة عندهم كالترجس والبنفسج والسوسن والزنبق والنارنج وغيرها .

كذلك اشتهرت مدينة « جور » في جنوب فارس بالصناعة العطرية ولكن الزهور في محيطها غير تلك التي ذكرناها في سابور منها: الزعفران والورد - الذي كان ينقل ماوه من جور إلى سائر البلدان - والطلع والقيسوم . أكثر هذه العطور كانت تحمل إلى مصر والأندلس واليمن والهند والصين وإلى بلاد الغرب .

وفي الكوفة استحدث أهلها دهان الخيري وعطر البنفسج فاقت بها سابور⁽³²⁾ .

صناعة الأدوية والآلات الطبية

برع المسلمين العرب في هذا المجال في صناعة الأدوية فهم أول من أوجدوا الترشيح والتقطير والتحوييل والتبيخ والتذويب والتبلور .

وقد اهتموا بهذا العلم اهتماماً بالغاً فالمأمون أخضع الصيادلة لاجراء امتحان فمن نجح سمح له بممارسة المهنة ، كما هو الحال عندنا اليوم في الدخول إلى نقابة الأطباء . وخالد بن يزيد الأول أول من أدخل علم الكيمياء ، بعد أن استعار لذلك العلماء من مدرسة الاسكندرية . وقد نجح بعضهم نجاحاً عظيماً ، منهم من اكتشف الاكسير الأعلى لعادة الشباب وإطالة العمر » وهو الاكسير المسمى حجر الفلاسفة⁽³³⁾ .

أما فيما يعود إلى الآلات الجراحية فقد اخترع العرب المسلمين 280 آلة جراحية استخدمها الأطباء في المستشفيات . نذكر أهمها على سبيل المثال:

المشرط : لشق الورم . والمخرط : لقطع اللحم الزائد في الأنف . واللكبس : للكبس اللسان عندما يراد رؤية اللوزتين وأورام الحلق . والمحك : لحك الأجياف . والمسعط :

(30) راجع المقدمة لابن خلدون .

(31) تاريخ الحضارة الإسلامية للدكتور أبو زيد شلبي ص 307 .

(32) راجع تاريخ الحضارة الإسلامية للدكتور أبو زيد شلبي ص 307 . والحضارة الإسلامية لأدم متز ج 2 ص .

(33) المدخل في تاريخ الحضارة العربية لناجي معروف ص 156 .

لتقطير الأدeman في الأنف . والموضع : لقطع أي حم زائد بوجه عام . والصنارة لجذب الجنين عندما تدعو الحاجة أثناء التوليد⁽³⁴⁾ .

ومن آلات الـطب إلى الـ الحرب . وليس غريباً أن يعني المسلمين في صدر الإسلام بالأسلحة والآلات العسكرية ، لأن حروـهم مع المشركـين متـوالـية فـلا بد لهم من الحذر والـخيـطة والـدـفاع عن النفس .

صناعة الآلات الحربية

قيل : من أراد السـلم فـليـستـعدـ للـحـربـ . وـقـالـ تـعـالـيـ فـيـ كـتـابـهـ العـزـيزـ : ﴿وَأَعْدُوا لـهـمـ مـاـ اـسـتـطـعـتـمـ مـنـ قـوـةـ وـمـنـ رـبـاطـ الـخـيلـ تـرـهـبـوـنـ بـهـ عـدـوـ اللـهـ وـعـدـوـكـمـ وـأـخـرـيـنـ مـنـ دـونـهـمـ لـمـ تـعـلـمـوـنـهـمـ اللـهـ يـعـلـمـهـمـ وـمـاـ تـنـفـقـوـنـ مـنـ شـيـءـ فـيـ سـبـيلـ اللـهـ يـوـفـ الـيـكـمـ وـأـتـيـمـ لـأـتـلـمـلـمـوـنـ﴾⁽³⁵⁾ .

فالـسـلاحـ فيـ يـدـ الـسـلـمـ لـيـسـ لـلـتـعـديـ أـبـداـ ، إـنـاـ هـوـ وـقـاـيـةـ مـنـ الـعـدـوـ . وـعـبـارـةـ تـرـهـبـوـنـ بـهـ عـدـوـ اللـهـ » حـتـىـ لـاـ يـقـعـ الـحـربـ فـالـعـدـوـ عـنـدـمـاـ يـعـلـمـ بـقـوـةـ جـيـشـ الـمـسـلـمـيـنـ وـعـدـتـهـ وـاسـتـعـدـادـهـ تـقـعـ الرـهـبةـ فـيـ قـلـبـهـ ، فـيـخـافـ وـيـخـشـيـ خـوـضـ غـمـارـ الـحـربـ ، وـبـذـلـكـ يـصـبـحـ السـلاحـ لـرـهـبةـ الـعـدـوـ أـوـلـاـ وـلـيـسـ لـقـتـالـهـ .

وـمـاـ يـوـضـعـ لـنـاـ اـنـتـشـارـ هـذـهـ الصـنـاعـةـ الـحـرـبـيـةـ فـيـ الـإـسـلـامـ أـنـ اللـهـ وـصـفـ لـلـمـسـلـمـيـنـ خـبـرـةـ دـاـوـدـ بـصـنـاعـةـ الدـرـوـعـ السـابـعـاتـ الـتـيـ قـدـرـ سـرـدـهـاـ تـقـدـيرـاـ . قـالـ تـعـالـيـ : ﴿وَلـقـدـ آـتـيـاـ دـاـوـدـ مـنـاـ فـضـلـاـ : يـاـ جـبـالـ أـوـبـيـ مـعـهـ وـالـطـيـرـ وـأـلـنـاـ لـهـ الـحـدـيدـ ، اـنـ اـعـمـلـ سـابـعـاتـ وـقـدـرـ فـيـ السـرـدـ وـاعـمـلـوـاـ صـالـحـاـ إـنـيـ بـمـاـ تـعـمـلـوـنـ بـصـبـرـ﴾⁽³⁶⁾ .

فـالـلـهـ جـلـ شـانـهـ يـرـيدـ مـنـ إـشـادـتـهـ بـالـسـلاحـ وـتـهـلـهـ فـيـ عـرـضـهـاـ أـنـ يـشـيرـ الـمـسـلـمـيـنـ إـلـىـ إـبـدـاعـ وـابـتـكـارـ نـظـائـرـهـاـ . وـلـقـدـ أـقـىـ دـاـوـدـ بـيـتـهـ النـبـوـةـ وـالـكـتـابـ وـطـلـبـ إـلـىـ الـجـبـالـ وـالـطـيـرـ أـنـ تـرـجـعـ مـعـهـ بـالـتـسـبـيـحـ وـجـعـلـ الـحـدـيدـ بـيـدـهـ كـالـعـجـيـنـ لـيـصـنـعـ مـنـهـ الدـرـوـعـ الـمـتـنـاسـبـةـ الـحـلـقـاتـ الـمـتـقـنةـ الـصـنـعـ . كـمـ طـلـبـ عـزـ وـجـلـ إـلـىـ أـهـلـ النـبـيـ أـنـ يـسـاعـدـهـ بـصـبـرـ ، وـالـلـهـ يـجـازـهـمـ بـعـلـمـهـ .

مـنـ الـآـلـاتـ الـحـرـبـيـةـ الـتـيـ اـسـتـعـمـلـهـاـ الـمـسـلـمـوـنـ فـيـ عـصـرـ النـبـوـةـ ، صـنـاعـةـ الـمـتـجـنـيقـ وـهـيـ آـلـةـ تـرـمـيـ بـهـ الـحـجـارـةـ عـلـىـ الـأـعـدـاءـ مـنـ بـعـيدـ . وـابـنـ هـشـامـ يـخـبـرـنـاـ فـيـ السـيـرـةـ فـيـقـولـ : «ـ اـنـ النـبـيـ بـيـتـهـ كـانـ أـوـلـ مـنـ رـمـيـ فـيـ الـإـسـلـامـ بـالـمـتـجـنـيقـ»⁽³⁷⁾ .

وـكـانـ ذـلـكـ حـيـنـ سـارـ بـيـتـهـ إـلـىـ الطـائـفـ لـيـطـارـدـ فـلـولـ ثـقـيفـ الـذـيـنـ اـعـتـصـمـوـ بـحـصـونـهـ وـرـمـواـ الـمـسـلـمـيـنـ مـنـ فـوـقـهـاـ بـنـاـلـهـ ، مـاـ اـضـطـرـهـ لـنـصبـ الـمـتـجـنـيقـ لـيـرـمـيـهـ بـهـ .

وـمـاـ اـسـتـحـدـتـ الـمـسـلـمـوـنـ فـيـ حـرـوـبـهـمـ ضـدـ الـمـشـرـكـيـنـ صـنـاعـةـ «ـ الـضـبـبـورـ»ـ مـفـرـدـهـاـ إـلــهـ . وـهـيـ دـبـابـةـ مـنـ الـخـشـبـ الـمـفـطـىـ بـالـجـلـدـ ، يـكـمـنـ الـجـنـوـدـ فـيـ دـاـخـلـهـاـ لـيـتـقـوـ الـبـالـ الـمـوـجـهــهـ .

(34) المصـدرـ السـابـقـ صـ80ـ .

(35) الـأـنـفـالـ الـأـيـةـ 60ـ .

(36) سـيـاـ الـأـيـةـ 10ـ وـ11ـ .

(37) السـيـرـةـ الـنـبـوـةـ لـابـنـ هـشـامـ جـ4ـ صـ126ـ . وـالـنـظـمـ الـإـسـلـامـيـةـ لـحـسـنـ اـبـرـاهـيمـ حـسـ صـ166ـ .

من الحصون ، ثم يدفعونها الى جدر الحصون محاولين نقها وتهديها⁽³⁸⁾ وقد فصلنا عنها في باب النظام العسكري .

صناعة الطواحين المائية والهوائية

استفاد المسلمون من المياه التي تسقي أراضيهم إفاده ثانية عرفوها في عصرهم وهي إدارة الطواحين عبأه الأنهر . ففي البصرة كان موقعها على النهر فائدة كبيرة ؟ حيث كان عندهم المد والجزر كل يوم وليلة مرتين . ففي أثناء المد يدخل الماء الأنهر ، وفي أثناء الجزر ينحسر راجعاً . فأقاموا الرحب على أنفوا الأنهر ليديرها الماء أثناء حركته عند الخروج والدخول أما المناطق الريفية البعيدة عن الأنهر كان أهلها يستعملون الدواب والبنغال في إدارة الطواحين .

وما يبدو أن نهر دجلة أنساب من نهر الفرات لاقامة الطواحين ، بالنسبة للعراق ، ففي تكريت والخديشة وبغداد كانت تقوم طواحين الماء . أما في الموصل ففيها طواحين ماء مشهورة . وطواحين معروفة أيضاً في « بلد » « تقع فوق الموصل على نهر دجلة » لها فصل تدور فيه ، وهو المدة التي تحمل فيها الحنطة في السفن الى العراق⁽³⁹⁾ .

وكان أكبر رحب بيغداد رحب يقال لها رحب الطريق ، فقد كان فيه مائة حجر تغل في كل سنة مائة ألف ألف درهم⁽⁴⁰⁾ .

والى جانب الطواحين المائية كانت الطواحين الهوائية في إقليم سجستان وكرمان يدوم هبوبيها ما يقارب المائة يوم . « فكان أهل هذه البلاد ينتفعون بهذه الرياح ، فنصبوا عليها أرجاء يسرونها بها »⁽⁴¹⁾ .

وقد وصفها بعض الرحالة فقال : « وللرحب ثمانية أجنحة ، تكون وراء عمودين ينفذ بينها الماء كالسهم ؛ والأجنحة تقوم عمودية على قائم عمودي أيضاً ، طرفه الأسفل يحرك حجراً ، فيدور هذا الحجر على حجر آخر فهذه الرحب طاحونة هوائية⁽⁴²⁾ .

الاسطرلاب وعلم الفلك

صادف علم الفلك هوى في نفوس المسلمين حتى أن بعض الخلفاء كانوا يشجعون طلاب العلم على التعلم في هذا المجال . ومن الخلفاء والعباسيين ، أبو جعفر المنصور في عهده كان الفلكي المعروف ابراهيم الفزاري ، من حاشيته . يروى عنه أنه أول من عمل الاسطرلاب في الاسلام .

وفي عهد المأمون لاقى علم الفلك عنابة خاصة ، فأنشأ مرصدأً للكواكب في بغداد

(38) النظم الاسلامية لحسن ابراهيم حسن ص 166 . وما بعدها .

(39) الحضارة الاسلامية لأدم متز ج 2 ص 357 .

(40) المصدر نفسه ص 358 .

(41) المصدر نفسه .

(42) المصدر نفسه .

وآخر في تدمر . واهتمام المسلمين برصد الكواكب يعود حاجتهم الماسة إليه في كثير من عبادتهم : كرؤيه هلال رمضان ومواقع الصلاة وموسم الحج . « ومن أطرف ما يستنتج من رقي الصناعة في بلاد العرب أن معظمهم عرف الأصناف والنقابات ولا سيما في العصر العباسي . فكان لكل حرفة شعارها ومراسيمها ، وكان لكل صناعة نقيبها وممثلها ، ولا يستغرب هذا إذا قسناه بما ذكروه عن النقاب في عصر النبي ﷺ إذ كان كل منهم مثلاً لناحية برع فيها في ذلك العصر النبوى الكريم »⁽⁴³⁾ .

ثم يسرد معروف ناجي مؤلف كتاب المدخل في تاريخ الحضارة العربية أسماء وأصناف نقابتهم في زمن النبي عليه السلام : كسلمان الفارسي نقيب الملائين وذى النون المصري نقيب الأطباء والجراحين ، وسعيد بن أبي وقاص نقيب الشابين الخ

يظهر لنا من هذا الاستعراض السريع براعة المسلمين في جميع أنواع الصناعات المعدنية واليدوية والخشبية والعسكرية . . . فقد عرّفوا جميع الصناعات التي احتاجوا إليها في حياتهم الفردية والجماعية ، فاتقنوها اتقاناً رائعاً سدوا بها حاجاتهم وصدروا منها إلى البلدان الأخرى .

. 43) النظم الاسلامية للدكتور صبحي الصالح ص 408 . عن كتاب المدخل في تاريخ الحضارة العربية ص 81 .

**الباب السابع
النظام الاجتماعي**

الفصل الأول

التنظيم الاجتماعي في الإسلام

منذ تكونت الحكومة الإسلامية في المدينة المنورة ويزغ نور الإسلام الساطع ، بُرِزَ إلى الوجود مجتمع أصيل لم تعرفه البشرية سابقاً ، أنطوت تعاليمه على مبادئ أساسية وقواعد إنسانية في التنظيم الاجتماعي بمعنىه الدقيق والعميق .

التنظيم الاجتماعي في الإسلام تسيّق عادل بين قوى الحياة والأحياء ، بين الجسد (حاجاته والروح ومطالبه) ، فقد طلب الله جل جلاله في القرآن الكريم من المسلم أن لا يحرم نفسه من متعة مادية ولا ملذة جسدية ما دام يتناولها من طريقها المشروع ، وفي حدودها المعتدلة ، كما عليه أن يتبع فيها آناء الله الدار الآخرة . قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَايْنَ فِي اَنْتُكَ اَنَّهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ وَلَا تَنْسِيْكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾⁽¹⁾ .

أباح الإسلام لتبنيه التجميل بألوان الزينة والتتمتع بالمشتهيات المشروعة في حدود الاعتدال ، فلا إفراط ولا تفريط . جاء في القرآن الكريم : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مسجدٍ وَكُلُّوا وَاشْرِبُوا وَلَا تَسْرُفُوا إِنَّمَا يُحِبُّ الظَّرِيفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ الْأَطْيَابَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كُلُّ ذَلِكَ نَفْصُلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾⁽²⁾ .

ويقول سبحانه للمؤمنين ليعرفوا حدودهم في الحلال والحرام ، ويأكلوا مما رزقهم الله حلالاً طيباً . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحْرِمُوا طَيَّبَاتِ مَا أَحْلَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِلِينَ . وَكُلُّا مَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حلالاً طيباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾⁽³⁾ .

فقد سمي الله حرمان النفس اعتداء ، أي خروجاً عن طريق العدل بين الروحانية المتطرفة والمادية المغالبة .

جاء في روح الدين الإسلامي :

« فالحالة الوسطى بين الروحانية المتطرفة والمادية المغالبة أمر تستدعيه حياة المجتمع ، ولا

(1) القصص الآية 77.

(2) الأعراف الآية 31-32.

(3) المائدة الآية 87-88.

يوجد فيها بين أيدينا من التعاليم ما هو حاصل على هذه الميزة غير الإسلام «(٤)».

وقد حدد الله عز وجل للإنسان حدود الحلال والحرام في كل شيء ، وحدود المداية والضلال في كل شيء ، وعلى قدر وقوف الإنسان عند هذه الحدود ، يكون كما له وتكون مكانته في المجتمع ، جاء في القرآن الكريم :

﴿ تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾(٥) .

إن كل حد حله الله للإنسان هو لصالح الإنسان ، وكلما عرف الفرد حدود الله وتورع عن تجاوزها كان أعلم وأجمل وأفضل . ومعرفة الحدود تستلزم كثيراً من الثقافة الدينية والعلوم الإنسانية والمعارف الحضارية حتى لا نقع في الحرام فنكون من الضالين الجاهلين ، ولا نتجاوز الحدود فنكون من الطامعين الآثانيين . قال النبي عليه الصلاة والسلام :

« إن الحلال بِيْنَ وَإِنَّ الْحَرَامَ بِيْنَ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَهَىٰ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ أَنْقَى الشَّهَابَاتِ اسْتَبَرَأَ لِدِينِهِ وَعَرَضَهُ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشَّهَابَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعِي حَوْلَ الْخَمْرِ يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلْكٍ حَمِّى أَلَا وَإِنَّ حَمِّىَ اللَّهُ مُحَارِمَهُ أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مَضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقُلُوبُ »(٦) .

والتنظيم الاجتماعي المعتمد الذي وضعه الإسلام يورث الشعور عند الفرد بالطمأنينة والراحة والسلام ، فقد حدد بوضوح علاقة الفرد مع نفسه ، وعلاقة الفرد مع غيره من أبناء مجتمعه ، وعلاقته مع خليته التي أسهم في بنائها ، وأخيراً علاقته مع دولته بما يضمن المعيشة الضرورية ، ويケفل العدالة الاجتماعية . لأن المجتمع المتوازن إنما يتكون من الأفراد المتوازيين ، بعيداً عن القلق النفسي والاضطراب الروحي .

لقد آثر الإسلام التكافل الوثيق بين الفرد والجماعة ، فلا يعيش فيه الفرد على حساب الجماعة ولا الجماعة على حساب الفرد . كل ذلك لا يجاد مجتمع متوازن ، توزع فيه التبعيات على الجميع بالعدل والقسطان . هذا المجتمع الذي يحرص على إطلاق جميع الطاقات الفردية والعامة دعاه القرآن الكريم أمة وسطاً ، فلا إفراط ولا تفريط . قال تعالى سبحانه : ﴿ وَكُلُّكُمْ جَعْلْنَاكُمْ أَمَةً وَسَطًا لَّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . . . ﴾(٧) .

هذا التوسط بين مطالب الروح والجسد ميزة امتاز بها الإسلام دون غيره من سائر الأديان . لقد خلق الله للإنسان كل ما يحتاج إليه في هذه الحياة الدنيا وأعطاه عقلاً يتدبّر به شؤونه ، ويسخر كل ما في الكون لصالحه وتلبية حاجاته . قال سبحانه : ﴿ وَسَخَرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جِيَّعاً مِّنْهُ أَنْ فِي ذَلِكَ لِآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٨) .

(٤) روح الدين الإسلامي ص 136.

(٥) الطلاق الآية ١.

(٦) حديث متفق عليه (راجع المجازات النبوية للشريف الرضي) .

(٧) البقرة الآية ١٤٣.

(٨) الحجائية الآية ١٣.

يرشح من هذه الآية مدى سلطان الانسان على العالم المادي ، الذي كشفه الاسلام قبل أن تظهر بواشره في عصر الكهرباء والاتصالات .

وقد تتغلب على الانسان التزعة الاجتماعية فيضحي بنفسه من أجل الآخرين ويدبّر كيانه في سبيل المصلحة العامة ، مستعيناً بحقه في التسامي الروحي . إن الاسلام شجع على القيام بمثل هذه الأعمال الخيرة ، ولكنه أنكر علينا المبالغة فيها ، فلا رهبانية في الاسلام . جاء في القرآن الكريم مخاطباً النصارى الرهبان « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، فيما رأوه حق رعايتها »⁽⁹⁾ ، لأن الرهبانية تجعل الصالحين من عباد الله لا يهتمون إلا بمناجاتهم فيزيرون الى الصومام يتبعدون ، ويتنقل زمام أمر العالم إلى المفسدين في الأرض . وهذا ما حذر منه الاسلام . قال الرسول الكريم : « كلكم وكل راعٍ مسؤول عن رعيته » .

وعالج الاسلام تنظيم النسل في المجتمع فوجده توجيهها صالحاً وأصلاحه بما يعود على الانسان بالخير والراحة .

و عمل على نشر العدالة الاجتماعية بين جميع الأفراد على حد سواء ، جاعلاً الميزان الصحيح تقوى الله . كما أعطى للفرد الحق الكامل في ممارسة حريته ضمن الحدود التي أقرتها الشريعة الاسلامية العادلة . وشجع على توثيق المحبة بين المؤمنين بشريعته وعقيدته . حتى فرض على المسلم أن يحب أخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لها . ونادي بالأخوة الصادقة المبنية على الإيمان بالله . « إما المؤمنون أخوة » و« المؤمن من مرآة أخيه » وقد طبقها الرسول الاعظم عملياً بين المسلمين المؤمنين .

ونظم الاسلام الاقتصاد ففرض الزكاة ، وخفف من طغيان رأس المال ، وفرض قانون التوريث ، وحرم كنز الأموال والربا وفرض كتابة العقود المالية والرهن ، وأمر الإنفاق على ذوي الحاجة من الطبيات ، لأن المال هو ملك الله والانسان ناقل لهذا المال فعليه أن يجيئه بالطرق الحلال ، وينفقه أيضاً في السبيل المشروعة . والمال بنظر المسلمين وسيلة لحفظ الكرامة عن الابتذال وليس غاية .

والقاعدة العظمى التي علمها الرسول للمؤمنين لتعيينهم أفراداً وجماعات على التكافل التام والضمان الاجتماعي الكامل في تحمل التبعات وضمان الحقوق هي : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فهي التي تضمن استمرار التوازن الاجتماعي ، من خلال مدى المسؤولية الاجتماعية حيث يتحمل الفرد أعباءها في دوره الاجتماعي المتبع .

لقد جعل الاسلام بر رسالة شاملة هادبة ، هدفه منها تحرير الفرد وتكريمه ، وترفيعه المجتمع واسعاده . وتوجيه الشعوب والحكومات الى الحق والخير والصلاح ، ودعوة البشرية كلها إلى عبادة الله ، الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد ..

. 27 (9) الحديث الآية

النظام الاجتماعي

الأسرة :

لقد وضع الاسلام المرأة أمام مسؤلياته الاجتماعية في الحياة فأرشده إلى أفضل أسلوب لبناء خلية اجتماعية صالحة متوازنة ، وهي أسرة البيت ، حافظاً لكل فرد من أفرادها حقوقه المادية والأدبية بالعدل والمساواة ..

ولا يخفى أن: الأسرة الن الصالحة هي اللبنة الأولى في بناء الوطن الصالح ، وأول عناصر الأسرة المعهود عليه في بناء الأسرة هو المرأة .

كانت الأسرة قبل الاسلام تعيش في عالم مظلم لا يعرف حلوه ولا يفهم حقوقه ، ليس في جزيرة العرب وحدها وإنما في جميع دول الحضارة آنذاك كاليونان والرومان والفرس وغيرهم .

ولما جاء الاسلام كرم المرأة تكريماً لأنثاً لم يبلغه أي تشريع اجتماعي سابق ولاحق ، فلم يفرق بينها وبين الرجل في المجال الاجتماعي والأنساني ، معترفاً لها بأهليتها في الحقوق المدنية والمالية والاجتماعية والترمومية .

وأول ما فعله الاسلام في صيانة الأنثى أن سواها بالرجل » وكيف لا تساويه ما دامت نشأتها واحدة . قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء ... ﴾⁽¹⁾.

وحرم الاسلام جريمة الْوَأْدِ المذكورة التي كانت سائدة عند العرب في الجاهلية وفي عامة القبائل » يستعمله واحد ويتركه عشرة »⁽²⁾ وقرع الوائدين تقرعاً شديداً : « وإذا المؤودة سئلت : بأي ذنب قتلت ؟ (التكوير 8-9) وقد طمأنهم الله - خشية الفقر - على أرزاقهم فخاطبهم : « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق ، نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خططاً كبيراً »⁽³⁾ .

(1) سورة النساء الآية 1.

(2) بلوغ الارب ح 3 ص 43 ، أسد الغابة ح 4 ص 220 يروى أن قيس بن عاصم قال للرسول ﷺ « اني وأدت اثنتي عشرة بنتاً أو ثلاثة عشر بنتاً » فأشار عليه الرسول باعتناق نسمة عن كل واحدة !

(3) الاسراء الآية 31.

أسباب الوأد عند العرب في الجاهلية

اختلت مذاهب العرب في مسألة وأد البنات ، فمنهم من كان يئد :

إن غيرة على العرض ، ومخافة من لحوق العار . لأن العرب في ذلك الوقت أهل سطو وغزو ، فكانت تساق الذراري مع جملة الغنائم ، وبالطبع البات تساق مع الغنائم إلى الأعداء . وهذا عندهم متى العار والذل . وكانت قبيلة تميم وكثينة من أشهر القبائل التي تند بساحتها خوفاً لمزيد الغيرة والسبب في وأد بنى تميم ، كما يرويها التاريخ هو أنهم منعوا الملك النعمان ضريبة الاتواة التي كانت عليهم ، فجرد النعمان إحدى كتائبه بقيادة أخيه الريان ، وكان أكثر رجال هذه الكتيبة من بنى بكر بن وائل ، فاستأق النعمان سبي ذراريهم . فوفدت وفود بنى تميم على النعمان بن المنذر ، وكلموه في الذراري ، فحكم النعمان بأن يجعل الخيار في ذلك إلى النساء ، فأيّة امرأة اختارت زوجها ردت إليه ، فشكروا له هذا الصنيع . ومن بين النساء المسبيات كانت بنت قيس بن عاصم ، التي ورد ذكرها قبل قليل ، فاختارت سابتها على زوجها ، فغضب قيس ، ونذر أن يدس كل بنت تولد في التراب ورواية أخرى تقول :

إن قوماً من الأعراب أغروا على قبيلة ربعة وسبوا بنتاً لأمير لهم فاستردها بعد الصلح وبعد أن خبروها بين أن ترجع إلى أبيها ، أو تبقى عند من هي عنده من الأعداء ، اختارت سابتها وأثرته على أبيها . عندها غضب الأمير وسن لقومه قانون الوأد ، ففعلوا غيرة منهم ، وخوفاً من تكرار هذه الحادثة⁽⁴⁾ ومن القبائل من كانت تند البنات لا لغيرة أو خوف من العار ، بل إذا كانت مشوهة أو بها عاهة مثلاً : إذا كانت زرقاء أو براشاء أو كشحاء ، ويمسكون من البنات من كانت على غير تلك الصفات لكن على كره منهم .

أما عن طريقة الوأد ، فيروي أهل السير أنهم كانوا يخرون حفرة ، فإذا ولدت الحامل بتاً ولم يشاً أهلها الاحتفاظ بها رموها في تلك الحفرة . أو أنهم كانوا يقولون للأم بأن تميّء ابتها للوأد ، وذلك بتقطيبها وتزيينها فإذا زيت وطيطت أخذتها أبوها إلى حفرة يكون قد احتفراها من قبل . فيدفعها فيها ويهيل عليها التراب حتى تستوي الحفرة في الأرض⁽⁵⁾ .

ومهما كانت طريقة الوأد واختلفت المسبيات ، فقد حاربه الإسلام ، وعاقب عليه وجعله من الكبائر ، حتى محى أثره ، وأصبح قصة يرويها الرواة من أخبار الماضي . وفي القرآن الكريم آية واحدة تناولت أمر الوأد لا غير⁽⁶⁾ وقد وصف لنا الشعراء حالمهم وحال المرأة في ذلك العهد وعجزها عن العمل والمقاومة ، في حين أنهم يفضلون النبي لأئمهم أقوى منهن « وأفضل في الحرب وميدان العمل . قال بعض الشعراء :

وزادني رغبة في العيش معرفتي
ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أخشى فضاضة عم أو جفاء أخ
تهوى حيافي وأهوى موتها شفقا

(4) راجع المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ج 5 ص 87.

(5) المرجع نفسه ج 4 ص 188 .

(6) وهذا دليل واضح أن وأد البنات لم يكن منتشرًا في جميع أنحاء الجزيرة العربية وعند أغلب القبائل المعروفة .

ثم وصف سروره بعد أن تخلص منها فقال :
فالآن تمت فلا همْ يؤرقني بعد الهدوء بلا وجد ولا حلم⁽⁷⁾

تكريم الاسلام للأم :

أوحي الاسلام بتكريم المرأة أما وأكد على ذلك حتى قرن الاحسان اليها بعبادة الله : جاء في القرآن الكريم : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين احسانا : أما يبلغن عندهك الكبر أحدهما أو كلامها فلا تقل لها أنت ولا تنهرها وقل لها قولأً كريما ، وانخفض لها جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحهما كما رباني صغيرا ﴾ الإسراء الآية (23-24) .

وذكر القرآن الكريم الانسان والمراحل العسيرة التي لاقتها امه في تربيته منذ حمله حتى الرضاعة ثم الفصال ثم التربية الجسدية والروحية فقال سبحانه ﴿ ووصينا الانسان بوالديه : حملته امه وَهُنَّ عَلَى وَهْنٍ ، وفصاله في عامين : ان اشكر لي ولوالديك ، إلى المصير ﴾⁽⁸⁾ .

والامهات اللائي جعلت الجنة تحت أقدامهن أوصى الرسول ﷺ في السنة الشريفة بهن فقال : « إن الله يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بأمهاتكم ، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب »⁽⁹⁾ .

وأول ما اهتم به الانسان صيانة كرامة الأنثى وجعلها مساوية للرجل ، ما دامت نشأتها واحدة . قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رِبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ . وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَ مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾⁽¹⁰⁾ .

حقوق البنات :

أثبت الدين الاسلامي حقوق البنات في الميراث والزواج والتعليم وقد حرم العرب سابقاً البنات من هذه الحقوق . جاء في القرآن الكريم ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون » وللننساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قلل منه أو كثر ، نصيباً مفروضاً⁽¹¹⁾ .

ولما عضلوا بناتهم عن الزواج طمعاً بالمال أو في إرثهن بعد الوفاة زجرهم القرآن بعنف وقال لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُحِلُّ لَكُمْ أَنْ ترثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ، وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَنْ تَدْهِبُوا بِعِصْرٍ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾⁽¹²⁾ .

وأعطى الاسلام للبنت حق الاختيار للزوج الذي تحب أن تقرن حياتها بحياته ، فلم يأذن لوليها أن يجبرها طمعاً في مال يكسبه أو حرصاً على جاه يحرزه .

(7) المرأة في طل الاسلام لمريم نور الدين ص 24.

(8) سورة لقمان الآية 14 .

(9) نداء للجنس اللطيف ، أو حقوق النساء في الاسلام للسيد محمد رشيد رضا ص 118 .

(10) النساء الآية 1 .

(11) سورة النساء الآية 7 .

(12) سورة النساء الآية 19 . وعصلوا : معرا .

وقد أوصى الرسول الكريم بذلك بأحاديث عدّة كانت بمثابة دروس للاباء حتى لا يتخلوا في شؤون بناتهم الداخلية فذكر أن صدقائهم نحلة هن وحق خالص قال تعالى : ﴿وَاتَّيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوهُ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَتَّانٍ وَإِلَيْهِ مُبِينًا﴾⁽¹³⁾ .

أما قبل الزواج فقد جعل الاسلام الفت قبل أن تبلغ الرشد تحت وصاية أوليائها ليقوموا بتعليمها وحسن تربيتها . من هنا شاع على السنة الناس تشجيع العلم من قبل الرسول ﷺ حيث جعله فريضة مطلوبة لازمة . وقد ذكرنا بعض الأحاديث النبوية في طلب العلم والمحث عليه وتعليم المرأة في الفصل السابق ..

نظام الزواج في الاسلام :

إعني الاسلام بنظام الأسرة وصيانتها فشرع الزواج وحث الرجل ليختار زوجة صالحة يسكن إليها يوجد في جوارها راحته ، ويجعل لها من قلبه صلة مودة ورحمة . فهي أقرب شيء إلى نفسه وألصق ما يكون بقلبه وحسه . قال سيدحانه مشيراً إلى ما يحدهذه الزواج بين الزوجين من قرب جسدي وروحي كاملين .

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّهُ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مُودَةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁽¹⁴⁾

وقال : ﴿..... هن لباس لكم وأنتم لباس هن﴾⁽¹⁵⁾ والمراد باللباس هو سكن النفس واطمئنانها وعمل راحتها . كيف لا والمرأة شريكة الرجل في حياته وصاحبة بيته وأم أولاده . تدبر أمرهم وتقوم بتربيتهم وترعاهم ليتفرغ زوجها لواجبه ، ساعياً في طلب رزق عياله ، متحملًا في ذلك المشقات والأتعاب حتى إذا عاد في المساء إلى بيته سكتت . اليه نفسه ولقي من هدوئه وطمأننته ما ينسيه آلامه ومتاعبه . وبلا ريب يقصد بالمرأة المطيعة لزوجها ، الصالحة في تربية أطفالها ، المضحية في سبيل غيرها وليس المرأة الأنانية التي همها امتعتها ومسراتها ويهارج الحياة الدنيا فقط .

ولقد أوصى الاسلام الرجل بحسن عشرة الزوجة . والتلطف في رعايتها فقال الرسول خير الرجال خيرهم لنمائهم . وفي حديث آخر : ما أكثر النساء إلا كثريم ولا انماهن إلا لثيم . وحديث آخر : «... رفقاً بالقوارير» سمى المرأة قارورة رفقاً بها ويتلطفاً .

وكما أوصى الاسلام بحق المرأة على الرجل جعل للرجل حقلًا عليها ، فطلب اليها أن تطيعه وتقدمه على أقرب المقربين . جاء في الحديث : «ان رضى، الزوج من ربى الله» . على هذا النحو من العلاقة الكريمة فرض الاسلام صلة كل من الزوجين بالأخر صلة عادلة محبقة . وقد نص القرآن على هذه العلاقة «هن مثل اللذى عليهم يلتصرون» وكلمة معروفة هنا لها وزنها فهي تدلنا بحق أن علاقة الزوجين ليست مبادلة تجارية تقوم على التدقيق

(13) سورة النساء الآية 20 .

(14) سورة الروم الآية 21 .

(15) سورة البقرة الآية 187 .

والحساب العسير . دون تساهل ، بل هي علاقة رفق ويسر من الجانين .

وقد سمي القرآن عقدة النكاح ميثاقاً غليظاً ليس الفكاك منه بالأمر المisor ، قال تعالى : ﴿ وَأَخْذُنَّ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾⁽¹⁶⁾ .

كما ي يريد الاسلام للحياة الزوجية الاستقرار والتوازن وخاصة بعد إنجاب الأطفال ، لذلك طلب الى الرجال : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً يجعل الله فيه خيراً كثيراً »⁽¹⁷⁾ .

وبعد الاسلام ما استطاع عن العائلة السعيدة شبح الطلاق فيقول الرسول : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق »⁽¹⁸⁾ وسببه يجب أن يكون عند تبادل الأخلاق ، وحدوث البغضاء الموجعة لعدم إقامة حدود الله وشرعه . أما إذا كان لأسباب تافهة يكون حقاً وسفاهة وكفراناً بالنعمنة التي أرادها الله ، هذا بالإضافة إلى إلحاق الأذى بالزوجة المطلقة وبأهلها وأولادها . قال تعالى : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهم سبيلاً »⁽¹⁹⁾ . وحتى تبقى الأسرة في توازن عادل ويسود البيت السعادة الزوجية حرصاً على ذلك طلب الاسلام الى الزوج التروي وأفسح له المجال لمراجعة نفسه وتصحيح موقفه ، فقال : « الطلاق من ، فامساكه معروف أو تسرع بإحسان »⁽²⁰⁾ .

والطلاق في المرة الأولى رجعي يكن للزوج فيه إذا ندم ن يراجع زوجه ، أما في المرة الثانية فيصبح بائناً ويلزمه عقد جديد . وقد رغب الاسلام في رجعة الحياة الزوجية « لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً »⁽²¹⁾ .

والقرآن يعبر عن الرجعة (بالرد) كما في قوله تعالى : « وبعوهلن أحق بردهن في ذلك ان أرادوا اصلاحاً »⁽²²⁾ وكلمة اصلاح مقيدة بالقرآن الكريم . فلشن الرجعة لهدف الاصلاح لا غير ، أما إن كان هدف الزوج الضرار فهي مراجعة باطلة ومخالفة لروح الشريعة ، التي ترمي بالرجعة اصلاح حال الزوجين وإزالة الوحشية بينهما ، لذلك كان التحكيم . فقد نصت الآية الكريمة على تعين الحكمين من أهل الزوجين أو من غير الأهل شرط أن تتوفر فيهما شروط معينة من حيث العقل والبلوغ والعدل قال تعالى : « وإن خفتم شقاق بينها فابعثوا حكماً من أهلها وحكماً من أهلها ان يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينها إن الله كان عليها خيراً »⁽²³⁾ ، فعليه أن يبعث حكمين (يعني الحاكم) ينظران في أمرهما وإن لم يرفعا إليه دعواهما ، إذ لا

. (16) النساء الآية 21.

. (17) النساء الآية 19.

. (18) سنن ابن ماجة ج 1 ص 318.

. (19) النساء الآية 34.

. (20) البقرة الآية 229.

. (21) سورة الطلاق الآية 1.

. (22) سورة النساء الآية 35.

. (23) سورة البقرة الآية 228.

يجعل من جعله الله مسؤولاً عن الرعية أن يتركها على ما هي عليه من الشقاق والفساد .
والحكمان أو الوكيلان لا مانع أن يكونا امرأتين ، أو أن يكون أحدهما امرأة لأن كل من تقبل شهادته في أمر جاز أن يكون حكماً فيه⁽²³⁾ .

والاسلام الذي يريد للانسان حياة زوجية هادئة وسعيدة لم يسمح للرجل بأن يفصم عرى الزوجية بكلمة واحدة ، بل أعطاه المجال الكافي لمراجعة نفسه ، فلعله يصحح موقفه .
فقال تعالى : ﴿ الطلاق مرتان فامساك بمعرف أو تسرير بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيموهن شيئاً إلا أن يخافوا ألا يقيها حدود الله فإن خفتم ألا يقيها حدود الله فلا جناح عليهم فيما افتدت به . تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾⁽²⁴⁾ .
علق الاستاذ محمد جاد الله على الاسلام العادل الذي أنصف كل فرد من الزوج أو الزوجة في هذا المجال وغيره من المجالات الاجتماعية . « هل تر إنصافاً أكثر من أن الشارع الاسلامي ، يعلن : أن أبغض الحال الى الله الطلاق ، وإن الطلاق مرتان ، وإن التحكيم يسبق إنفاذ الطلاق ؛ وإن للمرأة حق طلب الطلاق لأسباب شرعية ؟ كل ذلك ؛ لأن القدام عليه دون استيفاء شروطه مقوض لسعادة الاسرة . وله أثر سيء جداً في تربية الابناء »⁽²⁵⁾ .

من حقوق الرجل وواجباته

- 1 - هو أب الأسرة والقائم بشؤونها ، والإنفاق عليها .
- 2 - له الحق في التزوج بأكثر من واحدة حتى أربع بالشروط المعروفة ؛ من استطاعة النفقه ، وعدم الإضرار ، وعدم الخوف من الجحور ، وإلا فواحدة . قال عز وجل : ﴿ ... فانكحوا ما طاب لكم من النساء متى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ... ﴾⁽²⁶⁾
- 3 - أباح له الطلاق ولكن أبغضه فيه .
- 4 - أمره بعشرة زوجته بالمعروف أو تسريرها بإحسان ، وشككه في وجوداته إن هو أحسن من نفسه بكراهة لها . قال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا بعض ما آتيموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾⁽²⁷⁾ .
وأي مسلم منها علت مرتبته الاجتماعية لا يتأثر بما ذكره الله من توقيع الخير الكثير من يكرهها ؛ فهو ولا شك يفهم نفسه ووجوداته في كراحته لزوجته .

(23) معين الحكم لعلامة الدين الطرابلسي ص 27 - (8) سورة النساء الآية 35.

(24) البقرة الآية 229.

(25) محمد المثل الكامل الاستاذ محمد جاد المولى ص 188.

(26) النساء الآية 3.

(27) النساء الآية 19.

من حقوق المرأة وواجباتها

- 1 - جعل لها على زوجها المهر ، والنفقة ، والمعاشة بالمعروف ، وأعطتها حرية التصرف بما لها ، وحفظ لها كرامتها الإنسانية .
- 2 - جعلها على قدم المساواة مع زوجها في الحقوق والواجبات : ﴿وَلَهُن مِّثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرْجَةٌ﴾⁽²⁸⁾ . ولكن هذه الدرجة فرضها الله من أجل استقرار نظام البيت ، وهي بلا ريب ضرورية إذ أن كل مجتمع مهما كان صغيراً لا بد له من مدبر يشرف على شؤون الرعاية حتى يستقيم نظامه . وفي هذا المجال وجد المدبر القدير جل شأنه أن الرجل أقدر من المرأة ، فأعطاه هذه الدرجة وحمله هذه المسؤولية .
- 3 - جعل العلاقة بين الزوج والزوجة قائمة على معنى إنساني كريم ؛ فهو يسكن إليها على أساس من المودة والرحمة قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْواجًا لَّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مُّودَةً وَرَحْمَةً إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁽²⁹⁾ .
- 4 - لم يلق الشارع على عاتقها عمل أي شيء ، حتى إرضاع ولدها إن شاءت أرضعته ، وإن أبنت كلف به الزوج .
- 5 - على الزوجة أن تعمل كل ما في وسعها لسعادة زوجها ، لأن في سعادته سعادتها وسعادة العائلة بكاملها . كما عليها أن تطيعه وتعمل بتعليماته فيها يعود لها وأسرتها .

حقوق الأولاد وواجباتهم

- 1 - يقوم الوالدان بتربية أولادهم تربية صالحة ، فيعملان على تنشئتهم تنشئة خيرة مستقيمة ، حتى لا ينزلقا في متاهات ضالة ويعتادون عادات سيئة . لأن من شب على شيء شاب عليه . وتقويم الغصون ضروري لها وهي غضة طرية فإذا ما خشنت وغلوظت يصعب جداً تقويمها . ولا ريب أن الشاعر مصيب في قوله :
إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولا يلين إذا قومته الخشب
- 2 - وعلى الأولاد أن يعرفوا حق والديهم عليهم وأن يبروهم . وقد عني الإسلام ببر الوالدين عنابة باللغة وأمر بالاحسان إليهما حتى أنه قرنه عز وجل بعبادته في أكثر من آية . قال الله في كتابه الحكيم : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يُبْلِغُنَّ عِنْدَكُمُ الْكَبِيرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كَلاهُمَا فَلَا تُقْلِنْهُمَا أَفَ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَانْخُضْ لَهُمَا جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما رباني صغيرا﴾⁽³⁰⁾ .

تعدد الزوجات

لقد وضع الإسلام نظاماً لتعدد الزوجات قيده بشروط ، ولم يرخص بالطلاق إلا في حين تعذر الحياة الزوجية بصورة سليمة .

(28) القراء الآية 228.

(29) الروم الآية 21.

(30) الأسراء الآية 24 و 25.

أول هذه الشروط : العدل عملاً بمعنى الآية الكريمة ﴿فَإِنْ خَفْتُمْ أَلَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ﴾ .

والشرط الثاني : القدرة على الإنفاق ، لقوله تعالى في ختام آية التعدد : « ذلك أدنى ألا تعولوا » والمعنى ألا تكثروا عبادكم .

فمن يوجد في نفسه أنه لا يستطيع العدل في الإنفاق حسب النص الشرعي ، فعليه أن يتبع عن التعدد . والافتراض السليم ترى الاكتفاء بالأصل ، وهو وحدانية الزوجة ، ولقد مضى جمهور المفسرين على تفسير العدل بالتسوية بين الزوجات في النفقة وليس المقصود المساواة في المحنة لأن ذلك أمر متعذر « إن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها » . ولذلك فسروا العدل بالمحبة والميل القلبي في تفسير الآية التالية : « وَلَنْ تَسْتَطِعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ، فَلَا تَمْلِئُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُّوهَا كَالْمُعْلَقَةِ »⁽¹¹⁾ .

فمن وحي هذه الآية إن الله لم ينه عن مجرد الميل وإنما نهى عن (كل) الميل ، في ذلك إيمانه بأن « بعض الميل » الطبيعي لا إثم فيه . وإن ميل القلب واتجاه النفس ليسا مما يملكونها الإنسان ، ولذلك لا يتعلّق بها التكليف ، وإنما الذي وقع شرطاً هو المساواة في الإنفاق والرعاية وهذا هو المقدر المستطاع .

ضرورات التعدد :

تدل الاحصاءات العلمية أن عدد النساء في الأحوال العادية يفوق عدد الرجال ، ففي المائة مثلاً طلب الأهالي من الحكومة لوضع نص تشريعي في القانون يسمح بتبعد الزوجات⁽¹²⁾ . وأما في أيام الحرب فيظهر لنا أن عدد النساء لا تقل عن ثلثي السكان إن لم تكن أكثر .

فالإسلام وضع حلولاً سديدة لثلث هذه الحالات . أما عن ضرورات التعدد الشخصية فقد تم بعض الضرورات يلجنًا الإنسان إلى تعدد الزوجات منها :

- ان تكون زوجته عقيباً ، وهو يرغب في الانجاب فيقيها على عصمته وفاء منه وكرماً ، بدلاً من طلاقها حيث تقل الرغبة فيها متى علم خاطبها عن سر طلاقها .
- أو تكون الزوجة مصابة بمرض مزمن ، أو معد ، أو منقر ، لا يتيح له أن يعيشها معاشرة الأزواج ، فيقيها على عصمته ويأتي لها بالدواء نبلأ منه وشهامة .
- أو أن يكون الزوج كثير الرحلات ، وليس باستطاعته أن يحمل زوجته وأولاده معه ، ويخشى على نفسه الوقوع في الفحشاء ، فيتزوج زوجة شرعية بدلاً من أن يخادن خليلة أو بغياً ، ويعترض له المجتمع بأولاده الشرعين بدلاً من أن يكونوا أولاد سفاح . ولا ريب أن العمل بهذا التشريع الإنساني هو الذي يحول بين ما يعانيه المجتمع من التدهور الخلقي

(31) سورة النساء الآية 129.

(32) أحكام الأحوال الشخصية للدكتور محمد يوسف موسى ص 121 . وتاريخ الفقه الجعفري للسيد هاشم معروف الحسني ص 73 .

ويحفظ للمرأة كرامتها وشرفها لكي لا تصبح فريسة لذوي الشهوات والأطماء الدنيئة .

النساء اللواتي يباح التزوج بين :

نص القرآن الكريم بآيات صريحة على من يحل التزوج بها ومن يحرم قال تعالى : ﴿ وَلَا تنكحوا مَا نكح آباؤكم من النساء إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ أَنَّهُ كَانَ فَاحشَةً وَمَقْتَنًا وَسَاءَ سَيِّلًا ﴾⁽³⁴⁾ . وقد نبه الاسلام على هذا النوع لأنه كان شائعاً قبل الاسلام حيث كانت منكرة الأب يرثها أولاد الميت كما يرثون بقية أمواله . ثم عدد القرآن أصنافاً من النساء غير هذه من لا يتحقق بينن وبين الرجال رابطة الزوجية فقال :

﴿ حَرَمَتْ عَلَيْكُمْ امْهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ، وَأَخْوَاتُكُمْ وَعَمَاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ ، وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأَمْهَاتُكُمُ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ ، وَأَخْوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأَمْهَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ ، وَأَمْهَاتُ نَسَائِكُمْ وَرِبَائِبِكُمُ الَّتِي فِي حِجَورِكُمْ مِنْ نَسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بَيْنَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بَيْنَ فَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَالُهُنَّ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ، وَانْ تَحْمِلُوْا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ ۚ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ أَنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيمًا . وَالْمَحْسَنَاتُ مِنَ النَّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَ إِيمَانُكُمْ ﴾⁽³⁵⁾ .

وفيما عدا هذه العناوين التي ورد ذكرها في الآية يمكن أن تحصل رابطة الزوجية بين الرجل والمرأة إذا وقع عقد الزواج بينهما بالطرق التي أقرها الاسلام .

وقد منع الاسلام زواج المسلم بالمشاركة والمشاركة بالسلمة كما نصت على ذلك الآية الكريمة : ﴿ وَلَا تنكحوا الْمُشْرِكِينَ حَقَّ يَؤْمِنُوا وَلَعِبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبْتُمْ . أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ . وَقَالَ : ﴿ وَلَا تنكحوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يَؤْمِنْنَ وَلَا مَأْمُونَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبْتُمْ ﴾⁽³⁶⁾ أما عن الزواج بالكتابيات قال تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَحْلَلْنَا لَكُمُ الظَّبَابَاتِ وَطَعَامَ الَّذِينَ أَوْتَوْا الْكِتَابَ حَلْ لَكُمْ وَطَعَامَكُمْ حَلْ لَهُمْ . وَالْمَحْسَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أَوْتَوْا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ . . . ﴾⁽³⁷⁾ .

وقد فرض الاسلام على الرجل الذي يبغى الزواج أن يدفع للمرأة ما يتلقان عليه من المال . قال سبحانه ﴿ وَأَحْلَلْنَا لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مَحْصَنِينَ غَيْرَ مَسَافِحِينَ ﴾ . (النساء الآية 25) إلى آخر الآية ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَأَتُوهُنَّ أَجْوَرَهُنَّ فَرِيشَةً أَنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْهَا حَكِيمًا ﴾ .

يرى البعض جواز عقد الزواج الى أجل معين من صريح نص الآية ومعناها : إذا عقدتم عليهن الى أجل آتوهن أجورهن ، فوجوب إعطاء الأجرة مترب على الاستمتاع ، أما في العقد الدائم فيثبت المهر ولا دخل للاستمتاع بذلك .

(34) سورة النساء الآية 22.

(35) سورة النساء الآية 23-24.

(36) سورة البقرة الآية 221.

(37) سورة المائدة الآية 5.

الفصل الثاني الزواج المؤقت

تعريفه :

هو عقد ازدواج بين رجل وامرأة مسلمة أو كتابية غير ذات بعل وغير ذات عدة إلى أجل معين يمهد معين يذكر في متن العقد .

وقد سموه بالمعنة ، وتسميتها هذه متناسبة مع غاية تشريعه من قوله تعالى «فما استمتعتم به منهن» وهذه اللفظة لها جرس وواقع مختلف تماماً عن لفظة الزواج .

مشروعية الزواج المؤقت (المعنة)
أ - من القرآن :

قال تعالى : «فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة»⁽¹⁾ هذا دليل واضح على مشروعيتها ولا ينكرها إلا مكابر أو جاهل . وكل باحث تخل من التعمق تظهر له بوضوح تمام دلالة الآية وصحة مشروعيتها . وهو يرى إذا أراد أن الله تعالى شرع في أوائل السورة المذكورة في بيان النكاح الدائم بقوله سبحانه : «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثني وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة» من المسلم به عند كافة المسلمين أن مورد الآية النكاح الدائم . وبعدها ذكر تعالى ما يحرم من النساء بقوله : «ولا تنكحوا ما نكح آباءكم من النساء إلا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا» و«حرمت عليكم أمهاتكم وبنياتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبينات الأخ وبنات الأخ وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وبائيكم الباقي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بين فلا جناح عليكم وحلالهن أبنائكم الذين من أصلابكم وان تجمعوا بين الأخرين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً» .

ثم قال سبحانه عقب ذلك : «وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تتبعوا بأموالكم محسنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ان الله كان عليّاً حكيمًا» وبعد هذه الآيات الكريمة يكون إتيان النساء محللاً من طرق ثلاث :

- 1 - النكاح الدائم .
- 2 - نكاح المعنة .
- 3 - ملك اليمين .

(1) النساء الآية 24 .

والمخادنة وهي اتخاذ الخليلة للزنا بها سرًّا . والسفاح بلا ريب هو غير المتعة إذ لا يعقل أن تكون من الزنا بعد أن أحلها الله تعالى بقوله : «فِيمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ» بل أنها عقد زواج مؤقت كالعقد الدائم ، وقد أحلها الرسول ﷺ وبقيت حلالاً إلى أواسط خلافة عمر (رض) .

ب - من السنة

روايات كثيرة رواها الأئمة من أهل السنة كأصحاب الصحاح ثبتت مشروعية الزواج المؤقت (المتعة) .

روى البخاري في صحيحه : عن جابر بن عبد الله وسلمة بن الأكوع قالاً : كنا في جيش فأتانا رسول الله ﷺ فقال : إنكم قد أذن لكم أن تستمتعوا فاستمتعوا⁽²⁾ وروى مسلم في صحيحه : عن اسماعيل عن قيس قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول : كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ليس لنا نساء ، فقلنا : ألا نستخصي ؟ نهانا عن ذلك ، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل . ثم قرأ عبد الله : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحْلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِلِينَ»⁽³⁾ .

ولكن عمر بن الخطاب نهى عن متعة النساء وعاقب عليها .. جاء في صحيح مسلم : «كنت عند جابر بن عبد الله فأتاه آتٌ ، فقال : إن ابن عباس وابن الزبير اختلفا في المتعتين (متعة الحج ومتاعة النساء) فقال جابر : فعلناهما مع رسول الله ﷺ ثم نهانا عنهما عمر فلم نعد لهما»⁽⁴⁾ .

ج - من الاجماع

قال الفخر الرازي في تفسيره آية المتعة : واتفقوا على أنها كانت مباحة في ابتداء الاسلام : روى أن النبي ﷺ لما قدم مكة في عمرته تزين نساء مكة ، فشكوا أصحاب الرسول ﷺ طول العزوبة . فقال : استمتعوا من هذه النساء .

وحكى النwoي في شرحه على صحيح مسلم : واتفق العلماء على أن هذه المتعة كانت نكاحاً إلى أجل ، لا ميراث فيها⁽⁵⁾

شروط الزواج المؤقت (المتعة)

ورد في وسائل الشيعة أن شروط المتعة خمسة :

- 1 - العقد . 2 - المهر . 3 - أن تكون المرأة مسلمة أو كتابية . 4 - أن لا تكون ذات بعل ولا عدة . 5 - تعين المدة ، الأجل .

(2) صحيح البخاري ج 3 ص 173 .

(3) راجع المطبوع مع شرحه للإمام النووي في هامش ارشاد الساري للسعقلاني ج 6 ص 124 . والأية 87 من سورة المائدة .

(4) صحيح مسلم ج 4 ص 130 باب نكاح المتعة .

(5) راجع المتعة في الإسلام للسيد حسين يوسف مكي ص 31 .

فالعقد يجب أن يشتمل على الرضى والقبول . والمهرب : لم يضعوا حداً لقليله ولا لكثيره . وأن تكون المرأة مسلمة أو كاتيبة وغير ذات بعل : فلا يصح العقد على الكافرة أو المشركة ولا على المطلقة وهي في العدة ولا على المرأة التي عندها زوج منها كان نوعه ورد عن أبي عبد الله (ع) قال : « كل قوم يفردون النكاح من السفاح فنكاحهم جائز »⁽⁶⁾ . وتعين الأجل قليلاً أو كثيراً كساعة أو شهر أو سنة أو عدة سنوات لا فرق . تقول المرأة الجامحة للشروط هذه :

« زوجتك نفسى لمدة كذا يمehr كذا فيقول الرجل بعد أن تكمل كلامها : قبلت » بهذه البساطة تصبح المرأة زوجة دون أي حاجة إلى الاشهاد أو التسجيل .

وهنا يظهر ما للكلمة من احترام والتزام ، فالميشاق الذي استحل به النكاح قد أخذ بشرف الكلمة « زوجتك نفسى » وكراهة الالتزام : « بقبلت » فالانسان الشريف يحترم كلامه ويلتزم به . قال بعض الحكماء في هذا المجال : إذا تكلمت بالكلمة ملكتي وإذا لم أتكلم بها ملكتها .

وقال الشيخ سليمان اليحفوبي : « فالكلمة نظام الانسان ورقيه وحضارته وهي مذكورة ! ترخص في سبيلها الأموال والأرواح والدماء ، فإذا استذلت ، ماذا يبقى من الانسان »⁽⁷⁾ ثم تابع :

« من استحل بها كل المرأة ، جمالاً وفتنة وجاذبية ، واستمتع بكل ما وهبها الطبيعة من سحر وغمريات ، وقضى كل نهمه ما يلسع جسمه بأفانين الحب ، كيف يمكنه أن يتخل عن شرف ما أعطاه ويخون الكلمة »⁽⁸⁾ .

الفوارق بين الزواج الدائم والزواج المؤقت
هناك فوارق عددة بين الزواج الدائم والزواج المؤقت تعطي لهذا الأخير الكثير من المرونة والحرية على الاطلاق .

أولاً : لا طلاق في حالة الفراق وإنما يحصل بانتهاء الأجل المتفق عليه من قبل الطرفين أو إبرائهم المدة المتبقية .

ثانياً : لا نفقة للزوجة المتمتع بها على زوجها إلا إذا حصل ذلك بعد اتفاق مسبق بين الطرفين .

ثالثاً : لا ميراث بين الزوجين إلا أن يشترط أحدهما أو كلاهما في متن العقد فيرث الذي يشترط وتتفقد الوصية حسب الاتفاق .

رابعاً : يحق للزوجة المتمتع بها عدم إطاعة زوجها في الانتقال معه حيث يريد أو الخروج من منزلها بغير إذنه ، وجل ما عليها أن تمكنه من الاستمتاع بها بتسلیم نفسها له ساعة

(6) وسائل الشيعة ج 7 ص 588 .

(7) ضمان الجنس في الاسلام ص 131 .

(8) المصدر نفسه .

يريد خلال المدة المتفق عليها ، ولو أخلت بعض المدة ، فاختصرت منها مثلاً ، سقط من المهر بالنسبة نفسها .

خامساً : يحق للزوجة المتمتع بها أن تشرط على زوجها أن لا يدخل بها إلا بتقديمه بعض الطلبات ، وعليه الوفاء بهذه الشروط ، ولكنها إذا أسقطت الشرط عن رضا وقناعة جاز له ذلك .

فلاحظت معي هذه المرنة والحرية للزواج المؤقت التي يتمتع بها كلا الطرفين حيث باستطاعتها تمديد العقد عند انتهائه بمدة يتراضيان عليها من إنفصال أو تمديد لفترة أخرى معينة ، ولو أرادا بجعله زواجاً دائمًا . فائي يسر أفضل من هذا الزواج الذي شرعه الإسلام حيث باستطاعة الشاب البالغ أن يوفر لنفسه شريكة في فترة النمو الجنسي والرغبة الجاحظة وصعوبة المغريات بدون أي حساب لتكليف الأسرة التي لا يستطيع تحملها . وشيء آخر ان باستطاعتها تجنب الانجاب ، وإذا حصل ذلك فهو ابن شرعي لها ترتب له كل حقوق البنوة المعترف بها للأبناء . فلا يجوز الاجهاض ولو فعلت أو أكرهت على ذلك فعلتها أو عليه الديمة . أما النفقة فتتجب على الزوج إذا كان منصوص عنها في العقد وإلا فإنها تسقط عنه .

فالشباب والشابات الراغبين في هذا الزواج المؤقت يجدون فيه حلّاً يصون كرامتهم ولا يلزمهم بنفقات يعجزون عنها وتتكليف زوجية تنقل كاهمهم سوى المهر المنصوص عنه في متن العقد .

وهكذا يجد شبابنا في مثل هذا السن ، بعد البلوغ وقبل الزواج الدائم ، إطلاقاً لحريتهم وتلبية لرغباتهم في نظام مشروع وطهارة تامة . فلا إثم ولا عبث ولا انحراف ، كما لا ضغط ولا كبت ولا اضطهاد للرغبات الجنسية ، وإنما هو حل سليم متوازن يريح الجميع دون أي جهد أو إجهاد .

فالزواج المؤقت المنصوص عنه في القرآن الكريم ، إذا تم حسب الأصول الموضوعة له ، أفضل حل لقضايا الجنس عند الشباب والشابات في عصرنا الحاضر . فبه تتننى الكثير من المشاكل التي تتضمن بها المحاكم بأسلوب حضاري يمنع السفاح ويضم حقوق أبناء المجتمع الجنسية ويلبي رغباتهم بشكل عادل متوازن ، كما يحفظ طهارة النسل ويقضي على جيل اللقطاء الذي يقلق بالعالم المتحضر . فيما ذنب هذا اللقطي الذي جنى عليه أهله في نزواتهم وطيشتهم ليعامل المعاملة المزرية وينظر إليه باحتقار وتلاحمه القوانين التي تحظى من كرامته . إنه يكفر بمجتمعه وينفجر حقداً عليه .

وما ذنب هذه الروح التي تذهب ضحية سوء تصرف المجتمع الظالم الغاشم ! وكم من الأخبار التي تحملها الصحف كل يوم عن الحاملات المتحررات حين علمن بحملهن الغير مشروع . وكم من حالات الاجهاض الخيالية في العالم التي يرفضها الدين ويندّي لها الجبين !

وقد تعرض الكثير من علماء الاجتماع وعلماء النفس لهذا الموضوع وعرضوا جميع آرائهم ومقرراتهم وأقوالهم دون وضع أي حل للمشكلة الجنسية وجمل ما رشح عنهم أن القضايا

الجنسية ضرورة اجتماعية . ولما بقيت أقوالهم كلاماً بلا حلول كانت الخيانة الزوجية ، والدعارة ، والتضحية بالكرامة الإنسانية ، وقتل الأجنحة والوقوع في غياب الظلم والكفر .

إن الإقدام على إعدام الجين هو اعتداء صارخ على حياة الآخرين ، وعلى الروح التي ليست من صنع الإنسان ولا خاضعة لرادته فـأي شريعة تسمح له بإزهاق الأرواح ؟! ذلك الحمل الغير مرغوب فيه والغير شرعي لا يجوز إسقاطه لأنـه مخالفـة صريحة لإرادة الله .

والحمل المناسب الذي فرضته الشريعة الإسلامية لمنع هذا الانحلال الأخلاقي والتدهور الاجتماعي والجرائم البشعة التي تدخل العقول هو الزواج المؤقت .

وقد عارض هذا الزواج كثير من المتحدلقين الذين اخـذـوه ذريـعة للطـعن عـلـى الـاسـلام وـعـلـى رـسـول اللـه مـحـمـد ﷺ . كالـشـوـكـانـي (9) وـالـبـيـهـقـي (10) . . . وـالـشـيـخـ أـمـدـ زـكـيـ باـشاـ وـابـراهـيمـ الرـاوـيـ اللـدانـ عـقـباـ عـلـىـ كـتـابـ أـصـلـ الشـيـعـةـ وـأـصـوـلـهـ لـلـامـمـ كـاـشـفـ الغـطـاءـ فـيـهاـ يـتـصـلـ بـمـوـضـوـعـ المـنـعـةـ .

وقد تبين حالة الشـطـطـ التي سـارـعـ اليـهاـ هـؤـلـاءـ وـغـيـرـهـمـ منـ الـمـسـتـشـرـقـينـ مـثـلـ «ـهـيـوزـ» وـ«ـرـسـلـ» . وقد رد عليهم الاستاذ العقاد وكفانا شـرـهـمـ فقال : «ـفـيـ قـامـوسـ الـاسـلامـ الـذـيـ أـلـفـهـ تـوـمـاـسـ بـاتـرـيـكـ هـيـوزـ ، بـحـثـ عـنـ زـوـاجـ الـاسـلامـيـ يـقـولـ فـيـهـ عـنـ زـوـاجـ المـنـعـةـ : إـنـ هـذـهـ الـزـيـجـاتـ الـمـوـقـوـتـةـ هـيـ وـلـاـ رـبـ أـعـظـمـ الـوـصـمـاتـ فـيـ تـشـرـيعـ مـحـمـدـ الـأـخـلـاقـيـ ، وـلـنـ تـقـبـلـ الـعـدـرـةـ بـأـيـ حـالـ مـنـ الـأـحـوـالـ رـدـ الـعـقـادـ عـلـىـ هـذـاـ الـادـعـاءـ فـقـالـ (11) :

لـقـدـ كـانـ النـافـعـ لـلـرـجـلـ أـنـ يـعـيـشـ حـتـىـ يـرـىـ فـيـلـيـوزـ أـنـ أـكـبـرـ فـلـاسـفـةـ قـوـمـهـ يـدـرـسـ مـشـكـلـةـ الـجـنـسـيـنـ فـيـ الـخـضـارـةـ الـمـدـيـنـةـ درـاسـةـ الـفـلـاسـفـةـ الـمـحـقـقـينـ فـلـاـ يـدـيـهـ الرـأـيـ فـيـهـاـ إـلـىـ حلـ غـيرـ زـوـاجـ المـنـعـةـ أـوـ مـاـ هـوـ مـنـ قـبـيلـهـ ، فـقـدـ كـانـ خـلـيقـاـ بـهـ إـذـنـ أـنـ يـتـهـيـبـ مشـكـلـةـ الـجـنـسـ قـلـيلـاـ مـنـ التـهـيـبـ ، وـأـنـ يـدـرـكـ مـدـرـكـاـ أـوـ طـائـعاـ أـنـهـ لـيـسـ بـالـلـعـبـةـ الـتـيـ يـلـعـبـ بـهـ مـتـطـلـعـونـ إـلـىـ سـمعـةـ الـلـطـافـةـ وـالـفـرـوـسـيـةـ الـمـصـطـنـعـةـ فـيـ الـأـنـدـيـةـ وـالـمـحـاـفـلـ وـأـنـ مـشـكـلـاتـ النـوـعـ الـأـنـسـانـيـ فـيـ الضـخـامـ قـدـ تـلـجـيـءـ أـسـانـذـةـ الـعـصـرـ إـلـىـ مـقـامـ الـتـعـلـمـينـ مـنـ أـبـنـاءـ الـعـصـورـ الـمـاضـيـةـ ، فـيـتـعـلـمـونـ أـنـ الـحـذـلـقـةـ أـسـهـلـ شـيـءـ عـلـىـ طـلـابـ الـظـاهـرـ وـأـدـعـيـاءـ الـلـطـافـةـ ، وـلـكـنـهـاـ بـسـهـولـةـ لـنـ تـفـعـلـ الـبـشـرـ فـيـ الـعـصـلـاتـ الـصـعـابـ الـتـيـ تـعـتـبـرـ حـلـاـ لـمـشـكـلـاتـ النـوـعـ الـأـنـسـانـيـ الـضـخـامـ وـالـتـيـ تـجـدـدـ مـعـ الـزـمـانـ وـتـسـفـحـ عـلـىـ تـعـاقـبـ الـأـجيـالـ .

إن المفارقات التي سجلت على الزواج المؤقت تختلف في موضوعيتها باختلاف الباحثين

(9) الشوكاني : هو محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني من كبار علماء اليمن ، من أهل صنعاء ، ولد في شوكان باليمن سنة 173 هـ - 125 هـ وله عدة مؤلفات منها كتاب نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار يقع في ثمان مجلدات .

(10) منسوب إلى بيهق وهي قرية من بلاد خراسان وهو أحد بن الحسين بن ... موسى البيهقي الخسروجردي ولد سنة 384 هـ وتوفي 458 هـ وهو فقيه ومحدث . غالب عليه الحديث ورجل في طلبه وسمع وصنف فيه كثيراً . راجع كتاب (الزركي) .

(11) الفلسفة القرآنية للعقاد ص 75 .

فأحمد أمين حملها النتائج نفسها التي تسببها العلاقات الجنسية غير المشروعة كاختلاط المياه ، وضياع الانساب ، وامتهان كرامة الإنسان في المرأة باعتبارها سلعة تؤجر لامتناع الآخرين .

ونجيب عنها جيئاً دون تفصيل . يتضح الجواب على هذه المفارقات إذا عدنا إلى تفهم واقع الزواج المؤقت بعد التعرف على أحکامه وشروطه .

- أولاً : الزواج المؤقت علاقة طبيعية باعتراف الشريعة ، يشعر فيها الزوجان بكرامة الوفاء وكراهة الكلمة التي يقع بها العقد ، وذلك بحكم كونها عقداً من العقود . ولا فرق بين الزواج المؤقت والزواج الدائم من هذه الناحية سوى أن المرأة في المؤقت تملك تحديد المدة ولا تملكها في الزواج الدائم بل تتطلب تحت رحمة الزوج إن شاء طلقها ، وإن شاء مد بالمدة إلى آخر العمر . إذن هي ليست سلعة تؤجر للمتعة كما يتوهمون وإنما هي كالطرف الآخر في المعاملة ، تعطي من الالتزامات بقدر ما تأخذ . وفي هذه الحالة قد تكون الزوجة هي الرابحة لأنها سوف تكتشف أخلاق الزوج ومعاملته ، فستستطيع عند ذلك تحديد موقفها منه . فإذاً أن تفصل عنه وإما أن تكون علاقة دائمة معه بتحويل الزواج المؤقت إلى زواج دائم . وهذا ما يحصل عندنا اليوم أثناء الخطوبة في البلدان المتحضرية ، وهي كما نعلم فترة من أصعب ما يمر بها الخطيبان لما تتطوّر عليه من تصعن وتزيف وحسن مظهر في أكثر الأحيان يكون كاذباً ، لأن كلاً منها يشعر في أعماقه أنه مراقب من صاحبه في كل أعماله وحركاته . وفي هذا المجال النساء مخادعات أكثر من الرجال . هذه الأجواء كلها من نفسية واجتماعية أثناء فترة الخطوبة تكاد تكون معدومة في فترة الزواج المؤقت ، بفضل اختبار كل منها للأخر بعيدين عن عوامل التكلف والتصنّع .

فآية مهانة على المرأة في أن تنشيء علاقة شريفة يعترف بها القانون وتقرها الشريعة وتتوفر فيها كرامة الكلمة وشهادة الالتزام ، دونها حاجة إلى التستر تحت أغنحة الظلام وفي أوكرار الليل .

- ثانياً : تقييد المرأة في الزواج المؤقت بتوحيد علاقتها الجنسية ما دامت في عصمة الزوج ، وحالها حال الزوجة في العقد الدائم . وإذا انتهت أجل العقد أو انتهت بموت الزوج لحقتها العدة وهي تترواح بين خمسة وأربعين يوماً وأربعة أشهر وعشرة أيام . وهذه المدة كافية بنظر التشريع لاستبقاء المرأة ، والوقوف دون اختلاط المياه . بينما الزفاف المتشي في أكثر البلدان المتحضرية ! لا تقييد المرأة في علاقتها الجنسية فحسب بل تكون ملكاً للجميع ، وفي ذلك ما يسبب الأمراض الفتاكية التي تقع نتيجة اختلاط المياه . وهذه الحالة أدهى وأخطر من حياة الناس في عصر الجاهلية ، حيث كان عندهم زواج الرهط أو زواج الميراث . . .⁽¹²⁾

- ثالثاً : الفارق الثالث أن الزفاف الذي حرمه الأديان السماوية ينهي إلى اختلاط الأنساب وخلق طبقة من الناس لا يعترف بها أحد من الآباء والقوانين ، كما يكونون في موضع ازدراء ونقاوة . لذلك ينشأون على التنكر والبغض والخذل والتمرد على كل ما يحيط بهم

(12) راجع حضارة العرب في عصر الحاهية للمؤلف ص 128 .

من دين وقوانين فالآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون . وتركوا جيشاً من المشردين الناقمين على أديان وعادات وتقاليد مجتمعهم .

كل هذا غير موجود ومرفض في الزواج المؤقت فالأنساب محفوظة والولد ولد لابويه لا فارق بينه وبين أخوه من الزوجة الدائمة في الإنفاق والارث وكل الحقوق التي نصت عليها الشريعة الإسلامية .

أما في حال سفر الزوج فالإسلام فرض عليه أن يعطي عنوانه الكامل لزوجته لئذنه بنتائج الحمل إن حصل . وعلى كل حال ليست المرأة متاعاً مطروحاً على قارعة الطريق يتناولها أي عابر سبيل بسهولة ويسر دون أن تعرف اسمه وعنوانه .

وبعد هذا السرد للفرقوقات والأوهام والاتهام لا يسعنا إلا أن نقر بما جاءت به الشريعة الإسلامية العادلة المتكاملة . ولكن إيماننا بالزواج المؤقت يحتاج إلى رياضة ومعاناة طويلة حتى يصبح من عاداتنا المألوفة وتصبح الدعوة إلى حضور زواج مؤقت كالدعوة إلى حضور زواج دائم لا تنطوي على آية علامة من التندر والاستهزاء . فالشرع أقرها والمنطق أقرها وظروف الشباب والشابات تحتاجها ولا غنى لها عنها .

المتعة رحمة

ورد في كتاب المفتى الشيخ سليمان اليحقوقي (ضمان الجنس في الإسلام) : « المتعة رحمة من الله للبشر لتصريف طاقاتهم الجنسية الطافحة في الطرق النظيفة العادلة : فلا تضييعها معاشر المسلمين وتخونوا أنفسكم مسافحين ومسرورين لصبيحة عملكم الغربية »⁽¹³⁾ .

أما عن أسباب منعها فالذى نعلمه أن النبي عمل بها متفذاً قول الله عز وجل في سورة النساء (الآية 34) ويقي عمول بها في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه حتى عهد عمر بن الخطاب فعمد إلى منعها . ويخبرنا عن هذا المنع الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري حين بلغه ما دار من حديث بين ابن الزبير وعبد الله بن عباس حين اختلفا في المتعتين (متعة الحج ومتعة النساء) فقال جابر : « على يدي جرى الحديث ، تمعتنا مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر ، فلما ولي عمر خطب الناس ، فقال : إن رسول الله هذا الرسول ، وإن القرآن هذا القرآن وإنها - كانتا - متعتان على عهد رسول الله ، وأنا أنتي عنها وأعاقب عليهما إحداهما متعة النساء ، ولا أقدر على رجل تزوج امرأة إلى أجل إلا غيبته بالحجارة »⁽¹⁴⁾ .

وما يبدو لنا أن بعض المسلمين قد أساء استعمال هذا التشريع مما أثار حفيظة الخليفة عمر فهرب في ثورة عاطفية إلى التحرير المطلق .

وسبب آخر نظن أنه يعود إلى هذا التشريع الجديد بالنسبة للمسلمين في ذلك الوقت إذ لم يسهل عليهم تقبيله وهو في البداية ، وبصورة خاصة التشريع الذي يتعلق بشؤون الجنس ،

(13) ضمان الجنس في الإسلام ص 138 .

(14) صحيح مسلم باب نكاح المتعة ج 4 ص 130 والنص والاجتهد للسيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي ص 187 .

فربما استنكروه لأنه لم يبر عليه بعد مدة كافية لترويض نفوسهم عليه .

وهناك أيضاً سبب آخر لعله يكون إعراض الرجال عن زوجاتهم والخاجهم في طلب زواج المتعة . ورد في الوسائل عن أبي الحسن (ع) في كتابه إلى بعض مواليه : « لا تلحو على المتعة ، وإنما عليكم إقامة السنة ، فلا تستغلوا بها عن فرشكم وحرائركم ، فيكفرن » . ويتبرين ، ويذعنون على الأمر بذلك ، ويلعنوننا » (15).

لقد أظهر (ع) ميل بعض الرجال إلى غريزة التبدل الجنسي ، كما حدد من جهة أخرى إقامة السنة وعدم الإلحاد في طلب المتعة وذلك لحفظ حقوق الزوجات الحرائر ؛ لأن الزوجة التي يشغل عنها زوجها بصورة شبه مستمرة ، تکفر بالقيم وتدعى على الأمر بها .

هذا على ما أظن ما جعل كثيراً من الناس يتمسكون بنبي الخليفة عمر عنها ويتخلون الأخبار والروايات في نسخها . قال أستاذ الأصول والفقه المقارن في كلية الفقه بالتجف الأشرف السيد محمد تقى الحكيم (16) :

« والذي يبدوا لي أن بعض المسلمين أساء استعمال هذا التشريع ، فأشار حفيظة الخليفة ، ودفعه في ثورة عاطفية إلى هذا التحرير المطلق . . . وهو تشريع جديد على المسلمين إذ لم يسبق له نظير في آية شريعة سابقة دينية أو مدنية ، لذلك سارعوا إلى الأخذ برأي الخليفة ، واعتباره شريعة ، وكان من انكر هذا التحرير عليه ولده عبد الله بن عمر فقد سئل بعد ذلك عن متعة النساء ، فقال : « والله ما كنا على عهد رسول الله زانين ولا مسافحين » وقال له مرة رجل من أهل الشام :

إن أباك قد نهى عنها ، فقال ابن عمر (رض) : أرأيت إن كان أبي نهى عنها وصنعها رسول الله ﷺ أترك السنة وتبني قول أبي ؟ (17) وقد علق السيد الحكيم على رأي ابن عمر .

« . . . والذي يبدوا من هذا الكلام أن ابن عمر كان من لا يسيغون الاجتهد في مقابل النص منها كان ذلك الاجتهد وبواهته لذلك لم يأخذ بوجهة نظر أبيه مع صراحة النص » .
وإذا كان لاجتهد الخليفة عمر ما يبرره في قوله - وهو ما لم يتضح لدينا الآن - فليس هناك ما يبرر استمراره ، ورفع اليد عن صريح القرآن لأجله . علماً أن « حلال محمد حلال إلى يوم القيمة وحرامه حرام إلى يوم القيمة » (18) . وقد ورد في مصادر ثابتة أن جملة من الصحابة الأجلاء لم يقرروا عمر على اجتهاده . قال ابن حزم :

« ثبت على إياحتها (المتعة) بعد رسول الله ﷺ ابن مسعود وأبو سعيد وابن عباس وسلمة ومعبد ابنا أمية ابن خلف وجابر وعمر بن حريث ومن التابعين : طاووس وسعيد بن

(15) الوسائل ج 7 ص 450.

(16) الزواج المؤقت ودوره في حل مشكلات الجنس ص 40.

(17) راجع كتاب المتعة للنفيكي ص 54 نقلاً عن صحيح الترمذى .

(18) الزواج المؤقت للسيد محمد تقى الحكيم ص 42 نقلاً عن البيان ص 217.

جبير وعطاء وسائر فقهاء مكة⁽¹⁹⁾ والاستاذ العقاد قد أبدى استغرابه لمنع عمر الزواج المؤقت فقال : « لقد خالف عمر المألف في منع زواج المتعة » فمألف الطباع هو ما أقره الاسلام ومنعها يضر بالمجتمع ويعقد مشكلات النوع الانساني⁽²⁰⁾ .

ومشكلات شبابنا اليوم ما هي الحلول العملية المطروحة لهم وبصورة خاصة الفترة الدراسية بين الثامنة عشر والثامنة والعشرين . فترة التخصص وهي طوبيلة يقضيها الشاب بين سن البلوغ وسن الزواج . ولا يخفى أنها فترة النمو الجنسي والرغبة الجاحضة وصعوبة مقاومة المغريات ، وما أكثرها في عصرنا المتحضر ، فهل يعقل أن نغفل هذه الفترة كما أغفلها السابقون ؟ وهذه بعض احصاءات ذكرها الشيخ سليمان اليحفوفي نقلًا عن ندوة تنظيم الوالدية « الاسلام وتنظيم الاسرة»⁽²¹⁾ .

« أما في أمريكا فقد أعلن الدكتور و. براون من المركز الامريكي لمكافحة المرض سنة 1965 أن 650 000 من الامريكان شباباً وفتيات تحت سن العشرين يصابون سنوياً بالزهري والسيلان ، وان حالات الزهري المعروفة قد زادت على مدى عام بمقدار 55% في نيوجرسى و30% في مدينة نيويورك .

كما أعلن الدكتور ماكتزي بولوك ، من جمعية الصحة الامريكية أن الاصابات شهدت مؤخرًا تفاقماً مروعًا ودعا لاعلان حالة الطوارئ القومية » أما عن نسبة الاجهاض فيقول (ص 323) .

« النساء المجهضات 44% منهن متزوجات[،] على حين 47% فتيات غير متزوجات و69% مطلقات أو أرامل أو منفصلات عن أزواجهن . أي أن نسبة الحمل السفاح في المجموع بلغت 56% . ويضيف :

« إن احصائيات الاجهاض في انكلترا لسنة 1969 أثبتت 47% من المجهضات كن متزوجات و53% كن حاملات به سفاح كذلك .

وقد سألت مندوب السويد عن نسبة المتزوجات في 50000 إجهاض التي تجري سنوياً فأجاب : بأن أكثر من النصف فتيات غير متزوجات . من يتأمل نسبة هذه الأرقام يذهل بلا ريب فقتل الأجيال يزيد على قتل الشباب أثناء الحروب !

وبعد ما هي الحلول التي وضعوها بعد إعلان حالة الطوارئ لتصحيح الوضع ؟ إما الكبت وقد رفضه علماء النفس والاجتماع على الاطلاق وإما علاقة جنسية بين الطرفين مع اجتناب حدوث حمل وهو الزنى بعينه وأما الزواج الكبير الشرعي وقد يرهق كاهل الشباب في مثل هذه السن من حيث النفقات على الاسرة وحقوق الزوجية .

وأما سلاح الوعظ والتخييف والتحذير ، وأظن أن نداء الجنس أقوى في تأثيره من نداء الوعظ والارشاد كأداة في علاج المشكلة ، ولا يقوى على إسكناته التغافل بل يحتاج إلى حلول

(19) عثمان بن عفان لعباس محمود العقاد ص 38.

(20) ضمان الجنس في الاسلام ص 123- 124.

جذرية تحد من تأثيره دون أن تخلق منها مضاعفات سلبية .

رأينا في حل هذا الاشكال هو رأي أهل البيت عليهم السلام ، وهل للمسلم المؤمن إلا أن يسلك طريقهم ويأخذ برأيهم ؟ الحل هو الزواج المؤقت (المتعة) .

قال العقاد ان مؤلف الطباع هو ما أقره الاسلام من إباحة زواج المتعة ومنعها يضر بالمجتمع ويعقد مشكلات النوع الانساني الضخامة⁽²¹⁾ .

ولو لم يكن الزواج المؤقت علاجاً شافياً لحل مشكلات الشباب فهل يمكن أن يبيحه رسول الله لأصحابه ؟ وهل يمكن أن يعتبره السلف الصالح رحمة من الله رحم بها عباده ؟ يوافقنا على هذا الرأي الاستاذ أحمد حسن الباقوري حيث قال : « إذا كان لنا أن نختار رأياً تقوم الحجة به ، وتتوافق الدلائل عليه ، فهو أن نكاح المتعة مباح إذا دعت اليه ضرورة ، ومستندنا في هذا أمران :

احداهما : إباحة رسول الله ﷺ لأصحابه هذا النكاح وقد شكوا إليه الغربية وثانيهما : اعتبار السلف الصالح هذا النكاح رحمة رحم الله بها عباده ثم تابع قوله :

وبهذا النظر تخيرنا القول بإباحة هذا النوع من الزواج وارتأينا ما يراه فقهاء أهل البيت من مشروعية مشروعة دائمة غير منسوخة فهم في هذا كانوا من سعة الأفق وبعد النظر ب بحيث لا يملك المسلم المنصب إلا أن يسلك طريقهم ويأخذ برأيهم إيشاراً للحق وابتغاء صالح المسلمين⁽²²⁾ .

إن اسكات صرخ الكبت في قلوب الشباب المراهقين بشتى الوسائل أو استعمال القوة الخارجية في الرقابة والوعظ والارشاد ، أو الاباحة الجنسية والاستهانة والزفاف أو الزواج الدائم للمبكر المراهق . كلها حلول فاشلة غير ناجحة . وأفضل حل للحفاظ على طهارة نفوس شبابنا وعدم انزلاقهم في إغراءات الحياة الكثيرة هو الزواج المؤقت فهو رحمة من الله لعباده لتصريف طاقاتهم الجنسية بطريقة مشروعة نظيفة عادلة⁽²³⁾ . وعلينا أن نكون موضوعيين متحررين جهدنا من روابينا وتقاليدنا لنكون أقرب إلى الواقعية وأبعد عن التهريج العاطفي .

الحالة الثالثة - وهي ملك اليمين

هذه الحالة نادرة جداً ولكن الاسلام المعروف بشموليته لم يترك أي حالة من حالات المجتمع إلا ووضع لها قانوناً وأحكاماً تتناسب مع ظروفها وأسبابها وقد أعطى الاسلام أحكام هذه الحالة (ملك اليمين) بالأية الكريمة الآتية : « ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينکح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بآيمانكم بعضكم من بعض فانکحوهن باذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخذان فإذا أحصنَ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من

(21) راجع عثمان بن عفان للعقد ص 38.

(22) مع القرآن للأستاذ الباقوري ص 178.

(23) منهاج الصالحين للإمام الحكيم والبيان للمرجع الإمام الخوئي .

العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وان تصروا خير لكم والله غفور رحيم ﴿24﴾
 هؤلاء ملك اليمين ، هم العبيد وحالتهم تشكل وضعًا شاذًا في المجتمع نتيجة ترببات
 مزنة مرت بها الإنسانية في طورها البدائي من الحضارة . ولم تخلي أي أمة منهم هذه الحالة
 الغريبة عن فطرة الاسلام الانسانية ، أفرزتها العلاقة الظلية المشتركة بين العبد ومالكه .

وقد وقف الاسلام وقفة جبارة ليقضي على هذه الحالة الشاذة مسخراً كل ما عنده من
 إمكانيات ، ففرض عتق الرقبة على أكثر المخالفات والأخطاء التي يقع فيها المسلم ، وذلك
 للتکفير عن خالفاته . فشجع على العتق وحث عليه ﴿25﴾ . لأجل أن يحرر جميع المستعبين
 ﴿الذين ولدتهم أمهاتهم أحرازا﴾ . إن الاسلام ، الدين الانساني ، يرفض العبودية لغير
 الله ، ويساوي بين البشر في جميع الحقوق والواجبات ، وقد أوجد حلاً ناجحاً لكل معضلة
 يقع فيها الانسان ولجميع الحالات الشاذة التي ابتلي بها المجتمع . والمستعبد يعطى من الزكاة
 لتحرير ما تحت يده من نظرائه في الخلق . لأن الناس صنفان : إما أخ لك في الدين أو نظير
 لك في الخلق ﴿26﴾ .

حرية المرأة القانونية والمالية في الاسلام :

أعطى الاسلام المرأة حريتها القانونية والمالية إلى أبعد الحدود ، فلها الحق أن تتصرف
 بأموالها كما يتصرف الرجل سواء بسواء . فتتبع وتتساجر وتعقد الصفقات ، وتوjer البيوت
 وترهنهما وتقوم بالغرس والزراعة والمحصاد كما تشغله عند الضرورة القصوى في المعامل
 والمصانع في حدود ما يليق بها من أعمال . ولا يجوز للزوج أن يأخذ منها شيئاً بغير رضاها
 فهي تتصرف بأموالها كما تشاء عملاً بقوله تعالى :

﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا ،
 وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألاوا الله من فضله ، إن الله كان بكل شيء عليما﴾ ﴿27﴾ .

هذا ما حصلته المرأة في ظل الدين الاسلامي العادل فأعطتها ما كانت محرومة منه في
 الجاهلية ، وقد قارن عمر بن الخطاب بين حال المرأة في الجاهلية فقال : والله إننا كنا في
 الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم ﴿28﴾ .

بعد هذا العرض الموجز نستطيع القول أن المرأة استنشقت في ظل الاسلام وحكمه
 العادل روح الحرية ، مما أعطاها الثقة بنفسها بعد أن لاقت ما لاقت من الاضطهاد والاهانة ،
 وبعد أن كان يظن أنها خلقت العوبة للرجل . وخدمة لأولاده . فقد جعلها الاسلام مساوية
 للرجل » وفرض عليها ما فرض على الرجل من صيام وصلاة وحج وزكاة وغير ذلك من
 واجبات قال سبحانه وتعالى :

(24) النساء الآية 25.

(25) راجع فصل النظام المالي - باب الكفارات .

(26) راجع وصية الامام علي مالك الأشتر في ولاته على مصر .

(27) سورة النساء الآية 32.

(28) الاسلام والمرأة للاستاذ محمد سعيد الأفغاني ص 24.

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِن الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَفِيرًا ﴾⁽²⁹⁾ .

وبعد أن كانت المرأة تباع وتشرى عند اليونان القدماء كما كان يسمح لها عندهم بأن تتزوج بأكثر من رجل . والعرب في الجاهلية اعتبروها متعاراً يورث إذا سلمت من الواد . والفراءنة اضطهدوها واحتقروها ، والصينيون حبسوها خوفاً من تسرب شرها ، وهكذا كان حالها عند شعوب الأرض قاطبة ، جاء الإسلام فانتشلها من هوة سحيقة وجعل لها المرتبة التي تليق بها كأنسان كامل وساواها بالرجل . فلان فرق بين مسلم ومسلمة وبين مؤمن ومؤمنة . . . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّافِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَائِشَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فَرِوْجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ أَعْدَدْنَاهُنَّ لَهُنْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾⁽³⁰⁾ .

لقد ساوت الآية بينها في العمل والجزاء ورسمت لكل منها طريق السعادة والفوز برضوان الله ونعمته . إذا كان هناك من تفاوت بين الجنسين في بعض مواد التشريع مستمدًا من الأعباء والتبعات الملقاة على عاتق المرأة ، وقد يكون هذا لمصلحة أدركها المشرع ، وعلى أساسها ثم التعاون بين الزوجين .

شهامة المرأة المسلمة

تحصنت المرأة المسلمة بالشهامة والعفة والكرامة ، وقد ثمنت بقسط وافر من الحرية التي مارستها ممارسة صحيحة ، فاختلطت بالجمهور وسمعت خطب الخلفاء وحضرت المحاضرات التي كان يلقاها الخطباء البلغاء أمثال علي بن أبي طالب (ع) وعبد الله بن العباس وغيرهما .

وكان لها مواقف بطلية سجلتها التاريخ على صفحاته الناصعة نذكر بعضًا منها . لما سار الحجاج بن يوسف إلى مكة وحاصرها وضرب الكعبة بالمجانيق ، وأرغم أهلها على طلب الأمان » وانضم اليه بعض اتباع ابن الزبير وغيرهم من أقربائه . بقي عبد الله بن الزبير في عدد قليل من أنصاره . ولما أيقن أنه مقتول لا حالة ، دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر وقال لها : يا أماه ! قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ، ولم يبق معي إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة . والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا ! فما رأيك ؟

فقالت : « أنت أعلم بنفسك ؛ إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعوه ، فامض له ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك غلامان بني أمية يلعبون بها .

وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن قتل معك ، وإن قلت : كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين .

(29) سورة النساء الآية 124

(30) الأحزاب الآية 35 .

كم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن . فقال : يا أماه ؟ أخاف إن قتلتني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني .

فقالت : يا بني ! إن الشاة لا تتألم بالسلخ بعد ذبحها ، فامض على بصيرتك واستعن بالله ، فقبل رأسها وقال : هذارأي ، فطفقت أمه تدعوه له وتشجعه ⁽³¹⁾ .

ومضى عبد الله في طريق الحق يقاوم ظلم الأمويين المنحرفين وعميلهم الحجاج بن يوسف المشهور بظلمه وقوسنته وفظاظة طبعه ، وكان نصيبيه ان قتل وصلب كما كان يتوقع . وبعد أيام من صلبه مرت أمه أسماء الشجاعية البطلة ، وقالت للمحاجج السفاح : أما آن لهذا الفارس أن يترجل ؟ . وسارت كلمتها على لسان كل إنسان حتى هذا الزمان .

خطبة السيدة زينب (ع) في مجلس يزيد في الشام :

وقفت السيدة زينب في مجلس يزيد والأباء والأئمة يملأون نفسها ، وقد أسمعته من التوبيخ والتقرير غير هيبة ولا وجلة ، بل تعدت التنديد والتهديد مستصرفة قدره ، مستنكرة جرمته الشنعاء .

قالت عليها السلام : « ثم كان عاقبة الذين أساءوا والسواء ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءون ⁽³²⁾ » .

أطنت يا يزيد أنه حين أخذ علينا بأطراف الأرض » وأكتاف النساء ، فأصبحنا نساق كما يساق الأسرى ، ان بنا على الله هوانا ، وبك عليه كرامة .

وإن هذا لعظيم خطرك ! فشمخت بأنفك ، ونظرت في عطفك جذلاناً فرحاً حين رأيت الدنيا مستوسة لك ، والأمور متتسقة عليك ، وقد أمهلت ونفست ، وهو قول الله تبارك وتعالى :

﴿ ولا يحسن الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نحي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴿⁽³³⁾﴾ .

أمن العدل يا ابن الطلقاء تحديرك نسائك وامائلك ، وسوقك بنات رسول الله ﷺ ؛ وقد هتك ستورهن وأصلحت أصواتهن ، متكتبات تجري بين الآباء ، ومحدو بين الأعداء من بلد إلى بلد ، لا يراقبن ولا يؤذين يتشفهن القريب والبعيد ، ليس معهن ولد من رجالهن ! وكيف يستبطأ في بغضتنا من نظر الينا بال بشق والشنان والأحن والأضغان .

أقول : « ليت اشيادي بيذر شهدوا » ؟ ! غير متأثم ولا مستعظم وأنت تنكر ثانياً أبي عبد الله بحضورك !!

ولم لا تكون كذلك ، وقد نكأت القرحة ، واستأصلت الشابة ، باهراقك ذريعة رسول

(31) تاريخ ابن الأثيرج 4 ص 147.

(32) الروم الآية 10.

(33) آل عمران الآية 178.

الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ ونجوم الأرض من آل عبد المطلب ، ولتردن على الله وشيكًا موردهم ، ولتردن لو أنك عميت ويكمت وانك لم تقل : « فاهلوا واستهلا فرحا » .

ثم قالت : والله ما فريت الا جلتك ، ولا حزرت إلا في لحمك وسترد على رسول الله بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ برغمك ، وعشرته ولحنته في حظيرة القدس ، يوم يجمع الله شملهم ملتهم ملتهم من الشعث ، وهو قول الله تبارك وتعالى : « ولا تخسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » ⁽³⁴⁾ .

وسيعلم من برأك ، ومكنتك من رقاب المؤمنين ، إذا كان الحكم الله . . . والخصم محمد بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ ، وجوارحك شاهدة عليك .
فبئس للظالمين بدلاً أياكم شر مكاناً وأضعف جندًا .

مع أني والله يا عدو الله وابن عدوه ، استصغر قدرك واستعظم تقريرك ، غيز أن العيون عبرى والصدر حرى ، وما يجزي ذلك أو يغنى . وقد قتل الحسين عليه السلام ، وحزب الشيطان يقربنا إلى حزب السفهاء ، ليعطوهن أموال الله ، على انتهاء محارم الله .
فهذا اليدى تنظف من دمائنا . وهذه الأفواه تحلب من حومنا ، وتلك الجثث الرواكي يعتامها عسلان الفلووات .

فأثن الخلتنا مغنياً ، لتجدنا مغرماً حين لا تجد إلا ما قدمت يداك . تستصرخ يا ابن مرجانة !!! . ويستصرخ بك « وتعاونى واتباعك عند الميزان ، وقد وجدت أفضل زاد زودك معاوية قتلك ذرية محمد بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ . فوالله ما اتقيت غير الله . . . ولا شكواي إلا إلى الله . . . فكك كيدك واسع سعيك ، وناصب جهتك . فهو والله لا يرخص عنك عار ما أتيت إلينا أبداً . والحمد لله الذي ختم بالسعادة والمغفرة ، لسدات شأن الجنان فأوجب لهم الجنة ، أسأل الله أن يرفع لهم الدرجات ، وأن يوجب لهم المزيد من فضله فإنه ولي قدير » ⁽³⁵⁾ .

هذه الخطبة البليغة التي قالتها امرأة بين يدي خليفة ، كانت البداية في إيقاظ المشاعر في الشام عاصمة الأمؤمنين آذاك . ولا غرابة فهي السيدة العظيمة زينب بنت علي بن أبي طالب الهاشمية الأبية الثائرة على الظلم « التمردة على الطغيان .

حوار الزرقاء بنت عدي مع معاوية
ساهمت المرأة المسلمة المؤمنة في جميع المجالات السياسية والثقافية ، وشققت طريقها بفضل الإسلام وتعاليمه الخيرة ، وأنارت حياتها بنور العلم والإيمان . وفي الصراع الدامي بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ومعاوية في حرب صفين ظهر كثير من النساء المجاهدات اللواتي أبلبن بلاء حسناً في نصرة الحق ومساندة أهل بيته .

نذكر على سبيل المثال الزرقاء بنت عدي . كانت من ربات الفصاحة لا تعرف التملق

. (34) آل عمران الآية 169

. (35) راجع بلاغات النساء لابن طيفور .

أو المواربة ، ناصرت علي بن أبي طالب (ع) في صفين ، ولما تم الأمر لمعاوية بالحيلة والدهاء ، طلبها معاوية إليه بعد أن أوفد إلى عامله بالكوفة . ولما قدمت على معاوية دار بينها الخوار التالي : مرحباً وأهلاً ، هل تعلمين لماذا بعثت إليك ؟

قالت : سبحان الله أفي لي يعلم ما لم أعلم ، وهل يعلم ما في القلوب إلا الله .

قال : بعثت إليك أسألك ؟

« ألسست راكبة الجمل الأحمر يوم (صفين) بين الصفين ؛ توقددين الحرب وتعرضين على القتال ، فما حملك على ذلك ؟ » .

قالت : يا أمير المؤمنين ، إنه قد مات الرأس ، ويتز الدنب ، والدهر ذو غير ومن تفكير أبصر والأمر يحدث بعده الأمر .

قال لها : هل تحفظين كلامك يوم صفين ؟ فقالت : ما أحفظه . قال : أحفظه الله أبوك لقد سمعتكم تقولين : « أيها الناس إنكم في فتنة غشتم جلابيب الظلم وجارت بكم عن المحجة فيها لها من فتنة عمباء صماء تسمع لناعقها ، ولا تسلس لقائدها ، إن المصباح لا يضيء في الشمس وإن الكواكب لا تنير مع القمر ، وإن البغل لا يسبق الفرس ، وإن الزف لا يوازن الحجر ولا يقطع الحديد إلا الحديد .

إلا من استرشدنا أرشدناه ، ومن استخبرنا أخبرناه ، إن الحق كان يتطلب ضالته فأصابها .

فصبراً يا عشر المهاجرين ، والأنصار ، فكان قد اندر شعب الشتات والتآمت كلمة العدل ، وغلب الحق باطله ، فلا يعجلن أحد فيقول كيف العدل وأى ؟ ليقضي الله أمرأ كان مفعولاً .

« ألا إن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء والصبر خير عوائب الأمور . أيها الناس إلى الحرب قدماً غير ناكفين ولا متشاشين فهذا يوم له ما بعده . ثم قال معاوية :

والله يا زرقاء لقد شركت علياً في كل دم سفكه .

فقالت : أحسن الله بشارتك يا أمير ، وأدام سلامتك مثلك من بشر بخير وسر جليسه .

قال لها : وقد سرك ذلك ؟ قالت : نعم والله لقد سرفني قولك فأنا لي بتصديق الفعل .

فقال معاوية : ولو فاؤكم له بعد موته ، أعجب إلي من حبكم له في حياته ، أذكرت حاجتك ، قالت : يا أمير أني قد آليةت على نفسي أن لا أسأل أميراً أعنلت عليه شيئاً⁽³⁶⁾ .

(36) راجع : اعلام النساء لعمر رضا كحالة والعقد الفريد لابن عبد ربه وبالغات النساء لابن طيفور .

الفصل الثالث

أهل الذمة

الذمة في اللغة هي العهد والضمان والأمان ، وأهل الذمة هم اليهود والنصارى الذين يعيشون في بلاد الاسلام ، وقد أطلق عليهم لقب أهل الذمة لأن النبي أعطاهم ذمته وأمانته . وقد دعاهم القرآن «أهل الكتاب» نسبة إلى الكتاب المقدس : التوراة والانجيل ، وقد أثني عليهم وأوصى بهم خيراً . وفي الحديث النبوى أقوال كثيرة بمحاسنة أهل الذمة⁽¹⁾ .

كان النبي (محمد) ﷺ يعرض على النصارى واليهود دينه « فإن قبلوه دخلوا الاسلام ، وإن رفضوه لم يكرههم على الدخول فيه ، وإنما يسلّمون أن يعطوا الجزية وهي ثمن حياة المسلمين لهم ليؤمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وكف الأذى عنهم . وكان الخلفاء الراشدون إذا أنفقوا جيشاً لفتح أو حفاظ قوادهم بأهل الذمة خيراً ولا سيما النصارى ورهبانيتهم .

وكان مقدار الجزية ونوعها مختلفاً باختلاف الأحوال ، وعلى مقتضى التراضي بين المسلمين وأهل الكتاب ، ولكل طائفة شرط مختلف باختلاف البلاد ، ولكنها في كل حال تقضي على المسلمين بحمايتهم والدفاع عنهم . فإذا امتنعوا عن أداء الجزية امتنع المسلمين عن حمايتهم ، وإذا عرض للمسلمين ما يمنع حمايتهم جاز لأهل الذمة الامساك عن الدفع .

وفي تاريخ الفتوح عهود كثيرة كتبت لأهل الذمة ، عاهدتهم المسلمين فيها بحمايتهم وتسهيل أعمالهم ، في مقابل ما يؤدونه من الجزية ، ككتاب النبي ﷺ إلى صاحب ايله (في العقبة) وإلى أهل أذرح في أثناء غزوة تبوك . وهذا ما ورد في كتاب النبي ﷺ إلى صاحب ايله : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله و محمد رسول الله ليحيى بن رؤبة وأهل سقفهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وأنه طيب لمن أحده من الناس ، وأنه لا يجعل أن يمنعوا ما يردونه ولا طريقاً يردونه من بر أو بحر »⁽²⁾ .

(1) التمدن الاسلامي ج 2 ص 376

(2) سيرة ابن هشام ج 3 ص 40

واقتدى بالنبي ﷺ قواده أثناء الفتح بالشام ومصر والعراق وفارس ، وكتبوا العهود لأهل الذمة على نحو ما تقدم في مقابل الجزية ، منها عهد أبي عبيدة إلى أهل بعلبك هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك » رومها وفرسها وعربها على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم ، وأهل المدينة وخارجها وللروم أن يرعوا سرّحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً ، ولا ينزلوا قريبة عاصمة فإن مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا حيث شاؤوا ، ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا ، ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها ، وعلى من أقام منهم الجزية والخروج ، شهد الله وكفى بالله شهيداً »⁽³⁾ .

حقوق أهل الذمة :

كان أهل الذمة أحراراً في إقامة شعائرهم الدينية ، وكانوا يرجعون في أحواهم الشخصية إلى رؤسائهم الدينيين ، على أن الولاة المسلمين استوجوا من رجال الكنائس القرية من المساجد أن يمسكوا عن قرع النواقيس في أوقات صلاة المسلمين .

وقد جاءت بعض الظروف المناسبة للنصارى فبنوا كنائس جديدة ، وأصلحوا كنائس قدية وأظهروا الصليبان في السير والمواكب ، وقال آدم متر :

« لم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل في الشعائر الدينية لأهل الذمة ، بل كان يبلغ من بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم ، وإن الحكومة في حالات انجذاب المطر ، كانت تأمر بتنظيم مواكب يسير فيها النصارى وعلى رأسهم الأسقف » واليهود وعلى رأسهم النافخون بالأبواق »⁽⁴⁾ .

وقد سمح لأهل الذمة في ظل الدولة الإسلامية مزاولة المهن والحرف والأعمال التي يشأنون ، كما كانت لهم حرية السكن والانتقال إلى شاؤوا ورغبوا . كما ضمنت الدولة الإسلامية الكيان الخاص لكل ديانة ، فكان الذي إذا مات ، يترك أمر تركته إلى ملته فلا يأخذ بيت مال المسلمين شيئاً منها ، بعكس المسلم فإنه حين يموت يتولى بيت المال أمر تركته .

وأما حياة الذي فقد اختلف الفقهاء ، في تقدير الديمة فهي عند أبي حنيفة وابن حنبل كدية المسلم ، وعند مالك فدية اليهودي ، أو النصارى نصف دية المسلم وتترى الحنفية أن المسلم إذا قتل ذمياً يقتل به .

وقد أباح الإسلام للمسلم أن يتزوج كتيبة ، يهودية أم نصرانية ، ولو أقامت على دينها .

(3) فتوح البلدان للبلاذري ص 130 .

(4) الحضارة الإسلامية لأدم متر ج 1 ص 70 .

الذميون والعمل :

لم يكن في التشريع الاسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الاعمال ، فكان قدمهم راسخاً في الصنائع التي تدر عليهم الأرباح الوفيرة ، فكان منهم الصيارفة والتجار والأطباء⁽⁵⁾ فاليهود اهتموا بالصيরفة والنصارى اشتهروا بالكتابة والطب .

وقال آدم متر « من الأمور التي تعجب لها كثرة عدد العمال والتصوفين غير المسلمين في الدولة الاسلامية ، فكان النصارى هم الذين يحكمون في بلاد الاسلام »⁽⁶⁾ . وقد اهتم الامويون بشأن أهل الذمة حاجتهم اليهم . ونظراً لانشغال بني أمية الأموال ، وأهل الذمة أقدر على مساعدتهم في جمعها من سواهم ، لافتقارهم في الحساب والكتابة واعمال الخارج ، استخدموهم في هذا السبيل رغم إرادتهم ، ولم يكن ذلك يهمهم من وجده ديني لنشر الاسلام أو حصر النصرانية .

وكان النصارى في زمن بني أمية يدخلون المساجد ويرون فيها فلا يعترضهم أحد والأنخطل يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن ، وهو سكران ، والصلب في صدره ، ولا يعترضه أحد ، ولا يستنكفون من ذلك لأنهم كانوا يستعينون به في هجو الأنصار⁽⁷⁾ .

ولما قويت شوكة النصارى واتسعت سلطتهم في الحكم ، قاومهم المسلمون . ففي عام 135 هـ أمر الخليفة المتوكل الا يستعن بأهل الذمة في الدواوين واعمال السلطان التي تجري أحکامهم فيها على المسلمين . وفي سنة 296 هـ علا أمر النصارى وغلبوا على الكتاب ، فامر المقتندر بما أمر به المتكول . من رفضهم وأطراحهم عن الخدمة . ومن طريق الخير ان المتكول بعد ذلك عاد فاستعلن بدليل بن يعقوب النصري كمسئول عن نفقة قصره المسمى بالجعفري⁽⁸⁾ .

الأعياد والمواسم :

كان للنقوذ الفارسي تأثير واضح في الحياة الاجتماعية والفكرية للدولة الاسلامية ، وقد شمل هذا التأثير كل مظاهر الحياة عامة ، حتى طرق الأكل ونوعه ـ ومراسم الزواج ،

(5) كتاب الخراج لأبي يوسف القاضي ص 69 وانظر المقدسي ص 183 وفي عام 210 هـ قام الطبيب جبريل وزميله ميخائيل باختيار النسطوري فقال أبو نواس :

سألت أخي أبا عيسى وجبريل ، له عقل
فقلت : الرابع تعجبني فقال : كثيرها قتل
فقلت له : فقدر لي فقال ، قوله فصل
رأيت طبائع الانسا ن أربعة ، هي الأصل
فاربعة لأربعة لكل طبيعة رطل
الديوان ص 356.

(6) الحضارة الاسلامية لأدم ميرز ج 1 ص 68-69.

(7) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ج 2 ص 389.

(8) تاريخ الطبرى ج 3 ص 438.

والاحتفال بالأعياد . ففي بغداد مثلاً نلاحظ أن الميل للأزياء الفارسية أخذ ينمو ويضطرد ، وكذلك الاحتفال بالأعياد الفارسية القديمة وخاصة بالنيروز والمهرجان والرام . أما الاحتفال الكبير فقد كان بالعديد من الأصحي والفطر . « وكانوا إلى جانب النيروز الفارسي أكبر الأعياد عند أهل بغداد⁽⁹⁾ وأهل البصرة يعلقون الأضاحي سنة ثم تباع لعيد النحر ، الواحدة منها عشرة دنانير⁽¹⁰⁾ .

كان الخلفاء يحتفلون بالعديد من احتفالاً دينياً ، فيؤمنون الناس في الصلاة ، ويلقون فيهم الخطيب عن فضائل العيد وما يجب على المسلمين إتباعه للتحافظ على شعائر الإسلام ، ولا غزو فقد كانت مظاهر الإسلام تتجل في الاحتفال بهذه العيدان في الأمصار الإسلامية وعلى الأخص في بغداد وبيت المقدس ودمشق . أما المسلمين الذين كانوا يغدون إلى مكة من كافة أنحاء العالم لأداء فريضة الحج ، ففي اليوم السابع من شهر ذي الحجة بعد صلاة الظهر كان الخطيب يخطب في المسجد الحرام خطبة بلية ، يشرح لهم فيها مناسك الحج ثم يأخذون في أداء شعائره ، ويرمون الجمار بمنى ، ويضحون أضحيات العيد .

وذبح ضحية في عرفة هي من شعائر الحج المباركة تذكيراً بالنبي إبراهيم عليه السلام ، الذي أراد أن يضحى بابنه عندما رأى في المنام أنه يذبحه . وفعلاً إنما لذكرى كربلة تتشعر لها الأبدان . إنها الصدق في الإيمان ما بعده صدق . قال تعالى في كتابه العزيز .

﴿فَلِمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بْنَي أَرِنِي فِي الدَّنَمِ أَنِ اذْبَحَكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرِى قَالَ : يَا أَبَتِ افْعُلْ مَا تَؤْمِنْ سَتَجْدِنِي أَنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ، فَلِمَّا اسْلَمَهُ وَتَلَهُ لِلْجَيْنِ ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ ، قَدْ صَدَقْتِ الرُّؤْيَا يَا اتَّا كَذَلِكَ تَجزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنْ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ، وَفَدِينَاهُ بِذِبْحِ عَظِيمٍ﴾⁽¹¹⁾ .

ويقيت هذه الذكرى العظيمة يضحون المسلمين بذبح في عرفة يوم عيد الأضحى وقد كان الاحتفال بعيد الأضحى والفطر يبلغ متنه الروعة والاهبة في البلاد التي يكون فيها الشعور الإسلامي قوياً .

« وكانت الأنوار تسطع في أرجاء المدن الإسلامية في ليالي العيد وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير ، وتزدحم الانهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات ، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل ، وتتلألأ الأنوار الساطعة من قصور الخلافة ، وقد لبست الجماهير الطليطلة السود تشبه بالخلفاء العباسيين الذين اتخذوا السواد شعاراً لهم . وكان بعضهم يتحدى بدل العمائم قلنس طولية مصنوعة من القصب والورق مجللة بالسواد كذلك ، ويلبسون بدل الدروع دراعات كتب عليها « فسيكفيفهم الله هو السميع العليم »⁽¹²⁾ .

(9) تاريخ الطبرى ج 3 ص 170 .

(10) الأغاني ج 3 ص 82 .

(11) سورة الصافات الآيات 102-103-104-105-106-107 .

(12) حضارة الإسلام في دار السلام لنخلة المدور ص 22 وما بعدها .

وعيد الفطر من الأعياد التي اهتم بها المسلمين ، وما زالوا ، لأن شهر رمضان شهر الصيام والبركة ، يتجلّى فيه ممتهن الكرم والمسخاء للميسورين عند المسلمين . حيث تقام المأدبة وولائم الافتراض للصائمين . وما يحكي : عن الوزير ابن عباد « إن داره كانت لا تخلو في كل ليلة من ليالي رمضان من ألف نفس تفترض فيها ، وان أصدقاؤه وأقرباؤه في هذا الشهر كانت تبلغ مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة »⁽¹³⁾ .

والاحتفال بعيد الفطر والأضحى كان يبلغ ممتهن الروعة والأبهة في البلاد التي يكون فيها الشعور الإسلامي قوياً . كمدينة طرطوس حيث أصبح عيداً الفطر والأضحى فيها من خاسن الإسلام⁽¹⁴⁾ .

ثم عيد المولد النبوى الشريف كان يحتفل به أهل الصلاح والورع ، يحكي أن أول من احتفل به احتفالاً عظيماً ، الأمير أبو سعيد مظفر الدين الأربلي المتوفى عام 630 هـ ؛ وفي ذلك العيد كانت العادة جارية بقراءة السيرة النبوية مع ايات الكلام في قصة المعراج ، فكان ذلك كوناً كبيراً على تكوين السيرة النبوية⁽¹⁵⁾ ويزوي ابن خلkan « انه كان يفدي الى هذا العيد الذي يقيمها الأمير طوائف الناس من بغداد والموصى والجزيرة وسنجراء » بل من فارس ؛ منهم العلماء المتصوفون والوعاظ ، والقراء « والشعراء . وكان الأمير يقيم في الشارع الأعظم مناضد عظيمة من الخشب ، ذات طبقات كثيرة ، بعضها فوق بعض ، تبلغ الأربع والخمس ، ويزينها مجلس عليها المغنون والموسيقيون ولاعبو الخيال حتى أعلاها ؛ ولم يكن للناس شغل إلا التمضى أمام تلك المناضد والتتمتع بما يقدم لهم ؛ وكان الأمير في ليلة المولد نفسها يركب في الشارع وبين يديه الشموع العظيمة ، كل منها مربوط في بغل ؛ وكان العيد ينتهي بموكب ووليمة »⁽¹⁶⁾ .

الاحتفال بالنوروز والمهرجان :

النوروز هو من أول أيام السنة عند الفرس وهو من المواسم القديمة ، اتخذه لأحياء العام الجديد ، ويقع عند الاعتدال الربيعي أي عند ابتداء فصل الربيع . وقد اعتمدته ملوك خراسان سنة جديدة فاتخذوا هذا اليوم موسمًا يلبس فيه جنودهم ملابس الربيع والصيف ، يختلفون بعيد النيروز . وأول من اتخذ هذا اليوم على ما ذكره البيروني هوجم جشيد . وهو كما يقول براون نقلًا عن المصادر العربية سليمان بن داود⁽¹⁷⁾ .

وقد أبطل المسلمين الاحتفال بهذا العيد في بلاد الفرس ، غير أنه عاد في العصر العباسي الأول . وقد أضر نظام النيروز القديم بالزارعين ضرراً بليغاً ، لأن التقويم الجديد قدم يوم النوروز ، فكان يحيي والزرع أخضر في الوقت الذي يجب أن تدفع فيه الضرائب .

(13) يتيمة الدهر للتعالبي ج 3 ص 36.

(14) تاريخ الاسلام لحسن ابراهيم حسن ج 2 ص 435.

(15) الحضارة الاسلامية لأدم مترج 2 ص 293.

(16) ابن خلkan ج 1 ص 6.

(17) الآثار الباقية للبيروني ص 215.

لذلك اجتمع الملائكة في عهد هشام بن عبد الملك الأموي (105 هـ - 125 هـ) وشكوا إلى عامله ما يجدونه من الصعاب وسألوه أن يؤخر النوروز شهراً، فأبى بعد أن كتب إلى الخليفة .

كان الفرس في عيد النوروز يتهددون المدaiا المختلفة ومنها السكر والملابس ، يقول البيروني : « إن قصب السكر إنما ظهر في مملكة جم يوم النوروز » ولم يكن يعرف قبل ذلك الوقت ، وهو انه رأى قصبة كثيرة الماء ، وبعد أن مج شيئاً من عصارتها ، وذاقها ، وجد فيها حلاوة لذيذة ، فأمر باستخراج مائتها وعمل منها السكر وتهادوه في اليوم الخامس تبركاً به . . . وجرى الرسم للملوك خراسان فيه ، ولبسوا ثيابهم الرييعية والصيفية . كما اعتادوا الاغتسال بالماء ، ورروا بعضهم بعضاً به في ذلك اليوم تبركاً ودفعاً للأمراض »⁽¹⁸⁾ .

ولا غرابة إذا قلد الخلفاء العباسيون الفرس في الاحتفال بيوم النوروز فقد قلدتهم أيضاً في نظم الحكم وفي طرق الطعام وصناعة الأزياء ، واحتفلوا بأعيادهم التي أصبحت من الأعياد الرسمية عندهم ونخص بالذكر العصر العباسي الأول .

الألعاب وأنواع التسلية :

شغل العرب أوقات فراغهم بعض ضروب التسلية كالصيد وسباق الخيل . كما كان بعض خلفاء بي أمية كلفين بالصيد لفوائد كثيرة ، اختصرها الفخرى فقال : كان الصيد يرمي إلى ثغرين العساكر على الركض والكر والمعطف وتعويدهم الفروسية . وادمانهم بالرمي بالنشاب . والضرب بالسيف والدبوس » واعتياض القتل والسفك » وتقليل المبالغة بإراقة الدماء وغضب النفوس ، ومنها أن حركة الصيد حركة رياضية تعين على الهضم وتحفظ المزاج . وكان يزيد بن معاوية من أشد الأمويين كلفاً بالصيد . فكان يلبس كلام الصيد الأساور من الذهب والجلالج المنسوجة منه ، ويخص لكل كلب عبداً يقوم على خدمته »⁽¹⁹⁾ .

وكان سباق الخيل من أجمل أنواع التسلية عند الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة وعامة الشعب على اختلاف طبقاته . ويقال ان هشام بن عبد الملك كان أول من أقام حلبات السباق وقد اشترى في السباق في عهده نحو أربعة آلاف من خيله وخيوط الأمراء ، ولم يسبق لهذا السباق مثيل ، حتى أن بعض الأميرات كن يتدرّبن على ركوب الخيل ويشتركن في السباق»⁽²⁰⁾ .

وبلغ من شغف الناس سباق الخيل واهتمامهم به ، ان كان السابق يستولي على الحصان المسبوق في بعض الأحيان ، وتنافس الخلفاء والوزراء في تربية خيل السباق»⁽²¹⁾ .

ومن أنواع ألعاب التسلية عند العرب :

(18) الآثار الباقية للبيروني ص 218-219.

(19) أنظر تاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم حسن ج 1 ص 549.

(20) مروج الذهب للمسعودي ج 3 ص 188-189.

(21) الحضارة الإسلامية لأدم متز ج 2 ص 215.

الكرة ، وكانوا يتدافعونها بالصوافة والكرة والمقلة وهم عودان يلعب بهما الصبيان ، فيرمي الصبي بالقلة في الهواء ، ثم يضررها بمقلاة في يده ، وهي خشبة طولها ذراع ، فتستمر القلة في حركتها وإذا وقعت كان طرفاها مجافين للأرض ، فيضرر أحد طرفيها فستدير وترتفع ، ثم يعرضها بالمقلة فيضررها في الهواء فتستمر ماضية⁽²²⁾ .

ومن أنواع التسلية التي عرفها العرب في العصر العباسي الأول لعبه التنس ويسمونها لعبة (القراب) وكان النساء يمارسن الرمي بالسهام . ولم يكن الرمي في بادئ الأمر مقصوراً على الطبقات المحرفة فحسب ، بل كثيراً ما كانت فتيات الطبقة الراقية يشترين فيه أيضاً .

الملابس

سار الخلفاء الراشدون على سنته النبي ﷺ في ملابسهم ، فلم يتأنفوا ، بل كان الزهد في عرض الدنيا من أبرز صفاتهم . وقد قدم على أبي بكر ملوك من أهل اليمن عليهم الخلل الموشأ بالذهب والملحلاة بالتبigan . فلما رأوا ما على الخليفة من الزهد والتواضع ذهباً مذهبة وزرعوا ما كان عليهم من أغخر الشياط ، حتى إن ذا الكلاع ملك حمير رؤي يوماً في سوق المدينة يمشي وعلى كتفه جلد شاة ، ففرغت عشريرته وقالوا له :

« فضحتنا بين المهاجرين والأنصار ، قال : فأردتم أن تكون ملكاً جباراً في الجاهلية جباراً في الإسلام ؟ لا والله لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع والزهد في هذه الدنيا »⁽²³⁾ .

وكان سلمان الفارسي عامل عمر بن الخطاب على المدائن يلبس الصوف ، ويركب الحمار ببردعته ، ويأكل خبز الشعير . وكان أبو عبيدة بن الجراح يظهر للناس وعليه الصوف الجافى ، فلاموه على ذلك وقالوا له : إنك بالشام وحولنا الأعداء ، فغير من زيك وأصلاح من شارتكم فقال : ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه في عصر الرسول ﷺ⁽²⁴⁾ .

ولباس البدو مختلف عن لباس الحضر ، أكثره يتكون من قباء طويل مشقوق من الوسيط ، ومتدل إلى العقب ، ومربوط من الوسط بحزام من الجلد ، ولا يزال البدو رجالاً ونساء يستعملون هذا اللباس حتى اليوم .

وقد أصبح القباء ، لباس البدور ، لباساً رسمياً لرجال الدولة حوالي العام 300 هـ حتى كان لا يدخل المقصورة في يوم الجمعة إلا من كان من الخواص المتميزين بالأقبية السود ، وقد حضر بعضهم لابساً دراعة فرد ، حتى مضى ولبس القباء . وكان هذا الرسم جارياً ومستخدماً به فيسائر مقاصير الجماعات ، ثم بطل فيها بعد ذلك⁽²⁵⁾ .

وفوق القباء كانوا يلبسون العباءة المصنوعة من وبر الجمال التي يستعملها اليوم الأغنياء من رجالاتنا في المناسبات الرسمية .

(22) المخصوص لابن سيدة ج 3 ص 17، 19.

(23) مروج الذهب للمسعودي ج 1 ص 413.

(24) المصدر نفسه ج 1 ص 418.

(25) راجع الحضارة الإسلامية لأدم متر ج 2 ص 223.

أما لباس الرأس فهو العمامة ، من اللون الأبيض ، كان مختلف حجمها تبعاً للمركز العلمي وللسن ، فالشاب يصغر حجم عمامته عن الشيخ . وكانتا يلقون الطيسان فوق العمامة ، وهو عبارة عن منديل كبير متدلٍ إلى الكتفين ليقي الرقبة حرارة الشمس⁽²⁶⁾ .

وفي عهد أبي جعفر المنصور صار لباس الفلسفة والدراريج لباساً رسمياً أمر به الخليفة في عام 153 هـ . يكتب على الدراءة بين كتفي الرجل : فسيكفيكم الله ؟ كما أمرهم بتعليق السيف في أوساطهم . ومن طريف ما يروى في هذا الموضوع ، ان دخل أبو دلامة على المنصور ، وعليه قلنسوة طويلة وبقية الملابس التي أمر بها الخليفة ، فقال له :

كيف أصبحت يا أبو دلامة ؟ قال : بشر . قال المنصور : كيف ؟ وبilk ! قال : ما ظنك برجل ، وجهه في نصفه ، وسيفه في أسته ، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره ! فأمر المنصور بتغيير الزي ، عندها قال أبو دلامة :

وكنا نرجي من إمام زيادة فزاد الإمام المصطفى في القلانس
تراما على هام الرجال كأنها دنان يهود جلت بالبرانس

وهذه القلانس كانت تدعم بعيدان من داخلها⁽²⁷⁾ .

أما الرشيد فكان لا يأنس للقلانس وما رغب في التجديد الذي أحدهه المنصور . يروي الجاحظ : أن العماني الراجز دخل على الرشيد لينشد شعرأً وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج ، فقال له : إياك أن تتشدّني ، إلا وعليك عمامة عظيمة الكور⁽²⁸⁾ .

ولما جاء المعتصم 833 م أعاد ليس القلانس تشبهأً بملوك الأعاجم ، فلبسها الناس اقتداءً بفعله وسميت المعتصمات . ولكن المستعين 862 م أمر بتصغير القلانس بعد أن كانت طوالاً كأقباع القضاة⁽²⁹⁾ واستحدث ليس الأكمام الواسعة التي لم تكن تعهد من قبل ، حيث جعلها ثلاثة أشبار أو نحو ذلك⁽³⁰⁾ . هذه الأكمام كانت تقوم مقام الجيوب التي يحفظ فيها الإنسان كل ما يحتاج إلى حفظه ، مثل الدنانير وغيرها . فالمهندس يضع فيها ميله « والصيرفي يجعل فيها رقاوه ، والخياط يجعل فيها الجلم ، والقاضي يضع فيها الكراسة التي يقرأ فيها الخطبة يوم الجمعة ، والكاتب يضع فيها الرقة لعرضها»⁽³¹⁾ وكان بعض العمال يحفظ المستندات في خفّه . يحكي عن الحسن بن مخلد ، وزير المعتمد 870 م ، أنه لما كان كاتباً بين يدي الموفق بن المتوكل 847 م سأله يوماً : كم عنده في الخزائن من ثوب أغجه ؟ فأنخرج من

(26) تاريخ الإسلام لحسن ابراهيم حسن ج 1 ص 545.

(27) راجع الأغاني ج 9 ص 121 ..

(28) البيان والتبيين للجاحظ ج 1 ص 42 .

(29) مروج الذهب للمسعودي ج 8 ص 402 .

(30) المصدر نفسه .

(31) راجع الإرشاد لياقوت ج 1 ص 254 ومروج الذهب للمسعودي ج 6 ص 345 .

خفة قائمة طويلة كتب عليها جمل ما في الخزائن من الأمتعة والثياب ، وأجباب الخليفة بما أراد ((32)).

أما الثياب الملونة فكانت من شأن النساء والأماء ، لذلك تمننها الرجال الأدباء وأصحاب المكانة . واللون الأبيض كان من ليس الرجال والنساء المهجورات ، غير ذات بعل . واللون الأزرق عرف للأحزان كان في الشرق ليس الحداد ، أما في الأندلس فكان البياض يلبس لذلك .

وكان لكل طبقة لباسها فالكتاب يلبسون الدراريم ، وهي ثياب مشقوقة الصدر ، والعلماء يلبسون الطيلسان ، والقواعد يلبسون الأقبية الفارسية القصيرة . والتجار انقسموا إلى طبقتين : الأغبياء منهم يلبسون قميص ورداء فوق السراويلات ، وهذا كان لباس الخليفة الظاهر 932 م يوم أحضر للبيعة في عام 330 هـ - 932 م⁽¹¹⁾ .

وأما المطر الذي كان يعمل من القماش المشمع للوقاية من المطر ، بحيث لا يمكن أن ينفذ إليه ، فقد جاء من الصين . وقد سأله الشاعر العباسي البحتري المتوفى 284 هـ - 897 م ، مذدوحة أن يهب له مطرًا يتنقى به المطر^(٤) لذلك نرى أن أهل اليمن لم يرد ذكر المطر في كلامهم لقلة المطر في بلادهم . ولبس الجوارب كان معروفاً عند الرجال والنساء بل حد سواء^(٥) .

وكان لباس الخفاف الحمر معيناً عند العرب الكمال ، لأنها كانت من لباس المتطهرين والمخثثين والبهال .

وقد جرت العادة زمناً طويلاً حتى العصور العباسية بأن يلوى الجمواري والغلمان شعر صداغهم على شكل حرف (ن) أو على صورة العقرب.

قال أبو نواس متخنياً :

أصداءهن معقوب ت والشوارب من عبير⁽³⁶⁾

وجاء بعده ابن المعتر فذكر النون والعقرب فقال :

لوي صداغه كالنون من تحت طرّة مُسْكَة تزهي بعاج جبين

وقال أيضًا :

ربم يتيه بحسن صورته
وكأن عقرب صدغه وقف
عبيث الفتور بلحظ مقلته
لما دنت من نار وجنته (١٧)

(32) البحري في الأداب السلطانية لابن الطقطقى ص 298.

³³ (الخمارنة الإسلامية لادم ميرج 2 ص 232 ..)

٨٥ - (٣٤) ديوان الحترى - ج ١ - ص

(35) الأغانى - (١) ص ٦٧.

(36) دیوار آی نواسہ ص ۸۲

⁽³⁷⁾ ديوان ابن المعز ج ٢ ص ١٦٠ و

أما عن الشعر المصيغ فحدث ولا حرج .

كان القوط الشرقيون يصبغون شعورهم باللون الأخضر ؛ فلما رأهم أهل أوروبا الجنوبية ذعوا منهم . وأهل تراقيه يصبغون شعورهم الشقراء باللون الأزرق . وفي بلاد الشرق كانت عادة خضاب الشعر منتشرة ، سواء في جزيرة العرب أو في إيران⁽³⁸⁾ . وما يلاحظ أن الذين كتبوا ترجمة الرجال كانوا حريصين على أن يذكروا في ترجماتهم إن كانوا يخضبون شعورهم أم لا .

وما يبدو أن عادة الخضاب هذه كانت نادرة بين الأغنياء . ورد في الفهرست في ترجمة قصيرة كتبها ابن النديم لابي الحسن المنجم ، وكان أدبياً ومن مجالس الخليفة ، ذكر مؤكداً أنه كان يخضب إلى أن مات عام 325 هـ وله من العمر ست وسبعون سنة⁽³⁹⁾ .

مجالس الغناء والطرب

كان لتردد أشراف العرب على بلاط كسرى وقصر أثر بعيد في حياتهم الاجتماعية فقد نعموا بسماع الموسيقى والغناء وغنى هذه التزعة عندهم طبيعة بلادهم حيث كان لها أثر واضح في تقدم فن الغناء . فالأسفار البعيدة والمتابعة تضفي المسافر أثناء سيره في الليل والنهر ، ووعورة الطرق ومستنقعاتها تقلق راحته فكان لا بد له من الحداء وهو راكب إبله . من هنا جاءت أوزان الشعر الجاهلي المنسجمة مع حياة الجاهليين آنذاك ، والمتناوبة مع أحاسيسهم ومشاعرهم .

ولما ظهر الإسلام لم يغفل العرب أثر الصوت الجميل ، فكانوا يختارون أجمل الأصوات في آذان الصلاة . وقد أثر عن الرسول الكريم ﷺ أنه طلب إلى بلال الحبشي أن يؤذن للصلوة لأنه كان ندي الصوت . وكذلك الحال في تلاوة القرآن الكريم واستمر الحال على هذا المنوال في عهد الخلفاء الراشدين الذين انصرفوا إلى الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام .

ولما تحولت الخلافة إلى الأمويين شاع الغزل وانتشر شعراً في الحجاز أمثال عمر بن أبي ربيعة ، وكثير عزة ، وجميل بشينة ، وقيس المجنون بحب ليلي . وقد أعجب الناس بأشعارهم ومالوا إليها وتغنو بها .

والأمويون كالعباسيين من بعدهم ، أخذوا نظام مجالسهم عن الفرس . فأردشير بن بابك هو أول من رتب الندماء في مجالس الغناء ، فجعلهم ثلاث طبقات .

أ - الطبقة الأولى : وتضم أبناء الملوك والأمراء وجلسها يبعد عشرة أذرع عن الستارة .
ب - الطبقة الثانية : وهي بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم وكان مجلسها على بعد عشرة أذرع من الطبقة الأولى .

ج - الطبقة الثالثة : وهم المصححون وأهل الم Hazel والبطالة وجلسهم على بعد عشرة أذرع من

(38) الحضارة الإسلامية لأم مترج 2 ص 324.

(39) الفهرست لابن النديم ص 144 .

الطبقة الثانية . غير انه لم يكن في هذه الطبقة خسيس الأصل ولا وضعيه ، ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول أو القصر ، ولا مصاب بأفة ، ولا مرمن بعيوب ، ولا مجهمول الأبوين ، ولا ابن صناعة دنيئة كابن حاثك أو حجام .

وكان الذي يماثل الطبقة الأولى من أبناء الملوك والأمراء أهل الخداعة بالموسيقى والاغاني ، فكانوا يجلسون بإزاء هؤلاء على خط واحد .

ويقابل الطبقة الثانية من نداءات الملك وبطانته ، الطبقة الثانية من أصحاب الموسيقى والغناء .

ويقابل الطبقة الثالثة من أصحاب الفكاهات والمضحكتين ، وأصحاب المعارف والصنابير . وكان لا يرمي الخادق من الزامرين إلا على الخادق من المغنين ، وإن أمره بذلك . راجعه واحتاج عليه⁽⁴⁰⁾ .

أما آلات الموسيقى فعل الأغلب كانت أربعاً : الجنك ، والعود ، والقانون ، والمزمار⁽⁴¹⁾ . وكان الجواري يغنين من وراء الستار ، إلا إذا أراد الملك أو الأمير المبالغة في إكرامهن يعني بين يدي الستار .

وهذا الحجاب أو الستار كان ضرورياً وذلك حتى لا يطلع النداءات والغنيمات على ما يفعله الخليفة إذا طرب . فقد تأخذه النسوة فيطرّب له ويقوم بحركات لا يطلع عليها إلا خواص جواريه . وهكذا كان يفعل معاوية ، وعبد الملك ، ويزيد ، والوليد وسلمان وهشام ومروان بن محمد .

وإذا ارتفع من خلف الستارة صوت أو حركة غريبة صاحب الستارة : « حسبك يا جارية ! كفى ! انتهى ! اقتضي ! » موهماً بذلك أن الفاعل لتلك الحركات هو بعض الجواري .

والبعض الآخر من خلفاء بي أمية لا يخفون بمثل هذه الحركات المريبة ، فيظهرون للندماء والغنيمات ، ومنهم الوليد بن يزيد ويزيد بن عبد الملك ، كانوا يبالغان في المجون بحضوره النداءات عندما تثيرهما نشوة الطرب . روى الجاحظ :

« كان يزيد بن عبد الملك يبالغ في المجون بحضوره النداءات ، كما سوى بين الطبقة العليا والسفلى » وأذن للندماء في الكلام والضحكة والهزل في مجلسه ، فلم يتورعوا في الرد عليه وهذا حدث في ذلك الوليد بن يزيد⁽⁴²⁾ . فانظر معى رحمك الله الى هذا الخليفة الذي أوصل نفسه الى مثل هذا الدرك السافل ووضع نفسه في هذا الوضع الذي حط من كرامة الخلافة ، فهو مع الغنيمات والخلعاء وكما قال الشاعر :

(40) راجع المسعودي في مروج الذهب ج 1 ص 151 . وما بعدها والجاحظ في أخلاق الملوك ص 25-26.

(41) ديوان ابن المعزج 2 ص 118 . ومن أسماء المزار : الناي والبراع انظر المخصص لابن سيدة ج 3 ص

(42) الناج في أخلاق الملوك للجاحظ ص 31-32.

إذا كان رب البيت بالرقص مولع

فشيمة أهل البيت الدبك والرقص

أما عن التأثر بالغناء فقد كان قوياً إلى حد الذهول والغشيان ، فمنه ما يبكي ، ومنه ما يذهب بالعقل حتى يغشى على صاحبه . ويدرك أنه لم يكن في الإسلام أحسن صوتاً من « مخالق » غنى يوماً في منزلته ، وقد ستحت ظباء ، فجاءت إعجاباً بعنائه ، وتوسط دجلة يوماً ، وغنى ، فلم يبق أحد إلا بكى ؛ وكان غناه أحياناً يسر من حاله كل قلب⁽⁴³⁾ .

وشارك في الغناء بعض الأمراء ..، فالامير ابراهيم بن المهدى غنى مرة مجلس المؤمن فأحسن ، وكان في المجلس كاتب من كتاب طاهر بن الحسين يكتفى أبا زيد ، فلما سمع الكاتب غناء الأمير طار من الفرح وطرب كثيراً فأخذ بطرف ثوب الأمير ابراهيم قبله ، فنظر إليه المؤمن مستنكراً . فقال له أبو زيد ! ما تنظر ! أقبله والله ! ولو قلت : فتبسم المؤمنون⁽⁴⁴⁾ .

« أما الأرواح المتميزة بشدة الالهاب ، فكان أحدهم يمزق ثيابه ، ويذوق الحائط برأسه ، ومنهم من كان يتمرغ في التراب ، ويهيج ويزيyd ويغض بناته ، ويسركل برجله ، ويقطم وجهه »⁽⁴⁵⁾ .

ولا غرابة فقد تشبه هذه المطربة التي دفعت بهذا المسكين إلى ضرب رأسه بالحائط أو تمزق ثيابه ، أم كلثوم ، كوكب الشرق وسيدة الغناء العربي . وما أحب ذكره في هذا المجال أنني حضرتها في حفلة عام 1970 في مصر فغنت وأطربت كعادتها فرأيت البعض من المترجين ، وقد بلغ الطرب منه مبلغه فألهب له وأذهب عقله ، يرمي بعصاه التي يتركها عليها إلى المسرح ، الآخر تحمس أكثر منه فخلع (جاكيه) ورمي بها أيضاً إلى المسرح . ففي كل عصر أم كلثوم وفي كل عصر معجبون متهوسون ! ومهمها كلف الناس بالغناء والموسيقى لأنهن أنفسهم قد بلغوا ما بلغوه في عصر بني أمية . ورد في الأغاني وفي تاريخ الطيري :

أنهم كانوا يسرفون في الغناء والموسيقى كل الاسراف ، وينفقون الأموال الطائلة على المغنيين المشهورين الذين كان الخليفة يدعوه من أقصاصي البلاد . روى الطيري قال :

« حج يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان بن عبد الملك فاشترى « حبابة » المغنية المشهورة ، وكان اسمها العالية ، بأربعة آلاف دينار ، فقال سليمان همت أن أحجر على يزيد ، فرد يزيد حبابة واشتراها رجل من أهل مصر فلما ولّ يزيد الخلافة قالت له زوجته سعدة : يا أمير المؤمنين ! هل بقي شيء في الدنيا تتمناه بعد ؟ قال : نعم حبابة . فأرسلت سعدة رجلاً فاشتراها بأربعة آلاف دينار ، فأراحتها حتى ذهب عنها كلال السفر ؛ ثم أتت بها يزيد ، فأجلستها من وراء الستر وقالت : يا أمير المؤمنين ! أتيت شيء من الدنيا تتمناه ؟ قال : ألم تسأليني عن هذا مرة فأعلمتك ؟ فرفعت الستر ، وقالت : هذه هي حبابة .

(43) محاضرات الأدباء ج 1 ص 443.

(44) كان ابراهيم هذا من رشح للخلافة ، وخرج على المؤمن ، فقبض عليه .

(45) الحضارة الإسلامية لأدم متز ج 2 ص 454 .

فحظيت سعدة عند يزيد وأكرمها وحبها . وقد أثر تدفق طبقات المغنين المحترفين على دمشق في أخلاق الناس ، وفي حياة المجتمع حتى دب الترف في الدولة⁽⁴⁶⁾ . ثم تابع معدداً أشهر المغنين في ذلك العصر فكان أشهرهم :

« طويس » مولى بي مخزوم ، كان ينقر بالدف وعالماً بتأسّاب أهل المدينة وهو أول من غنى بالمدينة غناً يدخل في الإيقاع وبنى الألحان الغناء على موقعها وميزانها . وأهل المدينة يؤثرون غناء طويس على كل غناء ، وقد سمعهم مرة يشيدون بغنائه ، فاستخرج دفأ ثم نقر به وغنواه بـ شعر عمارة بن الوليد المخزوبي في خولة بنت ثابت وعارضها بقصيدة فيها :

يا خليلي نابني سهلي لم تسم عيني ولم تكده
وهو :

تناهى فيكم وجدي	وصدح حبكم كبدى
فقلبي مصعر حزناً	بذات الحال في الخد
فما لاقى أخو عشق	غُشير العشر من جهد

فأقبل عليه ابن سريح : فقال والله هذا أحسن الناس غنا⁽⁴⁷⁾ .

وقد غنى طويس الشعر الذي قيل في الحروب التي وقعت بين الأوس والخزرج⁽⁴⁸⁾ .
هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، فآذى القوم وأثار ما بينهما من سوء حتى سالت بسبب ذلك الدماء .

ومن اشتهر بالغناء في العصر الأموي أبو مروان الغريض ، وقد لقب الغريض لأنّه كان طري الوجه نمراً غض الشباب حسن المنظر . كان من رجال الأدب ، إلا أنّ الغناء غلب عليه بما وضعه من الألحان .

وقد أخذ الغناء عن المغني المشهور ابن سريح الذي أضمر له الحسد لتفوقه وذياع صيته . وقد عده جرير رابع أربعة اشتهروا بالغناء : سيد ميزر ، وتابع مسدد وابن سريح وأبو مروان الغريض .

ومن شدة إبداع الغريض بالغناء توهّم الناس أنه يتلقى الغناء عن الجن وكأنه يعرض الحاجج في طريقهم ، ويتواري في مكان عن أنظارهم ثم يغنى من شعر عمر بن أبي ربيعة .

أيها الراوح المجد ابتکارا
قد قضى من تهامة الأوطارا

فملك الطرب قلوب السامعين وقالوا : طاففة من الجن حاجج⁽⁴⁸⁾ .

(46) راجع الأغانيج 2 ص 35.

(47) المصدر نفسه .

(48) الأغانيج 3 ص 362 وما بعدها .

وقد تقدم الغناء تقدماً ملحوظاً على أيدي القيان في العصر الأموي . وما يروى أن فتى من بني أمية كان مختلف إلى قينة كانت تحبه حباً شريفاً . فقال لها ، وقد أراد أن يختبر ميلها إليه : أحسينين القول :

أحبكم حباً بكل جوارحي
أنجزون بالود المضاعف مثله

قالت : نعم ! وأحسن أحسن منه وقالت :

للذى ودنا الود بالضعف
لا بدا ما بنا لكم ملا الأر

فعجب الفتى من حدقها وحسن جوابها فازداد كلغاً بها وقال :

أنتِ عذر الفتى إذ هتك السست سروان كان يوسف المعصوما

وقد أقامت هذه القينة الفنانة عند ذلك الفتى الأموي حولاً ثم ماتت . فرثاها ولما انتهتى من الرثاء قضى في حاله تلك . فدفنا معها . ومن مرثيتها لها قوله :

قد تمنيت جنة الخلد للخد
ثم أخرجت إذ تطمعت بالنع

د فأدخلتها بلا استمهال

مة منها والموت أهدى حال

وقد سموه شهيد الموى ، فتحروا على قبره سبعين بدنـة⁽⁴⁹⁾ .

وما يلاحظ أن أكثر المطربين والمغنيين كانوا من غير العرب . لأن العرب لم يحترفوا الغناء والموسيقى ، وإنما برعوا في الشعر وخاصة الفن العزلي .

(49) مروج الذهب للمسعودي ج 2 ص 171 . والبدنة : الذبيحة السمبنة .

الفصل الرابع

بناء المساجد

الحرم النبوي الشريف :

لما وصل النبي ﷺ إلى المدينة المنورة بني مسجده الذي دفن فيه . كانت الأرض التي بني عليها المسجد لغلامين يتيمين في حجر اسعد بن زرارة ، وكانت مربداً للتمر⁽¹⁾ . وقد أرادوا تقدمة هذه الأرض هبة لله ولرسوله فأبى إلا أن يشتريها بالثمن . وأمر بقطع التخل وحفر الحفر وشرع بالبناء من اللبن .

وكان يبني فيه بنفسه ليرغب المسلمين في العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ، كان سقف المسجد من الجريد ، وأعمدته من خشب التخل ، وارتفاعه قدر قامة . وبني الصفة وهي موضع مظلل من المسجد ليأوي إليها الفقراء من المسلمين . وبعد فتح خير زاد عدد المسلمين فبني ﷺ بجوار المسجد بيوتاً من اللبن وسقفها من جذوع التخل⁽²⁾ .

ولما ولي عمر أراد أن يوسع المسجد ، فطلب دار العباس بن عبد المطلب عم الرسول ليشتريها ويضمها إلى المسجد فلم يرض العباس بيعها بثمن بل وهبها إلى الله والمسلمين . بذلك أصبح طول المسجد مائة وأربعين ذراعاً وارتفاعه أحد عشر ذراعاً . وجعل له ستة أبواب وحصنه وكان ذلك سنة (17 هـ) ثم جاء عثمان فراغ في تحسين المسجد فجلب إليه الحجارة المقوشة والمرصعة لتربيمه . وجعل سقفه من الساج وكان ذلك حوالي - (29 هـ - 30 هـ) .

وفي عهد الوليد بن عبد الملك كان وإلى المدينة عمر بن عبد العزيز المعروف بعده وتقاوه قد أدخل على المسجد حجرات خاصة لزوجات الرسول ﷺ فأصبحت مساحته مائتي ذراع . ثم كتب إلى إمبراطور الروم يطلب منه العمال المهرة في فن البناء فلبي طلبه وأرسل إليه أربعين رجلاً من الروم وأربعين من القبط بالإضافة إلى هدية بالغة من الفسيفساء وألف مثقال من الذهب .

وشروع العمال في بناء مسجد النبي فبنوا الأساس والجدران والأساطين بالحجارة . وجعلوا عمدة المسجد من الحجارة المحوسبة بعمدة الحديد والرصاص ، وجعل المحراب

(1) المربد الموضع الذي يمغفف فيه التمر .

(2) السيرة النبوية لأبي هاشم ج 1 ص 496 .

والملصورة من الساج . ثم تولى أمراء المسلمين مسجد الرسول بالعمارة والتجديف^(١) .
والمساجد كونها دوراً للعبادة كانت لها مجالات أخرى تفيد منها الدولة . فكل شؤون
الدولة كانت تدار في المساجد قبل إنشاء الأبنية الخاصة بدور الحكومة . يقول في ذلك توماس
أرنولد^(٢) :

« لم يكن المسجد مكاناً للعبادة فقط ، بل كان أيضاً مركز الحياة السياسية والاجتماعية . فكان النبي يستقبل في المسجد السفراء ويدير شؤون الدولة ، ويخطب جماعة المسلمين من على المنبر في الأمور السياسية والدينية . . . فمن فوق مئذن المدينة أعلن عمر فقهير جيوش المسلمين في العراق وحث قومه على السير الى هذه البلاد ، ومن على المنبر أيضاً وقف عثمان يدافع عن نفسه . كما كان الخليفة يلقي بعد بيعته من فوق المنبر خطبه الأولى التي هي بمثابة بيان سياساته في الحكم . فكان المنبر بذلك أشبه بالعرش الذي يلقي من فوقه بيان سياسة الدولة في الأمم الدستورية ، « ثم يزيد فيقول من حيث شكل البناء : كان المسجد الذي بناه محمد عليه السلام في المدينة سنة 622 م ، يعتبر التموج الأول لسائر المساجد الأخرى (٤) .

ولقد كان للعقيدة الإسلامية أثراًها في تغيير أساليب فن العمارة المحلية المختلفة ، كما أعاد على أن يستخرج منها طرازاً له عميزاته الذاتية . فالأبنية التي اهتم العرب في بنائها أول الأمر أكثرها من المساجد والقصور . والمسجد بصورة خاصة هو أهم ما كانت تمثل فيه العمارة العربية ، وكان مختلفاً إلى حد ما باختلاف البقاع ولكن ظل دائماً يحتفظ بعميزاته الرئيسية .

والذي ساعد بلا ريب على وجود نظام تقليدي لبناء المسجد هو الحج السنوي الى مكة من سائر أنحاء العالم الاسلامي . قال تعالى : « وَأَذْنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجَّ يَأْتُوكُرِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ »^(١) .

وبعد فترة لم تعد المساجد مقرًا لتفسير الحديث وتلقي العلم ، حتى فقدت بعض أهميتها السياسية والاجتماعية وغدا المسجد مقصوراً على إقامة الخطبة الدينية « يمجد فيه الله ، ويترحم على الصحابة ، ويدعى للمخلفة باعتباره نائباً عن الرسول ﷺ في المحافظة على الدين . لقد فقد المسجد مظاهر السياسة وبات لا يذكر فيه إلا اسم الخليفة كاعتراف ضمني بسلطته الاسمية .

(3) أنظر معجم اللدان لياقوت لفظ شب.

(٤) تراث الاسلام لأرنولد ص 113 . ذهب المستشرق الايطالي كيتاني الى أن النبي لم يشيد في يثرب مسجداً ، وإنما شيد داراً لم تصبح جامعاً إلا بعد أن نقل علي بن أبي طالب مقر الحكومة الى الكوفة . وكثيرون من المستشرقين وعلماء الآثار يؤمّنون بهذا الرأي ويلفظون النظر الى أن الدار المذكورة كانت أشبه شيء بدار الندوة للجماعة الاسلامية تثبت فيها أمورها ويقضى فيها بين أفرادها .

الحج الآية 27 (5)

مسجد دمشق :

أول من اخترقه أبو عبيدة بن الجراح ثم بناء الوليد بن عبد الملك سنة 88 هـ على وجه التحريج . وكان الوليد كما يروى عنه كلفاً ببناء المساجد خاصة ويفن العمارة عامه . وقبل أن يشرع ببناء مسجد دمشق جمع زعماء النصارى في دمشق وعرض عليهم رغبته في إدماج كنيسة القديس يوحنا في مسجد المسلمين ويعرض عليهم بدلاً منها أي مسكن شاؤوا ، كما يدفع لهم ثمناً مضاعفاً لبناء كنيسة أخرى ، فرفضوا اقتراحه واحتجوا بالعهد الذي أخذه المسلمون على أنفسهم ، بأن لا يتعرضوا للكنائس النصارى ولا لأي ذمي موجود في ظل دولتهم بسوء .

ولكن الوليد لم يأبه لقوفهم وتناسي العهود المكتوبة وسارع إلى هدم الكنيسة وبني مسجد دمشق . وقد تأكّل في بنائه كثيراً حتى قيل أنه انفق على عمارته خراج دولته سبع سنين تقريباً إلى الله بهذا العمل الديني الجليل⁽⁶⁾ .

قال المسعودي في مروج الذهب :

وحكى عثمان بن مرة الخواري قال : لما ابتدأ الوليد ببناء مسجد دمشق وجد في حائط المسجد لوحًا من حجارة فيه كتابة باليونانية ، فعرض على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدروا على قراءته ، فوجهه إلى وهب بن منبه فقال : هذا مكتوب في أيام سليمان الحكيم بل داود عليهما السلام فقرأه فيه : بسم الله الرحمن الرحيم يا آدم ، لو عاينت ما بقي من يسير أجلك لزهدت فيها بقي من طول أمثلك ، وقصرت عن رغبتك وحيلك « وإنما تلقى ندمك إذا زلت بك قدمك » وأسلمك أهلك ، وانصرف عنك الحبيب وودعك القريب ، ثم صررت تدعى فلا تحبيب فلا أنت إلى أهلك عائد ولا في عملك زائد : فاغتنم الحياة قبل الموت والقوة قبل الفوت » . وقبل أن يأخذ منه ويحال بينك وبين العمل ، وكتب زمن سليمان بن داود ، فأمر الوليد أن تكتب بالذهب على اللاآوزري في حائط المسجد :

ربنا الله لا نعبد إلا الله . أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين . وهذا الكلام مكتوب بالذهب في مسجد دمشق إلى وقتنا هذا وهو سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة⁽⁷⁾ .

ومسجد دمشق هذا هو المسجد الأموي اليوم الذي يعتبر عن حق آية من آيات الفن العربي البيزنطي ، وقد زرته فوجدته انه ما زال محافظاً على رونقه وبهائه . وقد قال عنه المعجبون : هو جامع المحاسن كامل الغرائب معدود من إحدى العجائب .

وقد تأكّل الوليد في بناء مسجد الشام ، فرصع محرابه بالجواهر الشمينة وعلق عليه قناديل من الذهب والفضة ، وحلاه بالفسيفساء ، والسلسل الذهبية حتى أطلق عليه البعض أنه قصير النظر مبذر ، لأنّه أسرف كثيراً من مال المسلمين دون أي فائدة تدر عليهم من

(6) مروج الذهب للمسعودي ج 2 ص 152 .

(7) تاريخ الإسلام السياسي لحسن إبراهيم ج 1 ص 526 .

وراء هذا الاسراف ، وقد وصلت هذه الأخبار الى مسامع الوليد . فجاء الى المسجد وخطب في جماعته المتقدمين قائلاً :

«بلغني أنكم تقولون وتقولون في بيت مالكم عطاء ثمانى عشرة سنة إذا لم يدخل لكم فيها حبة قمح » وهذا يدل على ثراء الدولة في ذلك الوقت من جهة وعلى قصر نظر الوليد من جهة ثانية . ولما جاء عهد عمر بن عبد العزيز ، العاقل المدرك ، ورأى هذا البذخ الذي لا مبرر له ، نزع الفسيفساء عن المسجد ووضع حبلاً بدل السلالسل الذهبية ، وعرض على بيت مال المسلمين ما أصابه من بعض الخسائر .

وما يظهر أن أول منارة أو مئذنة في الاسلام كانت في مسجد دمشق . بنيت لتكون مكاناً مشرفاً يدعو منه المؤذن بصوته الندي المؤمنين الى الصلاة ، على غرار ما كان عند المسيحيين بدق المقرعة قبل استخدام النواقيس^(١) أو مقابلاً لما كان عند اليهود من نفح الابواق :

مسجد الكوفة

وضع تحفظ لبناء الكوفة ينبيء عن نظام هندي جميل فضلاً عن كونه يتلاءم مع طبيعة العرب . وكان أول شيء خط بالكوفة مسجدها . وقد أقاموا في وسطه رام شديد النزع فرمى عن يمينه وشماله ، ومن بين يديه وخلفه . ثم بني المسجد وراء موقع السهام . كما بني في مقدمة المسجد ظلة ذرعها متران ، على أساطين رخام كانت للأكسرة « سماوأها كسأء المساجد الرومية ، وبنوا لسعد^(٢) داراً بخياله بينها طريق منقب مائتي ذراع ، وجعل فيها بيوت الأموال ، وبني له روزبة الفارسي من آجر ببيان الأكسارة بالحيرة^(٣) .

وقد اخذت على (ع) الكوفة مقرأ خلافة^(٤) وما زال لها شأن وأهمية عند جميع الشيعة الى وقتنا الحاضر . وفي رلية عبيد الله بن زياد ، بني المسجد وأنفق عليه أموالاً طائلة ، حتى أصبح فريداً بين مساجد زمانه ، وأشاد به الشعراء ، ومنهم الشاعر اسماعيل الحميري . قال فيه :

لعمرك ما من مسجد بعد مسجد
بكمة ظهرأ أو مصللى بيشرب
من الأرض عمورأ ولا متجمب
بشرق ولا غرب علمنا مكانه
بكونان رحب ذي أراس ومحصب^(٥)
بابين فضلاً من مصللى مبارك

(٤) راجع خطط المقريزي ج 2 ص 248 وذكر أنه عندما ولد النبي محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه ضرب الناقوس ابتهاجاً وفرحاً .
راجع اسلاميات أحمد شوقي .

(٥) الكوفة قرب الحيرة وسميت بالكوفة لاستدارتها ، أحداً من قول العرب رأيت كوفانا للرملة المستديرة ، وقيل سميت بالكوفة لاجتماع الناس بها من قولهم تکوف الرمل راجع لسان العرب والقاموس .

(٦) سعد : هو عامل الخليفة عمر بن الخطاب على الكوفة .

(٧) تاريخ الطبرى ج 3 ص 148 . ومعجم البلدان لياقوت ج 7 ص 297

(٨) لأن بها شيعته وأنصاره ، ولخصوصية أرضها ، وكثرة خبراتها ، ووقعها في مكان متوسط بين أقاليم الدولة الاسلامية ، ولأنها من وجهة نظره أصلح من غيرها في حرب معاوية بالشام .

(٩) معجم البلدان لياقوت ج 7 ص 299 .

هذا المسجد الذي بناه محمد في المدينة سنة 662 م يعتبر النموذج الأول لسائر المساجد الأخرى ، ولعل السقف كان مصنوعاً من جريد النخيل المغطى بطبقة من الطين . وكان جماعة المسلمين يولون وجوههم شطر الشمال أي شطر بيت المقدس وهذا الاتجاه وهو القبلة كان يحدد المصليون بطريقة ما . وفي سنة 624 م تغيرت قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى مكة ، أي من الشمال إلى الجنوب بالنسبة إلى أهل المدينة . وقد أوحى إلى النبي أن يجعل قبلته الكعبة الشريفة لما نزل قوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنوليك قبلة ترضها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطرون وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بعافل عما يعملون »⁽¹⁴⁾ .

القصور

كان الخلفاء والأمراء على اختلاف الدول والممالك يبذلون عناء كبرى في بناء المساجد والقصور ، ويتأنقون في هندياتها واتقانها ، فضلاً عن المتنزهات والحدائق التي أنفقوا عليها الأموال الطائلة جلبوا لها الأغراض والنحوص من أطراف العمور .

مباني الأمويين في الشام

لم يصلنا عن مباني الأمويين في الشام ما يستحق الذكر سوى الجامع الأموي الذي سموه مسجد دمشق والذي جدد بناءه الوليد بن عبد الملك وقد مر ذكره في بناء المساجد وفي واسط بني الحجاج بن يوسف قبة الإسلام . وكانت من أقخن الأبنية .

في الأندلس

بني آل مروان في الأندلس قصوراً سارت بذكرها الركبان ، وأجاد في وصفها الشعراء . ولا يزال بعض آثارها باقياً إلى اليوم وأكثرها في قرطبة وغرناطة .

ففي قرطبة القصر الكبير :

هو آية في الجمال والإتقان ، شرع في بنائه عبد الرحمن الداخل في أواسط القرن الثاني للهجرة . وأنه من جاءه بعده من الأمراء وبنوا القصور في داخله . يتألف القصر من 430 داراً ، بينها قصور فخمة لكل منها اسم خاص ، مثل الكامل ، والمجد ، والحاير ، والمعشوق » والبارك » والرثيق ، والبديع ، والروضة ، وقصر السرور . وقد غالوا كثيراً في زخرفها ، واتقانها ، فأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والأحواض » ومدوا إليها قنوات الماء على مسافات بعيدة من الجبال ، إلى جانب هذا ترى الرسوم المذهبة والأسκال المموهة بالفضة والنحاس ، والبحيرات الهائلة والبرك الجميلة الرائعة المنقوشة جدرانها الرخامية بالرسوم البديعة ، ينصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة . بصور حيوانات كاسرة أو صور جليلة على أشكال بد菊花(15) .

. 144 البقرة الآية (14)

. 219 نفح الطيب ج 1 ص (15)

قصر الزهراء :

بدأ بإنشائه الخليفة الناصر سنة 325 هـ على بعد أربعة أميال من المدينة ، وأئمه ابنه الحكم فاستغرق البناء أربعين سنة .

والقصر عبارة عن مدينة ، طوله من الشرق إلى الغرب 2700 ذراعاً وعرضه 1500 ذراعاً وعدد أعمدته 4300 عموداً بعضها حمل إلى قرطبة من روما وأفريقيا وتونس ، وببعضها أهداه صاحب القسطنطينية ، وفيها الرخام الأبيض والأخضر والوردي والجزع . وفي الزهراء مسجد فخم وعدة قصور وحدائق على نحو ما رأينا في القصر الكبير . وفيها البحيرات والأحواض المنقوشة على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب . من بينها حوض منقوش بتماثيل الإنسان جيء به من القسطنطينية نصبه الناصر في بيت النام بال مجلس الشرقي المعروف بالمؤنس وجعل عليه اثنا عشر تمثلاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر التفيس مما صنع بدار الصناعة في قرطبة . صورة أسد بجانبه غزال وللجانب الآخر تمساح يقابله ثعبان وديك وجادأة ونسر وكلها من ذهب مرصع بالجواهر يجري الماء من أفواهها⁽¹⁶⁾ .

ذكروا أن الناصر كان ينفق على بناء الزهراء ثلث ميزانية الدولة المقدرة بـ 6 بلايين دينار سنوياً . ينفق منها 2 مليون على البناء . وبقي العمل مدة 40 سنة ، وبذلك تقدر نفقات بناء قصر الزهراء بـ ثمانين مليون دينار ، ولا غرابة في ذلك إذا عرفنا أن المرصعات والمذهبات تفوق الحصر ، حتى أتت جعلوا بعض قرميدتها من الذهب . وان العمال الذين عملوا في بنائها هم عشرة آلاف رجل و1500 دابة . وأغرب من كل هذا إذا عرفنا أن الناصر عمد إلى بناء الزهراء مرضة لحظية له كان اسمها (زهراء) طلبت إليه أن يبني مدينة تعرف باسمها وتكون خاصة بها⁽¹⁷⁾ .

قصر الحمراء :

في غرناطة كان قصر الحمراء بناء ابن الأحمر في أواسط القرن الثامن الهجري في أرض مساحتها 35 فداناً على مرفع فسيح . يقال أنها سميت الحمراء نسبة إلى لون قرميدتها ، وفي هذا القصر كانت بركة السابع ، وفي وسطها تمثال سود تقذف المياه من أفواهها وتخدث بذلك منظراً رائعاً .

وبني المنصور قصراً فخماً في بجاية ، أنشأ فيها بركة على حافاتها أسود يجري الماء من أفواهها . وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها في الماء وعلى أغصانها أطياب من أشكال شتى باللون بدبيعة وصنع عجيب . وقد نظم أحد بن حمدين الشاعر الأندلسي قصيدة يصف بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الأسود قال فيها :

وضراغم سكنت عرين رياضة تركت خرير الماء فيه زئرا
فكأنما غشي الفضاء جسومها وأذاب في أفواهها البلورا

(16) نفح الطيب ج 1 ص 248 وفيات الأعيان ، وابن خلkan ج 2 ص 29.

(17) نفح الطيب ج 1 ص 248.

أَسْدَ كَانْ سَكُونَهَا مَتَحْرِكٌ
 وَذَكَرَتْ فَتَكَاهَا فَكَائِنَا
 وَخَالَهَا وَالشَّمْسُ تَجْلُو لَوْنَهَا
 فَكَائِنَا سَلَتْ سَيُوفَ جَدَارَلِ
 وَكَائِنَا نَسَجَ النَّسِيمَ لَاهِ

(18) في النفس لروجدت هناك مثيراً
 أقصت على أدبارها لتشورا
 ناراً وألسنها اللواحس نورا
 ذابت بلا نار فعدن غديرا
 درعاً فقدر سردها تقدير(19)

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذي التون الأندلسي فإنه أنفق في بناه بيوت الأموال وكان من عجائب أنه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، وبني في وسطها قبة من زجاج وساق الماء من تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدير أحكمه المهندسون ، فكان الماء يتزل من أعلى القبة وحالياها محظياً بها متصلة بعضه ببعض ، فكانت القبة في غاللة من ماء سكبا لا يفتر والمأمون قاعد فيها(20) .

مباني العباسين في العراق :

قصر التاج وقصر الثريا : كان المعتصم بالله 892 م محبأً للعمارة فبني قسراً في الجانب الشرقي من بغداد سماه (قصر التاج) ولم يتم بناؤه في أيامه فأتمه من بعده ابنه المكتفي 902 م ويروى أنه كان في مكانه قصر بناه جعفر البرمكي ، ثم سكنه الحسن بن سهل فسمى القصر الحسني . فلما تولى المعتصم سنة 289 هـ أضاف إليه ماجاوره ، فوسعه وكبره وأدار حوله سوراً وأخذ حوله منازل كثيرة ودوراً ، واقتصر منه قطعة سماها ميداناً ، وأخذ في بناء قصر التاج واتفق خروجه إلى آمد ، فلما عاد رأى الدخان يرتفع إلى الدار فكرره وابتني على ميلين منه قسراً سماه (قصر الثريا) طوله ثلاثة فراسخ أنفق فيه 4 ملايين ديناراً . وصله بالقصر الحسني وابتني بين القصرين على مسافة مليون سرداداً تمشي فيه جواريه وحرمه . ولما توفي المعتصم قام ابنه المكتفي سنة 289 فأتم بناء قصر التاج وكان وجهه مبنياً على خمسة عقود كل عقد على عشرة أساطين في خمسة أذرع(20).

دار الشجرة :

في أول القرن الرابع بنى المقتدر 908 م بالله في أول القرن السابع داراً فسيحة ذات بساتين غراء عرفت بدار الشجرة ، وذلك لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة أمام إيوانها وبين شجر بساتينها . لها ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجلود على شكل التamar ، وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة ، إذا مر الهواء عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصغير والمديد . وفي جانب الدار من بين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، ومثلها عن يسار البركة ، قد ألبسوها أنواع الحرير المطبع مقلدين بالسيوف وفي أيديهم المطارد ،

(18) نفح الطيب ج 1 ص 233.

(19) المصدر نفسه .

(20) معجم ياقوت ج 1 ص 806.

يتحركون على خط واحد فيظن الناظر اليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه⁽²¹⁾ .

وكل هذه القصور لم يبق لها من أثر اليوم .

وما عرفت به بغداد خاصة كثرة القصور وأول من شاد الأبنية فيها المنصور 754 م بنى الجامع والقصور والخصون كقصر الخلد ، وقصر باب الذهب . وقد سار على منهاه الخلفاء الذين عقبوه في الحكم فأقاموا قصوراً فخمة عرفت غالباً بأسماء بانيها ، كقصر البرامكة في الشماسية ، وقصر ابن الخطيب ، وقصر الرشيد ، وقصر الأمين ، وقصر ابن الفرات ، ودار القرار وهي قصر الست زبيدة زوجة هارون الرشيد .

وقد أخذت رغبتهن تزايد كلما أغرقوا في الترف والرخاء ، غير أن بعض الخلفاء كانوا مغرمين بالبناء كالمعتصم بني سامرا ، والمتوكل على الله الذي أحدث أساليب من الأبنية لم تكن معروفة قبله . فقد بني ثلاثة أبنية تعرف بالهاروني والجوسوق ، والجعفري ، بذل في بنائها جيحاً أكثر من مئة مليون درهماً أتفق منها على القصر الجعفري أكثر من مليونين ديناراً⁽²²⁾ . ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء والأغنياء ، فضلاً عن المتنزهات حيث بني اسماعيل بن علي متزهاً أتفق فيه خمسين مليون درهماً⁽²³⁾ .

الفنون الزخرفية وأثر الفن العربي في الفن الأوروبي :

الفن كلمة واسعة المدى تشمل كل أنواع العطاء وكل مجري الحياة بشقي ألوانها فكل عمل وللفن علاقة مباشرة به وكل قول جميل اعتماده الأساسي على الفن ، والحياة هي مادة الفن ومسرحه وعطاءاته الحية . والانسان يرغب بكل طاقته الفكرية ليعطي في الميدان الذي يشغلة بأسلوب فني ، مبدعاً قدر مهاراته الذاتية وكفاءاته العلمية . وبما أن الحياة مختلفة الألوان والميادين فالتعبير عنها فنياً لا بد وأن يكون مختلفاً ، إن في الموضوع أم في آلة التعبر .

أراد الانسان منذ أول وجوده بناء بيت يقيه حر الشمس وبرد الليل فعمر البيت البسيط الذي ما فتئ يجاهد في سبيل تحسينه شكلاً ومضموناً مراحل مدينة ، حتى وصل الى القصور الفخمة الجميلة والمريمحة التي أراحته جسده وأمنت نظره وطمأنته نفسه . وطوال هذا التاريخ كان فن البناء أو فن العمارة .

ونظر الى الحيوان كيف يتناول طعامه فلم يستسغ طريقة أدائه ، ففكرا في طريقة أفضل تريحه وتسهل عليه سبل غذاء جسده ، فاختبر طرق الطهي المختلفة وموادها الضرورية والمفيدة وتفنن في ذلك حتى كان فن الطهي أو الطعام .

وأراد أن يستر جسده ، فقطف غصون الأشجار ، واتخذ منها ستراً بسيطاً أول الأمر ، فيما اطمأن الى عمله هذا ، فعرف الخيط ونسج منه الأقمشة الصوفية البسيطة الخشنة ، وما زال يرتقي في هذا السبيل حتى توصل الى الكساء الناعم الجميل الذي يناسب جسده وكان

(21) معجم ياقوت ج 3 ص 520.

(22) ابن الأثير ج 7 ص 33.

(23) ابن الأثير ج 6 ص 28.

فن الخياطة واحتراز الأزياء المختلفة التي تلبي رغباته وترضي ذوقه .

ولما سمع أصوات ما في الطبيعة من حفيظ غصون الأشجار ، وتردد نشيد الأطياف ، وسقسة الجداول والأهار ، أحب أن يقلدتها فغنٍ وتلهٍ ، وعندما ضجر من الفراغ الممل اخترع بعض الآلات الموسيقية فعزف عليها وطرب وشرب . واستمر في ممارسة هذه الأعمال فكان الفن الموسيقي الغنائي .

ولا يخفى أنه يروق مع الفن الواقع الرقص والحركة المعبرة فكانت مدارس الرقص المنوع ، من شرقي وغربي وكان فن التعبير عن الفكرة بالحركة بدل الكلمة .

أما فن القول والتعبير بالكلمة الدالة فهو ميدان الأدب الواسع من شعر ونثر . والانسان منذ عرف الحياة بكل ما فيها من سعادة وشقاء عبر عن ميلوه وعواطفه بأساليب مختلفة ، ولما مهر في التعبير وحمل كلماته رموزاً أكثر مما استطاع حمله ، كان فن المجازات والاستعارات والتشابه وكان الابداع في عالم الخيال البعيد والخلق الجديد .

وكذلك القول في بقية ميادين الحياة الأخرى ، من حفر وتصوير ونحت وتمثيل وجيمع الفنون التي عرفها الانسان ترجع بكليتها الى التصوير ، فبعضها صور محسوسة كالمنحوتات والرسومات ، والبعض الآخر صور خيالية كالشعر والموسيقى . والأمم التي تحضرت وتمدنت قبل الاسلام عملت في هذه الفنون وخاضت ميادينها على تفاوت في إتقانها .

أما المجتمع الاسلامي منذ عهد الرسول والخلفاء الراشدين من بعده ، حيث البساطة والخشونة في العيش والجهاد في سبيل الله ، لم يكن حينئذ مرتقاً خصيّاً للفنون الجميلة بأنواعها . يقول ابن خلدون : « فكان الدين أول الأمر مانعاً من المغالاة أو البناء والاسراف في غيرقصد »⁽²⁴⁾ .

ولما اتسعت فتوح العرب واحتلوا بغيرهم من الأمم الأخرى من روم وفرس ، أخذوا عنهم شتى الأساليب الفنية القديمة ، وطبقوها بطابع دينهم الجديد . وبعد الممارسة وبعد النظر اتسع أفق الفن في أعينهم ، واستطاعوا أن يخرجوها صوراً فنية جديدة ، لا تخرج عن رسمه الدين الاسلامي . وما نريد أن نذكر به أن العرب لم يعنوا بفن النحت والتصوير للجسم عنايتهم بالبناء والزخرفة ، لأنهم رأوا في ذلك تشبيهاً بعيدة الأوثان » وهذا كان العنصر الأساسي في زخرفتهم الرسوم النباتية والهندسية⁽²⁵⁾ .

ورد في تراث الاسلام : « نظر العرب الى الفنون في ريبة ووصلوها بالسحر ، شأن الجماعات الفطرية الأولى » ، فضلاً عن أنهم في بداية حماسمهم الديني كانوا يحرمون الترف ويعرضون عنه اعتقاداً منهم أنه غرور كافر ، أو أنه من حبائل الشيطان الذي يجب ألا يكون

(24) المقدمة المصل الثامن ص 312-313 . يريد أن المباني والمصانع قليلة بالنسبة إلى قدرتها وإلى قدرة من كان قبلها من الدول

(25) راجع مكون الاسلام للدكتور ركي محمد حسن ص 1 .

له على المؤمن من سلطان⁽²⁶⁾.

من بين الفنون العديدة التي عرفها العرب اخترنا فن العمارة وقد أتينا على ذكره في بناء المساجد ، وفن الزخرفة والنقوش وما اليه الذي نريد التحدث عنه الآن :

هذا الفن من الفنون الاسلامية الفرعية Arts mineurs ويمكن أن نسميه الفنون الصناعية أو التطبيقية ولكنها عرفت باسم الفنون الزخرفية . وقد مثلت غالباً في الأشياء المقلولة ، التي يتسع بها أو تتحذل للزينة والزخرف . كان الفن في العصور الوسطى قبل كل شيء وسيلة لشرح الأفكار الدينية والتعبير عنها ، ويمكننا أن نرد مذاهب الفن في تلك العصور إلى العقائد التي شكلتها .

والحقيقة أن كل هذه الفنون على اختلافها ترجع جميعها إلى أصل واحد لولا أن المؤثرات الدينية قد حصلت منها وحدات متمايزة .

كانت نشأة الفن الاسلامي في المساجد ، فيها ولد وفي رحابها ثم وترعرع ، والمساجد الأولى كانت أبنية عادية أقيمت للصلة والوعظ وحدهما ، وليس فيها نزوع إلى إتقان في فن العمارة ، وكان كل تجديد يظهر بالمساجد عرضة للنقد اللاذع . كما أن أول محراب أعد ليرشد الناس إلى اتجاه الكعبة قد أثارت جدلاً كبيراً لأنه يشبه الخنية Apse التي توجد في صدر الكنائس والتي كان المحراب نفسه تقليداً لها⁽²⁷⁾.

وسوهان ما ظهر جيل تدبيناً أخذ يقارن بين فقر المساجد وترف الكنائس ولم يمض زمن طويل حتى أصبح المنبر والمحراب أظهر زينة في تلك الأبنية التي تعتبر في براعة تصمييمها وتنوع زخرفتها من مفاخر فن العمارة .

وعندما انتشر الاسلام وأمتد سلطانه اختلط العرب بغيرهم من الأجناس الأجنبية عنهم ، وأدى ذلك إلى اتساع أفق الفن في أعين المسلمين الذين استطاعوا ، في حدود الالتزامات الدينية ، أن يخرجوا بفضل هذا الاختلاط صوراً جديدة للمثل الأعلى في الفن عندهم .

إلى جانب هذا دخل في الاسلام عنصر جديد هو عنصر ثقافة دينوية بحتة ، ثم سرت عادات دخيلة في نفوس الحكام المسلمين الذين لم يكونوا من الأتقياء التمحسين لعقيدتهم ، فضفت المسحة الدينية في قصور الخلفاء وتسللت إلى الاسلام فنون لم تكن تتفق وقواعد كل الاتفاق . إذ بدأ الحكام المثقفون بثقافات مطعمة بعضها من الفرس والبعض الآخر من الروم « يميلون إلى ما يصلح لملك ولا يليق ب الخليفة رسول الله . وانتقلت عدوى حب الفن إلى من قلد الحكام ، فظهر فن متميز يمكن أن نسميه « فن القصر » وعاد كل ذلك بالخير على الصناع والفنانين ولكنه أثار رجال الدين⁽²⁸⁾ .

(26) تراث الاسلام لأرنولد ترجمة زكي محمد حسن ج 2 ص 5-6 والمراجع أنه يزيد في صناعة صور القديسين والنحت والتماثيل فهو عمل وثني في أعين العرب .

(27) راجع كتاب الفن الاسلامي للدكتور زكي محمد حسن ج 1 ص 51-53 .

(28) راجع كتاب الفن الاسلامي للدكتور زكي محمد حسن ج 1 ص 99 .

على كل حال ظهر في ملوك دينوي في عهد الأمويين ذلك هو فن النقش الجدراني على البدعة .

ولما نقل العباسيون مقر الحكم من الشام إلى دمشق ، كان بداية عهد جديد في تاريخ الفن الإسلامي . وأبرز ما يذكر في العمارة حيث حقق العرب أفكاراً هندسية معينة بعصرية حاذقة وبصيرة فنية رائعة ، ولئن كان اعتراض الدين على الصور الأدبية حائلاً دون أي تقدم في صناعة التماثيل وفن النحت ، فلقد برع المسلمون في الحفر على الأحجار والأخشاب وغيرها ، وحققوا تفوقاً فنياً كبيراً في اختيار الألوان وصناعتها .

وكما أن علماء المسلمين قد نقلوا إلى الخلف ذخيرة من العلوم والدراسات القديمة ، فإن الصناع المسلمين قد حفظوا وهذبوا « ثم نشروا في البلاد الأجنبية ما كان ذاتاً في الشرق من صناعات دقيقة مراكزها الحوانية والمصانع ، ولم تكن هذه الصناعات قد نفذت قبل ذلك إلى أوروبا .

والحقيقة أن كل شيء أعد للاستعمال العادي أو للهدايات وما إليها ، قد دب فيه المسلمون الحياة وخلعوا عليه الكثير من الزخرف بدت موضوعاته طبيعية كمثل الأشكال التي تسبغها الطبيعة نفسها على المخلوقات الحية . على أن هذه الحصوبية الزخرفية ليست مجرد وسيلة ملء الفراغ » أو تعطية أشكال ، وإنما هي أصول جوهرية لدقة الصناعة بدونها يعد الأثر الفني ناقصاً⁽²⁹⁾ .

والواقع أننا نلاحظ أن غنى الموضوعات الزخرفية وتكرارها على وتيرة واحدة يريحان العين الشرقية والفكر الشرقي كما يريح الأذن الغربية توافق النغمات وتنوعها . ولقد كان الصناع الشرقيون مولعين بالزخارف حتى لقد وقفوا على دراسة مسائلها جهوداً متواصلة عظيمة » ووضعوا لها أصولاً ما يزال الصناع المحدثون يقترون آثارها حتى اليوم « فالزخرفة التي أنتجتها قرائح العرب في العصر الإسلامي خليقة بأن تبوا المكان الأعلى بين الفنون الإسلامية الفرعية .

ومن المميزات الظاهرة في الزخرفة الإسلامية استعمال النقش الخطية العربية فكثيراً ما ترى آية من آيات القرآن الكريم ، أو بيتاً من الشعر ، أو عبارة من عبارات الهمة تدور حول حافة تحفة أثرية وتكون شريطاً زخرفياً عملاً شكلاً هندسياً أو طغرة⁽³⁰⁾ كما نجد في هذا الفن الزخرفي أثراً من الآثار الثمينة يزيّنه اسم صاحبه النبيل ومعه القيمة الفخمة . فيفيدنا في معرفة تاريخ هذا الأثر ومصدره حين يمهر الصانع عمله الفني بتوقيعه . مثبتاً مع هذا التوقيع اسم المدينة التي صنع فيها الأثر والستة التي تم صنعه فيها .

(29) في المآذن العربية قطع أثرية عديدة تؤيد صحة هذا القول وتبين أن الفنان القدير في العالم الإسلامي كان يحمل للفن قبل كل شيء ، كما يظهر من الزخارف الدقيقة التي نراها على التحف الأثرية في أجزاء ليست ظاهرة لعين الرائي ولا رopic على الصانع في زخرفتها إلا نفسه وإن خلاصه لتقليد الفن والصناعة .

(30) هي شكل هندسي أو زخرفة تشمل على نقش فيه كتابة أو ترسم فيه إشارة . كالأشكال المستطيلة المقوسة الجانين التي كانت تحفر فيها أسماء الفراعنة المصريين .

والكتابة بالخط العربي هي أفضل ما قدمه العرب أنفسهم للفن الإسلامي ، وتعتبر حি�ثما وجدت دليلاً على سيادة الإسلام وعظم تأثيره . إلى جانب هذا ، منها الخط الذي دون به القرآن الكريم ، كانت مقدسة في كل بلاد الإسلام وكل عصوره⁽³¹⁾ وطالما تنافس الخطاطون في تحسين حروفها الجميلة وأتت أجيال منهم تعمل بنجاح حتى أصبح الكتاب الجميل كثراً لا يقدر بثمن . وقد ألف الصناع الأوروبيون شكل الخط العربي شيئاً فشيئاً حتى أدخلوه في القطع القديمة . ففي المتحف البريطاني قطعة شبيهة بالدينار الإسلامي للملك مرسية Mercia (796- 757) مكتوب عليها الملك أوفا Offa وحولها كتابة عربية منقولة نقلًا دقيقاً حتى لترى ظاهراً فيها تاريخ القطعة الأصلية (157 هـ) .

وفي المتحف المذكور نفسه مثل آخر لاتصال الغرب بصناعة الشرق يظهر في صليب ايرلندي مطلي بالبرونز يرجع عهده إلى القرن التاسع الميلادي ، كتب في وسطه على الزجاج بالخط الكوفي عبارة عربية هي « باسم الله » .

ومما يبدو أن الصناع كانوا يجهلون معنى العبارات التكوبية ، لأنه لا يتحمل أن توضع مثل هذه الكتابة الإسلامية البهجة على عملة ملك مسيحي أو ت نقش على شارة مقدسة .

ومنذ ذلك الوقت أخذ نقل الحروف العربية والزخارف الإسلامية يزداد انتشاراً في صناعات أوروبا المسيحية .

أما الدوافع التي حثت الغربيين إلى زيارة البلاد الإسلامية ، فكثيرة منها الرغبة الصادقة في زيارة الأماكن المقدسة ، ومنها التعطش إلىأخذ العلم الذي ورثه المسلمون دون غيرهم ، ومنهم الأعمال التجارية ، وبعد ذلك يعودون إلى بلادهم حاملين معهم من بدائع الصناعة الإسلامية التي تؤيد ما كان يقصه عليهم القوم وما يتحدثون به عن مهارة العرب الفائقة في هذا الفن الظرفي .

ومن أهم ما حصل عليه العلماء المتجولون الذين كانوا ينقبون في مراكز العلم الإسلامي ، الناتج الذي توصل إليها الشرقيون في تذهيبهم الكتب ظهر في موضوعات زخرفية بدعة زين بها جلد الكتاب يرجع عهده إلى أواخر القرن الرابع عشر⁽³²⁾ .

وتعتبر هذه الزخرفة أعيجوبة من أعاجيب الفن الظرفي أخرجتها يد فنان صبور . ولقد ظلت أوروبا نحو ألف سنة تنظر إلى الفن الإسلامي كأنه أعيجوبة من الأعاجيب ، وكان أكبر باعث هذه النظرة في أول الأمر أن هذا الفن كان يتصل أوثق الاتصال بالأراضي المسيحية

(31) نلاحظ أن الكتابات على الأبنية والتحف الأثرية من العصور التي ازدهر فيها الفن الإسلامي كانت باللغة العربية الواسعة الانتشار والعظيمة التفود . ولأننا نحن المسلمين نعتقد أن القرآن كلام الله عز وجل نزل به الوحي على رسوله محمد ﷺ ولا نسمح نشره باللغات الأخرى إلا تفاسير وشرح وهذا السبب عنه كانت جميع الكتابات ذات الصبغة الدينية في العالم الإسلامي كلها مكتوبة باللغة العربية وكذلك أكثر الكتابات ذات الصبغة الرسمية كالشأن على المسلمين والكتابة على شواهد القبور وصكوك المبات والمنع .

(32) راجع تراث الإسلام ج 2 ص 89 وما بعدها .

المقدسة ، ولكن بعد ذلك سرعان ما أصبح مصدر الدهشة من ذلك الفن جماله الذاتي ليس غير .

والكثير من التحف الاسلامية النفيسة مدينة بيقائها في حالة جيدة من الحفظ الى عاطفة القوى الدينية التي كانت سائدة في العصور الوسطى ، فإن عدداً وافراً منها ظل محفوظاً في الكنائس قروناً عديدة .

وصفة القول أنه منذ بداية الاسلام كان الشعور الديني والعلم والتجارة والاعجاب بالطريف الغريب من الأشياء ، كل هذا أوجد في الفن الاسلامي والمهارة الاسلامية ما يلائمها . وقد حاكى فريق من كبار الصناع وتأثروا بهاراة المسلمين الفنية .

ذكر لنا أرنولد بعض روادهم منهم أوديريكس Odericus من مدينة روما وهو الذي رسم الزخرفة الاسلامية عام 1286 على بلاط الرخام المطعم في جزء من هيكل كاتدرائية وستمنستر .

ووليم موريس Wiliam Morris الذي نسج زخارف اسلامية أخرى في المخمل المصنوع سنة 1884 وغيرهما من الفنانين والصناع الذين سيقوها أو أتوا بعدهما .

وأضاف قائلاً : « وقدر لهؤلاء أجمعين أن ينشعوا في المغرب بين حين وحين ، وإن يسقو» من ذلك المعين الذي كان يعتبر في نظر الأوروبيين منهلاً دائياً للغرب أكثر منه ارثاً خلفه الاسلام (٣٣) .

والحضارة بمعانيها وأبعادها جملة من الفنون تتجلى في تقارب اليد العاملة من الفكر المخطط ، ثم تحول في مراحل نامية حتى تهر اليد من إطاعة الفكر اطاعة كاملة » وذلك بعد ممارسة ناجحة وتاريين مفيدة ، وبعدها يكون الابداع الجميل والخلق العظيم والفن الأصيل .

من هذا المنطلق تكون الحضارة فناً نامياً متحركاً كالكائن الحي ، تولد ثم تخبو طفلة طرية العود ، حتى إذا اشتد ساعدها وأينعت بدأ شبابها المعطى وعهدها المزدهر وتصبح في هذا الطور في إبان خصيتها .

والتفاعل بين الفنون الحضارية أمر طبيعي لا بد منه ، فهو مظاهر من مظاهر عدوى التقاليد وافتتاح كل حضارة على التاريخ ، وأشد ما يكون هذا التفاعل حين تكون الفنون الناشئة في دور التلقي والاقتباس ، فإذا ما تجاوزته الى دور المضم والتخييل استحال ما أخذته الى دم قوي نشيط يساعدها على بدء عملية الخلق والابداع . هذه العملية تعطي الفنون طابعها الخاص وشخصيتها المميزة ، وكيانها المستقل الواضح الخصائص .

والفنون العربية واحدة من تلك الفنون المفتحة على التاريخ ، وهي من الفنون التي تأثرت بها شعوب مختلفة ، وقامت بدورها المجيد في سير الحضارة البشرية ، عدا عن أحذتها

(33) تراث الاسلام ج 2 ص 99.

عن اليونان والرومان والفرس ، فقد شقت طريقها ومدت ظلها على الشرقيين الأدنى والأوسط وتجاوزتها إلى بعض أوروبا . وكان لها أثراًها الفعال في بirth الحضارة الأوروبية الحديثة⁽³⁴⁾ .

⁽³⁴⁾ الحضارة العربية للدكتور مصطفى الرافعي ص 12 .

الباب الثامن

النظام التربوي في الاسلام

الفصل الأول

ضرورة التربية لتطور الحياة

توصيل الإنسان إلى مرحلة النضوج العلمي والتقدم الاجتماعي بفضل التربية الوعية المادفة إلى تنمية وعيه وبناء شخصيته . فالتربيـة ضرورة من ضرورـات الحياة وشأن أصـيل من شؤون الإنسان . فـهي تعد الفـرد للمـجتمع بما فيهـ من قـواعد ونـظم وقـيم وـتقـالـيد ، وـمـكـنهـ لأن يـكـيفـ نـفـسـهـ معـ أـفـرادـ مجـتمـعـهـ فيـ إطارـ هـذـهـ القـوـاـعـدـ وـالـنـظـمـ .

إن الحضارة الإنسانية ميراث اجتماعي جاهد الجنس البشري في اكتسابه وحافظ عليه طوال الدهور ، ولم ينتقل من جيل إلى جيل إلا بفضل التربية ، فهي التي نقلت الثروات الفكرية ، والقيم الإنسانية ، والعادات الطيبة ، من السلف إلى الخلف . يقول علماء الاجتماع : إن تطور المجتمعات البشرية وبقاءها واستمرارها يتوقف على عملية النقل الثقافي . وبغير انتقال المثل العليا والمطامح الحية والأراء النيرة والأمال السعيدة ، لا يمكن لحياة الجماعة أن تدوم .

والتربيـةـ ،ـ بـعـدـ الـبـحـوثـ وـالـتـجـارـبـ هـيـ مـنـ الـأـمـورـ الـكـسـبـيـةـ (Acueilli)ـ الـتـيـ يـتـطـبـعـ عـلـيـهـ الـإـنـسـانـ .ـ وـقـدـ أـشـارـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ إـلـىـ هـذـهـ الـظـاهـرـةـ قـالـ تعالـىـ :ـ «ـ وـالـلـهـ أـخـرـكـمـ مـنـ بـطـونـ اـمـهـاتـكـمـ لـاـ تـعـلـمـونـ شـيـئـاـ ،ـ وـجـعـلـ لـكـمـ السـمـعـ وـالـأـبـصـارـ وـالـأـفـئـدـةـ لـعـكـمـ تـشـكـرـونـ »ـ .ـ فـمـاـ يـحـصـلـهـ الـإـنـسـانـ مـنـ عـلـمـ وـغـوـ فـكـرـيـ إـنـاـ هـوـ عـنـ طـرـيقـ الـكـسـبـ بـسـبـبـ مـاـ يـلـقـطـهـ السـمـعـ وـالـبـصـرـ وـالـعـقـلـ .ـ

ونوجز القول : إن التربية قاعدة أساسية لتطور الإنسان وارتفاعه فكريًا واجتماعيًّا ، وغايتها الازدهار التام لشخصيته ، وغرس النزعات الحية في نفسه . وأسمى أنواع التربية وأصلاحها لتقويم نفس الإنسان هي التربية الدينية ، التي تهدف إلى التهذيب النفسي ، وتنمية السلوك والنمو الروحي ؛ بما تعود النفس على العادات الصالحة والأخلاق الفاضلة والمثل الكريمة . ولا ريب أن الدين يمنحك الإنسان قوة الإيمان والتعقل والتأمل وال بصيرة وهذه القوى تشكل بمجموعها الطاقات الروحية التي تهدف إلى تدعيم الخير في قلوب البشر ، وهو أسمى وأنبل الغايات الإنسانية .

(1) النحل الآية 78 .

الدين كما أظهرت التجارب ، هو العاصم الوحيد من الشذوذ والانحراف ، لأنه يعمل على تهذيب الغرائز وطهارة النفس وابعادها عن الانحلال ، وصيانتها من الانهيار . إنه يسوع فيها قوة هائلة توحى لها بالأعمال الخيرة ، وتصدّها عن ارتكاب الشر والانحراف .

للدين أثر فعّال في تكوين الحياة العامة وتوجيهها ، وفي إيجاد وسائل الأمان والاستقرار في الأرض . ولما ضعف الوازع الديني في عصرنا الحاضر ، شاع الانحلال الأخلاقي ، وكثُرت الجرائم ، ومني المجتمع الإنساني بكثير من المشاكل الرهيبة . فلننظر حولنا ونأخذ الشواهد وال عبر .

من أهم الأمور في الحياة الائمة بالقيم الأخلاقية وتقديرها وإذا لم نجتهد لاكتساب هذا الائمان أو لتنميته لا يبقى للعلوم التي نحصلها أية قيمة . وتحول من نعمة إلى نعمة على البشرية عامة . فالولايات المتحدة بكل ما أحرزته من التقدم العلمي لم تستطع أن تقضي على الظلم والغبن والتفرقة بين أبناء الإنسان ، لأن العلوم المادية وحدها لا تقدر على خلق روح المؤدة والتعاون بين أفراد المجتمع الواحد .

... حتى بزغ نور الاسلام ، وسوى بين مطالب الروح والجسد ، وأقام المساواة بين جميع خلق الله ، وعمم العدالة الاجتماعية التي كانت وما زالت مطلب المحرومين على وجه هذه الأرض .

استخدم الاسلام جميع ما لديه من طاقات وأجهزة بشكل إيجابي وبناء من أجل إيجاد التربية الصحيحة المأهولة الى تنمية الوعي « ورفع المستوى الفكري والاجتماعي » وذلك ضمن عملية تربية موحدة ، يتم على أساسها تربية الأفراد وتنظيمهم على منهج واحد ، فين الصاعون للعدل ، ويتسابقون في ميادين البر والخير دون أي ضغط أو إكراه .

إن طابع التربية الاسلامية لم يكن دينياً محضاً كما عند المسيحيين في الصدر الأول من تاريخهم ، ولم يكن دنيوياً محضاً كما عند الرومان ، وإنما كان يلائم بين الدين والدنيا وهدف الى الاصلاح الشامل للمحيطتين .

ولا يستطيع أحد من المربين أن ينكر أن التربية الاسلامية هي الأساس المتبين لحضارة المسلمين ، وأن مثلها العليا تتفق بكل طوعية مع الاتجاهات الحديثة في عالم التربية الحديثة . لقد قدر الاسلام العلماء ، وقدس العلم ، وسما به الى درجة العبادة . وعني العناية الخالصة بجميع أنواع التربية الروحية ، والدينية ، والخلقية ، والصحية ، والنفسية ، ونادي بالحرية والمساواة وتكافؤ الفرص بين جميع خلق الله ، وقضى على نظام الطبقات (الناس كلهم سواسية كأسنان المشط) وجعل العلم فريضة على كل مسلم وMuslimة ، وفتح المساجد ودور العلم والحكمة والحلقات الدراسية والمتدييات الأدبية والعلمية ، للتعلم والبحث والدراسة . وقدم الى الطلاب كل ما يحتاجون إليه من مساعدات تمكنهم من التفرغ لطلب العلم والاستزادة منه . قال تعالى : ﴿ قل رب زدني على ما﴾⁽²⁾ .

. 114 ط الآية (2)

أهداف التربية الإسلامية

أ - الهدف الروحي

ذهب بعض المربين المسلمين إلى أن الغرض الأساسي من التربية إنما هو تطهير النفس « وصفاء الذات » .

وذهب البعض الآخر إلى أن تطهير النفس من العيوب شرط أساسي لتلقي العلوم لذلك كان على المعلم أن لا يقبل طالباً حتى يختبره في أخلاقه ، فإن وجده مهذباً قبل بتعليمه ، وإلا منعه ، وذلك خوفاً من أن يستعين بالعلم على الفساد فيؤذني نفسه ويؤذني معه الآخرين . قال هؤلاء :

« إن التربية ينبغي أن تقود الإنسان إلى معرفة نفسه الداخلية ، « من عرف نفسه عرف ربه » وتقدير الطبيعة ، والثقة بوحدانية الله ، ويجب أن ترفع الإنسان إلى الحياة الطاهرة المقدسة الناشئة عن معرفة الله ، والطبيعة ، والنفس الإنسانية »⁽³⁾ .

ب - الهدف الاجتماعي

نادي الإسلام بالإخاء بين المؤمنين « إنما المؤمنون إخوة » والمساواة بين الناس أجمعين « ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتفوى » على أن يكون التفاضل بالعمل الصالح والتقوى قال تعالى : « يا أيها الناس إنما خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »⁽⁴⁾ .

وأمر الإسلام بالاحسان إلى الناس « وأحسن كما أحسن الله إليك »⁽⁵⁾ ورغب في الاتيان بالحسنات : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها »⁽⁶⁾ .

وقد دعا الله إلى مقابلة شرور الناس بالاحسان إليهم لأن ذلك داعية إلى نزع العداوة من صدورهم وإحلال المودة مكانها : « ولا تستوي الحسنة ولا السيئة إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي يبنك وبينك عداوة كأنه ولي حميم »⁽⁷⁾ .

ونادي الإسلام بالصدق ليستقر المجتمع وتضمن الثقة بين الأفراد ، ولأنه من ضرورات المجتمع الذي ينبغي أن ينال حظاً عظياً من الثقة في الأسرة والمدرسة والجامعة والمجتمع . فيه ترد الحقوق ، وبه يحصل الناس على الثقة فيما بينهم . وبالتالي يكون التعاون التام والمحبة الشمرة التي تربط بين أفراد المجتمع الواحد برباط وثيق . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولًا سديدا »⁽⁸⁾ ودعا الإسلام إلى الاصلاح بين الناس ، لأنه من أرفع

(3) راجع روح التربية والتعليم لمحمد عطيه الأبرشي ص 21.

(4) الحجرات الآية 13.

(5) القصص الآية 77.

(6) الانعام الآية 160.

(7) فصلت الآية 34.

(8) الأحزاب الآية 70.

الخصال في النفس الإنسانية التي لا تصدر إلا من قلوب نبيلة أحبت الغير وضحت من أجله . قال تعالى : ﴿ لَا خِيْرٌ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعُلُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاهُ اللَّهُ فَسُوفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾⁽⁹⁾ .

يحمل هذا النص القرآني أروع معانٍ السمو الخلقي الذي تفتقر إليه الجماعة لا حصول على الاستقرار الذي تنشده المجتمعات السعيدة الراقية .

ج - الهدف المادي

المال هو عصب الحياة ، والاسلام دين التكامل والعدالة ، سعى إلى كسب المال بوسائل مشروعة ، فدعا إلى العمل باليد أو الآلة أو زراعة الأراضي وإحياء الموات .

والعمل الذي أراده تناول جميع وجوه النشاط والحركة الفاعلة الإيجابية سواء أطلب العمال تحقيق الضوري من حاجاتهم أم أرادوا الدنيا وزينتها وشيئاً فوق الكفاية . قال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا ، وَهُمْ فِيهَا لَا يَخْسُونَ ﴾⁽¹⁰⁾ .

وقد أشاد القرآن بالعمل اليدوي ليأكل الناس مما كسبت أيديهم ، مثلما يأكلون مما أنعم الله عليهم من طيب الثمرات . قال سبحانه :

﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثُمَرِهِ وَمَا عَمِلْتُهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾⁽¹¹⁾ . ومثل قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْأَنْسَانَ إِلَّا مَا سَعَى . وَإِنْ سَعَيْهِ سُوفَ يُرَى . ثُمَّ يَجِدُهُ الْجَزَاءُ الْأَوَّلُ ﴾⁽¹²⁾ . والأنسان بحسب حبه للبقاء مرغم على السعي لاكتساب حاجاته ، وليس هناك وسيلة أهم من تحصيل العيش واكتساب الرزق اللازم للبقاء الذي يعمل ويقاء من يعول . والمجال واسع أمام الناس ، وليس لهم إلا السعي والعمل الشريف في الأرض التي جعلها الله ذلولاً لنا ثم أمرنا بالسعى في مناكبها . قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلْلًا فَامْسِكُوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُّوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾⁽¹³⁾ .

والله يرحم عباده دائئراً فيذكرهم حتى لا ينسوا نصيبيهم من الدنيا وينعموا من خيرات ما رزقهم الله . جاء في سورة القصص : ﴿ وَابْتَغُ فِي مَا أَنْتَكَ اللَّهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ وَلَا تَنْسِ نَصِيبِكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾⁽¹⁴⁾ .

فعلينا أن نوازن بين الدنيا والآخرة فلا نغلب واحدة منها على الأخرى . وذلك بالعمل الذي نقوم به ، فالدين له وقته ونظامه والدنيا لها وقتها ونظام العمل فيها . والاسلام يشمل الاثنين معاً بتعادل كامل .

(9) النساء الآية 114 .

(10) هود الآية 15 .

(11) يسن الآية 35 .

(12) النجم الآيات 39-40-41 .

(13) الملك الآية 15 .

(14) القصص الآية 77 .

قال المستشرق الدكتور « شاخت » الاسلام نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدنيا معاً⁽¹⁵⁾ .

ولا غرابة ! ذلك أن الأصول المستمدة من وحي السماء قد أوجدت المجتمع المثالى الفاضل الذي لم نر له عدلاً ولا مثيلاً .

تطور التربية

تولد بذرة التربية وتنمو في المنزل ، يشربها الطفل مع حليب أمه وعناته أبيه . منذ فجر التاريخ الانساني والمنزل هو الجهاز الوحيد للتربية المقصودة والعشيرة» البدائية كانت وحدها تقوم بتربية الأطفال من جميع النواحي العقلية والخلقية والجسمية ، وهي لهم ما يلزمهم من وسائل لاعدادهم للحياة . واستمر الحال على هذا الوصف زمناً طويلاً . فمنذ الرومان كانت الأسرة وحدها تشرف على تنشئة أطفالها وتربيتهم وفق ما تسمح لها نظمها الخاصة ، وليس لأي سلطة من السلطات الحق في التدخل بشؤونها الخاصة . فالمنزل يبذل ما بوسعه من جهود تربوية ولكنها كانت مختلطة بنشاطات أخرى غير مميزة عنها . فال التربية كانت غير مقصودة بذاتها وليس لها منهاج معروف تسير عليه .

ثم أخذ المنزل يوجه عناته خاصة لشؤون التربية وذلك بعد أن عرف التدوين والكتابة ، فأخذ الانسان يجمع ما اهتدى اليه السلف من حقوق تربية في مختلف نواحي الحياة العلمية والأخلاقية والفنية ، فانضم الى وظائف المنزل التربية القدية وظيفة جديدة هي وظيفة التعليم بمعناه المدرسي . كان يقوم بهذه الوظيفة كبار افراد الاسرة والأقرباء من العشيرة حيال أطفالهم ، فكل بيت رغب في تعليم أطفاله جعل من المنزل مدرسة خاصة . ولما أشراق نور الاسلام أحدث تغيراً هائلاً في جميع نواحي الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية والادارية والتربية .

عني الاسلام بتربية الجيل عناته فائقة فتح المسلمين على التعليم حتى يتمكنوا من الاطلاع على مصادر المعرفة و مجالات الثقافة من أجل رفع مستواهم وتحسين سبل حياتهم ، لأن الشخصية الانسانية لا يقوها ولا يرقيها الا العلم .

قال تعالى مصرياً بأن العلم لهم درجات عند ربهم وميزات يخصهم بها: «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات»⁽¹⁶⁾ . وقد ساوي الله شهادة العلماء بشهادة الملائكة فقال سبحانه : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائم بالقسط»⁽¹⁷⁾ .

ولم يكتف الاسلام بهذه الدعوة الى العلم ، بل قرر أصولاً ثناع من الجمود العقلي وتحمي من التحجر الفكري ، فكان دين الحجة والبرهان ، فلا يقول عن شيء انه حق إلا

(15) تاريخ الحضارة الاسلامية للدكتور أبو زيد شلبي ص 64 .

(16) المجادلة الآية ١١ .

(17) آل عمران الآية ١٨ .

إذا قام عليه البرهان اليقيني القاطع . قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوَ دَا
أَوْ نَصَارَى تُلْكَ أَمَانِيهِمْ ۚ قُلْ هَاتُوا بِرَهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾⁽¹⁸⁾ .

قانون الوراثة في الإسلام

عرفوا الوراثة بأنها ميل طبيعي في الفرع المشابهة الأصل في تكوينه الجسماني ، وفي
وظائف أعضائه .

والتحليل العلمي للوراثة هو أن الإنسان في بدء حياته وتكوينه إنما هو خلية صغيرة هي
أعجب ما في الكون ، ومن أغمض الأسرار وأدقها . وهي تدل على عظيم قدرة الله خالق
الكون بما فيه ومن فيه . وهي تحصل من إخصاب خلية البوبيضة والحيوان المنوي . وعندما
تحصل هاتان الخلستان تتجان نواة إنسان جديد ، وفي هذه الخلية تنطبع جميع الصفات
والمميزات من حيث الجنس والشكل واللون . . فالوراثة إذن هي مجموعة المميزات التي
ترتكز في البوبيضة المخصبة . وقد وصف الله تعالى في كتابه العزيز هذه العملية بكل تطوراتها
مفصلاً تكوين الجنين في الرحم :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَا نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا⁽¹⁹⁾
النُطْفَةَ عَلْقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلْقَةَ مُضْعَفَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْعَفَةَ عَظِيمًا فَكَسَوْنَا الْعُظَمَاءَ لَحْيَّاً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ
خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾⁽²⁰⁾ .

وقد اكتشف الإسلام قانون الوراثة قبل علماء النفس والوراثة ، ودلل على آثارها
ومميزاتها ، فوجد أنها تؤثر أثراً ذاتياً في الفرد منذ بداية تكوينه ، إن من حيث التكوين
الجسدي أو الصفات والتزاعات والعقائد . قال تعالى عن انتقال عقائد الكفار إلى أبناءهم :
﴿ رَبُّ لَا تَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يَضْلِلُوكُمْ وَلَا يَلْدُوْا إِلَّا
فَاجْرًا كُفَّارًا ﴾⁽²⁰⁾ .

وأثر عن النبي ﷺ أنه قال : « الشقي شقي في بطنه أمه والسعيد سعيد في بطنه
أمها . . . »⁽²¹⁾ .

فالعوامل الوراثية تفتح الطفل ، قبل أن يولد ، الشقاء إن كانت طباع آبائه شريرة ، أو
السعادة إن توفرت الصفات الفاضلة في طباعهم . فالوراثة كما لا يخفى ، تنقل أدق الصفات
وأعمقها إلى الأبناء . لذلك اهتم الإسلام كثيراً بأحكام الوراثة وشدد عليها لما لها من تأثير في
طباع ونفوس وأفكار الأجيال الناشئة . فالبذر الجيد يعطي ثماراً جيدة إذا توفرت له العناية
اللارمة ، والبذر الرديء يعطي ثماراً رديئة منها بذلت من جهد وعناية في زراعته . ونذكر
بتعریف الوراثة الذي يقول : « إنها مشابهة الفرع لأصله » .

من اهتمامات الإسلام بالوراثة نذكر :

(18) البقرة الآية 111.

(19) المؤمنون الآية 12-13-14.

(20) نوح الآية 26.

(21) البحارج 3 ص 43.

١- التعرف على المرأة قبل الزواج

طلب الاسلام من الرجل الذي يريد الحياة الزوجية أن يتعرف على المرأة قبل الزواج ، فيبحث في شؤونها وشئون أسرتها حذراً من أن يكونوا مصابين ببعض العاهات ، أو الأمراض ، التي تنتقل من الوالدين إلى الأولاد . خطب رسول الله ﷺ بين أصحابه مؤكداً لهم التبصر بأحوال المرأة فقال : « أيها الناس إياكم وحضراء الدمن » فسأل القوم :

يا رسول الله ، وما حضراء الدمن ؟ قال ﷺ : المرأة الحسناء في منبت السوء⁽²²⁾ كما أثر عنه الكثير من هذه الأحاديث منها : « إنكحوا الأكفاء ، وانكحوا فيهم واحتاروا لنطفكم » وقال في حديث آخر : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس»⁽²³⁾ .

وأنه أهل البيت وهم المدرسة الخيرة الغنية ، اهتموا اهتماماً بالغاً وأولوا الوراثة المزيد من العناية . قال الإمام الصادق عليه السلام بعض من استشاره في الزواج : « أنظر أين تضع نفسك ، ومن تشركه في مالك ، وتطلعه على دينك وسرك فإن كنت لا بد فاعلاً فيكراً تنسن إلى الخير وإلى حسن الخلق»⁽²⁴⁾ وحافظاً على الأسرة النظيفة وصيانتها من التدهور الأخلاقي حذر من الزواج بالمرأة الحمقاء . روى الإمام أبو عبد الله عن جده أمير المؤمنين عليهما السلام أنه قال : « إياكم وتزويج الحمقاء فإن صحبتها بلاء وولدها ضياع»⁽²⁵⁾ .

٢- تعرف المرأة على الرجل قبل الزواج

وللمرأة الحق في التعرف على الرجل الذي تريده أن يكون شريك حياتها قبل الزواج . وذلك حذراً من أن يكون مصاباً ببعض الأمراض والعاهات أو عنده انحراف في سلوكه ، وهنا تقع مسؤولية التقرير على عاتق ولد أمرها ، فهو أخبر وأدري بصفات من سوف يصبح صهره ، فعليه أن يستقصي أخباره من معاشريه يقول المثل : عاشر التقى تتقى وعاشر الشقي تشقى . روى الإمام الرضا عن أبيائه عن رسول الله ﷺ قال : « النكاح رق، فإذا نكح أحدكم وليدة فقد أرقتها ، فلينظر أحدكم لمن يرق كرمته»⁽²⁶⁾ .

وقد كره الاسلام أن تتزوج المرأة برجل سيء الخلق فظ الطياع ، لأن ذلك يسري إلى أبنائها منه . روى عن أبي الحسن الرضا (ع) سأله رجل قال : لي قرابة قد خطب إلي وفي خلقه سوء أجابه الرضا : « لا تزوجه إن كان سيء الخلق»⁽²⁷⁾ .

كما حذر المسلم من تزويج المرأة برجل مدمن على شرب الخمر . قال رسول الله ﷺ :

« شارب الخمر لا يزوج إذا خطب»⁽²⁸⁾ .

(22) وسائل الشيعة ج ١٤ . ص ٢٩ والمجازات النبوية للشريف الرضا .

(23) المصدر نفسه .

(24) المصدر نفسه ج ١٤ ص ١٤ .

(25) الكافي ج ٢ ص ١٣ .

(26) وسائل الشيعة ج ١٤ ص ٥٢ .

(27) من لا يحضره الفقيه ج ٢ ص ١٣١ .

(28) الكافي ج ٢ ص ١١ .

وقال الامام الصادق (ع) : « من زوج كرمته من شارب حمر فقد قطع رحمها »⁽²⁹⁾ وقد سالت بعض الأطباء عن تأثير الحموم بنقل الوراثة إلى الأبناء . فأجابني : الإدمان على الخمرة من مسببات العقم . ويعود السبب في ذلك إلى ضعف مركز الصلب ، وتنبه مركز المخ ، والشخص المتسم به تنتقل سمومه وعلله إلى ذريته . وذكر لي أيضاً : إن من يولد من أبوين مدمنين فإنه يحمل آثار الضعف البنيوي ، ويكون عرضة للإصابة باضطرابات خطيرة قد تنتهي به إلى الشلل العام ، أو العقم ، أو العته . وفوق هذا كله ، فإن ذرية المدمنين قد تصاب بتشوهات مؤلمة كعدم تساوي الججمحة ، أو قصر القامة ، أو تأخير في نمو القوى العقلية كضعف الذاكرة ، أو البلة ، وربما المستيريا أو غير ذلك من العلل النفسية ، لذلك كل حرم الإسلام تزوجي المدمن نظراً لهذه الأخطار المترتبة على زواجه . فيصاب هو ، وتصاب ذريته بتصاب الأمة والنوع الإنساني .

3 - الخيار لكل من الزوجين في فسخ عقد الزواج
 أعطى الإسلام الخيار لكل من الزوجين في فسخ عقد الزواج فيها إذا ظهر أحدهما مصاباً بعاهة جسمية نص عليها الفقهاء ، أو شذوذ فكري كما يحصل أحياناً في أيامنا هذه ، عند ذلك يحق للطرف الآخر الحق في فسخ العقد ، والتخلّي عنه . قال الإمام الصادق (ع) : « إنما يرد النكاح من البرص والجذام والجنون »⁽³⁰⁾ .

فصيانته للمجتمع الإسلامي أعطى الإسلام الحق لكل من الزوجين في فسخ عقد الزواج خوفاً من أن ينشأ جيل ملوث بهذه الأمراض المؤدية إلى تأخير وضعف الكيان الإسلامي . وقد أقر الفقهاء المسلمين ما أوصت به منظمات الصحة العالمية من فحص دم الرجل والمرأة قبل اقترانهما ، حذرًا من أن يكون أحدهما مصاباً ببعض الأمراض الجنسية ، كالسيلان الذي يسبب في كثير من الأحيان عمى الطفل حين ولادته ، أو السفلس أو غيرها من الأمراض الزهيرية التي سببها الفوضى الجنسية . حيث تنتقل كل هذه الأمراض إلى الأبناء المساكين الذين جنّ عليهم جهل آبائهم فعاشوا في شقاء وحرمان من الحياة السعيدة .

(29) المصدر السابق .

(30) وسائل الشيعة ج 14 ص 594

الفصل الثاني الأسرة في الإسلام

من الزواج كانت الأسرة⁽¹⁾ وهي الركن الأساسي في بناء الكيان التربوي والبذرة الأولى في تكوين النمو الفردي وبناء الشخصية . فالطفل في أكثر أحواله مقلد لأبويه في سلوكهم وعاداتهم . والأسرة لها الأثر الهام في سلوك الطفل الفردي ويعث الحياة والطمأنينة في نفسه فمنها يتعلم اللغة ويكتسب القيم ، ومنها يكتسب سلوكه واتجاهاته في مجالات الحياة . ولها الفضل الأول في تعلم الطفل أصول الاجتماع وقواعد الأدب والأخلاق . لذلك كله اهتم الإسلام بالأسرة اهتماماً بالغاً وأولاًها العناية الفائقة لأنها البنية الأولى في تكوين المجتمع . فاعطني أسرة سعيدة وخذ وطنًا سعيداً .

وضع الإسلام نظاماً عادلاً متوازناً للأسرة ، مبنياً على أسس سليمة تتفق مع ضرورة الحياة الإنسانية الكريمة ، وتناسب مع حاجات الناس الضرورية وسلوكهم السليم . وقد أكد الإسلام أن الغريرة العائلية هي من الغرائز الذاتية التي منحها الله للإنسان . قال تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مُوْدَةً وَرَحْمَةً﴾⁽²⁾ فما زلت فطر الإنسان منذ تكوينه على الحياة السعيدة في الأسرة التي تربط بينها ميثاقاً غليظاً من المودة والرحمة .

إن إشاعة الود والعطف بين أفراد الأسرة الواحدة يترك عليها ظلاً ظليلاً من الطمأنينة التي تؤثر أثراً هاماً في تكوين أفرادها تكونها سليماً . فإذا لم يرع الآباء ذلك فإن أطفالهم يصابون بعقد نفسية تسبب لهم الكثير من المشاكل في حياتهم حيث لا تثمر عندها وسائل النصح والارشاد . وقد ثبت في علم النفس أن أشد العقد التي تصيب الأطفال وأخطرها ، هي في مرحلة الطفولة الباكرة من صلة الطفل بأبويه ، كما أن تفاهם الأسرة وإرخاء روابط المودة فيها يساعدها كثيراً على نمو الفكر وازدهار شخصيتها⁽³⁾ .

وأمر آخر ، بالإضافة إلى المودة والرحمة جدير بالاهتمام ، هو أن الإسلام سعى إلى

(1) الأسرة في علم الاجتماع رابطة اجتماعية تتكون من زوج وزوجة وأطفالهما وتشمل الجدود والأحفاد والأخوال وبعض الأقارب على أن يكونوا مشاركين في عيشة واحدة . والزواج الذي لا تصحبه ذرية لا يكون أسرة . (راجع الأسرة والمجتمع للدكتور علي عبد الواحد وافي) .

(2) الرؤم الآية ٢٠ .

(3) الأمراض النفسية والعقلية لابن عربي .

جعل الأسرة المسلمة قدوة حسنة توفر فيها كل عناصر القيادة الرشيدة . وقد وصف الله تعالى عباده الصالحين فقال سبحانه :
﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبُّنَا هُبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذَرِيَّاتِنَا قَرْةٌ أَعْيُنٌ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَقِينَ إِمَامًا﴾ (٤١) .

وقد ألمحنا في بحث الوراثة واهتمام الاسلام بالرابطة الزوجية التي تقوم على الفحص والاختبار ، حذرًا من أن يكون أحد الزوجين مصاباً ببعض العاهات فتسرى الى البناء ، أعضاء المجتمع الانساني . لذلك حذر الاسلام الزوج لكي يختار الزوجة الصالحة ، التي منها ذريته ، ترضعهم الصلاح أو الشقاء مع حليبيها الطفولي ، وبينها بنزالية طالحة يشقى الوالد المخدوع ويشقى بهم المجتمع . ومن الطبيعي أنه لا يحسن اختيار الزوجة الصالحة له التي لا تعلم من الحياة الا قشورها . فنبدي له الحديث المصطنع والوعود الخلابة بما تنمقه من رسائل الغرام ومعسول الكلام ، أو ما تبديه من حسن الصورة والتجميل والتربيتين بالأزياء المغرية . وهو بصورة جازمة لم يطلع بعد على مكر الحياة ، وخبث العاشقات ، وكيد الفاسقات الخائنات ، ولعله نسي القول العظيم : كن من خيارهن على حذر . أو انه لم يفقه أن الزواج السعيد الذي يحقق أحلامه وأماله إنما يكون إذا اقترن بأمرأة شريفة النفس كريمة الخلق ، صادقة الاعيال ، ينجب منها الذرية الطيبة التي تكون قرة عين له في حال شيخوخته . وهذا ما يريده الاسلام وما أمرنا أن نحذر ونحتاط من أجله «إياكم وغضراء الدمن» .

إن نظام الأسرة الذي سنه الاسلام ، يقوم على أساس متين من الوعي وكل ما تسعد به الأسرة ويفؤدي إلى تمسكها وترتبطها من جميع النواحي : الأخلاقية ، والنفسية ، والفيزيولوجية ، والاجتماعية ، بحيث ينعم كل فرد منها بالطمأنينة والسعادة ويجدد في ظلال أسرته الاسلامية المؤمنة ظلال الرأفة ومتعة الحنان وطيب الدعة ولذة الاستقرار .

وقد سبق الاسلام علماء النفس أشواطاً بعيدة في هذا المجال . جاء في التربية الجنسية (لسيرل . بين) قوله : « لا يقوم الزواج المثالى حقاً على توافق الشهوة فقط ، وإنما يقوم على اتحاد غير شهوانى » أساسه مودة عميقه تتوصى على عمر الأيام وتشمل حتى نواحي الحياة » وهو إتفاق الأذواق والمشاعر والمليول ، وهو إتفاق على الحياة المشتركة ، بما قد تستلزمه من أعباء الأبوة » وهذا بلا ريب ما نشده الاسلام في الرابطة الجنسية لتكون مثالية طاهرة ، تقوم على أساس وثيق من الحب الصحيح والتفاهم العديق حتى تؤدي العمليات التربوية الناجحة في تكوين مجتمع سليم .

أما إذا كان الرابط مادياً فقط ، «معاً بثروة كبيرة أو لقب كبير ، فإن الزواج فاشل لا عالة ولا يعمر طويلاً ، ومن الأوفق عدم إنجاب أطفال يكونون عالة على أنفسهم وعلى أهلهم وعلى مجتمعهم . ويكون عندها التسيب والانحلال .

. (4) الفرقان الآية 74

قال أمير الشعراء شوقي رحمة الله :
 ليس اليتيم من انتهى أبواه من
 هم الحياة وخلفاه ذليلا
 إن اليتيم هو الذي تلقى له
 أما تخللت أو أباً مشغولا

لقد شرع الاسلام المناهج الشاملة المادفة الى إصلاح الأسرة وازدهارها وسعادتها ، فوضع آداباً مشتركة بين أعضاء الأسرة الواحدة . وجعل لكل عضو فيها واجبات ومسؤوليات اتجاه الآخرين ، مما دعاهم الى الترابط الوثيق والتماسك الایجابي في سعادة ونعميم ، دعاهم الى : المودة والتالف ، والى التعاون فيما بينهم ، والى الاحترام المتبادل ومراعاة الآداب .

مسؤوليات الأب وواجباته
 الأب هو رب البيت وعليه يترتب مسؤوليات هامة اتجاه أسرته . من واجباته تقديم جميع مستلزمات الحياة المادية ، من مأكولات وكسوة وتعليم . ومن جانب آخر أهم مما ذكرنا ، الأب مسؤول عن تربية أطفاله وتهذيبهم وتوجيههم الوجهة الصالحة ، وتعويذه العادات الطيبة ، ليكونوا فرقة عين له في مستقبله . ولنا بأئمته أهل البيت عليهم السلام المثل الصائب والصادق . يقول الامام علي (ع) المربى الأول في الاسلام بعد النبي ﷺ الى ولده الحسن :

(ع) « وجذتك بعضي » بل وجذتك كلي حتى كان شيئاً لو أصابك أصابني ، وكان الموت لو أتاك أتاني « فهناك من أمرك ما يعني من أمر نفسي » .
 فعندما يكون الابن هو الأب نفسه يحكي وجوده وكيانه ، فعليه أن يهتم بشؤونه التربوية لأنه فخر وزين له .

على الأب أن يولي أبناءه المزيد من الاهتمام ، فيغدق عليهم العطف والحنان ، ويكرمهم أمام الغير ليقوى لهم شخصيتهم ، ويصبحوا من أروع أمثلة التكامل . من هنا كان المثل القائل : الولد سر أبيه . وعلى هذا الأساس كان النبي ﷺ يرعى سبطيه وريحاناته الحسن والحسين ويقول لها : « هذان ريحانتي من الدنيا ، من أحبني فليحبهما » (١) .

النبي ﷺ المربى الأول والعظيم في الاسلام ، سكب في نفس الحسن والحسين (ع) عاطفته النبلية ، ونزعته الرحيمة حتى صار بحكم تربيته مثلاً يحتذى بسيرتها الندية التي تمثل كل مظاهر العظمة والاعتزاز في تاريخ التربية الانسانية على مر العصور . فسمو في الذات وسمو في الخلق والخلق وهدي في دروب الخير والحق والصلاح .

هذه المعاملة اللطيفة التي تفيض بالعاطف والحنان تقوى شخصية الطفل وتبعده عن العقد النفسية العقيمة . وقد أكد علماء النفس أن رجال العلم العظماء الصالحين يأتون من أسر تعنى بالأطفال . كما ذكروا أن النبودين من الأبناء ، والذين يبدون سلوكاً عدوانياً يكونون من أسر لا تهتم بتربية الأطفال وليس في قلوبهم محبة ورحمة .

(١) حياة الامام الحسن ج ١ ص 83 .

روي أن الأقرع بن حابس لما رأى شدة إقبال النبي ﷺ على حفيديه قال له : « إن لي عشرة من الأولاد ، ما قبلت واحداً منهم » فغاظ ذلك النبي وقال له : « ماعلي إن نزع الله الرحمة منك »^(١) .

ورد في علم النفس التربوي عن سبب سلوك الطفل الاجرامي ومظاهر النبذ والتمرد فعددها :

- 1 - القسوة في المعاملة وأخذ الطفل بالشدة المفرطة .
- 2 - نقد الطفل نقداً مستمراً وكشف معایيه أمام الغير .
- 3 - استعمال العقاب البدني القاسي .
- 4 - إهانة الطفل واتهامه دائياً .
- 5 - عدم ذكر ما يقوم به من أعمال خيرة .
- 6 - مراعاة العدالة في معاملة الأخوة .
- 7 - إبداء الدهشة والاستغراب إذا ذكره بعض الناس بغيره^(٢) .

فعل الآباء جيئاً الابتعاد عن هذه الطرق الملتوية في معاملة أبنائهم ، فلذات أكبادهم خرفاً من الشذوذ والانحراف ، وغضاظاً على سلوكهم ليكونوا أعضاء صالحين في مجتمع صالح ، كما نذكر أن التنبه لثل هذ الأمور بعد فوات الأوان يفقد فعاليته ويصبح بلا جدوى . قال أحد الشعراء :

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت
ولا يلين إذا قومته الخشب
المساواة بين الأبناء

إن تميز الأب لأحد أولاده على الأفراد الباقيين يثير في نفوسهم الغيرة والبغضاء ، و يؤدي إلى نشوء ثورات انتفالية تحملهم إلى الوقوع بالعقد النفسية والأمراض العصبية الخطيرة . فعلي الأب أن يغمر أولاده جميعاً بالحب والحنان والعطف والرعاية ، وإذا ما وجد بين أولاده من يتميز بالأخلاق الحسنة والطاعة والسلوك الإيجابي فعليه أن يحافظ بذلك سراً بينه وبين نفسه ، ولا يصرح به أمام الجميع حتى لا يكون طرفاً بين أطفاله . روى عن الرسول ﷺ أنه رأى رجلاً له ابنان فقبل أحدهما وترك الآخر ، فنهره ﷺ وقال له : « هلاً ساويت بينها »^(٣) .

و قصة يوسف في القرآن الكريم مشهورة حينما آثره أبوه يعقوب على أبناءه الباقيين ، فقد كانوا على أخيهم وألقوه في الجب ، ثم رجعوا عند المساء إلى أبيهم يبكون ، فحزن يعقوب على يوسف حزناً ما بعده حزن ، حتى ابكيت عيناه من البكاء والحزن . كل ذلك سببه الأثرة والتمييز .

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفَ وَأَخْوَهُ أَحَبَّ إِلَيْنَا مَنَا وَنَحْنُ عَصِيَّةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

(١) مكارم الأخلاق للطبرسي ج ١ ص 252.

(٢) راجع علم النفس التربوي لتركي صالح ج ٣ ص 100.

(٣) مكارم الأخلاق للطبرسي ج ١ ص 252.

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عَشَاءَ يَكُونُ ﴾ ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَا ذَهَبْنَا نَسْبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾⁽⁹⁾ .

فعل الآباء أن يعدلوا بين أبنائهم ولا يؤثروا واحداً على الآخر ليجنبوهم داء الحقد والانتقام والغيرة التي تنخر في كيامهم النفسي وتؤدي بهم إلى المهالك التي لا تحمد عقباها .

مراقبة سلوك الأبناء

على الآباء مراقبة أبنائهم في كل حركاتهم وتصرفاتهم ، لأن الجرائم الأخلاقية التي تصدر عن الأحداث كثيراً ما تنشأ من إهمال أهلهم لهم لما يصدر عنهم من شذوذ وانحراف . وأمر طبيعي أن الطفل الذي لم يكتملوعيه ، فإنه حينما يرتكب القبيح ، ويرى غض النظر عنه ، فإنه لا بد أن يتمادي في الشر حتى يتطبع في نفسه ويصبح عادة من عاداته .

ولقد حث الإسلام على مصاحبة الأبناء في سنهم المبكر ، ومراقبة سلوكهم خاصة في سنوات الدراسة في المعاهد والكلليات . لأن الفتى أو الفتاة قد يخدعون في اختيار الأصحاب ، فيتعلمون منهم العادات السيئة التي تؤدي صحتهم كما تؤدي سمعتهم . فيخسرون في الدنيا والآخرة على حد سواء . فالآب مسؤول أمام الله وأمام الناس عن تصرفات أبنائه . الولد صفحة بيضاء ، يولد على الفطرة ، وهو قابل لأن يكتب عليها كل نقش أو صورة ، فإن رافق أهل الخير والتقوى تعود على الخير ونشأ عليه ، وإن رافق أهل الشر والشقاء تعود على الشر وفسدت به نفسه .

ورد عن الغزالى قوله :

« إعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها » والصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة فنيسة خالية عن كل نقش أو صورة وهو قابل لكل ما ينقش ، ومائل إلى كل ما يمال إليه ، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه » وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب ، وان عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه ، والوالى له⁽¹⁰⁾ وقد قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَوْا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحَجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غَلَاظٌ شَدَادٌ لَا يَعْصُمُونَ اللَّهُ مَا أَمْرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يَؤْمِرُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا إِلَيْهِمْ إِنَّمَا تَجْزَوُنَ مَا كُتِمْتُمْ ﴾⁽¹¹⁾ .

يذكر الغزالى الصبيان وهو يرمي الصبيان والبنات معاً ورأيه هام ومفيد تؤكد هذه البحوث التربوية الحديثة .

اجتناب رديء الكلام

على رب الأسرة وعمادها أن يتتجنب رديء الكلام أمام أولاده ويبعد عن كل ما يخل

(9) يوسف الآية 8 و 16 و 17 .

(10) راجع تاريخ التربية لعبد الله المشنوق ص 82 .

(11) التحرير الآية 6 و 7 .

بالآداب العامة وكذلك الأم إذا ها الدور الأكبر في هذا المجال ، لأن أول ما يقلد الأولاد والديهم ، إن خيراً وإن شرًا ، وكلامهما ينفذ إلى أعماق قلوبهم . وقد يحدث بعض المكاره والمشاكل للوالدين نتيجة اختلاف في الآراء والحياة ، فعليهما عند ذلك ضبط الأعصاب وكظم الغضب أمام أولادهم . الوالدان هما المعلمان الأولان ، والبيت هو المدرسة الأولى في الحياة . والمعلم هو القدوة الحسنة في كل تصرفاته وسلوكه . وهنا نتذكر قولًا جميلاً للامام علي (ع) قال : « أقدر انسان من استطاع ضبط عواطفه عند الفرح أو الغضب » .

فإذا أردنا أن يكون أولادنا قدوة حسنة علينا نحن الآباء أن تكونن قدوة حسنة ونسير سيرًا طيباً . وهل يعقل مثلاً أن يطلب الأب من ابنه الصدق في قوله وتصرفاته ويكون هو كاذباً ! فإنه لا ينصاع لقوله ، وإنما يتبع عمله وسيرته .

تأديب الأبناء

من واجب الأب تأديب أولاده إذا شدوا عن الطريق الصحيح أو ارتكبوا ما يخالف التقاليد الدينية والاجتماعية ، فعليه عند ذلك الاسراع في تأدبيهم ليقلع روح الشر من نفوسهم قبل أن يعتادوا عليه ويأخذ مجراه .

وقد أكد الاسلام ذلك مراراً . قال رسول الله ﷺ : « لأن يؤدب أحدكم ولده خير له من أن يتصدق بنصف صاع كل يوم » (١٢) .

والعقوبات التي يفرضها الآباء على تأديب أبنائهم تتضمن العقوبات المادية والعقوبات النفسية .

فالعقاب المادي يجب أن يكون أكبر من السرور الحادث من ارتكاب الذنب وعلى الأب أن يتأكد من أن الألم الناتج منه أكبر من السرور المشق من ارتكاب الذنب . وزيادة على ذلك يجب أن يأتي العقاب مباشرة بعد وقوع الخطأ . ومن الأخطاء التي يرتكبها بعض الآباء شدة انفعالهم أثناء العقاب وياقاعه بصورة انتقامية لا بصورة إصلاحية ، لأن هذا يسبب كراهية بين الوالد والولد . ومن الخطأ أيضاً تهديد الطفل بعقوبة إذا اقترف ذنبًاً ما ثم عدم التنفيذ بعد وقوع الذنب . هذا التصرف يضعف من سلطة الوالد ويقلل من قيمة تهدياته وأقواله في نظر الطفل . كما له تأثير سلبي في نفس الطفل إن في اتجاه الضعف أو في اتجاه العنف ، لأن مثال القوة الذي يحتذيه الطفل قد أصبح واهنًا في نظره .

أما اعتماد العقوبات البدنية التي يلجأ إليها الآباء والمدرسون فنتائجها الظاهرية سريعة ، قد تخندع الوالد أو المدرس بكفايتها . ولكن النظريات الحديثة عند علماء النفس والتربيه تتصحّ بـ عدم اللجوء إلى هذا النوع من العقوبات البدنية ومن الأفضل تركها عند الأهل والمدرسين معاً .

والضرب الثاني من العقوبات هي العقوبات النفسية ، وكثيراً ما تكون أقسى من العقوبات البدنية . لذلك لا يجوز تكرارها لأن نوبخ الطفل ونذكره بخطئه يوماً بعد يوم .

(١٢) مكارم الأخلاق للطبرسي ج ١ ص ٢٧٠

وإذا استعملنا التوبیخ مرات عديدة ماذا يحصل ؟ بعد فترة وجیزة يشعر الطفل بالذنب فیتألم .
وفي المرحلة الثانية يتضائق فيكره ويفقد على مصدر التوبیخ ، وبزيادة التكرار تأتي مرحلة عدم الاعتراف ، فلا يغير التوبیخ أي اهتمام بعد ذلك وبعضاً الآباء يطلبون من أبنائهم الاعتذار مباشرة بعد توقيع العقاب عليهم « هذا الأسلوب يرفضه علماء النفس » لأن فيه إذلاً وعدم اعتبار لما يحب إثماه في الأطفال من الشعور بالكرامة وعزّة النفس .

والطريقة المثلثة التي ينصح باتباعها المربيون في تربية الأطفال هي اعتمادهم سياسة ثابتة . فإذا أظهروا مثلاً في وقت أنهم يرفضون سلوكاً معيناً عند أبنائهم ، فلا يجوز لهم التراجع عن موقفهم والتذبذب بين رأي وآخر . ونعطي مثلاً واقعياً . فافرض أن طفلاً ما صدر منه لفظ بذيء فلا يجوز لأهله أن يضحكوا منه مرة ، وإذا تكرر منه اللفظ يعاقبونه عليه . عندها يضيع الطفل ولم يعد يعرف مدى الخطأ والصواب .

فكيف بنا إذا نحن علمنا أطفالنا اللفظ بعض الكلمات النابية وخاصة في مرحلة تعلمهم اللغة ، فماذا يحدث ؟ لقد سمعتها مراراً من أهل جاهلين يستلطفون تلفظ ابنهم المدلل بمثل هذه الألفاظ . ثم يعودون في مجال آخر فيضربونه أمام الناس للخطأ عينه . إن هذا التذبذب في التربية وتغيير المواقف يخلق في الطفل قلقاً وأضطراباً وضعف عزيمة . وهناك الكثير من الانهيارات العصبية عند الشبان يرجع سببه إلى هذا النوع من السياسة التربوية : عدم اتخاذ موقف ثابت .

تعويد الطفل على تناول الحلال
على الأب أن يعود أطفاله منذ نعومة أظفارهم على تناول الحلال وإبعادهم عن حرمته الله في كتابه الكريم وفي سنته الشريفة . كأخذ شيء ليس لهم وأكلهم الطعام النجس ، كل حم الخنزير وغيره من المحرمات المنصوص عنها في كتب الفقه والتي ذكرها فقهاء المسلمين في رسائلهم العملية .

لقد شدد الإسلام على كل هذه الأشياء المحرومة لأنها تعيق نمو الطفل وتضعف شخصيته وتؤثر في نفسه تأثيراً سيئاً ، فألزمتنا نحن الآباء بإبعاد أطفالنا عن الغذاء الحرام ، وقد روى عن الرسول ﷺ :

أنه رأى سبطه الحسن (ع) يأخذ ثمرة من ثمر الصدقة وكان طفلاً ، فزجره وقال له : « إرم بها أما علمت أنا لا نأكل الصدقة » (13) .

كما روى أيضاً عن حفيدة الرسول ﷺ السيدة أم كلثوم ، بعد موقعة كربلاء حللت عيال الإمام الحسين (ع) إلى الكوفة ، فانبرى أحد الكوفيين وتناول أطفال الإمام بعضًا من التمر والجوز متصدقاً بها عليهم ، عندها زجرتهم حفيدة الرسول ﷺ وعرقتهم أنها صدقة وهي محمرة على أهل البيت . فرمأها الصبي للحال . فانتظر هذا السلوك التبر المستقيم في ميادين التربية عند أهل البيت الذين لم يعرفوا الناينيغ مثيلاً لهم من نزاهة في السلوك ، وعفة في الأعمال ، وصدق في الأقوال ، وسموا في الغاية والقصد .

(13) رياض الصالحين ص 147 .

إبعاد الأطفال عن العملية الجنسية

لم يترك الاسلام امراً صغيراً أو كبيراً يضر بأطفالنا إلا منها عنده .. فقد أمرنا أن نبعد أطفالنا عن المكان الذي يغشى فيه الرجل زوجته . فلا يجوز للطفل أن يرى أو يسمع ماذا يحدث في ذلك المكان . لأنه يوجب تهيج الشهوة عندهم ، وتعويذهم ميادين الدعاارة والفجور . وهذا ما يحدث في البيوت الضيقة ، حيث تسكن عائلة مؤلفة من كذا نفس ، فيهم البنات والصبيان ، فن iam الجميع مع أهلهم في غرفة واحدة . هذا مرفوض أبداً في الاسلام والتربية الحديثة . قال الامام الصادق (ع) : « لا يجماع الرجل امرأته أو جاريتها وفي البيت صبي ، فإن ذلك مما يورث الرزنا »⁽¹⁴⁾ .

وقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو أن رجلاً عشي امرأته وفي البيت صبي مستيقظاً يراهما ، ويسمع كلامهما ، ونفسهما ، ما أفلح أبداً إن كان غلاماً كان زانياً أو جارية . كانت زانية »⁽¹⁵⁾ .

وما نهى عنه أهل البيت ينهى عنه علماء التربية اليوم ، وهو أمر لا يحتاج الى نقاش ، لأن حلال محمد ﷺ حلال الى يوم القيمة وحرامه حرام الى يوم القيمة .

أكمل علماء التربية إبعاد الأطفال عن أهلهم أثناء العملية الجنسية ، لأن في ذلك صيانة لهم من الانحراف والشذوذ . ولما لم تعن التربية الغربية بذلك انزلق أبناؤها الى الانهيار الأخلاقي وسائر المشكلات الجنسية » وتدحر العادات الاجتماعية . ورد في كتاب التربية الجنسية .

« ما دامت الناحية الجنسية موجودة عند الجميع حتى عند الأطفال منذ مولدهم ولو بقيت في حال الكمون حتى سن البلوغ فمن المهم أن تتفادى الآتيان بأى عمل قد يستثيرها قبل أوانها ، وثمة آباء لا يرون ابعاد الطفل عن الحجرة عندما يخلعون ملابسهم ولكنهم يتمادون في هذا السبيل ، ويظنو أن واجبهم يحتم عليهم باعتبارهم من التقدميين المجددين (أو المثقفين) أن يوفروا الغرض لكي نراهم عراة ولكن متى تكررت رؤية الطفل فإنها عن قريب تولد بدورها اهتماماً زائداً بخصائصه في نفسه »⁽¹⁶⁾ .

إن نفسية الطفل سريعة التأثر جداً يراه ، لذلك كان من الضروري إبعاده عن كل ما يثير الشهوات ويقلل نفسيته باكراً قبل أوانها .

يجب على الآباء أن يعنوا بالخبرات الجنسية الأولى للطفل لتكون صحية وصححة ما يمكن كما عليهم أن يحيوا على أسئلة الطفل إجابات صحية وصرحة بروح علمية خالصة . وإنما امتنعوا عن الاجابة فإن الأطفال يحصلون على هذه المعلومات من رفاقهم أو من الخدام أو السوق الأشرار .

(14) وسائل الشيعة ج 7 ص 95.

(15) الكافي ج 2 ص 85.

(16) التربية الجنسية للسيد لـ بين ص 55.

وسواء أكانت هذه الأسئلة متصلة بالعالم المادي أو الاجتماعي ، أم كانت متصلة بجسمه ووظائفه والفرق بين جسمه وجسم غيره من الإنسان والحيوان ، فعلى الآباء أن يكونن موقفهم من أطفالهم واضحًا وثابتاً .

مسؤوليات الأم وواجباتها

قال العلماء : الدنيا أم ، وقال الشعراء : الأم هي الدنيا . وقال الأدباء واللغويون الأم هي المصدر الأصيل منه تتفرع الفروع والجزئيات . وقالوا عن فاتحة الكتاب هي أم الكتاب . وقال عنها المربون :

الأم هي المدرسة الأولى في بناء شخصية الطفل وإكسابه العادات . أول وجه يراه الطفل ويتأثر به هو وجه الأم . فالأم الصالحة المهذبة المتقنة تنشيء جيلاً صالحًا لنفسه ولمجتمعه . والأم غير الصالحة والجاهلة تخرج جيلاً جاهلاً مصاباً بالانحلال الأخلاقي والسلوك الفاسد وغير المترزن .

تحمل الأم مسؤولية تربية واجتماعية وانسانية كبيرة جداً ، فهي مسؤولة عن مستقبل الأمة وصلاحها وانطلاقها في ميادين الحضارة . وحضارتها لأطفالها تكون اللبنة الأولى في بناء الكيان التربوي الصالح أو الطالح . قال عنها الشاعر الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

يكسب الطفل من أمه قبل الثامنة من عمره الفضائل والطموح والاقدام والاعتماد على النفس في كل ما يقول وما يعمل . فهي التي تبني الأسس الأولى لاتجاهاته وأخلاقه في سن مبكرة ، وهذه الأسس التي يكسبها يصعب تبديلها فيما بعد . فإذا اعتاد الطفل أن يكون طموحاً ومقداماً ومثابراً في أعماله ، يتقن ما يعمل ، يكون ركناً متيماً في مجتمع متحضر . قال رسول الله ﷺ : « المؤمن هو من إذا عمل عملاً اتقنه » وقد خلقها الله بفطرتها تلك دافع ذاتية لرعاية الطفل وتربيته .

أودع تعالى في قلبه الصبر الجميل ، والحب العميق في تربية أطفالها . وذلك بداعع فطري ذاتي ، وهذا ما أمكن الطفل أن يعيش ويحيا .

والأم أكثر دراية بأخلاق أبنائها ونفسياتهم ، وأبصر من غيرها بالوسائل السليمة التي تجدي فلداتها كبدتها وتوجههم نحو الخير والصلاح ، وتبعدهم عن الشر والفساد .

وأمر هام أيضاً هو أن الطفل بفطرته يستجيب لأوامر أمه لحاجته إليها في كل أموره ، فهي مشكى ضيمه ، ومنفذ رغباته ، ومصدر عطائه .

لذلك نراه يسعى إليها جاهداً لتنفيذ رغباتها وكسب رضاها .

هذه بعض الأمور التي تحمل الأم عبئاً كبيراً ومسؤلية خطيرة في تنشئة أطفالها تنشئة صالحة واعية .

الأم انسانة حية ووالدة أحياه تعلم النشء كيف يمارس مناشط الحياة فكراً وفعلاً وقولاً . وكيف يستمتع بماله طرباً وغناءً وجماً .

تعلم ولدها كيف يحقق ذاته ويؤدي رسالته ليتتصر في معركة الحياة ويتجاوز مخاوفها من المهد الى اللحد بأمان وثقة وسلام .

الأم الصالحة تاج معقود على جبين الأعمدة وسبابيل القمع الغنية ، ومفتاح جنات يتدلّى على باب السعادة الكبير .

ماذا أقول في إنسانة تهز السرير بيمنها وتهز العالم بيسارها ؟ ماذا أقول في مولدة حياة وأرواح الجنة تحت أقدامها ؟

سمت الطبيعة بعادتها فأخرجت مbasim الزهر الملونة تفتحاً لادة التراب وإعلاء لمعاني الطين .

وسما الله بالانسان فكرمه وجعله خليفة على أرضه مسخراً له قوى الكون بشتى أنواعها وأشكالها .

وسما الانسان بالصخر الصلب فسواء بإرادته وفنه معبداً وقصراً ، وبالحديد فذوبه وصبه وجعله طيراً معلقاً .

وسمت المرأة بالرجل فجعلته يعيش حياة عليا في تاريخ القلب تفيف عن جانبيه السعادة ويرفل في ظلال الحب والطمأنينة .

واجبات الأم
بقدر ما للأم من دور عظيم في صناعة الحياة بقدر ما يتربّ عليها مسؤوليات هامة وكثيرة :

1 - على الأم أن ترعى سلوك أبنائها ، وتسهر على تربيتهم ، وتزرع في نفوسهم النزعات الكريمة والمثل العليا ، فهم قرة عينها وذخيرة لها في مستقبلها . تعودهم على السلوك الطيب وتشجعهم عليه بجميع طاقاتها .

2 - تجنبهم عن العادات السيئة والسلوك العاطل الذي يتنافى مع العقائد الدينية والعادات الاجتماعية ، وتوضح لهمضرر الناجم لهم ولأسرتهم ولمجتمعهم .

3 - على الأم أن تربى بناتها على العفة والطهارة ، وترشدهن الى الطرق الحسنة والعادات الشريفة ، فتحذرلن من الاستهتار وارتداء الملابس الغربية البعيدة عن الحشمة واللوقار ، حتى لا يتلوثن بالأخلاق الفاسدة التي داهمت حياة شبابنا وشبابنا الفكرية والعقائدية .

ولا يخفى أن البنت أطوع لأمها من الصبي وأحرض منه على كسب رضاها لأنها بحاجة ماسة إليها ، فعل الأم في مثل هذه الحالة أن تروضها على إدارة المنزل وتجعلها تشعر بأعباء الحياة لتؤدي البنت دوراً مشرفاً في الحياة وتكون أمًا صالحة لنشء صالح .

4 - الأم ربة الأسرة في غياب الأب فعليها أن تشعر أبناءها بمقام أبيهم ودوره الهام في الإنفاق على الأسرة والتعب من أجلها ، وعليها أن تظهر له الاحترام والتقدير أمامهم حتى يتسمى له القيام بتأديبهم وإرغامهم على السلوك الحسن .

5 - من واجب المرأة الصالحة أن تطيع زوجها وتتجنب كل ما يزعجه ويسيء له لأن ذلك يخلق جوًّا من الكراهة والبغضاء يؤدي إلى اضطراب الأبناء وشعورهم بالمخاوف ، كما يخلق في نفوسهم عقدًا نفسية في حياتهم الخاصة . وقد حرم الإسلام على المرأة إغضاب زوجها في كل ما يكره ، وحثها على إرضائه وخلق جوًّا مريح له بعد قضاء يومه في الكد والتحصيل والتعب .

قال رسول الله ﷺ : « ايماء امرأة آذت زوجها بلسانها ، لم يقبل الله منها صرفاً ولا عدلاً ولا حسنة » من عملها حتى ترضيه (١٧) .

وقال ﷺ في حديث آخر : « ايماء امرأة لم ترقى بزوجها وحلته على ما لا يقدر عليه ، وما لا يطيق منها لم تقبل منها حسنة ، وتلقى الله وهو غاضب » (١٨) .

6 - عليها أن لا تسرف في دلال أطفالها لأن ذلك يفقدها سلطتها عليهم ويخلق مصاعفات سيئة تسيء إلى تربية الطفل في مستقبله فيضعف عن تحمل الأمور الصعبة والمشاكل التي تعترضه في مستقبل حياته .

7 - على الزوجة أن لا تخفي شيئاً عن زوجها فيما يعود إلى أمور أبنائهما فلا تستر لهم ذنب ، ولا تموه ما يقترفون من أخطاء ، وواجبها يحتم عليها إخباره عن كل شؤون الأسرة وذلك حتى يقوم بدوره اللازم في تأديب المذنب من أولاده وإرغامهم على السلوك الحسن .

8 - عليها أن تراقبهم مراقبة دقيقة مع معاشرهم ورفاقهم ، وخاصة في هذه الأيام التي تتع باللغريات والفساد من شتى الألوان ، إذ يتاثرون بعادات رفاقهم وينحرفون مع المصابين منهم فيتلوثون بأمراضهم ورذائلهم .

وافي أعرف الكثير من الطلاب الأذكياء والشقراء انحرفوا عن صوابهم بعد مخالطتهم رفاق سوء ، فتعلموا منهم العادات السيئة كشرب الدخان والخمور والقمار . . . وانجرفوا معهم إلى أوحال الحياة ومنكرياتها . نسأل أمهاتهم كما نسأل آباءهم أين كانوا؟ وماذا فعلوا؟ وهل استطاعوا درء جرثومة الفساد بعد أن استفحلا واستشرى؟

9 - على الأم أن تحافظ على عفتها وحسن سلوكها ، فلا تبرج تبرج الجاهلية الأولى وتخلع حجاب الحياة عنها ، بل عليها أن تحافظ في سيرتها على الآداب الإسلامية لتكون قدوة حسنة لأبنائها لأنهن يمثلون بها في كل ما تقول وتعمل .

هذه بعض الأمور التي ينبغي للأم مراعاتها وتطبيقاتها على حياتها الزوجية وبين أفراد أسرتها . وبذلك تكون قد ساهمت في جلب السعادة والراحة لها ولزوجها ، وعاشت عيشة راضية بعيدة عن كل هم وغم .

أجل إن الزوجة الصالحة تسهل أمام زوجها طريق الخير ليجتاز مصاعب الحياة ومتاعبها

(١٧) (١٨) مكارم الأخلاق ج ١ ص ٤٦-٤٧

وتنظر بالحاظ العطف والفتنة والذكاء ، فتعيره نشاطاً جديداً ودفعاً جديداً . وقد روى عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم بنسائكم في الجنة ؟ قلنا بلى يا رسول الله . قال : كل ودود ... ولسود ... إذا غضبت أو أسيء إليها أو غضب زوجها لحق قالت : هذه يدي في يدك لا أكتحل بغمض حتى ترضى ... »⁽¹⁹⁾ .

واجبات الأبناء

الاسلام العادل المتكامل فرض على الآباء مسؤليات وواجبات ، وفرض لهم حقوقاً بالمقابل تحفظهم . فقد أوجب عليهم الانفاق وأوجب على الأبناء طاعتهم المطلقة . فعلى الابن المسلم أن يعامل والديه بالرفق والاحسان ويقدم لها كل ما يملك من طاقات الخدمة ، فيسخر نفسه للعمل بكل ما يرضيها ويسعدها ، ويرضى الله الرحمن الرحيم . قال تعالى في عدة آيات مشرقات بلزم الاحسان والبر للوالدين منها :

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عنك الكبير أحدهما أو كلامها فلا تقل لها أفي ، ولا تنهرها وقل لها قولاً كريماً ، وانخفض لها جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحهما كما ربياني صغيراً ﴾⁽²⁰⁾ .

وانظر معى هذا النهج الانساني العظيم الذي يمثل أصلالة الاسلام في تربيته وتعاليمه ، لقد قرن سبحانه وتعالى الاحسان للأبدين وطاعتتها بعبادته وطاعاته .

وانظر معى هذه الصياغة الأدبية الساحرة في التعبير ، فأى خطابة وأى شعر ، وأى كلام « وأى سحر » ، وأى أداء ! لقد أكد رب العالمين :

« إن من البيان لسحراً بيان يأخذ بالبابنا فسحر أمام وقعه وتأثيره وروعة أسلوبه .
﴿ وانخفض لها جناح الذل من الرحمة ﴾ إنه التعبير المعجزة الذي تقف عنده أقلام البلغاء والأدباء والشعراء وأرباب البلاغة والبيان | خاشعة مستلهمة . ونعود إلى دلالة الآية الكريمة التي تطلب من الأبناء أن يسخروا أنفسهم للعمل بما يرضي والديها ، وما يشيع في نفوسها روح الرضى والقبول . فليس لهم أن يتفوهوا بكلمة يرشح منها السأم أو الضجر » وبصورة خاصة عندما يبلغان سن العجز والشيخوخة « . ويعجزان عن القيام بشؤونها ، كما كانت حالة الأبناء في أول خروجهم إلى الدنيا . فكم تعب الوالدان وكم ضجحا وسهرا من أجل راحة أبنائهم . فرد الجميل بمثله أو أفضل منه واجب انساني أمر به الاسلام دين العدالة والسماحة والصلاح . فإنه أكد على الأبناء خدمة الوالدين ورعايتها ، وعليهم أن يخفضوا جناح الذل والتواضع والرق ، ويدعوا لها بكل ألوان الاكبار والتكريم .

روى عن أبي ولاد الخطاط قال : « سألت أبي عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجل : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ ما هذا الاحسان ؟ فقال : الاحسان أن تحسن صحبتها وأن لا تتكلفها ان يسألاك شيئاً مما يحتاجان إليه ، وإن كانوا مستغنين⁽²¹⁾ . أليس يقول الله عزّ

(19) الترغيب والترهيب للمنذري .

(20) الاسراء الآية 23 و24 .

(21) أصول الكافي للكليني ج 2 (وإن كانوا مستغنين) : أي يمكنها تحصيل ما احتاجا إليه .

وجل : ﴿ لَا تناولوا البر حتى تتفقوا مَا تحبون ﴾ ثم قال أبو عبد الله (ع) : وأما قول الله عز وجل : ﴿ إِمَّا يُلْغَى عِنْكُوكَبُرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كَلَاهُمَا فَلَا تُتَقَلَّهُمَا أَفَ وَلَا تَتَهَرَّهُمَا ﴾ قال : إن أضجراك فلا تقل لها : أَف ؟ ولا تبرها إن ضرباك قال : وقل لها قولاً كريماً قال : إن ضرباك فقل لها : غفر الله لكما فذلك منك قول كريم ؟ قال : وانخفض لها جناح الذل من الرحمة .﴾ لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلا برحة ورقة ، ولا ترفع صرتك فوق أصواتهما ، ولا يدرك فوق أيديهما ، ولا تقدم قدامهما .

روى عن الإمام زين العابدين (ع) : « وأما حق أمك ، فإن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحداً وأعطيتك من ثمرة قلبها ، مالا يعطي أحد أحداً ووتقتك بجميع جوارحها ، ولم تبال أن تجوع وتطعمك ، وتعطش وتسقيك ، وتتعرى وتكسوك » وتصحي وتظللك ، وتهجر النوم لأجلك ووتقتك الحر والبرد لتكون لها ، وانك لا تطيق شكرها الا بعون الله وتوفيقه .

وأما حق أبيك : فإن تعلم أنه أصلك ، وانه لوالاه لم تكن ، فمهما رأيت في نفسك ما يعجبك ، فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه ، فاحمد الله واشكراً على قدر ذلك ولا قوة إلا بالله (22) .

وفي هذا المعنى قال الشاعر أمية بن أبي الصلت بين يدي النبي ﷺ :

تُعَلِّبُ بِمَا أَدْنِي إِلَيْكَ وَتُنْهَلُ
لِشَكْوَكَ الْأَسَاهِرَأَتْلَمِلُ
طَرَقْتَ بِهِ دُونِي وَعَيْنِي تَهَمَّلُ
لِتَعْلَمَ أَنَّ الْمَوْتَ حَتَّمَ مَؤْجَلُ
إِلَيْهَا مَدِي مَا كَنْتَ فِيهِ أَوْ مَلُ
كَأَنْكَ أَنْتَ الْمُنْعَمُ الْمُتَفَضِّلُ
فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُجاوِرُ يَفْعَلُ
وَفِي رَأْيِكَ التَّفْنِيدُ لَوْكَنْتَ تَعْقِلُ
بَرْدٌ عَلَى أَهْلِ الصَّوَابِ مَوْكِلٌ (23)

غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً
إذا ليلة نابتك بالشكوك لم أبت
كأنني أنا المطروق دونك بالذى
تحاف الردى نفسي عليك وأنها
فلما بلغت السن والغاية التي
جعلت جزائي منك جبهأً وغلظة
فليتك إذا لم ترتع حق أبيك
وسميتنى باسم المفند رأيه
تراءاً معداً للخلاف كأنه

وعن جابر عن أبي عبد الله الإمام الصادق قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني راغب في الجهاد ، نشيط ، قال : فقال له النبي ﷺ : فجاهد في سبيل الله فإنك إن تقتل تكون حياً عند الله ترزق ، وإن قمت فقد وقع أجرك على الله ، وإن رجعت رجعت من الذنب كما ولدت ، قال : يا رسول الله إن لي والدين كبيرين يزعمان أنها يائسان بي ويكرهان خروجي ، فقال رسول الله ﷺ : فقر مع والديك فالذي نفسي بيده

(22) مكارم الأخلاق للطبرسي في باب ذكر الحقوق على الإنسان .

(23) هذا الشعر من ديوان الحماسة لأبي عام لأشده بين يدي النبي ﷺ فأخذ عليه الصلاة والسلام بتلايب الولد وسلمه لوالده قائلاً له : « أنت ومالك لأبيك » الأخلاق الإسلامية للسيد علي فضل الله ص 98 .

لأنسها بك يوماً وليلة خير من جهاد سنة . . . »⁽²⁴⁾
إن بر الأبناء لأبائهم أكثر ثواباً ، وأعظم أجراً من الجهد الذي هو باب من أبواب
الجنة .

وعن عناية الاسلام بالبر بالوالدين ، روى زكريا بن ابراهيم قال : كنت نصراينياً ،
فأسلمت وحججت فدخلت على أبي عبد الله ، فقلت له : « إني كنت نصراينياً ، وإنى
أسلمت » « فأي شيء في الاسلام رأيت؟ ». قال النصراني : قول الله عز وجل ﴿ ما كنت
تدرى ما الكتاب ، ولا الامان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من شاء ﴾ .

رفع الامام يديه بالدعاء له بالهدى وال توفيق ، وسألته زكريا ، فقال له : إن أبي وأمي
على النصرانية ، وأمي مكفوفة البصر ، فأكون معهم وأكل من آنيتهم » فقال (ع) يأكلون لحم
الخنزير؟

قال : لا ، ولا يمسونه » أجابه الصادق (ع) : « لا بأس ، فانتظر أملك فبرها ، فإذا
ماتت فلا تكلها إلى غيرك ، كن أنت الذي تقوم بشأنها . . . » .

ولما قفل راجعاً إلى بلده عمل بوجي الشريعة الاسلامية ونفذ ما وجهه إليه الامام
الصادق ، فبر والدته وأحسن إليها ، وتعهد خدمتها ، فاستغربت من كثرة عنایته بها ، ومن
تغيره مجرى معاملته لها فقالت له : « يا بني ، ما كنت تصنع هذا بي ، وأنت على ديني ، فما
الذي أرى منك منذ هاجرت فدخلت في الحنفية؟!؟ » .

« رجل من ولد نبينا أمرني بهذا » قالت : هذا الرجلنبي ﷺ . قال : « لا - ولكنـه
ابنـنبي ». فقالـت : « إنـهذه وصاياـالأـنبـيـاء ، إنـدينـكـخـيرـدينـ» وطلـبتـ منهـ أنـ يعرضـ
عليـهاـالـاسـلامـ فأـسـلـمـتـ .

الدين الاسلامي لم يدع صفة حميدة ، ولا مزية صالحة إلا جعلها من صلب نظامه ،
وأمر المسلمين المؤمنين ليكونوا المثل الصالح في مجتمعهم ، والقدوة الحسنة وخير أمة أخرجت
للناس .

الروابط بين الوالدين

إن للروابط السليمة والمبنية بين الوالدين أهمية كبرى في تكوين الأبناء فتعاونهما
وأنسجامهما يخلق جوًّا هادئاً ومتزنًا ينشأ فيه أفراد الأسرة . من هذا الاتزان العائلي يكسب
الطفل ثقته بنفسه ، وثقته بالمحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه ويعامل معه . يقول الدكتور
القوصي : « وبدراستنا لما يزيد عن ثلاثة حالة من حالات الأحداث المجرمين والمشردين
تبين أن 75% تقريباً من الحالات يرجع فيها الاجرام والتشرد رجوعاً مباشراً إلى انهيار صرح
الأسرة ، مما يدل أن تماسك كيان الأسرة له أثره القوي المباشر في سلوك الأبناء »⁽²⁵⁾ .

(24) مكارم الأخلاق للشيخ الطبرسي - باب ذكر الحقوق على الإنسان

(25) أحسن الصحة النفسية ص 197 .

- وعلى العكس من ذلك إذا ما حدث خلاف بين الوالدين فإن تفكك روابط الأسرة حاصل لا محالة . ذلك أن الطفل عندما يرى ويسمع المشاجرة بين والديه ويعيش جوًّا ثقيلاً قلقاً ، يترك البيت ويلجأ في أكثر أوقاته إلى الشارع ، وتبدأ هنا سلسلة من سلوك غير مرغوب فيه بسبب ذلك كله عدم ثقة الولد بالكيان العائلي .

وقد يحدث هذا التفكك العائلي وانحلال روابط الأسرة لأسباب عديدة ، على الآباء والأمهات الذين لم يقعوا فيها ولم يذوقوا طعمها المر بعد ، ان يخذلواها . منها :

- سوء الحالة الاقتصادية قد يخلق جوًّا من التوتر العائلي إذا لم تستوعب الزوجة حالة زوجها وأمكانته ، أو إذا كان الزوج كسولاً متراخياً في تحصيل نفقات الأسرة الازمة . فعلى الزوجة هنا أن تشطط زوجها وتشجعه دون أن تهمل واجبها نحو أطفالها .

- اختلاف الوالدين على طرق تربية الأبناء فالآب يعتمد طريقة ما في تربية أطفاله قد تكون غير مرضية بالنسبة للزوجة ، فاما أن تكون قاسية جداً أو متراخية جداً ، فيحصل الاختلاف في وجهات النظر المتباينة . وبعد ذلك تحدث المشكلة التي يجب تداركها من قبل الوالدين منها كلف الأمر حرصاً منها على مصلحة أولادهم ، مستقبلهم وأهل حياتهم .

- قد يحدث التفكك بسبب وفاة الأم أو الطلاق ، وهو أبغض الحال عند الله ، فيترتب على ذلك أن يتزوج الأب بزوجة ثانية ، ويكون أخوة غير أشقاء ، وتبدأ سلسلة من المهزات العائلية بين زوجة الأب وأولاده من زوجته الأولى ، ويسود القلق الأسرة وتضعف الثقة بين أفراد الأسرة . نواة المجتمع وركيزة الأولى .

ونوجز القول أنه كلما توثقت الروابط بين الوالدين كلما زاد احتمال صلاحية الجو العائلي ل التربية الأبناء تربية صالحة ، أما في حال اختلافها ، فقد ينعكس ذلك على جو الأسرة وتفقد الثقة بالوالدين مما يؤدي إلى سلوك الأطفال في مواجهات مضللة لا تحمد عقباها .

الفصل الثالث

الأسرة في العصور الحديثة

تختبط الأسرة اليوم في مشاكل خطيرة بسبب التغيرات الاجتماعية التي أفقدتها الكثير من وظائفها الرئيسية السابقة ؛ مما أدى إلى تفكك عرى الأسرة ، وانهيار الروابط الوثيقة التي كانت تشد أفرادها بعضهم إلى بعض مدى الحياة ومن المؤسف أن الواقع الذي نعيشه اليوم قد آلت إلى إهمال شؤون الأسرة حتى أصبحت عند البعض مصدرًا من مصادر الاستغلال . فالرجل يستغل زوجته وأولاده متذرًا منهم أدوات انتاج . وبذلك تحولت إدارة المنزل إلى إدارة مصنع ، وأصبحت العناية بالأطفال قضية عامة . فالمجتمع يأخذ على عائقه تربية جميع الأطفال . . . وبهذا يذوب حجاب الخجل الذي كان يساور قلب الفتاة ، وتضييع القيم الأخلاقية الشريفة . وباختصار لقد منيت الأسرة العصرية بأضرار فظيعة في ظل الحضارة المادية الحديثة .

كانت المرأة سابقاً مستقرة في بيتها تعنى بتربيه أطفالها وتقوم بشؤون زوجها وأسرتها على أكمل وجه . أما اليوم فقد تركت منزلاً لشاركت بأعمال تشبه أعمال الرجل ، وأصبحت شؤون المنزل والأسرة عملاً ثانوياً في كثير من الدول المتحضرة ترى المرأة أن انجاب الأطفال وتربيتهم يتعارض مع قيامها بتولي الوظائف العامة ويعيقها سير عملها الوظيفي . الأمر الذي نجم عنه تحديد النسل أو عدم التفكير في إنجاب الأطفال . وإذا ما أنجبت ، ولدًا أو ولدين تتركهم للخادمة لتسهر عليهم وتشرف على تربيتهم فيكسب الطفل وراثة أمه وأخلاق خادمته .

والذي نتج من تخلي المرأة عن رعاية أسرتها تفكك هذه الأسرة وانحلالها وضعف الرابط النفسي والاجتماعي الذي يربط بين أفرادها .

وقد أثبتت التجارب أن الطفل لا ينبع من حليب أمه فحسب ، بل يحتاج إلى عطفها وحنانها وهذا الغذاء العاطفي الذي يغذي نفسه أهم بكثير من الغذاء الجسدي الذي ينمي شخصيته : لمن هنا كانت أهمية التغذية الطبيعية من ثدي الأم على التغذية الاصطناعية . لأن في الأولى يتمتع الطفل بأمررين هامين هما الغذاء والحنان . وأما التغذية الاصطناعية فإنها تخلو غالباً من شعور الطفل بحنان أمه . فيحسن بالأطفال الذين يحرمون من التغذية الطبيعية أن تضمهم أمهاه إلى صدورهن حسب ما ينصح به أطباء الأطفال⁽¹⁾ .

(1) أنسن الصحة النفسية للتوصي من 75.

وقد شدد علماء النفس وال التربية على خروج المرأة من بيتها والمساويء التي تنزل بالأسرة من جراء ذلك ، لأن الطفل لا ينشأ نشأة سليمة إلا إذا أخذ حظه من الحب والحنان من أمه . يقول الفيلسوف العظيم «رسُل» : «إن الأسرة انحلت باستخدام المرأة في الأعمال العامة » وأظهر الاختبار أن المرأة تتمرد على تقاليد الأخلاق المألوفة »⁽²⁾ .

ويقول العالم الكبير سامويل سمایلس : « إن النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في المعامل منها تنشأ عنه من الثروة للبلاد ، فإن نتيجته هادمة لبناء الحياة المتزيلة لأنه يهاجم هيكل المنزل ، ويقوض أركان الأسرة ، ويمزق الروابط الاجتماعية . . . »⁽³⁾

إن استقرار الأسرة من استقرار المرأة في بيتها واهتمامها بتربية أطفالها تربية صحيحة واعية . واستقرار الأسرة ينجم عن استقرار المجتمع ؛ أما خروجها من بيتها وزاحتها الرجل في أعماله ، فإنه يؤدي إلى عجزها عن القيام بهامها الجليلة في تربية النساء ، حيث يكون العمل قد أتعبها واستنزف منها جميع قواها .

ولا ريب أن هذا التصرف يشكل خطراً جسماً على الجيل الناشئ إذ يعرضه إلى الإصابة بالكثير من الأمراض النفسية والانحلال الأخلاقي ، وعدم الاستقامة في السلوك بعد أن دلت التجارب العملية في المجتمعات المادية على ذلك التدهور الخطير .

نجم عن كل ذلك إشكالات عديدة في الأسرة الحديثة عند البلدان المتحضرة منها :

- 1 - تدني نسبة الزواج .
- 2 - الملوعة والتحلل الأخلاقي .
- 3 - حقوق الأبناء .
- 4 - الشذوذ الجنسي .

أ - إنخفاض نسبة الزواج

الأمر الخطير الذي يهدد كيان الأسرة الحديثة في أنحاء العالم المتحضر الذي تخلت فيه المرأة عن واجبها المقدس في حفظ كيان الأسرة وحسن رعايتها ، هو تضاؤل نسبة الزواج وإنخفاضه إلى حد كبير . وقد تسرب هذا الخطير إلى بلداننا نحن اليوم عبر شبابنا المتخصصين في البلدان الأجنبية . فقد يبلغ الواحد منهم الأربعين والخمسين من العمر عازباً ، وإذا سأله عن سبب التأخير في زواجه ، يجيب : لم يكن الوقت بعد ، ولماذا الاستعجال !

فلماذا امتنع الكثيرون من الشباب عن الزواج ؟ إن ما ينشدونه من المتعة الجنسية قد صار بتناول أيديهم ، وما يطلبونه لسد غرائزهم أصبح ميسوراً ولماذا يقدمون على الزواج ويعانون من أعباءه الفادحة .

ورد في النظام التربوي في الإسلام عن الشيخ بيبي الحولي قال : « يمتنع الشباب عن

(2) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي ج 2 ص 92.

(3) نظرية العلاقة الجنسية في القرآن الكريم ص 95.

الزواج لأنه قيد يحجزه عن التخوض فيها شاء من اللذة المتتجدة ، فقد أقبلت عوامل التطور الحديث على كثير من المجتمعات الغربية بحرفيات واسعة في الفكر والقول ، والعقيدة والسلوك الخاص وأنشأت لهم أهدافاً في المال ، والمنفعة واللذة الحسية تعارض ما كان لهم من أهداف روحية . ومقاييس لمعانى العرض والعفة ، وصار لكل منهم حرفيته الواسعة في حياته الخاصة يفعل منها ما يريد دون رقابة من قانون أو تخرج من عرف .

وكان من ذلك أن تفجرت الشهوات ، وسادت عبادة الجنس ، وراج جنون اللذة يستبد بالباب كثیر من أفراد تلك المجتمعات ، فرأوا في الزواج قياداً يحد من حرفياتهم في ابتغاء ما يريدون ، فنبذوا حياة الأسرة ، ورکنا إلى المخادعة ، كلما فترت رغبة أحدهم في خليلته أو فترت رغبتها فيه انصرف كل منها عن صاحبه حيث يجد اللذة في رغبة جديدة وشوق أشد⁽⁴⁾ . مما لا ريب فيه أن ذلك يفضي إلى انخفاض نسبة الزواج وتضاؤل النسل وبالتالي إلى تناقص عدد السكان . وقد ظهرت آثاره السيئة في الكثیر من البلدان الأوروبية . ودراسة واقعية تبين لنا بوضوح إلى بن يسير النسل البشري في العالم المتحضر !

ففي فرنسا مثلاً (لا تزال تهبط فيها نسبة المواليد منذ ستين عاماً متواالية) وقد تبين أن عدد الجنود الذين اضطرت الحكومة إلى أن تفيهم من العمل وتبعثهم إلى المستشفيات في السنتين الأوليين من سني الحرب العالمية الأولى لكونهم مصابين بمرض الزهري خمسة وسبعين ألفاً ، وابتلي بهذا المرض وحده (242) جندياً في آن واحد في ثكنة متوسطة ، ومثل هذا المرض يؤثر على النسل تأثيراً هائلاً .

ومثل هذه الظاهرة منتشرة بكثرة بين الشباب الأمريكي . « وقد أعلن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أن أكثر من مليون شاب أمريكي لم يصلحوا للخدمة العسكرية من بين ستة ملايين تقدموا لل التجنيد » .

وقد عزا ذلك إلى حياة الترف التي انغمست فيها الشعب الأميركي بصورة عامة .

وفي السويد انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين وارتفاع مستمر في نسبة عدد المواليد غير الشرعيين ، مع الملاحظة أن 20% من البالغين الإناث والذكور لا يتزوجون أبداً ، ونسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم كله ، وإن طلاقاً واحداً يحدث بين ست أو سبع زيجات طبقاً للاحصاءات التي أعدتها وزارة الشؤون الاجتماعية بالسويد .

وفي ألمانيا عار على البنت أن تبقى بكرأً وأدوات منع الحمل موجودة في كل طريق⁽⁵⁾ فـأين هذا كله من صالح المجتمع البشري ؟ وإلى أين المصير ؟

وجملة القول إن نسبة المتزوجين من رجال ونساء قد انخفضت عن ذي قبل بسبب ظروف وعوامل أوجدها المدنية الحاضرة والحضارة الحديثة باسم الحرية الشخصية المزيفة .

كل هذا حصل بسبب البعد عن الإسلام ، لأن الإنسان بعيد عن الإسلام يظلم نفسه

(4) النظام التربوي في الإسلام لباقر شريف القرشي ص 97.

(5) راجع الإسلام لسعيد حواس 216 وما بعدها .

ويقتل نفسه ويعيش حياة الألم والندم ، والانسانية بلا اسلام تدمر نفسها وتعيش حياة الشقاء الدائم منها أخذت حظها من اللذة العابرة .

ب - الميوعة والتحلل الأخلاقي

أسرفت الأسر الحديثة بألوان غريبة من المللات والمحرمات ، مما أدى إلى انحراف الأخلاق ، وانحطاط السلوك . فأكثر الشبان المتحضر ينساق وراء اللهو وينحرف عن الطريق الشريف السليم . كل ذلك بسبب انحراف الأهل فالطفل الذي يشاهد أبوه يأم عينه ، وهما عاكفان على شرب الخمر والأعمال المشينة فإنه حتى يتأثر بذلك في سلوكه وتوجيهه .

ومن الطبيعي بعد ذلك أن يخلق جيل متحلل أخلاقياً غير متماسك ، لا يعنى بالقيم الانسانية والمثل الاجتماعية ، ولا تؤثر فيه النصائح والإرشادات ، ولا يحس باللوم والمهانة .

قال النبي واصفاً هذه الحال :

من ينـسـهـلـ الـهـوـانـ عـلـيـهـ ما لـجـرـحـ بـيـتـ إـبـلـامـ
وـالـحـقـيقـةـ أـنـ فـسـادـ الـأـبـنـاءـ يـعـودـ إـلـىـ فـسـادـ الـأـسـرـةـ الـتـيـ يـعـيـشـونـ فـيـهـاـ ،ـ فـمـنـ شـبـ عـلـيـ
المـيـوعـةـ وـالـتـحـلـلـ شـابـ عـلـىـ الـفـسـقـ وـالـانـحـرـافـ .

وقد وصف الأسرة بعض الباحثين في الشؤون التربوية فقال :

«لقد أصبحت الأسرة جواً مخزيًا للتربية بصورة عامة لأن الآباء والأمهات في العصر الحديث قد تجاوزوا الحد المقرر في السذاجة أو العصبية أو الضعف أو الشدة ، وربما يعلم أكثرهم بعض العيوب لأطفالهم . وأكثر الأطفال الذين يجدون صوراً مختلفة عن سوء الأخلاق والفساد ، والمشاكسة والسكر في البيت والأسرة ، والكثيرون منهم إن لم يجدوا مثل هذه القضايا في البيت فلا بد وأنهم تعلموها من أصدقائهم »⁽⁶⁾ .

ج - حقوق الأبناء
البيئة الصالحة تنشئ أسرة صالحة والأسرة الصالحة تنشئ جيلاً صالحاً . أما إذا فسدت البيئة وطغى عشر الفاسدين فسرعان ما يتفسى هذا المرض ويقضي على البقية من الشباب الصالحين ، وغالباً ما يحدث هذا في سن المراهقة .

وعقوق الأبناء هو من مظاهر الانحلال الذي منيت به الأسرة الحديثة .

إن انفصال الأبناء عن أسرهم ساعات طويلة من اليوم ومعاشرتهم عصابات السوء . تخلق في نفوسهم التشكيك بقيم الآباء وعاداتهم وأفكارهم « فيثرون وينقمون على كل ما يعتقد الأهل من قيم انسانية شريفة وتقالييد اجتماعية صالحة . عند ذلك يبدأ الآباء بالشكوى مما يعانون من عقوق أبنائهم وسوء آدابهم وعدم حشمتهم ، ومقابلتهم بالقصوة والحرمان . وقد عرفت كثيراً من الطلاب يطعون أهلهم ويخترونهم ولما عاشروا المنحرفين والشاذين غيروا معاملتهم مع ذويهم ، وتنبع صراع عنيف بينهم وبين آبائهم بسبب تمردهم وخروجهم على

. (6) الطفل بين الوراثة والتربية لحمد تقى فلسفى ج 1 ص 289 وما بعدها .

حدود الطاعة . وقد علل العالم الكبير الشيخ الدكتور صبحي الصالح أسباب عقوق الشباب المعاصر ورفضهم فقال :

« إن شباب اليوم - أمام التغيرات المفاجئة المذهلة في عصرهم - يعانون معاناة شديدة من تكاثر مطالبهم وتعقدتها ، من غير أن يجدوا الفرصة الملائمة لتلبيتها وتحقيقها ، من هنا يصعدون موجات تمردتهم على المجتمع متمثلاً في سلطة الآباء ، أو سلطة المعلمين ، أو سلطة الحكام ، أو سلطة التقليد المنشقة بزعمهم من الدين مع أن الدين من جهتها براء ثم تابع :

والشباب عندما يتباهمون بالضرر والملل والسامية ، ويقعون فريسة الفراغ والبطالة والضياع ، وتبلغ بهم الحيرة متهاها ، يؤنسون الحاجة إلى ما يروي ظمأهم ، ويزيل فلقهم ، ويسأله فراغهم ، ويستجيش طاقتهم من مناهج التربية الوعائية المسؤولة ، ومن أساليب التوجيه الروحي ، ومن طرائق التخطيط الاجتماعي ، ولكنهم لا يجدون في شيء منها ما يشفي الغليل » . فيعودون كرة أخرى إلى تصعيد التمرد والرفض لكل شيء من حيث يريدون أو لا يريدون «⁽⁷⁾ . وقد أطلق على مجتمعنا العصري « مجتمع الاستهلاك » .

إن التغيرات الحادثة في نظام الأسرة التربوي والاجتماعي قد أوجبت غردد الأبناء وخروجهم على حدود الطاعة . وهذه التغيرات الخطيرة في نواميس الحياة البشرية » لا يمكن درأها أو مقابلتها إلا بتغيير كاف في التهذيب » . ونكرر القول ان الاسلام هو الطريق الوحيد للتخلص من كل هذه الأمراض الاجتماعية .

د - الشذوذ الجنسي

من أخطر آثار تضاؤل الزواج وانخفاضه في الدول المتحضرة ، إشاعة الشذوذ الجنسي وانتشاره بين الناس . وهو مرض عضال يهلك الحرف والنسل وتضاعف فيه الانساب وتهار قواعد الأخلاق⁽⁸⁾ . لذلك شدد الاسلام على جريمة الزنا وقرنها مع جريمة قتل النفس والشرك بالله . قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَآءَآخَرَ ، وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزِنُونَ وَمَنْ يَفْعُلُ ذَلِكَ يَلْقَى أَثَاماً يُضَعِّفُ لَهُ الْعِذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِي مَهَانَةٍ إِلَّا مِنْ تَابَ وَأَمْنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَسْدِلُ اللَّهُ سِيَّاهَمْ حَسَنَاتِهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾⁽⁹⁾ .

وحرصاً من الاسلام على صيانة شرف المرأة وكرامة الرجل منع من خلو الرجل بالمرأة الأجنبية . قال رسول الله ﷺ : « لَا يُخْلِلُونَ أَحَدَكُمْ بِأَمْرَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي حِرْمٍ »⁽¹⁰⁾ . كما أمر بأن

(7) معلم الشريعة الاسلامية ص 242.

(8) من الزنا : اللواط وهو شذوذ جنسي أصاب قديماً قوم لوطن فسمي لوط فسمي لوطاً بحيث يكتفى الذكر بالذكر . « وقد كان حكم مرتكب الحب الشاذ في انكلترا ان يدفن حياً أو يلقى في حطب مستعر ، ومن ثم منذ 1861 أصبحت عارسته بالتاريخي والاتفاق لا عقاب عليه من قبل المشرعين في أغلب البلاد الاوروبية ، وقد خصصت أماكن خاصة لممارسته بكل حرية في فرنسا وانكلترا وألمانيا والنمسا وغيرها . راجع عمر حالة .

(9) الفرقان الآية 68-69-70.

(10) صحيح البخاري .

تحفي المرأة زينتها ولا تظهرها إلا لمن يحق لها . قال تعالى : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ولি�ضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن وأبائهن إلى آخر الآية »⁽¹¹⁾ .

لقد حارب الاسلام الشذوذ الجنسي بشتى الوانه كما حارب الفوضى الغريزية وطالب النهوض بالمرأة إلى أعلى المستويات ، فأرادها سيدة كرامة جليلة تحافظ على عزتها وكرامتها وتبقى كما أرادها رب العالمين ، ربة عائلة كرامة ومربيبة جيل . والمجتمع الذي يصاب بالفوضى الجنسية تنتشر فيه الأمراض الزهرية المهلكة التي تقضي على عماسك شخصيته وترمي به إلى هاوية الموبقات والرذائل ، كما تهدد الأسرة بأمواج من الآلام الطاغية المهلكة .

البيئة وأثرها في التربية

كل إنسان لا يخضع في سلوكه لتكوينه الداخلي فحسب وإنما تؤثر فيه عدة عوامل خارجية تتفاعل معه وتؤثر فيه . وقد رأى علماء التربية والاجتماع أن للبيئة أثراً هاماً في عالم التربية . فالطفل يقلد بيئته تقليداً غير شعوري وتطيع في نفسه عاداتها وتقاليدها . فإذا حسنت البيئة حسنت آثارها ، وإن ساءت أصبح النشء يتأففاتها ومشاكلاها . وكما قالوا : الإنسان ابن بيته لأنها تطبع آثارها في دخائل نفسه ، وتكتسب أخلاقها وعاداتها .

أجمع علماء التربية أن البيئة الاجتماعية من أهم العوامل التي تعتمد عليها التربية في تحقيق رغبات الأفراد وتشكيل الشخصية الإنسانية ، كما تعمل على تحقيق التكامل الاجتماعي فتقلل من ظهور التوترات ومظاهر السلوك المنحرف مما يؤدي إلى اندماج الفرد بالجماعة وإيمانه بأهدافها وقيمها⁽¹²⁾ .

وعن طريق البيئة الاجتماعية يرتفع مستوى طموح الأمة العلمي والأدبي في البلاد ، كما أنها مسؤولة عن أي انحطاط أو انحدار للقيم التربوية . فعليها أن تطالب المسؤولين بإيجاد الوسائل الفعالة لنشر الثقافة والوعي بين أفراد المجتمع . وكل فرد منا مسؤول بمطالبة حكومته لإيجاد الوسائل التي تدفع مجتمعه إلى التطور والرقي وتساهم مع غيرها من البلدان الأخرى المتقدمة في بناء الحضارة الإنسانية .

وأمر هام جداً له تأثيره في تطور البيئة الاجتماعية ، هو استقرارها وابتعادها عن الاهتزاز والاضطراب . لأن ذلك يؤدي إلى اضطراب الأسرة وعدم استقامة سلوك النشء .

ورد في كتاب التكيف النفسي لمصطفى فهمي « إن استقرار البيئة من أهم الأسباب في عماسك شخصية الطفل واذهارها وأبعادها عن عوامل القلق فقد ذهب علماء النفس إلى أن اضطراب البيئة ، وما تحويه من تعقيديات ، وما تشتمل عليه من أنواع الحرمان كل هذا يجعل الطفل يشعر بأنه يعيش في عالم متناقض مليء بالغش والخداع والخيانة والحسد ، وإنه مخلوق ضعيف لا حول له ولا قوة تجاه هذا العالم العنيف »⁽¹³⁾ .

(11) النور الآية 31.

(12) راجع الأسس الاجتماعية للتربية (اليونسكو) .

(13) التكيف النفسي ص 22.

وبعد دراسة قام بها إخصائيون في عالم التربية وجدوا أن البيئة المستقرة سيكولوجيا والأسرة التي يعيش أفرادها في جو من العطف المتبادل ، هي أول أساس يرتكز عليه تكيف الطفل من الناحية العاطفية . ومن هذا المنطلق يتم تركيز الطفل في علاقاته الاجتماعية بصورة صحيحة وناجحة . أما إذا اضطربت الأسرة وساعات معاملة الوالدين فقد يعجز الطفل عن الاندماج في المجتمع .

وقد ميز علماء التربية بين نوعين من البيئة :

أ - الطبيعية : وهي كل ما يحيط بالانسان من الأمور المادية كالارض والنبات والحيوان وما يتولد فيها من القوى والطاقة على اختلاف أنواعها . كما تكون منها العلوم الطبيعية والفيزياء والكيمياء التي تدرس في الثانويات والجامعات ، فجميع هذه العلوم تتعلق بالبيئة الطبيعية التي ينبغي أن يفهمها الطلاب ليتمكنوا من تكيف أنفسهم مع أحوال بيئتهم ومعطياتها .

ب - الاجتماعية : ونقصد بها المجتمع البشري وعلاقة أفراده وجماعاته بعضهم مع بعض من سياسية أم ثقافية أم اقتصادية أم سيكولوجية التي منها جيئاً تتألف البيئة الاجتماعية ، كما تكون منها العلوم الاجتماعية : كال التاريخ والجغرافية ، والاقتصاد ، والتربية ، والسياسة ، فكلها جيئاً تتعلق بالبيئة الاجتماعية التي ينبغي للمتعلمين أن يلموا بها إلاماً تاماً ، حتى يتمكنوا من تكيف أنفسهم بمقتضاهما ، فمنها تنمو القيم الروحية والنفسية في تربيتهم ورفع مستواهم .

الاسلام والبيئة الاجتماعية

عني الاسلام بأمر البيئة لأنه وجدتها من العناصر الفعالة في التكوين التربوي والاجتماعي . فصلاح البيئة صلاح الأسرة التي تمد المجتمع بخيرة الرجال الصالحين ، وبفسادها تبني الأمة بالأشرار والفحار الذين يفسدون في الأرض ويحررون الويلاط على مجتمعهم .

لذلك أرصد الاسلام كل إمكاناته وأجهزته من أجل إصلاح البيئة ، لكي تسود فيها القيم الانسانية الوعية من الحق والخير والمساواة ويزهر فيها الباطل والظلم والأنانية ، وتكون خير أمة أخرجت للناس خالية من كل فتنه واضطراب .

واهتم الاسلام اهتماماً بالغاً في أمر البيئة الخاصة فلا يلاحظ بدقة أهم جوانبها المؤثرة في انفعال الفرد وإكسابه العادات الحسنة والأخلاق الطيبة ، الا وهي الصداقة .

لقد أكد علماء الاجتماع أن الصداقة من أقوى العوامل التربوية التي تنقل أخلاق الصديق وميوله ونزاعاته الى كل من يصادقهم ، لأن الحياة الاجتماعية حياة تأثر وتأثير فيما نرافق ونعاشر . والمثل المأثور : قل لي من تعاشر أقل لك من أنت . وقال الشاعر :

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يهتدى

إن مصاحبة الأخيار تغرس في النفس الأخلاق الطيبة وتدفع ب أصحابها إلى المعالي النبيلة ، أما معاشرة الأشرار فإنها تقود إلى الاستهانة بالقيم الشريفة ، وتباعد بين الإنسان وبين القيام بالأعمال العظيمة ، كما تهون عليه اقتراف الآثم والرذائل .

فالقرئين الصالح هو الملاذ في اللمات ، وهو المرشد الأمين ، لطريق الحق والنجاح في هذه الحياة . والقرآن الكريم دعا إلى اختيار الأصحاب الصالحين الذين يطاعون الله ، والمتجردين من كل إثم ومعصية . قال تعالى :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهِمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعَشَيِّ يَرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدِ عِنْكَ عَنْهُمْ تَرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَمُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرَهُ فُرُطًا ﴾ (١٤) .

وقال سبحانه في آية أخرى : ﴿ فَاعْرُضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يَرِدْ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١٥) .

حتى الإسلام على التمسكين بدينه ومصاحبة ذوي النبل والشرف والاستقامة حتى يكسب منهم حسن السلوك ومكارم الأخلاق .

قال رسول الله ﷺ وأصفًا الجليس الصالح والجليسسوء خير تصوير في قوله : « مثل الجليس الصالح وجليسسوء كحامل المسك ونا Finch الكبير فحاملي المسك إما أن يخذلك وإما أن تبتاع منه وإنما أن تجد منه ريحًا طيبة . ونا Finch الكبير إما أن يحرق ثوبك ، وإنما أن تجد منه ريحًا خبيثة » (١٦) .

وما أن الصدقة ، كما أسلفنا ، تأثر وتتأثر ، وتفاعل الفرد بأخلاق صاحبه وميوله واتجاهاته ، فقد حذر الإسلام من مصاحبة المصائب ببعض الأمراض النفسية والأخلاقية .

قال المربى الكبير أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (ع) لولده الإمام الحسن (ع) :

« يا بني إليك ومصادقة الأحق فإنك يزيد أن ينفعك فيضررك ، وإليك ومصادقة البخيل فإنه يبعد عنك أحوج ما تكون إليه ، وإليك ومصادقة الفاجر فإنه يبعرك بالتألف ، وإليك ومصادقة الكذاب فإنه كالسراب يقرب إليك البعيد » ويبعد عنك القريب .. (١٧) .

بعد أن عين الإمام علي (ع) الأشخاص الذين يحدرون بنا بعد عنهم ، حدد لنا الإمام الحسن بكلمات ذهبية واجبات الصدقة في الإسلام التي تقضي بلزوم الرعاية والود والتعاون الشريف بين الصديقين .

قال (ع) في وصيته لجناة : « وإذا نازعتك إلى صحبة الرجال حاجة ، فاصحب من إذا صحبته زانك وإذا أخذت منه صانك ، وإذا أردت منه معونة أعنانك ، وإذا قلت صدق

(14) الكهف الآية 28.

(15) النجم الآية 29.

(16) رواه مسلم وزراجع المجازات النبوية للشريف الرضي . يخذلك : يعطيك .

(17) أصول الكافي ج 2 ص 242 . وحياة الأم الحسن ج 2 ص 474 .

قولك ، وإن صلت شد صولتك وإن مددت يدك بفضل مدها ، وإن بدت منك ثلعة سدها ، وإن رأى منك حسنة عدتها ، وإن سأله أعطاك ، وإن سكت عنه ابتدأك وإن نزلت بك إحدى الملمات واسألك ، من لا تأتيك منه الباقي ولا مختلف عليك منه الطرائق ، ولا ينذلك عن الحقائق ، وإن تنازعنا منقساً أثرك . . .⁽¹⁸⁾

فعل الشاب المؤمن بدينه وعقيدته أن يكون حذراً من الاتصال ببعض المصابين بأخلاقهم وسلوكيهم ، وما أكثرهم في هذه الأيام ، أولئك المترفين الذين لا يفهون أي مغزى نبيل مجتمعهم ، ولا يملكون أدنى وعي إسلامي أو وطني ، فراحوا ينالون من مقدسات الأمة الروحية وقيمها الاجتماعية . فعل الشاب المؤمن أن يحذرهم ولا يتلوك بأثامهم وعاهاتهم .

وما يأسف له جميع المؤمنين في عصرنا اليوم ما منيت به البيئة الاجتماعية بالمخاوف والقلق وفقدان الأمن ، وذلك من جراء الجشع الذي أترعى به نفوس السياسيين في الدول الكبرى وغزوهم الشعوب المستضعفة في الأرض واستعمارها بشتى الوسائل .

فأين نحن اليوم من الجاهلية القديمة ، أين جاهلية القرن العشرين من جاهلية الماضين ؟ بل هي أخطر وأدهى ! وذلك بسبب المخترعات التي اكتشفتها العقول الحديثة : كالصحافة والراديو والتلفزيون وغيرها من وسائل النقل التي سهلت الاندماج والتشابه بين الشعوب ، في تبادل الأفكار ونقل العادات بسرعة فائقة لم يسبق لها مثيل في العصور السابقة . وقد واجه المؤمنون بدينيهم وعقيدتهم ومبادئهم ألواناً مختلفة من الاستعمار ، حين اسرعت كل دولة كبرى إلى فرض مبادئها وسياساتها وأفكارها . وكان الصراع الحاد الذي نجم عنه الحروب المدمرة والويلات المرعبة ، وأصبحنا نعيش في قلق دائم لا نعرف ماذا تضرر لنا الدول الكبرى من هزات وكوارث وشروع ، ولم ترك شيئاً من أجهزتها الحديثة في الدمار إلا وعرضته على أرضنا في لبنان وغير لبنان من الدول المستعمرة ، المستضعفة . لقد شجعت المخترعين عندها في إبداع الأجهزة الالكترونية والأقمام الصناعية والرؤوس النووية ، ولا أدرى ماذا بعد من السلاح المدمر للحياة البشرية والحضارة الإنسانية .

نقول لهؤلاء جميعاً أن الفجر لقريب مهما طال الليل ، ونور الاسلام الحق سوف يزهق الباطل على كل أرض العالم ، ان الباطل كان زهوقاً . وبعد هذا كله يعمدون الى معاهدات صداقة بيننا وبينهم . فانتظر ، رعاك الله ، الى قيمة هذه المعاهدات ومبدأ هذه الصداقات المفروضة ! يحييهم الله في كتابه العزيز وهو خير القائلين :

﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾⁽¹⁹⁾ .

لقد حذرنا الاسلام من الصداقات المزورة واجتناب المترفين عن خطه السليم

. (18) المصدر نفسه ج 2 من 474

. (19) البقرة الآية 256

القويم . قال تعالى :

﴿ وَلَا تَتَبَعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلَّلُوا مِنْ قَبْلِكُمْ وَأَضْلَلُوا كَثِيرًا ﴾⁽²⁰⁾ .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَؤْمِنُوا إِلَّا مَنْ اتَّبَعَ دِينَكُمْ . . . ﴾⁽²¹⁾ .

المسلم المؤمن هو من أحب الله ، وكره الله ، وجاهد الله ، وعمل في سبيل الله ، وصادق المؤمنين الأخيار « إنما المؤمنون إخوة » وتجنب الملاحدة الأشرار ، واتبع رسالة الأئمة الأطهار ، وعمل بسنة المصطفى المختار . وقد جاء على لسان أحد المؤمنين قوله : « الله غايتنا والرسول قدوتنا والقرآن دستورنا والجهاد سبيلنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا » .

(20) المائدة الآية 77 .

(21) آل عمران الآية 73 .

الفصل الرابع

التخطيط التربوي الاسلامي

فضائل العلم

العلم تحيا به القلوب كما تحيى الأرض بوابل المطر . والعلم أساس لكل فضيلة فيه
عمرت البلاد وعم الخير ، وبه اكتشف الانسان أسرار الحقيقة ، ولم تنهض أمة من أمم
الارض إلا بواسطة العلم .

والعلم نور يهدي بصائر المؤمنين الى نعيم الدار الآخرة وإلى سعادة الحياة المثل التي
يتطلبها كل زمان .

ووالله تعالى جعل الانسان أفضل مخلوقاته ومميزه عن غيره بالعقل والعلم » وعلمه بالقلم
ما لم يعلم . والعلم أهم شيء ي يحتاجه الانسان في حياته لأن به سعادة الروح وراحة الجسد ،
 فهو يمنح صاحبه مقاماً عزيزاً منيعاً ، ويجعل حامله شريفاً رفيعاً .

قال أحد الشعراء :

العلم يحيي قلوب الميتين كما تحيي البلاد إذا ما مسها المطر
والعلم يجعل العمى عن قلب صاحبه كما يجعل سواد الظلمة القمر

والعلوم التي عرفها الانسان كثيرة ومتعددة والعلوم الدينية هي الأولى بالتعلم والتعليم ،
أما العلوم الزمنية فهي من الضروريات التي تتطلبها الحياة الاجتماعية » وعلى هذا يكون
طلب العلم لازماً وضرورياً بل واجباً كفائياً على كل فرد من أفراد المجتمع .

والعلماء هم القادة الأمناء لبني البشر جميعاً الذين أناروا العقول وأحيوا الأفكار ، ونبهوا
الغافل من سباته ، وأنقذوا الجاهم من ضلاله . وكل بلاد لم يكن العلماء فيها هم قادتها ،
يتسلط عليها الطامع فيفرق أهلها وتصبح فريسة لشهواته ، وميداناً لغاراته . ولا يمكن لأحد
أن ينكر أن العلماء هم الذين خدموا الانسان في كل أنحاء الأرض ، وقد «اـلـخـاصـارـةـ»
الإنسانية أشواطاً في ميادين التقدم العلمي ، والإنجازات العمرانية ، ووسائل
من الاختراعات الهمامة التي تدهش العقول ، كل ذلك بفضل عصارة أفكارهم النيرة
وجهودهم المشكور . فعلماء الفيزياء والكيمياء ، والأطباء ، والمهندسوـن ، قدموـا كلـ ما يـرـيـعـ
الجسم الإنساني من متاعب الحياة وأعباء الدنيا ؛ والأنبياء الكرام ، والأدباء العظام ، وهبوا
كلـ ما يـسـعـدـ الروحـ الإنسـانـيةـ وـيـزـيلـ عنـهاـ حـجـبـ الـظـلـمـ وكـابـوسـ الـظـلـمـ ،ـ بـالـقـيـمـ الـروحـيـةـ
والعلوم الأخلاقية التي هذبت النفوس وكانت تفتحاً لسادة التراب ، وإعلاءً لمعاني الطين ،

ومفتاحاً لجنت باب السعادة الكبير .

فالعلوم الزمنية التي رفعت مستوى الحضارة الإنسانية والعلوم الدينية التي حفظت النظم الاجتماعية والسعادة الأخرى ، كلها نحن بحاجة إليها ؛ فالأولى غدت الأبدان ، والثانية غدت الأرواح . فالعلماء قدموا أنفسهم خدمة المجتمع وضحوا في سبيل رفاهية غيرهم كالشمعة التي تحرق لتضيء على الآخرين . وقد قرر الله اسمهم مع الملائكة في كتابه العزيز قال سبحانه : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمُ قَاتِلًا بِالْقَسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ⁽¹⁾ .

فالمؤمنون بآيات الله وأولوا العلم رفعهم الله درجات وفضلهم على عباده الآخرين . قال تعالى :

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ⁽²⁾ .

ذلك ان العلماء هم الذين يخافون الله ويخشونه قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عَبْدَهُ الْعَلِيُّ ﴾ ⁽³⁾ .

وقال سبحانه : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ⁽⁴⁾ .

ما عاذ الله الاسلام منطق ، والاسلام عدالة ، والاسلام رحمة .

وهل للإنسان أن ينطق ويعلم إلا بفضل الله ، وهل له أن يكشف الحقائق إلا بالعلم الذي شبهوه بالنور ؟ قال تعالى :

﴿ إِقْرَا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلْقٍ ، اقْرَا وَرِبِّكَ الْأَكْرَمَ ، الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَنْ ، عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ⁽⁵⁾ .

والعلماء هم ورثة الأنبياء خزنوا العلم في صدورهم ليشرحوه ويفصلوه للناس آيات بيئات : قال سبحانه وتعالى :

﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بِيَنَاتٍ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ ⁽⁶⁾ .

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ رَدُوا إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَئِكَ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعِلْمَهُ الَّذِينَ يَسْتَبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ ⁽⁷⁾ .

. (1) آل عمران الآية 18.

. (2) المجادلة الآية 11.

. (3) فاطر الآية 28.

. (4) الزمر الآية 9.

. (5) العلق الآية 1-2-3-4-5.

. (6) العنكبوت الآية 49.

. (7) النساء الآية 83.

وقال عز وجل :

﴿الرَّحْمَنُ عَلِمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ ، عَلِمَهُ الْبَيَانَ﴾⁽⁸⁾ .

وتواترت الأخبار عن الرسول الأعظم وأئمته الهمد الموصومين في فضل العلم والعلماء .

قال رسول الله الذي أرسله الله رحمة للعلماء ورساجاً مثيراً :

«تعلموا العلم ، وتعلموا له السكينة والوقار والحلم ، ولا تكونوا جبابراً العلماً ، فلا يقوم علمكم بجهلكم» .

وقال ﷺ : «من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما فعليه بالعلم» .

وعن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ : «ساعة من عالم يتکىء على فراشه ، وينظر في علمه ، خير من عبادة العابد سبعين عاماً» .

وقال : ﷺ «تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله حسنة ، ودراسته تسبيح والبحث عنه جهاد ، وطلبة عبادة ، وتعليمه صدقة ، وبذله لأهله قربة» .

ويكون العلم فضيلة إذا كان ناتجاً عن الاخلاص في العمل ، أما إذا كان لمارب شخصية ، ومنافع خاصة فيصبح كما قال رسول الله ﷺ : «يا علي ، من تعلم على ليماري به السفهاء ، أو يجادل به العلماء ، أو ليدعو الناس إلى نفسه ، فهو من أهل النار»⁽⁹⁾ .

وقال ﷺ واصفاً أهل العلم وأهل الجهاد :

«أقرب الناس من درجة النبوة ، أهل العلم والجهاد : أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل ، وأما أهل الجهاز فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل»⁽¹⁰⁾ .

وكثيراً من الأحاديث التي أثرت عن الرسول ﷺ تحت المسلمين إلى التقدم في المجالات العلمية ، أما ما أثر عن أئمته الهمد في فضل العلم والعلماء ، فأخبار كثيرة تلمح إلى بعضها على سبيل المثال .

قال الإمام علي (ع) :

«أيها الناس اعلموا أن كمال الدين طلب العلم والعمل به ، ألا وإن طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال ، إن المال مقسم مضمون لكم قد قسمه عادل بينكم وضمنه وسيفي لكم ، والعلم خرون عند أهله ، وقد أمرتم بطلبه من أهله فاطلبوه»⁽¹¹⁾ .

وقال (ع) في كلام له لتميذه كميل بن زياد النخعي بعد أن أخذ بيده وخرج إلى ناحية الجبانة : «يا كميل ، إن هذه القلوب أوعية ، فخيرها أواعها ، فاحفظ عندي ما أقول لك :

(8) الرحمن الآية 1-2-3-4.

(9) وهذا لا إشكال فيه عند أهل المنطق وأصحاب العقول السليمة راجع تحف العقول للحراني ص 43 .
(10) يراجع في هذه الأحاديث أصول الكافي - مسنـد أـحد ! سنـن ابن ماجـة - سنـن الدـارـمي - مـسـنـد أـبي دـاود - العـقدـ الفـريـد .

(11) أصول الكافي ج 1 ص 31 .

الناس ثلاثة : عالم رباني « وتعلم على سبيل نجاة ، وهيج رعاع أتباع كل ناعق ، مع كل ريح يمليون ، لم يستطعوا بنور العلم ، ولم يلتجأوا إلى ركن وثيق ، يا كميل : العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تقصه النفقة والعلم يزكي على الإنفاق ، ومنفعة المال تزول بزواله » يا كميل : محبة العلم دين يدان به ، يكسب الإنسان الطاعة في حياته ، وجيئ الأحداث بعد وفاته . والعلم حاكم والمال محكوم عليه . يا كميل : مات خزان المال وهو أحيا ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة »⁽¹²⁾

وقال أيضاً عليه السلام :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم
على الهدى لمن استهدى أدلة
وقدر كل أمرٍ ما كان يحسن
والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففرز بعلم تعش حيَا به أبداً
الناس موق وأهل العلم أحيا

وقال أبو الأسود النؤلي : « ليس شيء أعز من العلم ، الملوك حكام الناس » والعلماء حكام على الملوك⁽¹³⁾.

وقال الغزالى في إحياء علوم الدين :

تعلموا العلم ، فإن تعلمه لله خشية . وطلبته عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة . وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة ، والدليل على الدين . والمصبر على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاص ، والقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة ، يقتدي بهم أدلة في الخير ، تقتضي آثارهم وترمق أفعالهم ، وترغب الملائكة في خلّهم ، وباحتثتها تمسحهم ، وكل رطب وبابس لهم يستغفر حقّ حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها ، لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأ بصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلي ، والتفكير فيه يعدل بالصوم ، ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله عز وجل وبه يعبد ، وبه يوحد ، وبه يجد . وبه يتورع وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو أمام والعمل تابعه ، يلهمه السعادة ، ويحرمه الأشقياء⁽¹⁴⁾.

وأخبار كثيرة مأثورة عن أئمة أهل البيت (ع) وكلها تدعو المسلمين إلى تثقيف نفوسهم وتتنوير أفكارهم بزينة العلم ، وتحثهم على الاهتمام به ، لا لمأرب شخصية ولا لنافع خاصة ، وإنما لوجه الخير لجميعبني البشر لأن العلم أراده الإسلام أن يكون مباحاً حرّاً كالهواء يتنفسه جميع الخلق ، وكالشمس يستفيد من نورها كل من في وجهه نظر .

وقد شجب الرسول الأعظم جميع الدوافع المادية والمأرب الشخصية التي ينشدها من

(12) راجع العقد الفريد لابن عبد ربه ونهج البلاغة للشيخ محمد عبد

(13) تذكرة السامع لابن جاعزة .

(14) إحياء علوم الدين ج ١ ص ٩ .

لا إيمان له⁽¹⁵⁾ حتى يكون الداعي لطلب العلم خالصاً لوجه الله .

ورد في رسائل إخوان الصفا : على أن يكون الداعي لطلب العلم خالصاً لوجه الله غير مشفوع بأى جهة مادية ، فإن ما يعانيه الطالب من الجهد والعناء وما ينفقه من السهر المتواصل « والتعب الشاق في تلقي العلوم لا ينبغي أن يقصد به مكسباً عظيماً يعود عليه وعلى المجتمع بالخير العميم » وليس هناك أسمى قصداً ولا أكثر عائدية من أن يطلب به رضا الله واليوم الآخر . فقالوا : « إن علم يا أخي إن كل علم ، وأدب لا يحمل صاحبه على طلب الآخرة ، ولا يعينه على الوصول إليها ، فهو وبال على صاحبه وحجة عليه يوم القيمة »⁽¹⁶⁾ . من هذا المنطلق ركز الإسلام أهدافه الأصلية في إلزامه بطلب العلم وحتميته ، وقد حرص الإسلام على أن يكون طلب العلم نشر المعرفة وإشاعة التقوى بين الناس للتتفقه في شؤون الدين ، ومعرفة أحكام الله ، وإبلاغها إلى الناس كافة . قال سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوْ فِي الدِّينِ ، وَلِيَنذِرُوْ فَوْهُمْ إِذَا رَجَعُوْهُمْ إِلَيْهِمْ لِعَلَمُهُمْ يَحْذِرُوْنَ ﴾⁽¹⁷⁾ .

يريد الإسلام بطلب العلم تهذيب النفوس ورفع مستوى الخلق وإبعادهم عن كل انحراف أو شذوذ « كما يغري في أهدافه التعليمية ، نشر العقيدة الإسلامية وتعریف الناس بأحكام الشريعة التي أنزلها رب العالمين على رسوله الأمين رحمة للناس أجمعين .

ومن دواعي التعليم في الإسلام إعداد الناس للحياة الدنيا والآخرة على حد سواء « فدعا الإنسان إلى طهارة القلب وصفاء النفوس والشعور بالمسؤولية وكل ما يشجع غلوه الفكري وتحسين حياته العامة .

قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَابْتَغِ فِيهَا أَنْتَكَ اللَّهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ وَلَا تَنْسِ نَصْبِكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾⁽¹⁸⁾ .

ومن أهداف التعليم في الإسلام تفتح ذهن الإنسان أمام مصالحة العامة ونشر الوعي السياسي والاجتماعي . قال رسول الله ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته .. فقد حل كل فرد مسؤولية شخصية حسب طاقته ومتزنته وإمكاناته .

كما هدف العلم في الإسلام إلى وحدة الأمة الإسلامية وتواسكيها في جميع التواحي ، في العقيدة ، والسلوك ، وال العبادة ، والتاريخ ، واللغة ، والشاعر ، والأفكار ، وطلب من المسلمين ليكونوا جسمًا واحدًا تجمعهم رابطة الإيمان بالله بدل رابطة النسب . قال تعالى :

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْدُوْنَ ﴾⁽¹⁹⁾ . وقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ هَذِهِ

(15) راجع الحديث ص 3

(16) رسائل إخوان الصفا .

(17) التوبية الآية 122 .

(18) القصص الآية 77 .

(19) الأنبياء الآية 92 .

أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴿٢٠﴾ .

هذا عن أهداف الاسلام التعليمية أما عن العلم الذي دعا إليه :

العلم الذي يدعوا إليه الاسلام

لقد أراد الاسلام بعلمه الخير كل الخير للانسان ، أراد كل علم ينفع عباد الله ، وكل علم يدفع الجهل والهمجية » سواء أكان في العقائد الدينية ، أم في الشؤون المادية ؛ فجميع العلوم الحياتية أرادها الله في كتابه العزيز كالعلوم الطبيعية ، والعلوم الاجتماعية ، والتاريخ والجغرافيا ، وعلم النفس ، حضن الله المسلمين على تعلم هذه العلوم ليتعرفوا على الله من خلال عظمته التجلية في آيات صنعه ، فكلما تأمل العالم في دقة هذه المصنوعات كلما ازداد إيماناً وإعجاباً بصناعتها ، فاطر السماوات والأرض . قال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴿٢١﴾ . كما أن هناك حكماً آخرى وهى ما يتبع هذه العلوم من منافع مادية من استخدام الحقائق العلمية في تلبية الحاجات الانسانية .

دعا» الاسلام الى تعلم العلوم الطبيعية

ورد في القرآن الكريم ، الدستور الانساني الكامل ، آيات كثيرة تonus على تعلم العلوم الطبيعية . قال سبحانه وتعالى :

﴿ ألم تر أن الله أتى لمن السماء ماءً فأخرجنـا به ثمرات مختلفـاً الوانـها ومن الجبال جدد بيض وحر مختلفـاً الوانـها وغرابـيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلفـاً الوانـه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴿٢٢﴾ وقوله تعالى أيضاً :
﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلافـاً المستـكم وألوانـكم إن في ذلك لآيات للعالمـين ﴿٢٣﴾ .

يتضح من سياق هاتين الآيتين أن العلماء هنا هم العالموـن بأسرار الخلقـ التي أودعـها الله في مخلوقاته المختلفة الأشكـال والألوانـ . وموضوعـها يبحث موضوعـ العلمـ الطبيعـي نفسهـ . ففي آية فاطـر مثـلاً لا يـعرف سـر نـزول المـاءـ من السمـاءـ الاـ بـعـلـمـ الـطـبـيعـةـ ولاـ يـعـرـفـ تـرـكـيـبـهـ وـخـواصـهـ الاـ بـعـلـمـ الـكـيـمـيـاءـ ، ولاـ يـعـرـفـ الـأـنـبـاتـ وـالـأـثـمـارـ فـيـهـاـ إـلـاـ بـعـلـمـ النـبـاتـ ولاـ يـعـرـفـ ماـ الـجـبـالـ ولاـ مـاـ طـرـائـقـهـ الـبـيـضـ وـالـحـمـرـ وـالـسـوـدـ الاـ بـعـلـمـ طـبـقـاتـ الـأـرـضـ ، ولاـ يـعـرـفـ اـخـتـلـافـ اـحـنـاسـ الـبـشـرـ وـالـدـوـابـ وـالـأـنـعـامـ إـلـاـ بـعـلـمـ أـصـلـ الشـعـوبـ وـالـحـسـوانـ . وـالـلـهـ جـلـ شـانـهـ حـسـرـ الطـبـيـعـةـ الـكـامـلـةـ مـنـ اللـهـ فـيـ الـعـلـمـاءـ الـذـيـنـ يـتـدـارـسـونـ آـيـاتـ الـكـوـنـيـةـ ، حـيـثـ انـ عـلـمـهـ بـأـسـرـارـ

الطـبـيـعـةـ شـعـلـهـمـ عـلـىـ خـشـيـةـ الـخـالـقـ الـعـلـىـ الـعـظـيمـ .

(20) المؤمنون الآية 52.

(21) فاطر الآية 27.

(22) فاطر الآية 28-29.

(23) الروم الآية 22.

علم الاجتماع والتاريخ

قال الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ أَولم يسيراً في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها وجاءتهم رسالهم باليقين فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾⁽²⁴⁾ . وقال سبحانه في هذا المعنى أيضاً : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾⁽²⁵⁾ .

يرشح من هاتين الآيتين المباركتين تكليف المسلم لينظر فيما هو أمامه من الكائنات ، ولبحث فيما كانت عليه الأمم السالفة من قوة السلطان واتساع العمران وازدهار حياتهم الاجتماعية وتطورها نحو الأفضل من أجل تلبية حاجات الإنسان ورغباته المتعددة .

ثم دعا سبحانه ليتأمل ما آلت إليه تلك الأمم من هلاك ودمار لابتعاث الشهوات ، وانحرافها عن الصراط المستقيم « فكانوا أنفسهم يظلمون ». لقد أهمل هؤلاء تعاليم ما جاء به رسالهم باليقين المشرقات ولم ينظروا في أسباب تكون الأمم في ارتفاعها السلم الحضاري وتطورها وتقدمها » حتى بلغت قمة الازدهار ، ثم انحطاط هذه الشعوب وخرابها ودمار ما حصلته من جهود ومآثر وتراث . فإذا ما تأملوا هذا الخطيباني في الارتفاع والانهيار والأسباب المؤدية إليها ؟ أفل يؤدي هذا التعرف كله إلى القواعد والأصول في علمي الاجتماع والتاريخ بكل ما يستملان عليه من مباحث ونتائج ؟

لو سألنا ابن خلدون عالم الاجتماع والتاريخ لاجبنا في مقدمته عن كل ما نريد بتائج إيجابية لا مخالفة⁽²⁶⁾ .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى » ولا تعاونوا على الإثم والعذوان⁽²⁷⁾ .

من أسمى ميزات الحياة الروحية التعاون على الخير للنهوض بالحياة الاجتماعية إلى المستوى الراقي الذي يؤدي إلى رفاهية المجتمع والتحفيز من آلام الآخرين ، أخذتنا في الدين وأمثالنا في الخلق . وقد أدركت الحضارة الحديثة ميزة التعاون وأهميته في العطاء والنجاح فانتشرت الجمعيات التعاونية في جميع نواحي الأرض التي يعي أهلها التحضر وال عمران . لذلك أمر الله عباده بالبر ويعني في اللغة : العطية والطاعة والصلاح والصدق والتقوى : وتعني أن يتقي الإنسان مما يغضبه وما فيه ضرر لنفسه أو ضرار لغيره ، وذلك حتى يقي نفسه ويصونها .

ثم يأتي الشطر الثاني من الآية وهو النهي عن الإثم والعذوان .
فالإثم : هو عمل ما لا يحل ويشمل كل الرذائل الروحية .

. (24) الروم الآية 9.

. (25) التمل الآية 69.

. (26) راجع المقدمة الفصل الأول (في العمران البشري) ص 35.

. (27) المائدة الآية 2.

والعدوان : هو الظلم . فكل عمل يعود على الفرد أو على المجتمع بالفساد يدخل في نطاق الأثم .

فالتعاون الذي يدعو إليه الإسلام هو التعاون على البر والتقوى وليس التعاون على معصية الله والاضرار للناس ، فيصبح في حدود إسعاد النفس والغير ، وهو ما تطمح إليه الدول المتحضرة من استقرار وسلام .

علم النفس

لقد دعا الله في القرآن الكريم إلى التفكير في أنفسنا ، والتبصر في وجودنا ، والنظر فيما نقدم لغدنا . قال سبحانه : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا يَبْصُرُونَ ﴾⁽²⁸⁾ . وقال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَنْظُرُنَفْسَكُمْ مَا قَدَّمْتُمْ لَعَذَّ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾⁽²⁹⁾ . وقال سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَانًاً وَشَفَتَيْنِ، وَهَدِينَاهُ الْجَنَاحَيْنِ ﴾⁽³⁰⁾ .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾⁽³¹⁾ . أليس في كل هذه الآيات التي أوردها على سبيل الذكر لا الحصر ، وغيرها ما يستنبط منه علم النفس بكل ما فيه من الميول والغرائز والبواعث والنزاعات ، وكل ما يحيط بالنفس البشرية ؟ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون .

وماذا بعد ، منها تقذر الإنسان في إخفاء ما يضمرون ، ومها حاول لتهرب والانكار ، فإنه قاصر لا رب . قال تعالى :

﴿ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لِمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾⁽³²⁾ . في القرآن الكريم نهل خصب لعلماء النفس في جميع مناحي النفس البشرية وفي جميع حالاتها وبجالات إصلاحها وتقويمها .

علم البيولوجيا

دعانا الله في كتابه العزيز لتنظر في أنفسنا ، وكيفية ولادتنا بجميع أطوارها ، منذ الرحم حتى القبر . قال تعالى :

﴿ فَلَيَنْظُرْ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ مَا خَلَقَ، خَلَقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصَّلْبِ وَالْتَّرَابِ ﴾⁽³³⁾ . يخرج من بين صلب الرجل وتراب المرأة (أصلها).

فمن النظر في أصل التكوين يتوصل علماء البيولوجيا إلى علم الحياة ، وفيه من عجائب ثو البرثومة الإنسانية وتقلباتها في أدوار مختلفة وتطورها لتخرج إلى الوجود .

(28) الداريات الآية 21.

(29) الحشر الآية 18.

(30) البلد الآية 8-9.

(31) المدثر الآية 38.

(32) الطارق الآية 4.

والتحليل العلمي للوراثة تظهر أن الإنسان في بدء تكوينه إنما هو خلية صغيرة واحدة وهي أعجب ما في الكون ، ومن أعظم الأسرار وأدقها ، تدل لكل متأمل على عظيم قدرة الخالق تعالى خالق الكون ورب العالمين .

وهي تنشأ من نتيجة عملية اخصاب بين خلتين هما في غاية الدقة : البوسطة (33) والحيوان المنوي (34) . وعندما تتحد هاتان الخلستان تتجان نواة انسان جديد . وقد سألت أخي الدكتور محمد الحاج حسن إخصائي في الجراحة العامة وابن أخي الدكتور علي الحاج حسن إخصائي في الصحة العامة فأجاباني بما يلي :

عند تكوين الجنين في تلك اللحظة يكون نواة الانسان الجديد ذكراً أو أنثى طويلاً أو قصيراً ، ذكرياً أو غرياً ، بعد أن يتم تلوين عينيه بالأسود أو الأزرق أو العسلي . . . ففي هذه الخلية تنطبع جميع الصفات والمميزات للفرد الجديد . كل ذلك فصله سبحانه وتعالى . خالق الكون ، منه كل شيء وإليه المصير :

﴿لقد خلقنا الانسان من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علة ، فخلقنا العلة مضعة ، فخلقنا المضعة عظاماً فكسونا العظام لها ثم أنشأناه خلقة آخر فبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (35) فسبحان الله رب العالمين والرحمن الرحيم الذي

(33) البوسطة : حجيرة صغيرة جداً بيضوية الشكل ، تحتوي على قشرة فيها مادة مائية تسمى (بروتوبلازما) .
(34) ان الحيوانات المنوية المندفعة بكثرتها ، والتي تقدر بـ الملايين ، تقصد البوسطة للقاء وحينما تشعر هذه بهجومها عليها تستعد لانتخاب أي منها وأنشطتها حرفة . وعندما يدنو الحوين منها يظهر على سطحها انتفاخ صغير من الجانب المقابل له ، ثم يرتفع قشره استعداداً لهجومه فيهم الحوين عليها من جهة الانتفاخ ، ويتباهي برأسه ، ثم يلتج في صميمها ، ويفتح ذنبه خارجاً فتنكمش البوسطة عليه ، وتقت首先是 حتى تقطع ذنبه فيمتزج الحوين داخل البوسطة بالنواة . وهذا يتم تكميل اللقاح . وبعد مدة قليلة تنزل البوسطة من البوق الى الرحم حيث تلتتص بـ جدرانه الداخلية ، وتندفع هناك ، وتقلب في أطوارها . إذ تكون فيها الأنسجة والأجهزة الحيوية العضوية ، وتظهر الأطراف والجذع والرأس بالتدرج ، ويحصل هذا غالباً في الشهر الثاني من الحمل ، ثم يستمر هذا المجموع بـ غشاء قوي سميك يسمى (المشيمة) وظيفتها حفظ الجنين . وتغذيته بواسطة أوعيتها الشيرية المنشطة في جدرانها حيث تتصدم دم الأم الذي كان حبيساً قبل الحمل . وهذه التغذية تكون بصورة كيماوية عجيبة أشبه ما تكون بـ جذور النبات للماء من الأرض ، وبعد كمال خلقة المشيمة يتولى داخليها سائل أصفر اهت الصفرة يسمى سائل الأميوس (amniotic fluid) وهو يتولى من ترشحات الرحم المائية ومن الأغشية المحيطة به ، وفائدةه أن يحيط بالجنين داخل الرحم ليدفع عنه كل ما تلاقيه الأم من هزات واصدمة مضافاً إلى أنه يحفظ للجنين الحرارة المناسبة له ، وهو مع ذلك كله يحدد عنق الرحم ويوسعه عند الولادة كما يقوم بـ تنظير الطريق وتمبيمه أمام الجنين قبل الولادة ليسهل خروجه مع رفع الضغط الرحمي عليه حين السطلق إلى غير ذلك من الفائد ، ثم بعد تكوين المشيمة ، وحدوث السائل ، وحصول هيكل الجنين ، يظهر الحبل السري في جانب السرة ، ويطول إلى نصف متراً أو أكثر وفائدة نقل الدم من الأم إلى الجنين لتغذيته ، ثم إخراج الدم من الجنين إلى الأم ليكتفي مع دم أمها في دورتها الدموية . هذا ما يقول العلماء عن تكوين الجنين في الرحم . وقد فصله سبحانه وتعالى بالأية الكريمة المذكورة .

(35) المؤمنون الآية 12-13-14

خلق فسوى ، والذي قدر فهدي ⁽³⁶⁾ . والذي « جعل لكم السمع والبصر والأفتشة لعلكم تشکرون » ⁽³⁷⁾ .

فعل الانسان أن يتبصر بنفسه ويتأمل ملياً في تركيب جسمه بجميع أجهزته عندها يعرف ربه جل وعلا . فمن سر معرفة المخلوق نقف على عظمة الخالق ، قال الرسول الأعظم : « من عرف نفسه عرف ربه » ⁽³⁸⁾ .

علم الفلك

أشار القرآن الكريم إلى قدرة الخالق عز وجل في تدبير أمور الكون تدبيراً دقيقاً يدهش ويسحر الآلباب ، كل شيء جعل له نظاماً يسير عليه حسب حاجة الإنسان إليه ، وكل شيء قدره تقديرًا .

إذا تأمل الانسان في كل ما يحيط به هذا الكون الواسع ، وبصورة خاصة الكواكب ، تجلت له قدرة الخالق في كل شيء . جاء في شرح النهج :

فيك يا أعمدة الكون غداً الفكر عليلا
أنت حيرت ذوي اللب وبيلات العقولا
كلما أقدم فكري فيك شبراً فر ميلا
ناكساً ينبعط في عمياء لا يهدى السبيلا ⁽³⁹⁾

وعندما نقوم بتحليل ظواهر هذا الكون تحليلًا علمياً نرى آياته في أنفسنا وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود .

فلننظر هذه الكواكب المنتشرة في الفضاء التي تعد بئارات الملايين ، نلاحظ أن ما اكتشفه العلم الحديث من الكواكب يفوق العد والاحصاء . بحيث لو كنا نعدها بسرعة 1500 كوكباً في الدقيقة لاستغرق عدنا لها 700 سنة . ونسبة الأرض التي يرتع الإنسان على سطحها يكاد يعجز عن بلوغ أطرافها يعدها العلماء أقل من نقطة على حرف في مكتبة تضم نصف مليون من الكتب من الحجم المتوسط ⁽⁴⁰⁾ .

ومن المؤكد أنها لم تكن ناشئة عن الصدفة ، إذ كيف يستطيع العلماء الفلكيون من تفسير هذا الانظام في ظواهر الكون والعلاقات السببية والتوافق والتوازن والتكامل التي تمتد آثارها من عصر إلى عصر دون أي انحراف أو زلل . يقول العالم « كوتس » :

« إن هذا العالم الذي نعيش فيه مليء بالروائع والأمور المعقدة التي تحتاج إلى مدبر ، ولا

(36) سورة الأعلية الآية 2-3.

(37) التحليل الآية 78.

(38) المجازات النبوية للشريف الرضي .

(39) شرح النهج لابن أبي الحديد ج 13 ص 51.

(40) واجع النظام التربوي في الإسلام ص 143 -

شك أن العلوم قد ساعدتنا على زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون وهي بذلك تزيد من معرفتنا بالله »(41) .

قال سبحانه وتعالى :

« إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفالاً تذكرون »(42) .

وقال عز وجل :

« الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترورها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقيون »(43) .

وقال جل وعلا :

« وَآيَةٌ لِّهُمُ الْلَّيلُ نُسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارُ إِذَا هُمْ مُّظَلَّمُونَ ، وَالشَّمْسُ تُحْرِي لِمَسْتَقْرِئِهِ لَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرُ وَلَا الْلَّيلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِلْكٍ يَسْبِحُونَ »(44) .

لقد حاولت الدول الكبرى بأقمارها الصناعية ، ومراكمها الفضائية التعرف عن كثب على واقع هذه الكواكب ، وصرفواآلاف الملايين لمعرفة إذا كانت صالحة للحياة . ولكنهم ، ويا للأسف « لم يصرفوا أفكارهم إلى النظر في خالق هذه الكواكب ومبدعها ، ولم يتأملوا في نظامها العجيب ، وسيرها في مسيرة مرتبة يدهش العقول ويثير الأباب .

إن دورة الشمس ، ودورة الأفلاك ، ودورة الأرض ، مضبوطة بأحكام ، وذلك حسب سرعة الشعاع الذي يقطع 186 ألف ميل في الثانية . وعلى هذا النظام الدقيق انتظمت شؤون الكون بأجل معاناتها»(45) .

ونسأل هؤلاء العلماء وغاذهاء الفضاء ، هل أمعنوا النظر في هذا الكوكب الذي نعيش على سطحه » والمعلق في الفضاء يدور على محوره كل 24 ساعة دورة كاملة ، وسرعة حركته 1000 ميل في الساعة ، ويسبع حول الشمس مرة واحدة كل عام فيكون بذلك تتبع الفصول الأربع .

قال العلماء : إن الأرض لو دارت حول محورها بسرعة 100 ميل في الساعة لكان طول الليل عشرة أمثال ما عليه الآن ، وكذلك طول النهار ، ولكن الشمس محركة في الصيف لجميع النبات .

وقالوا : لو اقتربت الشمس من الأرض أكثر مما عليه الآن لازدادت الأشعة التي تصل

(41) الله يتجل في عصر العلم ص 48.

(42) يونس الآية 3 ..

(43) الرعد الآية 2.

(44) يس العنكبوت الآية 37-38-39-40.

(45) راجع النظام التربوي في الإسلام ص 144.

إليها إلى درجة تمنع الحياة فوقها . وإذا ابتعدت عنها أكثر لحدث العكس ومات جميع الخلق من شدة البرودة ودمام الجليد .

ولو كانت الأرض بحجم القمر لعجزت عن احتفاظها بالغلاف الجوي والمائي اللذين يحيطان بها ، وارتقت فيها درجة الحرارة إلى حد الموت .
أما إذا كان قطرها ضعف قطرها الحالي لأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ما هي عليه ، ولزad بذلك الضغط الجوي وتعطلت الحياة .

ولو كانت الأرض قدر حجم الشمس لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التي عليها إلى 150 ضعفاً ، ونقص بذلك ارتفاع الغلاف الجوي ، ووصل وزن الكائنات الحية إلى زيادة 150 ضعفاً عن وزنها الحقيقي « وعندما تتعطل بلا ريب الحياة الفكرية للإنسان بصورة عامة .

وبحكمة ربانية « خص الله الأرض بميزة أخرى ، بأن جعل لها خلافاً غازياً كثيفاً سميكاً يقدر (بـ 800) كيلومتر تقريباً وهو يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة » ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يتكافل مطراً يحيى به الأرض بعد موتها ، كما أنه السبب في حلول الشهب القاتلة إلى الأرض » وهو السبب في إيصال حرارة الشمس بصورة متبدلة ، بحيث يمكن أن تعيش على سطح الأرض جميع الكائنات الحية . . . وليس لبعض الكواكب هذا الغلاف مما سبب عدم ظهور الحياة عليها فالمريخ له غلاف غازي رقيق خالٍ من الأوكسجين مما جعله غير صالح للحياة⁽⁴⁶⁾ .

التعليم الالزامي في الإسلام
إنماز الإسلام على بقية الأديان والمذاهب أنه أوجب على المسلمين تحصيل العلوم وجواباً كفائياً ، كما أوجب عليهم التتفقه في شؤون دينهم ، وجواباً عيناً ، أما تقليداً أو اجتهاداً . قال رسول الله ﷺ :

« طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .
حتم الإسلام على جميع المسلمين تحصيل العلوم الدينية والزمنية من أجل تطويرهم ، وتنظيم حياتهم وتنقيفهم ثقافة إنسانية عالية ، وفرض على الدولة أن تقوم بدور إيجابي ويسعى جاهدة إلى نشر العلم والمعرفة بين الناس . لاقصاء الجهل عن واقع حياتهم وتحطيم أغلال الأممية في ديارهم .

ولأن التعليم ضرورة من ضروريات الحياة ، وعنصر هام في تطور المجتمع ورقية ، ألزم الإسلام به كقاعدة اجتماعية في بناء مجتمع متحضر ، وجيل واع مستنير ، يلتزم بالحق ويسعى من أجل إحقاقه .

وحرى بنا أن نتأمل كيف عمل الإسلام على إخراج الأمة العربية من الظلمات إلى النور ، وكيف أشترت الرسالة النبوية بأشعتها الساطعة التي أضاءت الكون وأنارت عقول الناس . فأقبل العلماء المسلمين والصحابة الأجلاء ينهلون من معين الرسول الأعظم ﷺ ما جعلهم

(46) راجع النظام التربوي في الإسلام ص 145 .

سادة الأمم ، وقادة المفكرين » وخير أمة أخرجت للناس أجمعين . أولئك الأئمة الأطهار والعلماء الأبرار ، المصايبع الساطعة التي بددت الظلمات وقضت على جهل الجاهلين . يأتى على رأسهم أول القوم إسلاماً ، خليفة الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله وسلامه وابن عمه وصهره وزوجته الذي أدبها فاحسن تأديبه ، وعلمه فاحسن تعليمه حتى قال النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » ولا يمكن لأحد أن ينكر أن علياً كان أول معلم للمسلمين بعد الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه يأتى بعده سبطان الحسن والحسين عليهما السلام اللذين نشرا لواء العلم خفافاً بعد أبيهما . وقد سار على نهجها الإمام علي زين العابدين (ع) ، وووالده الباقر (ع) الذي لقب بياقر علوم الأولين والآخرين ، ثم الإمام جعفر الصادق (ع) العلم المعروف لدى أهل العلم والفضائل ، والذي تخرج على يدهآلاف العلماء من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه وكل من جاء بعدهم جميعاً نهلوا من معينه الذي لا ينضب وثمرة جهاده المتواصل ، أمثال : أبي حنيفة وجابر بن حيان ، ومحمد بن مسلم وزرارة بن أعين . وغيرهم من العلماء المعروفيين .

لقد ناضل الإمام الصادق في سبيل إرساء قواعد العلم ، ومحاربة الجهل ، ونشر الفضيلة بين جميع أفراد الأمة ، فكان مثل الأعلى في كفاحه الذي سار عليه أحفاده من بعده ، ونهجوا منهجه فكانوا خير خلف لخير سلف حتى آخرهم ، وهو الإمام محمد بن الحسن عليهم السلام أجمعين .

وإذا أردنا أن نستعرض ما بهذه الأئمة الاثنا عشر الأطهار في سبيل نشر العلم وخدمة الدين لاحتاجنا إلى مجلدات :

قال علي بن أبي طالب (ع) يحيى على تهذيب الناشئة وتأديبها :

حرّضْ بنيك على الآداب في الصغر
كيمَا تقرّ بهم عيناك في الكبر
في عنفوان الصبا كالنقش بالحجر
إنما مثل الآداب تجتمعها
ولا يخافّ عليها حادث الغير
هي الكنوز التي تنمو ذخائرها
يهوى إلى فرش الدبياج والسرر
إن الأديب إذا زلت به قدم
واع وسائلهم كاللغو والعكر⁽⁴⁷⁾
الناس اثنان ذو علم ومستمع

أجر المعلمين

أكثر العلماء كانوا يتأنمون من الاكتساب بالتعليم في أكثر العصور الإسلامية وغاياتهم كسب رضى الله والدار الآخرة ، لأن التعليم بنظرهم هداية إلى الله ولا يصلح أن يأخذوا عليه أجر . وهم بذلك يتأنسون سير الأنبياء عليهم السلام . يقول الحاج خليفة في كشف الظنون :

« فالعلوم ليس الغرض منها الاكتساب بل الاطلاع على الحقائق وتهذيب الأخلاق على أن من تعلم على للاحتراف لم يأت عالماً إما جاء شبيهاً بالعلماء ولقد كوشف علماء ما وراء

(47) راجع الأخلاق الإسلامية للسيد علي فضل الله ص 223 .

النهر بهذا الأمر ونطقوا به ، ولا بلغهم بناء المدارس في بغداد ، أقاموا مأتم العلم . وقالوا : كان يشغل به أرباب الهمم العالية والأنفس الزكية الذين يقصدون الشرق والكمال به فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم ، وإذا صار عليه أجراً تدان اليه الاخساء وأرباب الكسل⁽⁴⁸⁾

فالغاية كانت فائدة الناس وكسب رضى الله وليس تحصيل الأجر المادي ، حتى كانت العصور العباسية واتسعت معها الحركة العلمية اتساعاً هائلاً ، وأخذ المتعلمون يدخلون جهاز الحكم في الدولة وينالون بعلمه مراكز عالية . ومنذ ذلك الوقت أصبح العلم سبباً للمعيشة يؤخذ عليه أجر مادي . جاء في المقدمة لابن خلدون :

« وأصبح العلم من جلة الصنائع والحرف واشتغل أهل العصبية بالقيام بالملك والسلطان ، فدفع للعلم من قام به سواهم وأصبح حرف للمعاش » واليوم ما زالت الجامعة الدينية الكبرى في النجف الأشرف تحفظ بطابع التعليم المجاني في جميع مراحل الدراسة . وكذلك هي الحال في جامعة قم في ايران ، لا يؤخذ فيها على التعليم أي أجر وإنما هو خالص لوجه الله تعالى . قال سبحانه وتعالى : « . . . يبتغون فضلاً من الله ورضوانا »⁽⁴⁹⁾ .

تحديد سن التعليم

إهتم الاسلام بجميع الجوانب التعليمية ومنها تحديد سن التعليم بما يتفق والنمو الفكري للطفل حتى يستطيع استيعاب الكلام صورة ومضموناً .

روى عن الامام الصادق (ع) الذي لم يترك باباً من أبواب العلم إلا وبلغه وبرز فيه . فقد حدد سن دخول الطالب المدرسة في السنة السابعة من عمره .

جاء في الوسائل : « الغلام يلعب سبع سنين ، ويتعلم الكتاب سبع سنين ، ويتعلم الحلال والحرام سبع سنين »⁽⁵⁰⁾ .

إن إرسال الأطفال قبل هذه السن الى المدرسة ، كما يحصل عندنا اليوم ، يخلق عندهم مضاعفات سيئة ، تؤثر في نموهم الفكري بما تخلق في نفوسهم من الضجر والملل . وقد أكدت الدراسات السيكولوجية الحديثة ومنظمة الأونيسكو العالمية ، ان إرسال الطفل الى المدرسة قبل أن يبلغ هذه السن يرهقه ويضعف تفكيره . الواقع أن الأهل يرسلون أطفالهم الى المدارس والكتائب مبكرين لا يقصدون تعليمهم ، ولكنهم يريدون التخلص من متاعبهم وإبعادهم عن البيت »⁽⁵¹⁾ .

وظاهرة هامة أكد عليها الاسلام ورعاها ، وهي ضرورة قيام المربين بالتعاون مع أهالي

(48) كشف الظنون للحجاج خليفة ج 1 ص 53.

(49) المائدة الآية 2 .

(50) وسائل الشيعة ج 7 ص 194 .

(51) التحفيظ للتربيه والتعليم لمحمد علي حافظ ص 88 .

الطلاب ، بتغذية الأطفال بالروح الدينية التي تبعدهم عن الاخلاق ، وتخلق في نفوسهم مناعة تحميهم من الانحراف والأفكار الإلحادية . قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) : « إنما قلب الحديث كالأرض الخالية ما لقي فيها من شيء قبلته »⁽⁵²⁾ .

سلام عليك يا أبا الحسن لقد أبدعت في معارف الحياة وكل ما يصلح من شأن الفرد وشأن المجتمع وشأن الإنسانية !

فالطفل أشد قابلية للتشكيك ، وأطروع ما يكون للتأثير بأي فكرة كانت فهو كالصفحة البيضاء ، يكتب عليها الأهل والمجتمع ما يريدون ، فدعوتنا لهم الى الدين الاسلامي إنما هي تطهير لنفوسهم من الزيف والضلال .

ومن المؤسف في عصرنا الحاضر أن إهانة الآباء والمربيين وعدم توجيههم الجيل الناشئ توجيهاً صحيحاً ، يتسم بالتوافق والاستقامة وحسن السلوك ، جنباً على الأطفال الكثير من الأوثقة المستوردة من الغرب ، حتى انعدمت فيهم جميع المقاييس السليمة والقيم الإنسانية التي دعا إليها الاسلام ألزم المربيين ببراعتها والقيام بها خيراً قيام .

وقد احتفى الاسلام بالعلم احتفاء بالغاً لأنه اللبنة الصلبة في رقي المجتمع وتكامله ، ولأنه يزرع البذور الخيرة في نفوس الأفراد والجماعات ، فيه أفكارهم ووجههم انتربينا الصالح .

أثر عن النبي ﷺ أنه رأى مجلسين واحد فيه جماعة يدعون الله عز وجل ، والثاني جماعة يعلمون الناس . فقال ﷺ : « أما هؤلاء فيسألون الله فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم » وأما هؤلاء فيعلمون الناس ، وإنما بعثت معلماً⁽⁵³⁾ ثم عدل إليهم وجلس معهم مشجعاً لهم على أعمالهم .

المعلم في الاسلام قدوة حسنة

ينظر الطلاب الى المعلم نظرة تقدير وإعجاب لأنه في نظرهم المثل الأعلى لهم ، يقلدونه في كل ما يعمل ويقول ، ومنه يكتسبون العادات والسلوك والسير المحسنة . فالحسن عنده حسن عندهم والقبيح عنده قبيح عندهم . ورد في عيون الأخبار عن بعض الخلفاء معلم ولده :

« ليكن إصلاحك بيّن إصلاحك لنفسك » فإن عيوبهم معقودة بعيوبك فالحسن عندهم ما استحسن و القبيح عندهم ما استقبحت »⁽⁵⁴⁾ .

وقال مرب في مفتاح السعادة : « إن أكثر الناس مقلدون ينظرون الى حال القائل ، فلتكن عنانية المعلم بتركة نفسه أكثر منه بتحسين علمه ونشره »⁽⁵⁵⁾ . فالعلم يراقبه طلابه دائمًا

(52) وسائل الشيعة ج 7 ص 197 .

(53) النظام التربوي في الاسلام ص 176 .

(54) عيون الأخبار لابن قتيبة ج 2 ص 166 .

(55) مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة ج 1 ص 43 .

ويخذون عنه من حيث لا يعلم . لذلك وجب على المعلم أن يراقب نفسه ويحاسبها محاسبة دقيقة ليتجنب الوقوع في الأخطاء . وإن اشتغال الإنسان بعيوب نفسه يجعله لا يلتفت إلى عيوب الآخرين . قال علي بن أبي طالب (ع) : « من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن خاف أمن » ومن اعتبر أبصاره « ومن فهم علم » (56) .

وعلى العالم أن يعمل بما يعلم وإلا أصبح علمه كالكتز المخبوء لا يستفيد منه أحد . جاء في مختصر جامع بيان العلم : « إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت مواعظته من القلوب كما يزل القطر عن الصفا » (57) .

ومن الآيات المنسوبة لأبي الأسود الدؤلي قوله :

هلا لنفسك كان ذا التعليم عار عليك إذا فعلت عظيم فإذا انتهت عنه فأنت حكيم بالقول منك وينفع التعليم	يا أيها الرجل المعلم غيره لا تنه عن خلق وتأني مثله وباباً بنفسك فانهها عن غيها فهناك يقبل إن وعظت ويتقدى
--	---

آداب المعلم

لكي يكون المعلم قدوة حسنة عليه أن يتخلق بصفات آداب تجعله مثلاً يحتذى بين أفراد مجتمعه . من هذه الصفات التي أدلّ بها كبار علماء التربية :

- 1 - أن يقصد بعمله التهذيب وجه الله ، وأن يكون اشتغاله بالتعليم في سبيل الله لا طمعاً في مال أو وجه .
- 2 - أن يكون قوي اليقين بالله عز وجل ، وأن يقوم بشعائر الدين ويتخلق بمحاسن الأخلاق ، حتى يقذف الله في قلبه الفهم . قال ابن مسعود : « ليس العلم بكثرة الرواية إنما هو نور يقذف الله في القلب » .
- 3 - ان لا ينصب نفسه للتعليم حتى يستكمل أهليته ، ويشهد له أفضضل العلماء . قال الشيلبي : « من تصدر قبل أوانه ! فقد تصدى لهوانه » .
- 4 - أن يتعد ما استطاع عن الحكام وأصحاب السلطة . قال الإمام الأوزاعي : « ما شيء أبغض إلى الله من عالم يزور وزيرًا » .
- 5 - أن يعتني بنظافة جسمه ، وحسن هناته ، واجتناب المكره وغير المألف .
- 6 - أن يحب طلابه ، ويسعى في حل مشاكلهم ما استطاع ويبعدهم عن كل أذى .
- 7 - أن يغفر لطلابه خطاياهم ، وإن أراد تنبههم على ما بدر منهم من هفوات لمح لهم ، فإن لم يتعظوا صرخ لهم ، فإن لم يفدهم ذلك ويخفهم . قال رسول الله ﷺ : « حلموا ولا تعنفوا ، فإن المعلم خير من العنت » .

(56) راجع نهج البلاغة

(57) مختصر جامع بيان العلم لطاش كبرى زادة ص 98 .

8 - ان يفهم مستوى طلابه ، ويخاطبهم على قدر فهمهم وإدراكهم فيكتفي للذكي بالاشارة ، ويوضح لمن خفي عليه الشرح أول مرة بالعبارة ، ويكرر لمن لا يعلم دون إظهار الصجر والملل .

9 - أن يحرضهم على مواصلة العمل إذا ما بدر منهم فتور ، ويطالعهم بإعادة محفوظاتهم ، فمن وجده حافظاً أثني عليه أمام رفقاء ، ومن وجده مقصراً عنده أمام الجميع .

10 - أن لا يطيل عليهم ، ولا يعلمهم ما لا يحتمله ذهنهم ، ولا يمكنهم من الاشتغال بعدة علوم لا يستطيعون اتقانها معاً .

11 - أن يساوي بين طلابه فلا يميز بعضهم على بعض إن في المجلس أو المعاملة .

12 - أن يرعى ميول المتعلم ورغباته النفسية ، فلا يكرره على علم لا يرغبه . فإن لم يكن عنده ميل أرضيه إلى علم سواه يرى فيه مصلحته .

قال ابن سينا : « ليس كل صناعة يرومها الصبي مكنته له ومؤاتية ، ولكن ما شاكل طبعه وناسبه » وإنه لو كانت الصناعات والأداب تحيب وتتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة ، ما كان أحد غافلاً من الأدب ، وعاريأً من صناعة . وإن لو اجتمع الناس كلهم على اختيار أشرف الأداب وأرفع الصناعات ، وربما نافر طباع الناس جميع الأداب والصناعات فلم يعلق منها بشيء . ولذلك ينبغي لمدير أمر الصبي إذا رام اختيار صناعة أن يزن أولاً طبع الصبي ويسبر قريمته ، ويخبر ذكاءه فيختار له الصناعات بحسب ذلك » .

13 - أن يكون دقيقاً في معاملته لطلابه وحذرأ لكل حركة في الصدف .

14 - أن ينمّي في نفوس طلابه الرغبة إلى العلم ، فيبين لهم أنه من أهم المكاسب التي تعود عليهم وعلى المجتمع بالخير العميم ، فإن هذه النزعة الكريمة إذا انطبعت في نفوسهم اندفعوا وراء العلم بلذة وشوق واذدهرت بذلك الحياة الفكرية والعلمية والأدبية في البلاد)58(

حقوق المعلم

كما على المعلم مسؤوليات كبيرة له حقوق وافرة على طلابه ، فهو مصدر معرفتهم بخبرات الحياة ، وهو مصدر نجاحهم في مستقبلهم . لذلك حقه عليهم أكثر من حق آبائهم ، لأن الآباء إذا كانوا سبب وجودهم فإن المعلمين سبب سعادتهم ونجاحهم . فمن الطلاب أن يكونوا معلميهم أسمى ألوان الاحتفاء والتجليل . قال الإمام زين العابدين (ع) :

« وأما حق سائلك بالعلم فالتعظيم له ، والتوفير لمجلسه ، وحسن الاستماع إليه ، والاقبال عليه ، والمعونة له على نفسك فيها لا غنى بك عنه من العلم بأن تنزع له عقلك ،

(58) راجع المصادر الآية : تدريب الراوي ص 128 . وإحياء علوم الدين ج 3 ص 62 . وتدذكرة السامع ص 30

وتحضره فهمك وتسكري له قلبك ، وتجلي له بصرك بترك اللذات ، ونقص الشهوات ، وأن تعلم أنك فيها ألقى إليك رسوله إلى من لفتك من أهل الجهل فلزمك حسن التأدية عنه إليهم ، ولا تخنه في تأدية رسالته ، والقيام إذا تقلدتها ⁽⁶⁰⁾ .

إن احترام المعلمين واجب على الطلاب ، الجيل المعد للمستقبل » وعلى الأمة بأسرها . لأن في صلاح الفرد صلاح المجتمع ، ولأنها تستمد من المعلمين عوامل نهضتها ورقيها . والحضارة الإنسانية لم تزدهر إلا على أيدي المعلمين » ولم تتحقق آمالها الجسمان إلا بفضلهم . أولئك الذين قدموا عقولهم وأعصابهم وراحتهم وكل ما عندهم من حول وقوة في سبيل غيرهم . وهل هناك أكبر تضحية من إنسان يجود بنفسه من أجل الآخرين !

لا ريب أن « الجود بالنفس أسمى غاية الجود » .

المعلمون الصالحون علموا الناس الآثار ، شعار النفوس الكبيرة الساعية لخدمة الإنسانية ، والعامل الهام في توثيق المحبة بين أفراد المجتمع .

الآثار الذي دعا إليه القرآن ومدح قوماً تخلقوا به . قال تعالى : « و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ⁽⁶¹⁾ .

فانظر معى هذه الدعوة التي تدل على عمق التربية الروحية التي غرسها الإسلام في نفوس اتباعه » وفيها قبس للذين ينشدون السمو الروحي لخير المجتمع وخير الناس أجمعين .

فعلينا احترام المعلمين الذين بفضل جهودهم تأسست الحضارة » وازدهرت معالم الحياة وتحققت آمال الأمة في جميع مراحلها » كما علينا أن نعلم أولادنا احترام معلميهم وتقديرهم وأن يرددوا قول الشاعر العظيم أحمد شوقي :

قام للمعلم وفه التبجيلا
كاد المعلم أن يكون رسولاً
رأيت أشرف وأجل من الذي
يبني وينشئ أنفساً وعقولاً⁽⁶²⁾

آداب المعلم

ذكرنا قبل قليل اهتمام الإسلام بالعلم وما يجب أن يتحلى به من صفات وأداب ولا ننسى عناته واهتمامه بشأن طلاب العلم ، حيث وضع لهم المناهج الرفيعة المادفة إلى تبصيرهم وتعليمهم الأخلاق الكريمة والأداب الفاضلة .

وقد أوجزها علماء التربية الإسلامية فقالوا :

1 - على طالب العلم أن يطلب علمه لله والدين لا لأمور الدنيا » ولا لأغراضها الزائلة » لأن من عقد النية على الأخلاص لله ، رفع الله من شأنه ، وسهل له العسير من الأمور ، وقذف في قلبه النور والهدى في الدنيا والآخرة .

(60) تحف العقول ص 260 .

(61) الحشر الآية ٩ .

(62) راجع الديوان لشوفي .

2 - أن يحافظ على شعائر الدين ومكارم الأخلاق ، وإظهار السنن ويطهر قلبه من الصفات الذميمة كالحسد والكرباء والكذب والرياء والغيبة والغصب والسخرية واللمز واللغو وغيرها من الصفات الرذيلة التي تحجب عنه التوفيق وتسد أمامه طريق النجاح .

قال بعض المربين المسلمين : « كُلُّا لا تصح الصلاة إلَّا بتطهير الظاهر من الأحداث والأنبات ، فكذلك لا تصح عبادة القلب بتعلم العلم إلَّا بعد طهارته من خبائث الأخلاق ، ونجاسات الصفات ، وليس العلم بكثرة الرواية إنما هو نور يقذف في القلب » .

3 - على الطالب أن يتزين بالحلم والوقار والتواضع والمحبة . قال رسول الله ﷺ « تعلموا العلم ، وعلموه الناس » وتعلموا الوقار والسكنية ، وتواضعوا لمن تعلмتم منه العلم ، وتواضعوا لمن علمتموه العلم ، ولا تكونوا جباراً على العلماء

وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : « أطلبوا العلم وتزيناً معه بالحلم والوقار ، وتواضعوا لمن طلبتم منه العلم » ولا تكونوا على إباء جبارين « فيذهب باطلكم بحقكم » .
ولا ريب أن العالم المتواضع يحبه الناس ويجدنهم إليه كما يجدن الزهر الطيب التحل لامتصاص رحique .

4 - أن يجدن في تحصيله ويبذل قصارى جهده ، لأن تحصيل العلم هو من الأمور الكسيبة وليس إلهاماً ، فكلما سعى طالب العلم وثابر جاهداً ظفر بالثروة العلمية ، وعليه أن يكسب وقته كاملاً ولا يتأخر عن موعد الدراسة لأن الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك .

5 - كما عليه أن لا يرهق نفسه بالدراسة المتواصلة ، لأن ذلك يعيق نفوذه الفكري ويضعف قوته ذاكرته في التركيز والتحصيل . فالذاكرة عندها طاقة معينة لدى كل فرد منا فلا يجوز أن تتعدى حدودها ونحملها فوق طاقتها . وإن جلسنا علينا حقاً فلا بد من رعايته وكل جهد فكري يلزم راحة جسدية . قال الغزالي في هذا المجال :

ينبغي أن يؤذن للولد بعد الانصراف من المكتب أن يلعب لعباً جيلاً ، يستريح إليه من تعب العلم بحيث لا يتعب في اللعب ، فإن منع الصبي من اللعب وارهاقه في التعليم مما يحيط قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينقص عليه العيش ، حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه » .

وقد أكد المربون في العصر الحديث على وجوب إعطاء فرص لراحة الطالب بعد الدرس حتى يجدد نشاطه ويعود بشوق إلى متابعة التحصيل .

6 - أن يسأل أسئلة استفهام وليس أسئلة تعتن وتعجيز . قال رسول الله ﷺ : « العلم خزانٌ مفاتيحها السؤال ، ألا فاسألاً ، فإنه يؤجر فيه أربعة : السائل ، والعالم ، المستمع ، والمحب لهم .

7 - أن لا يجمع في دراسته بين علمين في وقت واحد فإن ذلك مما يوجب انشغال فكره ويخلط عليه الأمور . « فإنه حيثئ قل أن يظفر بواحد منها لما فيه من تقسيم البال ،

وأنصرافه عن كل واحد منها إلى تفهم الآخر» .

8 - عليه أن لا ينتقل من درس إلى آخر إلا بعد اتقان الدرس الأول واستيعابه لأن إهماله يؤدي به إلى التأخير وعدم الفهم . ذلك أن الدروس حلقات متصلة بعضها البعض ولا يجوز إهمال حلقة منها .

9 - أن لا يعاشر غير المجددين من رفاقه لأنه يتأثر بسلوكهم ويعتاد على الأهمال مثلهم .
10 - أن ينظر الطالب إلى استاذه نظرة إجلال واحترام ، فلا يناديه باسمه بل يخاطبه بأسمى عبارات التكريم⁽⁶³⁾ .

(63) راجع المعيد للعلموي ص 13 . وأصول الكافي ج 1 ص 36 .

الفصل الخامس

التربية المهنية في الإسلام

دعا الإسلام إلى تعويذ أصحاب المكاسب والمهن إلى التحلي بالفضائل والأخلاق الإسلامية ، فتحثهم على إتقان أعمالهم ، وعدم الغش ، وزيادة الانتاج وتنميته ، والاحتياط في المكاسب ، كما طلب إليهم تطوير أعمالهم بما يتفق مع ارتقاء الأمة وتطويرها في المجالات الاقتصادية ، من تجارة ، وصناعة ، وزراعة ، لتطرد المؤس من ديارها وتتحرر رقاب الناس من الفقر والحرمان .

وضع الإسلام أروع المناهج التربوية لأصحاب المهن والحرف والعمال وهذه بعض نماذج منها :

أ - إتقان العمل :

طلب الإسلام من أصحاب العمل الأخلاص في أعمالهم وإتقانها وليبذلوا في ذلك كل طاقاتهم من نشاط ومهارة وفن . قال الرسول الأعظم : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » فالذى لا ينصح في عمله لم يظفر بالمال الحلال ويكون آكلًا ماله بالباطل .

ب - الابتعاد عن الغش

حرم الإسلام الغش وأمرنا بالبعد عنه ، لما يسبب من أضرار اقتصادية واجتماعية في البلاد . وقد تواترت الأخبار في تحريمه . قال النبي ﷺ : « من غش مسلماً في بيع أو شراء وليس منا ، لأن من غش الناس ليس مسلماً » ويجب إنحاز العمل في موعده لأن من علامات المخالف « إذا وعد أخلف » . وإذا كان تاجرًا عليه ألا يخدع وألا يكذب وألا يخلف كاذبًا فيه يقول عليه الصلاة والسلام : « التاجر الأمين الصدق مع النبيين والصديقين والشهداء » وقال ﷺ : « اليمين الفاجرة منفعة للسلعة ممنفة للكسب » .

وقال الإمام الصادق لرجل يبيع الطحين : « إياك والغش ، فمن غش غش ماله ، فإن لم يكن له مال غش في أهله . . . » .

ج - الابتعاد عن الأعمال المحرمة

على العامل أن يعمل في أعمال حلال أقرها الإسلام ويبتعد عن الأعمال التي حرمتها الله ، لأن ما يظفر به من راتبه أو أجر يجب أن يكون من عرق جبينه بعد كد وجهد . فهو مسؤول كيف يحصل المال وكيف ينفقه .

وقد نص الاسلام على الاعمال المحضمة التي تجر الى المأثم والفساد كتجارة الحموم و مختلف ميادين اللهو . . .

ومن واجب العامل أن يكون قوياً على العمل أميناً فيه ، نشيطاً في طرق تنفيذه . جاء في قوله تعالى : « إن خير من استأجرت القوي الأمين »⁽¹⁾ .

د- القوة والحزم

الكسل والخمول موجب لفشل الحركة الاقتصادية ، وتحميد طاقات الانسان . لذلك دعا الاسلام الى بث روح النشاط والحزم في نفوس العمال وذوي المهن قال الامام الصادق : « إياك والكسل والضجر فإنها مفتاح كل سوء ، إنه من كسل لم يؤد حقاً ، ومن ضجر لم يصبر على حق . . . »⁽²⁾ .

وقد تحدثنا عن حقوق العامل وحق العمل في فصل سابق من كتابنا هذا .

هـ- التخصص المهني

التخصص المهني يدفع بالبلاد الى التطور وزيادة الانتاج ، وهو من علامات البلدان المتحضرة الراقية المزدهرة اقتصادياً ، وعلى الدولة تقع مسؤولية تشجيع الراغبين في ميادين التخصص المختلفة التي تحتاجها الدولة من أجل نهضتها الاقتصادية الرائعة ، فترسل المتفوقين من طلابها الى المعاهد للتخصص في المهن في داخل البلاد أو خارجها . وأن تقوم بالاتفاق عليهم طوال فترة تخصصهم . وذلك من أهم واجباتها الاجتماعية لأنه يعود على البلاد بالخير العام وزيادة الانتاج وتحسينه .

و- المحافظة على مصادر الثروة وأدوات الانتاج

على الدولة أن توجه العمال وذوي المهن ليعملوا بوعي وإخلاص على الحفاظ على مصادر الثروة وتنميتها ، لأن لا تتطور لأية أمة في مجالاتها الاقتصادية ، ما لم يكن وعي عام عند العمال وتوجيه خاص من ذوي الاختصاصات للحفاظ على مصادر الثروة الوطنية وتنميتها . وهذا يكمن دور وزارة التصميم الهام جداً .

فهذه الوزارة هي أم الوزارات كلها ، ومنها تنطلق البرامج والتخطيطات لجميع احتياجات الدولة في جميع مجالاتها الحيوية والأهمية .

كما على ذوي المهن والعمال المحافظة على آلات العمل وأدوات الانتاج من صيانة وإصلاح وعدم تعريضها للتلف لأنها وديعة عندهم ، ومن واجبهم الحفاظ عليها لأن التفريط بها يضر برب العمل من جهة وبالاقتصاد العام من جهة أخرى .

إن الاسلام لم يترك مجالاً واحداً من مجالات الحياة إلا وضع له منهاجاً واضحاً سليماً يهدف الى تحسين أوضاع الانسان وتطويرها نحو الأصلح والأفضل . فتحت على العمل

(1) القصص الآية 26.

(2) من لا يحضره الفقيه للقمي .

الصالح الشريف ، وأكد في كثير من آياته على الأعمال الصالحة . أمرنا الله بالعمل ووضع علينا عدة مراقبين ليكون عملنا متقدماً ناجحاً . المراقب الأول : الله عز وجل والمراقب الثاني الرسول ﷺ والمراقب الثالث : المؤمنون . جاء في الكتاب الكريم : « وقل اعملوا فسيرى الله أعمالكم ورسوله والمؤمنون »⁽³⁾ . ثم عين لنا نوع العمل وكيفيته وقيمة .

العمل الصالح المفيد ، ولا يكون العمل صالحًا حتى يكون متقدماً مستكملاً من جميع جوانبه . جاء في القرآن الكريم قوله عز وجل : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا »⁽⁴⁾ .

ثم دعانا سبحانه إلى المنافسة في العمل وتحويده . قال سبحانه : « قل كل يعمل على شراكته »⁽⁵⁾ .

وطلب منا الدقة البالغة في العمل : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره »⁽⁶⁾ .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي نحتاجها في جميع المجالات الحياتية والاقتصادية المفيدة ، فحرم الربا ، وحرم كنز المال ، وحرم القمار ، وحرم أكل أموال الناس بالباطل ، وذم الاسراف ، وأوصى بالفقراء ، وطلب الانفاق في سبيل الله . إنه قول عزيز حكيم ، هدى للعالمين .

(3) التوبه الآية 105 .

(4) الكهف الآية 110 .

(5) الاسراء الآية 84 .

(6) الزمر الآية 7 و 8 .

الفصل السادس

التربية الاجتماعية في الإسلام

كلف الإسلام الفرد ليعمل من أجل إسعاد مجتمعه ، فيندفع بوعي وإخلاصاً مجاهداً في سبيل نفسه وفي سبيل أفراد مجتمعه على حد سواء ، يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لها .

علم الإسلام الفرد ليتفانى في خدمة غيره ، ويتفاعل معهم للنهوض بأمته ، لأن مجتمعاً تسود فيه الأنانية وتفضل فيه المصلحة الشخصية على المصلحة العامة ، هو مجتمع خائركوى هش ، يتحطم كيانه لأضعف الضربات ولا يستحق الحياة الحرة الكريمة .

لقد عمل الإسلام على تربية أفراد مجتمعه تربية اجتماعية عالية . فألغى الفوارق والامتيازات ، وحطط الأنانية والعصبيات . وجعل المقياس الحقيقي للمواطن الصالح التقوى ومحافة الله في السر والعلنية .

قال الله في كتابه العزيز : « يا أيها الناس إنما خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوراً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خير » (1) .

بني الإسلام الوحدة الاجتماعية على الأخوة بين المسلمين المؤمنين ، ليقفوا صفاً واحداً كالبناء المرصوص متعاونين متفاهمين . يؤثر بعضهم بعضاً حتى يكونوا ثنوذجاً فريداً من التكافل الاجتماعي ، خير أمة أخرجت للناس ، يحملون عقيدة واحدة ويهدفون إلى تحقيق هدف واحد . جاء في الحديث الشريف : « المسلمين في توادهم وترابتهم كالجسد الواحد إذا أصيب عضو بأذى تداعت له سائر الأعضاء بالحسي والسهور » . الإخوة الإسلامية ليست مجرد عاطفة ظاهرة ، إنما هي علاقة وثيقة تنفذ إلى أعماق القلوب ودخائل النفوس فتحتم على المسلمين أن يحبوا في الله ويكرهوا في الله ، ويعملوا في سبيل الله . قال سبحانه وتعالى : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » (2) .

إن جنسية المسلم التي يعرف بها ، ليست جنسية حكم ، وعشيرة المسلم التي يأوي إليها ليست قرابة دم . ورابة المسلم التي يعتز بها ، ويستشهد تحتها ، ليست رابة قوم . وعصبية

(1) الحجرات الآية 13 .

(2) الحجرات الآية 10 .

العشيرة والقبيلة والقوم والجنس واللون والأرض عصبية جاهلية رفضها الاسلام وسمها رسول الله : « متنة » تقرزاً وأشمثراً .

لقد أطلق الاسلام البشر من اللصوق بالطين ليتعلموا الى السماء ، وأطلقهم من قيد الدم ، ليرتفعوا في علين ويعيشوا عيشة كرية راضية . فالوطن في الاسلام دار تحكمها شريعة من الله ، والجنسية في الاسلام عقيدة ومنبع حياة ، والحاكم فيها هو الله ، والدستور فيها القرآن كتاب الله .

ولما ادعى اليهود بعصيبيتهم وأنهم شعب الله المختار بجنسهم وقومهم أبطل الله عليهم هذه الدعوى » ورد ميزان القيم الى اليمان وحده ، على توالي الأجيال ، وتغایر الأقوام والأجناس والأوطان . جاء في قوله عز وجل : « و قالوا كونوا هسوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . قولوا آمننا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما أُوتِي موسى وعيسي وما أُوتِي النبيون من ربهم لا يفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنت به فقد اهتدوا وإن توّلوا فإنما هم في شقاق فسيكفيفوكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون »⁽³⁾ .

الأخوة الدينية التي أرادها الاسلام قوية متينة كالأخوة السمية ، وقد شرع لها أروع المناهج المؤدية الى تلامح تلك القوى . قال الرسول الاعظم ﷺ « المؤمن مرأة أخيه يرى فيه حسنة وقبحه »⁽⁴⁾ .

والمراد أن المؤمن الناصح لأخيه ، يبصره مواطن رشده ويطلعه على خفايا عيوبه ، فيكون كالمرأة ينظر فيها محسنه فيستحسنها ويزداد منها ، ويرى مساوئه فيستحبها وينصرف عنها .

وضيق الاسلام المناهج التربوية القويمة المؤدية الى حتمية الترابط الاجتماعي » وشيوخ المحبة والإخاء بين المؤمنين بالله والتحابين بذكر الله . من ذلك قول النبي ﷺ : « تحابوا بذكر الله وروحه »⁽⁵⁾ .

فالروح هنا تعني القرآن تشبيهها له بالروح القائمة بالحيوان المصححة لانتفاع الأبدان . ذلك أن انتفاع الناس بالقرآن في رشد السبيل ومصالح الدنيا والدين كانتفاع الأبدان بالأرواح في تصريف حركاتها ، وتصحيح لذاتها وشهواتها .

من مناهج الاسلام الموحدة بين القلوب والهادفة لغاية انسانية واحدة نذكر .

التراحم والتعاطف

أكمل الاسلام على التراحم والتعاطف بين المسلمين لأنه وجدهما من أنجع الوسائل في وحدة المسلمين واتفاقهم . قال الامام جعفر الصادق (ع) : « اتقوا الله وكونوا إخوة ببررة متحابين في الله ، متواصليين متراغبين ، تراوروا وتلاقو ، وتذاكروا أمرنا وأحيوه »⁽⁶⁾ .

(3) البقرة الآية 135-136-137-138.

(4) المجازات النبوية للشريف الرضي ص 79.

(5) المجازات النبوية ص 43.

(6) أصول الكافي ج 2 . ص 457.

السعى في قضاء حوائج الناس

حيث الاعمال على السعي في قضاء حوائج الناس قدر المستطاع لأن ذلك من العوامل المهمة في ربط أفراد المجتمع وشدهم إلى بعضهم البعض ، يعين كبيرهم صغيرهم ، ويساعد غنائهم فقيرهم ، مما يولد المحبة الخالصة في نفوسهم » وتبادل العاطفة الصادقة بينهم . قال النبي :

« من مشي في قضاء حاجة أخبيه ساعة في ليل أو نهار قضاهما أو لم يقضها كان خيراً من اعتكاف شهر »⁽⁷⁾.

الثڑاوار

إن زيارة المسلم لأبيه تبعث على التعاون والتالق والمحبة ، وهي قاعدة أساسية دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الإمام علي (ع) :

■ لقاء الاخوان معن جسم ، وإن قلوا ». وقد حفلت أخبار أهل البيت بجمهور من الأحاديث تحت المسلمين على التربية الوطنية والاجتماعية .

الاغاثة والمساواة

ندب الاسلام الى الإغاثة والمواساة لأنها تبعث على الوحدة الاجتماعية بين المسلمين ،
فتجمع كلمتهم وتوحد أمرهم وتعلي من شأنهم . أثر عن النبي ﷺ « من نفس عن مسلم كرب
الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب الآخرين ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »
وقال الامام الصادق (ع) : « أيما مؤمن نفوس عن مؤمن كربة وهو يسر الله له حوالئجه في
الدنيا والآخرة ، ومن ستر على مؤمن عوره يخافها ستر الله عليه سبعين عورة من عورات الدنيا
والآخرة ، والله في عون المؤمن ما كان المؤمن في عون أخيه ، فانتفعوا بالعظة وارغبوا في
الخير ... ». (8)

الاخوة في الاسلام

الأخوة بين المسلمين هي أساس تماسكم وسبيل اتحادهم وقد ركز عليها الاسلام وألزم المسلمين ببراعتها وتطبيقها . وقد تضافرت الاخبار في بيانها . نذكر بعضأ منها على سبيل المثال . سهل الامام الصادق (ع) ما حق المسلم على المسلم ؟ فقال (ع) : سبع حقوق واجبات ما منهن إلا وهو عليه واجب إن ضيغ منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته ، ولم يكن الله فيه من نصب .

- 1- أَنْ تُحِبَّ لِهِ مَا تَحِبُّ لِنَفْسِكَ ، وَتُنْكِرَهُ لِهِ مَا تَنْكِرُهُ لِنَفْسِكَ .
 - 2- أَنْ تُخْتَبِسْ سُخْطَهُ ، وَتُبَيِّمْ مَرْضَاتَهُ ، وَتُطِيعَ أَمْرَهُ .

الصلوة (7)

(8) إحياء الحامم الكبير للترمذ وأصول الكافي للكليني .

(٩) أصول الكافي ج ٢ ص ١٦٩.

- 3 - أن تعينه بنفسك ، ومالك ولسانك ويدك ورجلك .
- 4 - أن تكون عينه ودليله ومرآته .
- 5 - أن لا تشبع ويحوج وتروي ويظمأ ، ولا تلبس ويعرى .
- 6 - أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم ، فواجب أن تبعثه في gospel ثيابه ، ويصنع طعامه ، ويعهد فراشه .
- 7 - أن تبر قسمه ، وتحبب دعوته ، وتغدو مرضه ، وتشهد جنازته . وإذا علمت أن له حاجة تبادره إلى قضائها ولا تلتجئه أن يسألها ، ولكن تبادره مبادرة فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتها بولايتها وولايتها بولايتها » .

فانظر هذا المنهج الوثيق للرابطة الإسلامية المكينة التي لا تؤثر فيها رياح الأعداء « ولا تزعزعها أية قوة خارجية . وأي مسلم عمل بمحض هذه الوثيقة منهاجاً واتخذها نموذجاً في حياته عاش مع أخيه عيشة راضية ، تجمعهم مشاعر وعواطف موحدة ، وينتمي هدف مشترك ومصلحة عامة مشتركة بعيدة عن الأنانية والغيرة والحسد .

وللامام الصادق (ع) كلمات علية عن حق المؤمن على أخيه المؤمن ، كلها تعاليم اجتماعية رائعة تمد الأمة بأفضل مقومات النهوض والارتقاء داخلياً وتصون المجتمع بسياج منيع تحطم على قدميه أطماء العدو ومؤامراته . ومن جهة أخرى هي الإسلام عن جميع الأسباب التي تؤدي إلى تباعد المسلمين وتفرق كلمتهم ، وتشتيت شملهم .

كالتقطاع ، وعدم التعاون ، والإيذاء ، والتحقير ، والارهاب ، والتخويف ، وتتبع العثرات والعيوب ، والسباب ، والتفاخر بالأسباب . وغيرها وكل ما يعمل على تصدير الأخوة الإسلامية .

إن الناس في شريعة الإسلام سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقى والعمل الصالح . وما أحرانا نحن اليوم في لبنان » رواد النهضة العلمية والحضارة الحديثة ، أن نطبق هذه القاعدة العادلة المترنة فنعيش أخوة متحابين متعاونين لتحقيق المصلحة الوطنية العامة « فلا عصبيات ولا امتيازات ولا فروقات ، اللبنانيون كلهم سواسية لا فضل لواحد منهم على الآخر إلا بالعمل الصالح لوطنه لبنان ، والتعاطف والتراحم مع جميع أبناء وطنه اللبنانيين .

وعلينا أن نطبق قول أمير المؤمنين (ع) المالك الأشتر في ولايته على مصر « الناس صنفان إما أخ لك في الدين أو شبيه لك في الخلق . وقول الإمام الباقر (ع) : « إن الله رفع بالآيات من كان في الناس وضيعاً إذا كان مؤمناً ، ووضع بالكفر من كان الناس يسمونه شريفاً إذا كان كافراً فليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقى » (١) .

ومن معالم التربية الاجتماعية في الإسلام

- أ - يدعو الإسلام إلى التسامح والتسامح مع أهل الأديان السماوية الأخرى ، وينبذ التعصب للعرق وال الدم أو الحزب أو فريق أو ناحية ، لأن الحق لا يتغير بمثلهذه الفروقات . فالناس

(1) راجع النظام السياسي في الإسلام ص 258 .

كُلُّهُمْ عِبَادُ اللَّهِ » . والرَّسُولُ الْأَعْظَمُ رَسُولُ اللَّهِ أَرْسَلَهُ سَبَّحَانَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَسَرَاجًا مُنِيرًا . قَالَ تَعَالَى : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلْمَةٍ سُوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنَّمَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكُ بَهُ شَيْئًا »⁽¹⁰⁾ .

وقد وضع النبي الكريم ﷺ أصول هذا التسامح وقواعد فجاء في الحديث الشريف « من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلنه فوق طاقته أو أخذ منه بغير طيب نفسه فانا حبيبيه يوم القيمة » .

يشهد بتسامح المسلمين وحسن معاملتهم للمسيحيين السير توماس أرنولد فيقول : « لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة » واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة ، ونستطيع بحق أن نحكم أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنما اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة ، وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهده على هذا التسامح »⁽¹¹⁾ .

إن خير وسيلة لنهاية المسلمين رجوعهم إلى هدي القرآن الكريم . قال سبحانه وتعالى « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْرَجُوا »⁽¹²⁾ . فرابطة الأخوة جعلها الإسلام أقوى وأعز من رابطة النسب وأمر برعايتها والحفظ عليها .

ب - على المسلم أن يتخلق بأخلاق دينه العظيم فيعود نفسه عليها ليس هو بذلك إلى رحاب عالية تشمل الصلاح والتقوى والشفاعة وقوه الإرادة والسلوك المستقيم والصدق والأمانة . فيعطى على الضعيف ، ويساعد الفقير المحتاج ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

ج - توعية المسلم توعية اجتماعية ناضجة تساعد في معرفة ماله من حقوق وما عليه من واجبات ليحصل حقوقه كاملة . ويقوم بواجباته بقناعة شخصية ، بعيداً عن الضغط والاكراه . وهذا ما يجعل الفرد منديجاً في مجتمعه متعاوناً مع حكامه . مؤمناً بأهداف أمه إيماناً راسخاً ، لا تثنيه عن عزمه الاغراءات ولا تغير مواقفه الماديّات كما يحصل اليوم عند بعض المسلمين الذين بقي الإسلام لعنة على ألسنتهم ولم يرسخ في أعماق نفوسهم .

إن ما ينشده الإسلام في تربيته الاجتماعية أن يجعل من الفرد عضواً صالحاً متوجهاً في الهيئة الاجتماعية . يتكيف مع مجتمعه في إطار القواعد السليمة والقوانين الحكيمية التي شرعها الله عز وجل ، واضع الأحكام ورب العالمين . إن المسلم المؤمن الذي يرغب في كسب رضي الله يعمل جاهداً في إفادة خلق الله ، إخوته في الإيمان وأمثاله في الخلق . مطابقاً قول الرسول الكريم :

« الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِبَالُ اللَّهِ وَأَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ أَنْفُعُهُمْ لَعِيَالَهُ » .

وال المسلم المؤمن هو الذي يحب في الله ويكره في الله وي العمل في سبيل الله . فالذين يحبهم

(10) آل عمران الآية 64.

(11) الدعوة إلى الإسلام لـ أرنولد .

(12) الحجرات الآية 10 .

هم عبيد الله الصالحون والذين يكرههم هم أعداء الله ، من كفار ومنحرفين ومغضوب عليهم وضالين .

ومن يعمل في سبيل الله يطبق أحكام كتاب الله ، الذي يهدي للتي هي أقوم ، ويسير على منهج سنة رسول الله المبشر والمُنذر والسراج الميّز والداعي إلى مأدبة الله . جاء في الحديث الشريف :

« إن الله سبحانه جعل الإسلام داراً ، والجنة مأدبة ، والداعي إليها محمد صلى الله عليه وآله » .

فتأمل معى رعاك الله ، هذه الدار الواسعة المقصودة للاتجاع ، والجنحة والمأدبة والدار عليها والداعي إليها محمد . فالإسلام دار سلام لأنَّه كان جامعاً لأهله حاميًّا لمن فيه ، والجنة مأدبة لأنَّها مجتمع الشهوات ومتجمع اللذات . والداعي إلى هذه المأدبة محمد رسول الإسلام وهادي الانام إلى السلام .

فالمسلم المؤمن هو من كان من المدعىين إلى هذه المأدبة ومن كان من أهل تلك الدار « دار الإسلام والسلام لجميع أفضل الخلق وخير الأنام .

(1) المجازات النبوية للشريف الرضي .

الفصل السابع

التربية الرياضية في الإسلام

كما اعنى الإسلام بال التربية الروحية للإنسان اهتم أيضاً بال التربية الرياضية للأبدان . لأنه وجد فيها عنصراً مهماً في تنمية نشاط الجسم وحيوته . وقد وضع لذلك منهجاً مقيداً جديراً بالتقدير .

السباق

وغايته الاستعداد لممارسة القتال والتمرين للأعمال الحربية ليكون الفرد على أبهة الاستعداد دائمًا لخوض المعارك التي كانت مفروضة على المسلمين بصورة شبه مستمرة . فالمسلم كان يحارب ليدافع عن نفسه وعن قومه وفي سبيل الدعوة الإسلامية . فالتمرين ضروري له ليقوى به جسمه . وقد أثر عن الرسول الأعظم :

« لا سبق الا في نصل أو حفار »⁽¹⁾ وهو ما يوهب الجسم نشاطاً والعضلات قوة .
وقال ﷺ : « من أدخل فرساً بين فرسين وهو لا يؤمن أن يسبق فليس بقمار ومن أدخل فرساً بين فرسين وقد آمن أن يسبق فهو قمار »⁽²⁾ .

الرمادية

الرمادية تمرين على عمليات الحرب وحمل السلاح وتحفيز الجندي ليرمي رمادي صائبة ، ولا يحصل هذا إلا بموازنة الرمادية باستمرار كما يحدث الآن عند أغليبية الجيوش . ولا ريب أن هذا التمرين المستمر يبعث على توفير القوى الجسمية ، وزيادة نشاط العضلات ، كما يفيد من ناحية أخرى ، وهو تقوية إرادة المحارب واعتماده على نفسه . وكان النبي ﷺ يشجع على الرمادية ويفضلها : قال ﷺ :

« فارموا واركبوا وأحب إلى أن ترموا من أن تركبوا كل هؤلء باطل ، ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه ، وملاءعته أهله ، ورميه بقوسه وبنله ، فانهن من الحق ، ومن ترك الرمي بعدما تعلم رغبة عنه ، فإنما هي رغبة تركها »⁽³⁾ .

(1) رواه أصحاب السنن .

(2) رواه أبو داود .

(3) رواه أصحاب السنن .

يظهر من الحديث أن النبي ﷺ كان يفضل الرماية على غيرها من التمارين الأخرى ، ويشجع على الاستمرار بمزارعاتها .

روى مسلم عن سلمة بن الأكوع قال : « فَيْنَا نَحْنُ نَسِيرٌ وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ يَقُولُ : هَلْ مِنْ مَسَابِقٍ إِلَى الْمَدِينَةِ ؟ وَجَعَلَ يَعْدِ ذَلِكَ فَلِمَا سَمِعَ كَلَامَهُ قَالَتْ لَهُ : أَمَا تَكْرِيمٌ كَرِيمًا وَلَا تَهَابٌ شَرِيفًا ؟ قَالَ : لَا . إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ بَأَيِّ أَنْتَ وَأَمِي ذَرْنِي فَلَا يُسْبِقُ الرَّجُلَ . قَالَ : إِنْ شِئْتَ . قَالَتْ : أَذْهَبْ إِلَيْكَ وَثَبِّتْ رَجُلٌ فَطَمِرْتَ فَعُدْوَتْ فَرَبِطْتَ عَلَيْهِ شَرْفًا أَوْ شَرْفَيْنِ ، ثُمَّ إِنِّي دَفَعْتَ حَقَّ الْحَقَّ فَأَمْسِكْهُ بَيْنَ كَفَّيْهِ . قَالَتْ : قَدْ سَبَقْتَ وَاللَّهُ . قَالَ : إِنَّمَا أَظْنَنْ فَسْبِقَتِي إِلَى الْمَدِينَةِ . . . » .

الصيد

ويستوجب تحريك الأعضاء وتنفس العضلات وتقوية الجسم كله ، لأنه يستلزم الحركة الدائمة والسير بجميع أنواعه . وكم من الملوك والأمراء والخلفاء وكبار القوم استهواهم الصيد بمنتهى رورياضته . وكما نعلم أن الصيد خروج على رتابة العيش إلى الفلاة الواسعة حيث الحرية البرية النقية « يتخلص الإنسان ولو لساعات من مسكنه الضيق المحدود ومجتمعه المقيد » ليجتمع في مصادفة حلوة مع الطبيعة الصادقة الختونة ؛ التي لا تعرف الغش ولا الخداع من أجل مصلحة شخصية أو هدف معين . عندنا يفتح الصياد مغالم نفسه عليها ويبحث لواعجه صدره إليها ، وبتبادلان الحب الصادق كأحسن عاشق ومعشوق . وجميل للإنسان أن يعيش لحظات تأمل ! ويسن بمنتهى جديلة يضيفها إلى متع هوایاته ⁽⁴⁾ وقد عرضت كتاب الفقه بصورة مفصلة إلى محل الصيد ومحرمه ، وما يشترط فيه من الأمور التي تبيحه . فعينوا الرياضة المقيدة التي يترتب عليها فائدة الفرد ومصلحة الجماعة ، أما الضارة منها فقد حرمتها الإسلام وألزم المسلمين بالابتعاد عنها .

ومن العبادات في الإسلام فوائد رياضية شرعاً الدين الخيف ، تهدف إلى صحة الإنسان ورياضية جسمه وتنشيط عضلاته ، كما تهدف كذلك إلى سمو في الأخلاق وتحذيب النفوس واتصالها بالله واهب الحياة ورب العالمين . من هذه الرياضيات الجسدية والروحية :

1 - الصلاة

الصلاحة صلة المؤمن بربه ، ومفرزه حينما تنازعه الهموم وتصارعه الآلام ، وهي كما جاء في الحديث الشريف معراج المؤمن وقربان كل تقى . عندما يصل المؤمن يتصل بخالقه اتصالاً مباشراً ناسياً كل الروابط المادية والمصالح الشخصية ، فتسقر نفسه وتطرد عنها كل قلق واضطراب لتتجأ إلى أصلها الذي تنزلت منه .

الصلاحة في جوهرها ليست كلاماً يتكرر أو عبارة تردد ، وإنما هي الحركة التي تقوم بها النفس لتضع نفسها في علاقة شخصية « واتصال مباشر بالقدرة الخفية التي يمحى الإنسان بوجودها قبل أن يطلق عليها اسمـاً ، وإذا خلت الصلاحة عن ذلك فهي فاقدة لروحها وواقعها .

(4) راجع أعلاه في العصر العباسي للمؤلف ص 70 .

وقد توعد الله عز وجل الغافلين عن معانٍ الصلاة الحقيقة قال تعالى : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون »⁽⁵⁾ .

والصلاوة رياضة جسدية ودينية يؤديها المسلم خمس مرات في اليوم فتكون خير مقوم لبدنه ومنتشر لامعاته ولجميع عضلات جسمه ومفاصله . لاحظ على رياضة ان حركات الصلاة يوجد شبه بينها وبين النظام السويدى الذي لا يزيد عمره عن مئة عام .

تبدأ الصلاة بالتكبير برفع اليدين وتحريك مفصل الكتفين إلى أعلى ، وهذا من التمارين التي تفتح الصدر .

وبعد التكبير قراءة الفاتحة ثم يثني المصلي جذعه إلى الأمام واضعاً يديه على ركبتيه . قالوا : إن الجسم في هذه الحالة يستفيد عدّة فوائد منها :

إنه يحرك مفصل الفخذين ويفرد العمود الفقري ، ويضغط يديه على ركبتيه فيشدّهما ، وكلتا العميلتين - شد فقرات العمود الفقري وضغط الركبتين للخلف - هامتان ومفيدةتان للجسم .

وقد قللت النظم الرياضية هذا الوضع فجعلت الإنسان يميل بجذعه للأمام وهذا يدل بوضوح على الحكمة البالغة في حركات الصلاة .

أما السجود : فحركة جامعة شاملة الفائدة لأكثر أجهزة الجسم .

فثنى الركبتين لآخرهما يفيد في منع تصلب مفصل الركبتين ، وثنى الجذع ووضع الجبهة على الأرض في حركة السجود هذه تعتبر من أفيد الحركات في عمل نوع من التدليك الذاتي للمعدة والجهاز المفصلي مما يساعد على الهضم وينعش الامساك . والسجود يساعد على إزالة هبوط المعدة . وقد أقر الأطباء المعاصرة أن أحسن علاج هبوط المعدة هو السجود ومن حكم الإسلام أنه أعطى عضلات البدن ومفاصله حقها من الرياضة والحركة في الصلاة .

أما الذي يقصر ويحمل في صلاته فلا يقوم بها حق قيام فقد ذمه الله في قوله سبحانه وتعالى : « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسلى »⁽⁶⁾ وعن فوائد الصلاة الرياضية قال السيد محمد حسين كاشف الغطاء⁽³⁾ :

« لها أعظم الأثر في نشاط الأعضاء وتقلص العضلات وقوتها وتماسكها ، وتنبيه العصب الحساسي وتحريك الدورة الدموية وإيقاد الحرارة الغرizerية التي تهيئ بيئة داخلية ثابتة ، وتنشط القوى لأعمال الفكر الصحيح » . . . وتلك الحركات تمارين صحية ورياضية طبيعية ، لها في كل عضو أثر خاص عميق ، منظمة أبدع تنظيم في أوقات معينة كل يوم » بل هي مع ذلك وصفة طيبة ، وطراز بديع في تحصيل المناعة للمفاصل والعظام والأعصاب والقلب والرئة ، والمعدة بل والرئيس الأعلى وهو الدماغ . والصلاوة رياضة بدنية ، ورياضية روحية . رياضة معتدلة تمنع

(5) الماعون الآية 4-5 .

(6) النساء الآية 142 .

(7) راجع روح الصلاة في الإسلام للاستاذ عفيف طبارة ص 137 .

بالمواطبة على أدائها في أوقاتها الخاصة : قوة الارادة ، وضبط الوقت وحفظ النظام ، ورسوخ ملحة الوفاء بالعهد » وصدق الوعد الى كثير من أمثال هذه السجاجيا والمزايا » .

ولا جدال في أن الصلاة خير رياضة يومية تتحرك بها أغلب عضلات الجسم ومفاصله ، الميسرة في أي مكان ، الموزعة على أوقات النهار قبل طلوع الشمس وبعد الزوال وقبل الغروب وبعده وقبل النوم مع الاعتناء بنظافة البدن .

2 - الصيام

الصيام من أقوى الوسائل في رياضة النفس ، وقوية الارادة ، وتعويذ النفس على الصبر . وباختصار هو الرمز العملي لضبط النفس في دين الله ، لذلك كان من أركان الدين الإسلامي وطريقاً من طرق الوصول الى حقيقة التقوى التي هي التعبير العملي عنأخذ المسلم نفسه بالاسلام . قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتُبُ اللَّهِ أَنْ تَكُونُ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَفَقَّهُونَ ﴾⁽⁸⁾ .

أوجب الإسلام الصيام على المؤمنين وجعله شهراً كاملاً كل عام ، وهو رياضة صحية من نوع آخر خاص بالجهاز الهضمي وما يتعلّق به من غدد وغيرها . وقد تبيّن للعلماء أن الصيام يفيد الصائم قادر على القيام به في حالات كثيرة وهو العلاج الناجح للوقاية من أمراض كثيرة . جاء في كتاب الإسلام والطب الحديث : يفيد الصيام في الأمراض التالية⁽⁹⁾ :

1 - اضطرابات الأمعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر في المواد الزلالية والنشوية . وهنا ينجح الصيام خصوصاً مع عدم شرب الماء بين الأكلتين ، وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما في صيام رمضان ويمكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمر . وهذه الطريقة هي أرجح طريقة لتطهير الأمعاء .

2 - زيادة الوزن الناشئ من كثرة الغذاء وقلة الحركة ، فالصيام هنا أرجح من كل علاج ، مع الاعتدال في الطعام وقت الافطار ، والاكتفاء بملء وقت السحور .

3 - زيادة الضغط الذاتي . وهو آخر في الانشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ، ففي هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة ، خصوصاً إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعي لأمثاله .

4 - البوال السكري ، وهو متشر انتشار الضغط ، ويكون في مده الأولي وقبل ظهوره مصحوباً غالباً بزيادة في الوزن ، فهنا يكون الصيام علاجاً نافعاً ، إذ أن السكر يهبط مع قلة السمنة . ويهبط السكر في الدم بعد الأكل بخمس ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي في حالات البوال ، السكري الخفيف ، وبعد عشر ساعات في أقل من الحد الطبيعي بكثير . ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات في الغذاء أهم علاج في هذا المرض حتى بعد ظهور دواء(الأنسولين) ، وخصوصاً إذا كان الشخص يزيد عن الوزن الطبيعي ولم يكن هناك علاج

(8) البقرة الآية 183.

(9) الاسلام والطب الحديث للدكتور عبد العزيز اسماعيل ص 23-24.

هذا المرض قبل «الأنسولين» غير الصيام .

5- التهاب الكلى الحاد والزمن المصحوب بارتشاح وتورم .

6- أمراض القلب المصحوبة بتورم .

7- التهاب المفاصل المزمنة ، وخصوصاً إذا كانت مصحوبة بسمنة ، كما يحصل عند السيدات غالباً بعد سن الأربعين . وهو ما يدعى طيباً التهاب المفاصل التنكسي ورب سائل يقول : ولكن الصيام في كل هذه الحالات يحتاج إلى إرشاد طبيب في كل مرض على حده ، والصيام الذي كتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء . وهذا صحيح ولكن فائدة الصيام هي الوقاية من هذه الأمراض .

هذه أهم الفوائد الصحية التي تتبع عن الصوم . قال الرسول الأعظم ﷺ في حديث شريف : «صوموا تصحوا» فالصوم وقاية للأبدان واستقامة في السلوك والأخلاق ، وضبط في الارادة والنفس . وهو الصيغة الوحيدة للإنسان التي ينفي أن تصاحب عليها نفسه ، وإن تضيّط بها شهواته » . وبه حياة الناس وهو الطريق المستقيم الذي لهم ، وعليهم أن يسلكوه .

الاعتدال في الرياضة

أعطى الإسلام الإنسان المجال اللازم له للاستزادة من الأعمال الرياضية ، لكنه اشترط عليه عدم الاجهاد وتحمّل النفس أكثر من طاقتها » . وذلك كي لا تخسر الرياضة عن معناها الحقيقي . قال سبحانه وتعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . . . »⁽¹⁰⁾ .

فالصلة ، كما مر معنا ، تحمل إلى جانب معناها الرياضي عبادة روحية يلتزم على القيام بها الصحيح والمريض على حد سواء ، ولكل منها حق التصرف حسب إمكاناته وقدراته ، فالمريض الذي لا يمكنه القيام بجميع حركاتها خفف الله عنه بقدر ضعفه وعجزه . فقد أباح للمريض والمسافر الأفطرار في شهر رمضان رحمة بها . قال تعالى : « . . . فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر . . . »⁽¹¹⁾ ، فالله ، الرحمن الرحيم ، يريد للإنسان اليسر وليس العسر والإنسان الضعيف الذي لا يستطيع القيام بالجهاد في سبيل الله أو الحج إلى بيت الله ، اسقط الله عنه الواجب . جاء في القرآن الكريم : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج . . . »⁽¹²⁾ . فلا إفراط ولا تفريط في الإسلام ، كل شيء جاء بالعدل والقسط » . حكمة من رب العالمين خالق الكون وفاطر السماوات والأرض وهو العلي القديس .

وتقوية الأجسام ضرورية للإنسان » . وهو ما أكدته العلم الحديث لأن تقويتها من موجبات تقوية العقل . فقالوا : « العقل السليم في الجسم السليم » . وهذا دليل واضح على أن الإسلام

(10) البقرة الآية 286 .

(11) البقرة الآية 185 .

(12) التور الآية 61 .

يماشي الميل الانسانية الحقة من كل وجه . فأمر بالاعتدال ورفض الاسراف . جاء في قوله عز وجل : ﴿... ولا تسرعوا إنه لا يحب المسرفين﴾⁽¹³⁾ .

الحج

أمر الله المسلمين بفرضه الحج من استطاع وكان قادرًا على أدائه . قال سبحانه : ﴿... والله على الناس حجُّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾⁽¹⁴⁾ .

فالحج بطريقه وسعيه وسائر الأعمال المطلوبة رياضة بدنية موجبة لتنفسية العضلات ، وتنشيط حركات الجسم ، بالإضافة إلى كونه رياضة روحية وتنفيذًا لأوامر الله سبحانه وتعالى . في ذلك اليوم العظيم يأتي المسلمين من كل أنحاء الأرض ليقنو في جبل عرفات جميعهم يؤدون طقوس الحج وواجباته وكفى . ويا ليتهم استغلوا تجمعهم هذا فعرضوا ما يلم بهم من شؤون سياسية واقتصادية واجتماعية ، لاستفادوا خيراً عمياً ، ولكن هذا المؤتمر الإسلامي انتلاقة بناء في نجاح وتحسين أحوال المسلمين المؤمنين المتسكين بعقيدتهم الإسلامية الانسانية .

. 141) الانعام الآية (13)

. 97)آل عمران الآية (14)

الفصل الثامن

التربية الصحية في الإسلام

كما وضع الاسلام تشريعات للروح وضع كذلك تشريعات خاصة للأبدان ، لأن البدن وعاء للروح يقيها من العلل ويحفظها من الأمراض . فصاحب الجسد العليل لا تباح له الفرصة للقيام بكل ما يلزم في ميادين الحياة الخاصة وال العامة فهو مضطرب التفكير ، عصبي المزاج ضعيف الارادة لا يستفيد منه المجتمع الانساني كما يستفيد من الأصحاء . وقد مدح الله في قرائه الكريم قوة البدن مع سلامته النفس على لسان ابنته شعيب عن موسى عليه السلام :

﴿ يا أبا استأجره ان خير من استأجرت القوي الأمين ﴾⁽¹⁾ .

وقال تعالى في طالوت : ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بُسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجَسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي ملکه من يشاء والله واسع علیم﴾⁽²⁾.

والخطاب في هذه الآية لبني إسرائيل وقد بين الله سبحانه أن اختياره لطلالوت وفضيله عليهم لأمرٍ : مقدراته العلمية التي يكون بها حسن التدبير ، ومقدراته البدنية المستلزمة لصحة الفكر .

وقد أشار الرسول الأعظم إلى مزية المؤمن القوي إيماناً منه بأن الإنسان لا يمكن أن يتتوفر فيه عناصر الحياة السليمة ، والطاقات الحيوية ، إلا إذا ساهمت معالم التربية الصحية ، وطبقت مناهجها على واقع الحياة : قال ﷺ : « المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير ((3)).

وقد يبلغ من اهتمامه بالصحة (ع) أنه كان يقول لأصحابه : « سلوا الله العافية والمعافاة ،
فما أوقى أحد بعد اليقين خيراً من المعافاة » .

كما أشاد بعلم الطب ودعا إلى التخصص به فقال ﷺ : العلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان ». .

كما وضع رسول الله بناجاً عاماً للطب عرف «بالطب النبوي» تحدث فيه عن أهم الأمراض

القصص، الآية 26.

. 247 (2) الآية القراءة

(3) رواه المسلم .

ووصف أدويتها ، كما احتوى على بيان شامل لبعض الأغذية من الفواكه ، والأطعمة واللحوم ، والخضراوات وذكر خواصها الطبية⁽⁴⁾ .

ولعلي بن أبي طالب (ع) وصايا صحية هامة ، من بينها هذه الوصية التي زود بها ولده الإمام الحسن (ع) قال له :

« لا تجلس على الطعام إلا وأنت جائع ، ولا تقم عن الطعام إلا وأنت تستهيه ، وجود المضغ ، وإذا ثمت فاقرئ نفسك على الخلاء ، فإذا استعملت هذه استغنيت عن الطب »⁽⁵⁾ .

فالطلب الحديث يقر هذه النصيحة الصحية ذلك أن النهمة في الطعام ، وعدم مضغه تسبّبان إصابة الجهاز الهضمي بأمراض مهلكة .

وللإمام الصادق (ع) باع طويل في علم الصحة والوصفات الطبية الرائعة تناولت دقائق علم الطب : فقد عرض فيها إلى وظائف الأعضاء ، ودوران الدورة الدموية والجرائم المسيبة للأمراض وخواص الأغذية كاللحم والخضراوات والفواكه . وهذه البحوث القيمة دونت كلها في كتاب سمي « طب الإمام الصادق » وقد ناظر كبار علماء الطب في عصره ، وخاصة معهم في البحوث الطبية المعمقة فبذهم جيئاً ، وله كتاب رائع في هذا الفن اسمه « أمالى الإمام الصادق » .

ومن المعروف أن هذه البحوث أثراً كبيراً في تطور علوم الصحة والبحوث الطبية ولعل من أروع البحوث الصحية التي أثرت عن أئمة أهل البيت (ع) طب الإمام الرضا (ع) المسمى « بالرسالة الذهبية » التي ألفها بطلب من الخليفة العباسي المأمون ، وقد عني بها عناية خاصة وأمر أن تكتب بالذهب لعظم فائدتها . وقال فيها :⁽⁶⁾ « ومسيتها ■ الذهبية ■ وخزنتها في خزانة الحكمة » ، وذلك بعد أن نسخها آل هاشم فتيان الدولة ، لأن بتدبیر الأغذية تصلح الأبدان ، ويصلاح الأبدان تدفع الأمراض » . ويدفع الأمراض تكون الحياة ، وبالحياة تعال الحكمة ، وبالحكمة تعال الجنة . ويتتابع ...

وقد عرضتها على خاصتي وصفوني من أهل الحكمة والطب وأصحاب التأليف والمذكورين بالحكمة ، وكل مدحها وأعلاها ، ورفع قدرها ، وأطراها ، انصافاً لمصنفها ، وإذاعاناً لمؤلفها ، وتصديقاً له فيما حكاه » .

وقد جمع المأمون كبار عصره لمناظرته فعجزوا عن مجاراته واعترفوا له بالفضل عليهم .

ومن يتبع التشريعات الإسلامية المتعلقة بصحة الأبدان يلاحظ أن الإسلام قد وضع أساساً عامة للمناهج الصحية ، يعتبرها الطب الحديث اليوم من القواعد الأولية التي تقي الإنسان من الاصابة بكثير من الأمراض ، كما تخفف من حدتها إذا وقعت ، وهي تشمل التشريعات الوقائية والتشريعات المرضية .

(4) راجع طب النبي لمحمد تقى فلسفى .

(5) راجع خصال الصدوق .

(6) طب الإمام الرضا .

التشريعات الوقائية

يقول المثل : درهم وقاية خير من قنطرة علاج . فخير علاج للمرض هو أن تفادي الواقع فيه . وهذا ما يسعى إليه الطب الوقائي في الدول المتحضره ، إذ نراها تعمل جاهدة على تلقيه لأبناء المدارس والمواطنين كعلم ضروري لا غنى عنه . والتشريعات الوقائية في الاسلام تقسم الى أربعة أقسام رئيسية ولكل منها أجزاء تتفرع منها .

أ - النظافة

عني الاسلام بالنظافة عنابة فائقة لأنها من العناصر المهمة في تكوين الحياة الصحية وازدهارها ، حيث تجعل الانسان بامان التلوث بالأمراض السارية والأوبئة الفتاكه . ومن حرص النبي ﷺ عليها واهتمامه بها قررناها بالآيمان فقال ﷺ النظافة من الآيمان . «بني الدين على النظافة» وقد منح الله وسام حبه لمن اتصف بها قال سبحانه وتعالى : «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَابِينَ وَيَحْبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ»⁽⁷⁾ .

وتشمل النظافة التي دعا إليها الاسلام ما يلي :

نظافة الجسم وإزالة ما عليه من أوساخ ، نظافة اللباس ، نظافة المسكن ، ونظافة المأكل ومياه الشرب .

ويتضمن حرص الاسلام البالغ بالنظافة من تشريعاته التالية :

- الموضوع

شرع الاسلام الموضوع قبل القيام الى الصلاة . قال تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قَمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ، فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إِلَى الْمَرْأَقِ، وامسحوا بِرُؤُسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الكعبَيْنِ»⁽⁸⁾ .

وسن النبي زيادة على ذلك : المضمضة ، والاستنشاق ، ومسح الأذنين ، وتدليك أجزاء الجسم التي يمر عليها ماء الموضوع ، وتخليل ما بين أصابع اليدين والرجلين وغسل كل عضو ثلاث مرات .

وقد ذكر الأطباء أن الموضوع فوائد صحية هامة منها :

- 1 - أن الماء الذي نغسل به الوجه واليدين يجعل انقباض العروق الشعرية السطحية الجلدية ثم عودها منبسطة الى حالتها الأولى . حرقة القلب تزداد ، والمبادرات في الجسم تنشط ، والحركات النفسية تقوى واستنشاق الأوكسيجين يزيد ، وبذلك تنبه الأعصاب المدركة الحركة ، ثم يسري هذا التنبه الى جميع الأعصاب في القلب والرئتين والمعدة والغدد .
- 2 - تطهير مجاري الأنف من الجراثيم ووقاية العين من الاصابة بالرمد .
- 3 - وقاية الجلد من الاصابة بالأمراض الجلدية ، وخاصة الوجه واليدين لأنها مكشوفة وعرضة للاصابة باليكروبات ، فإذا غسلت في اليوم عدة مرات توفرت فيها المناعة من الاصابة .

(7) البقرة الآية 222 . وراجع التوبة الآية 108 .

(8) المائدة الآية 6 .

4 - وقاية الجوف من الجراثيم التي تدخل من طريق القم عن طريق الأيدي الملوثة⁽⁹⁾ .

هذه الفوائد الصحية التي تنجم عن الوضوء .

2 - الاستحمام

أوجب الاسلام غسل جسم البدن بالماء عقب الاتصال الجنسي أو الاحتلام للرجل والمرأة على حد سواء . جاء في القرآن الكريم :

» ... وإن كتم جنبًا فاطهروا ⁽¹⁰⁾ .

وقد ثبت طبياً أن الجسم الانساني يفقد شيئاً من حيويته ونشاطه بعد الانتهاء من الاتصال الجنسي ، وليس من شيء يعيد إليه تلك الحيوية والقدرة إلا غسل الجسم كله وبذلك جزءاً جزءاً بالماء النظيف .

أما المرأة فعليها أن تطهر من دم الحيض ، وتغسل بدمها وتزيل ما عليه من قدر الدم « حتى تعود إليها حيويتها ونشاطها .

وقد ذكر فقهاء المسلمين أنواعاً أخرى من الاغتسال الواجبة كالاغتسال من لس جثة الميت . . . وكل ذلك يجعل المسلم نظيفاً مرتاحاً صحياً ونفسياً .

3 - تنظيف الاسنان

أوصى الاسلام بتنظيف الاسنان بالسواك . قال رسول الله : « لو لا أن أشقت على أمتي لأمرتهم بالسواك قبل كل صلاة »⁽¹¹⁾ .

والسواك فرشاة طبيعية زودت بأملاح معدنية ومواد عطرية ، يتكون كيمائياً من ألياف السيليوز وبعض الزيوت الطيارة وكلورور الصوديوم وكلورور البوتاسيوم واسلالات الجير . وقد استعمل السواك النبي ﷺ والصحابة لتنظيف أسنانهم . هذا وإن الإنسان إذا أهمل أسنانه يسري فيها الفساد والتسمّس التي يتصلها الجسم وتسبب أمراضاً كثيرة .

4 - أمر الاسلام بالاعتناء بسائر أجزاء البدن فتح على حلق الشعر الرائد في الجسم ، وتقليم الأظافر ، وقص الشارب » ونتف شعر الابط . قال رسول الله ﷺ : « خس من الفطرة : الاستحداد » والختان » وقص الشارب » ونتف الابط ، وتقليم الأظافر »⁽¹²⁾ .

4 - نظافة الثياب

أوجب الاسلام طهارة الثوب من النجاسات حال الصلاة ، لأن المصلي إذا صلى بالثوب النجس اختياراً مع علمه بالنجاسة ، بطلت صلاته ، ووجب عليه إعادة ثوب طاهر . قال

(9) راجع الاسلام والطب الحديث للدكتور عبد العزيز اسماعيل ص 62-63 .

(10) المائدة الآية 6 .

(11) والسواك عود من شجر الاراك فيه ألياف دقيقة يستعمل لتنظيف الاسنان .

(12) صحيح البخاري وصحيح مسلم . والاستحداد : حلق الشعر من الأعضاء التناسلية (شعر العانة) . والمراد بالفطرة : السنة القديمة التي اختارها الأنبياء واتفقت عليها الشرائع وقبل المراد بها : الدين .

سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَبَّاكُ فَطَهِر﴾⁽¹³⁾ . ومن الطبيعي أن طهارة الثياب لها أثر صحي في تكوين الصحة الفردية والاجتماعية ووقاية الفرد من الاصابة ببعض الأمراض .

5 - الاستنجاء

وما شرعه الدين الاسلامي للنظافة الاستنجاء بالماء الظاهر ، وذلك بتطهير مخرج البول ثلاث مرات ، ومخرج الغائط ليزيل عين النجاسة . ومن حكم الاسلام في الاستنجاء ما سنه من استعمال اليدين اليسرى لازالة النجاسة دون اليمنى التي قرر بها التضحية وتناول الطعام . قال الرسول الأعظم : « إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء وإذا أقى الخلاء فلا يمس ذكره ولا يتمسح بيديه »⁽¹⁴⁾ .

كما روى عنه ﷺ بغسل اليدين عند الاستيقاظ من النوم . فقال ﷺ : « إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده في الإناء حتى يغسلها ثلاث مرات ، فإن أحدكم لا يدرى أين باتت يده »⁽¹⁵⁾ .

فانظر هذا التشريع العظيم الذي استلزم نظافة الجسم ، ووقاية مما يحمله البول والغائط من الميكروبات المؤذية .

إن النظافة في الاسلام أوجبت ازدهار الصحة العامة كما أوجبت في جعل الطب وفائياً ، وهو ما تجهد إليه منظمات الصحة العالمية على إشاعته بين جميع الشعوب . والطهارة الشرعية دعت إلى تطهير الأبدان من الأوساخ وتطهير النفوس من الذنوب والعيوب . بهذا أمر واقعي لأن الأبدان أوعية الأرواح .

ب - المأكل والمشرب

الجسم الانساني بحاجة إلى الغذاء الكامل ليقوم بوظيفته في الحياة ، لذلك نرى الاسلام قد وضع منهجاً خاصاً للتغذية وأمر المسلمين بتطبيقه على واقع حياتهم ليأكلوا من طيبات ما رزقهم الله الرحمن الرحيم ولا يقربوا الخيش من المأكل . قال سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقَنَاكُمْ وَاشْكُرُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانًا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنْزِيرِ وَمَا أَهْلَبَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾⁽¹⁶⁾ .

سمح الله تعالى لعباده ليأكلوا من طيبات ما رزقهم سبحانه وحرم عليهم الخيش من المأكل كالميتة ، والدم ، ولحם الخنزير ، فكلها من المحرمات .

الميتة :

هو الحيوان غير المذبح الذي يموت ميتة طبيعية أو بحدوث من الحوادث . فالميتة طبيعية ، فإن كان لمرض . فالجسم الميت في هذه الحالة يشبه الغذاء المتخرّم الذي مهما ظهر من

(13) المدثر الآية 4.

(14) رواه البخاري .

(15) رواه البخاري ومسلم .

(16) البقرة الآية 172 و 173 .

الجرائم بالحرارة مثلاً يبقى مضرأً بالصحة وربما أدى إلى الوفاة .

إذا كانت الميّة بالشيخوخة فضررها كضرر الميّة بالمرض ، لأن الشيخوخة تعني انحلال أحد الأنسجة قبل الأخرى ، مما يؤدي إلى انحلال جميع الأنسجة . وانحلال أحد الأنسجة لا يأتي إلا لضعف فيها أو بمرض تدريجي غير منظور ، يحدث تغيرات في لحوم الحيوان تقلل من قيمتها الغذائية . إذا مما لا شك فيه طيباً أن لحم الحيوان السليم الذي يذبح ويصفى دمه أحسن غذاء وليس فيه أقل ضرر بخلاف الحيوان المريض المتخللة لحومه بالدم⁽¹⁷⁾ . أما الميّة بحادث من الحوادث فقد حرمها الإسلام أيضاً . جاء في القرآن الكريم : « حرمت عليكم الميّة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمحنقة والموقوذة والمتردية والنطحية وما أكل السبع ... »⁽¹⁸⁾ .

المحنقة : الحيوانات التي تموت خنقاً . فالاختناق يجعل لحم الحيوان المخنوق أسرع إلى التعفن كما أن المحنقة لا تصلح للأكل طيباً لتغيير شكل لحمها واسوداده ورائحته الكريهة .

والموقوذة هي المضروبة حتى تشرف على الموت فترث حتى تموت .

والمتردية هي التي سقطت من مكان مرتفع فماتت من أثر صدمة الوقع .

والنطحية هي التي ماتت من أثر عراكها من الحيوانات مشياً لها . فلحوم هذه الحيوانات كلها لا تصلح للأكل .

ما أكل السبع : وحرم الإسلام ما ترك السبع ، وهو كثيراً ما يعتدي على قطعان الماشية فيتناول فريسته ويترك قسماً منها بعد عراكه مع الرعاع . فلا يجوز وال حالة هذه أكل الحيوان إذا كان ميتاً لأنه يشبه الحالة السابقة (المحنقة) وضرر ذلك ناتج عن أن الحيوانات المفترسة تأكل الجيف عادة التي تحمل الأمراض ، وقد تنقل الجرائم من فم السبع إلى الفريسة وهذا السبب حرمها الإسلام .

تحريم الدم : وحرم الإسلام الدم لأنه أصلح وسط لنمو الجرائم المختلفة وتواطدها وانتشارها ، وأنه يحمل إفرازات وسموماً يجب التخلص منها ، كما يحمل محتويات البول . وعلى أي حال لا يعتبر الدم غذاء مطلقاً .

تحريم الحيوان المفترس والطير الخارج المفترس : ومن المحظيات في الإسلام أكل كل ذي مخلب من الطير وكل ذي ناب من السبع لصلابة عضلاتها وتلون لحمها وقبح رائحتها ، قال الرسول الأعظم : « حرم عليكم كل ذي مخلب من الطير وكل ذي ناب من السبع » .

فلحوم هذه الحيوانات كلها غير صالحة لمعدة الإنسان لأن هذه الحيوانات تبذل مجهوداً عضلياً في افتراسها لغيرها فتفوت بذلك عضلاتها وتكون معيبة المضم .

تحريم لحم الخنزير : وقد حرم الإسلام لحم الخنزير لأنه يحدث الداء المسمى « تريشينوز » وهو داء خطير يصحبه إسهال حاد وأحياناً إسهالاً دموياً مع مغص وحى قوية وانحطاط في القوى

(17) راجع في ذلك الإسلام والطب الحديث للدكتور عبد العزيز اسماعيل ص 17.

(18) المائدة الآية 3.

وجفاف في الخجرة ، وأوجاع مؤلمة في المفاصل تورم ظاهر في الوجه ، وخاصة حول العينين ، وربما يؤدي إلى الموت .

وقد اكتشف بعض الأطباء بعد التجارب المعاقبة أن هذا الداء ينشأ من دودة تسمى « تريشينيا » تعيش في أمعاء بعض الحيوانات ذات الثدي كالكلاب والبقر والغنم والخنازير غير أنها أرب في الخنازير من غيرها لأنها تأكل الجيف من كل حيوان يموت وفيه الطفيلي . فإذا أكل الإنسان لحم الخنزير المصابة بها ، تذوب تلك الأغشية في أمعاء الإنسان بعد مدة وجيزه ويدخل في جوفه قسم كبير من أكياسها الحية المخزونة في لحم الخنزير فتخرج منها الديدان ، وتنتشر في جميع أنحاء البدن فتسبب الأمراض السالفة الذكر »⁽¹⁹⁾ .

وقد ذكر بعض الأطباء عن هذا المرض الحقائق التالية :

أ - لا يمكن للطبيب الأخصائي من التقرير أن خنزيراً ما غير مصاب بهذه الديدان إلا إذا فحص كل جزء من عضاته تحت المجهر وهذا غير ممكن إذ ينفذ بذلك لحم الخنزير .

ب - الأنثى الواحدة من هذه الديدان تضع 1500 جنيناً في الغشاء المخاطي المبطن لأمعاء المصاب ، فتوزع الملايين المولودة من الأناث جميعاً بطريق الدورة الدموية ، إلى جميع أجزاء الجسم فتجمع الأجنحة في العضلات الارادية حيث تسبب آلاماً شديدة والتهابات عضلية تدعى إلى انتفاخ النسيج العضلي وصلابته وتكون نتيجة ذلك الأورام التي تمتد بطول العضلات .

ج - لا يوجد علاج لهذا المرض ، ولأسباب فنية لا يجدي معه دواء . وبجانب ذلك ينقل لحم الخنزير للإنسان بعض الجراثيم العفنة والبكتيريا التي تسبب للإنسان تسمماً حاداً مصحوباً بالتهابات شديدة في الجهاز الهضمي قد تسبّب الوفاة في بضع ساعات⁽²⁰⁾ .

وبعد هذه الأضرار الفظيعة لا بد إلا أن يحرمه الدين الإسلامي « دين الإنسانية المتطورة » .

تحريم الخمور في الإسلام

حرم الإسلام الخمر لأنه مصدر كل موبقة ، إذ يسلب الإنسان مقوماته الفكرية ، وهي أسمى ما أعطاه الله سبحانه للإنسان وميزه بها عن الحيوان الأبكم . قال سبحانه وتعالى : « إِنَّمَا الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ وَالْأَنْصَابَ وَالْأَزْلَامَ رِجْسٌ مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ فَاجْتَنِبُوهُ لَعْلَكُمْ تَفْلِحُونَ »⁽²¹⁾ .

وتواترت الأخبار في تحريمها . قال رسول الله ﷺ : « ثلثة لا يدخلون الجنة مدمّن حمر » .

ومدمّن سحر » وقاطع رحم »⁽²²⁾ .

(19) القرآن والطب الحديث لمحمد الخليلي ص 76. من هؤلاء الأطباء الطبيب الإنجليزي (باتجت) 1835 م شرح جنة إنسان كان يكثر من أكل لحم الخنزير .

(20) راجع روح الدين الإسلامي ص 372.

(21) المائدة الآية 90.

(22) وسائل الشيعة كتاب الأطعمة والأشربة .

وقال ﷺ : « لعن الله الخمر وشاربها وساقيها ومتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه » وقال ﷺ : « كل مسكر حمر ، وكل حمر حرام »⁽²³⁾ .

وقال الإمام الصادق (ع) : « من شرب الخمر حتى يفني عمره كان كمن عبد الأولئان ومن ترك مسکراً مخافة الله أدخله الجنة وسقاه من الرحيق المختوم »⁽²⁴⁾ . وقال أيضاً (ع) : « مدمن الخمر كعبد وثن ، وإن الخمر رأس كل إثم وشاربها مكذب بكتاب الله ، لو صدق كتاب الله حرم حرامه »⁽²⁵⁾ .

أضرار الخمر

للخمر أضرار بالغة على قوى الشخص الجسمية والعقلية والادمان على شربه يحدث انهياراً للحصة وضعفاً في التقدير والادراك . ومن أضراره الفطعية : ضرره على القلب والدم . يتسرّب الكحول إلى الدم مباشرةً . فبمجرد دخوله إلى المعدة ينحل ثم يتوزع إلى جميع الأعضاء والأنسجة ، وقليل منه يكون حامضاً كريونياً ، وحامضاً خلرياً ، وقد استدلوا على ذلك عندما قربوا قليلاً من دم سكران وقربوه من النار فالتهب كما يلتهب (الكحول) .

وأما تأثيره على القلب فإنه يحدث ارتفاعاً في ضغط الدم ، فيشتد النبض وتسرع دقاته ، ويعدما تنقص تلك الحركة الحساسية يصيب القلب ذبولاً وانحطاط . وقد ذكر الأطباء أن الادمان على الخمر يسبب تصblaً في الشرايين أو انفجاراً في شرايين المخ فقد ينجو المريض جزئياً أو لا ينجو بالمرة .

ضرره على الكبد والكلويتين : بعد أن يتتص الجسم كمية من الخمر ، ولو كانت عشر غرامات ، يمر الكحول في الكبد عن طريق التيار الدموي ، وبذلك يخرب الخلويات الكبدية ، ويحدث التهاباً فيها . وإذا أدمى عليها يصبح الالتهاب مزمناً وينتضم الكبد ، كما يسبب تشمماً فيه .

واما تأثيره على الكلويتين فإنه يسبب قلة في إدرار البول وذلك بسبب تعدد الأوعية الدموية الكلوية ، كما يحدث التهاباً خطيراً فيها .

ضرره على المعدة : عندما يدخل الخمر المعدة يتعدّر المضم كـما أنه يهيج غشاء المعدة المخاطي ، ويسبّ تدفق العصارة المعدية . والادمان عليه يتلف فاعلية تلك العصارة . أما الغير متّعدي على الخمرة . فإنها تسبّ له غثياناً أو قيئاً وإذا كانت الجرعة كبيرة أحدثت له التهاباً في المعدة وعسر هضم يستمر أياماً .

ضرره على النسل : وللخمر تأثير سلبي في الوراثة فالمسکر ينتقل بالوراثة إلى النسل . فالأولاد من أبوين مدمرين يشاؤن ضعفاء البنية غير صحيح الجسم ، ناقصي العقول ، ويكونون عرضة للإصابة باضطرابات خطيرة تنتهي بالعنة أو الشلل العام .. وقد يؤدي إلى موت الطفل بعد ولادته . وفرق هذا فإن ذريّة المدمرين على الخمر قد تصاب بتشوهات مؤلمة

(23) رواه مسلم .

(24) و(25) وسائل الشيعة كتاب الأطعمة والأشربة .

كعدم تساوي الججمة أو قصر القامة ، الاستسقاء في الدماغ ، أو بتأخير في نمو القوى العقلية ، كضعف الذاكرة أو البلة وغيرها ..

وبعض البلدان الباردة قد يستعينون بالخمر لتدفئة الأجسام ومكافحة البرد . أثبتت التجارب الطبية أن هذه الوسيلة غير صالحة وغير نافعة . كما حدث في جزيرة اسلندا الباردة جداً . كان أهلها يستعينون على مكافحة البرد بالمشروبات الروحية ، فكان أن زادت بينهم الوفيات إلى حد كبير ، فألفوا لجنة من الأطباء لبحث في الأمر وتعرف أسبابه . وبعد الدراسة أعطت اللجنة تقريراً يثبت أن كثرة الوفيات في الجزيرة راجع إلى أن القوم كانوا يستندون حرارة أجسامهم بما يتعاطونه من الخمر ، مما يسبب بتأثير الكحول صعود الدم من داخل الجسم إلى سطح الجلد ففيه بروءة الجو تدرجياً حتى تأتي على آخره ، فتنتهي الحياة بانتهاء الحرارة من الجسم . ومن ثم عرض الأمر على برلمان اسلندا فقرر الموافقة على سن قانون يحظر تعاطي المسكرات على أهل البلد .

ولكن هذا القرار كان قد سبقه منذ قرون قرار النبي محمد ﷺ . روي عن ديلم الحميري قال : سألت النبي ﷺ قلت : يا رسول الله إنا بأرض باردة نعالج فيها عملاً شديداً ، وإننا نتخد شراباً من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وعلى برد بلادنا . قال : هل يسكر ؟ قلت نعم . قال : فاجتبوه قلت : إن الناس غير تاركيه . قال : فإن لم يتركوه فقاتلواهم⁽²⁶⁾ .

والعلم الحديث أثبت أن التداوي بالخمر لا فائدة منه وهي فكرة خاطئة . سأل طارق الجعفي النبي ﷺ عن الخمر فنها عنه فقال : إنما أصنعها للدواء فقال : إنه ليس بدواء ولكننه داء⁽²⁷⁾ .

وقد أشاد بعض علماء الغرب بالتشريع الإسلامي في مكافحة الخمرة فقال (بتام) في كتاب «أصول الشرائع» ما نصه : «النبي في الأقاليم الشمالية يجعل الإنسان كالإبله » وفي الأقاليم الجنوبيه يصير كالجنون وقد حرم ديانة محمد جميع المشروبات وهذه من محسنهـا»⁽²⁸⁾ .

لذلك كلـه حرم الدين الإسلامي الخمر تحرماً باتاً وجعلـها من الكبائر والموبقـات لأنـه يؤذـي صـحةـ الإنسانـ ويـسلـبهـ كـرامـتهـ وـيسـخـهـ وـيلـقيـهـ فيـ شـرـ عـظـيمـ .

وسائل مكافحة الخمر

بعد أن عرضنا تحريم الإسلام للخمر نعرض الآن وسائل مكافحة هذا الداء الخطير المبيد والمدمـرـ للصـحةـ والـحياةـ .

1- على السلطة أن تحترمه تماماً فتيد معامله وتنزل العقوبات الصارمة بكلـ من يتجرـ ويرتـرقـ منهـ .

(26) راجع روح الدين الإسلامي ص 374 رواه أبو دارد .

(27) رواه مسلم .

(28) روح الدين الإسلامي ص 375

- 2 - الطلب من أجهزة الإعلام من إذاعة وتلفزيون وصحافة بعرض أضراره الفظيعة بالطرق العلمية المعبرة .
- 3 - قيام رجال الدين والتربيه والأطباء ومنظمات الصحة بإعطاء بيانات ومحاضرات وندوات تشرح أضراره للمواطنين .
- 4 - فتح النوادي الرياضية ، ومزاولة الشباب لأنواع الرياضة والنشاطات المفيدة .
- 5 - منع الإعلانات الدعاية في جميع وسائل الاعلام التي تحبب استعماله والترغيب فيه .
- هذه بعض الوسائل التي ينبغي أن تستخدمن لكافحة هذه الآفة الفتاكه المضرة بالانسان من جميع التواحي الصحية والانسانية والأخلاقية والاقتصادية .

منهج التغذية في الاسلام

1 - الاعتدال في الطعام

وضع الاسلام منهجاً خاصاً للتغذية ، وأمر المسلمين بتطبيقه على واقع حياتهم ، فأكيد على ضرورة الاعتدال في الطعام وعدم الاسراف فيه لوقايتهم من أمراض الجهاز الهضمي .

قال سبحانه وتعالى :

﴿ يَا بْنَ آدَمَ خُذْ وَزِينْتُكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرِبُوا وَلَا تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْرِفِينَ ﴾⁽²⁹⁾ .

كلمات قليلة العدد ، تعتمد قانوناً من قوانين الصحة ، من سار على حكمه ضمن نفسه العافية وأبعد عن جسمه السقم والمرض .

فالانسان الاكول إذا أكثر من الطعام أصيب بالتتخمه وعسر الهضم وربما الاسهال أو الصداع .

والاسراف في الطعام يتبع عنه البدانة التي منها البدانة والتعرض لارتفاع الضغط وأمراض القلب والكلى والسكر .

وقد دلت الاحصاءات أن نسبة الوفيات في حالات أمراض الكل الحادة بين المسرفين في البدانة ضعف النسبة بين أولئك الذين تناسب أوزانهم مع طول قامتهم وأعمارهم ؛ لأن زيادة الوزن تعني كثرة المواد الفاسدة في الدم وفي الجهاز الهضمي ، وهذا يعني زيادة الكليتين . ومن المعلوم أن الكليتين تعمل طوال ساعات الليل والنهار في جميع الأجسام المعتدلة الصحيحة ، فإذا ما أسرف الانسان بالطعام تضاعف عملها وأصيبتها بالتعب ومن ثم بالأمراض المختلفة .

قال الامام الصادق (ع) : لو اقتصر الناس في المطعم لاستقامت أجسامهم . وقال الامام الرضا (ع) : من أخذ من الطعام زيادة لم يفده ، ومن أخذ بقدر لا زيادة عليه ولا نقص

. 31) الأعراف الآية (29)

نفعه » وكذلك ما سيلك أن تأخذ من الطعام كفافتك في إبانته وارفع يديك منه ، وعندك إليه ميل فإنه أصلح لعدتك ؛ ولبدنك وأذكي لعقلك ، وأخف على جسمك »⁽³⁰⁾ .

لقد نهى الاسلام عن الشراءه وأمر بضرورة الاعتدال في الأكل ، مما يجب صحة الأبدان وإبعادها عن الأمراض .

قال الرسول الأعظم : « المعدة بيت كل داء » والحمية رأس كل دواء ، واعط كل نفس ما عودتها »⁽³¹⁾ .

الشراءه في الأكل تورث البدانة والرجل البدين تكسو قلبه طبقة من الشحم تحمل عضلاته عيناً كبيراً تعيقه عن تأدية وظائفه الطبيعية . فلا غرابة أن تكون نسبة الوفاة بين البدينين - بسبب مرض النبحة الصدرية وما شابها - أعلى منها بين متوسطي الوزن . وتقليل وزن الجسم ، إذا كان مبكراً ، يفيد الرجل البدين المصاب بارتفاع الضغط فائدة كبيرة .

2- مضغ الطعام

حت الاسلام على مضغ الطعام وجعله من جملة مناهجه الصحية . فالذى يمضغ جيداً يريح معدته التي وصفها النبي ﷺ « بيت الداء » ويستغنى بذلك عن الأطباء . وقد أيدت البحوث الطبية الحديثة ذلك . وأكدت أن عدم مضغ الطعام جيداً يعرض الجهاز الهضمي للإصابة بكثير من الأمراض ، من أخطرها مرض (القرحة) .

ومن الأغذية الصحية المقيدة التي وجد فيها الاسلام شفاء للناس

3- العسل

قال الله سبحانه وتعالى : « وأوحى ربك الى النحل أن تخذلي من الجبال بسوتاً ومن الشجر وما يرعشون ، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون »⁽³²⁾ .

فالشراب الذي يخرج من بطون النحل فيه شفاء للناس وهو دواء مفيد وهذه أيضاً من مأثر القرآن الكريم ، دستور الحياة والأحياء ، أثبتتها الطب . وعودة الى الترکيب الكيماوي نجد أن العسل يحتوى على 25-40% من Glucose وهذه المادة الموجودة فيه هي التي يعول عليها الطب ويستعملها في ازدياد مستمر » فتعطى بالحقن وتحت الجلد ، وفي الوريد ، وعن طريق الفم . كما تعطى أيضاً ضد التسمم الناشئ من أمراضأعضاء في الجسم مثل التسمم البولي الناشئ من أمراض الكبد والاضطرابات المعدية والمعوية وضد حمى التيفوئيد والالتهابات الرئوية والسعائية والخصبة ، وفي حالات ضعف القلب والذبحة القلبية . كل هذه الحالات يشفيها الـ Glucose .

للعسل فوائد أخرى هامة فهو دواء ملطف يزيد في إفرازات الغص فيفيد في صعوبة

(30) راجع طب الإمام الرضا .

(31) راجع المجازات النبوية بجمع الشريف الرضي .

(32) النحل الآية 68 و 69 .

الابتلاع وفي حالات السعال الجافة ، لذلك أدخلته صناعة الأدوية في الغراغر وأدوية السعال . كما يستعمل العسل كملين ضد الامساك . حيث يعطى ملعقة صغيرة على الريق .

وقد رکز القرآن الكريم على العسل بصورة خاصة دون الفواكه الأخرى لأنها لا تحتوي إلا على مادة قليلة من Glucose والكمية الباقية كلها من مادة السكر Saccharose . وذكره في كتاب الله ليس صدفة ولكنها معجزة من معجزات الإسلام التي قررها منذ ثلاثة عشر قرناً ونيف ، عندما كان لا يعرف شيء عن مركبات العسل ولا عن الـ Glucose في المركبات الطبية .

ومن المنجزات الصحية الوقائية التي سبق بها الإسلام الطب الحديث :

الحجر الصحي

وضع الإسلام قانون الحجر الصحي قبل أن عرفته الدول الكبرى المتحضرة . قال الرسول الأعظم : « إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، وإذا نزل وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها »⁽³³⁾ .

كما وضع الإسلام الحجر الصحي للحيوان أيضاً وفي ذلك قال النبي ﷺ : « لا يورد مرض على مصحٍّ أى لا يورد صاحب الماشية المريضة على حد الماشية السليمة لكم ٧ يعدي مريضها سليمها .

ومن تعاليم الإسلام الصحية الوقائية قول النبي ﷺ أيضاً : « فر من المجنوم فرارك من الأسد »⁽³⁴⁾ .

ولو علمت أوروبا بالحجر الصحي لفدت عنها الخسائر التي منيت بها في الأرواح في أواسط القرن الرابع عشر عندما اجتاحتها الطاعون ، فقد قدر عدد الموتى الذين قضى عليهم هذا الوباء الخطير بخمسة وعشرين مليون نسمة في ذلك الوقت نفذت اليندقية وميلانو قوانين صارمة بالحجر الصحي فأنشأت المأوى بعيداً عن المدينة لإقليم فيها القادمون المشتبه فيهم ، فيبيقوا معزولين لمدة ثلاثة أيام ، ثم زيدت المدة بعد ذلك حتى صارت أربعين يوماً . فانظر كيف كان الإسلام السباق إلى وضع القوانين والأنظمة التي تسير مع كل عصر في جميع الميادين العلمية والأخلاقية والصحية والاجتماعية . ومن تعاليم الإسلام الصحية للوقاية من الأمراض :

ترحيم وطء الحائض

حرم الدين الإسلامي وطء المرأة أثناء الحيض ، وقاية للزوجين من الأمراض . جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : « ويسألونك عن الحيض قل هو آذى فاعتزلوا النساء في الحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن »⁽³⁵⁾ .

(33) رواه أصحاب السنن .

(34) رواه البخاري ومسلم .

(35) البقرة الآية 222 .

وقد أثبتت البحوث الطبية الحديثة أن افرازات الجسم على نوعين : نوع له فائدة في الجسم مثل الافرازات التي تساعد على الهضم الصادرة عن الغدد اللعابية والغدد المغوية ، أو غدد التناسل ، أو إفرازات داخلية تنظم أجهزة الجسم وأنسجته . . . وهذا النوع يسمى secretion وهو ضروري للحياة .

ونوع ثان ليس له فائدة ، بل يجب طرده من الجسم إلى الخارج لأن بقائه أكثر من الوقت المحدد له يؤدي . وهو مكون من مواد سامة مثل البول والبراز والعرق ودم الحيض . . . وهذا النوع يسمى excretion .

والآية الكريمة التي حرمـت وطءـ الحائض هي آية علمـية لأنـها علمـتـ الإنسان قبلـ أنـ يعرفـ شيئاً عنـ الـافـراـزـاتـ المـخـلـفةـ المـفـيـدةـ والمـضـارـةـ منهاـ .

أماـ الجزـءـ الثـالـثـ منـ الآـيـةـ «ـ فـاعـتـلـواـ النـسـاءـ فـيـ الـحـيـضـ »ـ فقدـ أمرـ الـاسـلامـ بهـ لأنـ دـمـ الـحـيـضـ يـحـويـ مـيـكـرـوـبـاتـ وـجـرـاثـيمـ لـاـ تـلـبـثـ أـنـ تـصـيبـ الرـجـلـ فـتـحـدـثـ لـهـ التـهـابـاتـ .ـ كـمـاـ أـنـهـ فيـ زـمـنـ الـحـيـضـ تـحـتـقـنـ أـغـشـيـةـ الـمـرـأـةـ الدـاخـلـةـ وـفـيـ الـمـخـالـطـةـ قـدـ يـحـدـثـ لـهـ التـمـزـيقـ فـتـتـشـرـ العـدـوـيـ منـ الـمـيـكـرـوـبـاتـ الـمـوـجـودـةـ وـتـنـقـلـ مـنـ مـكـانـ الرـحـمـ إـلـىـ أـمـكـنـةـ أـبـعـدـ مـاـ يـؤـثـرـ فـيـ صـحـةـ الـمـرـأـةـ وـيـسـرـهـاـ ،ـ كـمـاـ أـنـ الـاخـتـلاـطـ رـبـعـاـ مـنـعـ نـزـولـ الـحـيـضـ كـمـاـ يـسـبـبـ كـثـيرـاـ مـنـ الـاضـطـرـابـ العـصـبـيـ (36)ـ .ـ

والـاسـلامـ الـذـيـ اـهـتـمـ بـالـاـنـسـانـ وـوـضـعـ لـهـ مـنـجـاـ سـلـيـاـ ،ـ حـرـمـ كـلـ ماـ يـؤـذـيـهـ وـمـنـهاـ وـطـءـ الـحـائـضـ لـأـنـ ذـلـكـ يـقـيـ الـزـوـجـينـ مـنـ الـاـصـابـةـ بـكـثـيرـ مـنـ الـاـمـرـاحـ ،ـ وـيـعـودـ عـلـيـهـاـ بـأـرـوـعـ الـثـمـرـاتـ الصـحـيـةـ .ـ وـلـتـذـكـرـ دـائـيـاـ كـيـفـ يـسـرـ الـطـبـ الـحـدـيـثـ وـرـاءـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ مـهـتـدـيـاـ بـهـدـيـهـ .ـ

وـمـنـ حـكـمـ الـاسـلامـ فـيـ وـقـاـيـةـ الـأـبـدـانـ الـحـذـرـ مـنـ :

نجـاسـةـ الـكـلـبـ :

أـطـلـقـ الـاسـلامـ اـسـمـ النـجـاسـةـ عـلـىـ كـلـ مـاـ هـوـ مـلـوـثـ بـالـجـرـاثـيمـ ،ـ أـوـ مـاـ كـانـ عـرـضـةـ لـاـتـصـالـ العـدـوـيـ وـالـمـرـضـ إـلـىـ الـاـنـسـانـ .ـ وـمـنـ أـقـدـرـ هـذـهـ النـجـاسـاتـ ،ـ نـجـاسـةـ الـكـلـبـ .ـ قـالـ

الـسـيـ ﷺ :

«ـ إـذـاـ وـلـغـ الـكـلـبـ فـيـ إـنـاءـ أـحـدـكـمـ فـلـيـرـقـهـ ثـمـ لـيـغـسلـهـ سـبـعـ مـرـاتـ إـحـدـاهـنـ بـالـتـرـابـ »ـ .ـ

فـعـلـيـنـاـ أـنـ نـحـذـرـ الـأـوـعـيـةـ إـذـاـ وـلـغـ فـيـهـاـ كـلـبـ وـلـوـثـهـاـ وـتـرـكـ عـلـيـهـاـ مـخـلـفـ الـجـرـاثـيمـ وـالـأـمـرـاحـ .ـ وـقـدـ أـثـبـتـ الـطـبـ الـحـدـيـثـ أـنـ الـكـلـابـ تـنـقـلـ كـثـيرـاـ مـنـ الـأـمـرـاحـ إـلـىـ الـاـنـسـانـ ،ـ كـمـاـ حـذـرـ مـنـ الـأـخـطـارـ النـاجـمـةـ عـنـ اـقـتـنـاءـ الـكـلـابـ أـوـ الـاقـرـابـ مـنـهاـ .ـ

قـالـ بـعـضـ الـأـطـبـاءـ الـغـرـبـيـنـ :ـ «ـ إـنـ اـزـدـيـادـ شـغـفـ النـاسـ باـقـتـنـاءـ الـكـلـابـ فـيـ هـذـاـ الـعـهـدـ الـأـخـيـرـ يـضـطـرـنـاـ إـلـىـ لـفـتـ الـأـنـظـارـ لـلـأـخـطـارـ الـيـ تـنـجـمـ عـنـ ذـلـكـ ،ـ وـخـاصـةـ إـذـاـ دـفـعـ اـقـتـنـاؤـهـاـ إـلـىـ

(36) راجـعـ روـحـ الدـيـنـ الـاسـلامـيـ صـ 379

مداعبتها وتقبيلها والسماح لها بلحس أيدي أصحابها وتركها تلعق فضلات الطعام من أوانيها .
فكل ما ذكر مناف للذوق السليم والأدب العامة لا يتفق وقوانين الصحة لأن الأخطار التي
تهدد صحة الإنسان وحياته بسبب هذا التسامح لا يستهان بها . فإن الكلاب تصاب بدودة
الشريطية⁽³⁷⁾ تتعداها إلى الإنسان ، وتصيبه بأمراض عضالية قد تصل إلى حد العدوان على
حياته » وتابع :

« وقد ثبت أن جميع الكلاب حتى أصغرها حجمًا لا تسلم من الإصابة بهذه الديدان
الشريطية . وقد شوهد أن الحيوانات أكثر تعرضاً للعدوى بهذه الدودة من الإنسان . لذلك
يجب العناية بأمر الذبائح المزبلية فقد تكون مصابة بدودة الكلاب ولا يعرفها أصحابها ولا
القصاب المكلف بذبحها »⁽³⁸⁾ .

كل هذه المأثر الصحية الوقائية قررها الإسلام لوقاية الأبدان من الإصابة بآفات خطيرة
تهدد حياته ، فهو دين الدنيا ودين الرحمة .

(37) اسمها العلمي Taenia Echinococcus

(38) راجع روح الدين الإسلامي ص 381 .

الباب التاسع

النظام العسكري

الفصل الأول

الجيش

جاء الاسلام ليوحد بين قلوب العرب ويهديهم الى الخير والحياة الكريمة التي أرادها الله لهم . وكلف تعالى رسّله الكرام ليصلحوا الأرض ومن عليها » . وكان خاتّمهم النبي محمد عليه السلام » . أرسله بالهدى ودين الحق ولو كره المشركون . أرسله سراجاً لجميع الناس من كل عرق ولون . ولا جهر ﷺ بالدعوة الاسلامية أنزل به المشركون وي أصحابه وأهله أشد الأذى وأمر الاضطهاد . فطلب أعداؤه من برد العداون على هؤلاء الجنّة ، فلم يرخص لهم الرسول في بادئ الأمر بل أجابهم : « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » (١) وعندما اشتدّ أذى المشرّكين وزاد ، جاء الأذن من الله بالقتال : « إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » . ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض هدمت صوامعٍ وبيعٍ وصلواتٍ ومساجدٍ يُذكر فيها اسم الله كثيراً (٢) .

ولما كان الأمر كذلك فقد شعر النبي بال الحاجة إلى تأليف جيش يجمي الدعوة المباركة ويرد عنها كيد المعتدين . فكان التطوع الاختياري .

وكما عرف من سيرته الطاهرة أنه لم يلزم ثواراً من أصحابه بالتجنيد ، وجل ما فعله ﷺ حض المؤمنين على القتال » . وعلى الأخص القادرين منهم . وقد وصف القرآن بعضهم : « لو كان عَرَضاً قريراً وسَفِراً قاصداً لاتبعوك ، ولكن بَعْدَتْ عليهم الشُّفَقَ » (٣) وتتابع في وصف البعض الآخر فشبههم ﷺ بالنساء الخوالف : « رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَافِ وَطَبَعَ عَلَى قَلْوَبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » (٤) .

لقد جهر ﷺ بدعوته العادلة دون أن يلزم أحداً على القتال ، فالمقاتل المؤمن بعدالة قضيته يطير الى الحرب عن رضى وطوعية ، أما المتشاكل والمتباطئ فلا حاجة اليه ولا نفع

(١) سورة النساء الآية ٧٧ .

(٢) سورة الحج الآية ٣٩-٤٠ .

(٣) سورة التوبه الآية ٤٢ .

(٤) سورة التوبه الآية ٩٣ .

يرجى منه . قال رسول الله ﷺ : لا يخرجنَّ معنا إِلَّا وَأَغْبَ في الْجَهَادِ^(١) . وقال ﷺ أيضاً : « لا يخرجنَّ معنا إِلَّا من حضر يومنا بالأمس^(٢) » ويقصد بالأمس غزوة أحد المشهورة .

وبإرادة الله تم فتح مكة فتحاً مبيناً ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وزاد عدد المؤمنين وأصبح من الممكن إعداد جيش يعني بأمر القتال . فألف عليه السلام جماعة لتكون على استعداد للحرب يوم النفي . ومع ذلك لم تأخذ هذه الجماعة صفة جندية إلزامية ، بل بقيت فيها ملامح النطوع غالبة في أكثر الحالات .

وفي عهد أبي بكر بقي الدخول في الجيش سطوعاً وليس إلزامياً ، حتى كان عهد عمر فأنشأ ديوان الجندي للاشراف والتنظيم . وأصبح التجنيد إلزامياً ، وحددت رواتب للجنود النظاميين تدفع لهم من بيت المال .

وعندما أفضى الأمر إلى معاوية احتل نظام التجنيد ، وأخذ يدفق المال على الجنود والقواد لنيل رضاهما . فأصبح هدف القتال كسب المال ، وإلا فهم مع الخوالف قاعدون^(٣) . وكذلك كان رأي ابن الأثير قال : « وازداد الأمر سوءاً في دولة بنى أمية ، حتى أصبحت الخلفاء يدفعون إلى الجنود العطايا والأموال قبل اشتراكهم في القتال ، ولما رأوا الإغراء لا يجدون صلباً للمتخلفين على الجدران ودقوا في أطرافهم المساميرو^(٤) ». ولا يخفى أن الأمورين تركوا إنسانية الإسلام وعملوا لصالحهم الشخصية . وعن فرق الجيش المعروفة كان المحاربون المشاة » وكان الفرسان . والفارسون أهمل من الرجال . يقول الطبرى : في عهد عمر بلغ عدد الفرسان في الكوفة أربعة آلاف فارس ، وكان في كل مصر من الأنصار الباقيه كما في الكوفة^(٥) نستدل من هذا ما كان للخيالة من دور فعال في حماية الدولة .

وتم تنظيم الجيش فجعل لكل عشرة عسكريين عريفاً ، ولكل عشرة عرفاء تقبياً . فالرسول نفسه هو الذي اختار ليلة « العقبة الثانية » اثنى عشر « تقبياً » ، من وفد إلى مكة من أهل المدينة » وجعلهم مشرفين على العرفاء ، وهو الذي قسم أصحابه عرافات ، وجعل على كل عشرة منهم عريفاً^(٦) .

أما الرتب الباقيه فنستقي بعضها من كتب التاريخ . فال الخليفة يأمر خمسين جندياً والقائد مئة جندي وأمير الكردوس على ألف » وأمير الجيش على عشرة آلaf أو بيزيد^(٧) . وكان يتم تدريب الجندي ، ولا سيما الفرسان في (الحمى) التربيب من مكة ، فيقومون

(٥) طبقات ابن سعد ج 2 ص 27.

(٦) تاريخ الطبرى ج 3 ص 28.

(٧) مروج الذهب ج 3 ص 95.

(٨) الكامل لابن الأثير ج 3 ص 159.

(٩) تاريخ الطبرى ج 4 ص 196.

(١٠) المصدر نفسه ج 4 ص 158.

(١١) الكامل ج 2 ص 200.

بنوارات . وكان يصحب هؤلاء بعض العارفين بأمراض الخيل ومعالجاتها ، فيشرفون على بسطتها وسياستها . من هؤلاء كان سلمان بن ربيعة الباهلي اطلق عليه لقب (سلمان الخيل) لخدمته أمر الخيل وخبرته بها⁽¹²⁾ .

شروط التعيين في الجيش

في عهد الرسول ﷺ كان التعيين يتم بنظرة دقيقة من الرسول ﷺ قبل المعركة فمن أعجبته لياقته في القتال أجازه ، ومن وجده غير لائق رده⁽¹³⁾ . لم يكن يشترط سناً معيناً للانخراط في سلك الجندي . بعد الرسول ﷺ عينوا بعض الشروط . أن يكون : مسلماً ، عاقلاً ، بالغاً ، سليمًا من الأمراض ، غير هاب في القتال . ودرج على هذا الأمويون والعباسيون .

أما القائد فكان يدعوه الرسول ﷺ ويعقد له لواء على رمح طويل ينشره أثناء مسيرته إلى المعركة . وغالباً ما كان القائد يستلم اللواء من يد الرسول ثم يركزه في المسجد النبوى ، ليكتسي حوله الراغبون في الجهاد . وقد اعتبر الخلفاء الراشدون أن عقد اللواء للقائد هو بمثابة تعينه لأمرة فرقة معينة من الجنود ، وعلى ذلك مضت سنة الأمويين ، إلى أن كان عهد العباسين ، حيث تغيرت القاعدة المألوفة فأصبحوا يرسلون اللواء إلى القواد ، حيث يكونون ، ومع اللواء خلعة يلبسوها بمناسبة تعينهم ، وقد يبعثون إليهم أوامرهم بالبريد⁽¹⁴⁾ .

قيادة الجيش

كان النبي ﷺ كما ذكرنا هو القائد الأعلى لجيش المسلمين . وبعده كانت الأحوال قد تطورت وميادين القتال قد كثرت ، فأصبح من العسير على الخليفة أن يقوم منفرداً بمهمة قيادة الجيش . لذلك نراه قد أستندها إلى من يتأكد أنه أهل لها ، من عرف بالشجاعة والنجدة ، والأقدام والمرزم ، وحسن التدبير ، والخبرة بفنون القتال « وإعمال الخدعة ، وانتهاز الفرصة ، والتلمس العزة ، وإذكاء العيون ، وإفساء الطلائع واجتناب المصايف »⁽¹⁵⁾ .

كانت إطاعة القائد واجبة لازمة ، كطاعة الخليفة نفسه ؛ فهو ينوب عنه في إقامة الصلاة ، ويستعرض فرق الجيش قبل لقاء العدو ، ليطمئن على حسن استعدادهم وتأهيلهم وذلك اقتداء بالنبي ﷺ ؛ فقد سن للمسلمين هذه السنة في حربه .

وبعد الانتهاء من المعركة تصبح مهمة القائد النظر في أمر الجند ، وتدريبهم تدريباً لائقاً ، وتحسين معداتهم وإصلاح ما فسد منها أثناء القتال ، والاستزادة منها حسب ما تقتضي الحاجة .

(12) عيون الأخبار لابن قتيبة ج 1 ص 155 وتاريخ الطبرى ج 4 ص 182 .

(13) الكامل لابن الأثير ج 2 ص 62 .

(14) المصدر نفسه ج 5 ص 144 .

(15) العقد الفريد ج 1 ص 108 .

الطابور الخامس

هناك قلوب مريضة في بعض أفراد الجيش ، يعملون على تثبيط الهمم وخذلان الأفراد ، والاتصال بالعدو لاعطائه بعض المعلومات السرية عن جيشهم . والاسلام لم يغفل عنهم بل عرفهم جميعاً وكان لهم بالمرصاد ، وحذرهم وأبعدهم عن كل ما له صلة بسلامة الدولة وأمنها . قال تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عَنْدِكُمْ بَيْتٌ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرُ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَبْتَلِيهِمْ ۝ يَبْتَلِيهِمْ فَأَعْرَضُ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾⁽¹⁶⁾ .

أولئك كانوا جرثومة الوهن في الجيش ، وأساس التخاذل في صفوف الأمة ، من هنا نرى الأمم الوعية المدركة ، تحاطط منهم وتحذرهم ، وتباعد بينهم وبين كل وسيلة قد يصلون بها إلى تحقيق غرضهم . والتاريخ يعيد نفسه ، ففي كل عصر نجد من هؤلاء الجراثيم الاجتماعية التي هي أخطر بكثير من الجراثيم الجسدية التي تهاجم جسم الإنسان . وكما أن الكريات البيض في الجسم تهاجم أي جرثوم يريد الفتك به كذلك هناك عيون ساحرة ترصد هؤلاء التخاذلين الجبناء وتقضى عليهم .

رواتب القادة والجنود :

كانت الفتوح تدر على القادة والجنود خبرات عميمة لا تقدر ، وذلك بما يخصهم به أمير المؤمنين من العطايا والأرزاق . وما ذكر لنا رسمياً عن رواتب الجنود ذكره ابن خلدون في المقدمة فقال : « حتى كان الفارس الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب أو نحوها »⁽¹⁷⁾ .

وفي عهد عثمان أثرت الدولة ثراءً كبيراً ، فازدادت رواتب الجنود وبلغت أموال بعض القواد أرقاماً خيالية لا تصدق . قال ابن خلدون : « كان لعثمان يوم قتل عند خازنه خسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادي القرى وحيدين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف إيلاء وخيلاً كثيرة ... وكانت غلة طلمحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك ، وكان على مربوط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الريع من متوكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً ... »⁽¹⁸⁾ .

ولا ندرك مدى ارتفاع تلك الرواتب إلا إذا عرفنا أن الخليفة عمر تقاضى 6000 درهم راتباً للخلافة وكذلك كان أبو بكر⁽¹⁹⁾ . أما علي المعروف بزهده وتقاه لم يكتثر للدنيا التي وصفها بدار الفناء « بل اهتم بالأخرة التي وصفها بدار البقاء . وقد انتقل عن هذه الدنيا وهو يقول :

« ألقنعني من نفسي أن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركم في مكاره الدهر وخشونة

(16) النساء الآية 81.

(17) المقدمة لابن خلدون ص 204.

(18) المصدر السابق ص 204.

(19) تاريخ الطبرى ج 4 ص 164.

العيش»⁽²⁰⁾ وقال أيضاً في خطبه المتركرة :

«والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت ، وان دنياكم لا هون عندي من ورقة في فم جرادة » .

وقد كان يجمع اليتامي ويطعمهم أطابيب الطعام ، حتى قال بعض أصحابه : وددت أني كنت يتيمًا يا أبي الحسن . وجاء عن أبي طفيلي أن (ع) أوقف جميع ما كان يملكه في الحجاز على الفقراء . روى الرازبي في تفسيره الآية : «والذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرأ عسليانية» من سورة البقرة . نزلت في علي بن أبي طالب . نقل ذلك المظفرى في دلائل الصدق عن الوادى في كتابه أسباب التزول⁽²¹⁾ . وكان علي بزهده في الدنيا وإعراضه عن مفاتنها وطبياتها يتأسى برسول الله المرسلين الذين كانوا يتسابقون إلى مرضاته عزّ وجلّ .

جاء في بعض خطبه التي قال فيها : «لقد كان لي برسول الله أسوة إذ قبضت عنه أطرافها ووطشت لغيره أكتافها ، وإن شئت ثيَّبتْ بموسى كليم الله إذ يقول : رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ، والله ما سأله إلا خبزاً يأكله . وإن شئت ثلثت بدواود صاحب المزامير ، وقارئ أهل الجنة فقد كان يعمل سفائف الخوص بيده ويقول بجلسائه : أيكم يكفيني بيعها ويأكل قرص شعير من ثمنها . وإن شئت قلت في عيسى ابن مريم فلقد كان يتسود الحجر ويلبس الخشن ويأكل العشب ، وكان أدامه الجوع وسرابجه الليل والقمر ، وظلله في الشتاء مشارق الأرض وغارتها وفاكهتها وريحانه ما تبت الأرض ، ولم تكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه ولا مطعم يذله دابته رجاله وخادمه يداه»⁽²²⁾ .

لقد سار أمير المؤمنين على سنة محمد ﷺ وموسى وداود وعيسى عليهم السلام . وأثر اللباس الخشن وخبز الشعير والخل على ملذات الدنيا وطبياتها . وهو القائل : والله لو شئت لا هتديت الطريق إلى مصفي هذا العسل ولباب هذا القمع ونسيج هذا القز ، ولكنها نفسى أرروضها بالتقوى لتؤتي آمنة يوم الفزع الأكبر ، ما لعلى ونعم يفني ولذة لا تبقى .

وفي العصر العباسي كثرت الجيوش ولم تعد الحاجة ماسة إلى إغراء الناس بالتجنيد فتضاعلت رواتب الجنود ، إلا أن يكونوا مرابطين على الثغور ، فيبذل لهم حينئذٍ ضعف الرواتب الأخرى تعويضاً لهم عن مشقات الاغتراب⁽²³⁾ .

التجنيد الإلزامي :

بدأ الناس في عهد عمر بن الخطاب يشتغلون بكسب المال عن القتال بعد أن أطربتهم الفتوح والمجزرة بالغنائم الوفيرة . ولما تكنت جيوش المسلمين من فتح العراق والشام واطمأنوا إلى النصر الذي حققوه ، أقام الجندي في هذه الأمصار معسكرات خاصة بهم ، وانصرفوا إلى

(20) سيرة الأئمة الثانية عشر ص 328 للسيد هاشم معروف الحسيني .

(21) المصدر نفسه ص 334 .

(22) المصدر نفسه ص 335 . وقابل بالعقد عبرية علي فقد تحدث عن زهد علي (ع) .

(23) الكامل لابن الأثير ج 6 ص 162 .

الزراعة وتكوين الثروة وامتلاك العقار الثابت ، وبذلك انصرفوا عن الجنديه ، وفترت الروح العسكرية فيهم ، ففطن عمر إلى هذا الخطر وأمرهم أن ينصرفوا إلى الجهاد وضمن لهم أرزاقهم وأرزاق أسرهم⁽²⁴⁾ .

هذا ما دعا أمير المؤمنين إلى أن يفكر في التجنيد الالزامي ، ويعيد النظرية في بناء الجيش ليكون قوياً مرهوباً الجانب فأمر عماله على الأقاليم باحضار كل فارس ذي نجدة أو رأي أو فرس أو سلاح « فإن جاء طائعاً ، وإلا حشروا حشراً وقادوه مقاداً»⁽²⁵⁾ .

إلى جانب الترهيب والشدة عمد عمر إلى الترغيب والاغراء ، فذُكر القوم بما يتظار لهم من الفيء في إتمام فتوح العراق ، وإنما يرث الأرض العامرة عباد الله الصالحون . هذا وقد أقام لهم الحصون والمعسكرات الدائمة لراحة الجنود في أثناء الطريق ، بعد أن كانوا يقطعون المسافات البعيدة على ظهور الإبل ، ولا يرتحون إلا في أكواخ مصنوعة من سعف النخل . ومن ثم بنيت العواصم وأقيمت الحاميات لصد هجمات الأعداء المفاجئة⁽²⁶⁾ .

وأكمل الأمويون ما بدأه عمر في نظام الجنديه ، ولكن لما استقر الأمر لهم قعد المسلمون عن الحرب وانصرفوا عن القتال . فأدخل عبد الملك بن مروان نظام التجنيد الالزامي . كان الجيش في عهده من العنصر العربي . كما كانت عليه سياسة الدولة الأموية . وظلت الحال على ذلك « من استخدام العنصر العربي وحده ، حتى توسيع الأمويون في فتوحاتهم » وضموا شمال افريقيا وبلاد الأنجلوس فاستعاناً بالبربر في الجيش ، وفي عهد العباسين دخل العنصر الفارسي في الجيش اعربي ، ولما تولى المعتصم الخلافة 218 هـ - 833 م استكثر من الأتراك⁽²⁷⁾ . فولاهم حراسة قصره ، وأسند إليهم المناصب العالية في الدولة ، وبصورة خاصة الجيش « وأدر عليهم أعطياته وهباته وفضلهما على الفرس » . وحتى على العرب . عند ذلك دب دبيب الغيرة والحسد في نفوس القواد العرب . وتأمروا على التخلص من المعتصم « صاحب الميلول التركية » ، ولما فشلوا أقصى المعتصم جميع القواد العرب والفرس أيضاً ، ومنع عنهم مخصصات ديوان العطاء ، واعتمد الأتراك دون سواهم . ويا له من نهاية . لقد أصبح الخليفة مسجونة في قفص ، لا قوة له ولا حول ، وغداً ألعوبة في أيدي الأتراك حيث صار لهم وحدتهم السلطة في بقائه على كرسى الخلافة ، أو عزله أو حبسه أو قتله .

(24) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج 1 ص 478.

(25) راجع تاريخ الطبرى ج 4 ص 63 .

(26) تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 478 .

(27) لأن أمه تركية .

الفصل الثاني

أسلحة الجيش

كان الجيش يتالف من الرجال والفرسان . فالرجال يتسلحون بالدروع والسيوف والقسي والسهام ، والفرسان يتسلحون بالدروع والسيوف والرماح .

والعرب في الجاهلية كانوا يحسنون الرمي بالقسي ، ولما جاء الاسلام ساعدهم مهارتهم تلك على قهر الروم الذين لم يكونوا يحسنون الرمي بها . لذلك كان القادة المسلمين يدرّبون جنودهم على اتقان الرمي بالبنادق . كان النبي يقول : « إرموا واركبوا ، وأن تركبوا أحرب إلي من أن ترموا » وفي القرآن الكريم : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » وكان الرسول يقول وهو على المنبر بعد أن يتلو هذه الآية « ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي »⁽¹⁾ .

الدرع :
هو قميص منسوج من حلق حديدية رفيعة ، يسمونها (سابحة) إذا غطت البدن كله بأكمامها الطويلة ، وحاشيتها التي تصل إلى نصف الساق .

وفيها المُضَرَّ الذي يغطي الوجه ، والبيضة التي تغطي الرأس والقنا ، هذه السابحة ذات الأكمام . أما إذا كانت قصيرة بلا أكمام ، ولا تبلغ أسفل الركبة ، فهي الدرع « البتراء » . وقد تتصل الدرع بمسامير تسمى « الغلائل » وقد تنسج حلقة داخل حلقة فتدعى « مفردة » بينما تدعى التي تنسج حلقتين داخل حلقتين مضاعفة⁽²⁾ .

وكان الشجعان من الفرسان المسلمين يتخفّفون من لبس الدروع اعتداداً ببطولتهم ومنهم علي بن أبي طالب ، (ع) كان يكتفي بدرع لا ظهر لها . وهو القائل : « إذا استمكنت عدوبي من ظهري ، فلا يبقي⁽³⁾ لأنه على ثقة من نفسه من أنه لا يهزمه ولا يلحق بهزوم . وهذا الدرع بلا ظهر كانوا يسمونه الجوشن .

هؤلاء الدارعين كانوا في مقدمة الجناد ، في الصفوف الأمامية ، والخاسرين منهم يؤخرون إلى الصفوف الخلفية .

(1) تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 479

(2) المخصص لابن سيدة ج 6 ص 70

(3) عيون الأخبار ج 1 ص 131

السيف :

وهو أكثر الأسلحة العربية شيوعاً ، وأعظمها شأناً وأكثرها استعمالاً وكلام العرب في السيف طويل وطويل ، فوصفوا أجزاءه وطريقة استعماله . ومنه بشفرة واحدة ومنه بشفتين . وأشهر أنواعه : الهندي واليماني .

الرمح :

إنخلد العرب من الأشجار الصلبة كالنَّبْع والشوحط . . . وهو من الأسلحة التي استعملها المسلمون كثيراً في حروبهم . وللرمح أحجام مختلفة ، فمنه القصير ذو أربعة أذرع ، وهو أشبه بالعصا ، أطلقوا عليه : النِّزَك والحرْبَة والعنْزَة والمِرْزاَق وكلها تعني الرمح . ومنه الطوبل الذي يتراجع بين أربعة أذرع وعشرة ، وله طبقات وهذا أطلقوا عليه علة أسماء : المربع ، والمخصوص ، والتام . وإذا أفرط في الطول سموه : الخطل لاضطرابه في يد صاحبه⁽⁴⁾ . وكان المسلمون يفضلون القناة الصماء على الجُوفاء ، ويدهونها بالزيت لتظل مرنة كما استخدموها قناة طويلة في رأسها حرْبَة ، أو خَرْبَتَان مستقيمان حرْبَة عوجاء لينقبوا بها الجدران⁽⁵⁾ .

ومن شدة عنایتهم بهذا السلاح الشائع عمدوا إلى قيام حلقات مبارزة قصد التمرين . فيسدون طعناتهم إلى حلقة من حديد سموها (الوَتْرَة) . أو انهم يقومون برحلات صيد يصطادون الوحوش في البراري . وبقي الرمح السلاح المستعمل في العصر الأموي والعباسى مع إدخال بعض التعديلات في طرق رمايته .

الترس :

أو المجن استخدموه المسلمون كغيرهم من الشعوب الأخرى ليقيهم أذى طعنات الرماح والسيوف وأطلقوا عليه اسم الدُّرْقة والمحجفة ، صنعوه من الخشب وصفحوه بقطعة من الجلد يلصقونها به ، ورصعوه بالمسامير الكثيفة . وهو عندهم على أشكال فمه المحدب المنحني للأطراف ، ومنه المخْصَر المستطيل وعلى أحجام وأوزان مختلفة ، فهو صغير أو كبير ، وضعيف أو ثقيل⁽⁶⁾ .

القوس والشباب :

عرف من الرماية بالقوس والشباب عند غير العرب ، فقد اشتهر به الفرس حتى بلغ من مهارتهم «أن أحدhem كانت ترفع له الكرة فيرميها ويشكها بالشباب»⁽⁷⁾ وهذا ما استشار همة المسلمين ليتقنوا الرمي ويدافعون عن أنفسهم .

ولما تلا الرسول ﷺ على المنبر قوله تعالى : ﴿وَأَعْدَوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة﴾⁽⁸⁾ .

(4) البيان والتبيين ج 3 ص 19 .

(5) المعجم الوسيط ج 1 ص 84 . ودائرة المعارف ج 16 ص 699 .

(6) المعجم الوسيط ج 1 ص 84 . ودائرة المعارف ج 10 ص 522 .

(7) الطبرى ج 4 ص 140 .

(8) سورة الأنفال الآية 60 . وتاريخ الإسلام السياسي ج 1 ص 479 .

فسر القوة بالرمي . فكان عليه السلام يفضل الرمي على ركوب الخيل لذلك اهتم المسلمون بالتمارين على الرمي وبرعوا فيه حتى فاقوا الفرس وأصبحوا من أشهر الشعوب في الرماية بالقسي والسهام .

والقوس عود من شجر جبلي صلب ، يحيى طرفه بقوة ، ويشد فيها وتر من الجلد أو العصب . ولا بد لها من سهام يحتفظ بها الجندي في جعبته الجلدية ليرمي بها عن قوسه عند الطلب كالرصاص للبنديقة في عصرنا اليوم . وقد عني العرب بصناعة القسي والسهام وتطورت تطوراً ملحوظاً وبعد أن كانت القوس متصلة الأجزاء فصلوا بعض أجزائها عن بعض ، ثم رَّكبوا وأصقوها بالغراء وجعلوا لها مقبضاً وسيطين⁽⁹⁾ . وبعد أن كان السهم عوداً رفيعاً من شجر صلب في رأسه نصل من حديد مدبيّ ، سقاً نصله بالسم على طريقة الروم ، فأمسى سلاحاً فتاكاً رهيباً .

ومن طرائف السهام ، سهم يستعمل بدل الرسالة ، يطلقه الرامي بعد أن يكتب عليه ما شاء ، فيلقى به الذعر في قلوب الأعداء ، ويحملهم على الاستسلام في بعض الأحيان . وقد يرد عليه عدوه بهم مثال و تكون المراسلة بواسطة الرفاح .

الدبابة

عرف العرب في حروفهم الدبابة ، كانوا يصنعونها من الخشب السميك ، تغلف باللبابيد والجلود المتقوعة في الخل لدفع النار . تركب على عجلة وتحرك فتجر فيدفعها الرجال على البكر . « وهي أقدم من المجنحنة » استخدمها المصريون القدماء والأشوريون فالبيونان فالرومانيان فالفرس فالعرب . وهي عبارة عن قلعة سائرة على عجل ، يهجمون بها على الأسوار لمغاربة المحاصرين من أعلى السور⁽¹⁰⁾ . وما يبدو أن الدبابة كانت عندهم سلاحاً هجومياً يستخدموها ضد الأسوار « فيسيرونها ويختمرون بجدرانها ويجعلون رأسها معدداً يصدموها بها الأسوار حتى تهدم »⁽¹¹⁾ .

وورد في تاريخ الحضارة الإسلامية أن المسلمين استعنوا بالدبابات في حروفهم ضد البيزنطيين « فيدخلون في جوفها ، ويذخرون بها إلى جدار الحصن فينقبوه »⁽¹²⁾ . استخدموها عدة دبابات تسع الواحدة منها بضعة رجال استعن بها الخليفة العباسي عندما فتح قلعة عمورية البيزنطية ، وقد كان حدثاً عظيماً ذوى صيته العالم آنذاك . قال شاعر الامبراطورية الإسلامية ، أبو تمام مادحاً المعتصم في ذلك الفتح العظيم :

يا يوم وقعة عمورية انصرفت منك المني حُفلاً معسولة الحلب⁽¹³⁾

(9) نهاية الأربع ج 6 ص 228 . والستان مثني سية وهي ما انعطف من طرف القوس وركب فيه الوتر أما المقبن فهو موضع اليد اليسرى منه في وسطه .

(10) تاريخ التمدن الإسلامي بحرجي زيدان ج 1 ص 190 .
(11) المصدر نفسه .

(12) تاريخ الحضارة الإسلامية لأبي زيد شلبي ص 161 .

(13) مأخوذ من قوله ناقة حافل أي مجتمعة اللبن . المسولة : الحلوبة .

نظم من الشعر أو نثر من الخطب
وتبرز الأرض في أسوابها القشب
لله ، مرتقب في الله مرتقب
ولو رمى بك غير الله ، لم تصب⁽¹⁵⁾

فتح الفتوح تعالى ان يحيط به
فتح تفتح أبواب السماء له
تدبر معتصم بالله ، متقم
رمي بك الله برجيها فهبدتها

طرق القتال :

يرجع الفضل إلى القواد العرب في تنظيم طريقة القتال ، ففي الجاهلية كانوا يتبعون طريقة « الكر والفر » يهجمون على العدو فإذا ما آنسوا في أنفسهم ضعفاً فروا راجعين . وهكذا يسيرون على غير ضابط أو نظام . غير أن الجنود المسلمين لم يطمعنوا إلى هذه الطريقة ورأوا أنها لا تحقق لهم النصر ، فأخذوا يقفون صفين منتظمة كما لو كانوا في طاعة الصلاة ، ثم يسيرون للاقاء العدو متصامنين كالبناء المرصوص . عملاً بقول الآية الكريمة « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص »⁽¹⁶⁾ .

وفي عهد الأمويين اختلط العرب كثيراً بالفرس وأخذوا عنهم نظام التعبئة . فقسموا الجيش إلى خمس كتائب . ولذلك كانوا يسمون الجيش كله خياساً تكون إحدى هذه الفرق في الوسط تحت إمرة القائد العام وتسمى « قلب الجيش » ، وإلى يمين القلب فرقة اسمها « الميمنة » وإلى اليسار فرقة اسمها « الميسرة » ، وتكون أمام هذه فرقة من الفرسان في غالب الأحيان وتسمى « المقدمة » ، وخلفها كتيبة تسمى ساقية الجيش ، وبعد ذلك تركوا نظام الصفوف⁽¹⁷⁾ .

وكانت طاعة القائد واجبة كطاعة الخليفة نفسه لأنه يعتبر نائبه ، ينوب عنه في إمرة الجيش وفي إقامة الصلاة . أما إذا اجتمع أكثر من قائد في مكان واحد عين الخليفة أحدهم للصلاة بالناس ، فيصبح هذا القائد بمنتهية « قائداً القواد » وإذا ما انتهى القتال تصبح مهمة القواد مقصورة على النظر في أمر الجند ، وتدريبهم ، وتحسين معداتهم ، ومراقبة أسلحتهم .

لذلك نرى أن ديوان الجندي استحدثه عمر بن الخطاب يعد أكبر مساعد على تحسين أحوال الجندي وضبط نظامها وحسن تدريب عناصرها . وما يذكر أن النساء كانت تصحبن الجيش طوال المعركة ، يقرعن الطبول من أجل إثارة الحماسة في نفوس المقاتلين . وقد خصصن لهن أماكن في المدن الحصينة خوفاً عليهم من السبي .

إلى جانب هذا كان الجنود يتلون الآيات القرآنية ويكتبون أثناء سيرهم للغزو والجهاد وفي أثناء اشتباكيهم مع العدو في معارك حرية .

عمليات الحصار :

كانت عمليات الحصار تتم بطرق مختلفة ، استخدمها المسلمون في حصارهم القلاع

(15) راجع كتابنا أعلام في العصر العباسي ص 106 . وما بعدها .

(16) سورة الصافات الآية 4 .

(17) تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم ص 481 .

والمحصون التي وقف أهلها حجر عثرة في طريق نشر الدعوة الاسلامية . من بعض هذه العمليات استعمال المجنحق :

ذكر المؤرخون أن النبي أول من رمى بالمجنحق وقد استعمله في خير ليلقي الذعر في قلوب اليهود ، وأكد بعضهم أنه حاصر أهل الطائف ورميهم بالمجنحق⁽¹⁸⁾ .

ويقال أنه كان شرقى جبل السواد من أرض البلقاء مدينة عظيمة يقال لها جرش ، اشتهر سكانها بصناعة المجانيف ، كما يروى أن غيلان بن سلمة وعروة بن مسعود كانوا يتعلمان صناعة تلك الآلات الحربية الثقيلة في تلك المدينة⁽¹⁹⁾ وقد دخل عليه المسلمون تحسينات حتى بات من الأسلحة الثقيلة التي لا يستغني عنها قواهم ولا سيما في حصار المدن وفتح الأسوار .

وفي العصر الاموي أخذ الرجال يجرونه على الزحافات « ثم يرمون به الكتل الصخرية ، والأخشاب المشتعلة . كما يروى أن مروان بن محمد نصب على سعيد بن هشام وأنصاره بحمص نيفاً وثمانين مجذيقاً ، ظل يرهبهم بها طوال عشرة أشهر ، وقد أصبح المجنحق في العصر العباسي سلاحاً مدمراً خيفاً يقذفون منه قذائف النقط .

سلم الحصار : أو ما سموه رأس الكبش عرف المسلمين في عمليات الحصار سلاحاً حديدياً ثقيلاً سموا رأس الكبش وما يبدو أن له شكلاً على صورة الكبش يقررونه وجنته ، يركب هذا الرأس الحديدي داخل برج خشبي ، فم يتسلل من سطح البرج ، محمولاً بسلسل . تربطه من موضعين ، وبالكبش المغلق بالدبابة بعمود غليظ يعمل الرجال على نقب السور وهدمها مستعينين على ذلك بسلام الحصار ، كما صنع خالد بن الوليد يوم فتح أسوار دمشق والناس من حوله يكرون⁽²⁰⁾ . والكبش كالدبابة يتحصن المقاتلون في داخله أثناء الهجوم .

الحسك الشائك :

نوع جديد أتقنه المسلمون وصنعه الرسول ﷺ في حصار الطائف ، هو الحسك الشائك . هو عبارة عن حصيرة يصنعنها من حشك السعدان ، وهو شوك صلب ذو ثلات شعب ، تثث من شعبتان في الأرض ، وتبقى الثالثة بارزة لتعطب بها حوافر الخيل أثناء الهجوم وأقدام العدو المغير⁽²¹⁾ .

وما يبدو أنه فيما بعد تطورت صناعته عندهم فاستبدلوا حسك السعدان بأصابع حديدية مدبة ، ذوات شعب ثلاث ، وثبتوه حول الخنادق في بعض حروبهم ، ليمنعوا به تقدم الرجال المشاة والفرسان⁽²²⁾ .

(18) سيرة ابن هشام ج 4 ص 126 . تاريخ الطبرى ج 3 ص 133 . والكامـل ج 2 ص 111 .

(19) تاريخ الطبرى ج 3 ص 132 .

(20) الكامل ج 2 ص 180 . وتاريخ التمدن الاسلامي ج 1 ص 190 .

(21) القاموس المحيط مادة (حسك) باب الكاف فصل الحاء .

(22) طبقات ابن سعد ج 2 ص 114 . والسيرة لابن هشام ج 2 ص 303 .

حفر الخنادق :

الخندق لفظ فارسي معرب ينم عن أصله ، فاسمها بالفارسية « كندة » ومعناه محضور . وفي غزوة الأحزاب المسماة غزوة الخندق جاءت الفكرة للرسول ﷺ عن طريق سلمان الفارسي الذي ذكر له أن من وسائل الدفاع في بلاده حفر الخنادق . فراقت له الفكرة . وفي يوم الخندق جعل الرسول ﷺ جبل سلْع وراء ظهره ، وشارك أصحابه في حفر الخنادق المتد من الحَرَّة الشرقية إلى الحَرَّة الغربية . مخصصاً لكل عشرة من أصحابه أربعين ذراعاً ، على كل رجل منهم أن يحفر أربعة أذرع ، وكان عدد أصحابه يومذاك ثلاثة آلاف⁽²³⁾ ، فيكون طول ذلك الخندق الذي عشر ألف ذراع ، حفرها القوم في عشرين يوماً .

وقد أدخل المسلمون عدة تحسينات مع تقدم الزمن ، في عملية حفر الخنادق فأدخلوا عليها إصلاحات جديدة ، عرفوا الخنادق المائية يتحصنون بها على الطريقة الرومية . ويتم ذلك بأن يضربوا خنادقاً حول خندق العدو ، ليجبروه على التسلیم⁽²⁴⁾ . فيكون الخندق الثاني عملية من عمليات الحصار تقطع عن العدو كل امداد أو معونة خارجية .

هذا ما دعا الحجاج بن يوسف ، عندما فرغ من بناء مدينة واسط إلى إحاطتها بخندق يحيط بها . وكذلك فعل العرب ، أمسوا يمحرون الخنادق الدائمة التي تحيط بما يحيطون من المدن والغور⁽²⁵⁾ .

وقد تفنن العرب في طرق حصار المدن فبلغوا آية في الذكاء والدهاء . فكانوا إذا أرادوا اقتحام خنادق العدو طموها في أضيق موضع منها بالبرادع والرحال ، وجلود الإبل ، ثم عبروها آمنين بسلام⁽²⁶⁾ .

الجاسوسية

اعتمد المسلمون في حروفهم على رجال أذكياء مدربين مهمتهم التعرف على أخبار العدو واستطلاع أحواله . عرف هؤلاء بالعيون . وقد كان النبي ﷺ يذكر العيون ليأتوه بأخبار الأعداء . من ذلك أنه أرسل عبد الله بن جحش في اثني عشر مهاجراً إلى « نخلة » بين مكة والطائف ليترصد بها قريشاً ، ويتعرف عن كثب أخبارهم ، كما أرسل إلى بدر رجالاً يستقيان ويتنطسان⁽²⁷⁾ الأخبار . وفي موقعة أحد بعث بابني فضالة : أنس ومؤنس يتلمسان خبر قريش ؛ فأخبراه الخبر اليقين واستفاد من أخبارهما لانجاح المعركة⁽²⁸⁾ وهكذا لقد كان ﷺ يهتم بأخبار عدو ليأخذ منه حذره وليبعد له للأمر عدته .

(23) تاريخ الطبرى ج 3 ص 45 .

(24) تاريخ الطبرى ج 3 ص 188 .

(25) الكامل ج 4 ص 168 .

(26) الطبرى ج 4 ص 20 . والكمال ج 5 ص 60 .

(27) المتنفس : الذي يحسن النظر في الأمور ويستقصي أدقها .

(28) راجع سيرة المصطفى للسيد هاشم معروف الحسني ص 131 . وص 393 .

وقد سار الخلفاء بعد النبي ﷺ على طريقته فأرسلوا العيون تستكشف وتحري قال عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص في وصية له : « فاذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم »⁽²⁹⁾ . وفي عهد العباسيين عنوا بالجاسوسية وأحکموا أمرها ، فاستخدموها على الرجال والنساء « يذهبون إلى البلاد البعيدة والمجاورة متنكرين في زي التجار ، أو الأطباء » (يتنطسون) الأخبار ثم يعودون بها إلى الدولة لتحاط للأمر ولم تكن الجاسوسية أكثر نشاطاً ، ولا أعم انتشاراً في بلد من البلاد منها في الدولة البيزنطية التي كانت لا تزال تنافس الدولة الإسلامية⁽³⁰⁾ .

حرب الأعصاب

عرف المسلمون كذلك حرب الأعصاب ، واستعملوها في إضعاف عزيمة العدو أثناء القتال . من ذلك يروى أنهم عندما حاصروا قنرين ، تحصن أهلها منهم ؛ فأرسل إليهم خالد بن الوليد يحذرهم قائلاً :

« لو كتم في السحاب حملنا الله إليكم ، أو لأنزلكم إلينا » فألقوا السلم وفتحوا مدیتهم للمسلمين⁽³¹⁾ .

كلمة السر عند المحاربين

كان الجيش في أوائل الإسلام إذا تهيا للقتال نادى قواه بهذه العبارة : التفير التفير . وتعني عندهم الهجوم . وإذا أرادوا التراجع والانسحاب قالوا : الرجعة الرجعة ! وإذا أرادوا أن يركب الفرسان للمشاركة في القتال قالوا : الخيل الخيل ! وإذا أراد الخيالة الترجل قالوا : الأرض الأرض .

ولما تقدم المسلمون في حروبهم واتسعت فتوحاتهم وكثُر عدد الجندي عندهم تغيرت هذه العبارات وجعلوا لكل حركة نداء خاصاً يدل لفظه على المراد به . فإذا ما أراد قائداً الجندي أن يملي جنده إلى جهة ، أو يتخذ شكلاً معيناً لأفراد جنده نادى بكلمة خاصة تناسب الوضع الذي يريد . وأبرز ما استعمله القواد في حروبهم كلمتين هما : « هوجوا » و « هوبرا » واستعنوا على نجاح الخطة العسكرية في القتال بالاشارات . لذلك كان على الجندي أن يراعوا القائد بأعينهم حتى إذا مال إلى جهة مالوا معه .

والمراد بلفظة « هوجوا » أن تقبل الوجوه تجاه بعضها بعضاً وبلفظة « هوبرا » عكس الحركة الأولى ان تتدابر الوجوه ويفرق الجندي .

وكلمة السر بين الجندي المتعارف عليها أثناء الحرب كانوا يسمونها الشعار . وهي الكلمة يصطدرون عليها حسب مقتضي الأحوال . ففي غزوة أحد كان شعارهم : يا للعزى يا هبل .

(29) تاريخ الحضارة الإسلامية لأبي زيد شلبي ص 161 .

(30) المصدر نفسه والنظم الإسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن .

(31) تاريخ الحضارة الإسلامية لأبي زيد شلبي ص 162 .

وكان شعار تنوخ في الخيرة : يا آل عبد الله .

وجعل النبي ﷺ لكل من المهاجرين والأنصار شعاراً ، فكان شعار المهاجرين « يا بني عبد الرحمن » وشعار الأوس « يا بني عبيد الله » وشعار الخزرج : « يا بني عبد الله » وهكذا كان الحال لسائر القبائل الأخرى كل واحدة منها لها شعار خاص بها يتعارف أفرادها عليه(32) .

الفدائيون

كان في الجيش الإسلامي نفر من الفدائين الذين استشهدوا أمام الرسول ﷺ وأمام الصحابة في معارك مشهورة خاصها المؤمنون مع أعداء الإسلام وفازوا في الدنيا والآخرة . حاربوا بعقيدة ثابتة وإرادة صلبة وقلب كبير يعمره بال أيام ويدفعه حب الاستشهاد للدخول إلى الجنة . وعلى الحالين المؤمن في حالة يسر وسعادة ، فإنما النصر وإنما الدخول إلى الجنة . قال تعالى : ﴿ وَيُشَرِّدُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ هُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّمَا رَزَقُوهُمْ مِنْ ثُمَّرَةٍ رَزِقَاهُمْ هَذَا الَّذِي رَزَقَنَا مِنْ قَبْلِهِمْ وَاتَّوْهُ مُتَشَابِهِنَّ وَلَمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مَطْهَرَةٌ وَهُنَّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(33) .

وآيات كثيرات تبشر المجاهدين في سبيل الله بجنات العرض .

ففي موقعة أحد تقدم خيثمة أبو سعد وفدي نفسه برسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله إن قريشاً مكثت حوالاً كاملاً تجمع الجموع وتستجلب العرب حتى يشنوا الغارات علينا ويصيروا أطلالنا ويضيعوا العيون والأرصاد علينا ، فيجترىء علينا العرب حولنا حتى يطمعوا فيما إذا رأوا لم نخرج إليهم فنذهب عن حربينا . وعسى الله أن يظفرنا بهم فتلوك عادة الله عندنا ، أو تكون الأخرى فهي الشهادة وتتابع قائلاً :

لقد أخطأتني وقعة بدر و كنت عليها حريصاً ولقد بلغ من حرصي أن ساهم ابني في الخروج فرزق الشهادة ، وقد كنت حريصاً على الشهادة ، وقد رأيت ابني البارحة في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها وهو يقول : إلحق بنا ترافتنا في الجنة فقد وجدت ما وعدني ربِّي حقاً وقد والله أصبحت يا رسول الله مشتاقاً إلى مراقبته في الجنة ، وقد كبرت سني ودق عظمي وأحببت لقاء ربِّي فادع الله يا رسول الله أن يرزقني مراقبة سعد في الجنة . فدعا له رسول الله ﷺ بذلك فقتل مع من قتل في تلك المعركة(34) .

وكثير من الشهداء الفدائين قدموا أنفسهم رخيصة في سبيل نصرة الحق ذكرتهم كتب السير والتاريخ .

وهكذا علم آخر من الفدائين الحق استشهد في معركة صفين التي دارت بين علي أمير المؤمنين ومعاوية وإلي الشام .

(32) راجع تاريخ الت吟 الاسلامي لمرجعي زيدان ج 1 ص 201-202.

(33) البقرة الآية 25.

(34) سيرة المصطفى للسيد هاشم معروف الحسيني ص 395-396.

لَا يَلْعَنُ الْقَاتِلُ أَقْصَى حَدُودَ الْعُنْفِ وَالضَّرَّاوةِ ، تَقْدِمُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَقِي حَيَاً مِنَ الْمَهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ يَتَقَدَّمُهُمْ عُمَرُ بْنُ يَاسِرَ ، الْبَطَلُ الْجَبَارُ ، وَصَحَابَةُ الرَّسُولِ الْأَبْرَارُ نَحْنُ أَهْلُ الشَّامِ ، وَعُمَارٌ يَنْادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ : وَاللَّهُ لَوْ ضَرَبُونَا حَتَّى يَبْلُغُوا بِنَا سَعْفَاتَ هَجْرٍ لَعِلْمَنَا أَنَّا عَلَى الْحَقِّ وَأَنَّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَمَضِيَ يَسْتَقْبِلُ الطَّعْنَاتِ وَالضَّرَّاوتَاتِ بِصَدْرِهِ وَنَحْرِهِ وَيَقُولُ رَافِعًا يَدِيهِ : اللَّهُمَّ لَا أَعْلَمُ عَمَلاً أَرْضَى إِلَيْكَ مِنْ جَهَادِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ عَمَلاً أَحَبَّ إِلَيْيَّ مِنْ جَهَادِهِمْ لِفَعْلَتِهِ .

وَتَضَعُضُ الْكَثِيرُونَ مِنْ أَتَابِعِ مَعَاوِيَةَ لِمَوْقِفِ عُمَارِ الْبَطَلِ وَعَزِيزِهِ الْجَبَارِ الصَّادِقَةِ عَلَى مَوَاصِلَةِ الْكَفَاحِ حَتَّى النَّصْرِ أَوِ الشَّهَادَةِ ؛ لَأَنَّ مَقَالَةَ الرَّسُولِ فِيهِ لَمْ تَعْدْ خَافِيَةً عَلَى أَحَدٍ مِنْ وِجْهِ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ تَدَاوَلَهَا النَّاسُ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَكَانَتْ آيَةً مِنْزَلَةً : طَوَيْ لِعَمَارٍ تَقْتَلُهُ الْفَتَّةُ الْبَاغِيَةُ ، عَمَارٌ مَعَ الْحَقِّ يَدُورُ مَعَهُ كَيْفَيْهَا دَارُ . وَيَقِي عَمَارٌ يَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ إِلَى جَانِبِهِ الْبَاغِيَةِ ، عَمَارٌ يَدُورُ مَعَ الْحَقِّ كَيْفَيْهَا دَارُ . وَذَلِكَ عَمَارٌ سَاعَدَهُ مِنْ الْبَغَةِ ، وَذَلِكَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ حَتَّى اسْتَشْهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ضِدَّ مَعَاوِيَةَ الظَّالِمِ وَمَنْ سَاعَدَهُ مِنْ الْبَغَةِ ، وَذَلِكَ عَمَلاً بِحُكْمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّذِي يَأْمُرُ الْمُسْلِمِينَ بِقتالِ الْفَتَّةِ الْبَاغِيَةِ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ كَمَا جَاءَ فِي الآيَةِ الْكَرِيمَةِ : « وَإِنْ طَافُتَنَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَلُوْا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتَلُوْا الَّتِي تَبَغِيْ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ » .

وَفَدَائِي ثَالِثُ فَدَى نَفْسَهُ بِرَسُولِ اللَّهِ يَوْمَ أَحَدٍ هُوَ أَنْسُ بْنُ النَّضْرِ ، ظَلَّ يَقَاتِلُ حَتَّى قُتِلَ . وَكَانَ كَثِيرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ كَفُوا عَنِ الْقَاتِلِ ظَنَّاً مِنْهُمْ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قُدِّمَ قَتْلًا ، فَمَرَّ بِهِمْ أَنْسُ الْمُؤْمِنُ بِعَقِيقَتِهِ حَتَّى الْأَيَّانَ وَقَالَ لَهُمْ مُتَعَجِّبًا : « فِيمَا تَصْنَعُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدِهِ ؟ قَوْمًا فَمَوْتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ » ثُمَّ انْدَفَعَ أَمَامَهُمْ بِطَلَّا صَنْدِيدًا يَقَاتِلُ حَتَّى قُتِلَ وَوُجُودُهُ فِي سَبْعِينِ ضَرْبَةً وَطَعْنَةً مِنَ الْكُفَّارِ الْأَثْمَينِ » وَمَا عَرَفْتُهُ أَخْتَهُ إِلَّا بِحُسْنِ بَنَانِهِ »⁽³⁶⁾ .

. (35) الْحِجَرَاتُ الآيَةُ ٩.

. (36) الْكَاملُ لِابْنِ الْأَثْرِيِّ ٢ ص ٦٤

الفصل الثالث

الحرب في الشريعة الإسلامية

عرف ابن عبد ربه الحرب فقال : « الحرب رحى ثقافها الصبر ، وقطبها المكر ، ومدارها الاجتهد ، وثقافها الأناة وزمارها الحذر »⁽¹⁾ .

والحرب في تاريخ البشر أمر طبيعي لا تخلو عنه أمة ولا جيل ، وهي ضرورة اجتماعية طالما كانت هناك أطماء وظلمات بشرية ، وسببها في « الأكثر إما غيرة ومنافسة ، وإما عدوان ، وإما غضب الله ولدينه ، وإما غضب للملك وسعي في تميذه »⁽²⁾ .

والحرب في الاسلام السمح حرب دفاع عن النفس وعن الدعوة ، ولم تكن حرب هجوم واعتداء كما كانت الحال عند سائر الأمم . وهذا ما يميز شريعة الله عن الشرائع الوضعية الملكية . وقد وصفوا الخلافة بتواضعها وانسانيتها بغير ما وصفوا القصريّة والكسروريّة في التسلط والتحكم في رقاب العباد . وقد بين الاسلام في مواضع كثيرة منه السبب الذي من أجله شرع القتال ، وأذن للمؤمنين في حرب أعداء الاسلام والجهاد في سبيل الله . قال تعالى :

﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدر الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم بعض هدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرنَّ الله من ينصره ان الله لقوي عزيز ﴾⁽³⁾ .

لقد أذن الله للمؤمنين في القتال دون فرضه عليهم . وقال عزّ وجلّ : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلكم ولا تعذدوا ان الله لا يحب المعتدين ، وقاتلهم حيثما ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين »⁽⁴⁾ .

فهل يسمع اليوم العرب المؤمنون نداء الله وحالة المسجد الأقصى مع اسرائيل المعتدية

(1) العقد الفريد لابن عبد ربه ج 1 ص 108.

(2) المقدمة لابن خلدون ج 2 ص 653.

(3) الحج الآية 40-39.

(4) البقرة الآية 190-191.

الظالمة؟ ! وفي السورة نفسها قال تعالى : « وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين الله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين »⁽¹⁾ .

فالقتال في الشريعة الإسلامية للمعتدلين على الدعوة المباركة حتى لا تكون هناك فتنة بين عباد الله ، لأن الدين الله ، والقتال كله في سبيل الله ، وليس للأرب شخصية ومنافع مادية كما يحصل في عصرنا اليوم .

وفي سورة النساء يحثنا رب العالمين على القتال في سبيله فيقول سبحانه : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولينا واجعل لنا من لدنك نصيرا »⁽⁶⁾ .

أما إذا اعتزلوا القتال وألقوا سلاحهم فلا سبيل للمؤمنين عليهم لأنهم يطبقون شريعة الله والله ينوي عن الظلم والاعتداء . قال تعالى : « ... فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا »⁽⁷⁾ . ويقول عز وجل في سورة الأنفال ما يشبه هذا القول : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم »⁽⁸⁾ .

وأما الذين ينقضون العهد ولا يلتزمون بأقوالهم ومواعيدهم في كل مرة ، كاليهود مثلاً ، فقد أمر الله بقتالهم . قال سبحانه مخاطباً الكفار : « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقوون ، فأما تتفقفهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون ، وإما تخافن من قوم خيانة فابذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائبين »⁽⁹⁾ .

وقوله أيضاً عز وجل عندما مال اليهود قريشاً والمنافقين ، وأخافوا المسلمين في غزوة الأحزاب ، ونقضوا ما بينهم وبين المسلمين من عهود ، كما كانت عادتهم باستمرار المراوغة ونقض العهود :

« قاتلوا الذين لا يؤتون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يديرون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »⁽¹⁰⁾ .

وقوله سبحانه حينما اتحدت قريش وقبائل العرب مع اليهود ضد المسلمين ووقفوا جهعاً في سبيل الدعوة الإسلامية . فخاطب المشركين جميعاً : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة »⁽¹¹⁾ .

(5) البقرة الآية 193 . وفي سورة الأنفال كررت الآية نفسها بإضافة التأكيد « وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » .

(6) النساء الآية 75 .

(7) النساء الآية 90 .

(8) الأنفال الآية 61 .

(9) الأنفال الآية 56-57-58 .

(10) التوبه الآية 29 . وراجع في هذا الشأن القراء الآية 244 . آل عمران الآية 167 . النساء الآية 76 التوبه الآية 12 و36 و123 الحجرات الآية 9 .

(11) التوبه آية 36 .

من هذه الآيات وما ماثلها يتبيّن لنا بوضوح أن الحرب في الإسلام لم تكن معتدية وإن الأذن فيها كان متدرجاً ، وطبقاً للأحوال تماماً ، وقد بين هذا التدرج ابن قيم الجوزية في زاد المعاد وتصنيف الناس وموقف الإسلام بالنسبة لقتال كل صنف منهم ، أو الكف عن قتالهم⁽¹²⁾ .

من هذا يتبيّن أن الإسلام لا يريد القتال إلا لغرض الدفاع عن النفس ، أو الدفاع عن الدعوة الإسلامية .

سمو الإسلام في حروبها
لقد نجح الإسلام في حروبه طريقاً لم يكن معهوداً من قبل عند الأمم الأخرى ، ولم تعرفه أي شريعة من الشريعات السابقة . وفي الآيات التي أوردناها في الحرب دليل واضح لنظام الحروب التي لم تصل إليه تلكم الأمم والتي تدعى لنفسها أنها وصلت إلى مستوى رفيع من الحضارة الإنسانية . ورد في تاريخ الحضارة الإسلامية « إن الإسلام هذب أمور الحرب ، ورفع مستوى الإنسانية ، ويثر الرحمة والعدل في قلوب متبعيه »⁽¹³⁾ .

قال تعالى : « اليوم أحل لكم الطيبات وطعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَّهُمْ وَالْمَحْصُنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمَحْصُنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجْوَرَهُنَّ مُحْسِنِينَ غَيْرَ مَسَافِحِينَ وَلَا مُتَخَذِّي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرُ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَرَّطَ عَمَلَهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ »⁽¹⁴⁾ . فإذا تأملنا هذه الآية وغيرها من الآيات الماثلة لها علمنا روح السمو التي يحملها الإسلام في علاقته مع غير معتقديه ، فالإسلام يرى والإسلام تقوى ، والإسلام محبة ، والإسلام تعاون ، والإسلام الخير كل الخير . قال الإمام الشیخ شلتوت في كتابه الإسلام والعلاقات الدولية : « وهي علاقة يتضاعل أمام روعتها أحدث مبدأ عرفه العقل البشري في علاقاته الدولية » .

أين حرب الإسلام من الحروب التي تشن اليوم ، والتي تحقر القيم الإنسانية ، ولا تقيم وزناً لأية علاقة أو عهد أو كرامة . حرب القرن العشرين حرب دنيئة الأساليب ودنيئة الغايات ، وجاهلية القرن العشرين لم تتوصل إليها جاهلية القرون الوسطى . وبالله عليك ما فائدة الاختراعات الحديثة والاكتشافات في جميع ميادين الحياة إذا لم يسرّها الإنسان لصالح الإنسان ، ورفاهية الإنسان ، وتلبية حاجات الإنسان بأسرع طريقة وأجودها !

اخترع الإنسان الكهرباء والصاروخ والبارود وكل مشتقاته ليفجر الصخور الصلبة ويبني بها الدور وليس أبداً كما هي الحال اليوم ، يهدم بها القصور ويؤذن عباد الله .

« نحن الآن في القرن العشرين ، ومع هذا فالحرب لا توجد شريفة الأسباب ،

(12) زاد المعاد ج 2 ص 82 وص 114.

(13) تاريخ الحضارة الإسلامية لأبي زيد شلبي ص 155.

(14) المائدة الآية 5.

والوحشية تتجلى فيها في أفعى مجالها ، ومعاملة الغالب للمغلوب أخشى ما يمكن أن تكون ، مهما تزينت الحروب بأسمى أسماء العواطف الخادعة ، فما الحرب العامة عنا بعيدة ، وما الصلح فيها إلا استرقاق الأمم والشعوب البريئة لمن أوى الظفر ، وإن لم يكونوا من جناتها ولا من مؤرثي نارها ⁽¹⁵⁾ .

وصايا أمراء الجيوش الاسلامية

الدين الاسلامي دين انساني ورسول الاسلام صلوات الله عليه رسول السلام والرحمة لجميعبني البشر ، من أي عرق وأي لون . قال تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ⁽¹⁶⁾ » وقد تعهد النبي ، وخلفاؤه من بعده ، القواد والجندي بالنصيحة قبل توجههم للحرب ، وذلك ليؤدوا واجبهم على أكمل وجه من حيث تسيير الجنود وحسن معاملة الأسرى عند الظفر ، باعتبارهم دعاة الاسلام .

من هذه الوصايا قال صلوات الله عليه :

« اغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، تقاتلون من كفر بالله ، لا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تقتلوا ، ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً ⁽¹⁷⁾ » .

وكان عليه الصلة والسلام ينهى في مغازيه عن النسبة ، ويقول : « من انتهب نبهة وليس منا » . وكان يمنع التفرق في السبي بين الوالدة ولدتها . قال صلوات الله عليه : من فرق بين والدة ولدتها فرق الله بيته وبين أحجته يوم القيمة ⁽¹⁸⁾ .

وصية الامام علي (ع) لمالك الأشتر في رؤساء الجندي

.... ثم ألقى بندي المروءات والاحساب ، وأهل البيوتات الصالحة ، والسوابق الحسنة ، ثم أهل النجدة والشجاعة » والساخاء والسماحة فإنهم جماع من الكرم » وشعب من العرف ، ثم تفقد من أمرورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما ، ولا يتفاهمن في نفسك شيء قويتهم به ، ولا تمحرون لطفاً تعاهدتم به وإن قل ، فإنه داعية لهم إلى بذلك النصيحة لك ، وحسن القلن بك . ولا تدع تفقد لطيف أمرورهم اتكالاً على جسمها ، فإن لليسير من لطفك موضع ينتفعون به ، وللجمسم موقع لا يستغون عنه .

ثم قال (ع) في رؤساء الجندي :

... ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى ، ولا تضمن بلاء امرئ إلى غيره ، ولا تقصّر به دون غاية بلائه ، ولا يدعونك شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ، ولا ضعفاً امرئ إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً . واردد إلى الله ورسوله ما

(15) تاريخ الاسلام للشيخ عبد الوهاب النجار .

(16) الأنبياء الآية 107 .

(17) زاد الميعاد لابن قيم الجوزية ج 2 ص 90 وما بعدها .

(18) المصدر السابق ج 2 ص 90 . والعقد الفريد ج 1 ص 151 .

يصلعك⁽¹⁹⁾ من الخطوب ، ويشتبه عليك من الأمور ، فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا اللَّهَ وَأطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾⁽²⁰⁾ .

وصية أبي بكر الصديق لاسامة بن زيد
اسامة بن زيد هو أول قائد غزا بعد وفاة الرسول ﷺ وقد كان يحب النبي ﷺ كما أحب أباه من قبله لحسن بلائه في الاسلام . قال أبو بكر رضي الله عنه : أهلا الناس قفوا أوصيكم عشر ؛ فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلوا ولا تغدروا ، ولا تقتلوا ، ولا تقتلون طفلاً صغيراً ، ولا شيئاً كبيراً ولا امرأة ؛ ولا تعقروا نحلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا شذبوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لماكلاه ، وسوف ترون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوههم وما فرغوا أنفسهم له »⁽²¹⁾ .

وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص
كان سعد كبير قواد الجبهة الشرقية في زمانه . وما جاء في وصية عمر له : « . . . وترفق بالمسلمين في مسيرهم ، ولا تخشمهم مسيراً يتبعهم ، ولا تنصرهم عن منزل يرتفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر ينقص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم ، حامي الانفس والكراع⁽²²⁾ ، وأقم بين معك في كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يعيون فيها أنفسهم ، ويرمون⁽²³⁾ أسلحتهم وأمتعتهم ، ونحو منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من ثق بدينه ، ولا يرزا أحداً من أهلها شيئاً فإن لهم حرمة وذمة ابتنيتهم بالوفاء بها ، كي ابتلوا بالصبر عليها ، فيما صبروا لكم فتولهم خيراً ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح ، وإذا وطئت أرض العدو ، فإذاك العيون بيتك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم . . . ثم أذك أحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات . . . جهدك »⁽²⁴⁾ .

كان هدف القواد المحافظة على سلوك الجنود ، سلوكاً اسلامياً صحيحاً ، وكل فرد يخالف التعاليم المعطاة له من قبل قائده يعاقب على خطئه وبصورة خاصة في البلاد المفتوحة ، وذلك امثالاً لأوامر نبيهم ونصائح الخلفاء من بعده . وهم كونهم دعاة الاسلام ينفذون تعاليمه ويطبقون شريعته يحتم عليهم هذا النهج القويم .

(19) ضلع في سيره إذا سار على أحد جانبيه ، وهو يريد نقل الحق الذي يلتبس عليه مما يجعله يسير به سير الأصلع لثقله .

(20) النساء الآية 59 والرد الى الله : الأخذ بحكم كتابه والرد الى الرسول الأخذ بسته الجامدة .

(21) الطبرى ج 2 ص 463 .

(22) الكراع : الخيل .

(23) يرمون : يصلحون .

(24) العقد الفريد ج 1 ص 154 .

أما عن جهادهم وبلائهم الحسن في القتال فالسبب في ذلك يعود إلى تمسكهم بعقيدتهم مما جعلهم يستهينون بالمخاطر ؛ ويتسهلون الصعب ، فلا بأس عليهم ، فإن من عاش منهم عاش سعيداً ، ومن مات مات شهيداً . لذلك نراهم يدقون الطبول أثناء المعركة ، ويرتجزون الراجيز لبث الحماس في نفوسهم ، ويصيحون بصوت عال : الله أكبر ! الله أكبر لا إله إلا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده .

دور المرأة المسلمة في المعركة

كان للمرأة المسلمة أثر فعال في الجيش أثناء المعركة ، فقد كانت تقوم بتضميد الجرحى وسقاية الجندي وإثارة الحمية والحماس في نفوس المقاتلين . وفي بعض الأحيان كانه ، تشارك الرجال في الحرب عندما يحمي الوطيس . فالمحاربون عندما يسمعون أذاهيج النساء ترخص عندهم النفوس وتشتد عزيمتهم . وبعض المحاربين ، أو أكثرهم ، كانوا إذا رأوا النساء يشاركن في المعركة استجعوا من الفرار واستهانوا الموت ، فيتم النصر بإذن الله على عدوهم . وقد خصص لهن أماكن في المدن الحصينة ويفرون عن الطبول لاثارة الحماسة في نفوس الجندي(25) .

وفي بعض غزوات النبي ﷺ شارك النساء في القتال ، والتاريخ الإسلامي ليفتخر به مثل نسبة بنت كعبة المازنية التي دافعت عن رسول الله ﷺ في غزوة أحد حتى لقد قال فيها « ما التفت يميناً ولا شمالاً إلا وأننا أرها تقاتل دوني »(26) .

وفي غزوة الخندق قتلت صفية بنت عبد المطلب اليهودي الذي كان يطيف باللحسن حتى لا يدل على عورة المسلمين(27) .

وفي غزو عمورية حمل مسلمة بن عبد الملك نساءه معه ، وحمل غيره نساءهم معهم . وقد امتدح « إدوار جيبيون » في كتابه سقوط الدولة الرومانية شجاعة النساء المسلمات في حصار دمشق فقال :

« إن هؤلاء النساء اللاتي تعودن الضرب بالسيف ، والطعن بالرمح ، والرمي بالنبال هن اللاتي إذا وقعت إحداهن في الاسر تكون قادرة على حفظ عفتها ، وصون دينها من أي إنسان تحذر منه نفسه بارادتها بسوء »(28) .

(25) تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 48.

(26) الاصادية لابن حجر العسقلاني ج 8 ص 261.

(27) المصدر نفسه ج 8 ص 128.

(28) تاريخ الحضارة الاسلامية لأبي زيد شلبي ص 157.

الفصل الرابع الاسطول البحري

غابت على العرب البداوة في صدر الاسلام ، ولم يكن عندهم العناية بالحروب البحرية فالبحر يخيفهم لأنهم لم يتعودوا على ممارسة أحواله .

كان أول من ركب البحر العلاء بن الحضرمي والي البحرين في عهد عمر ، فقد توجه لغزو بلاد فارس في اثنى عشر ألفاً من المسلمين من غير إذن الخليفة ، فانتصروا وعاد المسلمون إلى البصرة محملين بالغنائم بعد أن فقدوا سفنهم التي عبروا بها بلاد الفرس . فلما علم عمر بذلك » وكان يكره ركوب البحر ، غضب على ابن الحضرمي وعزله من الولاية ، لأنه قام بتلك المغامرة دون إذن منه . ثم أمر سعد بن أبي وقاص عليه⁽¹⁾ .

ولما فتحت بلاد الشام شاهد العرب سفن الروم ، فتطلعت أنفسهم إلى مجازاة أعدائهم » فألح معاوية على عمر في أن يأذن له بغزو بلاد الروم بحراً ليقربها منه . فكتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى واليه على مصر عمرو بن العاص أن يصف له البحر وراكبه ، فكتب إليه ابن العاص : « يا أمير المؤمنين ! إن رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه حلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركده أحزن القلوب ؛ وإن ثار أزاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق » فلما جاء عمر هذا الكتاب كتب إلى معاوية راضياً طلبه وقال له : « لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً »⁽²⁾ .

وقد علل ابن خلدون سبب امتناع العرب في أول عهدهم عن ركوب البحر فقال : « والسبب في ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته ورکوبه والروم والأفرنج لممارستهم أحواله ومربياهم في التقاب على أعواذه ، منعوا عليه فاحكموا الدراءية بثقافته فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم البحر خولاً لهم وتحت أيديهم ، وتقارب كل ذي صنعة إليهم تبلغ صناعته ، استخدمو من النواتية في حاجاتهم البحرية أئمأ ، وتكررت ممارساتهم البحر وثقافته ، استحوذوا بصراء بها ، فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه وأنشأوا السفن والشواقي وشحذوا الأماطيل بالرجال والسلاح وأ茅وها العساكر

(1) تاريخ الطبرى ج 4 ص 212 ومقدمة ابن خلدون ص 211

(2) النظم الاسلامية لحسن ابراهيم ص 177 .

والقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واحتضروا بذلك من مالكمهم وثغthem ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وإفريقيا والمغرب والأندلس⁽³⁾ .

ولما آلت الخلافة إلى عثمان أعاد معاوية الكرة وطلب من الخليفة غزو بلاد الروم بحراً ، فأذن له ولكنه اشترط الا يحمل الناس على ركوب البحر كرهاً .

فاستعمل على البحر عبد الله بن قيس ، فغزا خمسين غزوة بين شاتية وصائفه . وكذلك عبد الله بن سعد ابن أبي سرح والي مصر من قبل عثمان فقد حارب قسطنطين بن هرقل في بحر الروم ، وانتصر عليه في موقعة ذات الصواري التي اشتباك فيها حسب ما يروي المؤرخون ، ألف سفينة للبيزنطيين ومائتان للمصريين .

من ذلك الحين بدأت الحملات تتواتي على تلك البلاد . ولما ولي معاوية الخلافة عني بإنشاء السفن الحربية لصد غارات الدولة البيزنطية على البلاد الإسلامية ورتب في غزوها الشواتي والصوائف ، ووضع نظاماً يكفل استمرار الحرب بينه وبينهم شتاءً وصيفاً . وما يروى أن أسطول الشام بلغ 1700 سفينة . وكان قد غزا عقبة بن عامر الفهري جزيرة رودس ، مما ألقى الروم فعاودوا غزو العرب في ولاية مسلمة بن خلدون في سنة (47 هـ - 62 هـ) وقتلوا عدداً غفيراً من المسلمين . كان من بين القتلى وردان مولى عمرو بن العاص .

بعد ذلك اهتم أمراء مصر ببناء السفن فأنشأوا لأول مرة سنة 54 هـ داراً للصناعة في جزيرة الروضة⁽⁴⁾ . ولما تسلم الخليفة عبد الملك بن مروان (65 هـ - 76 هـ) بعث إلى حسان بن النعمان عاملة على إفريقية باتخاذ دار للصناعة بتونس لإنشاء السفن والآلات البحرية⁽⁵⁾ .

وفي عهد أحمد بن طولون (270 هـ) تم توسيع دار لصناعة السفن وتحسينها ، وقد جعل لها أحواضاً حول جزيرة الروضة التقدم ذكرها ، كانت تعرف باسم « صناعة السفن » وفي عهد الأختشيد انتقلت هذه الدار إلى الفسطاط سنة (323 - 334 هـ) وسميت باسم « صناعة السفن » حيث غدت مصر المصنع الرئيسي لصناعة السفن الحربية والنيلية .

وفي عهد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب (عهد الأغالبة) فتحت صقلية على يد أسد بن الفرات ، فازداد المسلمون رغبة في غزو البحر وبالغوا في إنشاء الأساطيل في إفريقية ، والأندلس حتى بلغ عدد سفن أسطول الأندلس في أيام عبد الرحمن الناصر في أواسط القرن الرابع الهجري (200) سفينة ، وكان أسطول إفريقية نحو ذلك ، وتعددت دور الصناعة هناك⁽⁶⁾ .

وفي العهد الفاطمي هدد الروم بلاد الشام ، واستولوا على بعضها مثل انتاكية وحلب ؛ فدعت الضرورة إلى قيام أسطول قوي لمجابهة العدو . فأنشأ المعز لدين الله داراً

(3) مقدمة ابن خلدون ص 220-222 . والشوابي جمع شونة وهي المركب المعد للجهاد البحري .

(4) الخطط للمقربي ج 2 ص 190-191 .

(5) مقدمة ابن خلدون ج 2 ص 628 .

(6) المصدر نفسه ص 639 .

لصناعة السفن بالقرب من القاهرة صنع بها 600 سفينة من أقوى السفن وأحسنها كما وصفها المؤرخ المصري المعروف السبخي (430 هـ) فقال : « إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً ووثقة وحسناً »⁽⁷⁾.

وقد مدح الشاعر الأندلسي ابن هاق العز لدين الله بقصيدة أشاد بأسطوله فقال :

فسيان أغمار تخاض ، ويبد
لعزكك بأس ، أو لكفك جود
فمنها قنان شمخ ، وريود
فليس لها يوم السقاء خسود
كما شب من نار الجحيم وقد

لك البر ، والبحر العظيم عبابه
مواخر في طامي المباب كأنها
من الراسيات الشم لولا انتقامها
من الفادحات النار تصرم للطل
إذا زفرت غيظاً ترامت بمارج

⁽⁸⁾

وبقيت مصر البلد الأول في البلاد العربية في صناعة السفن في أيام الظاهر بيبرس الذي اهتم بإعادة شأن الاسطول إلى ما كان عليه في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكذلك كان الاهتمام بالاسطول البحري في عهد قلاوون الذي جهز أسطولاً مكوناً من ستين سفينة ، جهزها بالآلات الحربية وبالرجال⁽⁹⁾.

ولا ننكر أن العرب كانوا في الأصل مدينين للبيزنطيين في الفنون الحربية ، إلا أنهم أصبحوا فيما بعد أساتذة في هذا الفن ، تلمندو للبيزنطيين فترة من الزمن وأخذوا عنهم علوماً أفادتهم في إصلاحات عديدة أدخلوها على الفن الحربي ما زالت تحفظ بسماتها العربية في أوروبا حتى العصور المتأخرة .

وعندما تجهز الأسطول البحري الإسلامي ، ضيق الخناق على الأسطول البيزنطي فاستولى العرب على المراكز البحرية المهمة كجزيرة قبرص وصقلية وروドوس وكريت . واستمر الأسطول الإسلامي يكبر ويتطور حتى اشتراكه في سنة 99 هـ حوالي 1800 سفينة في غزوة واحدة⁽¹⁰⁾.

وكانت تلك المراكب البحرية أنواعاً مختلفة ، منها الصغار الخفاف للحركات والمناورات السريعة ، ومنها الكبار الضخام تقدّف منها النفط المشتعل على الأعداء . وفي مقدمة السفن الكبيرى وضعوا حديدة حادة طويلة تسمى (الफَائِس) إذا صدمت مركب العدو خرقته وأغرقته .

لقد اجتمع للمسلمين جيش ثابت قوي بري وبحري مجهز بأسلحة قتالية ثقيلة وخفيفة يديره قواد تحملوا بالإيمان والصبر والشجاعة مدافعين عن الدين الحنيف بصدق وإخلاص .

(7) الخطط للمقرizi ج 2 ص 195.

(8) راجع ديوان ابن هاني -

(9) النظم الإسلامية لحسن ابراهيم حسن .

(10) المدخل في تاريخ الحضارة العربية ص 47.

أنواع السفن ومعداتها

تفاوتت السفن الحربية في شكلها وقوتها ونوعها وذلك تبعاً للأغراض المختلفة المعدة

لأجلها وهي :

1 - الحرافة : تحمل فيها منجنيقات التي يرمي بها النفط المشتعل على الأعداء .

2 - الشونة : وهي مراكب كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجاً ، وقلاعاً للدفاع تتسع لمائة وخمسين رجلاً ، ويحركها مائة مجداف .

3 - الطرادة : وهي سفينة صغيرة سريعة الجري .

أما المعدات التي كانوا يستعملونها لسفن القتال كثيرة ومتعددة منها :

1 - الكلاليب : عبارة عن خطاطيف حديدية يلقونها على سفن العدو فتقف ثم تشتد ، ويدخلون إليها ويقاتلون من بداخلها .

2 - التوابيت : وهي صناديق مفتوحة من أعلىها ، توضع في أعلى السواري وينتهيء فيها رجال لديهم أحجار صغيرة موضوعة في مخلاف إلى جانب الصندوق يرمون بها العدو ، وهم مستورون بالصناديق ، فتكون حاجز وقاية لهم .

3 - قوارير النفط للاشتعال يحرقون بها عدوهم .

4 - جرار النورة وهو مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ يرمون بها في سفن العدو فتعميهم بغيارها ، وقد تلتهب عليهم إذا تبدلت .

5 - قدور الحيات والعقارب يرمون بها في سفن الأعداء فتحدث اضطراباً يشير الرعب في صفوفهم .

6 - قدور الصابون اللزج الذي يعيق تقدمهم ويزلّق أقدامهم .

7 - اللجام : كانوا يجعلون في مقادم سفنهم أداة تشبه الفأس سموها اللجام . وهي عبارة عن حديقة طويلة محددة الرأس جداً ، تدخل في خشبة بارزة تشبه سنان السرمح ، فيحتالون في طعن المراكب به فإذا أصاب جانب السفينة يخشى عليها الغرق فيطلب عند ذلك أهلها الأمان .

طرق الوقاية :

عملوا كل ما لديهم من طرق وقاية لصيانة سفنهم فكانوا يعلقون حول السفينة من الخارج الجلود واللبود المبللة بداخل أو النترون أو الماء والشب .

ومن طرق وقايتها لسفنهم ، الطين المخلوط بالبورق والنطرون . أو الخطمي المعجون بداخل ، لأن هذه المواد تقاوم فعل النفط .

ومن احتياطاتهم أيضاً كانوا إذا جن الليل لا يشعرون في مراكبهم ناراً ولا يتذرون فيها ديكاً حتى لا يصبح ، فيعلم العدو مكان وجودهم .

ومن شدة المبالغة في الاختباء كانوا يسلّلون قلوعاً رزقاء على السفن كي لا تظهر من بعد على أعين الأعداء .

هذا ما توصل إليه المسلمون من أجل صيانة سفنهم وواقاتها من الخطر المحدق بها .

قيادة الاسطول البحري

عدة قواد يتعاونون معاً على قيادة الاسطول . القائد والرئيس والنواتية فالقائد : يدير كل ما يتعلق بالحرب والسلاح والقتال .

والرئيس : يدير أمر جري الاسطول بالرياح أو الماجديف ، وكذلك أمر إرساءه في المراكب . والنواتية : يعملون على صيانة الاسطول من كل عطل يلم به وينفذون أوامر الرئيس .

أما إذا اجتمعت عدة أساطيل فإنهم يولون إليها أميراً من أعلى طبقات الدولة يسمونه أمير البحر⁽¹¹⁾ . ومن هذا اللفظ أخذ الأفونج لفظ (Amiral) .

وفي عهد الفاطميين كان على رأس الاسطول المصري عشرة قواد . عليهم رئيس سموه قائد القواد . كما كان للاسطول ميزانية ضخمة من خراج الاقطاعات المحبوسة عليه . وقد بلغ عدد جنود البحرية في العهد الفاطمي خمسة آلاف ولما ولـي صلاح الدين الأيوبي اهتم بأمر الاسطول البحري اهتماماً كبيراً ، وأنشأ له ديواناً خاصاً سماه « ديوان الاسطول » .

وقد اشتهر من أمراء البحر عند العرب عدد كبير من بينهم : عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وجنادة بن أمية وعبد الله بن ميس الحارثي ، وأسد بن الفرات فاتح حقلية . وأحمد الصقلي قائد أساطيل المغرب في القرن السادس الهجري الذي بلغت الأساطيل الإسلامية في عهده شهرة منقطعة النظير⁽¹²⁾ .

وقد كان الفاطميون يحتفلون بالاسطول البحري عند قيامه بالغزو احتفالاً عظيماً يحضره الخليفة ، فيجلس في منظرة معدة له على ساحل النيل ، لوداع الاسطول ، ثم يحضر رئيس الاسطول والقواد بين يدي الخليفة قبل التوجه للقتال ؛ فيودعهم الخليفة ويدعو لهم بالنجاح وكذلك يحصل مثل هذا الاحتفال عند العودة ظافرين .

وهكذا كان يفعل بعض السلاطين من بعده كالسلطان قلاوون⁽¹³⁾ .

أثر الأساطيل في الفتوحات الإسلامية

عندما توسيع الفتوحات الإسلامية وبلغت مصر والشام ، أصبح إنشاء أسطول بحري أمراً لازماً لا بد منه من أجل حماية المراكب والمدن الإسلامية . فنازلاً الأعداء الطماعين الذين كانت لهم السيادة البحرية في تلك المنطقة .

وكما مر معنا من هوس معاوية بشأن غزو البحر ، فكان أول من غزا الروم في البحر في عهد الخليفة عثمان ، فقد أبحر إلى قبرص⁽¹⁴⁾ سنة 28 هـ . كما أبحر إليها أهل مصر ، بقيادة

(11) المقدمة لابن خلدون ج 2 ص 639 .

(12) المصدر نفسه .

(13) راجع الخطط للمقرizi ج 2 ص 194 .

(14) كان لقبرص أهمية كبيرة بالنسبة لوقتها في شرق البحر الأبيض وكانت الدول تتصارع للسيطرة عليها ، لذلك استهل العرب نشاط أسطولهم بغزوها .

عبد الله بن سعد بن أبي سرح فانتصروا وصالح أهلها على سبعة الاف دينار يؤدونها الى المسلمين في كل سنة على أن يكون طريق المسلمين الى العدو عليهم وعلى أن يؤذنوا للMuslimين بمسير عدوهم إليهم . وبذلك صارت قبرص نقطة اتصال بين أهل الشام وأساطيلهم التي أخذت تخر في بحر الروم⁽¹⁵⁾ . وحارب ابن أبي سرح قسطنطين قصر الروم وانتصر عليه في موقعة (ذات الصواري) سنة 31 هـ وكانت سفن المسلمين ما يزيد على المئتين سفينة في حين أن سفن الروم كانت أكثر من ستمائة سفينة⁽¹⁶⁾ ومنذ ذلك الحين أصبحت الدولة الاسلامية دولة بحرية قوية وبدأت تشن الحملات التوالية على البلاد البيزنطية . استعمل معاوية عبد الله الحارثي على البحر وغزا خسين غزوة بين صائفة وشاتية⁽¹⁷⁾ .

عندما كان المسلمين قد ثقفو ركوب البحر ومارسوا الحياة العملية مع السفن الغربية ففتحوا جزر بحر الروم مثل رودس التي كان بها دار لصناعة السفن الرومية وسردينيا ومالطة وصقلية واقريطش وغيرها وسارت سفنهم في بحر الروم ذهاباً وإياباً وعليها الجنود تجوز البحر من صقلية إلى شواطئ إيطاليا ، تখن في مالك الأفونج ، وخصوصاً في أيام بني الحسن ملوك صقلية القائمين فيها بدعة الفاطميين « فانحاز الأفونج بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي من هذا البحر .

وفي القرن الرابع أصبح للمسلمين السيطرة التامة على البحر الأبيض المتوسط ويدهم وحدهم مفتاح الدخول والخروج في عرض البحر الذي أصبح : « بحراً عربياً »، وكان لا بد من يريد أن يقضي لنفسه فيه أمراً من أن يخطب ود العرب ، كما فعلت: نابلي وغيته ، وأمالفي ، ويظهر أن الملاحة الأوروبية نفسها كانت في ذلك العصر على حال يرثى لها من الضعف ؛ ففي سنة 935 م استطاعت مراكب عبد الله المهدي الفاطمي أن تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوة⁽¹⁸⁾ .

ولا ننسى مدينة صور في لبنان فقد كانت الميناء الحربي الاسلامي المواجه لبوزنطة إذ كان « بها دار الصناعة ، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم ، وكانت حصينة جليلة⁽¹⁹⁾ .

وظل الأمر كذلك أكثر من ألف وثلاثمائة سنة استطاع العرب خلاها أن يبنوا مجدًا بحرياً تحدثت به انتصاراتهم الباهرة ، إلى أن ضعفت الدولة الفاطمية بمصر والأموية بالأندلس ، ولما أحسن الأفونج أفاقوا من كبوتهم واسترجعوا بلادهم ، ثم غزوا بلاد المسلمين ، وكان ما كان من نتائج الحروب الصليبية المعروفة في كتب التاريخ . وهذه حال الدنيا يوم لك ويوم عليك .

(15) فتوح البلدان للبلاذري ص 159 .

(16) خطط المقريزي ج 2 ص 190 .

(17) خطط المقريزي ج 2 ص 190 .

(18) الحضارة الاسلامية لأدم مترج 2 ص 425 .

(19) المصدر نفسه .

الفصل الخامس منهج الاسلام في الحروب

كان الرسول ﷺ رسول سلام يؤثر اعتناق القوم للاسلام على السبي والقتل ، ويوصي بدعوتهم الى الله ، وتألف نفوسهم ، قبل إعلان الحرب عليهم . قال ﷺ : « ألا أخبركم بأحلكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيمة ؟ أحسنكم أخلاقاً الموطئون أكثافاً الذين يألفون ويؤلفون »^(١) إن من يطالع سيرة الرسول الأعظم يتضح له أنه لم يقاتل قوماً قبل أن يقنعهم بالحججة والبرهان . فهذه قريش التي قال عنها ﷺ في ذكر المحرج : « يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » رغم اضطهادها له ولاصحابه الا ام صفح عنها مصغياً لقوله تعالى : « وإن الساعة لآتية ، فاصفح الصفح الجميل »^(٢) .

فالدعوة الاسلامية قامت بالحكمة والمعونة والبرهان والحججة قبل شن الحرب قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والمعونة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن »^(٣) .

إن سبيل الاسلام في دعوته تحمل روح السمو في علاقته بغير معتقديه ، وتوضح العلاقة بينه وبينهم آيات كرييات نذكر بعضها :

يقول تعالى في كتابه العزيز : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله »^(٤) ويقول سبحانه في سورة البقرة : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين »^(٥) .

ويقول عز وجل :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلونكم في الدين ولم يخربوكم من دياركم أتبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين

(١) المجازات النبوية ص 187 والموطئون : الدين يطأ الناس أي يدوسون جانبيهم وناحيتهم فلا يؤدون ولا يزعجون .

(٢) الحجر الآية 85.

(٣) النحل الآية 125.

(٤) الأنفال الآية 61.

(٥) البقرة الآية 190.

وآخر حكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم ان تولوهם ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ⁽⁶⁾ .

فآية المحتدنة هذه بمثابة دستور اسلامي في معاملة المسلمين لغيرهم . وجاء في سورة المائدة قوله تعالى :

﴿الْيَوْمَ أَحِلَّ لَكُمُ الطَّيَّابَاتِ وَطَعَامُ الَّذِينَ أَوْتَوْا الْكِتَابَ حَلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَّهُمْ وَالْمَحْسَنَاتِ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمَحْسَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أَوْتَوْا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا أَتَيْتُمُوهُنَّ أَجْوَرَهُنَّ مُخْصَصَاتٍ غَيْرَ مَسَافِحَينَ وَلَا مُتَخَذِّلِي أَخْدَانَ وَمَنْ يَكْفُرُ بِالْأَيَّامِ فَقَدْ جَبَطَ عَمَلَهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْمَخَاسِرِ﴾ ⁽⁷⁾ .

إذا قرأتنا هذه الآيات وتأملتها في مضامينها علمتنا روح السمو التي يحملها الاسلام في علاقاته بغير معتقديه ، وانه بر ، وعدل ، وتعاون ، وصلاح . ومن المعلوم أن النبي ﷺ عندما دخل المدينة وجد فيها طائف من أهل الكتاب ، وكان قد جمع جيشاً كبيراً يأتى بأمره ، لم يكره أحداً منهم على اعتناق الاسلام ، بل كتب بينه وبينهم عهداً وميضاً ، جاعلاً شعاره في ذلك قول الله عز وجل : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ⁽⁸⁾ وهذه الآية محكمة لم ينسخها شيء ⁽⁹⁾ .

فالقتال كان حماية للدعوة الاسلامية ولتبقى كلمة الله هي العليا ، ودفعاً للعدوان عن عباد الله المؤمنين المسلمين ، أهل الله في أرضه : « وَلَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » ⁽¹⁰⁾ قال تعالى : « وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تَرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوكُمْ ... » ⁽¹¹⁾ .

والآن يحسن بنا ان نفهم كيف استعمل الاسلام هذه القوة؟ لما كانت هذه القوة من أجل رفع كلمة الله فلا يجوز أن تستعمل إلا حيث يأذن الله ، أي في سبيل الله . وقد وضع لنا سبحانه في كتابه العزيز ، الحدود التي يجب أن تصرف من خلالها . هذه الحدود هي :

1 - القضاء على الحروب الداخلية بين المسلمين . فإذا ما حدث خلاف بين قطرين إسلاميين ، أو قبيلتين ، أو قتين من المسلمين فعل القوى الاسلامية التدخل للصلح بينهما ، فمن رضخ للأمر الشرعي و الحكم الله كان خيراً ، وإلا يجب قتاله حتى يرضخ للحق . قال تعالى :

﴿إِنَّ طَائِفَتَنِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَلُوْا فَأَصْلِحُوْا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأَخْرَى﴾

(6) المحتدنة الآية 8.

(7) المائدة آية 5.

(8) البقرة الآية 256.

(9) راجع النظم الاسلامية للدكتور صبحي الصالح ص 517.

(10) آل عمران الآية 189.

(11) الأنفال الآية 60.

فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المحسنين ^(١٠).

٢- حرب المنحرفين عن الاسلام

قال الفقهاء في بلد تركت سنة من سنن الشريعة الاسلامية ، كالاذان مثلاً ، يجب قتلها حتى تعود . أو امتنعت عن دفع الزكاة ، أو تعطيل حدود الله وأحكامه ، فقد وجب على المسلمين أيضاً قاتلها حتى ترجع لأمر الله خاضعة لأحكامه تاركة الحرام مقيمة الفرائض الواجبة والسنن المفروضة .

٣- حرب المرتدین

إذا ما ارتد أناس عن الاسلام وشكلوا قوة عرداً أرادت أن تقوم بانقلاب على الحكم أو أعلنت عدم اعترافها بنظام الحكم وخرجت على طاعة الامام الحق بغير حق ، وجب على المسلمين إرجاعها إلى حظيرة الاسلام ولو أدى ذلك إلى قتلهم .

٤- حرب العصابات المخربة وقطع الطريق

أوجب الاسلام حرب هؤلاء الذين يهددون الامن في البلاد ، وقد قال فيهم الله عز وجل : «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض» ^(١٢) .

٥- حرب المعاهدين إذا نقضوا عهدهم

إذا سيطر المسلمون على بلد ما وتعاهدوا مع أهلها أن يكونوا ذمة للمسلمين ، ثم نكث هؤلاء العهد ، فإن على المسلمين تأدبيهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهي صاغرة . قال تعالى : «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» ^(١٣) .

٦- الحرب الدفاعية

عند الاعتداء على أي جزء من أرض الاسلام فقد وجب على المسلمين الحرب لصد الهجوم وإجلاء العدو . ويطلب من البلاد المجاورة للعدو المهاجم المبادرة في القتال أول الأمر ، فإذا عجزت عن قهره وإجلائه فعل المسلمين كافة فريضة الدفاع عن الأرض الاسلامية ، كفلسطين مثلاً التي احتلها اليهود اغتصاباً وشردوا أهلها في شتى البلدان ، يفرض الاسلام فرض عين على كل مسلم في البلاد المجاورة أولاً أن يدخلوا المعركة في الحرب لطرد الصهاينة الغزاة المعتدين ، وعندما يعجز سكان البلاد المجاورة وجب فرض عين على البلدان الاسلامية البعيدة المشاركة في حرب الجهاد المقدس ، الواجب على كل مسلم على

(١١) الأخوات الآية ٩.

(١٢) المائدة الآية ٣٣

(١٣) التوبه الآية ٢٩

الأرض الاسلامية . جاء في الكتاب الكريم : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » (١٤) .

7 - الحرب الجهادية

أوجب الاسلام في شريعته الحرب الجهادية ضد أعداء الله وأعداء الإنسانية في كل مكان ، وتبقى . كلمة الله هي العليا ، والله مع المجاهدين وهو العزيز الحكيم . قال تعالى في شأن هذه الحرب :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (١٥) .

وقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ولنجدوا فيكم غلطة » (٣) .

وقال عز وجل : « وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين الله » (١٧) . بهذه الآيات وغيرها فرض الله على المسلمين أن يكونوا في حالة حرب دائمة مع دار الحرب ما داموا يستطيعون حتى ينضعوا جميع أعدائهم بلداً بلداً لسلطان الله فلا تبقى أية فتنة يفتن بها المسلم عن دينه .

هذه القوة تحتاجها من أجل فرض هيبة الحكم الاسلامي ليسهل تنفيذ الشريعة الاسلامية وتحترم حدود البلاد الاسلامية دون خوف ولا مراءة والآن ما هو الوطن الاسلامي « وما هي دار الاسلام ودار الحرب ؟

الوطن الاسلامي

قبل خضوع العالم لسلطان الله ينقسم العالم إلى دارين : دار إسلام ، ودار حرب .

أ - دار الاسلام هي التي يكون فيها السلطان للإسلام والمسلمين وتطبق فيها النظم الاسلامية جميعها ، وهي وطن المسلم من أي جنس كان ، إذ لا يرتبط المسلم بطنين الأرض والوطن ، بل بالعقيدة التي آمن بها . فالعقيدة فوق الأرض ، ولا حياة بلا عقيدة . وقد عاب الله على من كانت أرضه فوق العقيدة فقال سبحانه : « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكن خيراً لهم وأشد ثبيتاً » (١٨) .

وإذا كان وطن الاسلام دار المسلمين فهل تجب عليه المиграة إليها ؟

يقول الفقهاء : إذا عجز المسلم عن إظهار دينه يمكنه يغلب فيه حكم الكفر والبدع

(١٤) البقرة الآية ١٩٠ .

(١٥) التوبه الآية ٢٩ .

(١٦) التوبه الآية ١٢٣ .

(١٧) البقرة الآية ١٩٣ .

(١٨) النساء الآية ٦٦ .

المضلة ، بحيث يمنع من القيام بواجباته الدينية ، ففي هذه الحالة يفترض عليه أن يهاجر إلى دار الإسلام . قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِبِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فَيْمَا كُتِّمَ قَالُوا كُنَا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَنَهَا جَرَوْا فِيهَا فَأُولَئِكُمْ مُؤْمِنُونَ جَهَنَّمْ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ، إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَلَادَانِ لَا يُسْتَطِعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ، فَأُولَئِكُمْ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غَفُورًا﴾⁽¹⁹⁾ .

قال الماوردي في أحکامه : «إذا فدر المسلم على إظهار الدين في بلد من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار إسلام فالإقامة فيها أفضل من الرحالة منها لما يترجى من دخول غيره في الإسلام»⁽²⁰⁾ .

أما الذين يقيمون في دار الإسلام وطلبوا من إخوانهم المؤمنين نصرتهم في الدين ، فواجب هؤلاء نصرتهم ، إلا على أساس بينهم وبين المسلمين عهود . جاء في سورة الأنفال :

﴿إِنَّمَا الْمُحْسِنُونَ مَنْ يَنْهَا مِنْ أَهْلِ الْمَسْكِنِ وَالَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِصَيْرَةً﴾⁽²¹⁾ . كما يمكن أن يكون دار الإسلام على أقسام :

١ - دار العدل : وهي الدار التي تقيم الإسلام وتحمي السنة وعلى رأسها الخليفة الشرعي للMuslimين .

٢ - دار البغي : وهي التي سيطر عليها الخارجون على الإمام الحق ولو حكموا بالاسلام .

٣ - دار البدعة : هي التي سيطر عليها المبتدعون وأظهروا فيها بدعتهم .

٤ - دار الردة : وهي التي ارتد أهلها أو سيطر المرتدون عليها أو كان أهلها كافرين خضعوا لحكم المسلمين ثم نقضوا العهد وسيطروا عليها .

٥ - الدار المسلوبة : وهي الدار التي استولى عليها كافرون من خارج أرض الإسلام وكانت في الأصل دار إسلام .

هذه الأقسام الخمسة كلها داخلة في دار الإسلام . على كل حال ان الدار التي يعطيها المسلم ولاءه ويعتبرها وطنه هي دار العدل من بين هذه الدور⁽²²⁾ . وخلاصة لما نقدم : إن وطن المسلمين هو دار السلام شرط أن تكون دار عدل . ولا تكون دار عدل إلا بخلافة شرعية تقيم أحکام الإسلام بوجب كتاب الله وسنة رسول الله . وإذا لم تكون دار الإسلام كلها كذلك فالمطلقة التي توفر فيها هذه الشروط هي التي تكون دار عدل ، وهي التي يتمثل فيها وطن المسلم الذي يرتبط فيه عاطفياً ولاء وتحب الهجرة إليه .

ومقى وجدت دار العدل فقد وجب على حكام المسلمين جميعاً أن يخضعوا لها وإذا رفضوا الخضوع إليها يكونون بغاة ظالمين ، يجوز حرهم وقتلهم ومثلهم مثل غير المسلمين

(19) النساء الآية ٩٧-٩٨.

(20) راجع الاسلام لسعيد حوى ص ٤٠١.

(21) الأنفال الآية ٧٢.

(22) قارن بالأحكام السلطانية للماوردي ص ٧.

المعتدين ، إذ أن وحدة الأرض الإسلامية كوحدة الأمة الإسلامية ، ولا يجوز أن يقف أي حاجز أو مانع ، ومن خالف أو حال دون ذلك فقد أهدر دمه شرعاً ولو كان اسمه مسلماً .

وقد قاتل علي (ع) معاوية من أجل هذا المعنى ، ومن بعده (ع) قاتل ابنه الحسين ، أبو الشهداء وبطل الإسلام ، يزيد الظالم الباغي ، والخارج على الشريعة الإسلامية ، للهدف عينه .

أما إذا لاحظ إمام المسلمين أن قوة دار العدل ضعيفة وغير كافية عليه أن يلجأ إلى العمل السياسي . وقد أجاز فقهاء المسلمين في حالات ضعفنا أن نرضي عدونا بأموالنا ريشاً نعد قوتنا .

ولعل أهم واجب تقوم به دار العدل هو تطهير ذاتها من أعدائها المرتدين والمنافقين وأصحاب البدع ، فيجوز شرعاً قتل هؤلاء الزنادقة والمجاهرين بالعصبية ، الذين ثبتت إدانتهم وأذاهم للمسلمين عاممة⁽²³⁾ . وبدون هذا الإشتغال للمرتدين وأمثالهم لا يمكن أن تقوم قائمة الإسلام ، وقد يستطيع أعداء الله أن يؤلبوا المسلمين على أولياء الله ، جاء في القرآن الكريم بهذا الشأن :

﴿وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ هُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾⁽²⁴⁾ .

وقال سبحانه وتعالى :

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ وَالْمَرْجُونُ فِي الْمَدِينَةِ لَغَرِيبِنَكُمْ ثُمَّ لَا يَجَاوِرُونَكُمْ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ، مَلُوْنِينَ أَيْمَانًا ثَقَفُوا أَخْذَنُوا وَقُتُلُوا تَقْتِيلًا ، سُنَّةُ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾⁽²⁵⁾ .

إن مثل هؤلاء هم أخطر ما يكون على دار الإسلام . فيجب البطش بهم واستئصالهم تماماً . وتخلص المؤمنين من أذاهم ومؤامراتهم .

دار الحرب

وأما دار الحرب فهي الدار الغير اسلامية التي لا تسود فيها شريعة الإسلام ولا تنفذ فيها أحكامه ، كيفما كانت نظمها القانونية والسياسية . ويطلق على رعاياها « حربين » إلا أن يعقدوا ميثاقاً أو عهداً مع المسلمين ، فيدعون « معاذين » .

والإسلام كما هو معروف عنه لا يعني الحرب ولا يقر الخصومة مع الغير ، فإن هذا خارج عن هدفه الإنساني العظيم ، إنما يريد تحقق الأمن والسلام ، وإبعاد الشر والأذى عن المسلمين الآمنين .

من هنا كان عقد الأمان لل المستأمنين الذي أقره جهور الفقهاء فقالوا : متى بذل

(23) أجاز كثير من الفقهاء قتل المسلم العاصي الذي ثبت إدانته إذا ترتب على هذا القتل مصلحة عامة أو دفع شر عام . راجع باب التغريب من كتب المقه .

(24) التوبة الآية 47.

(25) الأحزاب الآية 60-61-62 .

ال المسلمين عقد أمان للمستأمين لم يكن لهم نية إلا لتهمة أو مخالفة فإن وجدت التهمة أو المخالفة كان نبذ العهد للأمام⁽²⁶⁾ .

وتعريف المستأمن كما ورد في درر الحكماء : « هو الذي يدخل دار غيره طالباً الأمان مسلماً كان أو حربياً ، وان غلب إطلاقه على من دخل دار الإسلام بعقد أمان »⁽²⁷⁾ وهذا التعريف يستند إلى قول الله عز وجل . قال سبحانه : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأ منه ذلك بأئمهم قوم لا يعلمون »⁽²⁸⁾ .

والمعلوم أن احترام العهود والمواثيق أصل عام مشروع في الإسلام حتى مع المشركين « وقد دعا القرآن الكريم إلى الوفاء بها وأكد على ذلك بآيات عديدة . قال سبحانه : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً »⁽²⁹⁾ . وقال عز وجل : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا اليمان بعد توكيدها »⁽³⁰⁾ . ومعاهدون هؤلاء يتلزمون معهم المسلمين إذا استقاموا والتزموا في معاهداتهم وإلا عاملوهم كالمرتكبين المعذبين . قال سبحانه وتعالى : « كيف يكون للمرتكبين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدوا عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين »⁽³¹⁾ .

إن الحلال في دار الإسلام حلال في دار الحرب وفي بلاد الكفر ، والحرام في دار الإسلام حرام في بلاد الكفر ، فمن أصاب حراماً فقد حده الله على ما شاء منه .

وهذا ينبغي أن نلاحظ ملاحظة هامة . وهي أن الحكم الإسلامي عليه أن يحيط حيطة كاملة لتكون القوة العملية تحت سلطانه دائمًا ، بحيث لا تستطيع ولية الاستقلال أو أية فئة خارجة عن طاعة الشريعة الإسلامية شق عصا الطاعة واحداث فتنة أو أذى للمسلمين .

لذلك وجب على المسلمين عامة وعلى مسلمي كل قطر خاصة أن يجعلوا قطرهم دار عدل ، وأن على هذه الأقطار أن تتحدد لتشكل وطنًا إسلامياً واحداً يقسم إدارياً ، ويكون لكل ولية دستورها الإسلامي ونظامها الداخلي . على أن تكون تفصيلات ذلك كله مستمدّة من الكتاب والسنة .

وعلينا أن نذكر أن العمل لهذا فريضة .

أ - أن يكون في كل قطر إسلامي حكومة إسلامية فريضة .

ب - أن تتحدد هذه الأقطار لتشكل دار العدل فريضة .

ج - أن تسعى دار العدل لإنهاء الأوضاع الشاذة من دار الإسلام فريضة .

د - أن تسعى دار الإسلام لتعظيم الإسلام في العالم فريضة⁽³²⁾ .

(30) النحل الآية 91.

(26) راجع المغني لابن قدامة المختلي ج 8 ص 401.

(31) التوبية الآية 7.

(27) درر الحكماء في شرح غرر الأحكام ج 1 ص 292.

(32) راجع الإسلام لسعيد حوى ص 408-409.

(28) التوبية الآية 6.

(29) الأسراء الآية 34.

جريدة المراجع على حروف المعجم

- أ -

- 1 - أبو حنيفة للشيخ محمد أبي زهرة القاهرة 1366 هـ .
- 2 - إبطال القياس لابن حزم مطبعة جامعة دمشق .
- 3 - الانقان في علوم القرآن للسيوطى مطبعة حجازي بالقاهرة .
- 4 - الآثار الباقيه عن القرون الخالية للبيرونى نشر ادوار سخا وليسىك 1876 م .
- 5 - الأحكام للأمدي مطبعة المعارف 1332 هـ .
- 6 - الأحكام السلطانية لأبي يعلي طبعة البابي الحلبي 1356 هـ .
- 7 - الأحكام السلطانية للماوردي طبعة البابي الحلبي 1357 هـ .
- 8 - أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية مطبعة جامعة دمشق 1381 هـ .
- 9 - أحكام الأحوال الشخصية للدكتور محمد يوسف موسى .
- 10 - إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي القاهرة 1346 هـ .
- 11 - الله يتجل في عصر العلم لمجموعة من العلماء الطبيعين .
- 12 - الأخلاق الإسلامية للسيد علي فضل الله دار مكتبة الحياة .
- 13 - الاختيار شرح المختار لعبد الله محمود بن مودود الحنفي البابي الحلبي القاهرة 1355 هـ .
- 14 - أدب السياسة لأحمد محمد الحوفي .
- 15 - الأدب الصغير لابن المفعع مكتبة البيان 1964 م .
- 16 - الإرشاد لياقوت الحموي .
- 17 - ارشاد الفحول من علم الأصول للشوكاني مطبعة البابي الحلبي مصر .
- 18 - الإسلام لسعيد حوى دار المكتبة العلمية بيروت 1399 هـ .
- 19 - الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي .
- 20 - الإسلام والطريق الحديث للدكتور عبد العزيز اسماعيل .
- 21 - الإسلام والمرأة للأستاذ محمد سعيد الأفغاني دار الفكر بدمشق 1384 هـ .
- 22 - الأسرة والمجتمع للدكتور علي عبد الواحد وافي مكتبة النهضة بمصر 1386 هـ .
- 23 - أسس الصحة النفسية للدكتور عبد العزيز القوصي مكتبة النهضة المصرية 1382 هـ .
- 24 - الأسس الاجتماعية للتربية (يونسكو) .
- 25 -أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير القاهرة 1286 هـ .

- 26 - الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني القاهرة 1358 هـ .
- 27 - الأصول العامة للفقه المقارن لمحمد تقى الحكيم دار الأندلس - بيروت 1963 م .
- 28 - أصول الكافي للكليني دار الكتب الإيرانية 1385 هـ .
- 29 - أعلام في العصر العباسي للدكتور حسين الحاج حسن المؤسسة الجامعية - بيروت 1985 م .
- 30 - أعلام النساء لعمر رضا كحالة .
- 31 - أعلام المقعدين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية مطبعة النيل 1325 هـ .
- 32 - الأغاني لأبي الفرج الأصفهانی بولاق 1285 هـ .
- 33 - الأمراض النفسية والعقلية لابن عربى .
- 34 - الامام الصادق والمذاهب الأربعة للشيخ أسد حيدر .
- 35 - الأمالي للسيد المرتضى .
- 36 - الامامة والخلافة للسيد رشید رضا القاهرة .
- 37 - الامامة والسياسة لابن قتيبة 1325 هـ .
- 38 - الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام القاهرة 1353 هـ .
- 39 - انساب الأشراف للبلذري .

- ب -

- 40 - البرهان في علوم القرآن للزرکشي دار إحياء الكتب العربية القاهرة 1376 هـ .
- 41 - البداية والنهاية لابن كثير مطبعة السعادة بالقاهرة 1351 هـ .
- 42 - البحار ملا باقر المجلسي طبع إيران طهران 1315 هـ .
- 43 - بلاغات النساء لابن طيفور .
- 44 - بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب للألوسي .
- 45 - البلدان لليعقوبي .
- 46 - البيان للإمام الخوئي طبعة النجف الأشرف .
- 47 - البيان والتبيين لأبي عثمان الباحظ تحقيق عبد السلام هارون 1948 م .

- ت -

- 48 - تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم حسن - النهضة المصرية 1964 م .
- 49 - تاريخ الاسلام للشيخ عبد الوهاب النجار مطبعة الفتوح 1347 هـ .
- 50 - تاريخ الامامية للدكتور فياض .
- 51 - تاريخ ابن خلدون مؤسسة الأعلمي بيروت .
- 52 - تاريخ الامم والملوک للطبری مؤسسة الأعلمي بيروت 1983 م .
- 53 - تاريخ بغداد للخطيب البغدادی طبعة اخانجي بمصر 1349 هـ .
- 54 - تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان دار مكتبة الحياة بيروت .
- 55 - تاريخ التربية لعبد الله المشنوق .

- 56 - تاريخ التشريع الاسلامي للحضرى القاهرى 1960 م.
- 57 - تاريخ التشريع الاسلامي محمد السبكي و محمد البربرى و محمد السادس - القاهرة 1365 هـ.
- 58 - تاريخ الحضارة العربية .
- 59 - تاريخ الحضارة الاسلامية لأبي زيد شلبى مكتبة وهبة 1383 هـ.
- 60 - تاريخ الخلفاء للسيوطى طبعة مصر 1305 هـ.
- 61 - تاريخ اليعقوبى دار بيروت 1400 هـ.
- 62 - التاريخ الكامل لابن الأثير دار صادر بيروت 1399 هـ.
- 63 - الناج في أخلاق الملوك للماجحظ .
- 64 - تراث الاسلام لازنولد مطبعةلجنة التأليف والترجمة والنشر 1936 م.
- 65 - تدريب الرواى للسيوطى مصر 1307 هـ.
- 66 - الترغيب والترهيب للمحافظ المنذري مطبعة السعادة 1379 هـ.
- 67 - التربية الجنسية لسirل بين .
- 68 - تاريخ الفقه الاسلامي للدكتور محمد يوسف دار الكتاب العربي بمصر 1378 هـ.
- 69 - التشريع الجنائى فى الاسلام لعبد القادر عوردة .
- 70 - التبيان فى تفسير القرآن للشيخ الطوسي النجف .
- 71 - تحف العقول للحرانى .
- 72 - تذكرة السامع لابن جماعة .
- 73 - تذكرة الحفاظ لشمس الدين الذهبي 1375 هـ.
- 74 - التكيف النفسي لمصطفى فهمي .
- 75 - التخطيط للتربية والتعليم لمحمد علي حافظ .
- 76 - التكامل فى الاسلام لأحمد أمين الایرانى .
- 77 - تمييز لتاريخ الفلسفة لمصطفى عبد الرزاق مصر .
- 78 - تهذيب ابن القيم لسنن أبي داود القاهرة .

- ج -

- 79 - جامع الأصول من أحاديث الرسول . لمنصور على ناصف - السنة المحمدية 1368 هـ.
- 80 - جامع بيان العلم وفضله للحافظ ابن عبد البر القاهرة المطبعة المنيرة .
- 81 - جامع السعادات لمحمد مهدي التراقي .

- ح -

- 83 - الحضارة الاسلامية لأدم متز نقله محمد عبد الهادي أبو ريدة .
- 84 - الحضارة الاسلامية لجوستاف جرون باوم .
- 85 - حضارة الاسلام في دار السلام لجميل نخلة مدور .

- 86 - الحضارة العربية للدكتور مصطفى الرافعي .
- 87 - حضارة العرب في عصر الجاهلية للدكتور حسين الحاج حسن المؤسسة الجامعية - بيروت 1984 م .
- 88 - حقوق النساء في الاسلام للسيد محمد رشيد رضا .
- 89 - حياة الامام الحسن لباقر شريف القرشي .
- 90 - حياة محمد لمحمد حسين هيكل مطبعة مصر القاهرة 1354 هـ .

- خ -

- 91 - الخطط للمقريري بولاق 1270 هـ .
- 92 - الخراج لأبي يوسف المكتبة السلفية القاهرة 1952 م .
- 93 - الخراج والنظم المالية (للدكتور محمد ضياء الدين الرئيس) مكتبة الانجلو المصرية القاهرة 1961 م .
- 94 - خطط الشام لمحمد كرد علي .
- 95 - الخصائص لابن جني دار المدى بيروت حققه محمد علي النجار .

- د -

- 96 - دائرة المعارف للبساطي .
- 97 - الدر المثور للسيوطى طبعة الحلبي بمصر 1314 هـ .
- 98 - درر الحكم في شرح غر الأحكام لمنلا خسرو المطبعة الشرقية 1304 هـ .
- 99 - دعائم الاسلام للنعمان بن محمد القاهرة 1951 م .
- 100 - الدعوة الى الاسلام لارنولد القاهرة 1957 م .
- 101 - ديوان ابن هاني .
- 102 - ديوان أحمد شوقي (الشوقيات) .
- 103 - ديوان أبي نواس نشر الغزالي مصر .
- 104 - ديوان ابن المعتر رواية الصولي .
- 105 - ديوان الخمسة لأبي تمام دار المعارف القاهرة .

- ر -

- 106 - رسائل أخوان الصفا .
- 107 - روح الصلاة في الاسلام للأستاذ عفيف طبارة منشورات جماعة عباد الرحمن .
- 108 - روح الدين الاسلامي للأستاذ عفيف طبارة .
- 109 - روح التربية والتعليم لمحمد عطيه الابرشى .
- 110 - روضات الجنات للخونساري طبع ايران .
- 111 - رياض الصالحين للإمام النووي مطبعة الاستقامة القاهرة .

- ز -

- 112 - زاد الميعاد لابن قيم الجوزية القاهرة 1324 هـ .
113 - الزواج المؤقت ودوره في حل مشكلات الجنس لمحمد تقى الحكيم دار الأندرس ببروت .

- س -

- 114 - السيرة لابن هشام ط. الحلبي 1348 هـ .
115 - سيرة المصطفى للسيد هاشم معروف الحسني دار القلم بيروت 1981 م .
116 - سيرة الأئمة الاثني عشر للسيد هاشم معروف الحسني - دار القلم بيروت 1981 م .
117 - سلم الوصول الى علم الأصول لعمر عبد الله .
118 - السنة ومكانتها في التشريع الاسلامي للدكتور مصطفى الرفاعي دار العروبة - بالقاهرة 1380 هـ .
119 - سنن ابن ماجة القاهرة 1313 هـ .
120 - سنن الترمذى ط. الحلبي 1356 هـ .
121 - سنن الدارمي دمشق 1349 هـ .

- ش -

- 122 - شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي دار الكتب المصرية .
123 - الشعر الغنائي للدكتور شوقي ضيف القاهرة .
124 - شرح النهج لابن أبي الحديد طبعة القاهرة .
125 - الشيعة بين الأشاعرة والمعترلة للسيد هاشم معروف الحسني دار النشر للمجامعين 1964 م .

- ص -

- 126 - صبح الأعشى في صناعة الانشا (للقلسندي) القاهرة 1917 م .
127 - صحيح البخاري المطبعة الخيرية بمصر 1320 هـ .
128 - صحيح مسلم دار الطباعة العاملة 1332 هـ .

- ض -

- 129 - ضحي الاسلام لأحمد أمين - النهضة المصرية 1966 م .
130 - الضمان الاجتماعي في الاسلام للشيخ سليمان اليحفوفي - الدار العالمية 1982 م .
131 - ضمان الجنس في الاسلام للشيخ سليمان اليحفوفي - الدار العالمية 1984 م .

- ط -

- 132 - الطبقات لابن سعد دار صادر ودار بيروت 1376 هـ .
- 133 - الطبقات لابن أبي يعل طبع مصر .
- 134 - طبقات الحنابلة للقاضي محمد بن أبي يعل مطبعة الاعتدال بدمشق 1350 هـ .
- 135 - طبقات الشافعية لابن السبكي طـ الحسينية القاهرة 1324 هـ .
- 136 - طب النبي لمحمد تقى فلسفى .
- 137 - طب الامام الرضا للامام الرضا .
- 138 - الطرق الحكيمه في السياسه الشرعية القاهرة 1953 م .
- 139 - الطفل بين الوراثة والتربية لمحمد تقى فلسفى .

- ع -

- 140 - عبرية علي لعباس محمود العقاد .
- 141 - عثمان بن عفان لعباس محمود العقاد .
- 142 - عدة الأصول للشيخ الطوسي طبعة ايران .
- 143 - العروة الوثقى للسيد كاظم اليزدي طبعة صيدا .
- 144 - عقائد الشيعة لمظفر محمد رضا .
- 145 - العقد الفريد لابن عبد ربه مطبعة الاستقامة القاهرة 1940 م .
- 146 - العقيدة والشريعة في الاسلام لاجناس جولدزهير القاهرة 1946 م . ترجمة : دـ . محمد يوسف موسى وعبد العزيز عبد الحق وعلى حسن عبد القادر مطابع الكتاب العربي .
- 147 - عمر بن الخطاب لابن الجوزي القاهرة .
- 148 - عيون الأخبار لابن قتيبة تحقيق برووكلمن طبعة برلين 1900 م .
- 149 - علم النفس التربوي لزكي صالح .
- 150 - عوامل وأهداف نشأة علم الكلام للسيد كاظم اليزدي طبعة صيدا .

- ف -

- 151 - فتوح البلدان للبلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) شركة طبع الكتب العربية مصر 1319 هـ .
- 152 - فجر الاسلام لأحمد أمين القاهرة 1969 م .
- 153 - الفخرى في الآداب السلطانية لابن الطقطقي شركة طبع الكتب العربية مصر 1317 هـ .
- 154 - فرق الشيعة للنوبيختي صححه محمد صادق النجف 1355 هـ .
- 155 - الفلسفة القرآنية للمقاد .
- 156 - الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري القاهرة 1928 م .

- 157 - فلسفة التشريع في الإسلام للدكتور صبحي المحمصاني طبعة ثالثة .
 158 - فنون الإسلام للدكتور زكي محمد حسن .
 159 - الفهرست لابن النديم - فوجل - ليسسيك 1871-1872

- ق -

- 160 - القرآن الكريم .
 161 - القاموس المحيط للفيروز ابادي بولاق 1301 هـ .
 162 - القرآن والطب الحديث لمحمد الخليلي .
 163 - قواعد التحديد للقاسمي مطبعة ابن زيدون بدمشق 1353 هـ .

- ك -

- 164 - الكامل لمحمد بن يزيد المبرد بشرح المرصفي طبع مصر 1929 م .
 165 - كشف الظنون ل حاجي خليفة مصر 1274 هـ .
 166 - كشف النقانع عن وجوه حجية الاقاع للشيخ أسد الله التستري طبعة ايران .

- ل -

- 167 - لسان العرب لابن منظور بولاق 1300 هـ .
 168 - لسان الميزان لابن حجر طـ. حيدر آباد 1331 هـ .
 169 - اللمعة للشهيد الأول والثاني طبع النجف 1967 م .

- م -

- 170 - مباحث في علوم القرآن للدكتور صبح الصالح دار العلم للملايين بيروت 1979 م .
 171 - المتعة في الإسلام للسيد حسين يوسف مكي دار الأندلس بيروت .
 172 - المتعة للفكيري .
 173 - محاضرات الأدباء لأبي القاسم الأصفهاني .
 174 - المدخل إلى علم أصول الفقه لمعرف الدوالبيي مطبعة الجامعة السورية .
 175 - المدخل في تاريخ الحضارة العربية للاستاذ ناجي معروف بغداد 1960 م .
 176 - المدخل للفقه الإسلامي لمحمد سلام مذكور مطبعة الرسالة مصر .
 177 - المرأة بين الفقه والقانون للدكتور مصطفى السباعي .
 178 - المرأة في ظل الإسلام لمريم نور الدين دار الزهراء بيروت 1983 م .
 179 - المراجعات للسيد شرف الدين مطبعة العرفان .
 180 - المذاهب الإسلامية لأبي زهرة باشراف الثقافة العامة بمصر .

- 181 - مروج الذهب للمسعودي المطبعة البهائية المصرية 1346 هـ .
- 182 - المخصص لابن سيدة .
- 183 - مختصر جامع بيان العلم لطاش كبرى زادة .
- 184 - مختصر تاريخ العرب لسيد أمير علي - بيروت 1961 م .
- 185 - مجتمع البيان للطبرسي صيدا 1379 هـ .
- 186 - مجتمع الزوائد لابن حجر الهيثمي طـ حسام الدين القدسي 1352 هـ .
- 187 - مستند أحمد بن حنبل القاهرة 1313 هـ .
- 188 - مستند أبي داود الطیالسی حیدر آباد 1321 هـ .
- 189 - المستصفى لأبي حامد الغزالى . دار صادر بيروت .
- 190 - المستدرک للحاکم النسایبوري حیدر آباد 1334 هـ .
- 191 - معالم الشريعة الاسلامية للدكتور صبحي الصالح . دار العلم للملايين بيروت 1975 م .
- 192 - معین الحکام لعلاء الدين الطرابی المطبعة الامیرية 1300 هـ .
- 193 - معجم البلدان لياقوت الحموي القاهرة 1906 م .
- 194 - المعجم المفهرس للإسٹاذ محمد عبد الباقی مكتبة وهبة 1378 م .
- 195 - معرفة علوم الحديث نشر الدكتور معظم حسين القاهرة 1937 م .
- 196 - معالم الحضارة الاسلامية للدكتور مصطفى الشكعة دار العلم للملايين . بيروت 1975 م .
- 197 - معالم الحكومة الاسلامية للشيخ جعفر السبحاني دار الأصوات 1405 هـ .
- 198 - مع القرآن للإسٹاذ الباقوري .
- 199 - المعید للعلموي وقف على طبعه أحد عبيد المكتبة العربية بدمشق .
- 200 - المغنى لابن قدامة الحنبلي المنار 1348 هـ .
- 201 - المجازات النبوية للشريف الرضي مؤسسة الحلبي وشركاه القاهرة .
- 202 - مصادر التشريع الاسلامي لعبد الوهاب خلاف مطبع دار الكتاب العربي بمصر .
- 203 - مصابيح الأصول للسيد علاء الدين بحر العلوم طبعة ایران .
- 204 - مصابيح السنة للبغوي القاهرة .
- 205 - مقدمة في تاريخ صدر الاسلام للدكتور عبد العزيز الدوري .
- 206 - المقدمة لابن خلدون القاهرة 1322 هـ .
- 207 - مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة .
- 208 - المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي .
- 209 - مكارم الأخلاق للطبرسي .
- 210 - من لا يحضره الفقيه محمد بن بابويه القمي المعروف بالصادق النجف 1957 م .
- 211 - مناقب آل أبي طالب لابن شهر أشوب النجف : 1956 م .
- 212 - الملل والنحل للشهرستاني مصر 1321 هـ .
- 213 - المواقفات في أصول الشريعة الاسلامية للشاطئي مطبعة مصطفى محمد القاهرة .
- 214 - منهاج الصالحين للامام العلامة السيد الخوئي دار الغدير 1393 هـ .

- ن -

- 215 - النظام التربوي في الاسلام لباقر شريف فرشي دار التعارف بيروت 1983 م.
- 216 - نظام الحكم في الشريعة والتاريخ لظافر القاسمي دار النفائس بيروت 1977 م.
- 217 - نظام الحكم والادارة في الاسلام للشيخ محمد مهدي شمس الدين . دار حمد - بيروت 1954 م.
- 218 - النظم الاسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن النبهنة المصرية 1964 م.
- 219 - النظم الاسلامية للدكتور صبحي الصالح دار العلم للملايين 1978 م.
- 220 - نظرية العلاقة الجنسية في القرآن الكريم للعلامة سامويل سمایلس .
- 221 - التزاع والتخاصم فيما بين بنی أمیة وبنی هاشم (للمقریزی) طبعة لبنان 1888 م.
- 222 - نفح الطيب للمقری طبع مصر 1302 هـ.
- 223 - النص والاجتهاد للسيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي .
- 224 - نهاية الارب في معرفة أحوال العرب للنويري دار الكتب المصرية 1923 م.
- 225 - نهج البلاغة للامام علي بن أبي طالب شرح الشيخ محمد عبده .
- 226 - النهاية للشيخ الطوسي دار الكتاب العربي بيروت 1400 هـ.

- و -

- 227 - الوجي المحمدي للسيد محمد رشيد رضا مطبعة النار بالقاهرة 1935 م.
- 228 - وسائل الشيعة للشيخ محمد حسن الحر العاملی المطبعة الاسلامية بطهران .
- 229 - الوزراء والكتاب للجهشیاري مطبعة البابی الحلبي 1357 هـ.
- 230 - وفيات الأعيان لابن خلکان المطبعة الميمنية القاهرة 1310 هـ.

فهرس الاعلام

ويشمل الأشخاص والشعوب والقبائل والمذاهب والفرق والملل

أ

- الأقرع بن حابس . 375
- أميمة بن أبي الصلت . 384
- أميمة 92 - 348 - 344 - 327 - 237 - 239 .
- اسمعائيل بن عليّة . 100
- اسحق بن ابراهيم (والي المأمون) . 101
- أسامة بن زيد 110 - 112 - 111 - 135 .
- أسيد بن حضير . 113
- إسماعيل بن الامام جعفر الصادق 127 -
- الاسماعيلية 127-128 .
- الاسفرايني 133-145 .
- الاسكافية . 143
- الاسوارية . 143
- السيد أمير علي . 296
- الاشورة (فرقة من الجيش) 39 .
- اسحق « النبي » 9 .
- الاسباط 9 .
- إبليس 82 .
- أردسير 38 .
- الازارقة 130 .
- أزرميدخت 38 .
- الاشراف الدهاقين 38 .
- الاشاعرة 145-149 .
- الأشعث بن قيس . 129
- الامامية الاثني عشرية 127 .
- الاموی 104 - 108 - 107 - 133 - 134 .
- . 453 - 270 - 258 - 164
- الأمين (الخليفة) . 356-99
- ابراهيم « النبي » 159-9 - 194 .
- ابراهيم سليمان 11 .
- ابراهيم النخعي 71-75 - 91 .
- ابراهيم بن علي اليعمرى 96 .
- ابراهيم بن سيار النظام 141 .
- ابراهيم المهدى 101-175 - 346 .
- ابراهيم الفزاري 304 .
- الإمام أحمد بن حنبل 90-99 - 101 .
- . 102 - 125 - 146 - 147 - 197 - 337 .
- أحمد بن الحصيب 175 .
- أحمد أمين 97 - 132 - 170 - 325 .
- أحمد بن يوسف 178 .
- أحمد بن المدبر 178 .
- أحمد الدهلوى 189 .
- أحمد حسن البافوري 329 .
- أحمد زكي 324 .
- أحمد بن محمد بيس 354 .
- أحمد بن طولون 470 .
- أحمد شوقي 374-414 .
- أحمد الصقلي 473 .
- إدوار جيبيون 468 .
- إخوان الصفا 401 .
- آدم متر 250-337 .
- آدم 441-351-82-59 .
- آرنولد 350-424 .
- إسماعيل الحميري (الشاعر) 352 .
- أنس بن الفرات 473 .
- اسعد بن زراوة 349 .
- الأشوريون 456 .
- أفلاطون 192 .

- ابن حزم . 327 - 133 - 101 - 93 - 86
 ابن الحجاج . 102
 ابن حجر . 125
 ابن خلف . 327
 ابن الخطيب . 356
 ابن الزبير . 326- 321
 ابن سيدة . 157
 ابن سريج . 347
 ابن سينا . 413
 ابن سيرين . 91
 - 113 - 109 - 46
 ابن عباس . 269 - 71 - 32
 . 327 - 321
 ابن عقيل . 44
 ابن عبد ربه . 463
 ابن عباد . 339
 ابن الدغدغة . 248
 ابن الفرات . 356
 ابن قيم الجوزية . 86 - 89 - 100 - 225
 . 465
 ابن قتيبة . 100 - 125
 ابن مسعود . 32- 57- 91- 92- 327- 91- 57- 32
 ابن ماجه . 125
 ابن مردویه . 123
 ابن المسيب . 76 - 91- 92- 124- 122- 344- 124- 122- 111- 159 - 158 - 122 - 100 - 11
 ابن هاشم . 8
 . 302- 200- 113
 ابن هانء . 471
 ابن وهب . 94
 ابن خلدون . 11 - 159 - 158 - 122 - 100
 - 403 - 357 - 245 - 244 - 179 - 178
 . 469 - 451 - 410
 أبو بردی بن أبي موسى الأشعري . 224
 أبو بکر بن عبد الرحمن . 70
- أغسطس . 35
 الأصابة . 39
 الأمدي . 80
 امرؤ القيس . 246
 أنسطاطیس (بيزنطي) . 35
 أنس بن مالك . 383- 80
 الاندلسيون . 275
 أنس بن النضر . 462
 الأنصار . 116 - 113 - 112 - 110 - 30
 - 167 - 166 - 165 - 120 - 119 - 118
 - 349 - 341 - 337 - 254 - 187 - 168
 . 462 - 461 - 427
 - 117 - 116 - 113 - 112 - 28
 الأوس . 26 - 26
 . 347 - 152
 الأوزاعي . 94
 أم كلثوم (بنت الرسول) . 387
 أم كلثوم (الطربة المعروفة) . 346
 أهل فدك . 255
 أهل بعلبك . 337
 أهل الذمة . 270
 أهل خيبر . 255
 أهل وادي القرى . 255
 أهل نجران . 256
 آل عبد المطلب . 199
 ابن الأعرابي . 157
 ابن الأثير . 11 - 38 - 111 - 125 - 198 - 202
 . 449
 ابن تيمية . 90 - 102- 100- 90
 ابن برهان . 87
 ابن جریر . 100
 ابن الجارود . 101
 ابن الجوزي . 101
 ابن جبیر . 107
 ابن أبي الحديدة . 186
 ابن حنفی . 267

- أبو القاسم بن خرد ذابة . 293
 أبو محمد عبد الله . 97
 أبو موسى الأشعري 139- 129
 . 225 - 211 - 210 - 145 - 144
 أبو مسلم الخراساني . 250
 أبو مارون العيدى . 58
 أبو مروان الغريض (المغنى) . 347
 أبو المأمون الحارثي . 51
 أبو نصر بن الهيثم . 251
 أبو نواس (الحسن بن هانئ) . 343 - 141 - 141
 أبو هريرة . 80
 أبو ولاد . 383
 أبو يوسف القاضي 92 - 100 - 92 - 176 - 274
 . 290 - 276
 أبو يعلى 11 - 174 - 11
 . أيوب . 9
 إيران أصبحت (القائد الأكبر) . 39
- ب
- الباقلاني . 149- 145
 الباجوري . 189
 بجير بن زهير . 162
 البحترى . 343
 البخارى 71 - 100 - 321
 . البغدادى . 125
 بشر بن الوليد . 101
 بشار بن برد . 139
 بشر بن المعتمر . 143
 بشير بن المفضل . 100
 البرامكة . 172 - 356
 . البريطى . 97
 بروكلمن (مستشرق) . 123
 . البزار . 101
 بكير بن أعين . 126
 البلاذري . 11 - 109 - 163
- أبو بكر بن عباس . 72
 أبو بكر القطبي . 101
 أبو بكر الصديق 19 - 29 - 112 - 113 - 119 - 117 - 116 - 115 - 114
 - 120 - 163 - 158 - 131 - 125 - 122 - 121
 - 187 - 186 - 170 - 168 - 167 - 166
 - 224 - 221 - 210 - 208 - 201 - 188
 - 287 - 282 - 261 - 257 - 247 - 225
 . 467 - 451 - 449 - 326 - 292
 . أبو ادريس . 237
 أبو الأسود الدؤلي . 400- 412 - 72
 أبو الحسن المنجد . 344
 أبو تمام (الشاعر) . 456
 أبو الحسن . 326
 أبو حنيفة . 32 - 91 - 82 - 81 - 76 - 92
 - 100 - 103 - 271 - 276 - 337
 . 409
 أبو أيوب الأنباري . 108
 أبو الحيم . 172
 أبو داود . 100
 أبو ذر الغفارى 71 - 107 - 108 - 115
 - 122 - 123 - 126 - 224 - 259
 . 298 - 260
 . أبو زيد . 42
 أبو سعيد الخدري . 80 - 327
 أبو سعد بن وهب . 255
 أبو صعب . 94
 أبو طفيل . 452
 أبو العباس . 171
 أبو عمر بن حماد . 244
 أبو عبيدة بن الجراح . 114 - 117 - 120
 . 186 - 208 - 247 - 257 - 341 - 350
 . أبو العلاء المعري . 42
 أبو لؤلة . 114 - 167
 أبو الفرج الأصفهاني . 72

- ج
- جابر حرث . 327
 - جابر بن عبد الله . 326 - 399 - 321 .
 - جرائيل 32 .
 - الجبرية . 148
 - الجبائي 139 - 142 - 143 - 144 - 145 .
 - الجبائية . 146
 - الامام جعفر الصادق 46 - 51 - 72 - 81 .
 - 102 - 103 - 101 - 104 - 106 .
 - 124 - 128 - 129 - 130 - 131 - 379 .
 - 384 - 385 - 386 - 409 - 410 - 417 .
 - 418 - 421 - 422 - 423 - 433 - 439 .
 - البياضة . 441
 - جعفر بن محمد . 32
 - جعفر بن يحيى البرمكي 172 - 175 - 176 .
 - الجعفري 76 - 90 - 101 .
 - جستنيان 34 - 36 .
 - جرين بن عبد الله . 210
 - جرون باون . 240
 - جمال الدين الأفغاني . 11
 - جميل بشينة . 344
 - جنادة بن أمية . 473
 - جندب بن جنادة . 118
 - جولدزهير . 122
 - الجهنم بن صفوان . 134
 - الجهشياري . 178
- ح
- الأحناف . 149
 - الحارث بن هشام . 70
 - الحافظ بن جعفر . 102
 - الخاطبية . 143
- ب
- بلال الحبشي . 344
 - بنو الأوس . 213
 - بنو تميم . 312
 - بنو الشطيبة . 218
 - بنو ثعلبة . 218
 - بنو حرث . 218
 - بنو الحسن . 474
 - بنو عامر . 200
 - بنو عوف . 218
 - بوران (بنت كسرى أبوريز) . 38
 - البوهرين . 173
 - البياضة . 46
 - البيزنطيون . 214
 - البيروفي . 340
 - البيهقي . 324
 - الشيخ بهي الخولي . 388
 - بيهس بن جابر . 130
 - البيهسية . 130
- ت
- الترمذى . 161
 - توماس باتريك (مستشرق) . 324
 - تونخ . 461
- ث
- ثابت بن قطنة . 134
 - التعالى . 249
 - ثعلب . 105
 - الثورى (صحابى) . 93
 - الشامامية . 143
 - ثمامه بن الأشرس النميري . 143
- ج
- الباحث . 345 - 342 - 209 - 142
 - الباحثية . 142
 - جابر بن حيان . 409

- خارجة بن زيد 29 .
الخزرج 26 - 117 - 116 - 112 - 152 - .
347
الحضرى 80-71 .
الخطيب البغدادى 161 .
الخليل بن أحمد 246 .
الخوارج 128 - 132 - 131 - 134 - 133 - .
140 - 148 - 160 - 475 - .
135
خولة بنت ثابت 347 .
الخطابية 143 .
خيثمة أبو سعد 461 .
د
داود «النبي» 9 - 45 - 303 - 351 - 452 .
ديلم الحميري 440 .
ذ
الذميون 27 - 334 - 337 - 270 - 53 .
الذهبي 101-102 .
ر
الرازي 452 .
الريبع بن سليمان المرادي 98 .
رسم (ابن فروخ هرمز) 38 .
الرشيد 92 - 177 - 176 - 172 - 96 - 356 - 342 - 295 - 290 - 237 - 216 .
الروم 34 - 222 - 256 - 271 - 357 .
الريان (شقيق الملك النعمان) 312 .
ز
الزبير بن العوام 19 - 128 - 140 - 188 - .
202
الزبير بن بكار 112-118 .
حامد بن العباس 249 .
الحاج خليفة 409 .
الحباب بن المنذر 116-156 .
حبابة (المغنية) 346 .
حبيب بن أبي ثابت الأسدى 71 .
المجاج بن يوسف 71 - 209 - 249 - 332 - .
353
الحسن البصري 75 - 134 - 135 - 136 - .
138 - 139 - 140 .
الحسن بن موسى التوبختي 135 .
الحسن النيسابوري 31 .
الحسن بن سهل 178-355 .
الحسن بن وهب 178 .
الحسن بن مخلد 239 .
الحسن بن علي 394-374 .
الامام الحسن بن علي بن أبي طالب 105 - 161 - 195 - 378 - 409 .
الامام الحسين بن علي بن أبي طالب 11 - 105 - 123 - 161 - 195 - 220 .
409 - 383 - 374 - 333 - 233
حسن ابراهيم حسن 11-248 .
حسين الحاج حسن (المؤلف) 2-13 .
حسان بن ثابت 125-126 .
أحمد بن حابط 143 .
الحمزة (عم النبي) 29-32 .
الحنابلة 147 - 149 - 263 - 226 .
الحنيني 76-90-100-149 .
الحنفي 90-91-92-96 .
الحواريون 7 .
خ
خالد بن سعيد بن العاص 118 .
خالد بن برمك 170 .
خالد بن الوليد 257-287 .
خديجة بنت خويلد 291 .

- سعدة (زوجة سليمان بن عبد الملك) . 346
- سعد (عامل الخليفة عمر بن الخطاب) . 352
- سعید بن هاشم . 458
- سفیان بن عبد الله الثقفی . 211
- السفاح . 172 - 171
- سفیان بن عینیه . 100
- سفیان الثوری . 72 - 107
- سلیمان النبی . 9
- سلمان الیحفوی . 9 - 328 - 326 - 322
- سلمیان الفارسی . 55 - 115 - 118 - 122 - 122
- سلمان بن یسار . 305 - 341 - 123
- سلمان بن حارثة . 70
- سلیمان بن عبد الملك . 72
- سلیمان بن داود . 100 - 345 - 350
- سلیمان بن عبد الملك . 103 - 346
- سلمة بن الأکوع . 321 - 327
- السنة . 200 - 144 - 19
- السورین . 294
- السیوطی . 94 - 125 - 175
- ش**
- الشافعی . 11 - 76 - 81
- . 83 - 98 - 99 - 100
- . 149 - 263 - الشافعیة
- . 228 - الشاطئی
- . 101 - شحداده
- . 189 - الشریفی
- . 225 - شریح الکندي
- . 38 - شهر براز
- الشهرستاني . 103 - 11 - 130 - 144
- . 109 - 130 - 144
- . 324 - الشوکانی
- 465 - الشیخ سلتوت
- الشیعة . 107 - 123 - 122 - 127 - 189 - 194
- . 195 - 200 - 352 - 19 - 160
- . 38 - شیرویه
- الزیر بن العوام . 113 - 115
- . 259 - 234 - 211 - 167
- زبیدة (زوجة الرشید) . 356
- الزرکشی . 30
- زرارة بن یسار . 126
- زرارة بن أعين . 409
- الزرقاء بنت عدی . 333
- زکریا بن إبراهیم . 385
- زکی مبارک . 97
- الزنوج . 55 - 56
- زهیر بن أبي سلمی . 162
- الزهیری . 71 - 93
- زید بن حارثة . 29 - 47
- زینب (إبنة عم النبي ﷺ) . 47
- زید بن الأرقام . 112
- زید بن علی زین العابدین . 127
- زیاد ابن أبيه . 171
- زید بن ثابت . 273 - 211 - 177
- السیدة زینب (بنت الإمام علی ع) . 332
- س**

- سامویل سمایلس (عالم مستشرق) . 388
- سابور (ملک فارس) . 298
- الساسانيون . 299
- . 471 - السبخي
- . 70 - 72 - 75 - سعید بن المسبیب
- . 70 - 71 - 71 - سعید بن جبیر
- . 101 - سعید بن السکن
- 116 - 113 - 112 - سعد بن عبادة الأنصاری
- . 117 - 165 - سعد بن ابی وقار
- . 135 - 161 - 167 - 188 - سعید بن ابی وقار
- . 202 - 257 - 258 - 259 - 467 - سعید بن جبیر
- . 327 - سعید بن جبیر
- . 305 - سعید بن ابی وقار

ص

- صالح بن منصور . 289
صحي الصالح 11 - 157 - 111- 37- 11 .
 عبد الله بن أبي رافع . 177
 عبد الله بن ثور . 210
 عبد الله بن أبي ربعة . 211
 عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) . 259
 عبد الله بن قيس . 470
 عبد الله بن صالح . 273
 عبد الله بن عباس . 326
 عبد الله بن الزبير . 331
 عبد الله بن جحش
 عبد الله بن سعد بن أبي سرج . 473 - 474 .
 عبد الله بن عبد الله . 70
 عبيدة بن الجراح . 113
 عبيد الله بن زياد . 352
 عبد الحسين شرف الدين . 71 - 98 .
 عبد الحارث المزاعي . 210
 عبد الرحيم الخياط . 143
 عبد الرحمن بن عوف . 46 - 112 - 167 .
 عبد الرحمن بن مهدي . 97
 عبد الرزاق الصنعاني . 100
 عبد الرحمن بن ملجم . 169
 عبد الرحمن الناصر . 470
 عبد العزيز الدوري . 11 - 123- 125 .
 عبد العزيز بن مسلم . 193
 عبد القاهر الجرجاني . 84
 عبد الملك بن مروان . 103 - 214 - 215 .
 عبد مناف . 119
 عبد الملك بن صالح . 175 - 176 .
 بنو عبد المطلب . 272 - 333 .
 عبد الوهاب خلاف . 44
 بنو العباس . 92

ط

- طاووس . 327
 طارق الجعفي . 440
الطبراني 11 - 38 - 197 - 117 - 38 .
 الطبراني . 125
 ابن طباطبا . 173
 طلحة 19 - 188 - 167 - 140 - 128 - 202 .
 طوسي 244 - 194 - 193 .
 الطولونيون . 294
 طويس (المغني) . 347

ع

- عائشة (زوجة الرسول ﷺ) 19 - 124 .
 عامر بن عمر الليثي . 71
 عبد الله المهدى الفاطمى . 474
 عبد الله بن قيس الحارثي . 473
 عبد الله بن مسعود . 71 - 321 - 265 .
 عبد الله بن محمد الحجازي . 100
 عبد الله بن مبارك . 103
 عبد الله ابن أبياض . 130
 عبد الله بن وهب . 131
 عبد الله بن جناب . 131 - 132
 عبد الله بن عمر . 135 - 203 - 327

- علقمة بن قيس 71 - 76 - 91
 على حيدر 84 .
 علي بن المديني 100
 علي بن إسماعيل التمار
 علي الإسواري 143 .
 العلاء بن الحضرمي 210 - 469 .
 علي بن عيسى 250 .
 الإمام علي الرضا (ع) 370 - 433 .
 عمر بن الخطاب 19 - 29 - 37 - 48 - 49 .
 71 - 110 - 112 - 113 - 114 .
 117 - 120 - 121 - 125 - 131 - 156 .
 163 - 167 - 170 - 177 - 186 .
 189 - 198 - 201 - 202 - 208 .
 210 - 213 - 214 - 221 - 225 .
 244 - 257 - 258 - 261 - 267 .
 274 - 282 - 288 - 321 - 326 .
 350 - 349 - 451 - 452 .
 عمر بن العاص 37 - 108 - 120 - 128 .
 129 - 211 - 470 .
 عمر بن دينار 71 .
 عمر بن عبد العزيز 103 - 237 - 269 - 283 .
 288 - 349 - 352 .
 عمران بن ياسر 108 - 115 - 118 - 123 .
 462 .
 عمر بن عبدة 135 .
 العمريه 140 .
 عمر بن عبيد 140 .
 عمر بن حرث 327 .
 العماني 342 .
 عمر بن أبي ربيعة 344 - 347 .
 عمارة بن الوليد 347 .
 عيسى «النبي» 7 - 9 - 452 .
 عيسى بن صبيح المزار 143 .
 عياض القاضي 94 .
- العباس بن عبد المطلب 118 - 119 - 120 - 122 - 186 - 282 - 349 .
 عباس محمد العقاد 328 .
 عتيك بن زوطة 91 .
 عتاب بن أسيد 208 - 210 .
 عثمان بن مرة الحلواني 351 .
 عثمان بن أبي وقاص 209 .
 عثمان بن أبي العاص 211 .
 عثمان بن قيس 225 .
 عثمان بن عفان 19 - 120 - 128 - 131 .
 134 - 135 - 163 - 167 - 168 - 170 .
 177 - 188 - 201 - 202 - 209 - 211 .
 221 - 228 - 258 - 259 - 260 - 261 .
 288 - 300 - 330 - 341 - 349 - 451 - 469 .
 473 - 479 - 480 - 481 - 482 - 483 - 484 .
 عروة بن مسعود 458 .
 عروة بن الزبير 70 .
 عكرمة بن خالد 71 .
 الإمام علي بن أبي طالب (ع) 11 - 19 - 29 .
 32 - 48 - 51 - 56 - 63 - 70 - 71 .
 82 - 99 - 102 - 105 - 111 - 112 - 113 .
 115 - 118 - 119 - 121 - 123 - 124 .
 125 - 126 - 128 - 129 - 130 - 131 .
 132 - 134 - 135 - 140 - 161 - 165 .
 167 - 168 - 170 - 172 - 177 - 188 .
 194 - 195 - 197 - 200 - 202 - 221 .
 227 - 232 - 234 - 244 - 260 - 261 .
 281 - 330 - 333 - 334 - 352 - 374 .
 394 - 409 - 411 - 412 - 422 - 433 .
 451 - 452 - 454 - 461 - 462 - 466 .
 471 - 479 - 480 - 481 - 482 - 483 .
 علي بن إسماعيل الأشعري 142 .
 الإمام علي زين العابدين 47 - 102 - 106 .
 384 - 409 - 413 .
- علقمة بن قيس 71 - 76 - 91 .

غ

- الغزالی 88 - 400 - 376 - 145 - 415 .
 غزیة 27 .
 غطفان 255 .
 غیلان الدمشقی 134 .
 غیلان بن سلمة 458 .

ف

- فاطمة الزهراء 46 - 119 - 161 .
 الفاطمیون 96 - 195 - 354 - 473 .
 الفارابی 192 .
 الفرس 37 - 208 - 171 - 170 - 165 - 214 - 208 - 171 - 170 - 165 - 453 - 358 - 340 - 222 - 215 - 456 .
 الفخری 173 .
 الفخر الرازی 321 .
 الفضل بن یحیی البرمکی 172 .
 الفضل بن سهل 172 - 178 .
 فروخ هرمز 38 .
 فون کریم 248 .

ق

- القاسم بن محمد بن أبي بکر 70 .
 القاسم بن أبي برده 71 .
 القادر (الخلیفة) 144 .
 القاسم بن سلام 269 .
 قاص بن أبي النشابین 305 .
 قباذ (فارسی) 35 .
 قنادة 71 .
 القرش 43 - 118 - 119 - 131 .
 القرامطة 128 .
 قریش 112 - 116 - 118 - 119 - 185 - 188 .
 قسطنطین الكبير 34 - 474 .

ك

- الکاظمی 80 .
 کعب بن زهیر 162 - 163 .
 کسری أنس شروان 35 - 163 - 288 .
 کسری أبرویز 35 - 37 - 38 - 40 - 41 - 39 .
 الکلینی 126 .
 کمیل بن زیاد النجفی 399 - 400 .
 کولد زهیر 74 .

ل

- اللیث بن سعد 86 .
 م
 المالکیة 149 - 263 .
 مالک الأشتر 19 - 170 - 225 - 281 - 423 .
 الماکنی 96 - 76 .
 مالک بن أنس 81 - 83 - 85 - 86 - 89 - 90 .
 ماکنی بلوك (طیب مستشرق) 328 .
 المؤمن (الخلیفة) 98 - 99 - 101 - 141 - 143 - 172 - 175 - 178 - 237 - 288 .
 . 304 - 433 .

- المنتسب بالله . 355
- المعتمد على الله (الخليفة) . 175
- المعز لذين الله . 471
- معاذ بن جبل . 210
- العميرية . 143
- عبد الجبّي . 327 - 134
- العتصم (الخليفة) . 101 - 216 - 356 - 453
- المفضل بن عمر . 106
- الإمام مسلم . 71 - 100 - 127 - 427
- المنبي . 390
- مصطففي عبد الرزاق . 75
- المرجئة . 19 - 132 - 134 - 135
- السعودي . 11 - 160 - 196 - 299 - 300
- مسلمة بن عبد الملك . 468
- الملحدة . 142
- الموكل . 356 - 337 - 143
- القريري . 95
- المقداد . 108 - 123 - 122 - 115 - 211
- المغيرة بن شعبة . 120 - 121 - 177
- النصرور (الخليفة) . 82 - 96 - 98 - 103
- القداد . 108 - 123 - 122 - 115 - 211 - 177 - 120 - 96 - 98 - 103
- منذر بن سعيد البلوطي . 96
- المقدّر . 249
- الموكل . 216
- المهدي . 240 - 237
- المهدي . 96 - 99 - 237 - 239 - 216 - 172 - 172 - 169 - 168 - 165 - 118 - 115 - 114 - 113 - 112 - 110 - 30 - 29 - 19 - 113
- المهاجرون . 29 - 30 - 29 - 219 - 187 - 462 - 461 - 349 - 219 - 187
- المكيون . 28
- الموابدة . 39
- المؤمن الأندلسي . 355
- محمد بن ادريس . 96 - 98 - 101
- محمد بن الحنفية . 170
- محمد تقي الحكيم . 327
- حمد الحاج حسن طبيب أخصائي . 405
- محمد الباقي (امام معصوم) . 72 - 102 - 106 - 409 - 124
- محمد حسين فضل الله . 11
- محمد رضى بهلوى (الشاه) . 40
- محمد أبو زهرة . 76 - 247
- محمد بن الحسن الشيباني . 93 - 94 - 95 - 96
- محمد بن عبد الله الاسكاف . 143
- محمد بن عباد . 143
- محمد بن كرام . 145
- محمد كردعلي . 107
- محمد بن عبد الملك الزيات . 178
- محمد حسين كاشف الغطاء . 428
- محمد بن مسلم . 409
- محمد بن مسلمة . 135
- محمد بن مسلم . 126
- محمد بن شبد الله العنان . 123
- محمد بن نوح . 101
- د. محمد. يوسف . 32
- الشيخ محمد مهاتي شمس الدين . 111 - 112 - 187 - 188 - 111
- الساوري . 11 - 158 - 158 - 173 - 175 - 177 - 479 - 288 - 237 - 336 - 189
- المدارية . 143
- مروان بن الحكم . 259
- مروان الحمار . 103
- مروان بن خسرو . 290 - 345 - 458
- خارق (المغنى) . 346
- المعزلة . 19 - 101 - 132 - 133 - 134 - 135
- 144 - 143 - 139 - 138 - 136 - 149 - 148

- الهادي 96 - 99 - 237
 بنو هاشم 46 - 115 - 114 - 113 - 118 - .
 . 272 - 186 - 168 - 165 - 120
 . 140 - .
 هرقل (القائد الكبير) 34 - 36 - 38 - 27 - .
 هشام بن عبد الملك 103 - 127 - 214 - .
 . 345 - 340 - 291 - 245 - 215
 هشام بن عمر القوصي 143 - .
 . 125 - .
 و
 الواقدي 113 - .
 واصل بن عطاء 134 - 135 - 136 - 138 - .
 . 140 - 139
 . 139 - .
 الواصلة 214 - 215 - 215 - .
 الوليد بن عبد الملك 71 - 103 - 214 - 215 - .
 . 352 - 349 - 350
 الوليد بن يزيد 103 - 300 - .
 وهب بن منبه 351 - .
 ي
 يامين بن عمير 255 - .
 يحيى بن يحيى 94 - 95 - .
 يحيى بن سعيد القطان 100 - .
 يحيى بن آدم 100 - .
 يحيى بن برمك 172 - 178 - .
 يحيى بن رؤبه 335 - .
 يحيى بن كثير 75 - .
 يعقوب النبي 9 - .
 اليعقوبي 31 - 32 - 72 - 101 - 122 - 128 - .
 . 130 - 260 - 282 - 464 - 477 - .
 37
 يعقوب بن إبراهيم الأنباري 92 - .
 يعلى بن أمية 210 - .
 يعلى بن منبه 211 - .
 مسلمة بن عبد الملك 456 - .
 المصريون 452 - .
 المظفري 452 - .
 موسى بن علي بن رياح 273 - .
 . 355 - .
 آل مروان 353 - .
 المورياني 171 - .
 موسى «النبي» 7 - 29 - 126 - 169 - 432 - .
 . 452 - .
 الإمام موسى الكاظم 127 - ن
 ناجي معروف 11 - .
 نافع 271 - .
 الناصر (الملك) 277 - 354 - .
 . 38 - .
 النبلاء المرازبة 255 - 152 - .
 بنو النضير 130 - .
 نجدة بن عامر الحنفي 130 - .
 النجدات 130 - .
 نجم الدين أيوب 471 - .
 نعمان 82 - .
 النصاري 53 - 256 - 271 - 336 - 337 - .
 . 369 - .
 النصرانية 133 - .
 نسيبة بنت كعبة المازنية 468 - .
 النظام 143 - .
 النظامية 141 - .
 النسائي 101 - 125 - 161 - .
 النوبخى 124 - .
 نوح 9 - .
 ه
 هارون النبي 9 - 29 - 126 - 198 - .
 هاشم معروف الحسني 11 - 125 - 133 - .
 الهاشمية 143 - .

- يُوسف . 376 - 375
- يُونس بن عبد الأعلى . 98
- اليهود 19 - 37 - 29 - 28 - 152 - 53 - 46
- 335 - 270 - 254 - 222 - 218 - 217
. 458 - 421 - 352
- بِرْزِيدَ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ 213 - 345 - 346 .
- بِرْزِجَرْدَ (إِبْنُ شَهْرِيَارَ) 38 .
- بِرْزِيدَ بْنُ مَعَاوِيَةَ 105 - 332 - 344 - 350 .
- بِرْزِيدَ بْنُ الْمَهْلَبِ 134 .
- الْيُونَانَ 331 - 362 - 456 .
- بُو حَنَّا (الْقَدِيسُ) 350 .

فهرس الأماكن ويشمل البلدان والمواقع واللغازي

ب

- البحر المتوسط . 22
- البحر الأسود . 296
- بحر قروين . 296
- 257 - 212 - 211 - 210 - 208 - 208 . 469
- البحرين . 469
- البرنس . 212
- البرتون . 108
- نجاري . 300
- بدر الكجرى . 254
- بابل . 289
- بعليبك . 336-108
- بحایة (في الأندلس) . 354
- 244 - 147 - 140 - 100 - 99 - 91 - 91 . 356
- بغداد . 294
- 293 - 292 - 289 - 251 - 250 . 339
- . 338 - 304 - 296
- البطائح . 290
- البليار . 212
- . 458
- البلقاء
- بلد (قرب الموصل) . 304
- بم . 299
- البصرة . 135
- 128 - 93 - 91 - 79 - 75 . 338
- 212 - 211 - 146 - 141 - 140 - 139 . 296
- . 287
- 469
- بيروت . 293-11
- بيزنطية . 168-34-18
- بيت المقدس . 29
- بين الذهرين . 212
- أذربيجان . 292-290-212
- أذرعات . 254
- أرمانيا . 300-292-212
- إسبانيا . 296
- آسيا . 296-293-212
- الإسكندرية . 294 - 293 - 250 - 249 - 37 . 302
- أسيوط . 300
- أسوان . 300
- أصفهان . 300-293
- ألمانيا . 389-318
- إفريقيا الشمالية . 34 - 35 - 73 - 257 - 212 - 212
- . 470 - 453
- افريقيا . 40 - 95 - 108 - 179 - 208 - 212
- . 296 - 294 - 299
- . 354 - 300 - 470
- اقريطش . 474
- أمريكا . 328-55
- الأندلس . 20 - 243 - 212 - 179 - 95 - 302
- . 353 - 343
- . 474 - 470 - 453
- إندونيسيا . 108
- إنكلترا . 328
- الامبراطورية الفارسية . 246-254
- الاهواز . 208-212
- آمد (في الأندلس) . 355
- أوروبا . 362-344-212-55-11
- . 292-214-344
- إيران . 474-296
- إيطاليا . 296

أ

- ت
- الحادية . 304
 - حران . 139
 - حضرموت . 210
 - حلب . 108
 - حلوان . 287
 - حصن . 271-211
 - حنين . 259-256
 - الحيرة . 352
 - تبوك . 256
 - تدمر . 304
 - تركيا . 108
 - تركتستان . 212
 - تكريت . 304
 - تنيس . 299
 - تونس . 470-354
 - تياء . 255

خ

- الخابور . 287
- خراسان - 34 - 212 - 208 - 92 - 75 - 38
- . 339 - 300 - 299 - 295
- ال الخليج الفارسي . 296
- الخندق . 468-458
- خولان . 210
- خوزستان . 299
- خيبر . 349-255

د

- 347 - 300 - 293 - 277 - 211 - 108
- . 468 - 458 - 359 - 353 - 352 - 351

ذ

- ذات الصواري . 474-470

ر

- الربذة . 260
- الرصافة . 241
- رمع . 210
- روسيا . 296-295-108
- الروم . 469-299-295
- روما . 361-354

ج

- جبل عامل . 108
- جزيرة العرب . 289-209
- جزائر أرخبيل الهند . 296
- الجزيرة (الشام) . 339
- جزيرة رودس . 471-470
- جزيرة الروضة . 470
- جزيرة قبرص . 471
- جزيرة كريت . 471
- جزيرة مالايا . 296
- جرش . 210-458
- الجندي . 211-210
- جنوة . 474
- جور . 302

ح

- الحبشة . 271 - 293 - 294
- الحجاز - 29 - 107 - 93 - 76 - 75 - 73 - 29
- . - 344 - 293 - 212 - 208 - 152 - 128
- 348
- الحدبية . 255

ز

زيبد 210 .
سamer (سر من رأي) 356 .
الساحل الافريقي 249 .
سبته 249 .

س

سجستان 208-304 .
سردينيا 212-474 .
السنند 212-295 .
سنجار 339 .
السوداد 239-287 .
السويس 294 .
. 328-389 .
السويد 296-389 .
سوريا 107-257 .

ش

الشام 20-34 .
ـ 107-92 .
ـ 75-70 .
ـ 35-211 .
ـ 169-135 .
ـ 124-293 .
ـ 292-291 .
ـ 260-257 .
ـ 212-452 .
ـ 359-353 .
ـ 348-332 .
ـ 295-473 .
ـ 470-469 .
ـ 462-461 .
شمسطار 13 .

شواطىء البلطيق 296 .

ص

الصحراء الافريقية 212 .
الصرفند 107 .
صفين 169-461 .
ـ 334-333 .
ـ 474-471 .
ـ 300-296 .
ـ 212-صقلية .
ـ 474-293 .
ـ 107-صور .
ـ 293-صيدا .
ـ 107-الصين .
ـ 292-296 .
ـ 295-294 .
ـ 293-302 .
. 343 .

ط

الطاائف 209 .
ـ 211-303 .
طبريا 302 .
. 299 .
طبرستان 208 .
. 293-302 .
طرابلس 249 .
ـ 339-طرطوس .

ع

عبدان 287 .
ـ 294 .
العراق 20-91 .
ـ 76-73 .
ـ 71-70 .
ـ 34-210 .
ـ 208-179 .
ـ 127-108 .
ـ 99-92 .
ـ 288-287 .
ـ 268-257 .
ـ 214-212 .
ـ 292-355 .
ـ 304-300 .
ـ 299-295 .
ـ 452 .
. 431-338 .
ـ العقيق 211 .
. 293 .
ـ عكا .
. 300 .
ـ العلاقى (مدينة في مصر) .
ـ 468-456 .
. 293-257 .
ـ 212 .
. 300 .
ـ عينذاب .

غ

غدير خم 161-199 .
ـ 165- غرناطة 354 .

ف

فارس 18-212 .
ـ 34-208 .
ـ 70-73 .
ـ 37-339 .
ـ 299-300 .
ـ 295-293 .
ـ 289-469 .
. 474-389 .
ـ 296 .
ـ 257 .
. 208-257 .
ـ 152 .
ـ 152 .
ـ 299 .
ـ الفيوم (مدينة في مصر) .

ق
المدينة المورة 18 - 25 - 26 - 27 - 28 - 30 .
- 68 - 70 - 75 - 76 - 81 .
- 85 - 86 - 91 - 107 - 125 - 128 .
- 152 - 153 - 154 - 165 - 209 - 254 .
- 260 - 299 - 336 - 349 - 350 .
مرو .
مرسية (الأندلس) 360 .
مصر 19 - 34 - 35 - 37 - 70 - 92 - 108 .
- 153 - 179 - 180 - 209 - 211 - 212 .
- 225 - 250 - 257 - 281 - 293 - 294 .
- 299 - 302 - 423 - 469 - 471 .
473 .
المغرب 470 .
مکران 208 .
مكة 25 - 30 - 32 - 68 - 73 - 75 .
- 81 - 91 - 125 - 152 - 162 - 165 - 200 .
- 210 - 211 - 254 - 255 - 292 - 293 .
الموصل 212 - 292 - 304 - 339 .
ن

نجران 210-256 .
نخلة (بين مكة والطائف) 458 .
نهروان 131 .
نينوى 39 .
نيسابور 299 .
نيوجرسي 328 .
نيويورك 328 .

هـ
هجر 300 .
هذا 40 .

ك
کابل 300 .
کاتای 296 .
کربلاء 378 .
کرمان 208 .
الکوفة 70 - 71 - 72 - 75 - 76 - 79 - 81 .
- 82 - 91 - 127 - 128 - 211 - 212 - 288 .
کرخ 292 .
لبنان 11-108 .

ل

مالطة 474 .
المن 108 .
المحيط الهندي 212 .
المحيط الأطلنطي 212 .
المدائن 40 .

وادي القرى 255 .
الولايات الاميركية 17 .
المند 108 - 295 - 294 - 293 - 292 - 212 .

. 302 - 300 - 296
هندکوش 300 .
هیت 300 .

ي

بئرب 153 - 152 - 30 - 29 - 26 .
اليمامة 75 .

اليمن 75 - 108 - 127 - 152 - 208 - 212 .
. 302 - 295 - 294 - 257

و

واشنطن 55 .
واسط 458 .

فهرس الموضوعات

الصفحة

الموضوع

الباب الأول معالم الحكومة الاسلامية

5	الاهداء
7	مقدمة
15	تمهيد
24	الفصل الأول : ضرورة وجود سلطة حاكمة
24	ضرورة وجود سلطة تنفيذية
25	نشأة حكومة الرسول في المدينة
29	أ - المؤاخاة بين المسلمين
29	ب - المودة مع اليهود
30	ما نزل من القرآن الكريم في المدينة المنورة
34	الفصل الثاني : لمحـة تاريخـية عن النظم الحضـارـية قبل الإسلام
34	تأثير حضـارة البيزنـطيـين والـفـرسـ على الـبـلـادـ العـرـبـيـة
34	نظم بـيزـنـطـيـة - لـمحـة عـن مـعـالـمـ الـدـوـلـةـ الـبـيـزـنـطـيـة
35	استـمرـارـ القـلـقـ وـالـحـرـوبـ فـيـ الدـوـلـةـ الـبـيـزـنـطـيـة
35	الـحـكـمـ الـبـيـزـنـطـيـ - الـضـرـائـبـ فـيـ الدـوـلـ الـبـيـزـنـطـيـةـ - الـاضـطـهـادـ الـدـينـي
37	نظم فـارـسـ
38	نـظـامـ الـحـكـمـ فـيـ الـإـمـپـراـطـورـيـةـ الـفـارـسـيـة
39	الـضـرـائـبـ فـيـ الدـوـلـةـ الـفـارـسـيـةـ - بـذـخـ وـانـكـسـارـ
42	الفـصـلـ الثـالـثـ : النـظـامـ السـيـاسـيـ لـلـحـكـمـةـ الـاسـلامـيـة
43	الـسـيـاسـةـ فـيـ الـلـغـةـ - السـيـاسـةـ فـيـ الـاـصـطـلاحـ
43	الـسـيـاسـةـ فـيـ الـاسـلامـ: تـعـرـيفـهـاـ - غـايـتـهـاـ - قـوـاعـدـهـاـ - مـقـيـاسـهـا
45	الـمـيـزـاتـ الـعـامـةـ لـلـحـكـمـةـ الـاسـلامـيـةـ - مـظـاهـرـهـا
45	1 - إـقـامـةـ الـعـدـل
49	2 - الـمـساـواـةـ : أ - الـمـساـواـةـ الـاجـتمـاعـيـةـ . ب - الـمـساـواـةـ أـمـامـ الـقـانـونـ
49	الـمـساـواـةـ فـيـ التـوـظـيفـ . ج - الـمـساـواـةـ فـيـ الـضـرـائـبـ

50	3 - الأخوة - حقوق الأخوة
52	4 - الحرية : الحرية في اللغة - الحرية في الاسلام - حرية العقيدة
	4 - حرية الرأي والتعبير - الحرية السياسية -
54	الحرية المدنية - الحرية الاقتصادية
55	5 - إلغاء التمايز العنصري
	6 - التعليم والأخلاق في الاسلام : إصلاح النفس - التقوى -
57	العفو - الصدق - الاصلاح بين الناس - التعاون - الآثار

باب الثاني

لحة عن الحركة الفقهية والشرعية في الاسلام

66	الفصل الأول : حاجة الأمة الى التشريع
70	بين عصر الصحابة وعصر المذاهب الفقهية
73	نشأة المذاهب الفقهية
77	الفصل الثاني : الفقه ومدارسه
77	1 - الكتاب - حجية القرآن
78	2 - السنة - حجية السنة
	3 - الإجماع
	4 - القياس - 5 - الاستحسان - 6 - العرف : العام والخاص
	7 - إجماع أهل المدينة - 8 - المصالح المرسلة : أ - الضروري . ب - الحاجي . ج - التحسيني
79	9 - فتح الزرائع وسدها
91	الفصل الثالث : المذاهب الفقهية
	1 - المذهب الحنفي . 2 - المذهب المالكي . 3 - المذهب الشافعي
	4 - المذهب الحنبلي . 5 - المذهب الجعفري
109	الفصل الرابع : بذور الخلاف ونشأة الفرق
109	كتاب النبي ﷺ في مرضه
110	تجهيز جيش أسامة
112	إجتماع السقيفة
	الأحزاب : أ - حزب الأنصار . ب - الحزب القرشي
115	ج - الحزب الهاشمي
122	الفصل الخامس : نشأة الفرق في الاسلام
	الشيعة - فرق الشيعة أ - الامامية - ب - الزيدية - ج - الاسماعيلية . د - الخوارج .
	المرجحة - فرق المرجحة : أ - اليونسية . ب - الغسانية . ج - الشاوية . د - الشوانية .
	هـ - المريمية

المعتزلة : مبادئ المعتزلة : التوحيد - القدر أو العدل . الوعد والوعيد - المزلة بين المزليتين - الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . فرق المعتزلة : أ - الواصلية - العمرية - المذهبية - النظامية - الجاحظية - الجبائية	
144	أهل السنة
الأشاعرة : أبرز آراء الأشعري : رؤية السعداء لربهم يوم القيمة - أفعال العبد مخلوقة - القرآن غير مخلوق . الأخذ في مسألة التوحيد . القبيح هو المنهى عنه فقط - صفات الله قديمة وزائدة على ذاته - مرتكب الكبيرة يعود أمره لله تعالى	145

الباب الثالث النظام السياسي

الفصل الأول : حكومة الرسول في المدينة	152
المدينة المنورة	152
كيف نشأت النظم الاسلامية	153
الأثر الذي تركته حكومة الرسول في المدينة : أ - الأثر الديني ب - الأثر السياسي . ج - الأثر الاجتماعي	154
الامارة : لغة واصطلاحاً	156
الامامة : لغة واصطلاحاً	157
الخلافة : لغة واصطلاحاً	158
شروط الخلافة - نظرية الخارج في الخلافة - نظرية المرجئة	159
نظرية المعتزلة - نظرية الشيعة - علامات الخلافة	160
أ - البردة . ب - الخاتم . ج - القضيب	165
الفصل الثاني : عصر الخلفاء الراشدين	166
خلافة أبي بكر الصديق	166
خلافة عمر بن الخطاب - مجلس الشورى	167
خلافة عثمان بن عفان - الفتنة الكبرى	168
خلافة علي بن أبي طالب	168
الوزارة - تاريخها - وزارة تنفيذ ووزارة تقويض	169
شروط تعيين وزير التنفيذ - وزارة التقويض - الفرق بين الوزارتين	174
الكتابة	177
الحجابة	178

الفصل الثالث : الخلافة والاستخلاف في الاسلام 181	شروط تعيين الامام عند أهل السنة 183
شروط تعيين الامام عند الشيعة : الامامة - العصمة - النص - نص الدار - حديث النزلة - حديث الولاية - استخلاف أبي بكر - استخلاف عمر - استخلاف عثمان 189	الاسلام دين الحياة والأحياء 203
الباب الرابع النظام الاداري	
الفصل الأول : لمحه تاريخية 208	
حكومة الأقاليم 209	
الامارة وأنواعها 213	
الدواوين في العصر الراشدي 213	
الدواوين في العصر الأموي 214	
لدواوين في العصر العباسي 215	
الفصل الثاني : الدستور الأول للحكومة الاسلامية 217	
طابع القضاء في الاسلام - استقرار قواعده 219	
المقياس الصحيح 220	
الفصل الثالث : القضاء 222	
القضاء 222	
السجن 224	
نص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مالك الأشتر 225	
صفات الحاكم في الاسلام : الإيمان بالله - الكفاءة وحسن الولاية - العدالة - التفوق في الادارة والدراءة السياسية - معرفة القانون والعمل به اجتهاداً أو تقليداً - الأخلاق الانسانية العالية - الحرية 230	
الفصل الرابع : ديوان المظالم 236	
صفات صاحب ديوان المظالم - هيئة ديوان المظالم - أعمال واiley المظالم والحالات التي ينظر فيها : أ - تعدي الولاية على الرعية . ب - جباية العمال مراقبة كتاب الدواوين - واختصاصات أخرى 237	
الفصل الخامس : الحسبة 242	
الحسبة والقضاء 242	

245	مهام المحاسب
.....	الشرطة
244	البريد : الغاية من البريد - البريد في العصر الأموي -
.....	في العصر العباسي
246	البريد الجوي : الحمام الزاجل - البريد بواسطة النار
249	البريد في الحروب
250	

الباب الخامس : النظام المالي

254	الفصل الأول : النظام المالي
.....	لحة تاريخية عن تكون الثروة المالية في الاسلام
254	واردات الدولة بعد العصر النبوى
257	

262	الفصل الثاني : أنواع الضرائب في الاسلام
.....	١ - الزكاة : أنواعها - استحقاقها - زكاة الأموال - زكاة النقود - زكاة الزروع - زكاة
.....	المواشي - زكاة المعدن والمركيان - بيت مال الزكوة
262	٢ - الخراج : نظام المقادمة - نظام الاقطاع : أ - موات . ب - عامر . حكم
267	الأرض الخراجية
269	٣ - الجزية : واجبات أهل الذمة في أمر الجزية
272	٤ - الغنيمة
273	٥ - الفيء
274	٦ - العشور والجمارك - حكم أرض العشور إذا اشتراها الذمي
276	٧ - الأوقاف : أ - أوقاف ذرية . ب - أوقاف خيرية
277	٨ - الكفارات
278	٩ - النذور والمعهود
.....	١٠ - ضرائب أخرى : التوظيف والضرائب حين الحاجة إليها -
278	نظام التوريث الاسلامي
280	السياسة المالية العادلة في الاسلام
282	مصارف بيت المال

الباب السادس : النظام الاقتصادي

287	الفصل الأول : اهتمام الاسلام بالحالة الاقتصادية
287	الزراعة
291	التجارة
295	أثر التجارة الاسلامية

297	الفصل الثاني : الصناعة
299	أ - الحرير . ب - القطن . ج - الكتان . د - الصوف
300	صناعة المواد المعدنية
300	أ - الذهب والفضة . ب - الحديد . ج - النحاس
301	صناعة الآلات الخشبية
301	صناعة الورق
302	صناعة العطور
302	صناعة الأدوية والآلات الطبية
303	صناعة الآلات الحريرية
304	صناعة الطواحين المائية والهوانية
304	الاسطرباب وعلم الفلك

الباب السابع : النظام الاجتماعي

308	الفصل الأول : التنظيم الاجتماعي في الاسلام
311	النظام الاجتماعي في الأسرة
312	أسباب الوأد عند العرب في الجاهلية
313	تكريم الاسلام للام
313	حقوق البنات
314	نظام الزواج في الاسلام
317	حقوق المرأة وواجباتها
317	حقوق الرجل وواجباته
317	تعدد الزوجات - ضرورات التعدد
319	النساء اللواتي يباح التزوج بهن
321	الفصل الثاني : الزواج المؤقت
320	مشروعه . أ - من القرآن . ب - من السنة . ج - من الاجماع . شروطه
322	الفارق بينه وبين الزواج الدائم - المتعة رحمة
330	حرية المرأة القانونية والمالية في الاسلام
333	شهامة المرأة المسلمة : خطبة السيدة زينب في مجلس يزيد حوار الزرقاء مع معاوية
335	الفصل الثالث : أهل الذمة
336	حقوق أهل الذمة - التمييز والعمل
337	الاعياد والمواسم

الاحتفال بالتوروز والمهرجان - الألعاب وأنواع التسلية	339
الملابس	340
مجالس العناء والطرب	344
الفصل الرابع : بناء المساجد	349
المسجد النبوي الشريف ، مسجد دمشق	
مسجد الكوفة	349
القصور	353
مباني الأمويين في الشام	353
في الأندلس - القصر الكبير - قصر الزهراء - قصر الحمراء	354
مباني العباسيين في العراق -	
قصر التاج وقصر الثريا دار الشجرة	355
الفنون الزخرفية وأثر الفن العربي في الفن الأوروبي	356

الباب الثامن : النظام التربوي في الاسلام

الفصل الأول : ضرورة التربية لتطور الحياة	364
أهداف التربية الاسلامية : أ - الهدف الروحي .	
ب - الهدف الاجتماعي . ج - الهدف المادي	366
تطور التربية	368
قانون الوراثة في الاسلام	369
أ - التعرف على المرأة قبل الزواج . ب - تعرف المرأة على الرجل	
قبل الزواج - الخيار لكل من الزوجين في فسخ عقد الزوج	370
الفصل الثاني : الاسرة في الاسلام	372
مسؤوليات الأب وواجباته	374
مسؤوليات الأم وواجباتها	380
واجبات الأبناء	383
الروابط بين الوالدين	385
الفصل الثالث : الاسرة في العصور الحديثة	387
أ - انخفاض نسبة الزواج	388
ب - الميوعة والتحلل الأخلاقي	390
ج - عقوق الأبناء	390
د - الشذوذ الجنسي	391
البيئة وأثرها في التربية: أ - الطبيعية . ب - الاجتماعية	392
الاسلام والبيئة الاجتماعية	393

397	الفصل الرابع : التخطيط التربوي الاسلامي
397	فضائل العلم
402	العلم الذي يدعو إليه الاسلام
402	أ - دعوة الاسلام الى تعلم العلوم الطبيعية
403	ب - دعوة الاسلام الى تعلم علم الاجتماع والتاريخ
404	ج - دعوة الاسلام الى تعلم علم النفس
404	د - دعوة الاسلام الى تعلم علم البيولوجيا
408	هـ - دعوة الاسلام الى تعلم علم الفلك
	أجرة المعلمين - تحديد سن التعليم - المعلم في الاسلام
409	قدوة حسنة - آداب المعلم - حقوق المعلم
417	الفصل الخامس : التربية المهنية في الاسلام
	أ - إتقان العمل . ب - الابتعاد عن الغش . ج - الابتعاد عن الأعمال المحرمة . د -
	القوس والخزم . هـ - التخصص المهني - و - المحافظة على مصادر الشروء وأدوات
417	الإنتاج
420	الفصل السادس : التربية الاجتماعية في الاسلام
	التراحم والتعاطف - السعي في قضاء حوائج الناس - التزاور الاغاثة والمواساة -
420	الأخوة في الاسلام - التسامح والتساهيل - الأخلاق - توعية المسلم
426	الفصل السابع : التربية الرياضية في الاسلام
426	السباق - الرماية - الصيد
427	الرياضية الجسدية والروحية أ - الصلاة . ب - الصيام
430	الاعتدال في الرياضة
431	الحج
432	الفصل الثامن : التربية الصحية في الاسلام
	التشريعات الوقائية: أ - النظافة . ب - الوضوء . ج - الاستحمام
435	د - تنظيف الاسنان . هـ - نظافة الثياب . و - الاستئناء
	المأكل والمشرب : أ - الميالة . ب - تحريم الدم . ج - تحريم لحم الخنزير .
	د - تحريم الخمور
439	أضرار الخمور : أ - على المعدة . ب - على النسل
441	وسائل مكافحة الخمور
	منهج التغذية في الاسلام : أ - الاعتدال في الطعام
442	ب - مضغ الطعام . ج - العسل

444	الحجر الصحي
444	تحريم وطء الحائض
445	نجاسة الكلب
 الباب التاسع النظام العسكري 	
448	الفصل الأول : الجيش : التطوع الاختياري
450	شروط التعيين في الجيش - قيادة الجيش
451	الطابور الخامس - رواتب القادة والجنود
452	التجنيد الالزامي
454	الفصل الثاني : أسلحة الجيش
454	الدرع - السيف - الرمح - الترس - القوس - النشاب - الدبابة
457	طرق القتال - عمليات الحصار - سلم الحصار
458	الحسك الشائك
460	حفر الخنادق - الحاسوبية - حرب الأعصاب - كلمة السر عند المحاربين
461	الفدائيون
463	الفصل الثالث : الحرب في الشريعة الاسلامية
465	سمو الاسلام في حربه
466	وصايا أمراء الجيوش الاسلامية
468	دور المرأة المسلمة في المعركة
469	الفصل الرابع : الاسطول البحري
472	أنواع السفن ومعداتها: طرق الرقاية
473	قيادة الاسطول البحري - أثر الاساطيل في الفتوحات الاسلامية
475	الفصل الخامس : منهج الاسلام في الحروب
476	حرب المنحرفين عن الاسلام - حرب المرتدين - حرب العصابات المخربة - حرب
477	المعاهدين إذا نقضوا عهدهم - الحرب الجهادية
478	الوطن الاسلامي : دار الاسلام - دار الحرب

المؤلف في سطور

هو حسين ابراهيم الحاج حسن من مواليد شمسطار 1933 م .

حصل على الثانوية العامة 1961 م ودخل الجامعة اللبنانية كلية الآداب 1962 فحصل على الإجازة التعليمية في الأدب العربي 1964 م . وفي الوقت نفسه حصل على إجازة أخرى في التربية من دار المعلمين العليا في بيروت . إنقطع عن التحصيل العلمي مدة ثلاثة سنوات لأسباب صحية وعائلية . تسجل في الجامعة اللبنانية 1967 م في قسم الماجستير فناها عام 1969 م وكانت أطروحته بعنوان « الاسطورة عند العرب في الجاهلية » ، بإشراف رئيس الجامعة اللبنانية الدكتور فؤاد البستاني .

دخل معهد الآداب الشرقية في الجامعة اليسوعية 1970 م في قسم الدكتوراه فحصل عليها عام 1975 م وكان عنوان الأطروحة « نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراسة » .

دخل سلك التعليم الابتدائي منذ عام 1954 م فأمضى خمس سنوات فيه ثم انتقل إلى التعليم التكميلي فاستمر عشر سنوات . عين مدير مدرسة التكميلية الرسمية في إحدى ضواحي بيروت (الغييري) مدة ستان . ثم انتقل إلى التعليم الثانوي فأمضى خمس سنوات .

الآن يشغل منصب استاذ جامعي متفرغ في الجامعة اللبنانية منذ سنة 1978 وما زال يدرس الأدب العربي والحضارة العربية في كلية الآداب . الفرع الرابع .

صدر للمؤلف

- 1 - علم الاجتماع الأدبي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت 1983 بيروت طبعة أولى .
- 2 - أدب العرب في عصر الجاهلية المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ، 1984 بيروت طبعة أولى .
- 3 - حضارة العرب في عصر الجاهلية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ، 1984 بيروت طبعة أولى .
- 4 - أعلام في العصر العباسي ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ، 1985 بيروت طبعة أولى .
- 5 - نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدرایة « مؤسسة الوفاء » 1985 بيروت طبعة أولى .
- 6 - النظم الاسلامية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ، 1986 بيروت طبعة أولى .

1987 / 1 / 251

هذا الكتاب

وهذا مؤلف خامس أصر التور في دارسا «المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر» والتوزيع للدكتور حسين الحاج حسين نظم إسلامية، تناول فيه المؤلف ما أعلمه، الإسلام من نظم إنسانية شاملة متطورة تناسب مع كل جيل يشند الحياة العادلة المستقرة، وما فييز به الدين الحنيف التوسط العادل بين مطالب الرفوح وطالب الحسد، وهذا التوسط بين الروحانية المنظرية والمادية المعاشرة أمر تستدعي المجتمعات السعيدة المأهولة، وما تقبله الفطرة الإنسانية.

أن الدين الإسلامي مكملاً للشرعاني والأدبيان التي جاء بها السيرين قبله فأرجو الله عز وجل إلى الرسول الأعظم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاتم النبیین والرسول ليشرِّع الإسلام ويخرج الناس من الظلمات إلى النور من الظلم والخوار إلى الصراط المستقيم.

والإسلام هو من المنظرة، دين الحياة والأحياء الطغوت تعاليه وتشريعاته عمل مادي، جوهرية في البال الاجتماعي والإنسان العظيم، فقد عمل في التشريع الديني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والسيروي والمعكروي معالجاً جميع المشكلات الاجتماعية والحضارية وواضحاً لكل واحدة منها العمل الشامل الناجح لاسعاد البشر أجمعين، «ومَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَذَّالَةً لِلنَّاسِ شِيرًا وَنُذِيرًا».

وحققة هامة في الدين الإسلامي لا بد من ذكرها وهي أنه توصل إلى هذه النتائج بتوفيق العنصر الأخلاقي في نفس الإنسان، فالإسلام ومكارم الأخلاق صنوان أساسان لا يفترقان، كما حث على تحصيل العلم وكتب المعرفة الأساسية من ذهبية وعلمية وفلسفية في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلقه تزيل كثير من رب العالمين.

تأمل لهذا الكتاب التوفيق والنجاح وبلوغه العالمية العلمية الإنسانية التي يرمي إليها،
والله وفي التوفيق

التالى